من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية



تأليف المستشرق الألماني

الألف كتاب (١٣٦)

تاريخ الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

الألف كتاب (١٣٦)

تاريخ الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

تأليف المستشرق الألماني

يوليوس ڤلهوزن

نقله من الألمانية وعلق عليه

دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة

بجامعة القاهرة والجامعة الليبية

راجع الترجمة

دكتور حسين مؤنس

بجامعة القاهرة والمعهد المصري بمدريد

نشرته

لجنة التأليف والترجمة والنشر

القاهرة سنة ١٩٦٨

هذه ترجمة كتاب :

Das Arabische Reich und sein Sturz

تأليف

von

Julius Wellhausen

الطبعة الثانية

١٩٦٨

محتويات الكتاب

كلمة عن مؤلف الكتاب

يوليوس فِلْهَوْزِن : عالمٌ ألمانيٌّ مبرِّز فى ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدّس ، بقسميه القديم والجديد ، وباحثٌ محقق فى ميدان التاريخ العربى .

ولد فى مدينة هاملن ، على نهر الثايزر (وستفاليا) فى ١٧ مايو ١٨٤٤ ، ودرس اللاّهوت فى مدينة جوتينجن ، وفى هذه المدينة نفسها ، بدأ حياته الأكاديمية فى سنة ١٨٧٠ ، مدرساً فى ميدان تاريخ العهد القديم ، وفى سنة ١٨٧٢ صار أستاذاً للاّهوت فى جامعة جرايفسفالد ، لكنه استقال من هذه الوظيفة فى سنة ١٨٨٢ ، بعد عشر سنين من البحث والتفكير فى العهد القديم ، تبين له فى أثنائها ، أنه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره أن يظل متمسكا بفكرة أن الكتاب المقدس وحى إلهى . فصار أستاذاً للغات الشرقية فى مدينة هالّه ، ثم انتقل فى سنة ١٨٨٥ إلى جامعة ماربورج ، وفى سنة ١٨٩٢ إلى جامعة جوتينجن ، وتوفى فى ٧ يناير ١٩١٨ .

وترجع شهرة فلهوزن إلى دراساته النقدية فى ميدان دراسات العهد القديم وتاريخه . وهو قد كان مفكراً متحرراً ، يعتد بالعقل ويعنى فى دراساته بالنقد . وقد نظر فى الكتاب المقدّس خصوصاً الأسفار الأولى من العهد القديم ، متبعاً منهج النقد العلمى ، ودَرَسَهُ كما يدرس النص ، فوجد أنه تنقصه الوحدة والانسجام ، سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة ، فلا يمكن أن تكون نسبته إلى من يُنسب إليهم صحيحة ، أى أنه ليس وحيا إلهيا أصيلا ، بل كتبه الناس . وبهذا وصل فلهوزن بالنقد إلى نهـــايته ، وفتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس . ورغم أنه قد عاداه وعارضه كثيرٌ من علماء وشرّاح الكتاب المقدس ، فإنه قد تبين ما فى رأيه وطريقته من الصواب ، وعدل علماء

الكتاب المقدّس عن التطرف فى التمسك بالفكرة القديمة وميّزوا بين المعنى والفكرة باعتبارهما الوحى ، وبين اللفظ والعبارة باعتبارهما للبشر .

ولما لم يستطع ڤلهوزن أن يظل أستاذاً للاّهوت ، تحول من الميدان الذى بدأ حياته بالتخصص فيه ، إلى ميدان الدراسات العربية ، فعنى بدراسة الوثنية العربية فى كتاب قيّم عنوانه : « بقايا الوثنية العربية »[1] ، واعتمد فيه خصوصاً على ما كان معروفاً فى ذلك الوقت من مقتطفات كتاب الأصنام لابن الكلبى ، لكنه رجع أيضاً إلى مراجع كثيرة ، مكنته من جمع مادة غزيرة متنوعة فى الميدان الذى أراد توضيحه ؛ وعنى بدراسة الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية ، فترجم كتاب المغازى للواقدى بعنوان : « محمد (عليه السلام) فى المدينة »[1] ، ونشر بعض أشعار الهذليين ، وعمل دراسات أخرى كثيرة ، واهتم خصوصاً بتاريخ الدولة العربية ، فأثمر اجتهادُه الكبير هـذا الكتاب العظيم الذى ننشره فى مصر بالعربية ليكون فى متناول المحصّلين والباحثين العرب ، بعد أن ظل زمانا طويلاً فى أصله الألمانى وترجمته الإنجليزية ، مرجعاً أساسياً فى تاريخ صدر الإسلام عند الأوروبيين .

برهن ڤلهوزن ، بهذا الكتاب ، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز . وقد أشاد العلماء بموهبته فى كتابة التاريخ . والحقّ أن هذا العالم الألمانى الفذ ، ظهر فى ميدان تاريخ العرب مؤرخاً من نوع نادر وجديد ، فلقد كتب كثيرٌ من العلماء الأوروبيين فى تاريخ صدر الإسلام ، أعنى تاريخ الفترة التى انتهت بسقوط دولة بنى أمية ، لكن ڤلهوزن فاقهم جميعاً من وجوه كثيرة .

فهو بدلاً من أن يعتمد على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه ، رجع إلى

Muhammad in Medina (٢) Reste Arabischen Heidentums (١)

المصادر العربية الأصلية ، فقرأها قراءةً شاملةً وتمثل مادتها تمثلاً كاملا ؛ وهذا بالنسبة للمؤرخ ، كما لاحظ المستشرق الألمانى بكّر (C. H Becker) هو الطريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن .

وهو قد استقبل البحث من غير تعصب ، وخصوصاً من غير مجموعة الأفكار التى يقبلها بعض الباحثين مقدماً ، فتفسد عليهم تصوُّر الوقائع وفهمها ، وتقديرها التقدير الصحيح ، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص ، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها فى إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده ، كما فعل بعض من كتب فى تاريخ العرب وتاريخ الإسلام من المستشرقين . لكن ليس معنى هذا أن ڤلهوزن أخذ النصوص على علاتها ، بل هو انتفع بها فى كثير من التحليل والنقد ، وهو فى الكلمة التى مهَّد بها لكتابه ، قد وَصَفَ الروايات التاريخية العربية فى شخص ممثليها الكبار وأبان عن طريقته ، ثم جرى فى ثنايا كتابه على منهج النقد للروايات ، واختيار ما يطمئن إليه المؤرخ الحريص على الحكم الصحيح .

ومما امتاز به ڤلهوزن على أسلافه من المؤرخين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذين كتبوا عن الدولة العربية ، أنه إلى جانب اعتماده على المراجع العربية ، رجع إلى مراجع غير عربية معاصرة للحوادث التى تناولها والأشخاص الذين تعرض لهم ، مثل كتاب تيوفانيس المؤرخ البوزنطى ، وكتاب الصلة لتاريخ ايزيدور ، وبعض ما كتبه المؤرخون السريان .

وهو وإن كان غير مولع بالنقد فإنه قد اضطر إلى نقد بعض أسلافه من المؤرخين الأوروبيين ، أمثال دوزى ، وفون كريمر ، وا . مولّر . ولو نظرنا فيما خالفهم فيه ، لتبين لنا الفرق واضحا بين روحه وروحهم ، وطريقته وطريقتهم .

كان ڤلهوزن عالما يتمسك بروح البحث العلمى ويعتد بالوقائع ، وإذا كان بعضٌ من شاركه فى ميدان البحث قد جرى أحياناً وراء الخيال ، أو عمد إلى

التهويل بالألفاظ والأساليب المنمقة ، فإنه هو لم يلجأ إلى شيء من هذا الذى قد يحاول به البعض أن يستروا ما فى علمهم من فجوات .

لقد أشار العالم الألمانى ك . ه . بكّر — فى كلامه[1] عن ڤلهوزن — إلى هذا الذى ذكرناه ، وزاد على هذا بأن عقد مقارنة قصيرة بين ڤلهوزن فى كتابه عن الدولة العربية (الدولة الأموية) ، وبين الراهب اليسوعى ه . لامانس فى كتاباته عن العصر الأموى ، ولاحظ بحق أن لامانس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه ڤلهوزن : فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من « الفيشات » ، أما كتاب ڤلهوزن فهو بناء ضخم ؛ ولامانس يلوّن شخصياته التى تكلم عنها جزءاً جزءاً ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح ، أما ڤلهوزن فهو يزهد فى جمع القطع الملونة الأخّاذة ، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل .

والحق أن ڤلهوزن فى كتابه الذى نقدمه اليوم لقراء العربية ، قد جمع بين الجد العلمى والعمق والعدالة ، إذا قورن بغيره ، وهو كما لاحظ بكر ، قد جمع بين روح العالم وموضوعيته ، وبين روح الفنان وذاتيته . وهو يقرأ المراجع ويستوعبها استيعاباً تاماً ، ويدرك جلّها بحدس عجيب ، وهو من أبرع من عرفت فى الاختصار الذى يلم بجوهر الموضوع ، وهو يكتب مستوحياً حدسه الكلى وسط المادة التى جمعها ، وهو بارع أيضاً فى تصوير الأشخاص تصويراً دقيقاً لا يخلو من طرافة .

كان ڤلهوزن طويل النفَس فى بحثه ، يسير بيانُه للحوادث كما يسير النهر الكبير ، وأنت تحس تمام الإحساس ، وهو يأخذك معه أخذاً قوياً ، أنه حين يصل إلى نهاية النقطة التى يعالجها ، لا يكون قد بقى شيءٌ تشعر أنه غير موجودٌ ، وهذا صحيح ، سواء فيما يتعلق بوصف الحوادث أو بتصوير الأشخاص .

المترجم

محمد عبد الهادى أبو ريدة

---

(١) فى الجزء الثانى من كتابه Islamstudien ، ص ٤٧٤ فما بعدها .

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين — وبعد :

فهذا كتاب فى تاريخ دولة العرب ، من لدن ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بنى أمية وقيام أسرة بنى العباس فى المشرق ، فهو يشمل ما يقرب من قرن ونصف من تاريخ العرب ، وهذه هى فترة مجدهم الخالد ، وفترة التجربة الكبرى فى تاريخهم .

بيّن المؤلف فى هذه الفترة كيف قامت دولة العرب العالمية على أساس الدين وقوة الإيمان به ، وعلى أساس قوة الجنس العربى وخصائصه وصفاته ، وكيف خالف ساسة العرب تلك المبادئ الاجتماعية والتنظيمية التى جاء بها الإسلام ، خصوصاً مبدأ المساواة بين المسلمين ، وكيف لم يستطيعوا التخلص من سلطان الانقسام القبلى والعصبية والقبلية ، فتنازعوا ، ثم خرج منهم قوم على دولتهم ، واغتنم أعداؤهم الفرصة فضربوا بعضهم ببعض ، وأسقطوا تلك الدولة العتيدة التى كان يمتد سلطانها من داخل أرض الصين فى المشرق ، إلى الجنوب الغربى من فرنسا فى المغرب .

على أنه رغم سقوط هذه الدولة لأسباب كثيرة بعضها ما ذكرناه فإن عهدها كان عهد تجربة تاريخية كاملة :

فى تلك الفترة ظهر العرب بوصفهم أمة ، عماداً لدولة عالمية من الناحية الحربية

والإدارية ، واستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة ، وبطولتهم الفائقة ، وتضحياتهم الهائلة فى ميادين القتال المترامية ، أن يفتحوا الدنيا وأن يقهروا الأمم واستطاعوا بفضل مواهبهم الممتازة وهدى دينهم القويم ، أن يؤسسوا إمبراطورية عالمية تكونت لها شخصيتها المتميزة ، ونظامها السياسى والإدارى والاقتصادى ؛ وتحقق ذلك كله على يد خلفاء سياسيين ، وقادة عسكريين ، وحكام إداريين جديرين جميعاً بأن يدخلوا فى التاريخ العالمى ، ويتبوءوا أرفع مكان فيه ، وفى هذه الفترة نشر العرب دينهم وأسسوا الحواضر التى صارت حواضر الحيـــاة الفكرية والدينية ، دون أن يحاولوا القضاء على دين أو استئصال أمة .

فى هذه الفترة نجد التجربة كاملة فيما يتعلق بجميع مظاهر حياة الدولة : كيف تنشأ وتقوى على أساس مبادئ إن خالفتها لم تستطع البقاء ، وكيف تضطر اضطراراً إلى الخضوع للمقتضيات التى لا بد من مراعاتها إذا أرادت المحافظة على قوتها ، وكيف تقع الفتن والثورات والحروب الداخلية بسبب قوة العناصر وضرورة الصراع بينها ، وكيف يكون النجاح والفشل ، ويظهر الشر والنقص ، وتتجلى الخصال العالية ، وتتبين الأبصار السليمة كوامن الأخطار المؤدية إلى الانهيار ، فلا يمكن تفاديها ، وتنفذ القوانين التى تحكم حياة الدول . . . وهكذا .

لا شك فى أن الكفاح من مظاهر الحياة على هذه الأرض بإطلاق معنى الحياة ، وهو ظاهرة جوهرية فى الحياة البشرية وحياة الإمبراطوريات الكبرى ، وهو فى الإمبراطورية العربية الأولى ، قد كان بين الفكرة العليا وواقع الحياة الناقصة ، بين فكرة الدولة الدينية وواقع الدولة المدنيوية ، بين النعرات والمشاعر الخاصة وسلطة الدولة ، بين المصالح والاعتبارات القبلية أو الفردية ومقتضيات الواجبات العامة والاجتماعية ، بين القومية العربية والقوميات غير العربية التى اشتملت عليها الإمبراطورية . فلا غرابة أن يشتمل تاريخ الإمبراطورية العربية

على كثير من ضروب الفتن والمنازعات والثورات ، ومن ضروب الصراع الفردى والقبلى والإقليمى وصراع الأجناس والقوميات .

ولكن كان لدولة العرب أعداء حاولوا الكيد لها من أول الأمر ، وتلبسوا لذلك بكل صورة ، واغتنموا له كل فرصة سانحة . وأشنع ما فى الأمر أنهم استغلوا المواقف التى ما كانت تحتاج إلا إلى الإصلاح ، فجعلوها سبيلا للثورة وسفك الدماء . واستغلوا الروح القبلية وما يترتب عليها من إحساسات ، فجعلوا منها وسيلة لتفريق كلمة العرب وصدع وحدتهم ، حتى تعذر عليهم الاتحاد ، وأظهروا العطف على من حسبوا أنفسهم مظلومين ، فانضووا تحت لوائهم بغية ضرب عناصر الدولة بعضها ببعض : وكانت هذه بالإجمال هى الصورة التى عليها سقطت إمبراطورية العرب الأولى ممثلة فى دولة بنى أمية فى المشرق الإسلامى ، وقامت على أنقاض مجدها السياسى والحربى العظيم دولة بنى العباس ، غير معتمدة بالعرب ، بل بجند من الأعاجم صاروا مع مرور الأيام عماد الدولة ، وأصحاب الأمر فيها وفى الخلفاء أنفسهم .

لا شك أن فى دراسة التاريخ وتأمله عظة وعبرة ، والعظة من تأمل تاريخ دولة بنى أمية يجب أن تكون كاملة وبالغة ، لأن التجربة أو المحنة التى مرت بها هذه الدولة كانت كاملة أيضاً .

إن العرب أمة ، أراد الله لهم أن يكونوا وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وهم أيضاً أمة ، قد وُضعت على كاهلهم رسالة ، هى رسالة الإيمان بالله الحق وبكرامة الإنسان الذى كرمه الله ، واستخلفه فى الأرض ليعمرها بالحق والعدل والخير والرحمة . وهم لكى ينهضوا بهذه الرسالة ، لابد لهم من أن يحافظوا على كيانهم وقوتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاعتصام بحبل الاتحاد والتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . والسبب فى ضرورة هذا الاتحاد أن رسالة العرب لم ترق من أول الأمر — ولا تروق حتى اليوم — لكثيرين من الخلق ممن

يكره العدل والحق ، فعادوا العرب من حيث هم أمة ، ومن حيث هم دولة ، ودأبوا على محاولة كسر شوكتهم بتفريق كلمتهم وإشعال نار الفتنة بينهم . وإذا كان أحد أصحاب النظر الصائب البعيد والإحساس العربي العميق[1] ، في أواخر أيام بني أمية ، لما تكشف الخطر الداهم من جانب أعداء العرب ، وأفلح هؤلاء في صدع بناء الوحدة العربية ، قد قال هذه الأبيات :

أبلغ ربيعـــة في مرو وإخوتها	أن يغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضبُ
ما بالكم تُلْقِحون الحربَ بينكمُ	كأن أهل الحجى عن فعلكم غُيُبُ
وتتركون عـــدوًّا قد أظلّكمُ	ممن تأشّب لا دينٌ ولا حسبُ
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم	ولا صميم الموالى ، إنْ همُ نُسِبوا
قومٌ يدينـــون ديناً ما سمعتُ به	عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم	فإن دينَهم أن تُقْتَل العــربُ

فإن فكرة هذه الأبيات ستظل — ولا بد أن تظل — أمام عقل العرب وأمام أبصارهم ، ما داموا يريدون المحافظة على كيانهم كأمة ، وما داموا يحرصون على تحقيق رسالتهم في التاريخ ، وسط الصراع بين الأمم ونظم الحياة والمثل العليا الروحية والإنسانية التي يتمسك بها الناس ، وما على العرب إلاّ الأخذ بأسباب الإصلاح الذي يجعلهم منطقيين مع أنفسهم ، وعلى وفاق مع أساس شأنهم التاريخي ، ومع طبيعتهم وخصالهم وفضائلهم ومثلهم العليا المميزة لهم .

* * *

إن هذا الكتاب ، الذي يبين لنا كل ما تقدم ، هو من تأليف عالم أوروبي جليل اعتمد كل الاعتماد على المراجع العربية ، وهو في بيانه للمسائل قد تابع هذه المراجع متابعة دقيقة ، ونقل نصوصاً طويلة أو قصيرة ولخصها ، وفي بعض الأحيان

---

(١) هو نصر بن سيار حاكم خراسان من قبل بني أمية .

فهم النصوص فهماً إجمالياً ، محيطاً بجوهر الموضوع ، ثم عبر بعبارة ألمانية موجزة وبحسب طريقة الألمان فى التصور والتعبير . وقد يخيل للقارئ أحياناً أن تفكيره شخصى ، لكنه فى الحقيقة يتضمن المعنى العربى : ولذلك لم يكن بدٌّ عند الترجمة من الرجوع إلى المصادر العربية فى كل شىء ، ومن إعادة الكلام إلى وضعه الأصلى المباشر ، ومن اختيار العبارة فى ضوء النصوص الأصلية . وكل ترجمة لهذا الكتاب لا تتابع النصوص أوْ لا تستنطقها وتستوحيها — كما فعل المؤلف نفسه فى بيانه للمسائل — لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة والواقع التعبير الصحيح ، بل ربما أدت إلى تحريف أو خطأ أو كانت غير مفهومة أصلا .

وأيضاً قد عمد المؤلف فى بعض المواضع من كلامه إلى الإيجاز الشديد ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك مراعاة للقارئ غير العربى الذى قد لا يحتاج فى بعض الأحيان إلى التفصيل ولا إلى تصور الموقف كله ، أو هو قد لا يسهل عليه تصوره ، ومن أجل هذا كان لابد للمترجم فى مواضع معينة ، ومن مراعاة القارئ العربى بذكر الشيء مفصلا بالقدر الذى لابد منه ، لكى تتكون فى ذهنه الصورة الكاملة الواضحة للحوادث والمواقف والأشياء . وهذه الطريقة التى جريت عليها هنا ، هى الطريقة التى جريت عليها من قبل ، فى ترجمة كتاب العلامة الأوروبى آدم متز عن الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، والتى أعتقدُ أنها عادت على القراء والباحثين بعظيم الفائدة . وقد أشرت فى العادة إلى التفصيل الذى قمت به ، لا من عندى ، بل معتمداً على النصوص التى أشار إليها المؤلف وأخذ منها كلامه المجمل الذى قدمه للقارئ غير العربى ؛ ومن غير هذا التفصيل قد لا يكون الكلام مفهوماً . وإذا كان هناك من قد يخطر له أن يقابل بين الترجمة والأصل الألمانى ، فإنه فى بعض المواضع سيجد الزيادة من نقطة معينة ، وما عليه إلا أن يمضى قليلا ليتصل كلام المؤلف بعد التفصيل .

وأسلوب فلهوزن فى لغته الألمانية أسلوب علمى ، وإن كان ليس غير رشيق فى نظرى . وإنى لأعترف أنه قد جاء ملائماً لما أحبه من التعبير العلمى الذى لا يصل على كل حال إلى الجفاف . وهو أيضاً أسلوب صعب بعض الشىء بسبب علميته وإحكامه وتركيزه . ولم يكن بدٌّ فى بعض الأحيان من ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وافية بالغرض ، دون تعنت فى التمسك بالترجمة اللفظية ، وخصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية ، لم تتوطن بعد فى أذهان غالبية القراء العرب ، لأنها لم تتوطن بعد كمصطلحات فى اللغة العربية .

لكنْ هنا شىء أحب أن أنبّه عليه : قد يلاحظ بعض القراء العرب غرابة فى بعض الألفاظ أو العبارات أو صيغ التفكير والتعبير ، فليعلم القارئ أن بعض ذلك يرجع إلى النصوص العربية ، التى كانت أساساً اعتمد عليه كل من المؤلف والمترجم — ولم أشأ أن أبعد بالقارئ عن الجو الذى لابد له عند المزيد من البحث والتحقيق من الرجوع إليه ، أما بعضه الآخر فهو تجديد فى التصوير والتعبير دعت إليه ضرورة الترجمة الدقيقة ، وهو ليس عجزاً عن الأخذ بالأسلوب العادى المألوف .

وأيضاً إذا كان القارئ فى مواضع قليلة ، قد لا يتحرر أمامه وجه الكلام بسهولة ، فذلك مقصود من جانبى ، لكى تسمح العبارة العربية بما تسمح به العبارة الألمانية من احتمالات المعنى ، لأن المؤلف قد انتقل إلى جوار ربه ، وهو وحده القادر على تحديد معنى كلامه التحديد الدقيق ، فلم يكن بدٌّ من تفادى تصوير فكرته على وجه قد لا يكون صحيحاً .

ولقد كانت الترجمة تقتضى الاجتهاد فى الاطلاع على جميع النصوص التى رجع إليها المؤلف . وقد عزّ على أن يضيع كل هذا الجهد سدى ، فذكرت النصوص حيث يحتاج إليها القارئ سنداً لكلام المؤلف ، وذكرتها أحياناً مكررة بغية توضيح الفكرة أو تفصيلها أو إصلاحها ،

وأشرت إلى مواضع فى المراجع لم يذكرها المؤلف ، وإن كان قد رجع إليها[1]. وقد أردت بذلك إرضاء حاجة القارئ الباحث ، وتوفير كثير من العناء الذى كان لا بد أن يحتمله ، إذا أراد البحث عن النصوص ، كما أردت أيضاً تشويق القارئ لمواصلة الاستفادة من النصوص فى دراسات أخرى . ومما دعانى إلى ذكر النصوص أيضاً رغبتى فى تأكيد سلامة الترجمة أمام من قد يعترض عليها .

وفى أثناء هذا كله صححت كثيراً من الأخطاء دون الإشارة إلى ذلك تجنباً للفضول وتطويل الكلام ، وقد ذكرت أسماء الأعلام كاملة أو أكمل مما ذكرها المؤلف على كل حال .

* * *

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر ، لكنه يسرف فى تحرره أحياناً ، كما يسرف أحياناً أخرى فى تطبيق تصوره الشخصى ، فلم يكن بدٌّ من التنبيه على ذلك ، ومن الرد على بعض كلامه المجانب للحق . فعلقت على ما رأيت أن إحقاق الحق يدعو إلى التعليق عليه ، لكن دون أن أسرف أو أبالغ فى ذلك ، تاركاً للقارئ أيضاً نصيبه من النقد والتعليق .

وكذلك أحسست بعد الاطلاع على النصوص بحاجة ملحة إلى تعليق يشبه التعليق التاريخى ، وإن كان إنما يمس بعض الأحكام المتعلقة بالوقائع أو الأشخاص . وكان هذا التعليق فى الغالب تحليلاً للموقف أو بياناً لعناصر الحكم الأقرب للصواب ، وكان بعضه إكمالا وتفصيلا للموضوع لا بد منه للقارئ

---

(١) على أنه رغم الاجتهاد البالغ فى البحث عن النصوص بقيت مواضع قليلة جداً أشار إليها المؤلف فجاءت الإشارة خطأ فى أغلب الظن ، فلم أهتد إليها .

العربى ، أو تصحيحاً لا بد منه طبقاً للنصوص . وإنما أردت بهذا مساعدة القارئ على إدراك الموقف التاريخى أو الاتجاه التاريخى .

* * *

لقد تم طبع هذا الكتاب منذ أكثر من عام ، لكن سفرى للخارج إلى جانب ضرورة إعادة طبع شطر كبير منه ، حال دون ظهوره قبل اليوم .

وهذه الترجمة العربية أصح وأدق وأصدق تعبيراً عن الموضوع من الترجمة الإنجليزية ، لأنى استطعت مراجعة الأصول العربية ، وهو ما لم يكن أمراً سهلا على صاحبة الترجمة الإنجليزية رغم جهدها المشكور .

وتفترق ترجمتى أيضاً عن ترجمة الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العش التى ظهرت فى سوريا . ولا شك أن أسلوب كل كاتب أمر شخصى لا معنى للمشاحة فيه ، وقد تم طبع ترجمتى قبل ظهور ترجمته ، ولكنى وجدت عند المقارنة كثيراً من الخلاف الذى ليس لفظياً فى الغالب . على أن الزميل الفاضل قد ترجم عن الإنجليزية ، وهو وإن كان يراجع النصوص فقد كان أمام عقبة لم تكن أمامى ، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة كلام المؤلف إلا بالرجوع إلى الأصل الألمانى فى ضوء النصوص العربية .

* * *

بيّن المؤلف كيف سقطت دولة العرب الأولى — وهى الدولة الأموية فى رأيه — بسبب الصراع الداخلى والنزاع والقتال بين العرب ، وكيف كان أعداؤها — وهم الأعاجم — قد دأبوا من قبل على تأليب الشعور على بنى أمية بدعوى أنهم حادوا عن مبادئ المساواة التى جاء بها الإسلام بين معتنقيه ، ففرقوا بين العرب والأعاجم ، وميزوا الأولين على الآخرين ، ثم جاءت مطامع العباسيين فاستغلها الأعاجم ، وشقوا صفوف العرب بأن اجتذبوا قوماً منهم إلى اعتناق قضية

المظلومين : وسقطت دولة بنى أمية التى كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بنى العباس التى اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامى . ويرى المؤلف بناء على هذا ، أن دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بنى أمية ، وهو لذلك عنون كتابه هكذا : « الإمبراطورية العربية وسقوطها » : ومعنى هذا أن دولة بنى العباس ليست دولة عربية بل إسلامية فحسب ، لكنّ فى هذا تساهلا كبيراً ، لأن العباسيين كانوا عربا ولأن الأمويين كانوا مسلمين ، هذا إلى أن دولة بنى أمية قامت فى الأندلس والمغرب من جديد ، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دولة متفرقة . ورغم أن القيادة الحكومية ، العسكرية والإدارية ، فى الدولة الإسلامية قد آلت إلى أجناس غير عربية ، كالترك على تنوعهم ، فإن العرب بوصفهم أمة لم يختفوا ، وظهروا كدول بمجرد تصدع الإطار الخارجى الظاهرى للأجناس الأخرى ، وكانت قوة الدولة — أو الدول — العربية ، على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعامتين أساسيتين : الإسلام كعقيدة ونظام فى الحياة ، وللعروبة العرقيّة الحضارية بالنسبة للعرب الخلص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التى استعربت . وقد امتزج العرب بغير العرب على مر الزمان امتزاجاً كبيراً ، مما جعل للعروبة بمعناها التاريخى والحضارى ، بل والإنسانى والسياسى ، معنى خاصاً لا ندخل فيه هنا .

ونظراً لأن تعريب العنوان الذى اختاره المؤلف لكتابه تعريباً حرفياً ، يؤدى إلى اللبس ولا يتفق مع الواقع ، فلم يكن بد من اختيار ترجمة للعنوان بحسب الموضوع المحدد الذى اختاره المؤلف ، وهو : تاريخ الدولة العربية ، من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس فى المشرق الإسلامى ، وهذا ما راعيته من حيث المبدأ ، فى ترجمة عنوان كتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فقد كان عنوانه بحسب الترجمة

الحرفية هو : « نهضة الإسلام » والمقصود هو العصر الذى يقابل من ناحية الحضارة والتنظيم عند المسلمين ، عصر نشأة الدول الأوروبية الحديثة أيام حركة إحياء العلوم والنظم القديمة .

ومن أجل هذا كله وبعد تفكير طويل ، اخترت للكتاب عنوان « الدولة العربية ، تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، وجعلت العنوان الألمانى وترجمته الحرفية فى ظهر الغلاف .

* * *

قرأتُ هذا الكتاب القيم فى لغته الأصلية ، أيام دراستى فى جامعة بازل بسويسره واستماعى إلى محاضرات أستاذى المحبوب الدكتور رودولف تشودى عن تاريخ العرب والأمم الإسلامية . وقد أعجبت بالكتاب فى تلك الأيام لأنه أكثر من كتاب تاريخ بالمعنى العادى ، فهو قد جمع بين روح العلم والفن والفلسفة وبين العناية بحقائق التاريخ ووقائعه عناية موضوعية وتصوير الأشخاص والمواقف والأحداث تصويراً فنياً رائعاً ، وبيان القوانين المتنوعة والعوامل التى تحكم ظهور الأحداث وتطورها من وجهة نظر كلية ، مع استقصاء العلل والأسباب وبيان النتائج التى تلزم عنها ، ومع الاهتمام البالغ بوضع المشكلات وتحديدها ، مما هو جدير بأن يجعل كتابه تاريخاً بالمعنى العلمى ، دون أن تعوزه صبغة فلسفية من بعض الوجوه ، ومع أن اهتمام المؤلف كان متجهاً خصوصا إلى الناحية السياسية ، فإنه لم يهمل الناحية الاقتصادية والإنسانية الاجتماعية .

ولذلك فإنه لما عرضت على إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة هذا الكتاب ، قبلت المهمة على ما فيها من مشقة ، وكان مما رغبنى فى احتمالها ، قلة من يجمع بين معرفة اللغة الألمانية ، والصبر على متابعة المؤلفين الأوروبيين فى انتفاعهم بالمراجع العربية .

وقد راجع الترجمة زميلى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، ومع ذلك فإنى أعتبر أنى المسئول الأول عن الترجمة ، وأنا المسئول الوحيد عن التعليقات لأنها من عملى وحدى .

وفيما يتعلق بترجمة ما فى الكتاب من نصوص يونانية ولاتينية ، استعنت بعالمين مختصين هما : السيد الدكتور ه . فون دن شتينن ، بقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والسيد الدكتور أمين سلامة صاحب الخبرة الجيدة باللغتين القديمتين : وقد جمعت بين الاستفادة من خبرة هذين العالمين توخياً لليقين ، ومع ذلك فإنى إلى جانب الترجمة ، قد ذكرت النصوص بلغتها الأصلية ، لكى يرى فيها من يعرف اللغات القديمة ما يشاء .

وأيضاً فيما يتعلق بالنقط الملتبسة أو الصعبة من ناحية اللغة ، رجعت إلى الأستاذ فون دن شتينن وإلى أستاذنا الفاضل العلامة المتواضع الدكتور روبرت ران ، المستشار الثقافى بالسفارة السويسرية بالقاهرة .

فأحب أن أعبر عن شكرى العميق لهؤلاء العلماء جميعاً ، لصدق معاونتهم ، وحسن إرشادهم ، وتضحيتهم بوقتهم الثمين .

وقد قرأ الكتاب بعد تمام طبعه زميلى الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، فلاحظ ملاحظات قيمة ستكون موضع الاهتمام ، فله الشكر الجزيل .

هذا وقد اشترك معى أخى الأستاذ عبد الفتاح أبوريدة فى تصحيح شطر من تجارب الطبع ، وفى إعداد مادة الفهارس المتنوعة التى زودت بها الكتاب ، فله التقدير والشكر .

وأخيراً أحب أن أشير إلى المؤلف طويل النفس ، قسم كتابه إلى أقسام رئيسية لها عناوينها ، ثم قسم كل قسم إلى أجزاء أعطاها أرقاماً ، وتكاد تكون

الجمل الأولى من كل جزء مشتملة على عنوانه وموضوعه . ولما كان الكتاب مرجعاً للبحث ، لا كتاباً دراسياً بالمعنى الخاص ، فقد تركت تقسيم المؤلف كما هو ، ولم أتدخل بينه وبين الباحث والقارئ بإضافة عناوين تفصيلية ، وإن كان ذلك قد خطر لى . وإنما أردت أن أترك الباحث والقارئ يسير كلاهما مع المؤلف ويأخذ من كلامه ما يشاء فى الموضوع التفصيلى الذى يعنيه ، وهذا ما جريت عليه أيضاً فى كتب ترجمتها من قبل . والمهم أن الكتاب فى ترجمته العربية مزود بفهارس مفصلة كافية .

أما المراجع العربية التى رجع إليها المؤلف واعتمدت عليها فهى بحسب الطبعات الأوروبية .

لقد بذلت جهدى فى ترجمة الكتاب والتعليق عليه والإشراف على طبعه ، ولكن نظراً لكثرة أسماء الأشخاص والأشياء وتشابهها ، ولضرورة الاستعانة بالإملاء فى « تبييض » هذا الكتاب الطويل ، فقد وقعت أخطاء قليلة استدركتها فى آخر الكتاب[1] . وإنى أبعد ما أكون عن أن أدعى لنفسى كمالا أو عصمة من الزلل ، فكل جهد إنسانى دون الكمال ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . والله أسأل أن يحقق بعملى النفع ، ويحسن به العظة ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وهو ولى التوفيق ؟

المترجم

بنغازى فى { ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ / ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م } — محمد عبد الهادى أبو ريدة

---

(١) صححت الأخطاء فى الطبعة الثانية هذه .

كلمة تمهيدية

إن الروايات القديمة المتعلقة بعصر بنى أمية توجد حتى اليوم على أوثق ما تكون عليه عند الطبرى ، لأنها لم تختلط ولم تتناولها يد التوفيق والتنسيق ، وهى فى القسم المجيد من كتابه ، أعنى الجزء الذى ظهرمنذ ما يقرب من عشرين عاماً فى السلسلة الثانية من طبعة ليدن . والطبرى قد حفظ لنا خصوصاً قطعاً كبيرة جداً من روايات أبى مخْنَف ، الراوية المحقق ، فحفظ لنا بذلك أقدم وأحسن ما كتبه ثائر عربى نعرفه . وكان أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد الكوفة ، ويدل نسبه الطويل على أنه كان ، من حيث نسب أبيه ، من أصل نابه . والأغلب أن مخنفَ بن سُلَيم ، رئيس الأزد فى موقعة صفين ، كان جدّه ، وأن محمداً وعبد الرحمن ابنى مخنف كانا أخوين لجدّه . ونحن لا نعلم متى ولد أبو مخنف ، ولكنه لما قامت ثورة ابن الأشعث فى سنة ٨٢ هـ كان فى سنّ الرجال ، وكان صديقاً لمحمد ابن السايب الكلبى (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٧٥ و١٠٩٦) . ويرجع لابن الكلبى المشهور ، وهو ابن محمد بن السايب ، الفضل الأكبر فى حفظ كتب أبى مخنف ورواياتها وتوريثها للأجيال . والطبرى فى العادة يذكر روايات أبى مخنف بحسب رواية ابن الكلبى لها . وقد عاش أبو مخنف حتى شهد سقوط خلافة بنى أمية فى دمشق ، وآخر الروايات المأثورة عنه تتعلق بحوادث سنة ١٣٢ هـ .

على أن أبا مخنف يذكر فى بعض الأحيان رواة آخرين أقدم منه أو معاصرين له ويعتمد على رواياتهم ؛ مثل عامر الشعبى وأبى المخارق الراسبى ومجالد بن سعيد ومحمد بن السايب الكلبى ؛ أما فى الأغلب فإنه لم يأخذ ما رواه عن أقرانه من الرواة المتقدمين ، بل هو جمع رواياته من سماعه لها بنفسه ومن

السؤال عنها فى مختلف مظانّها وعند كل من استقاها من مصادرها أو حضرها بنفسه من الناس . وعلى هذا فإن الإسناد الذى تقوم عليه رواياته كان لايزال عنده شيئاً حقيقياً ، ولم يكن مجرد صيغة أدبية ؛ وسلسلة الرواة الذين يذكرهم هى دائماً قصيرة جداً ، وهى أخيراً تنكمش انكماشاً تاماً ، نظراً إلى أن المسافة التى تفصل بينه وبين الأحداث التاريخية التى روى أخبارها كانت لا تزال تقصر شيئاً فشيئاً ، هذا إلى أن سلسلة الرواة تتنوع بحسب اختلاف الأحداث وتنوع الروايات الخاصة بها ، بحيث نجد أمامنا طائفة كبيرة جداً من أسماء رواة نجهلهم جهلاً تاماً . وهؤلاء الرواة الذين شهدوا الحوادث لا يدركون ما يروونه إدراكاً كلياً شاملاً ، بل هم يذكرون أقل الحوادث شأناً ولا يغفلون عند وصف الحادثة ذكر الأسماء المتصلة بها ، وهم يجعلون الأشخاص فى أفعالهم وأقوالهم فى المحل الأول ، كما أنهم لا يزالون فى مختلف الروايات يذكرون الشيء نفسه من غير اختلاف إلا فى أشياء قليلة الشأن . ومن أجل ذلك صار التقدم فى الرواية بطيئاً جداً ، ولكن وفرة التفاصيل من شأنها أن تعوض هذا العيب الذى فى الرواية . وإلى جانب ذلك حُفظ لنا الأثرُ المباشر التى أوجدته الحوادث فى النفوس وكذلك أول ما قيل عنها . ثم تجيء الصيغة الشعبية للرواية فتزيد فى حيويتها . وكل الروايات تذكر فى صورة حديث بين الأشخاص الذين كانت تدور حولهم الحوادث ، وكل الروايات وصفٌ لمسرح هذه الحوادث . وقد ذكرتُ أمثلة تبين ذلك فى بحث لى عن الخوارج والشيعة (بمدينة Göttingen سنة ١٩٠١) خصوصاً ص ١٩ و ٦١ فما بعدها[1] .

وقد قال مومسن (Mommsen) مرة إنه لا حاجة حتى بالنسبة لغير العلماء

---

(١) [يشير المؤلف إلى بحث يجد القارئ عنوانه الكامل بعد قليل فيما يلى . والمواضع التى يحيل القارئ إليها فى أثناء كلامه عن الخوارج والشيعة هى فى البحث نفسه — المترجم] .

إلى إثبات أن روايات الأحداث إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين اشتركوا فيها ، هى فى العادة روايات غير صحيحة ، ولكن ينبغى للإنسان أن يتمنى ألاّ يسرف غير العلماء فى استعمال العقل السليم . ولو أن أبا مخنف لم يكتب لخسر التاريخ خسارة كبيرة ، وكيف كان يمكنه أن يسلك فيما كتب طريقاً غير الذى سلكه ؟ فلم تقدم له المصادر المكتوبة مادة كبيرة يستطيع أن يعتمد عليها ، وهو قد انتفع بها ما كانت فى متناول يده ، ولكن من غير أن يجتهد فى البحث عنها وفى جعلها أساساً على نحو منظم ، وأكثر ما يرويه فى معرض ذكر الشواهد التى تؤيد رواياته قصائدُ وأبياتٌ من شعر الشعراء ، وأهم ما صنع من حيث تقدير قيمة الروايات هو أنه جمع طائفة كبيرة من روايات متنوعة ومن أخبار عن الشيء الواحد مختلفة فى مصادرها ، بحيث يستطيع الإنسان أن يوازن بينها ويعرف الصحيح المؤكد منها من غيره . وأبو مخنف قد توصل بذلك إلى أن صارت الأشياء الثانوية تتوارى ، لأنها لا تظهر إلا مرة واحدة ، كما صارت الأشياء الأساسية لا تزال تزداد بروزاً ، لأنها تتكرر فى جميع الروايات : وهو يرتب الروايات المختلفة التى تتناول الشيء الواحد ترتيباً ملائماً بحيث لا يزال ما بينها من ارتباط يزداد وضوحاً . على أنه فى مثل هذا الجمع للروايات لا يمكن تفادى شيء من التخير لها والتوفيق بينها ، ولا يظهر هناك تناقض فى النقط الجوهرية ، والروايات تتضافر حتى يخرج منها إجماعٌ على ما فيها . والصورة الإجمالية التى تتكون عند الإنسان ثابتة متسقة ، وليس هذا فيما يتعلق بالوقائع فحسب بل فيما يتعلق بالأشخاص أيضاً . ورغم ما فى مادة الروايات المختلفة من غموض واضطراب باديين فإنه ترفرف فوقها خطة المؤلف والفكرة الإجمالية التى كوّنها لنفسه . ومع ذلك فإن أبا مخنف لا يتناول برواياته فترة كبيرة من الزمان وهو لا يربط بين أجزائها ربطاً يراعى الوقائع كما هى ويراعى ترتيبها التاريخى ،

ويعوزه ترتيب الحوادث ترتيباً تاريخياً مُطَّرداً ، فهو لا يذكر إلا تواريخ متفرقة ، وفى كثير من الأحيان لا يذكر إلا اليوم الذى وقعت فيه الحوادث بين أيام الأسبوع من غير ذكر الشهر والسنة ؛ فهو لا ينظم الحوادث فى خيط يصل بينها ، بل يصف كل حادث على حدته مستقلا عما عداه ، ويسهب فى ذلك أكبر الإسهاب من غير أن يهتم بالاقتصار على ما هو جوهرى ؛ ويذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست لأبى مخنف اثنين وعشرين كتاباً بعناوينها .

ومما يتميز به أبو مخنف أن رواياته لا تبتدئ بصدر الإسلام ، بل هى لا تبدأ إلا بعصر الفتوحات ، وأنه يخبرنا فى الأغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها ، وهى تبدأ بموقعة صفين . ويرجع إلى ذلك أن اهتمامه اقتصر على المكان الذى كان يعيش هو فيه ، أعنى على العراق وعاصمته الكوفة . أما فيما عدا هذه الفترة المحددة وهذا المكان المحدد فليس عنده علم صحيح اختص به . ونظراً إلى أن الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فإن أبا مخنف يتكلم خصوصاً عن ذلك ، والموضوعات التى يتناولها بتفصيل وشغف خاص هى ثورات الخوارج والشيعة ، التى كان على رأسها المستورد بن عُلّفة التيمى وشبيب بن يزيد وحجر بن عدى والحسين ابن على وسليمان بن صرد والمختار الثقفى ، وثورة أهل العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث . فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية ، وهواه فى جانب أهل العراق على أهل الشام وفى جانب علىّ على بنى أمية ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يلاحظ عند أبى مخنف شيئاً من الإغراض يستحق الذكر أو هو على الأقل لا يلاحظ إغراضاً من شأنه تزييف الوقائع تزييفاً إيجابياً ؛ وكل ما يمكن أن يقال هو أن أبا مخنف ، فيما يظهر ، قد أغفل فى بعض الأحيان شيئاً مما لا يعجبه كإغفاله مثلا أن عقيل بن أبى طالب كان فى موقعة صفين يحارب فى صفوف أعداء أخيه على بن أبى طالب .

وقد اعتمدتُ على أبي مخنف خاصة في بحثي الذي كتبته عن أحزاب المعارضة الدينية ـ السياسية في صدر الإسلام[1] . أما في تاريخ الدولة العربية الذي هو موضوع هذا الكتاب فإن أبا مخنف لا يقدم المادة الغزيرة التي يستطيع المؤرخ أن يستفيد منها ، وليست الروايات الكوفية هنا هي أحسن مرجع ، بل أصدق مرجع هو للروايات المدنية ، فهي أهم الروايات القديمة ، وهي من حيث أصولها أقدم من الروايات الكوفية ، غير أن أصحابها الذين وصلت إلينا عنهم روايات كافية أحدث عهداً من أبي مخنف ، وهم لم ينبغوا إلا في العصر الذي بدأت فيه حركة التأليف تنتقل من المدينة إلى بغداد . وأهم حملة هذه الروايات المدنية هم خصوصاً ابن إسحاق ، وهو مولى ، وأبو معشر ، وهو مولى أيضاً ، والواقدي ؛ وهم لم يكونوا يجمعون مادة الروايات من مصادرها الأصلية ، كما فعل الرواة قبلهم ، بل إنما وصلت إليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها ، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد ومزجوا بينها ؛ ولكنهم ، خصوصاً ، ربطوا بينها ربطاً أوسع وأدق مما كان قبلهم ، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطّرداً ، بحيث خرج على أيديهم من الروايات المفككة لأخبار الأحداث الكبرى المتفرقة تاريخٌ متصل . ويمكن أن يُعتَبر ابن إسحاق مؤسس هذا التاريخ ، وهو يتميز ، هو ومن جاء بعده ، بكتابة التاريخ في صورة ذكر الأحداث التي وقعت في كل عام ، وهي الصورة التي أصبحت متبعة . أما ترتيبهم للحوادث بحسب تاريخ وقوعها فهو يقوم على بحث علمي وعلى موازنة . ولم يقصر علماء المدينة في ذلك ، بل وصلوا إلى نتائج ثبتت أمام التمحيص إلى درجة تسترعي النظر ، ويجوز أنهم قد استطاعوا

---

(١) [يشير المؤلف إلى بحثه بعنوان Diereligiös--politischen Oppositionsparteien im alten Islam ، وهو ضمن رسائل الجمعية الملكية للعلوم في مدينة جوتينجن ، القسم الفيلولوجي التاريخي ، السلسلة الجديدة ، مجلد ٥ عدد ٢ ، عام ١٩٠١ – المترجم] .

فى بعض الأحيان ، أن يعتمدوا على ما كتبه رهبان النصارى وخصوصاً السريان ، وذلك ، على سبيل المثال ، فيما يتعلق بذكر تاريخ الزلازل وغيرها من الأحداث الطبيعية . ويلاحظ الإنسان كيف ازداد شأن الاهتمام بوضع الحوادث موضعها فى الترتيب الزمنى . ثم جاء خلفاء ابن إسحاق فزادوا عليه فى كمال الترتيب التاريخى (Vaqidi p. 15s.)[2] . أما أبو معشر فيظهر أنه لم يكن له اهتمام ولا مقدرة إلا فى معرفة التواريخ ، وهذا الاهتمام هو الغالب أيضاً على الواقدى . وليراجع القارئ فيما يتعلق بالصلة بين هذين المؤرخين الطبرى (ج ٢ ص ١١٧٢ س ١٠ و ص ١١٧٣ س ٦) .

وكانت المدينة نواة الجماعة الإسلامية وقلب الدولة العربية ، وقد كان ما للمدينة من أهمية كبرى نظراً لما كان يتولد فيها من عوامل التطور فى التاريخ العالمى هو الذى جعل للروايات التى نمت فيها طابعها الخاص . وكان أول ما اهتمت به الروايات المدنية بطبيعة الحال هو ذكرى أوائل ذلك العهد المجيد المقدس ، أيام كان الإسلام لا يزال وحدة غير منفصمة العرى من الناحية الدينية والسياسية ، وكان يطمح لأن يُوَحِّد العالم كله تحت رايته ، وكانت الموضوعات الكبرى التى يظهر أن ابن إسحاق قد اقتصر عليها من تلك الروايات هى السيَر والمغازى — أعنى سيرة النبى عليه السلام وتأسيسه للأمة الإسلامية وتأسيسه هو وخلفاؤه من بعده للدولة الإسلامية فى فترة الفتوحات . ولكن الروايات المدنية لم تُغْفِل ما يتعلق بقلب الدولة وبسائر أنحائها ، حتى بعد أن انتقل مركز الثقل فى الدولة من المدينة إلى دمشق ؛ فلم تنتقل الروايات نفسها إلى دمشق ، بل بقيت فى المدينة ، وظلت المدينة ، حتى فى أيام بنى أمية ، مقر الطبقة الأرستقراطية من العرب ، وليس هذا فحسب ، بل ظلت أيضاً المركز الروحى للثقافة الإسلامية إلى أن حلت بغداد من

---

(٢) يقصد المؤلف كتابه بعنوان **Muhammed in Medina** ، وهو ترجمة مختصرة لكتاب المغازى للواقدى ، وقد ظهر فى برلين ١٨٨٢ م .

هذا الوجه محلها . وقد استرعى اهتمام علماء المدينة تاريخ الدولة العربية ، حتى فيما يتعلق بتطوره السياسى الدنيوى الخالص ، وإن كان علماء المدينة لم يكونوا راضين عن الحكومة . ولقد كان اهتمامهم بالشام أكثر بكثير من اهتمامهم بالعراق أو حتى بخراسان ، ونجد أنه عند أبى معشر والواقدى لا تزال تتكرر بانتظام الأخبار الرسمية - إذا صح التعبير - كالمعلومات المتعلقة بتواريخ ولاية الخلفاء وتواريخ وفاتهم ، ومتى كان يُعين أهم الولاة ومتى كانوا يُعزلون ، ومن الذى كان يحج بالناس فى كل عام ، ومن الذى كان يقود الحملات الحربية التى كان يوجهها الخلفاء لمحاربة الروم . وهذه المعلومات تكوّن سدى كتب التواريخ المدنية التى تذكر حوادث السنين ، وإنما يزيد ما ينسج حولها من مادة الروايات إذا كانت هذه تتعلق ببعض الأزمات والأعمال الكبرى ، أما فى العادة فهذه المادة ليست غزيرة ، واهتمام العلماء متجه إلى الوقائع الجافة ، بحيث لا يجد الإنسان كثير شىء من الولوع بالتفاصيل ومن التحمس للحوادث ومن العطف على الأشخاص الذين تدور حولهم الروايات . ولم يكن فى المدينة ميل لبنى أمية ولا لأهل الشام ، فلا يستطيع الإنسان أن ينتظر منهم أكثر من الحكاية الموضوعية .

ولا شك أنه قد كان هناك عند أهل الشام أيضاً ، أعنى عند عرب الشام ، مأثور من الروايات ، ولكن هذا المأثور ضاع ولم يصل إلينا . ويجد الإنسان آثاراً له عند البلاذرى ، وربما وجدها أيضاً عند عوانة الكلبى ، الذى كان يقطن الكوفة ، ولكن كانت له من طريق قبيلته صلات بالشام ، ويذكره الطبرى فى كثير من الأحيان عند روايته لأخبار الشام ، وذلك بحسب رواية ابن الكلبى عادة . أما روح هذا المأثور الشامى فيستطيع الإنسان أن يعرفه أحسن معرفة إذا رجع إلى كتب التاريخ النصرانية خصوصاً إلى كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (Continuatio des Isidor von Hispalis) . فالأمويون فى هذه الكتب

النصرانية يظهرون فى ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما فى الكتب الأخرى ، وهو يظهرهم على صورة أحسن بكثير من الصورة التى اعتدنا أن نراهم عليها . أما فى كتب التاريخ العربى فقد كانت الكلمة الأخيرة لأعدائهم ، وقد ألحق ذلك بتاريخهم ضرراً كبيراً .

والمدائنى يتبوأ ما يشبه أن يكون مكاناً وسطاً بين أبى مخنف وبين مؤرخى المدينة ؛ فهو مؤرخ عالم ، لكنه يُسهب فى الرواية ، وله اهتمام إقليمى ظاهر فيما يتعلق بالبصرة وخراسان ، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه ، هذا إلى أنه يمثل وجهة النظر العباسية تماماً ، وهو يروى سقوط بنى أمية وقيام الأسرة المباركة رواية تتمشى مع ذلك .

وإنى أكتفى بهذا القدر من الكلام فى بيان ما يختص به هؤلاء الرواة الكبار عند الطبرى ؛ وهو فى بعض أجزاء كتابه يروى عن كثيرين من الرواة الآخرين الذين ضاعت كتبهم ولم تصل إلينا ، ولكنى لا أريد فى هذا المقام أن ألم إلماماً وافياً بأقدم تدوين كان للتاريخ العربى ، غير أنه قد بدا لى أنه لا بد من إرشاد القارئ إلى أصول هذا التاريخ ، وفى هذا يكفى ما قدمته ، ويستطيع القارئ إذا أراد الاستكمال ، أن يرجع إلى فهرس فوستنفلد فى المجلدين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رسائل جمعية جوتينجن (Abhandlugen der Göttinger Societät)

وقد كان مقصودى فى أول الأمر أن أتناول عصر بنى أمية على نحو ما تناولت عصر الفتوحات الكبرى فى القسم السادس من كتابى (Skizzen und Vorarbeiten وأن أعنونه بنفس العنوان (وهو Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams = مقدمة لدراسة تاريخ فجر الإسلام) ؛ ولكنى هناك استطعت أن أكتفى بأن أضع ما ذكره سيف بن عمر إزاء سائر

الروايات الأخرى المذكورة عند الطبرى ، وأن أبين أنه تحوير مُغرِض لهذه الروايات . ولكن ما يذكره سيف ينتهى عند موقعة الجمل ، ومنذ تلك الموقعة لا يمكن القيام بالنقد التاريخى طبقاً لوجهة نظر تظل ثابتة هى هى ، ولا يستطيع الإنسان منذ تلك المعركة أن يسير مهتدياً بما دُوِّن من روايات ، بل يجب عليه أن يحكم على الحوادث حكماً يستند إلى أسس من الواقع ، مهتدياً من واقعة إلى واقعة غيرها ، كما يجب عليه أن يتعمق فى بحث قيمة ومبررات كل قضية وأن يسير على طريق فيه كثير من النقد والتخير بين الروايات وفيه أيضاً كثير من محاولة التوفيق بينها . على أن الراة يتفاوتون دائماً فى مقدار استحقاقهم للثقة ، ولكنهم لا يختلفون فى رواياتهم إلا بين آونة وأخرى ولا يختلفون دائماً فى الاتجاه الواحد . وإذا أمكن التمحيص ولم يكن منه بد فإنه يصبح أشد صرامة وأقل سماحة ، ولكنه ليس دائماً ممكناً ، لأن المادة التى تحت يد الباحث لا تكفى لذلك ، وهو أيضاً ليس دائماً ضرورياً ، لأن الرواة متفقون أو هم تكمل رواية بعضهم رواية البعض الآخر . وفى كثير من الأحيان يمكن ، ويجب ، أن يستعاض بذكر الروايات كما هى عن التمحيص لها . وإذا أردنا أن نقارن بين ما كتبناه أولاً وبين ما نكتبه الآن فإننا نقول إن ذكر الروايات كما هى هو الغالب فى هذا الكتاب ، أما إذا عيب علينا المزج بين طريقى الرواية والتمحيص فإننا نقبل ذلك على أنفسنا ، فقد كانت ضرورة مراعاة ما فى الروايات من تنوع الخصائص هى السبب فى تنوع طريقتنا فى بيان الموضوع . على أنه فيما يتعلق بمعالجة كثير من المسائل لم تَدْعُنى إلى ذلك مادة البحث بقدر ما حفزنى إليه سلفى من الكتّاب ، ولم يكن لى بد من أن أجيب فى بعض المشكلات إجابة تختلف عن إجابتهم :

جوتينجن فى يوليه ١٩٠٢ — ڤلهوْزن

الفصل الأول

مقـــدمة

١ ــ نشأت الجماعة السياسية فى الإسلام من الجماعة الدينية ، ويكاد أن يكون اعتداء محمد [عليه السلام] إلى طريق الحق[1] قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة . نعم ، هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شىء واليقين بيوم الحساب. ولكن ذلك اليقين الذى ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بدأ من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم ، ليخرجهم من ظلمات الحيرة وينقذهم من متاهات الضلال ، ولم يلبث حتى أنشأ فى مكة جماعة دينية صغيرة[2] .

وكان الذى يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بإله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بما كسبت ، كما كان يجمع بينها مبدأ خلقى يلزم عن ذلك ، وعماده أن يعبد الإنسانُ الله ، لا يشرك به شيئاً ، وأنه

---

(١) [يستعمل المؤلف كلمة Bekehrung ، ومعناها الانتقال من عقيدة إلى عقيدة ، ويجوز أن يقصد شيئاً من قبيل ما جاء فى القرآن من قول الله للنبى عليه السلام « ووجدك ضالا فهدى » أو من قبيل ما يؤثر عن النبى متعلقاً بكيفية بدء الوحى ، على أنى لا أعرف من مصنفات المؤلف الأخرى سوى اعتباره النبى عليه السلام أحد الحنفية الذين أعرضوا عن الشرك الجاهل . أما الحق فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كالرسل قبله . ولا يوجد دليل على رسالة الرسل إلا وهو موجود على رسالته ، والقرآن هو الدليل على رسالته ، وهو مهما اشترك مع التوراة والإنجيل فى بعض المادة فهو يختلف عنهما – المترجم] .

(٢) [وفى رأى المؤلف فى كتابه عن الوثنية الجاهلية أن تأسيس جماعة دينية هو الفارق بين النبى عليه السلام وبين الحنفية . والحق أن الحنفية بحسب الشواهد التاريخية ، هم بقايا دين إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الذى كان لا يزال حتى عهد النبى موجوداً فى مكة . والفرق كبير بين الحنفية وبين النبى ، كما أنه كبير بين اليهودية والنصرانية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى – المترجم] .

يسعى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا ، زاهداً فى حطامها ، وأن ينشد الحق والعدل والخير والرحمة ، ولا ينشد متاع الدنيا . والتوحيد ، كما يتجلى فى أقدم سور القرآن ، صبغة خلقية كاملة ، وهى لا تقل فى قوتها عما نجده عند عاموس النبى أو فى خطبة الجبل[1] . والإيمان بالخالق لا يكاد يدخل القلب حتى يبعث فيه ، كما هو الحال فى الإنجيل[2] ، فكرة أن كل إنسان ، بعد مفارقته هذه الحياة ، مسئول عما كسبت يداه . وهذا الإيمان من شأنه أن يستولى على الروح استيلاء تاماً ؛ وهو لا يكتفى بأن يبعث فى نفس الإنسان الرضا بإرادة الله ، بل هو يدفعه أيضاً إلى العمل بما يريده الله . والإسلام الأول ليس استسلاماً (Fatalismus) بالمعنى السائر لهذه الكلمة ، وليس إلهه عبارة عما يسمى « المطلق » (Das Absiute) ، أعنى أن الإسلام ليس إيماناً بشىء غير مفهوم ، هو إلى السلب منه إلى الإيجاب أقرب ، بل إله الإسلام هو الذات التى لها القدرة على كل شىء ، والخير والعدل فى حقها ملازمان للقدرة ، لا ينفكان عنها . ويبرز فى القرآن شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهى تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يحس به النبى [عليه السلام] ، دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ، ولا يشعر محمد [عليه السلام] بما فى ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً لمذهب نظرى فى العقائد (Dogmatiker)[3] .

---

(١) [كلام عاموس النبى موجود فى التوراة ، وخطبة الجبل هى من كلام السيد المسيح عليه السلام ، وهى فى الأناجيل — المترجم] .

(٢) [ويقصد المؤلف أن هذا فى الإسلام ، لأن الكلام هنا عن الإسلام أولا وقبل كل شىء — المترجم] .

(٣) [يقصد المؤلف أن الذات الإلهية فى الإسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك فى مقابل إله الفلاسفة الذى هو أشبه بمعنى مجرد — أما ما يقول عن رجحان الكلام عن القدرة فى القرآن تارة ورجحان الكلام عن العدل تارة أخرى بحسب أحوال النبى النفسية فهذه نظرية بعض المستشرقين فى الآيات المتشابهة فى القرآن سواء آيات الصفات الإلهية أو الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية (مسألة الجبر والاختيار) . والحق أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه ، وهذا المتشابه هو تفصيل المحكم ، ولو تأمل الإنسان القرآن تأملا عقلياً فلسفياً لوجد أنه فيما يتعلق بذات الله يتكلم عنها فى ذاتها أحياناً ، مع

وكان يربط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة ؛ وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل فى زمرتهم هى تسميتهم بالصابئين ، فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك(١) . وتدل أقدم سور القرآن على وجود صلوات وركوع وسجود وتهجّد فى الليل ، غير أنها لم تكن قد حُدِّدت ونظمت على النحو الدقيق الذى نجده فيما بعد .

وكان أول من اتبع محمداً [عليه السلام] أفراد ، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالى والرقيق ، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لأتباعه ، لأن طموحه كان منذ البداية متجهاً إلى ضم أهل مكة جميعاً إلى دعوته : عشيرته من بنى هاشم وعبد المطلب ، وقومه قريش . ولقد كان محمد [عليه السلام] عربياً ، فكانت له ، بحكم ذلك ، إحساسات بالعشيرة والقبيلة (أعنى ما يقابل الأمة) على النحو الذى نحس به نحن بما يربطنا بالأسرة فى نطاقها الضيق . [أما الدولة] من حيث هى نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها فى وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ؛ فلم يكن بعد قد وجد بين العرب ؛ بل كانت الدولة عندهم هى الجماعة فى جملتها (Collectivum) ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Institur) ولا كانت لها أرض مُحدَّدة . فلم يكن هناك فى الحقيقة دولة (Staat) وإنما كانت هناك

= وهو أحياناً أخرى يتكلم عنها مجازاً للدلالة على صفاتها ، وهذا هو معنى الآيات التى فيها ذكر اليد والعين بالنسبة لله ، ولوجد أيضاً أن القرآن فيما يختص بأفعال الإنسان ومشيئته يتكلم عن دخول ذلك فى دائرة المشيئة والقدرة الإلهية — وهذا صحيح وهو الحق فى أمر الخالق والمخلوق وليس فى القرآن مطلقاً ما ينفى مشيئة الإنسان وفعله ومسئوليته ، بل فيه ما يؤكد ذلك ، ولكن بحيث لا يشعر المخلوق أنه مستقل عن خالقه فى الفعل والمشيئة ، لأنه إذن لا يكون مخلوقاً ؛ فلا تناقض فى القرآن بل فيه بيان للعلاقة بين المخلوق والخالق — راجع ما قلناه فى هـذا فى تعليقنا على فكرة شبيهة بما يقوله المؤلف هنا — وذلك فى كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » لدى بور ص ٤٦ — ٦٦ من الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٨ — المترجم] .

(١) [ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية وما قيل من أن الصابئة هم الحنفية أتباع دين إبراهيم عليه السلام — راجع تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٩ (هامش) — المترجم]

أمة (Volk) ؛ فلم يكن هناك نظام [سياسى] من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء ؛ لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة ، وإنما كان هناك رؤساء العشائر والبطون والقبائل[١] ؛ ولم تكن الأمة تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر من الأسرة . أما اللحمة التى كانت تؤلف بين أفرادها فهى نفس اللحمة التى تربط بين أفراد الأسرة ، أعنى لحمة الدم ، فكانت وحدة الجماعة تقوم على لحمة الدم وعلى تقديس هذه اللحمة ، دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك . وكان للاشتراك فى النسب أو للاعتقاد بهذا الاشتراك — وهما من حيث النتائج العملية شىء واحد — ما للدين من تأثير ، وكان هذا الدين بمثابة الروح التى تجعل القبيلة كالجسد الحى الواحد . وإلى جانب روابط الدم والنسب كانت هناك روابط كالاشتراك فى شعائر دينية ظاهرية ، ولكن لم يكن هناك دين له من قوة الإلزام وتوثيق أواصر الوحدة بين الناس شىء يغاير ما لتأثير رابطة الدم والنسب . ولقد كان فى وسع محمد (عليه السلام) ، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها . ولكن محمداً [عليه السلام] لم يرد ذلك ، ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم[٢] ، ولذلك فإنه لم يرَ أن رسالته هى أن

---

(١) ولا يزال أهل البادية حتى اليوم ميالين إلى أن يتصوروا الدولة ، أعنى الدولة التركية ، على أنها قبيلة وإلى أن يقيسوا قوتها بحسب ما تملكه من الإبل (Doughty 1, 230) . وكذلك الحال بالنسبة المدن ، فلم تكن المدينة (Polis) هى الوحدة السياسية بل كانت القبيلة هى هذه الوحدة ، مثل قريش فى مكة وثقيف فى الطائف . وكان كل من القرشيين والثقفيين يشعرون بأنهم مرتبطون من الناحية السياسية ، حتى عندما كانوا يقطنون خارج مكة أو الطائف .

(٢) [هذا يخالف الواقع ، لأن الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة ولأن القرآن والحديث قد أعلنا أن الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم كلهم أمة واحدة ومنشؤهم من أصل —

يضم إلى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك . نعم ، كان لابد له أن يبدأ بضم أفراد ، لكنه كان يرمى إلى ضم الجماعة كلها فكان يطمح إلى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية له ، أما إنشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة (ecclesiola pressa) فى مكة فهذا ما لم يكن ليُرضى طموحه ؛

فلما لم يوفق إلى هداية قومه قريش فى مكة إلى الإسلام ، حاول أن يتصل بقبائل ومدن أخرى . وقد أتاحت له الأسواق والأعياد التى كانت تعقد حول مكة سبيلا إلى ذلك ، فعرض على شيوخ ثقيف فى الطائف أن يدخلوا فى الإسلام هم وقومهم جملة . وأخيراً وضع قدمه فى يثرب ، أعنى المدينة ، وكانت هجرته إليها حادثاً جليلا ، بدأ به عهد جديد ، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضى تنصلا مقصوداً ، لأن محمداً [عليه السلام] لما صار رئيساً سياسياً ، بعد أن كان مباشراً ونذيراً لم يتنكر لنفسه ، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمى إلى اجتذاب أفراد ، بل إلى ضم القبائل بجملتها ؛ وكان من أول الأمر أيضاً يرى أن النبى هو الرسول الذى يرسله الله ليكون على رأس قومه ، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية . وهو إذا كان قد أراد أن يظل فى المدينة على ما كان عليه فى مكة من قبل ، وهو أن يكون نبىّ الله ورسولَه ، فلم يكن ذلك منه لعباً ولا نفاقاً ، لكنه فى مكة لم يوفق . أما فى المدينة فقد نجح وشق الطريق . هو كان فى مكة ثائراً على قومه مخالفاً لما هم عليه ، أما فى المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه : وقد أحدث هذا تغيراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهرى ، وذلك أن

— واحد وإن أكرمهم عند الله أتقاهم ؛ وكان غرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق العصبية القبلية والجنسية إلى أفق الإنسانية الموحدة . وهذا ما صرح به فى القرآن والسنة . أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعوة وينشرونها ويحمونها من أعدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ من ذلك من قوة فهو لا يتعارض مع الغاية الكبرى التى تحققت فعلا . ومعنى المواطن فى الدولة الإسلامية هو المؤمن بالله والمتبع لوحى أنزله الله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ، غير أنه فى الدولة الإسلامية تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم ، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية — المترجم] .

المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرياسة[1] وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي عليها ، لأن تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع . ولا تستطيع جماعة لها تاريخها أن تتنكر للأسس الموجودة التي تقوم عليها تنكرا تاماً ، والقوة — إذا أرادت أن تحافظ على كيانها وأن تزداد — لا بد لها من أن تجرى على سنتها الخاصة بها ؛ وهذا هو الذى يفسر لنا أن النبي صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً فى الرياسة ، وأن الحكومة التيوقراطية (Theokratie) ، من حيث السياسة الفعلية ، تغيرت عنها لما كانت فكرة . وعلى هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزاً والطابع الدينى يزداد تراجعاً ، ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبداً أن الدين والسياسة امتزجا وسارا يداً بيد ، وإن كان قد جُعِل تمييزٌ بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، وبقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانُها فى القلوب .

٢ — وكانت اليهودية والنصرانية قد مَهدتا الأرض فى المدينة لمحمد [عليه السلام] ، فكان هناك كثير من اليهود ، وكانت المدينة تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المتعرض للتأثير اليونانى — الرومانى والنصرانى — الآرامى . أما الأحوال السياسية فكانت مواتية له أكثر من ذلك ، ففى مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة تؤدى وظيفتها على نحو مُرْضٍ ، ولذلك أحس المكيفون بأن الشيء الجديد الذى أراد النبي أن يدخله فى مكة نظامٌ يهدد حياتهم ويكدر صفوها ، فعملوا على القضاء عليه . ولكن

---

(١) [إن المؤلف هنا وفيما يلى يسرف فى القياس السياسى . ولقد كانت رسالة النبى عليه السلام أن يؤسس ديناً ويكون أمة وينشئ دولة ، وقد تم له ذلك كله . وقد كان لهذا بطبيعة الحال مقتضيات فرضتها طبيعة الأشياء وطبيعة التطور فى الدين وتكوين الأمة وإنشاء الدولة ، وكل ذلك بإرشاد إلهى هو الذى نجده من أول الأمر إلى آخره مسجلا فى القرآن . ولا يصح أن يسرف المؤرخ فى اعتبار التطور تغيراً وتحولا ولا وضع النظام السياسى طغياناً على الصبغة الدينية — المترجم] .

« رباط الدم والنسب لم يكن له فى جميع أجزاء جزيرة العرب من القوة ما كان له فى مكة ، وهو لم يكن فى جميع مراتب التلاحم فى النسب بقوة واحدة ، بل كان فى الدوائر الصغرى للنسب أقوى منه فى الدوائر الكبرى ، فكان فى الأولى طبيعياً وفى الثانية التزاميا ، ولذلك كان ما من شأنه أن يجمع الشمل يصبح سبباً من أسباب الانحلال ، إذا تعارضت مصلحة الأسرة مع مصلحة العشيرة أو مصلحة القبيلة ، وخصوصاً لم تكن الأسرة تستطيع أن تتخلى عما يوجبه عليها الأخذ بالثأر حتى من الأسر التى يجعلها النسب وإياها قبيلة واحدة ، وعند ذلك تتوارث القبائل إحَنَّ الترات وحروبها ، لأنه لم تكن هناك قوة فوق قوة المتخاصمين تستطيع أن تفرض السلم على الناس وتعاقب من يخلّ به منهم . وهذه الأحوال كانت قد طرأت فى المدينة ، فانقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعاديين ، هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئاً مألوفاً ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حيّه دون أن يعرّض نفسه للخطر ، وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسّة إلى رجل يدخل فى الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى لكن كان لا بد أن يكون رجلاً محايداً ، لا تشوبه شائبة التورط فى المنافسات الداخلية بين القبيلتين ، ولذلك جاء النبى من مكة فى الوقت المناسب ، وكأنما نودى لذلك ، ولما كانت لحمة الدم قد فشلت فى أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس ، فقد أحلّ النبى محلها رابطة العقيدة ، وهو قد جاء ومعه قبيل من المؤمنين ، هم الذين هاجروا معه من مكة ، وقد كوّن فى المدينة على أساس الدين جماعة موحّدة ، من حيث أنها « أمّة الله » ؛ ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة ، ولا كان بدون مراحل متعددة ، بل هو تحقق بخطى مستمرة ثابتة . ولم يكن محمد [عليه السلام] يستطيع أن يؤسس جماعة لها رياسة دينية(١) ،

(١) [يقصد المؤلف إنشاء رئاسة دينية يتحدد موقفها إزاء الرياسة السياسية التى تكون عند ذلك قائمة ، كما تحددت الرياسات الدينية الناشئة فى داخل الدولة أيام انتشار النصرانية — المترجم] .

حتى لو أنه كان يريد ذلك، لأنه لم تكن هناك دولة بعد [ولا رياسة على الإطلاق]، وكان الأمر اللازم إذ ذاك هو الواجب الأولى الذى ينحصر فى إقامة النظام والسلام والقانون . ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته ، فقد أخذت السلطة الدينية مكان الصدارة وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما كان يُرجى منها . وقد أبدى محمد [عليه السلام] مواهب شخصية ، وذلك بأن أثبت فى تدبيره للأمور جدارةً كاملة . وكان إذا ارتاب فى أمر ، يسأل أهل ذلك الأمر ، وكان من حسن حظه أنه وجد بين المهاجرين معه فى مكة ، وكانوا هم أقرب دائرة تحيط به ، رجالاً يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم .

وفى هذه الأحوال تجلت قوة الدين ، ولها طابع سياسى غالب ، فأنشأ جماعة وأوجد فوقها سلطة مُطاعة . وكان الله هو رمز رئاسة الدولة ، والشىء الذى يحدث عندنا اليوم باسم الملك كان يحدث هناك باسم الله . وكان الجيش يسمى «جيش الله» . وكانت النظم تسمى بأن تُنْسَب إلى الله . وهكذا ظهرت بين العرب من طريق الإيمان بالله فكرةُ الرياسة بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم ، وقد ظهرت بظهور ذلك فكرةٌ أخرى ، هى أن الحق فى السيادة لا ينبغى أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، بل هو إنما يكون لسلطة فوق الإنسان ، يعترف بها الإنسان فى قرارة نفسه . والحكومة التيوقراطية معناها إنكار الملك [الدنيوى] الذى يوضع فى يد الإنسان ، وليست السلطة المخولة للحاكم قُنْيةً خاصةً يتصرف فيها صاحبها على النحو الذى يعود عليه بالنفع ، بل الملك لله ، ولكن وكيله الذى يعرف ما يريده والذى ينفّذه هو النبى ، فليس النبى مجرد مُبَلّغ للحق ، بل هو أيضاً الرئيس السياسى الشرعى الوحيد على الأرض ، ولا يوجد إلى جانبه مكان للملك ، بل ولا لنبى آخر ، ولا يوجد فى كل زمان سوى نبى واحد . وفكرة النبى — الملك هذه ترجع إلى اليهود فى عصرهم الأخير ، وهى تتجلى على نحو مميّز فى الفرق بين صموئيل وشاول ، كما نجد ذلك فى الكتاب

المقدس : صموئيل الأول ، إصحاح ٨و١١ . فالنبي هو ممثل السيادة الإلهية فى الأرض ، والله ورسوله يُذكران معاً دائماً ، وهما يدخلان معاً فى العقيدة . ويستطيع الانسان أن يُعَرِّف الحكومة التيوقراطية بأنها الجماعة التى لا يكون على رأسها مَلِكٌ أو سلطة مغتصبة أو موروثة ؛ بل يكون على رأسها نبى الله وشَرْعُ الله .

والذى كان راجحاً فى فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة[1] ، وكان معنى السيادة الإلهية هو سيادة الحق والعدل ، فكانت الحكومة التيوقراطية من هذا الوجه هى حكومة العدل ، ولكن لا يصح أن يخطر ببال إنسان هنا [أن معنى سيادة الله هو] سيادة قانون نظرى مجرد لا علاقة له بإرادة ذات حقيقة تريده ، ذلك أنه لم يكن هناك قانونٌ بعد ، وكان « الإسلام » موجوداً قبل نزول القرآن[2] ؛ وأيضاً لم تكن الحكومة التيوقراطية تشبه نظام الحكومة الجمهورية بأى وجه ، رغم القول بأن جميع رعايا الله يقفون أمامه سواسية ، وذلك أن المميز الأكبر لنظام الجمهورية ، وهو الانتخاب والاقتراع من جانب الشعب ، لم يكن موجوداً بالكلية ، ولم تكن قوة السيادة للشعب ، وإنما كانت للنبى ، فكان له وَحده وظيفةٌ ثابتة بل مقدسة ، وعن السلطة المخولة له كانت تتفرع أنواع السلطان التى دون سلطانه . ولكنه لم يكن يعين موظفين بالمعنى الحقيقى ، وإنما كان يكلِّف من يشاء بمهام معينة يؤدونها ، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم ، وكان مستشاروه أيضاً رجالاً ليسوا بموظفين ، بل أصدقاء اصطفاهم وجعلهم من خاصته .

---

(١) [لا يمكن أن يقصد المؤلف أن الله ليس مقدساً . بل المقصود هو أن تصور الناس له يغلب عليه الشعور بعدالة الله . ولكن لا يمكن أن يجد المؤلف من النصوص الإسلامية سنداً لما يقول — المترجم] .

(٢) [يقصد المؤلف غالباً ما جاء فى القرآن من أن الإسلام لله دين الأنبياء جميعاً هم ومن اتبعهم وأنه دين الكائنات كلها — المترجم] .

وأبعد ما يمكن أن يُقال فى وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة قديسين (Hierokratie) ، فهى لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ومن هذا الوجه لم تكن شبيهة بالحكومة الدينية اليهودية بعد نفى اليهود(١) ؛ ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان ، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ولا بين الأمور الدينية والدنيوية . فكانت الكلمة لله فى كل وظائف الجماعة ومنظماتها على حد سواء ، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة ، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ومقام ميدان التدريب العسكرى ، وكانت الجماعة هى الجيش أيضاً ، وكان الإمام فى الصلاة هو القائد .

ولم تتمخض فكرة السيادة الإلهية عن أية صورة خاصة من صور الدستور(٢) ، ولكن عنصر النظام الذى أدخله محمد [عليه السلام] وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً فى توحيد للقوى والعناصر ، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين ، وقد بدا كأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة المقدسة القائمة على رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات بقيت فى الحقيقة كما هى ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التى كانت موجودة حتى ذلك الحين ، أعنى القبائل والبطون والعشائر ، فى الجماعة الكبرى الجديدة ، ولم ينشأ عن الإيمان بالله وسيلة من شأنها أن تُحِلَّ محلّها شيئاً

---

(١) إن حكومة القديسين عند اليهود بعد نفيهم كانت نتيجة للسيادة الأجنبية عليهم ، ولم يكن لها استقلال سياسى ، فكانت لذلك تختلف عن الدولة وإن لم يكن ذلك بدرجة اختلاف الكنيسة المسيحية فى مرحلة البداية ، وذلك لأنها ، على الأقل ، كانت شاملة للأمة . ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون هناك وجه للمقارنة بالدولة — الكنيسة ، لأن الكنيسة لم تكن دولة بل كانت لها دولة (W. Sickel) . والحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة هى وحدها التى تشبه الحكومة الدينية العربية شبهاً كبيراً ، رغم أن فكرة أن الرئيس الحقيقى فى الحكومة الدينية هو النبى لا الملك كانت بعيدة عن الحكومة الدينية الإسرائيلية فى مبدأ الأمر .

(٢) [إن الله بحسب القرآن هو الشارع والهادى للإنسان ولكنه يقول فى حق المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) ويقول للنبى : (وشاورهم فى الأمر) — المترجم] .

آخر : ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين ، وهو المبدأ الذى يلزم عن فكرة الحكومة الثيوقراطية ، لم يُطَبَّق على النحو الذى من شأنه أن يمحو الفوارق التى كانت موجودة بالفعل ، فبقى المكيون الذين جاءوا مع النبى [عليه السلام] ، وهم المسمَّوْن المهاجرة ، على حدتهم ؛ وبقيت إلى جانبهم قبائل العرب التى كانت تسكن المدينة ، وهم المسمون الأنصار ، على حدتها ، وكذلك بقيت قبائل اليهود فى المدينة على حدتها ، وبقى التابع تابعاً والمولى مولى والنزيل نزيلا ، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام .

وقد حفظت لنا الأيام من العصر الأول بعد الهجرة ، قبل موقعة بدر ، كتاباً[1] لمحمد [عليه السلام] يبين بعض النقط الكبرى فى القانون الذى ينظم الحياة العامة والسياسية وكان معمولاً به فى المدينة أول الأمر . ويتجلى من هذا الكتاب إلى أى حد قد تغيرت الأحوال القديمة ، وإلى أى حد لم تتغير ، وذلك إذا عرفنا أن المدينة قد أصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة . وكلمة « الأمَّة » هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التى تربطها رابطة النسب ، بل هى تدل على الجماعة بالمعنى المطلق . وهى تدل فى العادة على جماعة تقوم على الدين ، ولم يكن ذلك منذ ظهور الإسلام فحسب ، بل كان قبل ذلك أيضاً ، (ديوان النابغة ، قصيدة ١٧ ، بيت ٢١)[2] . وللأمة فى هذا الكتاب صبغة دينية أيضاً[3] ، فهى

---

(١) [ويسمى أيضاً الصحيفة ، والكتاب موجود بنصه فى سيرة ابن هشام بحسب رواية ابن إسحاق — المترجم] .

(٢) [إن البيت الذى يشير إليه المؤلف فى قصيدة النابغة هو هذا :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وهل يأثمن ذو أمة ، وهو طائع !

ولكن كلمة « أمة » هنا — وهى تضبط على أكثر من وجه — لا تدل على الأمة بالمعنى الذى نحن بصدده ، بل على الاستقامة والدين — المترجم] .

(٣) رأس الأمة هو الإمام ، ولكن كلمة الأمة وكلمة الإمام لا ترتبطان ارتباطاً مباشراً ، وربما لا يكون بينهما ارتباط على الإطلاق ، فالأمة مشتقة من الأم ؛ أما الإمام فمن فعل أمَّ بمعنى تقدم .

جماعة الله التي ترعى مبادئ السلام ومبادئ حماية الجار [ونصر المظلوم] والله هو الشهيد الذي يشرف عليها ، ومحمد [عليه السلام] يشرف عليها باسمه ، ولكنه مع ذلك لا يوصف قط بأنه نبي (١). فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التي يخولها لهم . وأيضاً فالأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أي من كل أهل المدينة . والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغي أن يكون حرماً وأرض سلام ، لا يعتدي فيها أحدٌ على أحد . وكان بين الأنصار قومٌ مشركون ، لكنهم يُستَبْعدون من الأمة ، بل أُدْمِجُوا فيها بنص صريح ، وكذلك اليهود شملتهم الأمة ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماء وثيقاً كالمهاجرة والأنصار ، وإن كان اليهود أيضاً لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق . وعلى هذا فليست درجة الانتماء للأمة واحدة ، بحيث بقي ما يشبه التمايز العربي القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل . ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد ، وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمي إلى الأمة إلا من طريق العشيرة والقبيلة . فقد جاء في الكتاب الذي نحن بصدده أن تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف ، وكذلك تُرك رؤساء القبائل كما هم ، ولم يحل محلهم موظفون دينيون .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع

---

(١) [ولكن يوجد في أول الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم » . . . — المترجم] .

كالدية وفداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة . وكذلك بقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى إلى مخالفة مولاه . بل إن حق الإجارة لم يُقيَّد، فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصاً غريباً، وهو بذلك يُلزم الجماعة كلها ، وإنما حرمت [على أهل هذا الكتاب] إجارة قريش الذين كانوا الأعداء الألداء لمحمد [عليه السلام] .

وبمقتضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر فيما بينها ، أعنى من قبائل المدينة ، لأن أول غاية للأمة هى منع الحرب فى الداخل فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء . وجاء فى هذا الكتاب : « وأنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد عليه السلام ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلعم » . فإذا تعكر السلام فى الداخل بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المجنى عليه أو على قبيلته وعلى الجماعة كلها فحسب ، بل على أقرباء الجانى نفسه ، أن يهبّوا متكاتفين عليه وأن يسلموه إلى صاحب الثأر لكى لكى يقتاد منه بالعدل . وعلى هذا أصبح لا يمكن أن يتحول الأخذ بالثأر إلى ثأر يجر ثأراً ؛ بل انكسرت شوكته الخطرة التى كانت تهدد السلام ، وهذب فثار عقاباً بالمثل ؛ وكان هذا العقاب بالمثل موجوداً قبل الإسلام ، ولكن الأخذ به كان نادراً ، وذلك أن جملة القبيلة كانت معادلة لأجزائها وملتبسة بهذه الأجزاء بحيث لم يكن لها قوة القهر . أما فى المدينة فقد نُفّذ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً ، لأن الله فى المدينة فوق فى رابطة الدم ، وكان معترفاً له بسيادة حقيقية من حيث الفكرة على الأقل ، ولم يكن العقاب بالمثل قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقى ، لأن تنفيذه كان متروكا للمجنى عليه ، وكان له أن يثأر لنفسه أو أن يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية . ولكن العقاب بالمثل مع هذا صار نقطة الانتقال من الأخذ بالثأر إلى الأخذ بمبدأ العقاب ؛ وذلك أنه بانتقال حق التأديب من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة فى سبيل الأخذ بالثأر شأناً

من شئون الدولة وجعله عقابا من هذا الطريق ؛ وكانت خطوة كافية لتفادى الترات الداخلية ؛ والذلك لكى يسود السلام فى داخل منطقة المدينة ويكون شاملا لا استثناء فيه . وعلى هذا لم تكن هناك جماعات تراعى السلام وحماية الجار ، متعددة بتعدد القبائل ، مما جعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرضى خارج حدود القبيلة ؛ بل أصبح هناك سلام واحد شامل ، هو سلام الأمة .

أما الغرض الثانى للأمة فقد كان اتحاد القبائل لرد العدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً دون « الناس » ، وهم يتعاقلون بينهم ، وهم أمة من دون للناس ، يدهم على من سواهم ، وهم على من بغى منهم ، وليس واجب الأخذ بالثأر من الأعداء واقعاً على كاهل الأخ ليثأر لأخيه بل على كاهل المؤمن ليثأر للمؤمن . والحقيقة أنه بذلك خرجت الحرب عن أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم ، بعد أن كانت من قبل هى والثأر للدم شيئاً واحداً ، بل أصبحت الحرب حرباً فحسب . وكذلك صار السلام مع قوم أجانب ، شأنه شأن الحرب ، أمراً يعم بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً لنفسه لا يكون سلاماً للجميع .

ورغم هذا فإنه لم يُقضَ على حق العشيرة والقبيلة بالأخذ بالثأر ممن سواها قضاء تاماً ، وأمر هذه المفارقة هو أمر مفارقة أخرى مقابلة لها ، وهى أن حق الإجارة أيضاً ، وهى التى تضمن للغريب حق التوطن فى المدينة لم يكن قد نُزِعَ بعد من الفرد ، وإن كان يُلزم الجماعة كلها ويجب لذلك بطبيعة الحال أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، أعنى الإمام[1] . وليس كل شىء واضحاً تماماً فى هذه العلاقة بين الجماعة وأجزائها ، فلم تكن الأمة قد تكونت بعد تكويناً

---

(١) ومثل هذه المفارقات كان موجوداً عندنا إلى عهد قريب ، فقد منح الدكتور Schnelle بحكم ما كان له من حق أيام الاتحاد الألمانى لهوفمان فون فلوزليبن (Hoffmann von Fallersleben) الذى طرد من كل مكان حق التوطن فى ضيعته بوخهولتز التى كانت له باعتباره فارساً فى مقاطعة ميكلينبورج . ويلاحظ الإنسان أن شيئاً كهذا له مزاياه .

تاماً ، ولكن كان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روحها ، فكانوا هم الخميرة والعنصر الروحي الأقوى الناهض ومنه كانت تصدر الحركة والدعوة ؛ وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد أيضاً .

٣ — أما أعداء الأمة البارزون فى هذا النظام الذى تكلمنا عنه لجماعة المدينة فهم قريش الذين فرّ منهم النبي [عليه السلام] وأتباعه من مكة . وقد نشأت من غارات صغيرة حربٌ لم تلن قناتُها . وهذه الحرب ساعدت أكبر مساعدة على توطيد أركان الأمة فى الداخل ، وانتهى أول اشتباك كبير عند بدر فى السنة الثانية من الهجرة بانتصار محمد [عليه السلام] انتصاراً لم يكن فى الحسبان ، وأحسّ الناس أن هذا النصر المبين برهانٌ إلهى على صحة الدين ، فأحدث أثراً لا يُمحى ، وكان له أكبر تأثير معنوى ، فساعد مساعدة غير مألوفة فى زيادة نفوذ محمد [عليه السلام] وفى كسر شوكة خصومه وفى تثبيت قدم الإسلام فى الأمة تثبيتاً تاماً وفى إدماج العناصر الأجنبية التى سُمح لها حتى ذلك الحين بالدخول فى الأمة الإسلامية أو فى إخراجها منها . ولم يبق الإسلام على تسامحه ، بل شرع فى الأخذ بسياسة الإرهاب فى داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول ؛ فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين ، وكان لا بد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنهم اعتنقوه بقلوب تتنازعها مختلف الإحساسات ، وكانوا لا يخفون شماتتهم إذا بدا أن الحظ لم يستمر مواتياً للنبي . ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين ، فيقول الواقدى إنه تحول بعد وقعة بدر إلى غير مصلحتهم تحولا كبيراً ، وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد(١) ،

(١) [يؤخذ من كتاب المغازى للواقدى (ص ١٦٧ و ١٨١ من طبعة كلكته) أن النبى عليه السلام لما قدم المدينة وادعته اليهود ، فكتب بينه وبينهم كتاباً ألحق فيه كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ، وكان مما شرطه ألا يُظاهروا عليه عدواً —

وفى غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها فى الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية . وقد التمس لذلك أسباباً واهية ، وأعطى ما كان لهم من مزارع النخيل الخصبة إلى المهاجرة الذين لم تكن لهم حتى ذلك الحين أرض ولا ممتلكات ، بل كانوا يعتمدون على كرم الضيافة من جانب الأنصار باعتبارهم نزلاء عندهم أو كانوا يعيشون من التجارة أو الغزو ، وبذلك أغناهم عن الأنصار وجعلهم مستقرين وأصحاب أرض فى المدينة ، وبهذه الطريقة أيضاً زاد فى قوته هو ، لأن المهاجرة كانوا أشبه بحرسه الخاص ؛ هذا إلى أن التوتر الذى لم تكن كل آثاره قد زالت بين قبائل الأنصار ، وهم الأوس والخزرج ، جعل للمهاجرة شأناً راجحاً .

وبعد أن هُزمت قريش عند بدر جمعت قوتها وتوجهت ، تحت قيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فى حملة للانتقام من محمد [عليه السلام] . وقد انتصرت عليه بالفعل عند جبل أحد قرب المدينة ، ولكن قريشاً لم تستفد من هذا النصر ، بل اكتفت برد شرفها وقفلت راجعة ، ولذلك فإن هذه الهزيمة لم تضر النبىّ كثيراً ، فاستطاع أن يحتملها وأن يعيد إرهاف سلاحه ؛ ثم إن قريشاً فشلت فى هجوم ثان قامت به على المدينة وحالفت فيه المشركين واليهود . ثم أخذت قبائل صغيرة مجاورة للمدينة تنضم إلى الجماعة الناشئة فيها انضماماً سياسياً خالصاً فى أول الأمر ، ثم انضماماً دينياً بعد ذلك ، وشق الإسلام طريقه ، وأخذ يخرج شيئاً فشيئاً من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، وكانت الجزيرة العربية تتطلع

= فلما انتصر عليه السلام فى موقعة بدر حسده اليهود وأظهروا الغش ولاح منهم ما زلزل ثقة النبى فى وفائهم له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، واستمروا على إظهار العداء ونبذ العهد . وحدث أن عبث يهودى بامرأة من الأنصار كانت جالسة عند صائغ ، فنقض درعها إلى ظهرها ، وهى جالسة لا تشعر بذلك ، فلما قامت بدت عورتها ، فضحك منها الناس . فقام رجل من المسلمين فقتل اليهودى ، فتجايش اليهود وقتلوا الرجل ، فحاصرهم النبى وأجلاهم وأخذ أموالهم — هذا ما وجدته عند الواقدى فى هذا الصدد — المترجم] .

باهتمام شديد إلى ما سيتجلى عنه الصراع الكبير بين المشركين وبين المؤمنين بالله ، وهو الصراع الذى كان قائماً بين مكة والمدينة .

وفى أثناء هذا الصراع الذى كان دائراً فى الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلى للإسلام نفسه . وقد كانت نقطة البداية فى دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه ، فى أول الأمر ، بأن ماجاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية ؛ فكان ينتظر طبقاً لهذا الاقتناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين . ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبى ، ولم يعترفوا بأن الوحى الذى أنزل إليه هو الوحى الذى عندهم ، وإن كان اليهود دخلوا فى أول الأمر ، من الوجهة السياسية ، فى الأمة التى أسسها محمد [عليه السلام] ؛ وعلى هذا خاب أمله فى اليهود خيبة مريرة . ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام ، بل جعلوا منها خصماً له ، فإنه من جانبه جعل الإسلام خصماً لليهودية ، ثم خصماً للنصرانية أيضاً . فجعل لدينه علامة تبدو لنا غير ذات معنى وإن كانت فى الحقيقة عظيمة الأهمية ؛ وهى لاتعبر عن الاتفاق بين الإسلام وبين الشريعتين المؤاخيتين له ، بل تعبر عن تمايزه عنهما . فجعل يوم الجمعة[1] ، بدلا من يوم السبت أو الأحد ، يوم الصلاة الجامعة ، وجعل نداء المؤذن بدلا من الأبواق والأجراس ، وألغى صيام يوم عاشوراء الذى هو يوم صوم الغفران عند اليهود ، وأحل صيام شهر رمضان محل صيام الأربعين (Quarantana) عند النصارى . وهو إذ جعل الإسلام يقوم على أسسه الخاصة مُتَعَمِّداً نبذ المظاهر اليهودية والنصرانية ، قد أخذ يقترب بالإسلام فى نفس الوقت من دين إبراهيم اقتراباً إيجابياً[2] ، وكان لايزال من

---

(١) [جاء فى الحديث الشريف ما يدل على فضل يوم الجمعة وأنه اليوم المقدس الأصلى ، راجع مثلا فتح البارى ج ٢ — كتاب الجمعة — المترجم] .

(٢) [كان دين إبراهيم معروفاً فى مكة حتى عهد النبى ، وتدل النصوص الكثيرة على ذلك ، كما يدل المأثور العربى الذى لا شك فيه على أن إبراهيم هو الذى أسس البيت الحرام ليكون بيتاً يعبد فيه الله ، ولا شك أن التوراة لم تتضمن كل تاريخ إبراهيم ، فليس فيها شىء يذكر عن إسماعيل . ومن غير المعقول على كل حال أن يظل دين إبراهيم مقصوراً على الطرف الشمالى من جزيرة العرب — المترجم] .

قبل يعتبر نفسه النبي المرسل إلى الغرب خاصة الذي يتلقى الوحي الموجود في التوراة والإنجيـــل ويبلغه بلسان عربي[1] . ويظهر أيضاً أنه لم ينكر أبداً ميله الطبيعي للكعبة في مكة ولرب الكعبة ، أما الآن فإنه بحكم تأثير الظروف قد خطا خطوة حاسمة في هذا الاتجاه ، فغيّر القبلة وأمر الناس بأن يولوا وجوههم في صلاتهم ، لا إلى بيت المقدس ، كما كان يفعل ، بل إلى مكة[2] . وصارت مكة بدلا من بيت المقدس تعتبر البيت المقدس حقيقة وبيت الله الحقيقي على الأرض ، وأصبح الحج إلى الكعبة ، بل تقبيل الحجر المقدس ، من الشعائر الدينية المفروضة : وبذلك دخل في الإسلام مركزٌ للشعائر وعيد وثني شعبي ، وكان لا بد في تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ ، كما هي العادة ، فقيل إن البيت الحرام في مكة والشعائر الدينية المكية كانت في أول الأمر للتوحيد ، وإن إبراهيم هو الذي

---

(١) [إن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الناس كافة ، وهذا ثابت بنص القرآن في سورة مكية — سورة ٣٤ (سبأ) آية ٢٨ . ومنذ أول الأمر يصرح القرآن بأنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ولكنه يكمل الوحي السابق ويهيمن عليه — المترجم] .

(٢) [كان النبي عليه السلام وهو في مكة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس ، وفي رواية ابن عباس أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . فلما هاجر عليـــه السلام إلى المدينة أمره الله أن يصلي متجهاً إلى بيت المقدس تألفاً اليهود ، كما يقول المفسرون ، ولبث على ذلك ستة عشر شهراً . وقبل موقعة بدر بشهرين أمره الله بالاتجاه في صلاته إلى البيت الحرام . وفي أثناء الفترة التي كان فيها وهو بالمدينة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس لم يقبل اليهود الدعوة الإسلامية ، فكان في ذلك شيء من الحرج ، وخصوصاً أن اليهود كانوا يتمدون أن يظل النبي متجهاً إلى قبلتهم ، وكان النبي يقلب وجهه في السماء منتظراً الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام ، ولأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس ، فنزل القرآن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام . ورغم ما في هذا كله من سياسة إلهية حكيمة في التألف وفي الامتحان فإن البعض منذ عهد النبي عليه السلام تساءل ، في شيء من الاستنكار ، عن سبب تغيير القبلة ، فوصفهم الله بأنهم « سفهاء » ونبههم إلى الحكمة في ذلك . والإســـلام قد أراد جمع كلمة أهل الديانات المنزلة كلهم فلم يستجيبوا له ، فأراد تجاوز الخلاف بينهم بالتمسك بدين إبراهيم والاتجاه إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ، لأن أهل الديانات الثلاث ينتسبون إليه — راجع تفسير سورة البقرة آية ١٤٠ فما بعدها — المترجم] .

أسسها ، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية[1] . وبذلك انتزع إبراهيم ، أو التوحيد من اليهود وجعل مؤسساً لإسلام عربى قبل الإسلام ، واعتُبرت مكة هى مركز هذا الإسلام . ومن هذا الطريق فُصل الإسلام عن اليهودية فصلا نهائياً وجُعِل ديناً عربياً قومياً .

وهكذا أدمجت مكة فى الإسلام من الناحية الروحية قبل أن تُفتَتَح . أما فتحها فقد جاء بعد ذلك ، فى العام الثامن من الهجرة ، وقد تم فتحها صلحاً ، بأمان أُعطى سراً لأبى سفيان . أما ما كان هناك من خوف من أن تفقد مكة ، بسبب الإسلام ، جاذبيتها الدينية عند العرب ، وهى الجاذبية التى كانت مصدر حياتها الاقتصادية ، فقد زالت أسبابه مُقَدَّماً . والحق أن مكة قد استفادت أكثر مما كانت تستفيد من قبل ، وذلك لأنها وحدها هى التى بقى لها بيتها المقدس عند العرب ولأنها احتفظت بالعيد الذى يقام قريباً منها ، على حين أنه قد قضى على جميع الأماكن الأخرى التى كانت للشعائر الوثنية القديمة . وقد ألحقت الحرب بين قريش وبين محمد [عليه السلام] أضراراً كبيرة بقريش ، فلما انتصر حرص على أن يثبت لهم كم من الخير لهم أن يكونوا له أصدقاء ، فوهب لكبارهم عطايا كبيرة ،

---

(١) هذا رأى المؤلف ، وليس عليه برهان أصلا . ومن أين عرف أن إبراهيم لم يؤسس البيت الحرام ، إذا كان العرب يعرفون ذلك قبل الإسلام . ولو فرض أن النبى عليه السلام هو الذى أخبر بذلك ، فلماذا لم يعارضه العرب على شدة حرصهم على معارضة الحق ! إن العرب هم وحدهم الذين يعرفون من الذى بنى البيت الحرام بمكة ، والمعروف أن المؤلف فى كتاب آخر له يعلل ظهور الإسلام تعليلا طبيعياً ويجعل التوحيد العربى ثمرة العبقرية العربية ولتأثير يهودى نصرانى ، وأين هذا كله بالنسبة للدين الجديد المبين فى القرآن . إن الإسلام الذى جاء به محمد عليه السلام شىء آخر غير ما فى اليهودية والنصرانية ، وإن كانت هناك وجوه شبه عامة وظاهرية بين الإسلام من جهة والديانتين السابقتين عليه من جهة أخرى . والتوحيد السامى لا يمكن أن يكون قد ظل مقتصراً على شمال جزيرة العرب ، فلا بد ، بحكم جميع ظروف الجوار والاتصال من أن يتسرب التوحيد السامى من الشمال إلى الجنوب ، كما تسربت اليهودية والنصرانية بعد ذلك ، أما ما يسمى الوثنية العربية فى مكة فهو التوحيد القديم شابته شوائب وثنية ، ويعرف مؤرخو العرب — وهذا ما يدل عليه القرآن أيضاً — أن العرب كانوا موحدين ، ولكنهم كانوا يتقربون إلى الله بأصنام أو آلهة اتخذوها وسيلة لذلك — المترجم] .

وغمرهم بآيات كرمه ، وسمّى هذه الطريقة لإقناعهم بالإسلام « تألّفَ القلوب ».
وكان حبه الفطرى لوطنه الذى ولد فيه يلعب دوراً فى ذلك ، وقد ذهب فى سعيه إلى تألف القرشيين بإظهار رضاه عنهم بكل الوسائل إلى حد أن الأنصار خافوا من أن يجعل مكة مقر الرياسة ويترك يثرب . ولكن هذا الإشفاق لم يكن له ما يبرره ، فبقيت يثرب عاصمة الحكومة ، ولم ينتقل محمد إلى مكة ، بل هاجر القرشيون الطامحون الذين أرادوا التقرب منه ومن الحكومة ، إلى المدينة ، وكان أبو سفيان وبنو أمية من أول من هاجر إليها . ولكن هذا لم يكن فى مصلحة الأنصار ، لأن المهاجرة[1] صاروا يزدادون باستمرار فى مدينتهم ، آتين لا من مكة فحسب ، بل من جميع أنحاء جزيرة العرب ، وصارت للمدينة جاذبية كبيرة أثرت فى ذوى الطبائع المتوثبة الذين أرادوا تجربة حظهم ، وقد رحب بهم النبى كما يرحب بقبول ما تزداد به قوته ، دون مبالاة بما كانوا عليه ، ولو كان وراء أحدهم ماض غير نقى تماماً .

وقد انتظرت القبائل العربية حتى ذلك الوقت . وبعد فتح مكة وما أعقبه بسرعة من إخضاع هوازن أذعنوا للمنتصر قبيلةً بعد الأخرى واعتنقوا الإسلام . ولم يكن الأفراد هم الذين فعلوا ذلك ، بل فعله أمراء العرب بالنيابة عن قبائلهم ، وصالح رؤساء العرب وشيوخهم محمداً [عليه السلام] ، وحاولوا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم أيضاً . فإذا كانت إحدى القبائل مثلا قد انقسمت بسبب النزاع حول الإمارة فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان يحاول من طريق الدخول فى الإسلام ، أن يتقوى على الفريق الآخر ، وكثيراً ما عرضت هذه الفرصة الملائمة لمحمد [عليه السلام]. وعلى هذا كان الدخول فى الإسلام عملا سياسياً وانضماماً إلى الأمة فى المدينة ، وكان الأمر مقصوراً على قبول

---

(١) [يستعمل المؤلف نفسه هذه الكلمة وهى موجودة فى كتب التاريخ ، لكن الأشهر هى كلمة المهاجرين ، وقد استعملها القرآن — على أننا لم نغير ما اختاره المؤلف — المترجم] .

مظاهر الإسلام وعلامات سيادته ، خصوصاً الصلاة والأذان ودفع الزكاة ، حتى إذا تمّ الاتفاق على دخول الإسلام بعث النبى إلى بلاد القبائل من يقيم الصلاة بينهم ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة ، فكان الاعتراف باللسان كافياً ، وكان الإيمان ، فى أقوى درجاته ، إيماناً ضمنياً (fides implicita) .

وكانت خاتمة إدماج جزيرة العرب كلها فى الإسلام تلك البراءة التى كانت فى السنة التاسعة من الهجرة وأيضاً حجة الوداع فى السنة العاشرة ، فأعلن أن الحج إلى مكة وأن العيد الذى يقام إلى جوارها أشياء إسلامية خالصة ، فلا يصح للمشركين أن يحجوا إلى مكة ، وبذلك أبعدوا عن ميراثهم الخاص ، وهو الميراث الوثنى الخالص[1] ؛ ولم يكف هذا ، بل اعتُبِرت جزيرة العرب كلّها أرضاً للإسلام وحده ؛ فأما جميع العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك فقد أنذروا بذلك وبأنهم لا عهد لهم ولا ذمة بعد أجل حُدِّد لذلك[2] ، وأما الذين دخلوا فى الإسلام وحكومته التيوقراطية فلهم السلام من الله ، ولا يجوز أن تكون بينهم حروب ؛ وكان الإسلام قد جرّ القلم على الماضى وعلى أسباب الحرب من قبل ، أما الآن فهو أعلن أن كل مطالبة بدم سابق أو بدية سابقة يجب أن تكون تحت الأقدام[3] .

---

(١) [لا يزال المؤلف يتكلم على أساس نظريته ، وهى أن التوحيد العربى تطور من الوثنية ، وهذا عكس الواقع فى مكة ، فالتوحيد هو الأصل والوثنية طارئة ، وكما قلنا من قبل لا يعقل أن يبقى دين إبراهيم أو التوحيد السامى دون أن يتسرب إلى داخل جزيرة العرب فى العصور القديمة ، كما أن اليهودية ، والمسيحية بعدها ، تسربت فى عصور تالية ، هذا إلى أن فى مأثور العرب أنفسهم ما يدل على أن الوثنية التى كانت فى مكة جاءت قبل الإسلام بقرون قليلة ، بل إن اسم من جلب هذه الأصنام معروف . والمؤلف نفسه يعرف ذلك كما يدل عليه ما يذكره عن كتاب الأصنام لابن الكلبى ، وهو قد ذكر ذلك فى كتابه : بقايا الوثنية العربية ، والعرب هم الحجة فى معرفة تاريخهم ، وكل الفروض والاستنتاجات مهما كان فيها من الحلق لا تقوم حجة على العرب — المترجم] .

(٢) [هــذا ما تدل عليه الآيات الأولى من سورة براءة ، فليرجع إليها القارئ وإلى تفسيرها والروايات المذكورة فى ذلك — المترجم] .

(٣) [يشير المؤلف إلى ما جاء فى خطبة حجة الوداع من وضع أى إلغاء دماء الجاهلية وما كان فيها من ربى ، ومن تقرير بدء حياة جديدة ليس فيها ثأر ولا عصبية ، وهذه الخطبة —

وكان ذلك ضرباً من إسقاط الديون (Seisachtie) مغايراً كل المغايرة لما فعله سولون وأبعد منه أثراً وأوسع نطاقاً . ومن المدينة انتشر سلطان الدولة التيوقراطية على كل جزيرة العرب ، وبقيت القبائل على حالها ، وبقى أشرافها على ما هم عليه ، ولكن كان لأصحاب النبى الذين أرسلهم فيهم ضربٌ من الإشراف عليهم فى كثير من الأحيان ، ودخلوا جميعاً فى بناء دولة واحدة ، مقر حكومتها فى المدينة . وكان تأسيس هذه الدولة التى قضت على الفوضى وأزالت الفرقة التى شملت جزيرة العرب ، إن كانت دولة مفككة ، هى الحجر الأخير فى البناء الذى شاده محمد [عليه السلام] . فهو لم يَمُتْ كما يموت شهيد مضطهد ، بل هو مات وهو فى أوج النجاح ، وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [فى الأرض] على الأساس الطبيعى الذى وجده أمامه فهو وإن كانت الضرورات العملية ، فى كثير من الأحيان ، قد اضطرته أو هى انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة[1] ، من غير أن يسند ذلك لا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً .

« ٤ — وقد حسبت قبائل العرب أنها إنما بايعت للنبى فحسب ، وساد بين العرب الرأىُ القائل بأن هذه البيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له ، فبعد أن توفى النبى ارتدوا عن الإسلام ، ولكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله ، بل هم أرادوا التنصل من حكومة المدينة . وكان الموقف فى داخل المدينة نفسها موقفاً حرجاً ، ولكن الحكومة التيوقراطية تغلبت على الموقف الحرج

= بما تضمنته من إعلان الحقوق وبيان الواجبات المتنوعة وثيقة من أهم الوثائق فى تاريخ الإسلام ، فليراجع القارئ هذه الخطبة فى كتب التاريخ والحديث والأدب — المترجم] .

(١) [كالحرب أو إخراج اليهود الذين خانوا فى مكة فى رأى المؤلف ، كأنما يعتبر ذلك وسائل غير مقدسة وغير صحيحة ، والحق أنها هى الوسائل التى لا بد منها فى الدفاع عن الحق ودرء خطر الباطل عليه . ولا يوجد دين حق إلا وقد اضطر أن يدافع عن نفســه بالجهاد والاستشهاد . وينبغى ألا يفكر الإنسان فى ذلك بقدر ما يفكر فى عناد أهل الباطل ، وأنه لا يمكن درء شرهم إلا بالدفاع عن النفس بالقوة — المترجم] .

الذى نشأ على أثر تغير الحاكم ، وأرغمت جزيرة العرب على الطاعة مرة أخرى[1] ، وبدا أن خير وسيلة لرأب الصدع هى التوسع نحو الخارج ، هذا التوسع الذى أعقب إخضاع التمرد الداخلى على الفور . وكان الجهاد ، وهو الحرب فى سبيل الله ، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة تحرص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به . ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب[2] ، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية[3] ، لأنه لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة ، أما فيما يتعلق بما عدا جزيرة العرب فقد كانت هناك قاعدة غير القاعدة التى اتُّبعت بالنسبة للعرب ، ذلك أنه لم يترك للعرب مجال للاختيار ، بل كان لا بد لهم أن يدخلوا فى الإسلام . وكان المقصود من هذه السياسة هو أن لا يكون فى جزيرة العرب كلها دينٌ إلى جانب الإسلام[4] . وقد ذهب اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن يدخل أحد فى الإسلام دون أن يلحق بقبيلة عربية أو يندمج فيها . أما غير العرب فإنهم لم يُكرَهوا على الدخول فى الإسلام ، بل كان أول ما يُظَن هو فى الواقع أن يبقوا على دينهم السابق . وهم ، من حيث أنهم ليسوا عرباً ، لم يكن ينطبق عليهم معنى العضو المواطن الأصيل فى الدولة التيوقراطية ، ولا

---

(١) [يقصد المؤلف انتقاض العرب بعد وفاة النبى عليه السلام وعصيانهم مما أدى إلى حروب الردة — المترجم] .

(٢) [ولكن الاتجاه نحو الخارج كان مواصلة لسياسة النبى نفسه عليه السلام ، فهو قد ذهب إلى شمال جزيرة العرب درءاً لغزو محتمل أو لمعرفة أحوال الحدود . ولو لم يغز العرب من حولهم لغزاهم من حولهم — المترجم] .

(٣) [هذا لا يصدق على الفتوحات الأولى ، وقد حدث فيما بعد أن بعض القواد كان يؤثر الفتح عنوة على الصلح لما يجره الأول من غنيمة ويوطده من سلطان — المترجم] .

(٤) أما تغلب التى سمح لها أن تبقى نصرانية ، فقد كانت تقطن أرض الجزيرة . [وفى حديث عن النبى عليه السلام أنه قال : لا يبقى دينان فى جزيرة العرب . ولا شك أن هذا كان لأجل حماية الإســـلام فى موطنه الأول . ولذلك أجلى عمر بن الخطاب نصارى نجران لما خالفوا شروط الصلح التى كانت بينهم وبين النبى وصاروا خطراً يتسرب منه الفساد إلى المسلمين — المترجم] .

كان يجوز لهم أن يدخلوا أعضاء مواطنين فيها ، وإنما كان يجب أن يدعنوا لسيادتها فحسب : وكان هذا هو الغرض من محاربتهم[1] .

وهكذا نشأت من الدول العربية التى كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، أعنى دولة تيوقراطية سادت العالم . وكانت هذه الدولة تشتمل على طبقتين من المواطنين ، متمايزتين من الناحية السياسية ومن الناحية الدينية . وكان سادة هذه الدولة هم العرب من حيث هم مسلمون ، وفى الوقت نفسه من حيث هم محاربون وفاتحون ؛ وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولا تاماً ، وصارت الصلاة والصيام وبقية الشعائر الدينية فى المرتبة الثانية بعد الجهاد ، وأشرق الإسلام فى نفوس أهل البادية على هذه الصورة ، فكان بمثابة الراية التى تقودهم إلى النصر والغنيمة ، وعلى أسوأ الاحتمالات إلى الجنة . وفى الظروف والأحوال التى جاءت بعد ذلك بدأ تنظيم الدولة التيوقراطية فى البلاد المفتوحة ، كما ينظم الجيش تماماً ، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش ، وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه ، ولم يكن جميع

---

(١) [هذا غير صحيح ، بل الصحيح الذى وقع وسيقوله المؤلف فى أكثر من موضع فى كتابه هو أن من أسلم صار عضواً فى الدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن لم يسلم من أهل الكتاب فعليه الجزية فى مقابل تمتعه بحريته فى دينه وماله وإعفائه من الواجبات الحربية . أما غير هؤلاء فلا بد أن يدخل فى الإسلام أو دين منزل آخر . والمؤلف يصور الإسلام على أنه دين العرب وحدهم ، مع أن القرآن والحديث صريحان فى أن النبى عليه السلام أرسل إلى الناس كافة وأن الآدميين من أب واحد وأم واحدة وهم سواء ، وأن القرآن دعا كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إلى الدخول فى الإسلام ، وأن النبى عليه السلام جعل مولاه ، ولم يكن عربياً ، قائداً على كبار العرب ... الخ ، وإنما انزلقت قدم المؤلف بسبب أنه نظر فى مسألة فرض الإسلام على العرب فظن أن الإسلام = العروبة ، وأن الإسلام = دولة العرب على من عداهم ، والحق أن إلزام العرب الدخول فى الإسلام كان لحماية الإسلام فى داخل وطنه ، وأن الإسلام يعطى صاحبه الحق فى أن يكون مواطناً فى الدولة الإسلامية . أما إذا كان العرب لم يرضوا أن تكون الخلافة فى غير العرب واقتتلوا عليها فهـذا شىء طبيعى ، وكيف يكون الأمر طبيعاً لو أن العرب حملوا الإسلام ودافعوا عنه وأسسوا دولته عشرات السنين ثم تولى أمرهم غير عربى لم يعرف الإسلام بعد ، مع أن الدولة دولة دينية — المترجم] .

العرب يقيدون فى ذلك الديوان بل المقاتلة منهم فحسب ، وكان المقاتلة يسمون ، تمييزاً لهم عمن يبقون فى ديارهم « بالمهاجرة » أى الذين ينتقلون إلى المعسكرات الكبرى التى منها كانت تُنَظَّم الحربُ وتوجَّه ، وذلك أن الهجرة لم يكن لها معنى الهرب بل الهجرة (بالأهل والولد) إلى المراكز السياسية الحربية لأداء أعمال[1] ، ولم يكن يستطيع الإنسان فى الإسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة إلا فى الجيش وفى المدن ومعسكرات الجيش الكبرى . أما الأعراب الذين بقوا لا يعملون شيئاً ، فى ديارهم ومع قطعانهم ، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل ، وكادوا ألا يعتبروا مواطنين على الإطلاق[2] . وكانت دار الهجرة الأولى أو دار الإسلام هى المدينة ، وإليها كان يسير فيض أهل التوثب والطموح ، ثم أضافت إليها عواصم الأقاليم (مصور ، جميع مصر) فكانت الهجرة إليها ، من حيث المعنى ، ممكنة . وكانت توجد فى الشام من قديم مدن اختيرت لذلك . أما فى غير الشام ، فقد بنيت مدن حربية ، كالفسطاط فى مصر ، والقيروان فى إفريقية الرومانية ، وخصوصاً البصرة والكوفة فى أرض العراق .

ومن هذه المدن التى كان العرب قد تجمعوا فيها فرض العرب طاعتهم على البلاد التى فتحوها ، وكان الأمر أمر سيادة حربية صرفة ، وكان الأمراء الذين

---

(١) نجد هذا المعنى للهجرة فى كتاب الحماسة مثلا ، ص ٧٩٢ بيت ٣ :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغى * ولكن دعاك الخبز ، أحسب ، والتمر

قارن أيضاً ديوان القطامى . ق ٤ ، بيت رقم ٢٥ :

فليس من الأحياء إلا مسود * ربيعة ، أعرابية ومهاجره

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٥ س ١٨ ، ص ٥٩ س ١٥ — ٢٠ ، قارن مقالى عن الخوارج (فى Göttinger Ges. der Wiss. 1901, p. 9.) [فى المواضع التى يشير إليها المؤلف من كتاب الخراج حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر أعراب المسلمين أنه ليس لهم فى الفىء والغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فمن لم يجاهد ولم يك فقيراً أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شىء له فى الغنيمة والفىء ، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة — المترجم] .

تُفتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليها . وكذلك كان من جاء بعدهم قواداً حربيين قبل كل شيء ، ولكن كما أن الجيش كان في نفس الوقت هو الأمة ذاتها ، فكذلك كان الأمير هو الإمام ، إمام الصلاة في المسجد ، خصوصاً يوم الجمعة ، وفيه كان يخطب خطبة الجمعة ؛ فكان يُعيَّن على الحرب والصلاة ، وكانت الحرب والصلاة معاً من اختصاصه ؛ وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية ، ولحق بها الفصلُ الأعلى في أمور القضاء ، لأن من مقتضياته القوة القادرة على فرض السلام . وكان الأمير يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر ، ثم صار يعين قاضياً في العاصمة(1) .

وكان الأمير يترك الإدارة الداخلية ، والقضاء إلى حد ما ؛ لمن يليه في حكومة ولايته . وكذلك احتفظ العرب في الأقاليم التي فتحوها بنظامهم القَبَلي السابق ، غير أن فرقاً ظهر بالنسبة لما كان الحال قبل . ففي الوطن العربي الأول لم يكن يتألف اتحادٌ حقيقي إلا من جماعة صغيرة نسبياً ، وهي الجماعة التي كانت تحل للرعي معاً وترتحل معاً ، وكانت تعدّ نفسها مع غيرها من القبائل تابعة لجماعات أكبر فأكبر ؛ ولكن هذه الجماعات لم يكن لها من هذه الناحية العملية كبير شأن . أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فقد تغير هذا الوضع ، ولم تكن القبيلة كلها تهاجر إلى الخارج وتقيم مجتمعة في مكان واحد بعينه ، وإنما كانت أجزاء من القبيلة تخرج إلى هنا وإلى هناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فكانت لذلك تنضم إلى أجزاء أخرى من قبائل قد هاجرت أيضاً وتشترك معها في نسب أعلى ، وذلك لكي يتسنّى الوصول إلى الانسجام الذي لا بد منه في الجماعة ، وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان

---

(١) لم يكن يوجد في عهد عمر الأول [عمر بن الخطاب] مثل هذا القاضي ، ويروى أنه في ذلك الوقت لم تحدث منازعات على الإطلاق ، وأول ما نسمعه عن وجود قاض في الكوفة في عهد معاوية أو ابنه يزيد . وفي طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٩١ أن شريحاً كان قاضياً عينه عمر بن الخطاب على الكوفة .

رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معاً مجتمعين فى معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالا وثيقاً ؛ فنى الكوفة مثلا ، كان هناك ما يشبه خريطة حقيقية تبين توزيع القبائل التى هاجرت من البادية ، على تفرعها الكبير ، وهذا يفسر كيف أنه من طريق نوع من أنواع الاندماج صار لبعض الجماعات القبلية الكبيرة شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد فى جزيرة العرب نفسها . ولم يزل هذا الاتجاه إلى تكون جماعات من القبائل يزداد نطاقاً بتأثير طروء أحوال أخرى ، حتى أصبح عاملا خطيراً فى التاريخ الداخلى للدولة العربية .

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا[1] الخاضعين ، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة ، فكان لابد لهم أن يُهَيِّئُوا الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التى يدفعونها كرعايا والتى كانت تُشْعِرُ بالغضاضة وكانت وطأتها عليهم أشد من وطأة الزكاة التى كان يدفعها المسلمون . وكان تدخُّل الدولة العربية فى شئونهم الداخلية — إذا لم تدع إلى ذلك حاجة — أقل من تدخلها فى شئون القبائل . أما فى الجهات التى كانت من قبل تابعة للدولة الرومانية فكثيراً ما بقى الأساقفة رؤساء مدنيِّين لطوائفهم الدينية ، كما كانوا من قبل . وفى فارس ظل الدّهاقنة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل البلاد ، أينما وجدوا ، هم المسئولين عن الضرائب . ولم تكن الحكومة يهمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، وكان على الوالى أن يفرض الطاعة على الرعايا ، حتى يُؤتوا الخراج ، ثم صار يضم إليه فى بعض الأحيان عامل على الخراج مستقل بذاته ، ولم يكن ذلك مما يُسَرُّ له الوالى ، لأن عمله عند ذلك كان يصبح مقصوراً على أن يمسك البقرة من قرونها حتى تسكن ، على حين يحلبها شخص آخر .

---

(١) إنى أستعمل كلمة : رعايا (Untertanen) بهذا المعنى الضيق فى مقابل العرب ، أصحاب السلطان الحقيقيين فى الدولة .

وكان الأساس لفرض الضرائب على الرعايا ولتنظيم مركزهم القانونى بوجه عام هو قانون الغنائم العربى القديم ، فى الصورة المعدّلة بعض الشىء والتى أقرّها محمد [عليه السلام] بحسب القرآن . فكان إذا خَضَعَتْ مدينةٌ أو أرضٌ للمسلمين صُلْحاً بغير قتال أصبح أهلها آمنين على حياتهم وحريتهم وما يملكون ، لكن كان يجب عليهم فى مقابل هذا الأمان وفى مقابل الحماية من جانب الدولة أن يدفعوا إتاوة بمقدار معلوم بحسب قاعدة يُنَصّ عليها فى كتاب الصلح[1] . أما إذا سلّموا عنوةً فإنهم يقعون تحت طائلة قانون الحرب ، أعنى أنه يسقط كل حق لهم ، فكانوا يعتبرون هم وكل ما يملكون غنيمة للمنتصر ، وكان الخُمُس يؤخذ لله ، أى للدولة ، وكذلك كانت صوافى الملوك والضياع والقرى التى يتركها أهلها ويهربون عنها تصبح للدولة[2] . أما ما عدا ذلك ، لا الممتلكات المنقولة فحسب ، بل الأرض والناس أيضاً ، فكان ينبغى ، طبقاً للقانون ، أن يُقَسَّم ، لكن لا على جميع المسلمين ، بل على مقاتلة الجيش الذى قام بالفتح . ولكن هذا القانون لم يمكن تنفيذه ، لأن مثل هذا التغير الهائل فى الممتلكات كان مستحيلا ، حتى لو لم يصب أهلَ الطبقات الدنيا إصابة كبيرة ، لأنهم لم يكونوا يملكون الأرض ، وإنما كانوا يزرعونها . ولم يكن العرب يستطيعون أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، إلا إذا كان يُرادُ لَهُ أن يتحول إلى أرض خربة ، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا فى فى تلك الأرض الواسعة لكى يزرعوها ، بل كان لابد لهم أن يتجمعوا فى معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم . ويروى أن النبى عليه السلام قال[3] : « جُعِل رزقُ أمّتى فى سنابك خيلها وأزجّة رماحها »

(١) وفى بعض الأحيان كانوا يقومون بخدمة عسكرية على حدود الدولة ، وعند ذلك كانوا يعفون من دفع الإتاوة لأن الإتاوة كانت تعتبر مقابلا للإعفاء من الخدمة العسكرية وقيام العرب بها .

(٢) يحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٣) يحيى بن آدم ٥٩

ما لم يزرعوا ؛ فإذا زرعوا كانوا من الناس » . وفوق هذا كان لابد للعرب أن يُفكّروا فى المستقبل ، فلو أن كل شىء قُسّم على الفور بين الفاتحين الحقيقيين ، لتبددت الغنيمةُ التى حصلوا عليها بالسرعة التى غنموها بها[1] . ولذلك اعتُبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأعيرت لملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها[2] . وهذه الغلة وحدها هى التى كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذراريهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال ، بل ما يخرج منه . وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التى فُتحت عنوة بأسوأ حالا ، فى الحقيقة ، من المدن التى سلّمت صلحاً ، وكذلك كان اسم الإتاوة فى الحالين واحداً[3] ، غير أن الإتاوة فى الحال الثانية كانت تحدد فى شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى[4] .

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفىء العصر الذى جاء بعد محمد [عليه

---

(١) [جاء فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ١٣ س ١٢ – ١٧ ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقى بعدهم شىء » – المترجم] .

(٢) وكذلك نجد فى سفر التكوين ، ٤٧ ، أن الضريبة التى كان على الزراع المصريين أن يدفعوها لفرعون علامة على أن أرضهم ملك لفرعون وأنهم عبيد له .

(٣) يقول يحيى بن آدم (ص ١١) إن كل أرض سقتها الأنهار أو سيق إليها الماء منها فهى أرض خراج ، راجع أيضاً : ص ١٣ ، ٣٣ ، ٣٥ فما بعدها .

(٤) لكن الآخرين أيضاً انتحلوا لأنفسهم ، فيما بعد ، وثائق تسليم ، ولم يكن هذا عسراً نظراً لقلة المعرفة بالدبلوماسية والغموض التاريخى الذى سرعان ما أحاط بعصر الفتوحات المضطرب [وفيما يتعلق بعدم جواز التغيير فيما صولح عليه أهل الصلح الذين خلى بينهم وبين أرضهم ، راجع كتاب الخراج ص ٦ و ٩ : على أهل الصلح أن يؤدوا ما صولحوا عليه ولا يوضع عليهم شىء ، ما أدوا عليهم ؛ فإن عجزوا عنه خفف عنهم ، وإن احتملوا أكثر مما يؤدون فلا يزاد عليهم شىء ، ولا يطرح عنهم شىء لموت من مات أو إسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بجملة ما عليهم من بقى منهم ، ما كانوا يطيقونه ويحتملونه . فالقاعدة هى أنه لا يزاد عن أهل الصلح شىء ، ولا يخفف عنهم شىء من خراج أو جزية إلا إذا عجزوا عنه . أما القاعدة العليا فهى ألا يكلفوا فوق طاقتهم – المترجم] .

السلام] فكانت الغنيمة هى الممتلكات المنقولة التى تُحمل إلى العسكر ، وكذلك الأسرى الذين كانوا يقسمون بين المحاربين كما كانت الحال من قبل . أما الفَىْء فكان هو ما يُغنَم من أرض ثابتة هى ومن عليها من السكان ، وهى لم تُقسَّم بل تُركت لمالكيها القدماء فى مقابل إتاوة ، بحيث كان لا ينال مالكوها الحقيقيون بحسب قانون الحرب إلا غلّتها[1] . ولكن الدولة كانت

---

(١) كلمة الفىء مأخوذة من القرآن (سورة ٥٩ (الحشر) آية ٦ و ٧ . لكن لم يكن يفرق فيه بين الغنيمة والفىء ، بل هذه التفرقة غير جائزة ، ومعنى الكلمة هو فى الحقيقة معنى الكلمة اللاتينية : reditus أى : العائد المردود كربح . . . (يحيى ص ٣٣ — وابن هشام ص ٨٩٠ س ٧) . ولكن لا تستعمل فى الدلالة على ما يرتفع من الغلة فحسب ، بل أيضاً على رأس المال الذى يأتى منه الفىء ، والفقهاء المسلمون يعتبرون ، بطبيعة الحال ، أن الفرق بين الغنيمة والفىء فرق قديم ، ولا يسلمون بأنه لم ينشأ إلا فيما بعد ، عند التطبيق العملى ، خلافاً لما يؤخذ من القرآن . [وأهم الآيات التى ورد فيها ذكر الفىء والغنيمة هى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » (سورة الحشر (٥٩) آية ٧) ؛ « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير » (سورة الأنفال (٨) ، آية ٤١) . فالآية الأولى تفصل بيان أصحاب الحق فى الفىء ، والثانية تبين نصيب أصحاب الحق فى الغنيمة على الإطلاق ، وهم أصحاب الحق فى الفىء تماماً . ومن الواضح أنه بحسب هاتين الآيتين لا فرق بين الغنيمة والفىء ، من حيث دلالة اللفظ . ويؤخذ مما جاء فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٣ — ٥) أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، وهى جميع ما أصابوا من شىء ، قل أو أكثر ، حتى الإبرة . أما الفىء فهو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال ، من جزية أو خراج ، وهو كله لمن سمى الله من المستحقين له ؛ والغنيمة فيها الخمس لله ، وهو مردود من الله على من ذكره من المستحقين له الذين هم أصحاب الفىء أيضاً ، ولا يصح أن يوضع فى غيرهم ، والإمام يعطيه لمن حضره منهم بعد اجتهاد الرأى وتحرى العدل ، أما ما بقى بعد الخمس فهو ، من حيث المبدأ ، للذين غلبوا عليه من المسلمين وأوجفوا عليه ، راجلين أو بخيل وركاب .

أما الأرض التى تؤخذ عنوة ، فللإمام إما أن يأخذ الخمس منها ليكون فيئاً ويقسم الأربعة الأخماس الباقية على من ظهر على أرض العنوة من جيش المسلمين ، وإما أن يقفها كلها على جميع المسلمين . ويروى أن النبى [عليه السلام] وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وأنه قسم بعض ما ظهر عليه ، فللإمام بحسب ما يرى من المصلحة أن يقف أرض العنوة كلها فيجعلها فيئاً ، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد فى العراق ، وإما أن يقسمها ، بعد أن يأخذ

تجبى هذه الغلة بواسطة موظفيها ، ولم تكن بعد ذلك تعطى الغلة الكاملة فى كل عام للمقاتلة أو لوارثيهم ، بل كانت تدفع لهم أعطيات وأرزاق ثابتة ، على حين يبقى ما يفضل عن ذلك فى بيت مال الدولة .

وعلى هذا ظل التنظيم الإدارى فى البلاد المغلوبة جزءاً من نظام الاحتلال العسكرى إلى حد كبير ، مما يؤدى إلى استغلال الرعايا . على أن ذلك لم يغير من الوضع الذى كانت عليه الأشياء حتى ذلك الحين إلى قليلا . فتغيرت السيادة ولكن موقف سواد الشعب البائس الذى يحتمل عبء دفع المال (misera contribuens plebs) بقى كما كان تقريباً واقتصرت الإدارة العربية على الناحية المالية ، وكان ديوانُ إدارة الدولة ديوانَ حساب ، وقد احتفظ العرب بالكتّاب اليونان والفرس . وكان هؤلاء الكتاب هم الموظفين الفنيين الوحيدين الذين عندهم ، وهم أيضاً قد احتفظوا فى الجملة بأسماء الضرائب القديمة وأنواعها ، ولم يغيروا كثيراً فى وضعها وجبايتها . ويروى ما كان من أمر الرجلين اللذين كانا قد قدما من المدينة لمسح أرض العراق وفرض خراجها أنهما كانا من الحكمة بحيث فعلا أقل ما يمكن واقتصدا فى استعمال مواهبهما كل الاقتصاد[1] . وفى كثير من الأحيان

— خمسها . ومن الواضح أن لكل من الاحتمالين سنداً فى القرآن : فآية سورة الحشر تجعل الفىء فى مستحقين بعينهم ضماناً لتوزيع الثروة توزيعاً عادلا ، وآية سورة الأنفال تجعل خمس الغنيمة — ويظهر أن المعنى هو المعنى المطلق — لأصحاب الفىء أيضاً . أما بقية الغنيمة فهى للمسلمين الذين حصلوا عليها ، ويدخل فى ذلك — إذا أريد الاستنباط الدقيق — كل غنيمة من أرض أو غيرها . ولكن عمر جعل أرض السواد فيئاً ، وقسم ما ليس أرضاً ، أعنى الغنيمة بمعناها الضيق — وثم أشياء من أرض أو غيرها ، هرب أهلها وتركوها من غير قتال ، فهذه للإمام يضعها حيث يرى ، كما فعل النبى من قبل ، فيستطيع الإمام ، إن شاء ، أن يقيم فيها من يعمرها ويؤدى عنها شيئاً إلى بيت مال المسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أيضاً ، أن يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أخيراً ، أن يقطعها رجلا — المترجم] .

(١) [هذه ترجمة حرفية بقدر الإمكان لكلام المؤلف ، وهو لم يشر إلى أى مرجع يمكن الرجوع إليه لفهم ما يريد — المترجم] .

كان الخليفة يقر الإجراءات المؤقتة التي يتخذها قواده ، وكان هؤلاء يضطرون إلى الأخذ بالأوضاع المحلية .

وقد تمت معظم الفتوحات فى عهد عمر ، وهو يعتبر المنظِّم لها . على أنه يتضح مما تقدم أنه لم يكن مُبْتَدِعاً لنظام جديد ، لكن يرجع له الفضل فى أنه نحّى قانون الغنائم العربى جانباً ، وأنه أدخل الدولةَ بين الجيش وبين الأمم المغلوبة ، فحمى الرعية بعض الحماية ، واستند إلى تقوية الدولة على الجيش معتمداً على الخراج الذى كانت تدفعه هذه الرعية .

٥ — ولم يستطع القانون السياسى أن يلاحق فى نموه خطى القوة السياسية المتزايدة ، ولم يكن فى التراث العربى القديم ما يمكن أن يؤخذ منه قانون عملى لتنظيم الحياة العامة للدولة ، ولا كان يمكن أن يؤخذ هذا القانون من مجرد فكرة الحكومة التيوقراطية ، ولم يلبث أن أحسَّ المسلمون بهذا النقص عندما نشأت المشكلة الخطيرة ، مشكلة من الذى له الحق فى الرئاسة العليا الدولة الدينية .

ولم تظهر هذه المشكلة فى حياة النبى [عليه السلام] ، فكان هو خليفة الله والرئيس الدينى الحقيقى ، وكانت الحكومة التيوقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً ، ولم يحدث ما كان يظن من أن ساعة القيامة ستجىء مع موته ، فلم تنته الدنيا ، وتوفى هو دون أن يكون قد تلافى ترك رعيته من غير راع . نعم ، لقد ترك القرآن والسنّة ، ولكن لم يرد فى القرآن والسنة من الذى يُعَيَّنُ خليفة بعده . على أن ذلك لم يكن معناه إمكان الاستغناء عن خليفة بالكلية ، بل كان لا بد من إمام بعينه يؤم الناس فى الصلاة ويرأس الحكومة ، ولم تكن توجد طريقة للانتخاب المنظم ولا كان هناك حق وراثة النبوة[1] .

---

(١) [بعد أن قرر القرآن مبدأ المساواة بين المسلمين ، وقرر أن « أمرهم شورى بينهم » وأوصى النبى عليه السلام بأن يشاور أصحابه ، لم يكن هناك ما يدعو إلى النص على خليفة النبى —

وقد بدا أن موت النبي [عليه السلام] معناه القضاء على الحكومة التيوقراطية ، وكان بين المؤمنين من لم يرد أن يصدق إمكان موت النبي[1] ، وارتدت قبائل العرب عن الإسلام ، وكان الانقسام يهدد المدينة نفسها . ولما لم يكن أمر الخلافة بعد النبي قد اتُّخِذت له الأهبةُ من قبل فلم يبق في الإمكان إلا التصرف الحازم . وكان أقرب الناس إلى الحكومة في عهد النبي عليه السلام هم أتباعه وأصدقاؤه القدماء من أهل مكة ، وكانوا رجالا قلائل ، وكانوا بحكم سابقتهم في الإيمان هم أشراف الحكومة التيوقراطية ، وكانوا أشرافاً من أصل إسلامي حقيقي ، وذوي روح إسلامي حقيقية . وهم وإن لم تكن لهم مناصب رسمية ، فإنه قد كان منهم في الحقيقة « مجلس » الرسول ، وكان لهم مكان كبير عنده . فلما زالت عنهم حمايةُ النبي لم يدعوا أمر الحكومة يفلت من أيديهم ، بل قبضوا على أزمتها بقوة عندما وقعت من يديه . وكان رئيسهم وعقلهم المفكر هو عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الذي يمكن أن يعتبر مؤسس الحكومة التيوقراطية الثانية ، الحكومة التيوقراطية من غير نبي . وكان عمر آدمَ مشرفاً

— عليه السلام ، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاماً ديمقراطياً ويريد أن يجعل اختيار الإمام من حق الأمة ، ولذلك لم ينص النبي عليه السلام نصاً صريحاً على من يخلفه ، ولكنه عليه السلام كأنما أراد أن يعرب عن رأيه هو في ذلك حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس ، وهي الوظيفة الدينية الكبرى ، وكان من الطبيعي أن يخلفه أبو بكر بحكم سابقته في الإسلام وطول صحبته له . ولقد كان من الحكمة السياسية البعيدة التي يغفل عنها كثير من النقاد أن النبي لم يعين له خليفة تاركاً الأمر للمسلمين ، لأن الناس لا يخضعون لرئيس معين خضوعهم لرئيس يختارونه ، وهذا هو الذي يدعو إلى الاستقرار . هذا ولم يكن النظام الديمقراطي بمعناه المعروف في العصر الحديث شائعاً في ذلك الزمان ، بل كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال ، وهم المسمون « أهل الحل والعقد » ، وهذا ما قد حدث عند مبايعة أبي بكر رضي الله عنه ، فهو وعمر لم يكونا متعصبين للخلافة ، بل حريصين على ما هما أهل له ، وقد رضي الناس بهما ، طوعاً من جانب من عرف قدرهما وكرها من جانب الحاسدين الطامعين فيما ليسوا أهلا له . — المترجم] .

(١) [يشير المؤلف إلى ما يحكى من أمر عمر بن الخطاب وذهوله واضطرابه لما قيل له إن النبي عليه السلام قد مات . — المترجم] .

على الناس من طوله ، كأنه راكب . وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع ، والروايات تصوره دائماً والدرة فى يده ، ولم يكن ليناً ، ولا كان يتكلم رويداً ولا يقصد فى مشيه كما يصنع النساك المتكلفون ، ولكنه كان مع ذلك يخاف الله حقيقة ، ولم يكن غافلا قط[1] ؛ ولكنه قدم أبا بكر ، أخص أصحاب النبى . ولما توفى أبو بكر ، بعد فترة قليلة[2] ، تولى الخلافة عمر ، فصارت له الرياسة من حيث الاسم أيضاً[3] ، وقد عهد إليه أبو بكر بالخلافة فى وصية له قبل موته[4] . ولكن هذه الوصية لم تكن من جانب أبى بكر أكثر من إقرار لشىء طبيعى . وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعى ، بل من طريق الاغتصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما ، التى كانت غير شرعية فى أول الأمر ، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد ، وذلك بأن سارا فى الحكم على المبادئ التى تقضى بها الحكومة التيوقراطية ؛ ولما كانت حكومة النبى عليه السلام ، وهو الوكيل الحى لله والحاكم باسمه ، قد انتهت فإن أبا بكر وعمر جعلا الحكم لله بأن جعلا مرجعهما فى الحكم على الأشياء الأخذ بما فى القرآن ، وهو كلام الله ، واتباع سنة النبى عليه السلام . فهما لم يريدا سوى أن يكونا خليفتين لرئيس الحكومة التيوقراطية الشرعى الحقيقى الوحيد ، وهو النبى ، وقد عبرا عن ذلك باللقب الذى اختاراه لأنفسهما ، وهو لقب الخليفة . وقد سمى أبو بكر نفسه خليفة رسول الله ، وسمى عمر نفسه خليفة خليفة رسول الله ، حتى بدا فى ذلك

---

(١) [راجع صفات عمر وسيرته عند الطبرى مثلا ج ٢ ص ٢٧٢٨ فما بعدها — المترجم]

(٢) [كانت مدة خلافة أبى بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام — المترجم]

(٣) [يشير المؤلف إلى ما كان لعمر من نفوذ كبير فى أيام أبى بكر — المترجم]

(٤) وصية الميت عند العرب قديمة ، وكان يجوز للأمير فى الحرب ، بل كان يجب عليه ، أن يعين خليفة له ليتولى الأمر بعد موته ، بل كان أحياناً يعين خليفة لخليفته وهكذا ، وكان المسلمون يشعرون دائماً أنهم أشبه بجيش . قارن كتاب Contin. Isidori Hispana ط Mommsen فصل ٩٨ .

شيء من التكلف والتطويل في التسمية فصار لقب الخليفة ، مع إسقاط المضاف إليه ، لقباً قائماً بذاته ، وإلى جانب ذلك كانا يلقبان بلقب : أمير المؤمنين[1] .

وقد خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم ، فكان أهلُ عشيرتهم وهم قريش ، يشاركونهم فيما لهم من نفوذ ؛ ولم يكن ذلك مقصوراً على القرشيين الذين هاجروا إلى المدينة عام الهجرة ، أو على الأقل قبل فتح مكة ، بل كان يتمتع به القرشيون الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا مكرهين ، بعد أن كان قد تمّ له النصر . وعلى هذا احتفظ النسب والدم بقوتهما إلى جانب الدين .

والقرشيون ، وإن كانوا قد عارضوا الإسلام ما استطاعوا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم بجملتهم أصحاب الحق في رياسة الدولة التيوقراطية ، لأن محمداً عليه السلام منهم ، وقد شدّ أزرهم فيما طمحوا إليه النبيُّ نفسه بالفعل وأصحابُه من بعده . ومن جهة أخرى كان العرب في الجملة لا يرون بأساً في أن تبقى الرياسة في العشيرة أو القبيلة ، وإن لم تَبْقَ في أسرة بعينها ، معتبرين أن السيادة مِلْكٌ لهم جميعاً ، وإن كان لا يتولاها إلا شخصٌ واحد . ولم يعارض في تقدم قريش إلى المرتبة الأولى معارضةً جدية إلا الأنصار . فهم قد استقبلوا القرشيين في أول الأمر ، عندما هاجروا إليهم ، استقبالاً كريماً . وقد هيّئوا لهم المقامَ والمعاش والحماية ، ولم يعارض الأنصار أيضاً في أول الأمر في أن يختصّ النبي أتباعَه المكيّين من وجوه شتى ، ولا في أن يقع على كاهلهم هم العبء الأكبر في القتال ولا في أن يكون لأولئك نصيب الأسد من الغنيمة ، كما حدث مثلاً عند تقسيم أرض الجماعات اليهودية التي أجْلِيَت عنها . ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعورُ بأن هؤلاء القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم ، فقاموا بمحاولات لكي يظهروا

(١) [جاء في الطبري ج ١ ص ٢٧٤٨ : لما ولي عمر قيل له :
يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر : هذا أمر يطول ، كلما جاء خليفة قالوا : يا خليفة خليفة رسول الله ؛ بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسمى : أمير المؤمنين — المترجم]

أنهم سادة فى ديارهم ، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم ؛ وانفجر تذمرهم فى مناسبات كثيرة ، وقد أذكاه بنوع خاص سيدٌ من قبيلة الخزرج كان له نفوذ كبير من قبل ورأى أنه بعد مجىء النبى عليه السلام ، قد نُحِّىَ جانباً . ولكن غيرة القبيلة الأخرى ، قبيلة الأوس ، لم تلبث أن تحركت ضدَّه ، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين لم يكن قد زال ، وكان مفيداً للطرف الثالث الذى كان فوق النزاع . وكان من السهل على النبى فى هذه الظروف أن يهدئ الأنصار دائماً ، وقد كانوا فى الحقيقة أيضاً مدينين له بالشكر ، لأنه أنقذهم من إفناء بعضهم بعضاً بما كان بينهم من تساقك ، فكانوا إذا عادوا إلى صوابهم يقرّون بأنهم ليس لهم عن النبى غنىً(1) . وقد أقلقهم كل الإقلاق ما كان يُظن من أن النبى بعد أن تمَّ له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى مكة . وهكذا سارت الأمور إلى أبعد مما ابتدأت به ، ولم تزل أقدام القرشيين تزداد فى المدينة رسوخاً ، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى ، وكانوا يسمون أيضاً : مهاجرة . وأشرف الأنصار على فقدان الكثرة العددية فى المدينة وصاروا باستمرار ينزلون إلى المرتبة الثانية . وكانوا عند وفاة النبى عليه السلام قد تحركوا حركة قوية لكى يحصلوا على حقهم فى السيادة فى مدينتهم أو ليحافظوا على الأقل على استقلالهم فيها ، ولكنهم نسوا أن المدينة ، منذ زمان ، لم تعُدْ مدينتهم ، بل صارت مدينة الرسول التى جعل منها الرسول شيئاً آخر غير ما كانت عليه من قبل ، فجعلها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام ؛ وقد فوجئوا بحزم عمر وغيره من الصحابة ، ولم يلبثوا أن انقسموا بسبب ما كان بينهم من عداء قديم ، وفقدوا الغالبية العددية ، بعد تدفق

---

(1) [راجع مثلا سيرة ابن هشام ، ط . جوتنجن ص ٨٥٨ لترى كيف تدخل النبى عليه السلام فأنقذهم من التقاتل — المترجم]

المهاجرين من أعراب المناطق المجاورة إلى المدينة ، وقد أخذ هؤلاء الأعراب جانب المهاجرين .

وكان من حسن الحظ أن بدأ فى ذلك الوقت التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب قبائل العرب ، فاختفى الانقسام الداخلى بين أهل المدينة أمام الخطر الخارجى الذى كان يهددهم جميعاً . وكان الأنصار أوفياء لتقاليدهم ، فأخذوا مرة أخرى مكانتهم فى الطليعة فى محاربة العدو ، وكان لهم أيضاً الفضل الأكبر فى الفتوحات ، خصوصاً فى فتوح الشام : ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الإسلامى ، وإن لم يكونوا هم القواد . ولقد بقوا معارضين بعض الشىء للحكام ، ولكن معارضتهم اندمجت فى التيار العام المعارض للحكومة القائمة بالحكم ، وهو التيار الذى كان يتزعمه أهل التقى من المتمسكين بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية . وصارت المدينة مقر التراث الإسلامى وملاذ الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التى أزيلت عن مكانها . وكانت معارضة المدينة للحكومة تظهر فيما بعد ذلك معارضةً إجماعية دائماً . ومن أكبر الخطأ أن يخطر الأنصارُ وحدهم على بال الإنسان فى هذا المقام ، فإنهم فى أثناء التمرد الكبير الذى انتهى بموقعة الحرة[1] كانوا يقاتلون إلى جانب المهاجرين لهزيمة بنى أمية ، فهم قد اتبعوا أصحاب الحق من قريش ولم يظهروا حزباً خاصاً[2] . على أن سيادة قريش نالت اعتراف جميع العرب عدا الخوارج ، وإن كان اعترافا غير برىء من التذمر . وقد وقفت قريش

---

(١) [يقصد المؤلف ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع بعضهم عن أداء الزكاة مما أدى إلى حروب الردة التى انتهت بموقعة الحرة - المترجم]

(٢) يقال إن الأنصار كانوا مصدر حزب المعارضة الذى كونه اليمنيون فيما بعد . ولا أعرف سند هذا القول . وقد كان يمن الشام هم قبيلة كلب . أما فى الكوفة فكانوا همدان ومذحج وكندة ، وفى البصرة وخراسان كانوا أزد عمان . وكان هؤلاء أشدهم تذمراً ، ولم يكن للأنصار علاقة بهم جميعاً ، وكذلك لم تكن لهم مشاركة كبيرة فى تكوين حزب الشيعة ، وإن كانوا قد تعلقوا بعلى فى حياته ، أما أن العلويين كانوا يعتبرون المدينة وطناً لهم وكانوا فيها موضع الإجلال ، فهذا شىء آخر .

من التنافس بين القبائل موقفاً محايداً ، ومهما كان سخط القبائل العربية على سادة قريش العريقين فى الرياسة والمحتكرين لها ، فإن حظ القبائل المتتالية فى الحصول على حق الرياسة كان أقل من حظ قريش .

ولم تكن قريش فى الحقيقة تؤلف وحدة متماسكة ، فلم يكونوا فى أول أمرهم [فى المدينة] سوى أصحاب النبى عليه السلام والرجال الذين يلونه فى الأمر ويعتدّ بهم . ولم تبلغ قريش شأنها فى الإسلام إلا بفضل هؤلاء الصحابة ، لأن قريشاً قبيلتهم وقرابتهم فى النسب . ولكن نشأ بينهم ، بين أفراد هذه الأرستقراطية الإسلامية الحقيقية التى تتألف من الصحابة ، أخطرُ تنافس .

وحدث ذلك بعد موت عمر ، فقامت عند ذلك الوقت مشكلة الخلافة من جديد . ولم يكن عمر قد أوصى لعلى . وكان لعلى ، بحكم أنه ابن عم النبى وزوج ابنته ، مطامع فى الخلافة ، بل هو كان يشعر من قبل أنه قد تُخُطِّى . أما الذى فعله عمر فهو أنه أوصى بأن يكون تعيين الخليفة الذى يخلفه من طريق الاختيار ، ولكن أصحاب الشورى [الذين كان عليهم أن يختاروا الخليفة] لم يكونوا جماعة المسلمين ، ولم تدخل الأمصار فى ذلك ، فكانت المدينة وحدها هى المدينة الرئيسية التى تتقرر فيها أمورُ الدولة ، بل فى المدينة نفسها أُغفل شأنُ الأنصار إغفالا تاماً . ومن جهة أخرى لم تدخل قريش بجملتها فى الأمر ، وكان أصحاب الشورى هم أقدم ستة كانوا لا يزالون أحياءً من أصحاب النبى : وكان عليهم أن يتفقوا على واحد من بينهم ، كأنهم مجلس من الكرادلة (Cardinalscollegium) أما بقية أهل المدينة فلم يكن لهم إلا الحق فى المبايعة لمن يُنْتَخَب ، أو هم بالأحرى كان يجب عليهم ذلك . فكان لا بد من أن تجىء البيعة بعد الانتخاب ، وكان لا بد أن تتم البيعة فى المدينة .

وتخطّى أصحاب الشورى الستة ، هم أيضاً ، علياً ، لأنهم لم يشاءوا أن يعترفوا له

بأنه صاحب الحق الأول ، فانتخبوا الصحابي المسنّ عثمان بن عفان ، من بيت أمية ، وكان أقل الستة تميزاً وشأناً ، وهو كأنما كان قد رشح نفسه لديهم عندما قال لهم : لأن تعينوا حجَراً خيرٌ من أن تعينوا مرة أخرى رجلا مثل عمر . ولكن النتيجة جاءت مُخَيِّبَةً لظنّهم ، لأن ما كان عليه عثمان من ضعف لم يجئ مفيداً لهم ، بل مفيداً لبيته ، لأنه خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته . وكان الأمويون ، شأنهم شأن أسرة النبي عليه السلام ، من بيت عبد مناف ، لكنهم كانوا أشد قوة وأكثر مالاً وأعظم نباهة من بني هاشم وبني عبد المطلب ، وكانوا منذ موقعة بدر قد احتلوا مكان قبيلة مخزوم ، بعد أن انكسرت قوتها في معركة بدر[1] ، وكانوا أيضاً قد توصلوا إلى السيادة في مكة بفضل زعيمهم الماهر أبي سفيان ، وهم الذين ظلوا يتزعمون الحرب التي استمرت سنوات بين قريش من جهة والمدينة ومحمد عليه السلام من جهة أخرى ، وهم وإن كانوا قد هزموا في هــذه الحرب ، فإنهم لم يفقدوا مكانتهم وما كان لهم من نفوذ ، بل هم أنقذوها ودخلوا بها في الجماعة الجديدة التي اضطروا أن ينضموا إليها ، وقد يسّر محمد عليه السلام لهم هذا الانتقال ، وحرص على أن يبيّن لهم أنهم لن يخسروا بذلك . ولما كانت مكة قد فقدت قيمتها السياسية ، فإنهم هاجروا إلى المدينة ، ولم يلبثوا فيها أن صاروا قريبين من دقة تدبير الدولة . ونظراً لأنهم جروا مع ريح العصر وقبلوا الدين بحسب ما كانت تقتضيه الظروف ، فإنهم ارتفعوا عالياً بفضل قوة الموجة التي كانت توشك أن تبتلعهم . ومنذ عهد أبي بكر وعمر نجد يزيد بن أبي سفيان ، ونجد بعد موته أخاه معاوية أشخاصاً لهم شأنهم الكبير ، وإذا كان بروزهم لم يكن في المدينة فقد كان في الأمصار . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن رياسة عثمان كانت رياسة بيته ، فاتخذ ابن عمه مروان بن الحكم

---

(١) راجع فيما يتعلق بالمنافسة بين مخزوم وعبد مناف ، سيرة ابن هشام ص ٢٠٣ فما بعدها و ص ٤٢٩

كاتباً له فى المدينة ، وترك له الأمر ، فلأ مروان كل مناصب الولاية بأهل قرابته ، وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه ، بقية أعضاء مجلس الشورى ، وكانوا خمسة : على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . أما سعد فلم يكن له طموح سياسى[1] ، وأما ابن عوف فقد مات قبل عثمان ، ولكن حلت محلهما السيدة عائشة أرملة النبى الشابة التى كانت تعتبر نفسها من أكبر أهل الرأى فى الإسلام ، وكانت تتمتع باحترام عظيم . وأحس كبار الصحابة أن ارتفاع شأن أسرة حاكمة ، [أعنى بيت بنى أمية] ، يهدد مكانتهم التى كانت لهم حتى ذلك الحين ، وكان هذا هو سبب عداوتهم للأمويين[2] ، فهل يرضون لأنفسهم ، وهم خلاصة المؤمنين فى الدولة التيوقراطية وأصحاب القدم الراسخة فى الإسلام ، بأن تزيلهم عن مكانتهم أسرةٌ من الأشراف الوثنيين القدماء بعد أن كانت هى التى تزعمت قريشاً فى حربها للإسلام ؟[3] فحاول كبار الصحابة ، فى بادىء الأمر ، أن يبعدوا بين الخليفة وبين بطانته ، كما قالوا .

---

(١) [قارن الطبرى مثلا ج ١ ص ٣٣٥٥ — المترجم] .

(٢) كأن المؤلف لا يفترض أن هناك إسلاما فى قلوب هؤلاء الصحابة ولا حرصاً على العمل بأحكامه من إقامة العدل والتمسك بالخير والحق ، فهم فى الحقيقة لم يعادوا أحداً إلا حرصاً على الدين وعلى الحكم العادل ، وإلا فكيف يفسر المؤلف الفكرة التى قام عليها كتابه وهى أن الثورات التى قامت على الأمويين وانتهت بإسقاطهم كانت تستند إلى الدين . إن المؤلف مؤرخ لكنه أحياناً ينظر للتاريخ نظرة سياسية أكثر مما ينبغى — المترجم] .

(٣) [يحكى الطبرى مثلا (ج ١ ص ٢٩١٩) أن أحد ثوار العراق الذين ذهبوا إلى معاوية بالشام قال له فى أثناء المناقشة : إنا نأمرك أن تعتزل عملك ، فإن فى المسلمين من هو أحق منك ! قال : فمن ؟ قال : من كان أبوه أحسن قدما من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدما منك فى الإسلام .

قارن أيضاً رأى على بن أبى طالب فى معاوية وأبيه أبى سفيان عند الطبرى ج ١ ص ٣٢٧٨ — ٣٢٧٩ . وهذا يدل على الأساس الذى عليه كان الصحابة يعارضون بنى أمية ، ولم يكن الطموح السياسى وحده هو السبب فى المعارضة ، كما يؤخذ من كلام المؤلف فيما سبق — المترجم] .

فلما لم يصلوا من هذا الطريق إلى غرضهم انقلبوا عليه هو ، فتعمدوا تقويض هيبته فى المدينة ، وغلوا سخط الساخطين عليه من العرب فى الأمصار .

٦ — ومهما يكن من شىء فقد بدأ التحفز للثورة فى الأمصار[1] ، أعنى فى المدن التى كان يسكنها العرب . وكانت الظروف ، بعد أن توقفت حروب الفتوحات الكبرى ، قد تغيرت ، وجاء الهدوء بعد الهياج ، والتفكير المتزن بعد الاضطراب ، وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك لهم إلى الراحة سبيلاً ، فوجدوا فراغاً للتفكير . وطالما كانت الغنيمة ، وكانت فى الحقيقة نهباً مستمراً ، تتدفق من غير انقطاع إلى أيدى الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة ، فإنهم كانوا لا يبالون ولا يهتمون أن تضع الحكومة يدها على الفىء وعلى الناس وعلى الممتلكات الثابتة فى البلاد المغلوبة ، لأن الجند ما كانوا ليعرفوا ما يضعون بذلك . أما الآن فقد أدركوا أنهم ، من غير أن يشعروا ، قد تركوا غيرهم وسط الهياج والاندفاع فى ذلك العصر ، يستحوذ على خير ما فى الغنيمة . فلو أنهم أُعطى لهم ، على الأقل ، كلُّ مال الفىء ، أعنى جملة مال الخراج الذى يدفعه المغلوبون كل عام ، لرضوا بذلك . ولكن حتى هذا لم يحدث ، كما رأينا ، فكان الخراج الذى يدفعه المغلوبون يجرى كله ، مع بقية أنواع دخل الدولة ، إلى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطى للمحاربين العرب من ذلك سوى أعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التى كانت فى الحقيقة من نصيب الجيش . واستطاعت الحكومة بفضل الحكومات التى تمت على يد الجيش ، والتى هى ، بحكم القانون ، غنيمةٌ له ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، بل استولت

(١) [يستطيع القارئ أن يتتبع تاريخ الثورة على عثمان عند الطبرى مثلا ج ٦ ص ٢٩٠٧ فما بعدها إلى شطر كبير من الكتاب — المترجم] .

على الخراج الذى يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار ، وإلى المدى ، الذى تشاؤه ، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة ، فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وعرتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزانة ، فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا أن المال الذى يجتمع من الخراج ، إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله (الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ وما بعدها)[1] ، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفيء يجب أن تقسم ، وفى بعض الأحيان نهبوا بيوت المال فى الأمصار . وهم على أى حال لم يرضوا بأن يُحمل ما يفضل عنها إلى بيت المال الكبير للدولة ، وكانت غيرتهم من الدولة سبباً فى إثارتهم بطبيعة الحال على عمالها الذين كانوا يتصرفون فى سلطان الدولة ومالها ، ورأوا أن العمال يبعدونهم عن الحيوان ، فسخطوا ذلك[2] .

---

(١) [هذه قصة أبى ذر الغفارى مع معاوية فى الشام وقصته فى المدينة أيضاً ، من دعوة الناس إلى الزهد ومن نهيه عن اقتناء الأموال ، وحضه الأغنياء على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء . والذى يؤخذ مما حكاه الطبرى أن ابن السوداء وهو عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام وأحدث الفتن بين المسلمين هو الذى أوحى إلى أبى ذر بما فعل فقال له يوماً : يا أبا ذر ، ألا تعجب لمعاوية ! يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين . وكان هذا بحسب رواية الطبرى ، نقطة البداية فيما فعله أبو ذر فى الشام وفى كلام معاوية هناك وفى ولوع الناس بكلام أبى ذر حتى لحق الأغنياء من الفقراء شيء من العنت . ويجد القارئ قصة ذهاب أبى ذر إلى المدينة ، إلى عثمان ، بعد أن شكا إليه معاوية أمره ، وأمر عثمان بتوجيه أبى ذر إليه فى المدينة ، وكذلك ما كان من تطور حياة أبى ذر ، كل ذلك عند الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ — ٢٨٦٢ — المترجم] .

(٢) إن الاسم الدنيوى للحكومة أو الرياسة أو للدولة هو كلمة سلطان ، أما فى نظر الدين فالسلطان والملك لله . وكلمة « سلطان » ذات أصل آرامى ، ومعناها فى الحقيقة هو : κυριότης، ἐξουσία لا κύριος فى اليونانية .

وكان هذا فى الواقع اعتراضاً موجهاً إلى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب ، لأن عمر هو الذى كان قد انتزع الفىء من يد الجيش من حيث لا يشعر الجيش ، وجعله للدولة ، مخالفاً للقرآن فى ذلك . وإن كان متفقاً مع اتجاه فى النظام المالى اتبعه النبى عليه السلام إلى حد كبير[1] . أما إن المعارضة لذلك لم تظهر فى عهد عمر نفسه ، ولم تشتد ويعلو صوتها إلا فى عهد عثمان ، فلا يمكن تفسيره بمجرد تغير ظروف العصر ، بل بتغير شخصية الحاكم أيضاً . ولقد قال عثمان بحق إن الشىء الذى ما كان أحد يجرؤ على أن يعيبه على عمر أصبح يعيبه عليه[2] .

ولقد كان يعوز عثمان ما كان لعمر من هيبة السلطان ، ولذلك تجلى السلطان الأمراء والعمال فى عهده وتجلى جترْبتهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان فى عهد عمر ، لأنهم كانوا يخشون بأس عمر[3] ، وقد كان أثر

---

(١) وكان النبى من قبل قد جعل لبيت المال ما يقع فى يد المسلمين من غير حرب ، وهو قد سبق عمر أيضاً فى مصادرة الأحماء (جمع حمى) القـديمة وفى المنع من جعل أحماء جديدة تكون مراعى لإبل الصدقة وخيلها ، وبذلك أعطى النبى مثالا لمصادرة الأراضى ، راجع كتابنا Reste arabischen Heidentums (١٨٩٧) ص ١٠٧ فا بعدها .

(٢) [راجع ما قاله عثمان لعمرو بن العاص بعد أن بدأ فى هذا التشنيع على عثمان — الطبرى ج ١ ص ٢٩٦٦ وقارن ص ٢٩٣٩ — ٢٩٤٠ . قال عثمان لعمرو مثلا : والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت ، ولكنى لنتُ لك فاجترأت علىّ — المترجم] .

(٣) [لما كلم على بن أبى طالب عثمان فى استعماله أقاربه ، احتج عثمان بأنه إنما وصل رحماً وسدّ خلة وآوى ضائعاً وولى شبيهاً بمن كان يوليهم عمر ، فقال له على : إن عمر بن الخطاب كان كل من ولىّ فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبة ... وأنت لا تفعل ، ورفقت على أقربائك . فلما قال عثمان إن عمر عين معاوية قال له على : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ ، غلام عمر ، منه ؟ قال عثمان : نعم ! فقال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس : « هذا أمر عثمان » ، فيبلغك ذلك ولا تغير على معاوية — راجع الطبرى ج ١ ص ٢٨٣٨ — ٢٨٣٩ . أما فيما يتعلق بخشية الناس بأس عمر فهى تتجلى من كلام لعثمان قاله لعلى بعد أن دخل عليه ونبهه إلى بعض ما يؤخذ عليه : « فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم علىّ — الطبرى ج ١ ص ٢٩٣٩ — المترجم] .

ذلك فى النفوس شديداً ، وخصوصاً أن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته ، وبدا كأنما قد تحولت الدولة ، من كل الوجوه ، مأكلةً لطائفة ممتازة لها أن تجنى خيرات الأمصار .

وقد التقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار أصحاب النبى فى المدينة ، وكانت الغالبية الكبرى فى العاصمة ، خصوصاً الأنصار ، وراءهم ، وكان على رأس الصحابة علىّ وطلحة والزبير . على أن غضب الصحابة على بطانة عثمان كان له أسباب أخرى ، وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا لمنافستهم تلك البطانةَ الصبغةَ الدينية اللازمة ، وأن يظهروا مدافعين عن الكتاب والسنة ، وأن يستغلوا السخط السائد لمصلحتهم . ولكن بالرغم من جُرْأتهم على عثمان وعدم احترامهم له ، فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا أن يقذفوا النار فى الأمصار ، وفى الأمصار كانت تتركز ، على كل حال ، القوةُ الحربية والمالية للدولة . فأما المدينة فلم يكن متركزاً فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام . فى عام ٤٤ هـ (٦٥٤ — ٦٥٥ م) كتب الصحابة إلى أهل الأمصار : إن كنتم تريدون الجهاد فكانه الآن فى المدينة(١) . وكان كلامهم مُلْهِباً للكوفة قبل غيرها ، وكانت الكوفة أكبر مركز لمعارضة

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، نقلا عن الطبرى فى الغالب ، وهو كلام عام ، وغير كافٍ فى وصف الموقف ، أما الطبرى فهو يقول ، نقلا عن الواقدى : « لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب أصحاب رسول الله صلعم بعضهم إلى بعض أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله صلعم يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفر منهم زيد بن ثابت ... » ، ويقول الطبرى فى موضع آخر : « لما رأى الناس ما صنع عثمان ، كتب من بالمدينة من أصحاب النبى صلعم إلى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرقوا فى الثغور : إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا ، فى سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلعم، فإن دين محمد أُفسِد من خلفكم وتُرِك ، فهلموا فأقيموا دين محمد صلعم . فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه » — . المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٦ ص ٢٩٣٦ — ٢٩٨٣] .

المقاتلة للحكومة . وبينما كان الولاة فى آخر عام ٣٤ هـ (يونيه ٦٥٥) عند الخليفة فى مكة ، قامت الثورة فى الكوفة يقودها مالك الأشتر ، وهو من كبار اليمانيين الموالين لعلىّ بن أبى طالب . ولما عاد إلى الكوفة سعيد بن العاص أميرها من مكة وقف ألفٌ من أهل الكوفة أمام مدينتهم ومنعوه من الدخول فيها . فعزل عثمان سعيداً دون تردد ، وعين على الكوفة عاملا يرضاه الثوار ، وبذلك هدّأهم موقتاً[1] .

ولكن ثوار أهل مصر جاءوا إلى المدينة بدلا من الكوفيين . وكان عثمان قد عين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، رغم أن النبى عليه السلام كان قد طرده وأباح دمه ، مكان فاتح مصر عمرو بن العاص ، ولذلك احتقد عليه عمرو ، وهو الرجل الداهية الخطر ، وكان يحرض عليه فى المدينة ، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه فى مصر[2] . وفوق هذا ثار فى مصر محمد بن أبى حذيفة ،

---

(١) [حكى الطبرى فى حوادث سنة ٣٣ هـ (جـ ١ ص ٢٩١٥ — ٢٩١٦) أن سعيد ابن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، قال وهو فى مجلس من وجوه أهلها ، فيهم مالك الأشتر : إنما هذا السواد بستان قريش ، فقال مالك الأشتر ، وكان حاضراً : أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم نصيباً إلا أن يكون كأحدنا ! ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالى ، فتدخل صاحب الشرطة ، فوثبوا عليه ووطئوه وطأً شديداً حتى غشى عليه ، فأخرجهم سعيد من جماعة سماره ، فصاروا يجلسون فى مجالسهم وبيوتهم ويشتمون عثمان وسعيداً ويؤلبون عليهما ، واجتمع الناس إليهم . ثم تطورت الثورة واتهم مالك الأشتر سعيداً إلى جانب زعمه أن السواد بستان قريش بأنه يريد إنقاص الأعطيات المفروضة للرجال والنساء فلما عاد سعيد من مكة خرج أهل الكوفة بسيوفهم لرده ، فرجع إلى عثمان فعزله وولى أبا موسى الأشعرى استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطا لحجتهم . وكتب إليهم كتاباً بذلك . ولم يرض أبو موسى أن يصلى بهم إلا بعد أن اعترفوا بالسمع والطاعة لعثمان — المترجم . نقلا عن الطبرى جـ ١ ص ٢٩٣٠ — ٢٩٣١ ، ٢٩٣٤ ، ٢٩٣٦] .

(٢) [يحكى الطبرى (جـ ١ ص ٢٩٦٦ فما بعدها) : أن عثمان عزل عمرو بن العاص من الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ، ثم جمعها له ، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليه الصحابة والحجاج ويحرض عليه جميع الناس حتى الراعى فى غنمه فى رأس الجبل ، كما يقول عمرو نفسه . وبعد أن حوصر عثمان خرج عمرو من المدينة وظل يترقب أخبار الفتنة ، فلما بلغه مقتل عثمان قال : أنا أبو عبد الله ، إذا حككتُ قرحة نكأتها — المترجم نقلا عن الطبرى جـ ١ ص ٣٢٥٢] .

وكان من قبل يتيماً فى حجر عثمان[1] ، كما ثار محمد بن أبى بكر ، أحد أولياء علىّ المتحمسين ، وكانا فى المعركة البحرية الكبيرة[2] التى كانت بين المسلمين والهرقل (اسمه Contsans) قرب شواطئ لوقية ، فانفصلا بمركبهما عن الأسطول العربى قائلين : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً ، وقد عابا على عثمان ما عابه غيرهما فى العادة ، خصوصاً أنه ملأ جميع المناصب التى تدر الخيرات بأبناء عمومته ، وبذلك بذروا بذوراً خطيرة للفتنة ، وكان ذلك عام ٣٤ هـ . وفى العام التالى لبى خمسمائة عربى من مصر الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله لقتال العدو الداخلى ، فظهروا أمام المدينة فى حوالى الشهر العاشر من عام ٣٥ هـ (يونيه ٦٥٦ م) وطالبوا الخليفة بأمور وهددوا باستعمال القوة إن هو لم يستجب إليها . وقد وقف أهل المدينة ، إلا القليل ، إلى جانبهم وأيدوهم . لكن لما لم يكن تحت تصرف عثمان ، وهو رئيس أقوى دولة على الأرض فى ذلك الحين ، حرس فى مقر دولته يحمونه بالقوة ، فإنه رضخ لمفاوضة الثوار ، وأفلح فى إقناع أهل مصر بالانصراف ، بأن وعدهم بإزالة أسباب شكواهم ، لكنهم ما كادوا يبتعدون حتى جاء مروانُ بن

---

(١) [كان محمد بن أبى حذيفة من أقارب عثمان وكان يتولى أيتام أهل بيته ويحتمل كلّهم . أما سبب ثورته على عثمان فهى ترجع ، بحسب حكاية الطبرى ، إلى أن محمداً بعد أن تولى عثمان الخلافة طلب من عثمان أن يوليه عملا ، فلم يجده أهلا للملك ، فطلب الخروج طلباً للرزق ، فأذن له عثمان وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع محمد بن أبى حذيفة إلى مصر كان ممن تغير على عثمان ، لأنه منعه الولاية — المترجم نقلا عن الطبرى ج ١ ص ٣٠٢٩ ، قارن أيضاً ص ٣٢٣٥] .

(٢) [يشير المؤلف إلى الغزوة المشهورة بغزوة الصوارى التى كانت عام ٣١ هـ (الواقدى) أو عام ٣٤ هـ (أبو معشر) ، وكان فيها عبد الله بن سعد بن أبى سرح هو القائد البحرى ومعاوية بن أبى سفيان القائد البرى . ولما التقى الأسطولان أمن الجيشان بعضهم بعضا حتى قرنوا بين صوارى السفن . وقد انشق محمد بن أبى حذيفة انشقاقا روحيا سياسا أكثر منه حربياً ، وأخذ يعيب على عثمان بعض ما صنع ، خصوصاً استعمال عبد الله بن سعد ، فنبذه عبد الله ، فقاتل وحده — راجع الطبرى ج ١ ص ٢٨٦٧ فما بعدها — المترجم] .

الحكم ونفرٌ من بنى أمية فجعلوه يرجع عما كان منه . وفى يوم الجمعة التالى خطب فى المسجد قائلاً : « إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان قد بلغهم عن إمامهم أمرٌ ، فلما تيقّنُوا أنه باطلٌ ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم » . وعند ذلك قامت عاصفة من الغضب عليه من جانب أهل المدينة ، وكانوا يؤلّفون جمهور المصلّين ، فلم يكتفوا بأن رفعوا أصواتهم معترضين على ما قاله ، بل هم حصبوه حتى صُرِع عن المنبر مغشياً عليه . واحتُمل إلى داره ، وكان هذا آخر ظهور لعثمان فى الناس فى مسجد المدينة .

ثم أخذ أهل المدينة(١) يتجمعون بكثرة أمام دار عثمان(٢) ، وكانت إلى جانب المسجد ، ولم يستجيبوا لدعوة من دعاهم إلى التفرق والانصراف . وبعد أيام قلائل وصل المصريون فجأة ، وأحضروا خطاباً من الخليفة إلى عامله بمصر يأمره بقتلهم وصلبهم أو جلدهم وحبسهم ، وأطلعوه عليه فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ولا علم به . فقالوا إنهم وجدوه مع غلامه وعلى جمله وهو بخط كاتبه وعليه خاتمه ، فأجاب أن كل ذلك بغير علمه وأمره وأن الخطّ قد يشبه الخط وأن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله ، فقالوا : أيُجتَرَأ عليك ، فيبعث غلامُك على جملك ويُنْقَش على خاتمك ويُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام ! فإما أن تكون ضعيفاً مغلوباً أو غافلا لا يصح أن يلى أمور المسلمين ! ثم طلبوا منه أن يعتزل ويخلع نفسه . ولكنه رفض ذلك رفضاً حاسماً ، وقال : « لست خالعاً قميصاً

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، والغالب أن الذين تجمعوا هم والثوار من أهل الأمصار — المترجم] .

(٢) الدار جملة بيوت أو حجرات متصلة ذات باب واحد ، ولا يفرق العرب بين مجموعة البيوت أو مجموعة الحجرات .

كسانيه اللهُ عزّ وجلّ »(١) . ومنذ ذلك الحين أصبح عثمان مُحاصَراً بالمعنى الحقيقى وكان يحميه فى داره غلمانه وحَشَمُه وبعض أقاربه . وخلى أهل المدينة بين المصريين وبين ما أرادوا أن يفعلوا ، ولم يتدخلوا لمنعهم ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار ؛ فأهل المدينة بدأوا بإثارة العاصفة على الخليفة ، « وإنما تركوا إتمام الثورة إلى ثوار من غير أهل المدينة ، بل هم ، خصوصاً بعض الأنصار ، ساعدوا الثوار بالفعل . أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملون أكبر الوزر فى اندلاع نار الثورة ، وهم على وطلحة والزبير ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد لإخمادها ، وربما كان موقفهم من الخليفة هو أنهم أظهروا أسفهم أنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة ، ولكنهم إنما كانوا يظهرون غير

---

(١) [راجع تفاصيل الفتنة ومقتل عثمان عند الطبرى ج ١ خصوصا ص ٢٩٦٥ وصفحات كثيرة تالية .

والمؤلف قد اقتضب هنا اقتضاباً كبيراً وأغفل ذكر الدور الذى كان لعبد الله بن سبأ (ابن السوداء) فى إثارة الفتنة أولا وتنظيم الاتصال بين الثوار فى مختلف مدن الأمصار . ومهما قيل فى دور ابن سبأ فهو مذكور فى كتب التاريخ ولا يصح إغفاله . وتجد أخبار الفتنة كلها عند الطبرى مثلا ج ١ ص ٢٩٠٧ — ٣٠٥٠ . ولا بد للباحث هنا من نقد الروايات وترتيبها وإبراز مختلف العوامل من دينية واقتصادية ، وعوامل الدس والإفساد من جانب العرب وغير العرب ، وإبراز الدور الذى كان لأهل المدينة ومساعى كبار الصحابة لتهدئة الفتنة وإفساد مروان بن الحكم وقومه خطط الصحابة . وعلى كل حال فالذى يؤخذ من الروايات فى جملتها أن حاشية عثمان من بنى أمية استغلت نفوذها باسمه وأنه لم يكن عند عثمان حرس يحميه ، فعرض عليه معاوية أن يذهب معه إلى الشام ، فأبى إيثاراً منه للبقاء فى المدينة إلى جوار رسول الله صلعم . وأيضاً أبى عثمان أن يتنازل من الخلافة مخافة النزاع عليها فى أثناء فتنة ، مما قد يؤدى إلى حرب أهلية ، وخصوصاً أن هوى كل مصر من الأمصار كان مع أحد الصحابة الكبار . وقد حاول الصحابة أن يتدخلوا فنصحوا لعثمان وكان ينتصح ، ولكن حاشيته من بنى أمية كانت تؤثر عليه حتى مل الصحابة ذلك وقرروا ألا يعودوا إلى الكلام معه . وتدل القرائن على أن الخطابات التى استند إليها الثوار كانت مزورة على عثمان . وأخيراً لما تفاقم الأمر وأوشك القتال أن ينشب أمر عثمان من فى داره ألا يدافعوا عنه مخافة ازدياد الفتنة ، فاستسلم لأمر الله وقتل . وكأنما كان أمر الفتنة قد تفاقم وأصبح إيقافها مستحيلا وأصبح التدخل لإيقافها بالقوة أعظم منها شراً ، فلم يتدخل الصحابة وتركوا الحوادث تسير سيرها إلى النهاية المحتومة ، وكل شىء بقدر — المترجم] .

ما يُبطنون ؛ أما الحقيقة فهي أنهم لم يعملوا أبداً على إيقاف سير الحوادث آملين أن تنتهي بالفائدة لهم[1] .

وجاء التحولُ الحاسم نحو الشر ، أعني أول إراقة للدماء ، من قِبَل المدافعين عن الدار ، وذلك أن واحداً منهم رمى حجراً فأصاب رأس أحد الصحابة ، وكان شيخاً كبيراً واقفاً خارج الدار ، بين الجمع المحتشد ، فقتله . ثم امتنع عثمان من تسليم القاتل ، فشعر محاصروه عند ذلك أن لهم الحق ، بل عليهم الواجب ، ألاّ يبالوا بكل الاعتبارات ، وشرعوا يقتحمون الدار . وكان يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوى من أهل مصر ، ملتجئاً بظهره إلى المسجد ، وقد قاتل خلصاء عثمان دون باب الدار ، بل هم حاولوا ، عندما أشعل الثوار النار في أبواب الدار أن يصدّوا المهاجمين ، ولكن جماعة من هؤلاء اقتحموا الدار آتين من الدور التي

(١) [لا شك أن في هذا مبالغة كبيرة ، فالثابت من الروايات أنهم لعبوا دوراً جدياً في إزالة الفتنة ، ولكن خططهم لم تنجح . ولو أنهم تدخلوا بالقوة ، مع علمنا بوجود أسباب حقيقية للشكوى استند إليها الثوار ومع علمنا بأن الثوار من قبائل شتى ، لكان معنى ذلك أنهم يؤيدون الفساد الذي صنعته حاشية عثمان من جهة وكان معناه الحرب بين العرب على نطاق واسع يشمل الأمصار من جهة أخرى . وقد اندهش بعض الصحابة من قتل عثمان — وهذا ثابت في الروايات — لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجترىء الثوار على قتله . ويظهر أن القتل كان تطوراً أخيراً أفلت زمامه حتى من يد القاتلين أنفسهم .

وإذا كان للإنسان أن يعجب فله أن يعجب من تأخر معاوية عن نصرة عثمان ، مع أنه رأى أوائل الفتنة ومع وجود جند الشام تحت يده وطوع أمره ومع أنه توقع اشتداد الفتنة حتى لقد أوصى الصحابة بعثمان ، ولكن كان معنى هذا وقوع الحرب في المدينة ، في عاصمة دولة لا تزال حديثة العهد .

الواقع أن مقتل عثمان يرجع إلى الدرجة التي بلغها نمو الدولة نفسها ؛ فلم يكن هناك جيش في المدينة ، ولا كان هناك حرس خاص يحمي الخلافة ، ولا كان هناك مجلس يراقب أعمال حاشية الخليفة . ولا يصح أن ينسى المؤرخ أننا في عاصمة دولة دينية تقوم على فكرة أكثر مما تقوم على جيش ، ودستورها فكرة أيضاً . وكانت الفتنة ، إلى حد كبير ، قائمة على فكرة القضاء على فساد حاشية الخليفة ، تمشياً مع فكرة العدل ومع ضرورة القضاء على المحسوبية . ولا تستطيع قوة أن تقف في وجه فكرة أكثر من وقوفها أمام سيل جارف . ولم يكن الصحابة يريدون قتل عثمان جرياً وراء فائدة لهم ، بل هم لم يكونوا يتوقعون القتل ولم يريدوا إذكاء الفتنة — المترجم]

حولها ، واندفعوا إلى غرفة الخليفة نفسه ، وكان يصلى ، واضعاً القرآن أمامه ، غير مُبَالٍ بما كان يجرى خارج الدار . وكان محمد بن أبى بكر ، ابن صديقه وسلفه ، أول من امتدت يده إليه ، ثم اتبعه كنانة بن بشر التجيبى بالضربة القاتلة ، وطعن آخرون الجثة إطفاء لما فى نفوسهم . بعد هذا لم يصبح لمقاومة المدافعين معنى ، واستطاع من بقى منهم أن ينجوا بأنفسهم من غير مشقة . وكان ذلك يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م) وتأخر دفن الخليفة المقتول أياماً ، إلى أن تجاسر على دفنه ، بعد رجاء شديد من جانب أرملته نائلة الكلبية ، جماعةٌ من الخلصاء ، ودُفنت الجثة بسرعة بين المغرب والعتمة من غير أن تُغسل ، وحملت على باب ، كانت رأسُ الجثة تقرعه ، ورجمها البعض بالحجارة وتكلموا بكلمات الســوء . ودعا الحال إلى دفنها فى موضع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم ، بل لم يسمح الأنصارُ بدفنها فى مقابر المسلمين وهكذا دفن الخليفة كما يدفن عير فى مزبلة[١] .

٧ — كان مقتل عثمان حادثاً حاسماً لا يكاد يدانيه فى خطره حادثٌ آخر فى التاريخ الإسلامى . فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل فى أمر رئاسة الحكومة التيوقراطية : وفُتح بابُ الفتنة ولم ينسدّ بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً[٢] ، ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظةُ على وحدة ممثلة فى شخص إمام على رأس الجماعة إلا فى الظاهر على الأكثر ، وبالقوة والقهر . فالحقيقة أن الجماعة قد انشقت

---

(١) [الواقع أن الطريقة التى تم عليها دفن عثمان لا تليق به . وقد دفن فى مكان يسمى حش كوكب ، وحمل على عجل مخافة اعتراض السفهاء للنعش ، وكان ذلك فى الليل على ضوء السرج ، ودفن فى مكان شبه مجهول مخافة أن ينبش قبره . ولما جاء معاوية أزال الحائط الذى كان حول القبر وأمر الناس ، خصوصاً بنى أمية ، بدفن موتاهم حول قبره حتى اتصل بالبقيع بمقابر المسلمين — المترجم] .

(٢) ولذلك يسمى الخليفة المقتول بالباب المفتوح [ليراجع القارئ كلمات عثمان التى وجهها لمعاصريه ينذرهم بالفتنة المتصلة والفرقة ، وهى موجودة عند الطبرى فى المواضع التى أشرنا إليه من قبل — المترجم] .

وتفرقت شيعاً وأحزاباً ، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسي وأن يلجأ للسيف تأييداً لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل ، وكانت المشكلة مؤلمة لأهل الديانة والورع[1] ، فكانوا بين أن يتراجعوا فيُخِلُّوا بما أوجبه الإسلام وشدّد فيه من إعلان الرأي والدفاع عن الحق بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق فيخالفوا أصلا أساسياً من أصول الحكومة التيوقراطية ، وهو ألاّ يحارب المؤمنون إلاّ الكافرين ، وألاّ يحاربَ بعضهم بعضاً ويريق بعضُهم دماء بعض . وكانت الإجابة عن سؤال : ما قولكم في مقتل عثمان ؟ هي التي تكشف عن اختلاف الناس في آرائهم .

أما ثمرة تلك الفَعْلة المُحَمّلة بالبلاء فقد وقعت في حجر عليّ . وذلك أن علياً ، ختن النبي ، كان بعد موت أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر الصحابة غيرَ مدافَع ، وكانت له مكانة أكبر مما كان لطلحة والزبير ، وكان في أثناء حصار الدار هو الذي يصلي بالناس كما أنه هو الذي حج بهم ؛ وكان في نظر كافة أهل المدينة ، خصوصاً الأنصار ، هو الخليفة الطبيعي لعثمان ، وكان هوى المصريين معه أيضاً ، ومن أجله كانوا يعملون لا من أجل غيره ، وكانت كلمتهم ، في تلك الساعة المضطربة ، هي الكلمة الفاصلة . وقد تلقى البيعة العامّة في المسجد ، في نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان ، ولكن كان من الطبيعي أن تعقب الهياجَ والاضطراب حركةُ نكوص . فلحق النفوسَ شيءٌ من الانقباض ، ولم يهلّل أهلُ المدينة للخليفة الجديد الذي تلقى البيعة وسلطان الخلافة من أيدٍ غير بريئة من الإثم[2] . وهم لم يؤيدوه تأييداً قوياً ، وكأنما كان من حسن حظه أن طلحة

---

(١) ومن أجل ذلك تسمى الحرب الأهلية بالفتنة .

(٢) [جاءت في الطبري (جـ ١ ص ٣٠٦٦ فما بعدها) أخبار مبايعة الناس لعلي وما روى من امتناعه ثم قبوله وما قيل في بيعة طلحة والزبير طوعاً أو على كره منهما . ويظهر أن علياً قد اضطر إلى قبول الخلافة ، بعد أن كان يرى أن تترك للشورى ، بسبب المؤلف ، وهو أنه لو رجعت الوفود إلى الأمصار بعد الحج من غير أن يكون هناك خليفة لوقع انقسام كبير . ويجد القارئ =

والزبير ، وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة ، انقلبا عليه انقلاباً عنزياً ، لأنه بتلقيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً . وهما فى حياة عثمان لم يألوا جهداً فى الكيد لعثمان . وكان يبدو أن ذلك لأجل على ، فقد قدماه على أنفسهما ، لكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافسين ، واتهماه بأنه هو الذى دبّر مقتل عثمان وأنه هو الذى استفاد منه . فتركا المدينة وانتقلا إلى مكة . وكانت هناك عائشة أم المؤمنين ، وقد انسحبت من الثورة على عثمان ، بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكاً قوياً[1] ، والتجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته ، وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان وتستطيع أن تكيّف موقفها بحسب ما يؤول إليه أمرُ الفتنة . على أنها كانت تبغض علياً[2] ، فلما سمعت أنه تلقى البيعة لم تتردد فى تقديس عثمان ، ونادت إلى الأخذ بالثأر له من الخليفة الجديد[3] ، وقد التف حولها عددٌ من الهُرّاب الذين تساقطوا إلى مكة ، اختلف الحكمُ فى أمرهم اختلافاً كبيراً . وانضم إليها طلحة والزبير واستترا وراءها ، وكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على علىّ فى جزيرة العرب . ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا محاربته من مكة ، لأنه كان فى المدينة ، وكانت المدينة أكثر عدداً من مكة بكثير ، فقرروا أن

= كل ما يتعلق بأحداث خلافة على عنـــد الطبرى ج ١ ص ٣٠٦٦ – ٣٤٧٤ . ونظراً لأن كثيراً من هذه الأحداث معروف مشهور فقد أضربنا عن ذكر بعض النصوص مكتفين بالإشارة الإجمالية إليها . والمؤلف اقتضب فى عرضه للحوادث اقتضاباً كبيراً ، ونظراً إلى المسألة بمنظار سياسى خالص وأغفل روايات أصحاب الحديث ، ومنها ما جاء عند الطبرى ج ١ ص ٣١٦٩ فما بعدها والروايات التى تدل على رغبة كبار الصحابة وعائشة فى الصلح وعلى إفساد قتلة عثمان خططهم (الطبرى ج ١ ص ٣١٨١ – ٣١٨٦) وعلى الدور الذى قام به السبئية وعلى عامل الإحراج فى الحرب – المترجم] .

(١) [راجع مثلا الطبرى ج ١ ص ٣٠٩٨ س ٧ – ٩ و ص ٣١١٢ – المترجم] .

(٢) [راجع ، خلافاً لهذا ، الطبرى ج ١ ص ٣١٧٠ – المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى مثلا ج ١ ص ٣٠٩٦ فما بعدها : قالت عائشة فى خطبة لها بمكة إن الذين قتلوا عثمان هم غوغاء أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة وإن « أصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم » ، ثم دعت إلى الاجتماع على قتال القتلة « حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم » ودافعت عن عثمان ودعت إلى الأخذ بثأره – المترجم] .

(٤) [الطبرى مثلا ج ١ ص ٣١٠٢ ، ٣١٠٤ – المترجم] .

يخرجوا من جزيرة العرب وأن يقصدوا البصرة ، وكان لهم بها صنائع ولأهلها هوى فى طلحة ، فاستطاعوا أن يستولوا على البصرة وأن يستقروا فيها . وإزاء ذلك رأى علىٌّ أيضاً أنه لا يستطيع البقاء فى المدينة ، فأتبعهم إلى العراق ، وقصد الكوفة أولا ، وكان مالك الأشتر ، ذلك اليمانى صاحب الكلمة النافذة ، قد مهد الأرض هناك : وخرج علىٌّ فى أهل الكوفة ، وهاجم أهلَ البصرة ، فانتصر عليهم على مقربة من مدينتهم ، فى موقعة الجمل[1] (٩ ديسمبر سنة ٦٥٦) ، وهى تسمى بهذا الاسم لأنها كانت تدور رحاها حول الجمل الذى كانت عليه عائشة . فأما طلحة والزبير فقد وقعا قتيلين ، وأما عائشة فإنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من على المسرح . ثم صالح أهلُ البصرة علياً ، وبايع له أهلُ العراق جميعاً ، فأقام هناك وجعل الكوفة مقراً له .

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هى أن الخلافة القديمة قد انتهت فى مدينة الرسول ، وأن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة ، وقُضِى على قداسة الخلافة ، وصار الحكم فى النزاع عليها إلى السيف ؛ ولكن قوة الدولة كانت فى الأمصار ، وكانت غالبية القبائل قد هاجرت إلى مدن المعسكرات ، وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها . وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة فى ذلك ، لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وخلّوا بينهم وبينها ، يفعلون فيها ما يشاؤون . وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التى كانت شاملة ؛ ولكن القول إن كبار الصحابة ، بنوع خاص ، قد ارتكبوا انتحاراً سياسياً ، لأنهم هدموا السيادة الأدبية التى كانوا يستندون إليها ، وذلك لأنه إذا كان الأمر أمر القوة المادية ، فإن غيرهم كان أقوى منهم . ومنذ ذلك الحين نزلت جزيرة العرب عن مستواها الذى كان لها قبل الإسلام نزولا

---

(١) [الطبرى ج ١ ص ٣٢١٨ : كانت وقعة الجمل فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ — المترجم]

كبيراً ، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع ، وبسبب ما لحقها من خراب على أثر الهجرة . ونجد صدًى للبكاء الأليم على ذلك فى القصائد القديمة(١). فلم تعد المدينة عاصمة الدولة ، وكل الجهود التى بُذلت لاسترداد مجدها المفقود ذهبت سدًى ، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت داراً للتراث الإسلامى الذى صار موضوعاً لمصنفات العلماء ، كما أنها غدت ركناً تنزوى إليه الطبقة الساخطة التى تنحدر جانباً والتى كان الفضل فى تكوينها للنبى ؛ فكانت من معزلها هناك تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامعها : على أن المدينة قد احتفظت بجاذبيتها من حيث أنها وطن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاءوا ، أو لقوم أخفقوا فى دورهم السياسى ، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى . وهكذا صارت مدينة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشراف العرب الذين أرادوا اللهو ، ومدينة التسلية والموسيقى والغناء واللهو والمجون .

واستطاع علىّ ، من مقر خلافته فى الكوفة ، أن ينشر سيادته على جزيرة العرب كلها ، عدا الشام وحدها : وقد كان لهذه الولاية مركز انفردت به ، لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم . وكان لهم ، إلى جانب ذلك ، تقاليد غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة ، وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليونانى الرومانى ؛ وكانوا قبل الإسلام تابعين للدولة هى دولة الغسانيين ، ولذلك كانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود ،

---

(١) فيشكو البُريق بن عياض شاعر الهذليين من أنه بقى وحده شيخاً هرماً ومعه قليل من النساء والأطفال فى بلاد كان يعمرها ناس كثيرون ، ويردد ذلك أبو خراش وغيره . ويروى أن فتى جاء إلى عمر يطلب اللحاق بالجيش ، فقال له عمر إن بقاءه براً بوالديه خير من الهجرة . وهذا هو ما يتضمنه إنجيل مرقص (الإصحاح السابع ، الفقرة ٧ فما بعدها) [ويجد القارىء شعر البريق هذا فيما نشره المؤلف من شعر الهذليين ، ضمن الجزء الأول من كتابه Skizzen und Vorarbeiten ، برلين ١٨٨٤ ، ص ٢١ — ٢٣ من القسم العربى — المترجم] .

فلم يثوروا على أميرهم مع أنه كان أموياً ، وهو معاوية بن أبى سفيان . وكان معاوية قد لبث على ولاية الشام عشرين عاماً ، ورضى عنه الناس جميعاً ، فلم يَبْدُ له عند ذلك أن يخلى المجال ويبايع لعلىّ ، وكان موقفه إزاء على يختلف عن موقف طلحة والزبير ، وكان أكثر مواتاة له من موقفهما ، وهو لم يكن من المستحقين للخلافة ، ولا هو طالبٌ بها ، بل اختط لنفسه فى تلك الولاية التى كان يدبر شئونها سياسة خاصة ، فهو لم يعتبر أن ولايته قد انتهت بمقتل عثمان ، وحافظ على منصبه إزاء الثورة . وقد استطاع أن يسجل على رايته الولاء والطاعة للحكومة الشرعية ، وذلك خلافاً لأصحاب الفتنة التى لم تزل لها صفة الفتنة ، وإن كان الذين قد أثاروها هم أهل الدين والصلاح باسم الإسلام . وقد كان مما أفاده أنه كان ، بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول ، صاحبَ الحق فى التأثر لمقتله ، وأن واجب الثأر يقع على عاتقه . وإنما كان على معاوية هذا الواجب دون غيره من أقارب عثمان ، لأنه كانت لديه دونهم جميعاً الوسائلُ الكفيلة بالوصول إلى ذلك ؛ فقد كانت له الإمرة فى الشام على جيش وطنى بالمعنى الحقيقى .

وبعد موقعة الجمل أسرع علىّ فى أهل العراق قاصداً أهل الشام ، فالتقى بجيشهم على حدود الفرات . وهناك عند صفّين ، وقعت معركة حامية الوطيس ، ومال النصر فيها أخيراً إلى جانب علىّ ، حتى إذا رأى أهلُ الشام أنهم على وشك الهزيمة ، رفعوا المصاحف على أسنّة رماحهم . وفهم أهلُ العراق المقصود من ذلك : إنكم تريقون دمّ قوم مسلمين ، هم مثلكم ينضوون تحت راية كلام الله . ولقد كان لهذا أثره فى أهل العراق ، وذلك أن القيام لأجل الحق فى الحكومة التيوقراطية ساقهم إلى قتال عثمان ، ثم محاربة عائشة وأهل البصرة ، وهو الآن يسوقهم إلى محاربة معاوية وأهل الشام ؛ وإذن فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها ، فمن الذى منهم على الحق ؟ ولما كان هذا الموقف الملتبس قد تبيّن لهم ،

فى ساعة مضطربة ، على صورته الواضحة ، فإنهم اضطربوا وتحيروا ؛ فكان أهل الدين الموجودون فى المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم ، هم أول من خفض السلاحَ أمام القرآن ، فحذا الآخرون حذوهم ، وأجبروا علياً أيضاً على الكف عن القتال وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف بل للقرآن ، أى على يد محكَّمين يصدرون فى حكمهم عن القرآن ؛ فلما مانع فى ذلك هدّدوه بأن يكون مصيره مصيرَ عثمان . ولكنهم لما خرجوا من صفين ، وكانوا فى طريقهم إلى الكوفة أدرك جند علىّ كلهم أنهم قد خُدعوا عن النصر خدعةً تعسة ، وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع فى شَرَك الخديعة فأضلّوا غيرهم ، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم وأنهم تحيّروا حيناً فى اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان . ولكنهم ، من جهة أخرى ، لاموا علياً أيضاً ، لأنه قبل التحكيم ، ولأنه بقبوله إياه قد جعل القضية العادلة الّتى كانوا يحاربون من أجلها موضعَ شك بالفعل . فطلبوا منه أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التى كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المعاهدة التى عقدها مع أهل الشام . فلما لم يكن فى استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح طبقاً للنغمة التى يضربونها ، عند ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم فى حروراء ، فسُمُّوا لذلك بالحرورية . أما الاسم الشامل الذى يطلق عليهم فهو اسم الخوارج .

ولكنهم فى هذه المرة لم يأخذوا سواد الناس معهم ، وذلك أن أهل العراق — ويجب أن يكون المفهوم عند إطلاق هذه التسمية هو أهل الكوفة دائماً وقبل كل شىء — ظلوا فى الجملة موالين لعلىّ ، ولكن موقفه بينهم كان مغايراً لموقف معاوية بين أهل الشام ، ولم يكن مواتياً له مواتاة مكانة معاوية عند أهل الشام : وذلك أن معاوية لم يصل إلى منصبه مرفوعاً من أسفل ، بل هو عين من فوق ، من قبل الخليفة ، فلم يكن فى منصبه مديناً لمن دونه من الرعية ، وكان موقفه منهم

موقف المستغنى غير المحتاج . وكان أهل الشام يطيعونه إذا أمر ، وكانوا أيضاً ، بطبيعة الحال ، مقتنعين بأنه على الحق فى محاربته قَتَلَة عثمان ، على أنه مهما كانت الظروف فإنهم كانوا ، بلا شك ، جاعلين قضيته قضيتهم . وكانوا يعرفونه ويُجِلونه منذ سنين طويلة ، وكانوا ، إلى جانب هذا ، قد اعتادوا من قبل شيئاً من النظام الحربى : أما علىّ فقد كان لاصقاً به أن مصدرَ خلافته يرجع إلى الثورة ، ولم يكن لديه لا الزمن الكافى ولا المقدرة على التغلّب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة . ولم ينس له أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه ، وكانوا أبعد عن روح النظام ، أو هم كانوا أكثر تديناً وورعاً من أن يطيعوا خليفتهم حيثما يوجههم . ولقد ندموا بعد صفين أشد الندم ، لأنهم أفسدوا عليه سياسته ، ولكنهم لم يريدوا أن يصلحوا ما ارتكبوا من خطل ، فيؤيدوه إذا استؤنف القتال مع أهل الشام تأييداً قوياً ، بعد أن تبيّن أن التحكيم انتهى بمهزلة . فلم يستطع علىّ أن يستنهضهم إلى حرب جديدة ، ولم يطيعوه طاعة الجند ، رغم شدة إلحاحه عليهم فى ذلك ، وتركوا معاوية بفتح مصر ويقلق العراق بفِرَق من جيشه تغير مسرعة حتى تقترب من الكوفة . حتى إذا جمع أهل العراق همتهم أخيراً وكانوا على أهبة المسير ، قُتِل علىّ . وأحسّ ابنُه وخليفته الحسن أنه أضعف مما يقتضيه منه الموقف ، فباع حقه فى الخلافة لمعاوية ، وتمكن معاوية من دخول الكوفة واضطر أهل العراق إلى أن يبايعوه ، وانتهت بذلك الحربُ الأهلية .

٨ — وهكذا توصل الأمويون إلى الخلافة ، ولكن أقدامهم لم تكن راسخة إلا فى الشام (ومعها الجزيرة ومصر) . أما فيما عدا ذلك فكانوا يصطدمون بمعارضة خفيّة وسافرة ، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة ، وكان عليهم دائماً أن يعملوا على تفادى الثورة عليهم أو على إخمادها . وكان موطن الثورة عليهم فى العراق ، خصوصاً فى مدينة الكوفة ، كما كان الحال من قبل .

ولقد هُزم أهلُ العراق فى الحرب مع أهل الشام ، أو هم ، على الأقل ، فقدوا الجولة . وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة ، وانتقل معها فى الوقت نفسه بيتُ مال الدولة ، من الكوفة إلى دمشق . وكان لهذا وقعٌ أليم فى نفوس أهل العراق ، بعد أن كان قد سبق السيفُ العذل : فقد كانت لهم الدولة ، أما الآن فقد نزل شأنُ بلادهم ، فصارت مصراً من الأمصار ، وخرج من أيديهم ما كانت تدرّه البلاد التى فتحوها من خيرات ، وأصبح لا بد لهم أن يقنعوا بفُتات الأعطيات التى تتساقط من مائدة سادتهم . وقد اضطروا إلى الإذعان بسبب حاجتهم إلى الدراهم ، وكانت هذه تنقص بحسب إرادة مانحها ، أو كانت تُقْطع أيضاً . فلا عجب أنهم كانوا يرون فى سيادة الشام عليهم نيراً قاسياً ، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة مواتيةٌ الملك . وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتى من جانب أهل العراق ، لا من فريق معين ، بل من جانب جميع العرب المقيمين هناك ، لأنهم كانوا مجتمعين على الحنق بسبب ضياع ما كان لهم من سيادة ، ومجتمعين على البغض لمن غصبهم إياها . فكان لابد للدولة دائماً من عمال ذوى حُنْكة ممتازة لإلزام تلك الولاية الجامحة حدودَ الهدوء والطاعة . على أنه بمضى الزمن أصبح ذلك غير مُسْتَطاع إلا نتيجة الجند المحليين وباجتلاب جنود احتلال من أهل الشام وبإقامة سيادة حربية بالمعنى الحقيقى ، لم يكن مَقَرُّها فى العاصمة القديمة للبلاد ، بل فى مدينة حصينة جديدة أنشئت لفرض السيادة عليها(١) .

ثم بدأ أهل العراق يجعلون قضيتهم قضيةَ الإسلام نفسه ، وجنّدوا الدين ومبدأ الحق والعدل فى محاربتهم للقوة الغاشمة ، وهكذا حالفت المعارضةُ الدينَ على الدولة الأموية . ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده ، ولا يسوغ له أن يكتفى هو نفسه بالامتثال لإرادة الله ، بل

---

(١) [يقصد المؤلف إنشاء مدينة واسط على يد الحجاج — المترجم] .

يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هى العليا فى المجتمع ، فلا محل للسكوت على الأوضاع الفاسدة ، لأن الدين يُلزم الفردَ بالتدخل فى الحياة العامة ، وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولا عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة ، وميدان النشاط الدينى هو السياسة ، وهذا هو معنى الحكومة التيوقراطية[1] ، ومن جهة أخرى كان فى الإمكان أيضاً استخدام الدين من حيث أصوله فى تأييد النظام الذى كان قائماً ، وفى تنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة أولى الأمر ومن المحافظة على وحدة كلمة الجماعة . ولكن معظم قوة الدين كانت فى الواقع ، فى جانب المعارضة ، وكانت مبادئ الحكومة التيوقراطية لا تقر صورة الحكم التى كانت عليها الجماعة الإسلامية إذ ذاك ، فكانت تلك المبادئ حائلا دون ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض الأوضاع مشروعة ، وبأن للدولة أن تصغى إلى « عقلها » الخاص ، وأن تتوخى من الأغراض ما يحفظ من كيانها ويزيد من قوتها ، وأن الدولة التى كانت قائمة ما كانت لتستطيع أن تتفادى ذلك بسهولة . ولكن أحداً ، من جهة أخرى ، لم يَنْسَ أبداً للأمويين أنهم كانوا من أول أمرهم أخطر أعداء النبى [عليه السلام] ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا فى الساعة الأخيرة مكرهين ، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته ، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولا ، ومن طريق المهارة فى استغلال مقتله بعد ذلك . وقد كان أصل الأمويين لا يجعلهم أهلا لقيادة الأمة المحمدية ، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيوقراطية أن يظهر الأمويون مُمَثِّليها الأعلَيْن ؛ فهم كانوا مغتصبين ، وظلوا كذلك ، ولم يكونوا

---

[1] كانت العبرة التى أخذت من مفاسد السياسة سبباً فى أن ظهر فى الإسلام أيضاً اتجاه شبيه بالاتجاه الإنجيلى ، وهو يريد أن يبتعد عن السياسة باعتبار أنها فتنة ، ولا يثق بمزاعمها الدينية . وكان لهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية النبل ، منهم سعيد بن المسيب فى المدينة ، والحسن البصرى فى البصرة .

يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة ، إلى قوة أهل الشام . ولكن قوتهم لم تستطع قط أن تصير حقا شرعياً . ولقد زاد فى البغض للأمويين قِدَمُ الشكوى من « السلطان » وأفعاله ، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة ، باعتبار أنهم أصحاب السلطان فى ذلك الزمان ، وكانت موضوعات الشكوى هى هى : أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس ، وأن أموال الدولة تجرى إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها ، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية ، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذّات للسادة لا يُعاقبون عليها ، لأن الحدود معطّلة[1] .

وكان لسانُ حزب أهل الدين والورع الساخطين على الحكومة هم الفقهاء والقراء ، أعنى علماء الشريعة وعلماء القرآن . وكان موقفهم من الأمويين شبيهاً تمام الشبه بموقف علماء الكتاب والفاروسيين من اليهود إزاء بيت الحشمونيين . وكان الحق الذى يعارضون به القوة الحاكمة أيضاً حقاً إيجابياً ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً ، وكان موجوداً فى القرآن والسنة . وكانوا يستنبطونه بالتأويل من الكتاب ، وكانوا يضعونه فى الأحاديث النبوية ، لأنها لم تكن فى ذلك الوقت فى صورتها الأخيرة الثابتة ، وذلك بأن كانوا يدّعون أن الفصل فى المسائل السياسية التى لم تكن قد ظهرت إلا فيما بعد قد ورد على لسان النبى [عليه السـلام] ، ولم يكن ذلك يخلو بطبيعة الحال من تناقض .

وكان أشد ممثلى المعارضة الدينية تطرفاً وأتقى الأتقياء ، هم الخوارج . فقد أخذ الحق الدينى عندهم صورة مبدأ ثورى بالمعنى الكامل ، وكانوا يفخرون بأنهم

---

(١) الظلم والاستئثار (بالفىء) وتعطيل الحدود . وكذلك طولب بأن يُسأل العمال عن أعمالهم ، وأن يعطوا القود من أنفسهم فى الظلم الذى يرتكبونه هم فى مناصبهم . ولم يستجب الخلفاء إلى هذه الشكاوى ، لأن محاسبتهم لمن كانوا يبعثون بهم من العمال كانت مقصورة على محاسبتهم على أن يحملوا إلى الخلفاء من الأموال أكثر ما يستطيعون .

هم أصحاب الفَعْلة الثورية الكبرى ، وهى مقتل عثمان ؛ فبينما كان هناك قوم يخجلون من هذه الكائنة بعد أن وقعت ، جعل الخوارج الاعترا ف الصريح بها شعاراً لهم وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق وفى الثورة على معاوية أولا ، لأنه لم يسلّم بآرائهم . ولكنهم كانوا قد عارضوا علياً أيضاً عند ما ساوم وفاوض فى حق الله ، وانشقوا عليه لذلك . وهم وإن كانوا قد عملوا على تأييده ، فإنهم لم يريدوا أن يكونوا حزبه بالمعنى الذى كان به أهل الشام حزباً لمعاوية ، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعلىّ ، بل هو الله وحده ، ومن ضحى فى أمر من الأمور بعقيدته الدينية السياسية من أجل صاحب الأمر ، أو جعل طاعته مقدّمة على طاعة الله ، فقد اتخذه صنما له ، وعُبّاد الأصنام عباد أصنام وليسوا بمسلمين . فكان الخوارج يرون أنهم وَحْدَهم هم المسلمون ، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وحدهم . ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تحرج ، ولم يجاهدوا إلا المسلمين ، وإلا المسلمين وحدهم : أما تهمة تمزيق الجماعة على هذا النحو فلم يروا أنها تصدق فى حقهم ، وكانوا ثائرين على مذهب «الجماعة» الفاسد الذى لايفرق بين الحق والباطل ولا يميز الغث من السمين ، وكانوا يرون أنهم وحدهم ، وهم الخارجون على الدين ، هم «الجماعة» بالمعنى الحق ، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم . وقد هاجروا من ديار «الجماعة» المزيّفة ، متأسّين بهجرة النبى [عليه السلام] . وهم وإن لم يكن من مبادئهم التمسك بأسرة حاكمة ، فإنهم هم أيضاً ، من حيث أنهم ممثلو الجماعة الموحّدة للمؤمنين ، كان لهم خليفتهم أو إمامهم الذى يصلى بهم ويقودهم فى الحرب لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته ، ويعترضون عليه إذا أخطأ ، فى نظرهم ، ويخرجون عليه ويعتبرونه كافراً ، إن لم يرجع عما فعل . ولذلك افترقوا ، فيمايتعلق بمسألة معرفة الإمام الحق ، لا عن سائر المسلمين فحسب ، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضاً ، وكان انقسامهم من أجل خلافات فى الرأى ليس لها كبير شأن. وقد تطرفوا فى الأخذ بمبدأ الحكومة التيوقراطية وجعلوه

مسألة اعتقادية وموضوعاً للنيّة الممحّصة ، حتى ذهبوا به إلى المحال ، وحتى صارت فكرتهم عن الدولة ، إن لم تأخذ صورة ملطّفة معقولة ؛ غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم . وقد وضعوا كلّ قوتهم فى محاولة تحقيق غاية لا يمكن تحقيقها ، فسار بهم تدينُّهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط ، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماماً لكل سياسة . وهم لم يجعلوا النجاح غرضاً لهم ، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا . وقد قنعوا بطلب الشهادة فى ميدان الجهاد ، فباعوا أرواحهم لله فى سبيل الجنة . ورغم هذا ، وربما من أجل هذا نفسه ، كانوا يغلبون جيوشاً كبيرة ؛ وقد أرعبوا العالم الإسلامى فى بعض الأحيان . ورغم أنهم كانوا دائما يؤلّفون جماعة صغيرة ، فإنه لم يمكن القضاء عليهم ، كأنما كانوا كلما قضى عليهم ينبتون من الأرض نباتا . وكانت لآرائهم جاذبية متجددة دائما . أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها ، مهما لبست ثوب التدين والورع ، كانت دائماً مدخولة بأغراض دنيوية ، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى . وكثيراً ما كان يستغلّها رجالٌ من أهل الطموح والتغلّب ، لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان : وفى وسط اضطراب الحركات والأغراض تمسك الخوارج بالمبادئ الأساسية التى رسمها الإسلام ، ولم يحيدوا عنها . وكانوا فى جهادهم فى سبيل « دولة الله » أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً وأقواهم عزماً . ولكنهم كانوا فى حربهم ، بطبيعة الحال ، أشد ما يكون المحاربون قسوة ، وذلك من أجل وضع خيالى لا يتيسر لبنى الإنسان .

وكان الشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافاً تاماً ، وإن كان منشؤهم هم أيضاً يرجع إلى الثورة على عثمان . وكان الشيعة أشد من الخوارج بغضاً لبنى أمية ، لكن بغضهم هذا لبنى أمية لم يكن يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الحكومة التيوقراطية فى أسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يُزيلوا الأسرة الزائفة ويحلّوا محلّها الأسرةَ الصحيحة صاحبة الحق الشرعى ، أعنى بيت النبى [عليه السلام]

الذى يرأسه بعد وفاته ابن عمه وختنهُ على بن أبى طالب . واسم الشيعة اختصار لعبارة : شيعة على . وكان شيعة على ، فى أول الأمر ، هم أهل العراق فى الجملة ، وذلك فى مقابل أهل الشام ، شيعة معاوية . وقد ظل على عند أهل العراق ، حتى بعد وفاته ، رمز سيادتهم المفقودة ، ولم يكن تشيُّعهم يَعْدُو أن يكون تعبيراً عن شعور العداء لبنى أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة ، خصوصاً الكوفة ، وهى العاصمة التى نزلت مكانتها . وكان رؤساء القبائل والعشائر فى الكوفة يشاركون غيرهم هـذا الشعور فى بادئ الأمر ، ولكن مركزهم كمسئولين اضطرهم إلى الحيطة ، فلم يشاركوا غيرهم فى ثورات لا ينتظر لها النجاح . وكانوا يمسكون زمام سواد الناس إذا أرادوا الاستجابة لمن يريد أن يستخفّهم معه ، ووضعوا نفوذهم باسم الهدوء والنظام فى خدمة الحكومة ، لكيلا يعرّضوا مركزهم للمتاعب ، وبذلك نفّروا من كان من الشيعة أكثر صراحة وأميل إلى العمل الإيجابى وأثاروا عداوتهم ، هؤلاء الشيعة الذين لم يقلّلْ فشلُهم فى مظاهرات عاطفية خيالية قاموا بها من تعلُّقهم بآل بيت النبى ، بل زادهم تعلقاً بهم . على أن معارضة الشيعة لسيادة الطبقة الأرستقراطية من زعماء القبائل قد زادت من تقاربهم وتشددهم ، فسلكوا طريقاً غير طريق سائر العرب ، وبذلك ارتفع فى الكوفة شانٌ لحزب كان ، حتى ذلك الحين ، متواريا فى الظلام ، واتخذ اسم السبئية . وقد غيّر هؤلاء السبئيةُ الإسلامَ من أساسه ، وذلك بأن جعلوا من شخص النبى شيئاً إلى جانب القانون المستقل عن الأشخاص (كما هو فى القرآن والسنة) وفوق هذا القانون الذى رضى به الناس بعد وفاة النبى ، وكان خصوصاً عند الخوارج هو الحجة التى لا يكون إلى جانبها أىّ تقديس أو تأليه لأحد من الناس ؛ فذهب السبئية إلى أن شخص النبى لم يمت بموت محمد [عليه السلام] ، بل هو باق فى سلالته واحداً بعد واحد ، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ الأرواح ، ووجهوه توجيهاً خاصاً ، فقالوا إن روح الله الذى يسرى فى الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبى إلى النبى

الذى بعده ، وإن روح محمد [عليه السلام] خاصةً انتقل إلى علىّ ، وإنه باق فى سلالته . وعلى هذا فإن علياً لم يكن فى نظرهم هو الخليفة الشرعى لمن قبله وحسب ، بل كان فى مرتبة أعلى من مرتبة أبى بكر وعمر اللذيْن يزعم الشيعة أنهما دخلا بينه وبين محمد [عليه السلام] واغتصبا حقه ، بل ذهب السبئية إلى أن علياً هو الروح الإلهى المتجسّد وأنه وارث النبوة : ولذلك فلا يمكن فى زعمهم أن يكون بعد وفاة النبى خليفة غيره فى الدولة التيوقراطية ، لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل حىٍّ لله يكون على رأسها[1] .

ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودى يمنى هو عبد الله بن سبأ ، وكانت لهم أوكار فى بعض قبائل العرب فى الكوفة ، لكنهم بعد ذلك درجوا منها وانتشروا فى الكوفة نفسها ، خصوصاً بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام . وإذن فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب ، وقد صار لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشاً له ، ثم استمال قدماء الشيعة أيضاً وعمل حيناً من الدهر على اغتنام ما تجدد من فوضى وانقسام ، فأراد أن يسقط الأرستقراطية العربية فى الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يُقْضَى فيها بفضل التشيُّع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية . ولكن نجاحه كان قصير الأمد ، فتم القضاء على شيعته ، ولكنها توصلت إلى النصر فيما بعد على الطريق الذى شقَّه لها .

٩ — ولكن المعارضة الدينية ، أو المعارضة التى لبست ثوب الدين ، ما كانت لتكون لها تلك الخطورة على حكومة الأمويين لولا ما انضاف إليها من تنافس بين القبائل العربية ، وهو تنافس لم يكن له بالحكومة التيوقراطية شأن ، بل عروقه ضاربةٌ فى الروح العربية نفسها . وقد زاد هذا التنافس بعد ذلك الملكُ

---

(١) وهم وإن كانوا قد جعلوا اسم النبى لمحمد وحده ، فإنهم فى الواقع جعلوا ورثته مساوين له فى المرتبة ، واعتبروا أن لهم سلطة إلهية ، وقالوا بأنهم معصومون .

العريض الذى وصل إليه العرب بسبب الفتوحات زيادة تجاوزت كلَّ ما كان معروفاً أيام الجاهلية . وقد زاد عمال الدولة خاصة من حدة هذا التنافس ، لأنه لم يكن تحت تصرفهم مباشرة سوى عدد قليل من الشرطة ، وكان جندهم ، فيما عدا ذلك ، يتكونون من المقاتلة فى الولاية ، أى من مقاتلة القبيلة ، وكان العمال يستطيعون ، بالسياسة الماهرة ، أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ويجعلوا أنفسهم فوقها . ولكن لم يفلح فى هذه السياسة إلا القليلون من الولاة ، وفى أول العصر الأموى خاصة . أما الذى كان يحدث فى الغالب فهو أن يستظهر الوالى بقبيلة واحدة على غيرها ، وكان يستظهر خصوصاً بقبيلته هو ، وكان هو الذى يأتى بها معه أحياناً . وعند ذلك كانت قبيلته التى يتخذها عُدَّةً له فى ولايته تشاركه فى الحكم وفى المزايا التى كان يكفلُها التصرفُ فى المناصب والأموال . ولكن كانت تتولى دفَّةَ الأمور مع كل عامل جديد قبيلةٌ جديدة ، فكان الأمر ينتهى بأن تقع القبيلة المخلوعة فى العداء المرير للقبيلة الحاكمة . وهكذا سرى السمُّ إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغانم السياسية . وأسوأ ما تجلّى ذلك فى ولاية خراسان التى كانت مُلْحَقَةً بالبصرة . فهناك ارتفع شأنُ قيس على يد عبد اللهِ بن حازم ، كما ارتفع شأن أزْد عمان على يد المهلّب ، وحلَّ محلَّ التنازع القديم بين بكر وتميم التنازعُ بين قيس وتميم أولا ، ثم بين الأزد وقيس ، وأخيراً بين ربيعة وقيس — تميم . أما فى الشام والجزيرة فقد تنوّع موقف قيس وكلب من النزاع حول الخلافة ، فأخذوا جانب ابن الزبير حيناً وجانب الأمويين حيناً آخر . وقد اتخذ نزاعهم صورة دامية ، وبقيت العداوة بينهم إلى بعد زوال سببها السياسى الأصلى بزمن طويل . ومما زاد فى خطورة النزاع على كل حال ميلٌ كان موجوداً عند القبائل إلى تكوين مجموعات كبرى[1] .

(١) قارن ما تقدم ص ٢٤ والصفحات التالية .

وقد لعبت قيس فى الشام وفى خراسان دوراً سياسياً كبيراً ، وكانوا منتشرين فى كل مكان ، وكانوا بفضل ما ينتمى إليهم من ثقيف يشغلون كثيراً من المناصب العليا ، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحاداً ، وكانوا أول من كوّن عصبة بالمعنى الحقيقى فى جميع أنحاء الدولة . وقد شقوا طريقهم إلى الحكم بأشد الوسائل خزياً . وكانت تميم تنتمى أيضاً إلى الجماعة الكبيرة التى كانت تنتمى إليها قيس ، وكانت تميم أكثر ما كانوا عدداً فى البصرة وخراسان ، وكانوا يتميزون بشعور قبَلى زَهْوٌ جاء مواتياً لهم ، فلم يكن طموحهم كبيراً إلى تولى المناصب ، وكانوا قلّ ما يتدخلون فى السياسة العليا ، ولم يكونوا على وئام مع قيس فى مبدأ الأمر ، لكنهم اتحدوا معهم أخيراً وانضموا إلى حزب مُضَر الكبير . ومن جهة أخرى كان أزد عمان ، فى البصرة وخراسان ، ألدّ أعداء قيس وتميم ، فانضموا إلى بقية اليمنيين الذين كانوا ، فى خراسان ، يشتملون فيما يشتملون ، على قبائل ربيعة (بكر) . وفى آخر الأمر دخلت فى هذه المجموعة قبائلُ قضاعة (كلب) الشاميين ، وقد اعتُبِروا يمنيين ، أما إنهم كانوا كذلك فهو موضع شك : وإنما الذى ألقاهم بين أذرع حزب اليمنيين فهو فى الحقيقة عداوتهم لقيس[1] . وهكذا كان نطاق الانشقاق والخلاف الخطر لا يزال يتسع[2] . ولم يستطع القرشيون والأمويون أن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الانقسام الذى شقّ العالمَ العربىّ إلى معسكرين .

ودخل الأعاجم فى الفرجة التى انفتحت بين المعسكرين ، فدخلوا فى الإسلام زرافات ، وخصوصاً تلك الطوائف الكبيرة من أسرى الفرس فى

---

(١) قارن القطامى (ط . بارت) ص ٢٩ ، ٥٦ ، ٩٣ ، فما بعدها .

(٢) ولكن التحزب لم يكن ثابتاً تماماً ، بل كان يختلف بحسب البواعث العارضة فى بعض الأحيان ، فكانت القبيلة تؤكد هذا الوجه أو ذلك من نسبها لكى تثبت ارتباطها بحاكم قوى يهمها أن تنال عطفه ، أما الشعراء خاصة فإنما كانوا يتزلفون إلى أكبر رأس .

الكوفة والبصرة . ولقد توصلوا بذلك إلى الحرية فى أشخاصهم[1] ، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق الحربية ومزاياها المادية ، فاعتُبروا موالى للقبائل العربية ، ولم تتسع لهم الدولة التيوقراطية إلا على هذه الصورة ، أعنى على صورة التبعية للقبائل العربية . ولم يكن الإسلام وحده كافياً فى ضمان المساواة لهم ، ذلك لأن الدولة التيوقراطية الإسلامية كانت فى الواقع دولة عربية خالصة ، دولة العرب التى جعلتهم فوق الأمم المغلوبة ، وكان هذا فى ذاته مناقضاً لفكرة الحكومة التيوقراطية ، فهى لا ينبغى أن تكون مُلكاً ولا يجوز أن يكون لها مظاهر المُلْك . وأشد ما تكون المناقضة إذا ظلّت حقوق السادة من العرب قائمة بالنسبة للمسلمين من غير العرب : ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له وحده بالمُلك كان من شأنه أن يدعو إلى نَبْذ كل تمايز بين الأمم من أساسه ، وكان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالى نصيبهم فى الدولة التيوقراطية وفى انتزاع حقوقهم من يد العرب ، وكان أهل الديانة والورع من العرب أنفسهم يقفون إلى جانب الموالى فى مطالبتهم بحقوقهم ، وحاولت أحزاب المعارضة ، بنوع خاص ، أن تجد لها فيهم خلفاء على بنى أمية ، وكان بنو أمية فى الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام[2] . وقد سبق

---

(١) على أن إطلاق الأسرى أحراراً إذا اعتنقوا الإسلام لم يكن واجباً بل عادة حسنة ، ولم يطبق المبدأ القائل بأن المسلم ، بحكم إيمانه بالله وبحكم شريعة الله ، لا يمكن أن يكون عبداً لمسلم . ولكنه كان البديهى أن يتبع العبد دين سيده خصوصاً إذا ولد فى بيته .

(٢) [لا شك أن حكومة بنى أمية كانت حكومة عربية إلى أكبر حد ، وما كان غير ذلك ممكنا ولا طبيعيا ، لأن العرب هم الذين أقاموا دولتهم ووسعوا رقعتها وأخذوا المكان الطبيعى لهم فى رياسة الدولة وفى إدارتها وفى قيادة جيشها . وكان لا يمكن إعطاء مناصب الرياسة والإدارة للموالى ، على حداثة عهدهم بالإسلام ومعارضتهم لسيادة العرب ، إلا إذا أريد للدولة الانهيار المبكر . وكان فى العرب أنفة واستعلاء لهما أصلهما ومبررهما . فاستبداد العرب فى أيام الدولة الأموية كان ضرورة طبيعية وسياسية ، أما القول بأن سيادتهم لم تكن سيادة الإسلام فهو قول مبالغ فيه ولا يصح أن يقال إلا من جهة أنهم لم يسووا بين الموالى وبين أنفسهم . ولكن هل كان « عقل الدولة » يسمح بذلك ؟ لم يكن يسمح ، ولا يصح من أجل هذا أن يقال إنه دولة بنى أمية لم تكن إلا دولة العروبة ، فقد كانت دولة الإسلام التى يمثلها العرب — المترجم] .

الخوارجُ إلى ذلك ، فقبلوا الموالى فى جماعتهم وفى جيشهم ، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب . وقد ترسّم الشيعةُ خطى الخوارج فى ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير . وقد رأينا كيف أن حزباً شيعياً[1] اتخذ فى الكوفة مع من فيها من الموالى ، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعاجم معه فى نفس الوقت ، ولكن لم يلبث أن مضى العربُ على هذا الحزب فى الكوفة نفسها ، فاختفى فى الظلام ، ولكنه انتقل فيما بعد من الكوفه إلى أرض الأعاجم الحقيقية ، إلى خراسان ، وانتشر هناك بين من دخل فى الإسلام من سكان تلك البلاد ، وتحت راية الإسلام ، أعنى تحت راية التشيّع ، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولاً ، وأن يقضوا بعد ذلك على السيادة العربية جملة ، وأن يُحلوا العباسيين محلّ الأمويين .

١٠ — إن الآراء المألوفة عن الشرق والروح الشرقية تحتاج فى الجملة إلى تصحيح كبير . ويجب ، مهما كان الأمر ، ألاّ يكون لها اعتبارٌ فيما يتعلق بتاريخ الإسلام طول الفترة التى كان العرب فيها هم الأمة الحاكمة . وإن السياسة ، لا أى شىء آخر ، كالحضارة مثلاً ، هى الموضوع الذى يحتل هنا المكان الأول ويستأثر بالاهتمام . ولم تكن سياسة العرب عبارة عن فكرة الشرقيين عن القدر المحتوم (Fatum) باديةً فى ثوب الحكم الاستبدادى المطلق ، بل هى كانت شأناً مقدساً عند جميع المسلمين ، اشتركوا فيه بأرواحهم وجوارحهم ، وإن كانوا لم يفهموا طبيعة الجماعة الإنسانية وحدودها[2] .

وقد تحكمت فى هذه السياسة نزعاتٌ عامة ، دينية وقومية واجتماعية . ونظراً

---

(١) [يقصد المؤلف المختار الثقفى وأتباعه — المترجم] .

(٢) [يظهر أن المؤلف يقصد أن العرب لم يفهموا أن أعضاء الجماعة التى تكون الدولة يجب أن يكونوا سواسية بحيث لا تكون هناك طبقات متمايزة ، وأن من طبيعة الجماعة السياسية أنها لا تقبل الفوارق والتمايز السياسى — المترجم] .

لتشابك هذه النزعات ، ونظراً لصراعها مع نظام الحكم الذى كان قائماً ، والذى كان ينـدر أن تُمثّله حكوماتٌ طويلة الأجل أو أشخاص أطول عمراً (١) ، فقد حدث اضطرابٌ كبير ، وكان الاتساع الهائل لمسرح تلك السياسة ، واشتمال ذلك المسرح على أمم وبلاد من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى لا يجعل الإلمام بها والإشراف عليها جميعاً أمراً سهلاً .

وقد بدا لنا أن هذا الفصل التمهيدى ضرورى لإعداد ذهن القارئ وتوجيهه ، حتى يفهم ما يلى ولا يفقد الخيط الذى يهديه ، لكن مقصده أيضاً هو أن ينبّه من قد يخطئ فيعتبر أن الفصول التالية تستوعب تاريخ صدر الإسلام ، وذلك أن هذه الفصول تدور فى جوهرها حول دولة الأمويين ، وحول الصراع الذى قام بين هذه الدولة التى تمثل السيادة العربية وبين القوى التى كانت تعارضها ، وحول سقوط هذه الدولة أمام الثورة التى لم تزل قائمة منذ انتهاء الخلافة فى المدينة . فأمّا تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث تناولاً مفصّلاً ، كلٌ منها على حدته ومن زاويته الخاصة ، فهذا ما لم يمكن أن يتّسع له المقامُ هنا ، وإن كان تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث ليس قليل الشأن فى فهم أحوال الدولة الإسلامية . وقد جمّعْتُ روايات عن ولاية خراسان ، التى لها أهمية خاصة ، وجعلتها داخلة فى أحد فصول الكتاب . أما فيما يتعلق بالخوارج وبالشيعة وكذلك بالحروب مع الروم فى ذلك العصر ، فإنى أنبّهُ القارئ إلى مقالاتى التى نشرتها ضمن رسائل وأخبار جمعية العلوم فى جوتنجن ، فى القسم الفلسفى التاريخى عام ١٩٠١ .

(١) كان معظم الخلفاء وأمراء الأمصار صغاراً ، ولم يمتد بهم الأجل إلى الكبر . أما معاوية ونصر بن سيار فكانا أشبه بالشيء الشاذ . وكان حكم الخلفاء والأمراء قصيراً أيضاً فى العادة ، وإن كان تغير الأمراء قد كان أكثر من تغير الخلفاء .

الفصل الثانى

علىّ والحرب الأهلية الأولى

١ — حكى المدائنى عن أبى مخنف (الأغانى ج ١٥ ص ٧١) أن نائلة زوجة الخليفة المقتول عثمان كتبت إلى معاوية وقصت عليه خبر مقتل عثمان وبعثت بقميصه الملطّخ بالدم ، وذكرت لمعاوية الآية التاسعة من السورة التاسعة والأربعين [الحجرات][1] . أما سيف فهو فى روايته التى حفظها لنا الطبرى (ج ١ ص ٣٢٥٥) يحكى أن النعمان بن بشير قدم إلى دمشق بقميص عثمان الذى قتل فيه ، مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم وشىء من الكف . وإذن فأمر الأصابع شىءٌ جديد ، ولذلك فليست نائلة ، بحسب هذه الحكاية ، هى التى بعثت بالقميص . ويمضى سيف فى روايته فيقول : إن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وظلّ القميص يوضع كل يوم على المنبر والأصابع معلقة فى أردانه سنة كاملة ؛ ذلك أنه كان بين مقتل عثمان وبين معركة صفين عامٌ كامل . وكان قصد معاوية أن يُثير أهل الشام[2] . أما المدائنى ،

---

(١) [هذه هى الآية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى ، حتى تفىء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » — المترجم] .

(٢) [وقد بلغ معاوية غايته ، وذلك أن رجال أهل الشام بكوا عثمان وآلوا ألا يقربوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشىء ، واتهموا عليًا بأنه قتل عثمان وآوى قتلته ، وصمموا على ألا ينتهوا عنه ، حتى يقتلهم أو يقتلوه — المترجم ، نقلا عن الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٥] .

نقلاً عن عوانة (الطبرى جـ١ ص ٣٢٥٤ وما بعدها ؛ قارن الكامل ص ١٨٣ فما بعدها ؛ والدينورى ص ١٦٦ فما بعدها) فهو يقتصر على حكاية أن علياً وجّه جرير بن عبد الله البَجَلى إلى معاوية ، يدعوه إلى بيعته ، وأن معاوية أظهر إجماعَ أهل الشام على الأخذ بثأر عثمان(١) ، وأنه بذلك أحدث فى نفس الرسول الأثر الذى أراده . وعلى هذا فقد صارت المسألة ، فى الحقيقة ، مجرد مناورة تقلق علياً وتضايق نفسه ، فلا تهجم على معاوية . أما الذى يؤخذ من رواية الواقدى (الطبرى جـ ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها) فهو أن قوما حرضوا معاوية على علىّ أكثر مما حرض معاويةُ نفسُه الناسَ على علىّ .

فنجد فى أبيات حفظها لنا الطبرى (جـ ١ ص ٣٢٥٨) أن الوليد ابن عقبة ، ابن عم معاوية ، يلوم معاوية على إضاعته الوقت فى مكاتبة علىّ ، وعلى قعوده فى دمشق وتوانيه عن القيام بما يقضى به واجب القرابة من الثأر لمقتل عثمان . لكن معاوية كان سياسياً بطبعه ، ولم يكن متعجلاً ولا متلهفاً على محاربة أهل العراق ، لأنه كان فى ذلك الوقت مُهدَّداً من قبل الروم ، وخصوصاً من قبل أهل مصر الذين كانوا فى جانب علىّ . ولم يكن يطمح إلى الخلافة ، وإنما كان غرضه الأول هو ، على الأقل ، أن يحافظ على ولاية الشام ، وأن يستولى على مصر ، التى كان لا يصح أن يتركها لخصومه ، إن أراد أن يحمى ظهره(٢). وقد دفعه إلى ذلك عمرو بن العاص خاصةً ، وكان عمرو

---

(١) [لا نجد هنا إثارة معاوية لمشكلة مقتل عثمان ، بل نحن نجدها فى مناسبة أخرى — راجع الطبرى جـ ١ ص ٣٢٧١ وص ٣٢٧٥ — ٣٢٧٦ — المترجم] .

(٢) [وأيضاً لعظم خراج مصر وقيمته فى تقوية شأن من يظهر عليها — راجع الطبرى جـ ١ ص ٣٣٩٦ ، ٣٤٠٩ . وكان قيس بن سعد بن عبادة والياً لعلى على مصر وكان أميراً حازماً ناجحاً ، فكان أثقل خلق الله على معاوية . وكان معاوية يخشى أن يقبل عليه على فى أهل الكوفة وأن يقبل قيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية ، الطبرى جـ ١ ص ٣٢٣٨ — المترجم] .

قد اشترك فى الثورة على عثمان[1] ، وأراد أن يتخذ من ذلك وسيلة إلى استعادة ولايته القديمة مصر . وبعد مقتل الخليفة المُسِن حالف عمرٌو معاوية على قتال على حلفاً أشبه ما يكون بالتحالف بين العصبية الأشقياء[2] ، وذلك لكى يبلغ غرضه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٣ فا بعدها ، قارن الدينورى ص ١٦٧ وما بعدها) . فتوجَّه معاوية وعمرو قاصدين مصر أولا ، ونجحا فى استدراج محمد بن أبى حذيفة والى مصر من قِبَل علىّ ، حتى أخذاه أسيراً (الطبرى ج ١ ص٣٢٥٢ فا بعدها وص٣٤٠٧ فا بعدها) ، ولكنهما اضطرا إلى الرجوع لكى يتوجهّا إلى قتال علىّ نفسه . وكان على هو المهاجم ، وكان يعتبر نفسه صاحب الحق فى الخلافة[3] وفى رياسة جميع المسلمين ، فبعد أن استوثق من العراق واستكمل عدته خرج آخر عام ٣٦ ﻫ . (أوائل صيف ٦٥٧ م .) من معسكره فى النُّخَيْلة[4] ، قرب الكوفة ، حيث كان يوجد عدد من أهل البصرة أيضا ، وسار متجهاً إلى الغرب . وكان معاوية وعمرو ينتظرانه على حدود الشام فى سهل صفين على الفرات ، غير بعيد من الرقّة[5] .

---

(١) راجع إلى جانب ما تقدم ذكره من تحريض عمرو بن العاص على عثمان ، الطبرى ج ١ ص ٣٤٠١ — المترجم] .

(٢) [حالفه على أن تكون لعمرو ولاية مصر طعمة ما بقى — الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٧ — المترجم] .

(٣) [راجع كلامه عند الطبرى ج ١ ص ٣١١٠ ، ٣٢٧٨ — ٣٢٧٩ — المترجم] .

(٤) إلى الغرب أو إلى الشمال من الكوفة على الطريق إلى الشام (الطبرى ج ١ ص ٣٣٤٥) . وكانت تقع هناك أيضاً بويب ، وتسمى موقعة بويب أيضاً موقعة النخيلة .

(٥) بين Barbalissus و Caesarium (تيوفانيس فى أخبار حوادث سنة ٦١٤٨ من تاريخ الخليقة) و Barbelissus هى SaBalis (= بالس البلاذرى ص ١٥٠ فا بعدها ، (Assem. Balis O. 2. 383) . واسم Sapphin مذكور عند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٥١ ، وفى النقوش الشامية فى حنش (Juorn As. 1900 II. 285ss) فى عهد السلوقيين (Sel. 968) يسمى Sapphe أو Sepphe فى .stat. emph ، وكذلك عند العالم الكوسموجرافى الرافنى ، حيث نجد أن Sephe و Barbalission يذكران معاً .

ولا نكاد نجد من أخبار موقعة صفين عند الطبرى إلا ما يذكره أبو مخنف : سلك علىّ مع حملة جيشه الطريقَ الحربى العادى مع نهر الدجلة ، ثم اخترق أرض الجزيرة ، وعند قرقيسيا لحقت به مقدمة جيشه التى كان عليها أن تسير مع الشاطئ الأيمن للفرات ، وبعد أن عبر علىّ الفرات عند الرقة التقت مقدمة جيشه بطلائع جيش الشام عند سور الروم . وانصرفت طلائع جيش الشام قبل التقاء السيوف . فلما طلب علىّ موضعاً لعسكره تبيّنَ أن أهل الشام أخلوا عليهم الطريق إلى الماء ، أى الفرات . ولما لم يستجب أهل الشام إلى أن يُخلّوا بين جيش على وبين الماء بالحسنى ، قاتلهم جيش علىّ حتى غلبهم على الماء وأراد منعهم منه ، لولا تدخلُ علىّ ومنْعُه من ذلك بعد أن انتصر جيشُه (الطبرى جـ ١ ص ٣٢٥٩ — ٣٢٧١) ؛ وعسكر الجيشان أحدهما أمام الآخر شهريْن كاملين ، ذا الحجة سنة ٣٦ هـ والمحرم سنة ٣٧ هـ [لم يكن بينهما من قتال إلا مناوشات كثيرة فى ذى الحجة ، أما المحرم فتوادع فيه الجيشان طمعاً فى الصلح] . وأخيراً بدأ القتال على أوسع نطاق يوم الأربعاء ٨ صفر سنة ٣٧ هـ[1] ، واستمر صباح الخميس كأشد ما يكون القتال ، وكان أهل الشام أحسن عدة ، وكان مظهرهم أكثر تضامناً من أهل العراق (الطبرى جـ ١ ص ٣٣٢٢) ، وانكشفَ يَمَن الكوفة أمام أهل الشام ، وكانوا على ميمنة علىّ ، وذلك رغم استماتة قرّائهم ، ولكن لما اقترب المساء أوقفهم مالك الأشتر ، ثم أخذ يردّهم خطوةً خطوةً على أعقابهم ، وظلّ يكشفهم ، حتى ألحقهم بالصفوف المحيطة بمعاوية[2] ، وانتهى بهم إلى عسكرهم ؛ ودام القتال طوالَ الليل حتى ارتفع الضحى ، وكانت هــذه هى ليلة الهرير الحقيقية ، لا ليلة

---

(١) الأربعاء ٢٦ يوليه سنة ٦٥٧ م . = ٦١٤٨ من تاريخ الخليقة = ٦٦٨ من حكم السلوقيين ؛ قارن الهامش المتقدم .

(٢) [كان من أهل الشام قوم بايعوا معاوية على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم وألفوا صفوفاً كثيرة أحاطت بمعاوية — الطبرى جـ ١ ص ٣٢٨٣ ، ٣٣٠٠ — المترجم] .

نهاوند(1) وفكر معاوية فى الفرار منهزماً ، ولاح النصر للأشتر ، وعند ذلك اضطر أن يترك النصر يضيع من يده وأن يغمد السيف ، بعد أمر متكرر من علىّ . وذلك أن أهل الشام رفعوا المصاحف على أسنّة رماحهم ، لكى يخرجوا من الاحتكام إلى السيف الذى أوشك أن ينتهى إلى غير مصلحتهم ويلجأوا إلى حكم كلام الله ، وقَبِل أهل العراق أن يُخدعوا ، وأكرهوا علياً على الكفّ عن القتال وعلى أن يفاوض معاوية ، وهدّدوه بالقتل إن لم يقبل ذلك . واختير ، بناء على اقتراح معاوية ، حَكَمان ليحكما بحسب القرآن فى مسألة من له الخلافة ؛ واختير عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعرى نائباً عن أهل العراق . وتقرر أن يصدر الحكم فى رمضان التالى ، فى مكان واقع بين الشام والعراق .

وحكاية أبى مخنف لموقعة صفين طويلة جداً فى الحقيقة ، وهى من طراز أخبار مواقع القادسية ونهاوند . ويحتلُّ الكلام عن مقدمات المعركة ، قبل بدء الالتحام الحقيقى ، فراغاً كبيراً . على أن المحرم ، على كل حال ، يبقى خالياً من القتال ، ولا يذكر قتال إلا فى الشهر الذى قبله والشهر الذى بعـــده ، وذلك على نحو واحد : فيحكى أولاً أنه بدأت مفاوضات الصلح ، وأنه بدأت بعد ذلك ، عند فشل المفاوضات ، مبارزاتٌ فردية ، كان فيها مناسبة لإظهار الأنصار البارزين لكل من معاوية وعلىّ ؛ أما أن أسماء الأشخاص الذين قاموا بذلك تختلف فى هذه الرواية ، فإن ذلك لا يغير من مادة الحكاية . ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ما جرى أولا فى شهر ذى الحجة هو فى الحقيقة ما جرى فى شهر صفر ، وهو غير

---

(1) الطبرى ج 1 ص ٣٣٢٧ ، الكامل ص ٧٥٣ ، ويجب أن يكون ذلك ليلة الجمعة ؛ ولكن الطبرى يذكر أن ليلة موقعة صفين كانت ليلة الخميس ، وكذلك فى رواية لأبى مخنف . قارن كتاب أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٣ .

منفصل عن المعركة الحقيقية طُول شهر المحرم(1) وعلى هذا تكون فترة الانتظار قبل الموقعة أقصر كثيراً مما يُروى . ولا يصح ، بطبيعة الحال ، أن يكون هناك شك فى أن كلاًّ من الفريقين كان مشفقاً من حسم النزاع بحد السيف (الدينورى ص ١٩ س ٥ ، ١٩٥ س ٩ ، ٢٠١ س ١٥) ولم يكن أحد يتعجّل البدء فى الحرب ، وربما كان للتخوف الموروث قديماً من إراقة الدم فى شهر المحرم شىء من التأثير فى عدم الإسراع إلى القتال ، وإلى ذلك يشير بيت مذكور عند الدينورى ص ١٨٢ والمسعودى ج ٤ ص ٣٥٠ ، وهو :

فما دون المنايا غير سَبْعٍ بقين من المُحَرَّم أو ثمانِ

ونحن لا نظفر ، فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية ، بصورة واضحة ، أو فى وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان فى مجراها . نعم ، نحن نجد فى كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجنـد وترتيبهم وقيادتهم ، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها ، ولا تكاد تكون لها ، من أجل ذلك ، أية قيمة عملية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقى . ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية ، وهى روايات لا تبين إلا ناحية واحدة ، ولا ينجح الكاتب فى محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء ، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء ، كأنما يتبين الإنسان أشجاراً متفرقة من بعيد ولا يتبين أنها فى الحقيقة غابة . وكل من شهد المعركة يميل إلى أن يعتبر أن المكان الذى كانت فيه قبيلته هو النقطة المركزية ، وإلى أن يجعل الفضل كله

(١) لا يذكر الدينورى أمر المبارزات الفردية إلا مرة واحدة ، وهو يجعلها فى المحل الثانى ، بحيث تصبح مقدمة للاشتباك . وهو بالإجمال يذكر كل شىء ، خصوصاً التفاصيل الصغيرة ، أدق مما نجده عند أبى مخنف ، فيقول إن أول مصحف رفعه أهل الشام كان مصحف دمشق الأعظم ، فرُبط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال . فروايته شبيهة برواية سيف ، وهو يتعمق معه فى الرواية . والأبيات التى يذكرها الدينورى قيمة جداً على كل حال .

لأبطال قبيلته ، ونهاية المعركة هي وحدها ، التي تبيّن بوضوح أن مالكاً الأشتر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم . لكن لا يصفه بأنه كان كذلك وصفاً واضحاً إلا النجاشي الشاعر في أبيات له (الدينوري ١٩٨) ، وقد اشترك النجاشي بنفسه في المعركة ، فهو يقول :

رأيتُ اللـــواءَ كظل العقاب يقحّمه الشـــاميُّ الأخزرُ
دعونا له الكبشَ ، كبشَ العراق ، وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللـــواءَ على عَقْبِه وفاز بحُظْوَتِها الأشترُ

أما فيما عدا ذلك فهو لا يزيد على كثيرين غيره ممن ذكرت أعمالُهم المجيدة بتفصيل لا يقل عن تفصيل أعماله[1] . وإذا صرفنا النظر عن قواد المعركة وجدنا من الأبطال الذين برزوا في القتال عليَّ بن أبي طالب نفسه وابنَ عمه عبد الله بن عباس . ويوصف قتالُ القُرّاء وثباتُهم ، عند فرار غيرهم أمام جند الشام ، كما يُذكر أنهم اقتحموا الموت من أجل عليّ ، فهم بدمائهم شهودٌ له ، وهم أقوى دليل على أنه على حق ؛ ويذكر من قادتهم عبد الله بن بديل بن ورقاء وهاشم بن عتبة وخصوصاً عمار بن ياسر الصحابي المسنّ الذي يروى أن النبي عليه السلام قال فيه إنه ستَقتُلُه الفئة الباغية (ابن هشام ص ٣٣٧) . وبذلك يصبح الأشتر في مكان أقل بروزاً ؛ والمتأخرون لا يميلون إليه ، وربما كان ذلك لأنهم ، مثل سيف ، كانوا يعتبرونه ثائراً . ولا يريد المسعودي واليعقوبي أن يذكرا من أمره شيئاً ، وهما يجعلان كل الفضل لكفاءة عليّ في القيادة . والطبري أيضاً يفعل

---

(١) ومنهم أيضاً من يظهر أنهم لم يكونوا قط حاضرين مثل قيس بن سعد بن عبادة ، قارن ما يلي قسم ٣ . أما ما ينسب إلى أبي الدرداء الصحابي الورع فقد اخترعه الدينوري (ص ١٨١) [يحكي الدينوري أن أبا الدرداء حضر صفين وتدخل في سبيل الوصول إلى حل للنزاع بين علي ومعاوية ، فلم يوفق ، فانسحب ولحق هو وأبو أمامة ببعض السواحل — المترجم] .

ذلك (ج ١ ص ٣٣٢١ فما بعدها) : أما أبو مخنف فهو لا يذهب إلى هذا الحد ، بل هو يصف بإعجاب كبير ، ذلك المظهر الحربى الرائع للبطـــل اليمنى (الطبرى ج ١ ص ٣٢٩٧) ، ووصفه يُشْعِر بأن البطل قد أقام الدليل على ما كان لشخصه من شأن . فكان لا يقف حيث يضعه علىّ ، بل على رأس قبيلته ، نخع ، وقد جعله إقدامُه واستباقُه العدوَّ على نحو مفاجئ قائداً لهمدان ومذحج معاً ، واستطاع بهم أن ينتزع النصر من يد أهل الشام . وكان هو وحده أيضاً الرجل الحكيم ، عند ما قبل الآخرون أن يخدَعوا وأن يؤخَذ منهم النصر ، فكان عربياً نبيلاً بإزاء أهل الورع القصيرى النظر ، وبإزاء أهل التراخى أو المكر من الساسة .

ولم تصل إلينا حكايةٌ للمعركة من الجانب الشامى ، فلعلها كانت تختلف عن حكاية أبى مخنف ، وإن كان يبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبى مخنف ، كما يؤخذ من حكاية تيوفانيس ، فهو يقول (فى أخبار سنة ٦١٤٨) : « إن من كان مع معاوية تغلبوا ، واستولوا على الماء ، ومن كان مع علىّ تركوا القتال وفرّوا بسبب العطش . على أن معاوية ، لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه أحرز النصر بدون مشقة » ومن البين بنفسه أن أبا مخنف يتحيز إلى أهل العراق وحزب علىّ على أهل الشام ومعاوية ، فعلىّ فى نظره هو صاحب الحق وأنصاره هم أهل الديانة ؛ أما حكاية أن أخاه عقيل بن أبى طالب كان يحارب فى صفوف العدو[1] فلا يذكرها أبو مخنف ، على حين يذكر أنه كان فى أهل الشام أبناء أبى بكر وعمر ، إلى جانب أربعة آلاف من القرّاء ، ومعنى هذا أن القراء لم يكونوا فى جانب علىّ وحده ، كما يذكر أن أهل الشام كانت ضمائرهم مطمئنة كأهل العراق ، فلم يكن هؤلاء جميعاً مقتنعين بحق علىّ اقتناعاً راسخاً ، وكانوا يطلبون الأدلة ، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويجادلون خصومهم مجادلات استمرت

---

(١) البخارى طبعة بولاق ١٢٨٩ ج ٢ ص ٦٧ فما بعدها و ص ١٣٩ و ١٤٥ و ج ٣ ص ١١ ، راجع أيضاً مجلة : Deutsche Morgenl. Zeitschr. (DMZ) 1884 68.

إلى ما بعد صفين بزمان طويل ، بل هى وصلت إلى الدار الآخرة[١] . ولم يكونوا متحمسين للقتال مع إخوانهم فى الدين وفى النسب ، وقد سرّهم وقف القتال . فكانت الخصومة بين الحزبين لينة فى أول الأمر ، وإنما اشتدت مع تطور الحوادث[٢] .

٢ — وفيما يتعلق بمجرى الحوادث بعد ذلك يحكى لنا أبو مخنف : رجع أهل العراق إلى أنفسهم ، وهم فى طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات ، ولام بعضهم بعضاً ولاموا علياً أيضاً ، وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطراً . ولما دخل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل ، وعسكروا فى حروراء ، فسموا الخوارج أو الحرورية[٣] ، وكان شعارهم عبارة احتجاج على التحكيم ، وقالوا : لا حكم إلا لله . وكان رؤساؤهم شبث بن ربعى الرياحى وعبد الله بن الكواء اليشكرى ويزيد بن قيس الأرحبى ، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وهمدان الكبيرة فى الكوفة . وقد نجح علىّ فى أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانبه ، وقد وعد أحدهم بولاية إصفهان والرى وأعطاه إياها . ثم عاد

---

(١) تراءى لعلقمة النخعى أخوه الذى قتل فى صفين فى المنام وقال له : إن قتلى أهل العراق وأهل الشام تنازعوا بعد قتلهم أيهم كان على الحق وأن الله أحق أهل العراق . وتحيّر رجلان فى المشكلة ، فأحالها حذيفة المدائنى إلى ما يحكى عن النبى من أن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية . أما فيما يتعلق باطمئنان ضمائر أهل الشام فنجد شاهداً من أشعار كعب بن جعيل وغيره من الشعراء عند الدينورى ص ١٩١ فما بعدها وص ٢٠٦ [لا يشير المؤلف إلى المراجع التى اعتمد عليها فى كلامه فى أول هذا الهامش — المترجم] .

(٢) [راجع موقف أهل العراق من على وخروجهم عليه وما كان من مناقشات بينه وبين الخوارج وقلة رغبة أتباعه فى الحرب معه وعدم استجابتهم له وتدخلهم فى سرية المكاتبات فى أيام التحكيم ونحو ذلك فى مواضع كثيرة عند الطبرى فى حوادث سنى خلافة على ؛ خصوصاً جـ ١ ص ٣٣٣٣ ، ٣٣٥٠ — ٣٣٥٤ ، ٣٣٨٧ — ٣٣٨٨ ، ٣٤٠٩ ، ٣٤١١ — ٣٤١٢ ، ٣٤١٩ وغير ذلك من المواضع — المترجم] .

(٣) قارن فيما يتعلق بأحزاب المعارضة السياسية — الدينية فى صدر الإسلام: Abh. der Göttinger Societät, Band 5. No. 2 (1901).

الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه ، لكنهم انتظروا ، وزعموا أنه وعدهم أن يقودهم ، دون إبطاء ، إلى محاربة أهل الشام ، فلما لم يفعل ذلك بل بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة فى دومة الجندل فى رمضان عام ٣٧ هـ ، اعتبروا ذلك خلفاً منه للوعد ، فخرجوا عليه من جديد وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن علىّ ، هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى ، وبايعوه فى اليوم العاشر من شوال عام ٣٧ هـ . (٢١ مارس سنة ٦٥٨ م .) ثم خرجوا من الكوفة وحداناً مُستَخْفِين واجتمعوا فى النهروان على الجانب الآخر من دجلة[1] ، وهناك أيضاً عرضوا على خوارج فى البصرة — وكانوا خمسمائة رجل — أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكى التميمى .

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهى المهزلة ، شعر علىّ أن له الحق فى أنه يستأنف القتال مع أهل الشام ، فجمع جيشه فى معسكر النخيلة ، ودعا الخوارج أيضاً للانضمام إليه ، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة — وهذا هو تصورهم لاستجابته مرغماً لقبول التحكيم فى صفين — فأراد علىّ عند ذلك أن يدعهم ويمضى إلى قتال أهل الشام ، ولكن جيشه ألحّ عليه فى أن يقاتل الخوارج ، لأن خوارج البصرة ، وهم فى طريقهم إلى النهروان ، قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة (ابن هشام ص ٢٣٤] ، بقروا بطن أم ولده عما فى بطنها [وقتلوا آخرين واعترضوا الناس . فاضطر علىّ أن يستجيب لإلحاحهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة ، كما حاول هو [ورجاله] عبثاً أن يبيّن لهم أنه وإياهم فى الحقيقة غير مختلفين ، وأنه إنما يريد أن يجعل السيف

---

(١) النهروان (Naqβaς) اسم النهر المعروف فى بلاد جوخى من أعمال المدائن (الطبرى جـ ٢ ص ٩٠٠) ، وهو أيضاً اسم لمكان يسمى باسم أدق هو : جسر النهروان (الدينورى ٢١٧ . وفيما يتعلق بأرض جوخى انظر الطبرى جـ ٣ ص ٢٧٥ و ٣٨٥ و ٤٠٦ .

حكماً بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم ، فأجابوهم : لو بايعناكم اليوم حكّمتُم غداً ، يقصدون أن علياً وشيعته سيفعلون ما فعلوه فى صفين من قبول التحكيم ، ولم يقبلوا أى شيء ، وتهيّئوا للقتال ، فتنادوا : الرواح الرواح إلى الجنة !

ويقول أبو مخنف إن موقعة النهروان كانت عام ٣٧ هـ ، قرب آخر هذا العام ، لأن الخوارج لم يخرجوا من الكوفة إلا فى شوّال ، أى فى الشهر العاشر . وقد تركهم قوادهم الذين كانوا فى حروراء ، واشترك شبث فى محاربتهم حرباً شديدة ، وكذلك فعل الأشعث الذى كان أول الأمر على مذهبهم : وهم أيضاً لم يكونوا بالكثرة التى كانوا عليها فى حروراء ، فلم يزد عددهم على أربعة آلاف ، ومن هؤلاء رجعت طائفة متفرقين ، فنزلت الكوفة ، وانتقل منهم نحو من مائة رجل إلى جانب علىّ علانية ، وانحاز خمسمائة فارس على رأسهم فروةُ بن نوفل إلى الدسكرة ، وقُتِل الباقون حتى لم يبق منهم إلا ثمانية أشخاص .

على أنه بعد القضاء على الخوارج اعتقد أهلُ الكوفة أنهم قد فعلوا ما فيه الكفاية ، ولم يبق لهم أى ميل إلى محاربة أهل الشام . واضطر علىّ إلى الإذعان للواقع . ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى النهوض لإخضاع ثوار آخرين تعللوا أيضاً بمسألة التحكيم ، لكن على نحو مغاير تماماً لما عند الخوارج . وكان الخِرِّيت بن راشد ، من قبيلة ناجية ، قد تبع علياً إلى الكوفة بعد موقعة الجمل ومعه ثلاثمائة رجل ، وحارب مع علىّ فى صفين والنهروان أيضاً . فلما لم يعترف علىّ بحكم المحكّمين جاهره الخِرّيت بالخروج والعداء ، واتجه ومعه أصحابه إلى الأهواز من طريق المذار ، وتلاحق بهم قوم من أصحابهم ، كانوا معهم فى الكوفة ، وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم ، واجتمع إليهم علوجٌ وأكرادٌ من أهل الأهواز ، لم يريدوا أن يدفعوا الخراج : وبعد أن هزمهم جيش كوفى تحت قيادة

معقل بن قيس التيمي عند رامهرمز ، رجع الخرّيت إلى بلاده في البحرين ، وأخذ يؤلّب قومه من بني ناجية ، وكانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧ هـ من دفع الصدقة (الزكاة) ، بل هو أخذ أيضاً يفسد قبائل عبد القيس [ومن والاهم من سائر العرب] ويؤلبهم على عليّ ؛ وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويُسِرُّ إليهم أنه على رأيهم ؛ فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم وأنحى على عليّ لأنه حكَّم الرجال في أمر الله ؛ وإذا تكلم مع الآخرين أظهر لهم رأيه الذي كان رآه حين خرج من الكوفة ، وهو أن علياً ما كان ينبغي له أن يرفض حكم المحكَّمين بعد أن رضي بالتحكيم واختار نائباً عنه ؛ وإذا تكلم مع من امتنع من دفع الصدقة قال لهم : شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، وزاد على ذلك بأن أوصاهم أن يصلوا بها أرحامهم وأن يعودوا بها على فقرائهم ولا يعطوها إلى بيت المال ؛ وكذلك استطاع أن يضم إليه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا إلى النصرانية لما رأوا الخلاف بين أفراد الأمة المحمدية وسفكهم الدماء ، وذلك بأن نبههم إلى أنهم ليس لهم أن ينتظروا من عليّ عقاباً على ارتدادهم عن الإسلام إلا أن يضرب أعناقهم . ولكن معقل بن قيس ، بعد أن طرده من الأهواز ، لم يدَعْه يثبت سلطانه في البحرين ، فلحقه وقاتله ؛ وصمدت قبائلُ بني ناجيةَ ، فصدّت ثلاث مرات هجومَ جيشٍ يزيد عليها في العدد ، حتى إذا قتل الخرّيت ومعه مائة وسبعون رجلاً ، تفرق الباقون وانتهت المعركة[1] .

هذا ما يحكيه أبو مخنف كما يذكر الطبري (ج ١ ص ٣٣٤٥ — ٣٣٨٦ ، ٣٤١٨ — ٣٤٤٣)[2] . ولا سبيل إلى تصحيح روايته بالرجوع إلى اليعقوبي

(١) [تجد ما كان من الخريت وكيف انتهى أمره عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ — ٣٤٤٣ وقد راعينا الأصل العربي بقدر الإمكان — المترجم] .

(٢) في مخطوط الطبري فجوة ، وقد ملئت في طبعة ليدن (ص ٣٣٦٤ — ٣٣٦٨) بالاستعانة بابن الأثير .

أو الكامل أو الدينورى ؛ ولكنها ليست ، بأى حال ، بريئة من المطاعن » خصوصاً فيما يتعلق بترتيب التواريخ . فهو بعد أن يقول إن الخوارج لم ينتخبوا لهم خليفة ولم يخرجوا إلى النهروان إلا بعد شهر من التحكيم ، يؤخذ من كلامه ، بعد ذلك ، أنهم كانوا هناك عند ما علم علىّ بحكم المحكّمين وبدأ يجمع جيشه في النخيلة لمحاربة أهل الشام : ومعنى هذا أنهم لابد أن يكونوا قد خرجوا من الكوفة قبل التحكيم . وإذا كان الخرّيت قد حارب مع علىّ فى النهروان ثم انشقّ عليه بسبب رفضه الإذعان لحكم المحكّمين ، فلا بد أن تكون موقعة النهروان نفسها قد وقعت قبل التحكيم[1] ؛ على أنه نظراً لهذا الخلاف فى ترتيب الحوادث تتزعزع كلُّ شهادة أبى مخنف ودقتُه فى وصف الواقع كما كان ، وذلك أن علياً ما كان ليستطيع التفكير فى محاربة أهل الشام إلا بعد صدور حكم المحكّمين ؛ فإذا كانت موقعة النهروان قد وقعت قبل ذلك ، فلا يمكن أن يكون تجمُّع الجند فى النخيلة مقصوداً به أهل الشام ، بل مقصوداً به الخوارج . وإذن فلا صحة للقول بأن الكوفيين أرغموا علياً على حرب الخوارج بدلاً من حرب أهل الشام .

ولا يقتصر خطأ أبى مخنف على تحديد تاريخ وقعة النهروان بالنسبة لغيرها ، بل هو يشمل التحديد المطلق لهذا التاريخ ، فهو يجعلها فى الشهرين الأخيرين من سنة ٣٧هـ . وقد اعترض الطبرى على ذلك لأسباب وجيهة (الطبرى ج ١ ص ٣٣٨٧ — ٣٣٨٩) . ونحن نعرف الآن التاريخ الدقيق من كتاب الأنساب للبلاذرى (راجع DMZ, 1884, 393) وهو أن المعركة كانت يوم ٩ صفر سنة ٣٨ — الموافق ١٧ يوليه سنة ٦٥٨ م .

---

(١) وبوجه أدق ، قبل وصول العلم بحكم المحكمين إلى الكوفة ؛ أما الحكم نفسه فيمكن أن يكون قد صدر فى نفس الوقت الذى كانت فيه موقعة النهروان ، بل ربما كان قبل ذلك ؛ والأمر هنا هو دائماً أمر علم علىّ بحكم المحكمين .

وعلى هذا فلم تُعقَد محكمة المحكَّمين فى رمضان سنة ٣٧ هـ ، بل هى لم تعقد إلا فى سنة ٣٨ هـ . ويقول الواقدى ، كما فى الطبرى (جـ ١ ص ٣٤٠٧) ، إنها عقدت فى شعبان سنة ٣٨ هـ – بعد شطر كبير من السنة ؛ إذا كان معاوية قد عاد فى صفر سنة ٣٨ هـ (بعد صدور حكم المحكمين من غير شك — قارن الطبرى جـ ١ ص ٣٤٥٠ س ١٦) إلى القتال مع أهل مصر ، كما يقول الواقدى أيضاً (الطبرى جـ ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) ؛ على أنه إذا كانت محكمة المحكَّمين لم تعقد إلا فى أول سنة ٣٨ هـ فمن العجيب أن يمضى عام كامل بين الاتفاق على التحكيم فى صفين وبين انتهـائه ؛ ويقول الزهرى وهو من أقدم الراة المدنيين ، إن الأجل الذى حُدِّد ، فى أول الأمر ، لإصدار الحكم قد أخِّر . وقد كان الاتفاق أن يلتقى الحكمان فى دومة الجندل ، أو ، إذا حال دون ذلك حائل ، فى أذرح ، فى العام التالى (الطبرى جـ ١ ص ٣٣٤١) . والواقع أنهم التقوا فى أذرح[1] (الطبرى جـ ٢ ص ٨) ، وأيضاً فى العام التالى لموقعة صفين ، أعنى عام ٣٨ هـ : وكل من الواقدى (الطبرى جـ ١ ص ٣٣٥٣ فما بعدها وص ٣٤٠٧) وأبى معشر (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٨) يذكر أذرح كما يذكرها الزهرى : وأبو مخنف لا يعيّن فى وثيقة الاتفاق مكان اجتماع المحكمين ، فيقول : وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكانٌ عدلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشام (الطبرى جـ ١ ص ٣٣٣٧) ، وبعد ذلك يذكر دومة الجنـدل عادة ، ولكنه يذكر دومة الجندل وأذرح معاً كأنهما شىء واحد ، [إذا كان نص الطبرى (جـ ١ ص ٣٣٥٤ س ١١) صحيحاً] .

وهكذا نلاحظ قلة الدقة فى الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر

---

(١) وهذا المكان الواقع فى بلاد إدوم القديمة ، ربما كان اختياره مراعاة لأهل المدينة الذين كان لهم الحق فى أن يقولوا شيئاً .

حوادث تاريخ صدر الإسلام . أما فيما يتعلق بما تضمنه هذا الحادث ويسير القضية وما انتهى إليه الحكم فيها ، فإن الروايات أقل من أن تفي بالحاجة ؛ ويذكر أبو مخنف روايتين في ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤ والصفحات التالية) ، إحداهما ترجع إلى الشعبي . فإلى جانب أبي موسى بعث عليٌّ إلى مكان عقد المحكمة أربعمائة رجل ، عليهم شُريح بن هانئ الحارثي ، وبعث معهم عبد الله بن عباس يصلي بهم ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل : وكان هناك أيضاً من مستحقي الخلافة بعد الخصمين ، وَرَثَةُ الأرستقراطية الإسلامية التي كانت تحيط بالنبي عليه السلام وكان منها مستشاروه في شئون الحكم ، مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما ؛ ولكن لم يحضر الصحابي المسن سعد بن أبي وقاص[1] . فأما عمرو فإنه أراد أن يثبت حق معاوية في الخلافة مستنداً إلى أن معاوية وآل معاوية هم أولياء عثمان ، وقد قُتِل عثمان مظلوماً ، وذكر عمرو قولَ الله عزَّ وجلَّ : « ومن قُتِل مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً ، فَلاَ يُسْرِفْ في القَتْل إنَّهُ كان منصوراً » (الإسراء آية ٣٣) . ثم أكمل عمرو دليله بذكر شرف معاوية ومكانه من صحبة النبي ، ومصاهرته له وحسن سياسته وتدبيره ، ثم عرَّض لأبي موسى بالسلطان وبأن معاوية إنْ تَوَلَّى الخلافة فهو مكرمٌ إيّاه كرامةً لم يكرمها خليفةٌ . وكان أبو موسى في نفسه يرشّح عبدَ الله بن عمر ، فلم يغتر بكلام عمرو ، وقال له : ليس أمر الخلافة أمر استحقاق بالشرف ، وإلا كانت الخلافة لغير معاوية ، بل الخلافة لأهل الدين والفضل ؛ وإذا كان الأمر أمر شرف فعليٌّ بن أبي طالب أفضل قريش شرفاً . ثم قال إن المهاجرين الأولين أحق بأن يكونوا أولياء للدم عثمان من معاوية ، ثم ختم كلامه رداً على عمرو في تعريضه له بالسلطان الكرامة من معاوية فقال : والله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليّتُه ، وما كنتُ

---

(١) [كان سعد قد آثر الابتعاد من الفتنة خصوصاً بعد مقتل عثمان وقيام النزاع بين علي ومعاوية (راجع الطبري مثلا ج ١ ص ٣٣٥٣ — ٣٣٥٥) — المترجم] .

لأرتشى فى حكم الله عزّ وجل ؛ ولكنك إن شئتَ أحيينا اسم عمر بن الخطاب(١) . وهنا تنقطع رواية الشعبى ، ولا نجد فيما عدا ذلك من روايات سوى اعتراض عمرو بن العاص على ترشيح عبد الله بن عمر . أما أبو مخنف فهو يأتى برواية أخرى عن ابن جنّاب الكلبى ، وهى الرواية الوحيدة التى تصف نهاية مفاوضات التحكيم : التقى عمرو وأبو موسى فى دومة الجندل ، وكان عمرو قد عوّد أبا موسى بأن يقدّمه فى كل شىء ، وإنما قصد بذلك تقديمه فى الكلام عند إصدار الحكم الذى انتهيا إليه ، وهو خلع علىّ ومعاوية معاً ؛ وقد أراد عمرو أبا موسى على معاوية فأبى ، وأراده على ابنه فأبى ؛ وأراد أبو موسى عمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : خبرنى فما رأيك ؟ قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبّوا ، فقال له عمرو : فإن الرأى ما رأيتَ . وليس المقصود من هذه الشورى أن يُتْرَك الأمر لانتخاب الشعب ، بل لجماعة مختارة من الأرستقراطية الإسلامية ، على مثال الجماعة التى ألفها عمر ، واتفقت على انتخاب عثمان . وأقبل الحكمان إلى الناس ، وهم مجتمعون . وبعد أن طلب عمرو من أبى موسى أن يُعْلِمَ الناسَ باتفاق الرأى بينهما ، وتكلم أبو موسى فقال : إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يُصلح اللهُ به أمر هذه الأمة ، عند ذلك قال عمرو : صدَقَ وبرَّ يا أبا موسى ، تقدم فتكلم ! وتقدّم أبو موسى ، فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشيةَ الغدر من جانب عمرو . ولكن أبا موسى كان مُغفَّلاً ، فقال : إنا قد اتفقنا ، وأخذ يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نرأصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمةُ هذا الأمرَ ، فيُوَلّوا منهم من

---

(١) [يقصد ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة — المترجم]

أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمرَكُمْ وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى أبو موسى وقام مقامَه عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتُم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه ، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية ، فإنه ولىُّ عثمان بن عفّان والطالبُ بدمه وأحقّ الناس بمقامه : وعند ذلك تشاتم الحكمان ، وقام أحدُ أنصار علىّ على عمرو فضربه بالسوط . وقام الناس ، وركب أبو موسى ولحق بمكة هارباً من أهل الشام ، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة . ورجع قوم علىّ إلى علىّ ، فكان علىٌّ إذا صلّى الغداةَ يَقْنُتُ ويلعن معاوية وعَمْراً وغيرهما من أنصار معاوية ، وبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وغيرهما من آل علىّ .

ولا بد من التنبيه على ما يشعر به الإنسان من أن أبا موسى قد وقع على هذا النحو فى شرك الخديعة ، أما عمرو فقد غدر غدراً شائناً . ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع فى مثل الشرك الذى وقع فيه أبو موسى ، وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو ، ولم يكن عمرو فى الحقيقة بالرجل الذى يُخْدَع . وهذه الحكاية فى أمر نهاية محكمة التحكيم غير جديرة بالتصديق ، وإن كان الواقدى يُعَوِّل عليها فيما يظهر (الطبرى ج ٢ ص ٨٤)[(١)] . والغالب أن حكاية الشعبى تختلف عن ذلك ، ولكن نهايتها مفقودة للأسف ، ولدى المؤرخ وسيلةٌ لتصحيح الخطأ بالرجوع إلى ما حكاه أبو مخنف من أمر الخرّيت بن راشد . وذلك أن الخرّيت أخذ على علىٍّ أنه لم يقبل حكمَ أبى موسى الذى يقضى بترك اختيار

---

(١) ويحكى أبو عبيدة فيما يتعلق بحوادث فى البصرة شيئاً شبيهاً بهذا وقع فيها بعد (راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٤٦ فما بعدها وقارن ص ٤٤٤) [فى هذين الموضعين من كتاب الطبرى تحكيم أهل البصرة رجلين ليختارا لهم والياً بعد موت يزيد بن معاوية وغدر أحد الحكمين بالآخر — المترجم]

الخليفة إلى الشورى بين المسلمين[1] ، وما يأخذه الخرّيت على علىّ لا بد أن يكون مَرْجِعُه إلى قبول أهل الشام أن يكون أمر الخلافة للشورى ، وإلا لما كان هناك محلٌ للوم الخرّيت علياً . أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئاً لأنه لم يكن خليفةً بعد ، ولم يُنَصَّبْ خليفةً فى الحقيقة إلا عام ٤٠ هـ ، فى بيت المقدس . ولكن علياً لم يكن يستطيع أن يتنازل عن الموقف الذى اتخذه ، ولا أن يجعل حقه متوقفاً على الشورى . وكان من السهل توقع الرفض منه . وقد تصرف عمرو بدهاء عندما وافق أبا موسى على خلع الرجلين ، وهو قد غرّر بأبى موسى على كل حال ، لأن معاوية لم يكن خليفة ، فيُخْلَع بالمعنى الذى يُخْلَع به علىّ . وكان الخلع وإنكار الحق فى الخلافة لا يصيب إلا علياً . وبعد أن أخطأ علىٌّ فى الخطوة الأولى أصبح مضطراً فى إصلاح الخطأ إلى النكث ورفض حكم الحكمين . وروايات أهل العراق تميل كل الميل إلى إخفاء هذا النكث الذى يُعْذَر صاحبُه على كل حال ، وهى تجعل كلَّ الوزر على عمرو وأبى موسى ، الحكمين اللذين لم يُوَفَّقا إلى خير (الطبرى جـ ٢ ص ٧١٠ س ٩ — ١٠ وص ٩٢٩ س ١) .

٣ — وقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٣٨ هـ ، ويظهر أن فتحها وقع بعد انتهاء التحكيم على الفور ؛ وقد حاول معاوية فتح مصر من قبل فى سنة ٣٦ هـ . وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم ، ولكنى أعود إليه هنا فى سياقه ، لكى يزول كل غموض :

يقول أبو مخنف (الطبرى جـ ١ ص ٣٢٣٤ فما بعدها و٣٢٤٣ و ٣٣٩٢ والصفحات التالية) إن محمد بن أبى حذيفة ، بعد أن سرَّب المصريين إلى عثمان ابن عفان حتى حاصروه ، وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبى سرح ،

---

[1] هكذا عند الطبرى جـ ١ ص ٣٤٣٤ س ١ و ص ٣٤٢٧ س ٢ . وخلافاً لهذا يبدو الخريت خارجيا محضاً (الطبرى جـ ١ ص ٣٤١٩ س ١) ؛ وهذا خطأ إذا نظرنا إلى جملة الحوادث ، ولكن من السهل أن ندركه ، إذا نظرنا إلى تصور أبى مخنف لمجرى قضية التحكيم .

عامل مصر حينئذ من قبل عثمان ، فطرده منها ، وصلّى بالناس . فخرج ابن أبي سرح ونزل على تخوم فلسطين ، وانتظر ما يكون من أمر عثمان في المدينة وما تنتهي إليه الفتنة . وتلقى محمد بن أبي حذيفة مع خبر مقتل عثمان كتابَ علي بن أبي طالب بتعيين قيس بن سعد بن عبادة ، أنبه رجال الأنصار ، والياً على مصر . وجاء قيس ومعه الكتاب ، ويرجع تاريخه إلى صفر سنة ٣٦هـ . وقد جاء قيس من غير جيش ، ولم يكن معه إلا سبعة نفر من أصحابه ، وكان لأتباع عليّ اليد العليا في مصر ، ولكن كان فيها بطبيعة الحال قومٌ مائلون إلى عثمان أيضاً[1] . وكان قد تجمعوا في قرية يقال لها خَرِبْتا ، في الدلتا ، وعليهم يزيد بن الحارث الكناني . ولكن قيساً هادن يزيد ، كما هادن مسلمة بن مخلّد الأنصاري ، وكان من رهط قيس ابن سعد نفسه ؛ وكان مسلمة قد وثب يدعو إلى المطالبة بدم عثمان ، ولذلك لم يستطع معاوية أن ينال أنصاراً في مصر على شدة اهتمامه بذلك ، فحاول عند ذلك أن يضم قيساً إلى جانبه ، فوعده بجبال الذهب إن هو انضم إليه[2] ؛ ورغم أن معاوية لم يصب نجاحاً في ذلك فإنه تعمد أن يذيع أن قيساً من شيعته وأنه لا يؤذي قوم معاوية بمصر . بل استغلّ معاوية كتاباً جاءه من قيس رداً على كتاب منه إليه لان فيه قيسٌ لمعاوية ، واختلق كتاباً آخر من قيس يعلن فيه انضمامه إليه[3] . وقصد معاوية بذلك أن يثير الريبة من قيس في نفس عليّ ؛ وقد أفلح معاويةُ في الوصول إلى غرضه . وأراد عليٌّ أن يمتحن ولاء قيس له ،

---

(١) ولكنهم لم يكونوا بأي وجه في جانب معاوية في أول الأمر ، وليس معنى مواهم لعثمان أنهم كانوا يميلون إلى بني أمية . وكان في الكوفة أيضاً قوم يميلون إلى عثمان ولا يتهمون حزب أهل الشام من أجل ذلك ، بل هم اتخذوا موقفاً محايداً على نحو ما ، كما فعل أبو موسى — قارن الطبري ج ٢ ص ٦٥٩ والمقدسي ص ٢٩٣ س ١٢ .

(٢) [وعد معاوية قيسا بسلطان العراقين ووعده لمن أحب من أهل بيته بسلطان الحجاز — المترجم] .

(٣) [يجد القارئ المكاتبات بين معاوية وقيس عند الطبري ج ١ ص ٣٢٣٨ — ٣٢٤٦ . وكتاب قيس الأول لمعاوية غير صريح ، فتصور معاوية أن قيسا مقارب مباعد ، ولم يأمن أن —

فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ؛ فلما امتنع قيس وبيّن لعليّ وجهة نظره فى سياسته ومداراته لقوم أشداء ، أبى علىّ إلاّ قتالهم ، وأخيراً كتب قيس إلى علىّ : إن كنتَ تتهمنى فاعزلنى عن عملك وابعث إليه غيرى ؛ فعزله علىّ وعين مكانه محمد بن أبى بكر[1] . وكان فى ذلك دخل للدسائس من جانب بطانة علىّ ضد قيس بن سعد بن عبادة ، الذى كان أبوه سعد بن عبادة قد نازع أبا بكر فى الخلافة من قبل . وقد فوجئ قيس بوصول خَلَفه ، ولكن ولاءه لعلىّ لم يتزعزع . وبعد فترة قليلة قضاها فى المدينة خرج حتى قدم على علىّ فى الكوفة ، وحارب إلى جانبه فى موقعة صفين (عام ٣٧ هـ .) . أما محمد بن أبى بكر الذى كان كتاب تعيينه مؤرخاً غرة رمضان عام ٣٦ هـ ، فإنه لم يلبث فى ولايته شهراً كاملاً حتى بعث إلى القوم المعتزلين الذين كان قيس بن سعد قد وادعهم ، فخيّرهم بين أن يدخلوا فى طاعته وبين أن يرحلوا عن البلاد . فاستمهلوه حتى ينظروا ما تصير إليه أمورهم ، فلما أبى عليهم امتنعوا منه وأخذوا حذرهم ، حتى كانت وقعة صفين وهم له هائبون . فلما أتاهم صبرُ معاوية وأهل الشام لعلىّ وأن علياً وأهل العراق رجعوا عن معاوية وأهل الشام وصار أمرهم إلى التحكيم ، اجترؤا على محمد بن أبى بكر وأظهروا له المبارزة . فوجّه إليهم بعثاً فقتلوا قائده ، ثم بعثاً آخر فقتلوا قائده ، ثم وثبوا بقيادة معاوية بن حُدَيج السكونى يدعون إلى المطالبة بدم عثمان . وفسدت مصرُ على محمد بن أبى بكر ، ولم يستطع أن يكبح جماح الثوار ، فاضطر علىّ إلى أن يقرر إرسال مالك الأشتر ، صاحب النصر يوم صفين ، إلى

= يكون فى الحقيقة مكايداً ؛ ثم جاء خطاب قيس الثانى صريحا فى تأييد على والطعن على معاوية وأصحابه . ويظهر أن قيسا لما رأى قوة العثمانيين بين عرب مصر آثر السياسة والموادعة ، وإلا فإن تاريخه يدل على استقامة الكلمة وعلى الصراحة وعدم المساومة ، لا فى شرفه ولا فى موقفه السياسى — المترجم] .

(١) [وفى رواية أخرى أن عليا عين مالكا الأشتر مكان قيس بن سعد وأن مالكا مات مسموماً من يد أنصار معاوية بمصر (الطبرى ج ١ ص ٣٢٤٢ ، ٣٣٩٣ ، ٣٣٣٤) المترجم] .

مصر ؛ وكان مالك يومئذ فى نصيبين على حدود أرض الجزيرة التى كانت تابعة للشام . وجاء مالك أيضاً من غير جيش ، وشق على معاوية تعيينُ مالك على مصر ، فبعث إلى الجايستار ، رجل من أهل الخراج ، وطلب منه أن يحتال لمالك ويكفيه إياه ، ووعده ألاّ يأخذ منه خراجاً طول مدة حكمه ، إن فعل . فخرج الجايستار إلى القلزم واستقبل مالكاً ، واحتال حتى استطاع إضافته ، ثم دسّ له السمّ فى شربة عسل ، فمات . وكان معاوية قد طلب من أهل الشام أن يدعوا الله أن يكفيهم مالكاً الأشتر ، فكانوا كل يوم يدعون الله عليه ، حتى إذا بلغ معاوية موتُه قام فى الناس خطيباً فى دمشق وأعلن موت الأشتر إعلان المنتصر ، وعند ذلك كتب علىّ إلى محمد بن أبى بكر ، فأزال ما كان فى نفسه من موجدة بسبب تعيين الأشتر على مصر ، فرضيت نفسُه ، وبقى فى منصبه المثقل بالمتاعب .

ولكن رواية أبى مخنف هذه ، وهى السائدة فى الكتب الحديثة للتاريخ الإسلامى ، يمكن تصحيحها بمعلومات أكثر دقة . لم يكن قيس بن سعد أولَ والٍ لعلىّ فى مصر ، بل جاء خلفاً لمحمد بن أبى حذيفة[١] . وكان محمد قد بقى فى مصر عند ما خرج الثوار على عثمان من هنالك قاصدين المدينة ، وذلك بعد أن كان قد طرد عبد الله بن سعد بن أبى سرح واستولى على مصر لعلىّ (الطبرى ج ١ ص ٢٩٦٨) . ولكن معاوية وعَمْراً نجحا عام ٣٦ هـ فى استدراج محمد بن أبى حذيفة ، الثائر الشاب ، إلى العريش عند حدود مصر ، ولم يتوغلا فى مصر أكثر من ذلك (رغم ما جاء فى الطبرى ج ١ ص ٣٤٠٧ س ١٧) ، لأن العثمانيين بمصر لم ينضموا إليهما ؛ وفى العريش أحاطا بابن أبى حذيفة وأخذاه أسيراً ، ثم

---

(١) الواقدى ، عند الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ والصفحات التالية ، والبلاذرى ص ٢٢٧ فما بعدها ، ويوافق ذلك ما جاء فى الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٣ ، وهى رواية لا إسناد لها .

قُتِل بعد ذلك . ولكن الروايات لا تتفق تماماً فيما يتعلق بزمان القتل وكيفيته ، فيقول المؤرخ السرياني الذي نشر نولدكه كتابه (DMZ, 1895, 89) إنه في سنة ٩٦٩ من حكم السلوقيين (= ٣٨ — ٣٩ هـ .) قُتل حذيفة بن أخت معاوية بأمر معاوية[1] . ويؤيد هذا التاريخ ابنُ الكلبي ، كما يذكر الطبري (جـ ١ ص ٣٤٠٨) . على أنه يروى أنه لما فر ابن أبي حذيفة من سجنه كان معاوية يحب له أن ينجو (قارن الطبري جـ ٢ ص ٢١٠ والدينوري ص ١٦٧ س ١٥) . وقد قتله رجل من خثعم ؛ على كره من معاوية . وقد كان ابن أبي حذيفة قد اختبأ في غارٍ ، فلجأت إليه حُمُرٌ وحشيةٌ أصابها المطر ، فلما رأته فزعت ونفرت . ورأى ذلك حصّادون ، فتنبهوا إليه ، ودلّوا الرجل الخثعمي على مكانه ، فقتله . أما الواقدي (الطبري جـ ١ ص ٣٢٣٣ س ٧ وص ٣٤٠٧ س ١٥) فهو يجعل قتل ابن أبي حذيفة في نفس السنة التي أسر فيها ، أعني عام ٣٦ هـ . والأرجح أن هذا خطأ .

وبعد أسر ابن أبي حذيفة جاء قيس بن سعد خلفاً له . فمن العسير أن يكون قد ترك ولايته في رمضان سنة ٣٦هـ ، وأن يكون قد اشترك في موقعة صفّين ، كما يقول أبو مخنف . أما الزهري (الطبري جـ ١ ص٣٢٤١ فما بعدها وص٣٢٤٦ وص٣٣٩١ فما بعدها) فيقول إنه عُزِل بعد تلك الموقعة ، وإنه لم يبادر الذهاب إلى عليّ بالكوفة راضي النفس ، بل هو لحق بالمدينة . ولكن مروان ابن الحكم وغيره من الأمويين أخافوه أن يُؤخذ أو يقتل ، فخرج قيس حتى قدم على عليّ . وتغيّظ معاوية أشد الغيظ على من أخرج قيساً حتى لحق بعليّ ، لما كان لقيس في نظر معاوية من الرأي والمكانة ، حتى كان ذلك أشد عليه من

---

[1] (١) هو يسميه حذيفة ، وإن كان أبوه لم يكن يسمى أبا حذيفة تبعاً لاسمه ، ويعتبره ابن أخت معاوية ، وإن لم يكن في الحقيقة ابن أخته بل ابن خاله (ابن هشام ص ١٦٥ و ٢٠٨) [في الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٨ أنه كان ابن خال معاوية — المترجم] .

إمداد علىّ بمائة ألف مقاتل ؛ وجاء الأشتر إلى مصر بعد قيس مباشرة ، ولم يأت محمد بن أبى بكر إلى مصر إلا بعد أن دُس السم للأشتر بعد أن كان قد دخل أرض مصر . على أن ابن الكلبى (الطبرى ج ١ ص ٣٢٤٢) يذكر خلافاً لذلك أن الأشتر إنما أُرســـل إلى مصر بعد سقوط محمد ابن أبى بكر ؛ وهذا خطأ تام على كل حال .

على أن معاوية وعمراً استأنفا ما كانا قد رجعا عنه من الهجوم على مصر سنة ٣٦ هـ ؛ فعادا إلى ذلك فى عام ٣٨ هـ ، بنجاح أكبر ، وحاربا محمد ابن أبى بكر . والروايات فى ذلك أيضاً متضاربة عند الطبرى ؛ فيقول أبو مخنف (الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٦ والصفحات التالية) إن معاوية ، بعد انتهاء التحكيم ، ولم يكن له هم سوى مصر ، وكان لأهلها هائباً خائفاً ، لقربهم منه وشدتهم على من كان على رأى عثمان . وكان معاوية يرجو أن يظهر على مصر ، فيظهر على حرب علىّ ، لعظم خراجها[1] . فكان يعلم أن بها قوماً قد ساءهم قتلُ عثمان ، وخالفوا علياً ، منهم مسلمة بن مخلّد الأنصارى ومعاوية بن حُدَيْج الكندى ؛ وكان محمد بن أبى بكر قد ناصبهما الحرب ؛ وشجّع معاوية هذين الثائرين فى كتاب منه إليهما ، ووعدهما المواساة فى الدنيا والسلطان ، فكتبا له بأمرهما وأنهما بذلا أنفسهما لأمر الله ، لا يرجون إلا ثوابه ، وطلبا أن يعجّل بإرسال المدد ، بعد أن كانا من قبل لا يقبلان منه شيئاً . فخرج عمرو فى ستة آلاف رجل قاصداً مصر ، حتى إذا نزل له فى نفس الوقت بكتاب تهديد ووعيد من معاوية . فطوى ابن أبى بكر الكتابين وبعث بهما إلى علىّ ، وأبلغه نزولَ عمرو أرضَ مصر فى جيش لجب واجتماعَ أنصار معاوية إليه ، ووصف له ما بدا على الناس من الفشل ، وطلَبَ المددَ

(١) [قارن ما تقدم ص ٧١ — المترجم] .

من عليّ . فكتب له علي أن يصبر ويتحصّن حتى يأتيه المدد ، وأن يردّ على ما وصله من كتب التهديد . ولكن مدد عليّ لم يأتِ ، واضطر محمد ابن أبي بكر إلى أن يعتمد على موارده الخاصة[1] . فدعا الناس إلى القتال ، فنهض معه نحو من ألفي رجل ، وكان أشدهم نجدة وبأساً كنانة بشر التجيبي قاتل عثمان[2] ، وهو الذي أوصى عليٌّ محمدَ بن أبي بكر بانتدابه . وبدأت المعركة ، وقاتل كنانةُ قتالاً شديداً ، حتى قُتِل أمام قوة كبيرة من جند الشام أحاطت به من كل جانب . وعند ذلك تفرّق الباقون عن محمد ابن أبي بكر ، حتى بقي وما معه أحد ، فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة ، فأوى إليها . وخرج معاوية بن حُدَيْج في طلبه حتى اهتدى إليه واستخرجه من الخربة ، ثم قتله ، وهو مجرد من السلاح ، ثم وضعه في جوف حمار وأحرقه بالنار . فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقنتت عليه في دبر كل صلاة ، تدعو على معاوية وعمرو ، وقبضَتْ عياله إليها ، وصارت لا تستطيع أن تأكل لحم الشواء (قارن الطبرى ج ٣ ص ٣٦٨) .

أما الواقدى فيحكي غير ذلك ، فهو يقول (الطبرى ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) إن عمْراً خرج إلى مصر في أربعة آلاف رجل فيهم معاوية بن حُدَيج وأبو الأعور السلمي ؛ ومعنى هذا أن معاوية بن حُدَيج لم يكن في مصر من قبل ويذكر الواقدى أن المعركة كانت عند المُسَنّاة[3] . وبعد قتال شديد قُتِل كنانة ، ولم يجد محمد بن أبي بكر من يقاتل معه ، فانهزم واختبأ عند جبلة ابن مسروق ، حتى دُلّ عليه معاويةُ بن حُدَيج ، فأحاط به ، فخرج محمد وقاتل حتى قتل ، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ .

---

(١) قارن بهذا ما يقوله سيف في حكمه على هذا الرجل .

(٢) [نجد في الطبرى ج ١ ص ٣٤٠٣ ، ٣٤٠٥ ، ٣٤٠٦ أن محمد بن أبي بكر يعترف بقتله عثمان وأنه قُتل بعثمان — المترجم] .

(٣) المسناة ، ويسمى المسعودى هذا المكان كوم شريك ، وهذا خلط — قارن ياقوت ج ٤ ص ٣٣٠ .

ونهايةُ محمد بن أبي بكر كما يحكيها أبو مخنف ، أكثر دخولاً في بابه الروايات القصصية مما هي عند الواقدي ، وهي تشبه ما يُروى من نهاية محمد (بن أبي حذيفة) الذي قُتل ، كما يقول المقريزي[1] ، كما يقتل الحمار ، والذي يذكر ابن الكلبي أيضاً أن قتله كان بسبب حُمُرٍ نفرت من الغار الذي كان مختبئاً فيه ، فدلّت بذلك عليه . ولا حاجة للمؤرخ أن يحكم في الأمر حكماً قاطعاً ، وهو يرى مقدار اضطراب الروايات المتعلقة بذلك العصر .

٤ — ساء موقف عليّ بعد صِفّين سوءاً شديداً ، فكان الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة ، وكان أهل البصرة متراخين متثاقلين عن نصرته ، إذا استثنينا أشخاصاً قلائل مثل أبي الأسود الدؤلي . وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم ، لم يكونوا معه بكل قواهم ، وكان بينهم بعض المحايدين وبعض المائلين إلى عثمان ، ولحق بعضهم بمعاوية . وقد كان لضعف مركز عليّ في قلب الدولة أثرُه على مكانته وهيبته في الأطراف ؛ ففي سنة ٣٧ هـ ، قبل ثورة الخريت ، امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال ، وارتد بعضهم إلى النصرانية ، وتمردت الولايات الفارسية وتراخت عقدةُ طاعتها للحكومة المركزية . وطمع أهل فارس وكرمان في كسر الخوارج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال[2] . ولابد أن يعجب الإنسان من ولايات فارس لم تستطع في ذلك الوقت أن تطرح عن عاتقها النير الأجنبي جملة ، وأن تطرد جنود الاحتلال العرب طرداً تاماً . وكان أكبر رجلين من رجال عليّ ، بعد موت مالك الأشتر ،

---

(١) انظر Vloten, Recherches, p. 58 (وذلك في Verhandl. der Amsterdam Akademie ، ١٨٩٤ — Letterkunde 1,3 .

(٢) وخصوصاً خراسان ، كما يقول البلاذري ص ٤٠٨ فما بعدها ، والطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ وما يليها و ص ٣٣٨٩ وما يليها . وكذلك أذربيجان والري وفارس والأهواز (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ و ٣٢٤٥ و ٣٣٩٣ و ٣٤٢٩ و ٣٤٣٠ و ٣٤٤٩ .

هما قيس بن سعد بن عبادة وزياد بن أبيه . أما عبد الله بن عباس ، الذى ولاه على على البصرة ، فقد أثبت أنه وال غير أهل للولاية وأنه لا يعوّل عليه .

وكانت أقوى ضربة حقيقة أحس بها على هى فتح مصر على يد عمرو ، لأن معاوية أصبح على أثر ذلك مطلق اليدين ، وكان عندئذ قد أمّن نفسه من اعتداء الروم بأن عقد هدنة مع الهرقل كونستانس (Constane) فى مقابل إتاوة سنوية . والروايات العربية لا تذكر ذلك إلا ذكراً عابراً[1] . ولكنا نعرف مما كتبه تيوفانيس أن ذلك كان عام ٦١٥٠ من تاريخ الخليقة = ٣٨ — ٣٩ هـ)[2] . ولم يجترئ معاوية على أن يهجم على على هجوماً حقيقياً ، واكتفى بأن فرق جيوشه على الأطراف التى فى طاعة على هنا وهناك . ففى سنة ٣٨ هـ وجّه معاوية إلى البصرة عبد الله بن عمرو بن الحضرمى لكى يحرض قبائل تميم على الثورة ضد على ، وكان عبد الله بن عباس قد خرج من البصرة إلى على بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه ؛ فاحتمى زياد بقبائل الأزد ، فأخمد هؤلاء نار الثورة ، وقتلوا ابن الحضرمى بعد أن تصدع عنه كثير ممن كان معه . وهذا ما يحكيه المدائنى ونجده عند الطبرى (ج ١ ص ٣٤١٤) والصفحات التالية) : ويروى المدائنى عن عوانة (الطبرى ج ١ ص ٣٤٤٤ فما بعدها) أخبار الجيوش التى وجّهها معاوية إلى العراق . فهو قد وجّه النعمان بن بشير إلى عين التمر ، وسفيان بن عوف إلى هيت والانبار ، وعبد الله بن مسعدة الفزارى إلى تيماء ، والضحاك بن قيس إلى القُطْقُطانة[3] .

---

(١) البلاذرى ص ١٥٩ س ١ و ص ١٦٠ س ٨ وانظر DMZ ، ١٨٧٥ ص ٩٦ ، قارن ما يحكيه الطبرى (ج ٢ ص ٢١١ والدينورى ص ١٦٨) ، ويحكى المسعودى (ج ٥ ص ٢٢٤) ذلك عن عبد الملك بن مروان .

(٢) تكلمت عن العلاقة بين سنى العالم عنـد تيوفانيس وبين التاريخ السلوقى فى مجلة Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤١٤ والصفحات التالية .

(٣) قارن اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢٨ س ٦ و ٢٢٩ س ٣ و ص ٢٣٠ س ٩ ، والأغانى ج ١٥ ص ٤٥ فما بعدها . ويقول أبو معشر والواقدى (الطبرى ج ١ ص ٣٤٤٧) إن معاوية سار بنفسه سنة ٣٩ هـ إلى دجلة حتى شارفها ، ثم نكص راجعاً .

وتبدو هذه الحملات مجرد غارات ، فكان يعود أهل الشام بالغنائم ، وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم .

ويربط البعض بين غارات النهب هذه وبين الحملة المشهورة التى قام بها بُسْر بن أرطاة فى الحجاز واليمن (الأغانى جـ ١٥ ص ٤٥ وما بعدها ، واليعقوبى جـ ٢ ص ٢٣١) . ويذكر البكّائى عن عوانة (الطبرى جـ ١ ص ٣٤٥٠ فما بعدها) أن ذلك كان فى أواخر أيام على : فيروى أن جارية بن قُدامة علم بمقتل علىّ ، وهو فى طريقه لمحاربة بسر . أما عند الواقدى (الطبرى جـ ٢ ص ٢٢) فإن هـــذه الحملة لم تقع إلا عام ٤٢ هـ ، بعد وفاة علىّ .

ويذكر البكّائى (الطبرى جـ ١ ص ٣٤٥٢ و ٣٤٥٣) نقلا عن ابن اسحاق[1] أن مهادنة جرت فى سنة ٤٠ هـ بين على وبين معاوية ، بعد مكاتبات طويلة ، وأنهما تراضيا على وضع الحرب بينهما ، وتكون لعلىّ العراق ولمعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو ، وذلك بعد أن رفض كل فريق أن يعطى صاحبَه الطاعةَ ، وبعد أن كتب معاوية إلى على يقترح عليه كفّ السيف عن الأمة والإمساك عن إراقة دماء المسلمين . ويروى أنهما اتفقا . فأقام معاوية فى الشام بجنوده ، يجبيها وما حولها ، وعلى بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده . ولا يمكن أن تكون هذه المهادنة إلا قصيرة الأمد ، لأن معاوية اتخذ لنفسه فى أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة فى بيت المقدس ، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك ، وقد كان هذا تحدياً جديداً لعلى ، فأجاب علىٌّ بأن أعد حملة كبيرة لمحاربة أهل الشام ، ولكن اغتياله حال دون تنفيذها .

ويقدم المؤرخ السريانى الذى نشر تاريخه نولدكه شاهداً على تنصيب

---

(١) هكذا يدلا من قول الطبرى : أبى اسحاق ، ذلك أن البكائى فى كتاب السيرة هو الراوية المتوسط بين ابن هشام وبين ابن اسحاق .

معاوية نفسه خليفة فى بيت المقدس عام ٤٠ هـ : وهو يذكر فى هذا الحادث روايتين مستقلتين ، إحداهما بعد الأخرى ، فيقول : « فى عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب فى بيت المقدس ونصّبوا معاوية ملكاً ، فصعد معاوية إلى جبل الجلجلة (Golgata) ، وصلى هناك ، ثم صعد إلى جيتسمانى ، ثم هبط إلى قبر السيدة مريم وصلّى . . . وفى شهر يوليه سنة ٩٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية ، وصدر الأمر بأن يُنادى به ملكاً فى جميع أنحاء بلاده[1] ، ولكنه لم يحمل تاجاً ، كما يحمله ملوك العالم ؛ على أنه أقام عرشه فى دمشق ، ولم يرد أن يذهب إلى مقر النبى (المدينة) » . ويبتدئ شهر يوليه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م) فى ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ . ويقول المسروقى أيضاً ، كما يحكى الطبرى (جـ ٢ ص ٤ فما بعدها — قارن أيضاً جـ ١ ص ٣٤٥٦) أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة فى إيلياء سنة ٤٠ هـ . ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث إلا بعد وفاة على . ومما يستلفت النظر أن معاوية أخّر أخذ البيعة لنفسه إلى ذلك الوقت . وفى كتـــاب Continuatio Isidori Byz. Arab. § 25 (ط : Mommsen) أن معاوية ظل خمس سنين مواطناً عادياً ، أى من ٣٦ إلى ٤٠ هـ . وظل بعد ذلك خليفة عشرين عاماً .

ويقول المؤرخ السريانى أيضاً إن علياً كان يريد قبل وفاته بقليل أن يعاود الخروج لقتال معاوية . غير أن هذه الرواية تُذكر فى سنة غير صحيحة (٩٦٩ بدلاً من ٩٧١ أو ٩٧٢ السلوقية) ، ولكنها صحيحة فى ذاتها . واليعقوبى (جـ ٢ ص ٢٣٥ س ١٥ وص ٢٣٨ س ٢٠) يحكى نفس الشىء : والروايات متفقة على أنه كان تحت قيادة علىّ عند وفاته جيشٌ من أربعين ألف رجل ، يطالبون بالخروج

---

(١) إن الكلمة التى لم يستطع نولدكه أن يقرأها إلى جانب كلمة φωνάς هى : κλήσεις التى منها فى غالب الظن كلمة : qualles السريانية (= ينادى) .

لقتال أهل الشام ، فممّن غير علىّ أعدّ هذا الجيش للحرب ولأى غرض أعدّ ، إن لم يكن ذلك لقتال أهل الشام ؟ :

وقد حدث الاعتداء الذى مات بسببه علىّ فى يوم الجمعة[1] ١٥ رمضان سنة ٤٠ ه ، فى مسجد الكوفة (الكامل ص ٥٥٣ س ٩) ، وتوفى علىّ يوم الأحد التالى لذلك ، ٢٤ يناير سنة ٦٦١ م . وما يذكره الواقدى (الطبرى ج ١ ص ٣٤٦٩ ، و ج ٢ ص ١٨) يؤيد صحة هذه التواريخ ، كما يدحض ما يخالفها . أما القاتل ، وهو عبد الرحمن بن مُلجَم المرادى النجوبى بوجه أدق (الكامل ص ٥٥٣ س ١٧) فقد كان خارجياً . والخوارج يذكرونه فخورين ويقولون إنه أخوهم ، أخو مراد (الطبرى ج ٢ ص ١٨) ، وتشهد أبيات ابن أبى ميّاس المرادى (الطبرى ج ١ ص ٣٤٦٦) أن الذى حرضه على قتل علىّ امرأة يقال لها قطام ، كانت فائقة الجمال ، ورآها ابن ملجم ، فالتبست بعقله فخطبها . وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهروان ، فجعلت فيما جعلت من مهرها قتلَ علىّ بن أبى طالب ثأراً لقتلاها . وبهذا تسقط الرواية[2] التى وُصلت بذلك وصلاً مصطنعاً والتى تقول إن ابن ملجم كان أحد ثلاثة من الخوارج تآمروا فى مكة على أن يريحوا الأمة الإسلامية فى يوم واحد من أئمة الضلالة الثلاثة – فى رأيهم – وهم علىّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان وعمرو بن العاص . ومن جهة أخرى فإن مثل هذا التآمر السرّىّ بين الثلاثة المتآمرين لا يتفق مع عادات الخوارج القدماء ، كما لاحظ ذلك ابن الأثير[3] : أما القول بأن معاوية هو الذى استأجر ابن ملجم لقتل علىّ ، كما أومأ إلى اتهامه بذلك أبو الأســود الدؤلى فى

---

(١) يؤخذ من الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٧ ، ٣٤٦٨ – ٣٤٦٩ أن اغتيال على كان ليلة الجمعة ١٧ رمضان . أما وفاته فكانت بعد ذلك بيومين – المترجم] .

(٢) [تجدها عند الطبرى مثلا فى ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وفى الكامل للمبرد ص ٥٤٩ – المترجم] .

(٣) ولا يجوز إنكار أن اعتداءات وقعت على معاوية وعمرو ، أما التعسف فهو الربط بين الاعتداءات والقول بأنها كانت بناء على اتفاق مدبّر .

أبيات له[1] ، فإنه لم يجد أبداً من يصدق به أقل تصديق حتى من أعـداء معاوية . فأما القول باغتيال على أفاد معاوية فلا شك فى ذلك على كل حال ، لأنه يصل إلى الخلافة إلا بذلك . والحسن بن على (الطبرى ج٢ ص ٣) يذكر أن مما جمله يسخو بنفسه عن أهل العراق أنهم قتلوا أباه . ويقول الخليفة المنصور مثل ذلك (الطبرى ج٣ ص ٤٣١) . ويظهر أن منشأ هذا هو أن ابن ملجم وقطام كانا من أهل الكوفة (قارن الطبرى ج٣ ص ٣٤٥٦) فما بعدها ، وص ٣٤٦٥ فما بعدها ، واليعقوبى ج ٢ ص ٥٢١ ، والكامل ص ٥٤٦ فما بعدها وص ٥٨٣) .

٥ — ثم صار معاوية هو المهاجم (اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٥) ، فأخذ الطريق الحربى المعتاد . وعبر أرض الجزيرة إلى العراق ، ونزل بعسكره فى مسكن ، على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد ، ولكنه انتظر هناك حيناً بعد وفاة على . وفى أثناء ذلك قامت ثورة على الحسن ، بعد أن كان قد بويع على الخلافة بعد أبيه . ولكن الحسن كان زاهداً فى الحرب ، لا يرى القتال ، رغم أنه كان وراءه أربعون ألف رجل ، كانوا قد بايعوا علياً على الموت . والتمس الحسن سبيلاً إلى مصالحة معاوية ، وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام . وهذا هو المعروف بالإجمال معرفة واضحة ، ولكن الروايات فى تفصيل ما جرى بعد مقتل على مضطربة ، وفيها فجوات .

فيحكى عن الزهرى ما يلى : كان على قد أسند إلى قيس بن سعد قيادة الجيش ، ووعده بولاية أذربيجان مكافأة له[2] ، وعزل الأشعث — المقصود به هو الأشعث بن قيس عن هذه الولاية . وكان قيس يريد الحرب ،

---

(١) [الطبرى ج ١ ص ٣٤٦٧ — المترجم] .

(٢) [نجد عند الطبرى — والمؤلف يتابعه غالباً — هذا : « جعل على م قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قبل (التى قبـله) أذربيجان وعلى أرضها (أصبهان) وشرطة الخميس (الجيش) التى ابتدعها العرب ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت » . الطبرى ج ٢ ص ١ . وقد نقلنا النص كما هو وأضفنا القراءات بين قوسين . والمعروف عن سعد أنه كان لا يسأل أجراً ولا مكافأة عما يفعل — المترجم] .

ولكن الحسن كان لا يرى القتال ، وكان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية . وقد عرف أن قيساً لا يوافقه على رأيه ، فنزعه وأمّر عبد الله بن عباس (الطبرى ج ٢ ص١ — ٢ ، قارن ج١ ص٣٣٩٢) . وكان الحسنُ لما بايعه أهلُ العراق على الخلافة طفق يشترط عليهم : إنكم سامعون مطيعون ، تسالمون من سالمتُ ، وتحاربون من حاربت ؛ فارتاب أهلُ العراق فى أمرهم ، حين اشترط عليهم هذا الشرط : وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد القتال . فلم يلبث الحسن بعد ما بايعوه إلا قليلاً حتى طُعن طعنةً أشوته ، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً . ولا يذكر الزهرى تفاصيل المناسبة التى أدت إلى هذه الطعنة . على أنه لما قام للحسن الدليلُ على موقف أهل العراق منه ، كاتب معاويةَ وأرسل إليه بشروط ووعده ، إن وفى له بها ، أن يسمع له ويطيع . وأعطاه معاوية ما شرط ، فتنازل الحسن عن الخلافة لقاء مال كثير . وكان معاوية ، قبل أن يقع فى يده كتابُ الحسن ، قد أرسل إلى الحسن بصحيفة بيضاء ، وقد ختم عليها فى أسفلها بختمه ، وكتب إليه أن يشترط فيها ما شاء ، فهو له . فأراد الحسن أن يأخذ أضعاف ما كان قد شرط أولاً ، فلم يُعْطِه معاوية ذلك) الطبرى ج ٢ ص ٥ فما بعدها) . أما عبد الله ابن عباس فإنه لما علم بما أراد الحسن أن يأخذه لنفسه من معاوية ، لم يُبالِ بأنه كان قائد الجيش ، وكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التى كان قد أخذها . فشرط ذلك له معاوية ؛ فترك جنده بغير قائد ، والحق بمعاوية .

ولما صالح الحسنُ معاويةَ كتب الحسنُ إلى قيس بن سعد يدعوه إلى الدخول فى طاعة معاوية ، فقام قيس خطيباً فيمن كان معه من الجيش ، وخيّرهم بين أن يدخلوا فى طاعة إمام ضلالة ، أو أن يقاتلوا مع غير إمام . فاختاروا الأولى وبايعوا لمعاوية ، وانصرف عنهم قيس . وفى رواية أخرى للزهرى أنه بعد أن صالح الحسنُ وعبدُ الله بن عباس معاويةَ ، وترك عبدُ الله جيشَه بلا أمير ، اجتمعت الشرطةُ

وأمّرتْ قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علىّ ولمن كان اتبعه الأمانَ على أموالهم ودمائهم وما أصابوا فى الفتنة . ولما انتهى معاوية من مصالحة الحسن وابن عباس خلص لمكايدة قيس ، فأرسل إليه يقول فى كلام له : على طاعة من تقاتل ، وقد بايعنى الذى أعطيته طاعتك ! ؟ فأبى قيس أن يلين ، حتى أرسل إليه معاوية بسجلّ قد ختم عليه فى أسفله ، وقال له أن يكتب فى السجل ما شاء فهو له ، وأراد عمرو بن العاص أن يغرى معاوية بأن يحارب قيساً ، ولكن معاوية ضنّ بدماء أهل الشام وقال إنه لن يقاتل قيساً حتى لا يجد من قتاله بُداً . أما قيس فلم يشترط فى السجل المختوم بختم معاوية إلا الأمان لشيعته على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية فى السجل مالا . فأعطاه معاوية ما سأل : ولم يرض قيس أن يجعل شخصه محلّ مساومة[1] :

أما البكّائى فهو ينقل عن عوانة[2] غير ذلك (الطبرى ج ٢ ص ٢ — ٤) ، فيقول : لم يكن قيس قائداً للجيش كله ، بل لاثنى عشر ألف رجل فى المقدمة (وهم الشرطة) ، وبقيت له الإمرة عليهم إلى ما بعد مقتل علىّ أيضاً . وخرج الحسن بنفسه فى الجيش كله حتى نزل المدائن ، وبعث قيساً أمامه على مقدمته لكى يلاقى معاوية (فى مسكن) : وبينا الحسن فى المعسكر بالمدائن إذ نادى منادٍ فى المعسكر : ألا إن قيس ابن سعد قد قُتِلَ ، فانفروا ! فنفر الناس ونهبوا سرادق الحسن ، وخرج الحسن ناجياً بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . ومن هنالك بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، رغم معارضة أخيه الحسين ، وحصل من معاوية على ما أراد : أن يأخذ ما فى بيت مال الكوفة ، وكان خمسة آلاف ألف

---

(١) جئنا هنا بالكلام طبقاً للأصل العربى الذى اعتمد عليه المؤلف ، لأن المؤلف قد اقتضب اقتضاباً مخلا ببيان المقصود على النحو الذى لا بد منه للقارئ العربى — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١ — ٨] .

(٢) إن أول حكاية عوانة ساقط ، وتكملها رواية أخرى ، لكن يقال منها إنها تتفق مع حكاية عوانة .

درهم ، والخراج الجاري من دارابجرد ، والوعدَ من معاوية بألا يُشْتَم علىّ ، ومعاوية يسمع ذلك(١) .

أما عند اليعقوبي (ج ٢ ص ٢٥٤ فما بعدها) فنجد الحكاية على نحو آخر : وجه الحسنُ عبيدَ الله بن عباس في اثنى عشر ألف رجل لقتال معاوية ، وجعل قيساً مُشيراً له ليعمل بأمره ورأيه . فحاول معاوية أن يُفْسد قيساً ، فلم يفلح ، ولكنه استطاع أن يضم إليه عبيد الله بأن أعطاه ألف ألف درهم ، فصار إليه في ثمانية آلاف رجل . وكان الحسن مع جملة الجيش في المدائن ، فأرسل معاوية إليه المغيرة بن شعبة ومفاوضين آخرين ، فلما خرج هؤلاء من عند الحسن أذاعوا في المعسكر أنه قد أجاب إلى الصلح . فعند ذلك وثب الجند بالحسن وانتهبوا مضاربه وما فيها ، فركب الحسن فرساً ومضى إلى قلعة ساباط ، ولكن الجرّاح بن سنان (وفي رواية : ابن قبيصة) كان قد كمن له ، فجرحه بمعول في فخذه ولوى لحيته ، فحُمل إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة ، وفي أثناء ذلك تفرّق عنه أصحابه ، واستولى معاوية على العراق ، فلم يبق أمام الحسن أخيراً إلا أن يتنازل عن الخلافة . والدينوري (ص ٢٣٠ فما بعدها) يحكي مثل ذلك ، وإن كانت روايته تختلف عن رواية اليعقوبي بعض الاختلاف ، فهو يقول إن اليمن وربيعة الكوفة خلّصوا الحسن في ساباط من أيدي مضر الكوفة .

على أن عوانة واليعقوبي متفقان في الرواية بالإجمال ، وهما يخالفان الزهري . وحكاية الزهري للحوادث ليست واضحة تماماً ، وهي تختلف عن رواية غيره اختلافات لا يسهل تفسيرها ، فهو أحياناً يفصل بين طعن الحسن ، من حيث زمانه ومكانه ، وبين نهب سرادقه ، وهو أحياناً أخرى يربط بين الحادثين .

---

(١) عند الطبري في بعض المواضع شوائب لهاتين الحكايتين ، ففي ج ١ ص ٨ وما بعدها وج ٧ ص ١٥ ، نجد أن الأربعين ألف رجل ليست هي الشرطة ، بل الجيش كله ، وبحسب رواية للزهري كان لقيس ولابن عباس إمرة الجيش كله .

أما بعض الاختلافات الأخرى فيمكن تفسيرها بأنها مغرضة : فنحن نجد أن اليعقوبى والدينورى أيضاً حريصان على تبرئة الحسن وإلقاء التبعة على أهل الكوفة (الدينورى ص ٢٤٢ س ١٤) . أما عند الزهرى فيظهر الحسن فى ضوء غير جميل . فأما الخلاف الأكبر الذى يتجلّى فيه الغرض فهو المتعلق بمسلك عبدالله ابن عباس جد الأسرة العباسية . ولا غرو أنه فى عهد الخلافة العباسية كان من يقول الحق عن هذا القدّيس يعرض نفسه للأذى ، وعلى الأقل كان لا بد إما إظهار الدور الذى لعبه فى صورة أحسن مما كان ، أو السكوت عن هذا الدور جملة[1] .

ويؤخذ من رواية الزهرى ، وهو راوية من أقدم الرواة ، توفى قبل العصر

---

(١) يحكى سيف (Skizzen, 6, 146) أن عبد الله بن عباس منذ كان فى المدينة ، كان موضع ثقة على وكان دائماً يمحصه النصح ، ولكن علياً لم يكن دائماً يستمع لنصيحته ؛ ثم عين والياً على البصرة . وفى أيام ولايته استنفر الناس وبعث منهم جيشاً لمعونة علىّ (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٦ و ٣٣٧٠) . ويحكى أبو مخنف أن ابن عباس قاتل قتالا شديداً يوم صفين ، وكان على ميمنة جيش العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٥ — ٣٢٨٦ ، ٣٢٨٩) . وكان على يريد أن ينتدبه حكماً فى دومة الجندل (الطبرى ج ١ ص ٣٣٣٣) ، ولكن علياً ، رغم أنه لم يستطع ذلك ، بعثه إلى الدومة ؛ وكان يكاتبه (الطبرى ج ١ ص ٣٣٥٤) هو ، متجاهلا أبا موسى . ولكن أبا معشر (الطبرى ج ٢ ص ٣٢٧٣ س ١٦) واليعقوبى (ج ١ ص ٢٥٤ س ٣) يقولان إنه فى سنة ٣٦ هـ (وأيضاً فى سنة ٣٥ هـ .) كان أميراً على الحج ؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد اشترك فى موقعة صفين على الإطلاق . وذلك لا تعجب المدائنى هذه الرواية ، فيقول (الطبرى ج ١ س ٣٤٤٨) ، متابعة لأبى معشر ، إن عبد الله بن عباس لم يشهد الموسم فى عمل حتى قتل على . وفى سنة ٣٨ هـ خرج عبد الله من البصرة إلى على بالكوفة ، لكى يعزى بنفسه صديقه الحبيب فى خسارته بفقد مصر ، ولم يرجع إلى البصرة إلا عندما انتقض الأمر فى الولايات الفارسية ، ووجه عبد الله زياد بن أبيه إلى فارس ، وهـذا ما يقوله المدائنى (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ ، ٣٤٣٠ ، ٣٤٤٣ ، ٣٤٤٩) . ويحكى أبو مخنف غير ذلك (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٣ ، ٣٤٤٧) ، فيقول إن عبد الله بن عباس عزى علياً بكتاب بعث به إليه من البصرة ، وإن الذى وجه زياداً إلى فارس هو على نفسه ، لا ابن عباس . ثم ظهر ابن عباس مرة أخرى ، لما أراد معاوية إكراه كبار الأشراف فى المدينة على مبايعة ابنه يزيد . فيحكى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦) أن خمسة نفر امتنعوا من البيعة ، ويذكر منهم عبد الله بن عباس ؛ ولكن معارضة ابن عباس هذه للطغيان ، على ما فيها من بطولة ، لم تأت له بأية نتيجة ، ولا بد أنه قد أوجعه كثيراً أن معاوية ويزيد تجاهلاه تماماً ، وكذلك يتجاهله أيضاً فى هذه المسألة معظم الرواة .

العباسى ، أن عبد الله بن عباس عرف ما أراده الحسن من مصالحة معاوية ، فسبقه وأخذ الأمان من معاوية واشترط لنفسه على ما أصاب من أموال . ثم بعث إليه معاوية خيلاً عظيمة ، فخرج إليهم ليلاً حتى لحق بهم ونزل معسكر أهل الشام ، وترك الجيش الذى كان عليه بلا أمير . وعوانة يسكت فى هذه النقطة . أما اليعقوبى فهو يذكر بدلاً من عبد الله المشهور أخاه الأصغر عبيد الله بن عباس .

وقد عرف المدائنى اختلاف الرواة حول ما إذا كان عبد الله أو عبيد الله هو الذى انتقل إلى جانب معاوية أيام الحسن (الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وقارن ص ٣٤٥٣[1]) ؛ فليس الأمر إذن مجرد خلافات فى الاسم بين المخطوطات ، مرجعها إلى الناسخ[2] . والمدائنى يقرر أن الذى انتقل هو عبيد الله ، ويتابعه فى ذلك عمر بن شبّة (الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٣ والصفحات التالية) والبلاذرى (D M Z, 1884, 392s.) . ولكن عبيد الله كان والياً على اليمن من قبل علىّ ، لما قاد بُسْر بن أبى أرطاة جيش معاوية إلى هناك ، ووقع ولدان صغيران له فى يد بُسْر ، فذبحهما ، وأصيبت أمهما بالجنون لذلك : ويقول الواقدى إن هذه الحملة وقعت عام ٤٢ هـ ؛ ومعنى هذا أن عبيد الله كان ما يزال فى اليمن فى ذلك الحين معادياً لمعاوية ؛ فلا يمكن أن يكون قد انتقل إلى جانبه قبل ذلك بعام أو عامين : ومهما يكن من شىء فإنه لا يمكن أن يكون الواقدى قد عرف شيئاً على الإطلاق عن هذا الانتقال ؛ أما عوانة فيقول إن هذه الحملة وقعت فى النصف الثانى من عام ٤٠ هـ ؛ فلا يمكن أن يصدق أحدٌ أن عبيد الله يتعجل إلى هـذا الحد فى مصالحة قاتلى ولديه : على أن من الممكن معرفة الباعث الذى من أجله وُضع

(١) هذا ما يراه دى غوى — راجع : DMZ, 1884, 393 ، وهو على هـذا الفرض يريد أن يقرأ عبيد الله بدلا من عبد الله فى كتاب الطبرى ج ٢ ص ٢ س ٧ و ١٢ ، قارن Van Vloten, Opkomst der Abbasiden ، ص ١٢ هامش رقم ١ .

(٢) [لالمؤلف هنا فى هذه النصوص حول من شهد الصلح بين الحسن ومعاوية — المترجم] .

اسم عبيد الله بدلاً من اسم عبد الله معرفةً أسهل بكثير من العكس ؛ فلم يكن يصح أن يظلّ لاحقاً بجد العباسيين الذين عاش المدائنى فى أيامهم ، وكان موالياً لهم ، ذلك العارُ ، وهو أن يكون أول من يصالح الأمويين الفجرة ؛ أما أخوه عبيد الله فلم يكن هناك بأسٌ من التخلى عن الدفاع عنه .

على أن ذكر عبيد الله محل أخيه عبد الله لا يمكن أن يلقى عن عبد الله الوزر إلقاءً تاماً ؛ فالأموال التى يقول الزهرى إنه أصابها وإن معاوية أعطاها له كانت أموالاً من بيت مال البصرة ، وكذلك الخمسة آلاف ألف التى أعطيت للحسن كانت هى ما فى بيت مال الكوفة . ويؤيد هذا ما يقوله أبو عبيدة (الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٣ — ٣٤٥٦) ؛ وهو يتفق مع الزهرى على أن عبد الله بعد مقتل علىٍّ خرج من البصرة وشخص إلى الحسن ، وأنه عند ذلك حمل معه مالاً ، وهو يُسَهِّل الأمر على كل حال بأن يقول : إنها كانت أرزاقاً قد اجتمعت له وأنه حمل معه مقدار ما اجتمع له . ومعنى هذا أنه لم يأخذ أكثر مما قد استحقه رزقاً له(١) ؛ ولكن مما يستلفت النظر أن المدائنى وعمر بن شَبّة والبلاذرى أيضاً لا ينكرون أن عبد الله خرج ببيت مال البصرة ، غير أنهم يزعمون أنه فعل ذلك فى عهد علىٍّ ، بعد موقعة النهروان بقليل (DMZ. 1884, 392) وأن ذلك لا علاقة له بانتقاله إلى جانب معاوية(٢) ؛ وعلى هذا تكون هناك خيانةٌ مزدوجة : فابنا العباس المتشابهان كثيراً فى الاسم قد تركا منصبهما ، أحدهُما بعد الآخر مباشرة على نحوٍ مُخْزٍ ، وأثريا فى هذه المناسبة بأخذ مبالغ كبيرة من المال . ولكن

---

(١) [فى رواية لابن شبة (الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٣ — ٣٤٥٤) أن أبا الأسود الدؤلى شكا لعلىٍّ أكل عبد الله بن عباس ما تحت يده من أموال بغير علم على ، فكتب على لابن عباس فى الأمر ، وانتهت المكاتبة بأن كتب ابن عباس لعلى أن يبعث من يحب والياً بدلا منه وأنه ظاعن عن منصبه — المترجم] .

(٢) لم يكونوا يعتبرون « إنقاذ » بيت المال شراً كبيراً ، لأن العادة جرت بذلك . (الطبرى ج ٢ ص ٧٥٢ و ٨٧٢) . أما مصالحة معاوية فشىء لا يغتفر .

الأرجح أن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة . وإذن فالزهرى على حق فى أن المقصود هو عبد الله ، الذى كان موضع ثقة الحسن وثقة علىّ من قبل ، لا عبيد الله ، وأن عبد الله قد باع نفسه لمعاوية قبل أن فعل الحسن . بل نحن نجد فى رواية المدائنى أن عبد الله كان مع على فى سنة ٣٩ هـ . ولكن لا نلبث أن نجده ، بعد الصلح ، فى مجلس معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١١) .

ودانت الجماعة الإسلامية كلها لمعاوية فى النصف الأول من سنة ٤١ هـ ، فى صيف ٦٦١ م[1] ؛ ولكن الروايات مضطربة فى تحديد تاريخ ذلك . فأما إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) فيقول إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، أى الاثنين ٢٦ يوليه سنة ٦٦١م . أما الواقدى فيقول (الطبرى ج ٢ ص ٩) إن معاوية دخل الكوفة فى غرة ربيع الآخر سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١م) ؛ وفى رواية لا يُذْكَر صاحبُها (الطبرى ج ٢ ص ٨) أن الصلح بين الحسن ومعاوية تمّ فى شهر ربيع الآخر ، وأن معاوية دخل الكوفة فى غرة جمادى الأولى . أما المدائنى فيقول إن معاوية دخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الأول أو لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٧) . لكنه على كل حال كان فى الكوفة فى شهر رجب ، لأنه مِنْ هناك كان بُسْر بن أبى أرطاة فى البصرة ، وذهب بُسْر إلى البصرة فى رجب وبقى بها ستة أشهر (الطبرى ج ٢ ص ١٢) . على أن معاوية ولّى المغيرة بن شعبة على الكوفة فى جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١١ و١١٤) .

---

(١) ولا يخالف ذلك إلا اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

الفصل الثالث

السفيانيون والحرب الأهلية الثانية

قام معاوية بن أبى سفيان طول مدة حكمه بمحاربة الروم فى البر والبحر فى همة ومن غير انقطاع ؛ مما لانجده عند من جاء بعده ؛ وقد طرق أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين[1] . أما مهمة توطيد سلطانه فى العراق بعد إخضاعها فقد تركها لولاته فى الكوفة والبصرة . والروايات التى وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم ، وهى تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه ، كما أنها أيضاً تجعل عبد الملك ، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية ، متوارياً وراء الحجاج . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقفيين كلهم ؛ فكانوا من الطائف ، تلك المدينة المرتفعة الجميلة الموقع ، على مقربة من مكة . وقد ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الإسلام ، واتخذت الطائف ، من حيث هى مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبيات القبائل ، كما تجلى ذلك أيام الردة فى سنة ١١ هـ . وقد انضم الثقفيون من أول الأمر ، خلافاً للأنصار ، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقفيون مشهورين بالدهاء والفطنة[2] ، وقد أقاموا الدليل على أنهم

---

(١) قارن فى ذلك مجلة Göttinger Nachrichten ١٩٠١ ص ٤١٤ وما يليها ، حيث جمعت أخبار حملات الأمويين ضد الروم .

(٢) لما حاصر النبى عليه السلام مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جيشه عيينة الفزارى لا لكى يقاتل ثقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبى عليه السلام فتح الطائف ، فيصيب هو جارية يتبطنها ، لعلها أن تلد له رجلا ، لأن ثقيفاً كما يقول « قوم مناكير » ، يعنى أنهم دهاة فطنون ؛ أما عيينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [لم يذكر المؤلف المصدر الذى —

كذلك ؛ وقد ظهر منهم فى عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، فى كثيرين غيرهم من الرجال المبرزين .

وكان وراء المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة عام ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١ وما يليها وص ١١١ و ١١٤) حيـاة مملوءة بالأحداث . والروايات تعطينا صورة حية لهذا الرجل المُفتّن القليل المبالاة بالمبادئ : كان المغيرة طويل القامة جسيما ، وكان قد فقد فى الحرب إحدى عينيه وإحدى ذراعيه ، وكان ضخم الهامة ، أقلص الشفتين ، أصهب الشعر — وكان فى أواخر أيامه يصبغ شعره بالسواد — وكان شعره أربع ضفائر مُدلاّة(١) . وقد فر المغيرة إلى المدينة قبل سنة ٨ هـ ، وهو ما يزال فتى ، وكان ذلك على أثر غدر دنىء برفقاء له ، قتلهم وهم نيام . وكان الإسلام يقبل من مثل هذا المجرم أن يبدأ حياة جديدة ، وكان يغفر له ماضيه ، ولكن المغيرة ، وإن كان قد صار بحكم الظروف إنساناً جديداً ، فإنه بقى على ما كان له من الصفات القديمة النافعة : وقد تقرب إلى النبى عليه السلام ، وكان النبى يمكن أن ينتفع به ، فكلفه فى سنة ٩ هـ بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف ، فلما قام بذلك احتاز مال اللات وحليّها من الذهب والجزع ، وكان جيد المعرفة بالمكان لأنه كان من الأسرة التى كانت لها سدانة ذلك الصنم . ولما دُفِن النبى عليه السلام طرح المغيرة خاتمه فى القبر قبل أن يهال فيه التراب ؛ فكان بعد ذلك يزعم ، على الأقل ، أنه كان آخر من لمس الدفين الطاهر عليه السلام ، لكى يبنى على ذلك ما يزعمه من حقوق . وقد أثبت « وصوليّته » وطموحه الجرىء فيما بعد أيضاً ، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرستقراطية الإسلامية ،

= اعتمد عليه فى هذه الحكاية ، وقد وجدناه فى سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ من الطبعة الأوروبية — المترجم] .

(١) إن أول الحكاية منه فى كتاب الأغانى غير موجود فى طبعة بولاق ، لكنها موجودة فى مخطوط بمدينة ميونيخ ، وقد نشرته من هذا المخطوط فى مجلة DMZ ، عام ١٨٩٦م .

فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة مثل جماعة الشورى التي عيّنها عمر ، ومثل محكمة المحكّمين في دومة الجندل ، من غير أن يُدعى لذلك ؛ فإذا مُنع من حضور الأمر مرة جاء دون حرج في المرة التالية . وكان ، بمقدار ما كان عليه من جراءة وورع ، يدعى أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام مع الفرس المسلمين أحسن من غيره ، وكان يختار لكي يُبعث رسولاً ومفاوضاً ، وكانت معرفته بلسان الفرس تهيّئه لذلك (الطبرى ج ١ ص ٢٥٦٠) . أما المنصب الذى كان يطمح إليه فقد وصل إليه في البصرة أولاً ، وذلك أنه ذهب مع عُتْبة بن غزوان ، أول والٍ عليها — وكانت امرأة عُتْبة من الطائف . فلما مات عتبة خلفه المغيرةُ على البصرة ، ويقال إنه نظم الديوان في البصرة ، فكان بذلك أسبق من غيره . ويحكى أنه هزم فيلكان إسكوباد[1] ، وأنه فتح ميسان ، بل الأهواز أيضاً . ولكن أسقطه حبُّه الشديد للنساء ، فعُزل سنة ١٧ هـ ، بسبب جريمة زنا مخزية ، وإن كان التحقيق في إثبات الجريمة عليه ، رغم أن ذلك كان تحت إشراف عمر بما هو معروف عنه من شدة ، قد انتهى كما تنتهي المهزلة[2] . لكن الدور الذى قد قُدِّر للمغيرة أن يلعبه لم ينته بسبب ذلك ، فشهد موقعة نهاوند وبرّز في القتال فيها ، وبعدها بقليل ، في سنة ٢١ هـ ، جاء إلى الكوفة خلفاً لعمّار بن ياسر . وفي أيام ولايته تمّت الفتوحات في بلاد ميديا (الجبل) وأذربيجان على يد أهل الكوفة ؛ وكان أبو لؤلؤة غلاماً للمغيرة ، بعث به إلى المدينة ، فأذن له أن يعمل صانعاً هناك ليؤدى للمغيرة ما عليه من خراج . وأبو لؤلؤة هذا هو الذى قتل عمر بن

---

(١) يرى ماركفارت أن هذا هو النطق الصحيح لكلمة ايركوباذ أو ابزكوباذ ، انظر : Marquart, Eranschahr ، ص ٤١ [في الطبرى ج ١ ص ٢٣٨٦ ابرقباذ ، ابزقباذ — المترجم] .

(٢) الحقيقة أنه لم تتوفر الشهادة الشرعية التي بدونها لا تمكن إقامة الحد . ويجد القارئ ذلك عند صاحب الأغاني ، ج ١٤ ص ١٤٥ — ١٤٧ ، والطبرى ج ١ ص ٢٥٢٩ — ٢٥٣٣ — المترجم] .

الخطاب . أما فى عهد عثمان فقد انحدر المغيرة إلى المحل الثانى ، وهو لم يكن من الأمويين الذين كانت تسند إليهم جمع المناصب ، ولا من خاصة الرسول الذين كانوا يعارضون الأمويين . ولم يشترك المغيرة فى الثورة على عثمان ، لكن شأنه ارتفع من جديد بسبب تلك الثورة . ويروى أنه أشار على علىّ بأن يولى معاوية على الشام ويأمره بأن يأخذ البيعة له ، فلما لم يستمع علىّ لمشورته انصرف عنه وتوجّه إلى معاوية . وقد افتعل كتاباً على لسان معاوية لكى يقيم الحج للناس فى سنة ٤٠ هـ . وعرف معاوية كيف يقدر مثل هذا الشريك ، فلم يلبث ، بعد فتح العراق ، أن أعاد إليه منصبه القديم فى ولاية الكوفة .

وصل المغيرة ، وهو كبير السن ، وبعد ماض فيه بعض التقلبات ، إلى المستقر الذى أراد أن يبقى فيـــه . وفى أيام ولايته حرص على ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته ، فكان موقفه إزاء معاوية وإزاء صراع الأحزاب فى الكوفة موقفاً خالياً من الحماسة على حد سواء ، بل هو لم يكن يخفى ذلك (الطبرى جـ ٢ ص ٣٨) ؛ وهكذا يصفه أبو مخنف على الأقل فى حكاياته عن المستورد بن علّفة التيمى الخارجى وحجر بن عدى ، ولا شك أن أبا مخنف محُق[1] . وكان كلُّ همّ المغيرة فى سياسته أن يحافظ على منصبه ، وقد أفلح فى ذلك أيضاً . فاستطاع أن يتفادى ما همّ به معاوية أحياناً من عزله (الطبرى جـ ٢ ص ٧١ فما بعدها و ص ١٧٣ فما بعدها وص ٢٠٨ فما بعدها[2]) . وقد قضى بسهولة على الخوارج الذين ثاروا تحت

---

(١) انظر ما ذكرته من الخوارج فى Abhandl. der Göttinger Societät 1901, V, 8 ص ١٩ والصفحات التالية ، ومن الشيعة ص ٥٦ فما بعدها من نفس المصدر .

(٢) [خشى المغيرة مرة أن يعزله معاوية ، فذهب إلى معاوية يسأله أن يعزله ويقطع له منازل فى قرقيسيا بين ظهرانى قيس . فارتاب معاوية بالمغيرة وخاف بالثقة منه وقال له : لترجعن إلى عملك . فألح المغيرة ، فازداد معاوية اتهاماً له ورده إلى عمله . ويحكى أنه لما خاف العزل دخل على يزيد وعرّض له بالخلافة ، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه ؛ وعند ذلك ردّ معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل فى البيعة ليزيد — المترجم] .

رئاسة المستورد[١] ، لأن أهل الكوفة أنفسهم بادروا إلى أن كَفَوْه إياهم ؛ ولكن الخوارج كان لهم شأن أكبر من ذلك ، وكانت الغالبية الكبرى من أهل الكوفة تميل إلى عليّ ، لأنه المحارب الأول لاستقلال العراق السياسي ؛ وكان أهل الكوفة ، من هـذا الوجه شيعي النزعة ؛ وهم أيضاً لم يخفوا ذلك ، وتجرأ البعض منهم على إظهار الكلام في فضل عليّ علانية في المسجد ، مما لا يحتمله معاوية . ولكن المغيرة لم يشتدّ في منعهم من ذلك ؛ وهو بدلا من أن ينهض للقضاء على بدايات الفتنة كان يرى ظهور نتائجها السيئة بشيء من الرضا ، لأنه كان على يقين أنه لن يشهدها حياً . وقد أراد العافية لنفسه ، وآثر أن يلقي العبء الكريه ، الذي كان منصبه يوجب عليه أن يحمله ، على كاهل من يخلفه[٢] . وكان أهل الكوفة راضين عن ذلك كل الرضا بطبيعة الحال ، وقالوا فيما بعد ، إنهم ما وليهم والٍ بعده مثله (الطبري ج ٢ ص ١١٢) . وكان دائم الكذب ، وظل متمتعاً بما ينهب حتى نهاية أمره . أما عن تاريخ وفاته فالروايات مضطربة بين سنة ٤٩ إلى سنة ٥١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٧٦ — ٨٧ و ١١٤ ، والأغاني ج ١٤ ص ١٤٨) .

على أنه بعد أن كانت العراق قد خضعت لمعاوية ثار في البصرة حُمران ابن أبان ، فغلب عليها ؛ فوجّه معاوية إلى هناك قائده بُسْرَ بن أبي أرطاة ، فبعد أن أعاد الهدوء إلى نصابه قفل بجيشه راجعاً[٣] . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢

---

(١) [لم يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، والأغلب أنه يقصد ما جاء في الطبري ج ٢ ص ٢٨ فما بعدها و ص ٤٠ فما بعدها المترجم] .

(٢) وهو يشترك في هذه الروح مع ولاة آخرين في ذلك العصر : ابن عامر (الطبري ج ٢ ص ٦٧) والوليد بن عتبة (ج ٢ ص ٢١٩) والنعمان بن بشـير (ج ٢ ص ٢٣٩) وبيبه (ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٦٥ فما بعدها) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١١ فما بعدها — المترجم] .

ص ٢٢) أنه عند ذلك قام بحملته فى الحجاز واليمن . وكان أول والٍ حقيقى عيّنه معاوية على البصرة (آخر سنة ٤١ هـ) هو عبد الله بن عامر الأموى ، الذى كان قد تولى البصرة من قبل فى عهد عثمان سنين كثيرة . وكان السلطان فى البصرة فى يد القبائل ، لا فى يد الحكومة . ولما كانوا دائماً منقسمين ولا يخطر ببالهم أن يغفر بعضهم لبعض شيئاً ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور ما يكون لذلك من نتائج . وكان ما أصاب الأمن العام فى الكوفة ، فى ظل الصراع السياسى — الدينى بين الأحزاب ، قليلا . أما البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها حتى أكلوها ، وضعف سلطان الدولة فيها ، فكان السلب والقتل فى الشوارع والأسواق فاشيين فى النهار المبصر . وكان هذا هو الميراث الذى خلّفه عبد الله بن عباس . ولكن ابن عامر كان رجلا ليناً كريماً لا يأخذ على أيدى السفهاء ، وقد رأى كما رأى المغيرة فى كبره من قبل ، ألا يضحى بما كان يؤثره لنفسه من العافية فى سبيل تأييد سلطان الدولة . وكان لا يقطع يد لص ، فلما قيل له فى ذلك قال : « أنا أتألّف الناس ، فكيف أنظر إلى رجل قطعتُ أباه أو أخاه ؟ » . وقد ضجر معاوية من ذلك آخر الأمر ، فكتب إليه يستزيره فى سنة ٤٤ هـ ، فقدم على معاوية . فلما انتهت الزيارة ، سأله معاوية أشياء ، وسأل هو معاوية أشياء ، فكان مما سأله معاوية إياه أن يعتزل منصبه ، وكان مما سأل هو معاوية ألاّ يحاسبه على ما أصاب من أموال ، وأن يُزَوِّجَه ابنته هنداً ، فزوّجه معاوية إياها . وهكذا صار ابن عامر ختناً وصهراً لمعاوية[1] . وكان الذى خلف ابنَ عامر الحارث بن عبد الله الأزدى ، لكنه لم يكن يُقْصَد منه سوى أن يكون كالفرس المحلّل ، لأن معاوية كان يريد أن يُعَيِّن زياداً . فلم يبق الحارثُ فى الولاية إلا أربعة أشهر ، وهذا هو ما يرويه المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١١ فما بعدها و١٥ و ٦٧ و ٦٩ فما بعدها) .

---

(١) كان ابن عامر والد زوجة يزيد بن معاوية .

ومعظم الروايات المتعلقة بزياد ، عند الطبرى ، ترجع إلى المدائنى أيضاً ، وكان زياد ، شأنه شأن المغيرة بن شعبة ، الذى كان يظلله بحمايته ، من أهل ثقيف الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى البصرة ، لما أسست . وكان زياد على التدقيق من أسرة أبى بكرة التى كانت فى البصرة ذات نباهة وكانت تملك أرضاً كثيرة (الطبرى ج ٢ ص ١٢)[١] . ولم يكن زياد من أصل كريم ، وكان يسمى باسم أمه سُمَيَّة ، لأن أباه كان مجهولا . لكن الإسلام فتح له أيضاً طريق الحياة ، فكان ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، يتولى الكتابة عند قبض الفىء وقسمته ، أو يتولى قسمته فى جيش البصرة ، لأنه كان يقرأ ويكتب ، ولا بد للحساب من معرفة القراءة . ويُروى أن الخليفة عمر فطن منذ ذلك الحين إلى ما كان لزياد من مواهب فائقة . وفى أيام على كان زياد شخصية بارزة فى البصرة ، وقد استخلفه عبد الله بن عباس عليها ، لما خرج إلى على بالكوفة ، فأخمد زياد الثورة التى قامت بها تميم بإيعاز من معاوية . وقد ساعد الأزدُ زياداً فى ذلك ، وظل هو ذاكراً لهم يدهم عنده وإجارتهم له (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) . وبعد ذلك بعثه على إلى فارس لكى يُلزم هذه الولاية ، بعد أن تمردت عليه ، حدودَ الطاعة والنظام ، فقام بما كُلِّف به ، متبعاً سياسة المداراة واللين حيناً والدهاء وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر ، حتى صفت له فارس من غير حرب . وكان ذلك موضع إعجاب ، حتى قال أهل فارس ، ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى[٢] . وبعد موت علىّ تحصن زياد فى قلعة قريبة من مدينة اصطخر ، وحض كلَّ رجاله على أن يثبتوا أطول ما يمكن فى المقاومة

---

(١) قارن فيما يتعلق بصفات هذه الأسرة العبارة الشائنة التى يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٠١) أنها قيلت لعبيد الله بن أبى بكرة وهى : « إنما أنت ابن كلبة تعاورها الكلاب ، فجاءت بأحمر وأسود وأصفر ، من كل كلب بما يشبهه » — قارن أيضاً ابن هشام ص ٨٧٤ س ١٧ .

(٢) [الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ — ٣٤١٨ و ٨٤٤٩ — ٣٤٤٥٠ — المترجم] .

لمعاوية . وأراد بُسْرُ بن أبى أرطاة ، وكان معاوية قد وجهه إلى البصرة بعد مصالحة الحسن ، أن يُكْرِه زياداً على الشخوص لمعاوية ، فحبس أولاده الثلاثة — وكان زياد قد خلفهم فى البصرة — وهدّده بقتلهم ، فلم يستجب إليه . فجاء أبو بكرة إلى بُسر ، وكان بسر قد أخذ أبناءه أيضاً ، فاعترض على هذا الظلم للأبرياء وعلى مخالفة الأمان الذى أعطاه معاوية فى صلحه مع الحسن لشيعة على ، وسأل بُسْراً أن يُؤجّله سبعة أيام ، حتى يذهب إلى معاوية . فركب أبو بكرة إلى معاوية ، وكان بالكوفة ، فذهب وعاد فى سبعة أيام ، وقتل تحته دابتين . وفى اليوم السابع أخرج بُسر بنى زياد ليقتلهم عند غروب الشمس ، واجتمع الناس لذلك ، وأعينُهم طامحة ، ينتظرون أبا بكرة ، إذ بدا أبو بكرة على راحلته المكدودة ، وهو يُلْيح بثوبه . وكبّر ، وكبّر الناسُ ، وأقبل يسعى على رجليه حتى أدرك بُسْراً قبل أن يقتل الأولاد الأبرياء ، ودفع إليه كتاب معاوية الذى يأمره فيه بالكفّ عنهم وتخليــة سبيلهم . وهكذا نجا أبناء زياد فى آخر لحظة بفضل أبى بكرة(1) . وكلّف معاويةُ المغيرةَ بالبحث عن أموال لزياد كانت مُودَعَةً عند رجل من البصرة وأمره بتعذيبه ، فعذبه تعذيباً صورياً حتى يبلغ معاويةَ خبرُ التعذيب ، ثم كتب إلى معاوية أنه لم يُصِبْ عند الرجل شيئاً يحلّ له أن يأخذه — وذلك أن الثقفى لا يرزأ ثقفياً مثله . على أن المغيرة تلطّف لزياد حتى أقنعه بأن يشخص إلى معاوية ويصــل حبله بحبله ويصالحه ، ووقع ذلك سنة ٤٢ هـ . وقد أغضى معاوية عما لجأ إليه زياد من حيلة لاحتجاز ما كان قد صالح معاوية على حمله إليه مما كان فى بيت مال فارس ، وإن كان معاوية قد استشفّ الحيلة . وكان الأمر

---

(١) هذه القصة أسطورة بلاشك . ولكن لا يصح البحث عن وجه صحيح لها على النحو الذى يذهب إليه ا . موللر A. Müller (Islam 1. 337) من أن أبناء زياد كانوا فى البصرة قد أحدثوا ثورة وأسروا فيها ، ذلك لأنهم كانوا أصغر سناً من أن يقوموا بذلك . [ويجد القارئ موقف زياد إزاء التهديد وما قاله عن معاوية وما قاله لبسر ، وما كان بينه وبين معاوية حتى تم بينهما الصلح ، عند الطبرى ج ٢ ص ١١ — ١٥ ، ٢٢ — ٢٧ ... المترجم] .

فى الواقع أمر صفقة بين أخويْن عرف كل منهما لصاحبه قَدْرَهُ فيما بعد ، ولم تكن الفائدة التى عادت على كل منهما من ذلك بالفائدة القليلة .

وكانت آخر خطوة خطاها معاوية هى أن ألحق زيادَ بن سُمَيَّة بأبيه أبى سفيان ، وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطاً تاماً ، وكان ذلك فضيحة كبرى لا يذكرها الطبرى ولا يؤرخها ، بل يتكلم عنها كشىء وقع فحسب (الطبرى ج ٢ ص ٦٩ فما بعدها ، قارن أيضاً ج ٣ ص ٤٧٧ فما بعدها) ؛ أما بقية الأمويين ويزيد بن معاوية نفسه فلم يرضوا عن ذلك وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعى لأبى سفيان الذى يجوز أنه لم يكن له ابناً ، لا شرعياً ولا غير شرعى ، على الإطلاق . والأبيات المشهورة التى كثيراً ما تُذكر استهزاءاً ببنوّته ليست لابن مُفَرِّغ المغنى المتجول الذى قد قال هو أيضاً مثل هذه الأبيات ، بل هى لعبد الرحمن ابن الحكم ، أخى مروان بن الحكم الذى صار خليفة فيما بعد (الطبرى ج ٢ ، ص ١٩٤) . وكان لما صالح زيادٌ معاوية سأل معاوية أن يأذن له فى نزول الكوفة ، فأذن له ، فشخص زياد إلى الكوفة ، وكان عليها المغيرة ابن شعبة ، فكان لزياد كالأب الكريم ، وكان يكرم زياداً ويعظمه ، وكان زياد يتردد على المغيرة فى بيته ويتودد إلى زوجته الشابة[1] . ثم دعى معاويةُ زياداً إلى الشام ، وألحقه بأبيه أبى سفيان ، فلما رجع زياد إلى الكوفة ، داخل المغيرةَ الخوفُ من أنه بعد أن ربّى زياداً سيحل هذا محله فى الولاية . ولكن سرعان ما ورد من دمشق كتابٌ بولاية زياد على البصرة وعلى الولايات التابعة لها فى المشرق : وهى خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان . وقدم زياد البصرة فى آخر ربيع الثانى أو أوّل جمادى الأولى من سنة ٤٥ هـ ، والفسق فى البصرة ظاهرٌ فاشٍ ، فأعلن عن سياسته فى خطبة مشهورة ألقاها من على المنبر ، ولم

---

(١) [لا يؤخذ هذا مما يقوله الطبرى ج ٢ ص ٢٧ . راجع ما يلى ص ١٢١ حيث جئنا بكلام الطبرى فى هذه المناسبة نفسها — المترجم] .

يبدأها بالحمد والتسليم ؛ بل تكلم فيما أراد أن يتكلم فيه مباشرة ، ولذلك سُمِّيت خطبته « البتراء » ، وقد قال فيها(١) : « أما بعد فإن الجهالةَ الجهلاء والضلالةَ العمياء والغيَّ المُوفِيَ بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبُتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله . . . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَثَ الذي لم تُسْبَقوا إليه ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر . . . قرّبتم القرابةَ وباعدتم الدينَ ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على المختلس ، كل امرئ منكم يذبّ عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتَّبَعْتُم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءَكم كنوساً في مكانس الرِّيَب . حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ حتى أسوِّيَها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ في غير ضعف ، وشدةٌ في غير عنف . وإني أقسم بالله لآخذن الوليَّ بالمولى ، والمقيمَ بالظاعن ، والمُقْبِلَ بالمدبر ، والمطيعَ بالعاصي ، والصحيحَ منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول : « أنْجُ سعد ، فقد هلك سعيد ! » ، أو تستقيمَ قَنَاتُكُم . إن كذبةَ المنبر بلقاءُ مشهورة ، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي . فإياي ودَلَجَ الليل ، فإني لا أوتى بمُدْلِجٍ إلا سفكتُ دمه ... وإياي ودعوى

(١) [ذكر المؤلف بعض الخطبة دون ذكر المرجع ، وقد تابعناه في اقتباسه بقدر الإمكان ويجد القارئ الخطبة كاملة في الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين للجاحظ . وتدل هذه الخطبة على عقلية سياسية وعلى روح خاصة ، ولم يقبل زياد بعد أن ألقاها مدح متملق ، بل قبل ملاحظة المتدين ، وأجاب على من اعترض على ما في كلامه من تعسف ومن مخالفته لنص القرآن الذي جاء فيه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، بأن قال له : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك ، حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » ؛ فليست العقوبة في نظر زياد للإصلاح أو القصاص فحسب ، بل هي للردع ، وليس الوصول إلى الغاية الشريفة مقصوراً على استعمال الوسائل اللينة — المترجم] .

الجاهلية ، لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه » وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حياً ، فكفّوا عنّي أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني : ولا تظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلى ضربت عنقه : وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ ، فجعلتُ ذلك دبرَ أذني وتحت قدمي : فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع من إساءته : إني لو علمتُ أن أحدكم قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبديَ لي صفحتَه ، فإذا فعل ذلك لم أناظِرْه ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيَبتئس . أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ فيما ولينا ؛ فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا واعلموا أنني مهما قصرتُ فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتاني طارقاً بليل ؛ ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه ؛ ولا مجمّراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ! فإنهم ساستكم المؤدّبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشْرِبوا قلوبكم بغضهم ، فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ؛ مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ... وأيمُ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذرْ كلُّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاي » .

وقد مكّن هيبته في النفوس بأن ضرب أمثلة من الشدة التي لا تعرف الهوادة ،

وجرى على ذلك من أول الأمر[1] . فأفلح أن يُقِرّ الأمنَ فى نصابه ، لا فى البصرة وحدها ، بل فى الولايات الفارسية أيضاً ، وحتى فى الصحراء العربية على نحو لم يعهده الناس من قبل . وتحكى عنه عجائب حقيقية . وقد خضع له خوارج البصرة أيضاً وكانوا لا يختلفون إلا من حيث الاسم عن اللصوص الأدنياء ، وكانوا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل اللصوص[2] .

ولما مات المغيرة فى ٥٠ أو ٥١ هـ ، خلفه زياد على ولاية الكوفة ، فصارت له الكوفة والبصرة معاً ، وهو أول من جُمِعتا له وكان يقيم فى كل منهما ستة أشهر . وإن كان مقره الحقيقى البصرة وكان عليه أن يُصلح أمور الميراث السيئ الذى خلّفه له المغيرة فى الكوفة ، وذلك أن الشيعة هناك — وكان على رأسهم حجر بن عدى الكندى — حصبوا خليفته عمرو بن الحريث بينما كان يخطب فى المسجد ، فأسرع زياد من البصرة لكى يؤدبهم وكان من حسن الحظ لزياد أن أنصار حجر منعوه من الاستجابة إلى دعوة زياد ، لما أرسل زياد فى طلبه ،

---

(١) [راجع مثلا الطبرى جـ ٢ ص ٧٧ ، تجد أن زياداً ، بعد خطبته البتراء قتل أعرابياً أخذه صاحب الشرطة ليلا ، بعد الوقت المحدد للتجول ، هذا مع أن الأعرابى لم يكن يعلم بما اتخذه زياد من إجراءات ، و ص ٨٨ ، تجد أن زياداً قطع أيدى قوم حصبوه ، وهو يخطب فى الكوفة . وراجع أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٨٢ من الطبعة الأوربية تجد أنه قتل امرأة وعرّاها لأنها خرجت مع قوم من الخوارج ، فلم يجرؤ النساء بعد هذا على الثورة مع الخوارج . وتجلى حزم زياد كما تجلت قسوته أيضاً فى قضائه على حجر بن عدى وأصحابه — الطبرى جـ ٢ ص ١١١ — ١٥٥ — المترجم] .

(٢) Chavarig. p. 24s.

[فيما يتعلق بشدة زياد وحزمه ونجاحه فى سياسته يقول الطبرى : وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم فى العقوبة وجرّد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس فى سلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ؛ حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ... وكان زياد يقول : لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه — المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٢ ص ٧٧ — ٧٨] .

واتبع معهم طريق العصيان والمقاومة ، وبذلك جلب الأذى لنفسه وجنى عليها . وقد تمكن زياد من التغلب على المتمردين دون كبير مشقة : وذلك أنه لما بدت بوادر الشر طلب زياد من أشراف الكوفة أن يبعدوا قومهم وأقرباءهم عن حجر بن عدى ، ففعلوا ، وهكذا أعان أهل الكوفة أنفسهم ممثل الدولة ، رغم قلة حبهم له ، على إخوانهم فى المذهب . وقد وقعوا على شهادة باتهام حجر بن عدى وأصحابه بأنهم خلعوا طاعة الخليفة ودعوا إلى الحرب والفتنة . فأرسل حجرٌ وأصحابُه إلى الخليفة فى دمشق ، فقتل منهم ستة بسبب خلعهم الطاعة ودعوتهم إلى الفتنة ، ولأنهم لما سئلوا عن رأيهم فى عثمان وعلىّ عابوا عثمان وأبَوْا أن يتبرأوا من علىّ . ولكن الأمر لم ينته بذلك ، لأن قتل مثل هؤلاء الرجال الكبار أهاج النفوس إهاجة عميقة ، وأنفت بعضُ القبائل أن تتخلى عن إنقاذ رجالها من يد الدولة ، واعتبر الشيعةُ حُجرا وأصحابه فى المحنة شهداء[1] .

وتذكر الرواياتُ بعضَ الإصلاحات والإجراءات الإدارية التى قام بها زياد فقد قام بإصلاح كبير فى مسجد الكوفة (الطبرى ج ١ ص ٢٤٩٢) وأمر بإلقاء الحصى فيه ويقول البلاذرى (ص ٢٧٧) إن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلّون فإذا رفعوا أيديهم ، وقد تربت ، نفضوها ، فخشى زياد أن يظن الناسُ على مرور الأيام أن نفض الأيدى سنة فى الصلاة ، فأمر بالحصى فجُمع وألقى فى صحن المسجد[2] . وأهم من ذلك إجراء آخر اتخذه زياد ، وهو تقسيمه جند الشرطة

---

(١) Schia. p. 56ss.

[راجع أيضاً فيما يتعلق بقصة حجر بن عدى وقتله هو وأصحابه الطبرى ج ٢ ص ١١١ — ١٥٥ ، لتجد التفصيل الوافى لما أوجزه المؤلف — المترجم] .

(٢) [لا نجد عند الطبرى والبلاذرى فى الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ما يقوله من أن زياداً رفع الحصى من الأرض وأحل محله بلاطاً ثابتاً ، وذلك لكى لا يحصب المصلون الخطيب إذا أرادوا معارضته . ولما كان البلاذرى يقول إن الحصى التى فى المسجد فوق التراب ، فإن زياداً لم يرفع الحصى ، وبهذا لا يكون ثمة أساس لكلام المؤلف ، ولذلك عدلنا عنه — المترجم] .

فى الكوفة أربعة أقسام ، فى كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة ، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة ، بل رئيس تُعَيِّنُه الحكومة[١] . أما فى تقسيم جند البصرة تقسيما مماثلاً إلى خمسة أقسام ، فقد كانت القبيلة أكثر ظهوراً[٢] . ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أن زياداً أراد أن يخفف من حدة التوتر السياسى فى العراق ، وذلك لأنه حول خمسين ألفاً من أهل الكوفة والبصرة بعيالاتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما دون النهر (الطبرى ج ٢ ص ٨١ ، ١٥٦ ، والبلاذرى ص ٤١٠) .

وتُوُفِّىَ زياد يوم الثلاثاء لأربع خلون من رمضان سنة ٥٣ هـ (الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ٦٧٣ م .) ، وهو يبلغ حوالى ثلاثة وخمسين عاما . وتُذْكَر حكايتان لا تخلوان من دلالة على روحه . فمثلا فى سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ خرج ابن عباس من البصرة قاصداً علياً بالكوفة ، واستخلف على البصرة زيادَ ابن أبيه ، وبعث معاوية بابن الحضرمى إلى البصرة ، فنزل فى تميم بقصد إثارتهم على سلطان علىّ . فعند ذلك لجأ زياد إلى صَبِرة بن شَيْمان ، أحد رجال الأزد لكى يجيره هو وبيت المال . ثم أراد زياد أن يختبر الأزد ، فقال لجابر بن وهب الراسبى : لا أرى ابن الحضرمى يكفّ ، ولا أراه إلا سيقاتلكم ، ولا أدرى ما عند أصحابك ، فآمِرْهُمْ ، وانظر ما عندهم ! فبعد أن صلى زياد جلس فى المسجد واجتمع الناس إليه ، فقال جابر : يا معشر الأزد ! تميم تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصْبَرُ منكم عند البأس ، وقد بلغنى أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جاركم ويخرجوه من المِصْر قسراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك ، وقد أجرتموه وبيتَ مال المسلمين ؟ فقال صبرة ابن شيمان ، وكان مُفَخَّما : وإن جاء الأحنف جئتُ ، وإن جاء الحتات بن يزيد

Schia. p. 58. n. 1. (١)

(١) [وجاء فى الطبرى ج ٢ ص ٧٩ : وقيل إن زياداً أول من سِيرَ بين يديه بالحراب ومُشى بين يديه بالعمد واتخذ الحرس رابطة خمسمائة ... فكانوا لا يبرحون المسجد . قارن ص ٧٧ — المترجم] .

جئتُ ، وإن جاء شبان ففينا شبان » . وقد كانت هذه الكلمات ، بما فيها من سذاجة ، سبباً فى إثارة الضحك فى نفس زياد ، وكان يقول بعد ذلك : « إنى استضحكتُ ، ونهضتُ ، وما كدت مكيدةً قط كنتُ إلى الفضيحة بها أقرب منى للفضيحة يومئذ ، لما غلبنى من الضحك »(١) . ويحكى أيضاً أن زياداً كان يقول لزوجة المغيرة بن شعبة — وكانت شابة جميلة — وقد تزوجها زياد فيما بعد ، ألا تستتر منه لأنه من أهل قرابتها ولا خطر منه ، لأنه « أبو المغيرة » ؛ والواقع أن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة ، على اسم المغيرة بن شعبة والى الكوفة(٢) . فيبدو من هذا أن زياداً لم يكن رجلا مُتَزَمِّتاً فى جده . أما فى أمور منصبه فلم يكن يسمح لأحد أن يمزح معه ، وهو لم يكن والياً غشوماً مستبداً إلا بالمعنى الذى يفهمه العرب ، والعرب يرون أن كل حكم قوى يجب أن يكون استبداداً ، خصوصاً إذا احتاج إلى السيف فى قمع الرعايا الثائرين . أما ما فعله زياد مع الشيعة فى الكوفة فقد رواه لنا أبو مخنف — وكان شيعى النزعة — أو فى رواية وأدقها ،

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ — ٣٤١٥ ، ولا يستطيع الإنسان من نص طبعة ليدن أن يدرك ما هو الشىء المضحك فى كلام صبرة بن شيمان . وأسماء الأعلام محرفة هناك ، ويمكن إصلاحها بالرجوع إلى الطبرى ج ١ ص ٣٤١٨ س ١ وابن دريد ص ١٥٠ و ١٥٤ . وأسماء الأعلام أسماء لقوم من تميم ، ولكن لها ، إلى جانب ذلك ، دلالة على أشياء أخرى . ويؤخذ من كلام صبرة أن الأزد ينتظرون ما تفعله تميم وهم مستعدون لأن يقابلوا رجال تميم برجال أكفاء لهم . وقد تكلم صبرة فى جد وزهو وافتخار ، وكان ذلك ، بما فيه من سذاجة ، هو الشىء المضحك الذى ضبط زياد نفسه لكى لا ينفجر ضاحكا لما سمعه . [ترجمنا كلام المؤلف فى الصلب متمشين مع الأصل العربى ومفصلين بعض التفصيل ، وإلا لما فهم المقصود فهما تاماً ، كما أننا جئنا بكلام صبرة فى الصلب أيضاً ، لا فى الهامش ، كما فعل المؤلف — المترجم] .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف . ولم أجد ما يدل على كل ما يقول . ونجد عند الطبرى ج ٢ ص ٢٧ ما يأتى : « ودخل عليه (أى المغيرة بن شعبة) ، وعند المغيرة أم أيوب بنت عمارة بن عقبة بن أبى معيط ، فأجلسها بين يديه وقال : لا تستترى من أبى المغيرة ! فلما مات المغيرة تزوجها زياد ، وهى حدثة » . ومن الواضح فى النص أن الذى قال : لا تستترى ، هو المغيرة بن شعبة ، فهو يقول لزوجته ، مداعباً زياداً : لا تستترى من أبى المغيرة . لأن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة . وليس فى الكلام ما يدل على جمال الزوجة ولا على أن زياداً هو الذى قالها . ويظهر أن المؤلف أخطأ فى فهم ما تعود عليه الضمائر — المترجم] .

ولا يزيد كلام أبي مخنف عن أن زياداً أوقر بعض الثوار الحديد ، ممن حمل السلاح خارجاً على أمره واكتفى بذلك . وهذا مما يبرر الشك فى الروايات الغامضة التى تذكر أحياناً عن قسوته فى تعقب الشيعة بوجه عام (الطبرى ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٦٢٤) . وفى البصرة لم يكن للشيعة فى الجملة كبير شأن ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شُريك بن الأعور الحارثى مكان كريم عند زياد وعند أبنائه من بعده . ولكن شُريكاً لم يكن براً بثقتهم فيه ، فقد أراد أن يستغلها ليغدر بعبيد الله بن زياد الذى تولى العراق بعد أبيه . وذلك أن شريكاً مرض ، فذهب إليه عبيد الله عائداً له فى داره ، فأراد شريك أن يقتله ، وحرّض على ذلك رجالا كانوا فى داره ، لكنهم استقبحوا هذا الغدر الشائن وكرهوه . ومات شريك بعد أيام ، ولم يتم له ما أراد (الطبرى ج ٢ ص ٢١٨) . أما الخوارج فكانوا فى البصرة أخطر من ذلك ، وكانوا مختلفين ، فكان منهم أهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلو المبالاة بالمبادئ ، فى غريزتهم ميل إلى سفك الدماء . ولم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم ، بل هو ضرب على أيدى المجرمين ، ولم يقتل إلا بعض الثوار والمجرمين الذين جيء بهم إليه وقام الدليل على إجرامهم . وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة . وقد أبان أبو بلال ، وهو أكبر رجل بين خوارج البصرة ، عن رضاه عن صنيع زياد ، وذلك بأن دعا على قومه الذين ألحقوا العار باسم الخوارج بسفكهم الدماء من غير تمييز(١) ، أما ما يروى من أفعال زياد خلافاً لذلك فيجب أن يعتبر تشنيعاً مغرضاً .

فأما الأداة الطيعة فى أعمال القسوة المزعومة التى تنسب لزياد فى البصرة فهو سَمُرة بن جُندب ، كما يقول المدائنى وتلميذه عمر بن شبة . وكان سمرة على الشرطة ،

---

(١) [لم يذكر المؤلف المرجع الذى اعتمد عليه ، وقد وجدت فى كتاب الكامل للمبرد ص ٥٨١ — ٥٨٢ من الطبعة الأوربية أن أبا بلال دعا على رجلين من الخوارج سفكا دماء بغير حق . ولا يخرج ما فى الطبرى (ج ٢ ص ٩٠ — ٩١) عن ذلك — المترجم] .

ويقال إن زياداً أكثر من عدد الشرطة ليتخذها أداة لطغيانه ؛ ولكن المعروف أنه لم يخمد ثورة الشيعة فى الكوفة بواسطة الشرطة ، بل بدعوة أهل البصرة أن يَكْفُوه أولئك الشيعة(١) ؛ وقد استطاع زياد فى العراق ، كما استطاع فى فارس ، أن يصل إلى غرضه دون الالتجاء إلى وسائل غير عادية ؛ وكان بحسب العادة القديمة ، يجمع حوله فى سَمَرِه جماعةً من الأشراف فرض لهم عطاءً شرفياً . وكان يتحدث معهم فى الشؤون العامة حديثاً حراً(٢) ؛ وهو أيضاً قد جعل رؤساء القبائل مسئولين عما يحدث من قبائلهم ؛ وقد مكّنه ما كان بين القبائل من تنافس من أن يضرب بعضها ببعض ؛ وأهم ما كان تحت يده أموالُ الدولة ، وكان هو المسيطر على بيت المال الذى تجرى منه الأرزاق والأعطيات ، فكان عند الضرورة يهدد بمنعها(٣) ؛ وكان تحت تصرفه شرطة ، لكنها لم تكن أكثر عدداً منها فى عهد سلفه ؛ فلم يكن تحت يده من الوسائل إلا ما كان تحت يد غيره من عمال الدولة ، غير أنه عرف كيف يستعملها خيراً مما استعملوها . وتدل كل الدلائل على أنه كان حاكماً « منصوراً مُعاناً بأمر الله » ، وهو لم يفشل فى شىء ؛ وكان المسجد ، وهو المكان الذى تجتمع فيه عامة المسلمين ، هو مكان عمله ومكان نجاحه . وكأنه كان يعرف ما تجنّه ضمائر الناس ، وكانوا يحسّون بأنه يصيب منهم ما يخفون ؛ وكان يعلن للناس ما يريد أن يتخذه من إجراءات ، ولم يكونوا يشكّون أنه سيكون عند قوله . وقد استطاع أن يحكم الناس بالكلام لا بالسيف ، وكان خبيراً بقومه العرب . وكان العرب ، من قديم ، ذوى فراسة دقيقة وذوى إعجاب فطرى بالتفوق العقلى ، إذا تجلى فى البصيرة النافذة إلى القلوب وإلى حقيقة

---

(١) [راجع فيما يتعلق بالبصرة الطبرى ج ٢ ص ٩١ ، وبالكوفة ص ١١٧ — المترجم] .

(٢) [لا يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، وفى الطبرى (ج ٢ ص ٧٨) أنه « كتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة فى صحابته ، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة » — المترجم] .

(٣) [راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص ٩١ — المترجم] .

الأشياء ، وإذا تجلى فى التصرف الحازم الحاسم[1] . وقد مدحه الحارث بن بدر الغُدانى أحد أشراف تميم ، وكان شخصية قوية مستقلة ، بقصيدة تشيد بما كان له من صفات كريمة ؛ ووصفه فيها بأنه وزير نعم الوزير[2] لأخيه الخليفة معاوية وإذا كان الفرزدق الشاعر[3] ، لما طلبه زياد ، قد خاف زياداً كما يخاف الصبى الأحمق حقيقة ، ففرّ منه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فإن هذا لا ينال من قدر زياد ومن صفاته .

وكان الواجب الأول الذى لا بد من القيام به ، فى البصرة والكوفة ، هو تثبيت سلطان الدولة . فكان لا بد فى البصرة من كسر شوكة القبائل والعشائر التى كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوفُ إلى جانب أفرادها ، بل إلى جانب مجرميها ، مهما كان جرمُهم ، وحمايتُهم من القبائل الأخرى ، بل من سلطان الدولة . فقد طغت روح العصبية القبلية فى البصرة أكثر من طغيانها فى غيرها ، وكان لذلك فى مدينة كالبصرة مزدحمة بالسكان من من النتائج ما لا يمكن احتماله ، وكان أفظع مما عُرِفَ فى حياة البادية . فتعرض النظام والسلام إلى الخطر ، بعد أن كان محمد عليه السلام ، بفضل إقامة السلام والنظام ، قد خلص العرب من الفوضى . أما فى الكوفة فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة فى المدن الأخرى . ولم تكن هذه المعارضة موجّهة لسلطان الدولة فى ذاته ، بل موجهة إلى حق الحكومة التى كانت قائمة ، أعنى حكومة الأمويين ، فى الحكم . ولم يكن بين الناحيتين فرقٌ فى نظر زياد ، فهو بعد أن

---

(١) [يظهر أن المؤلف قد أخذ بعض ما يذكره من صفات زياد من قصيدة قالها الحارث ابن بدر الغدانى فى مدحه له (الطبرى ج ٢ ص ٧٨) وأنه قد تصرف فيما أخذ — المترجم] .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٧٨ س ١٠ و ص ١٤٦ س ١٦ . وهذه أول مرة تظهر فيها هذه التسمية ، فيما أعلم .

(٣) [تجد حكاية الفرزدق وفراره لما طلبه زياد عند الطبرى ج ٢ ص ٩٤ — ١٠٨ — المترجم] .

صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوعَ لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل ، وعلى هذا الأساس نهض لإقامة النظام فى الجماعة وإيجاد الرخاء فى الحياة العامة وإلزام الناس القيام بواجب الطاعة المفروض عليهم كمواطنين . وهو إن كان ، تمشياً مع العادة السائدة ، لم ينْسَ نفسه ، بل جمع أموالا كثيرة ، فإنه لم يجعل همَّه استعمالَ سلطانه وسيلة فى استغلال الولايات التى عُهِدَت إليه إدارتُها استغلالا يحقق له أغراضه الخاصة . وكان يتَّخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل ، وكان يشعر تمام الشعور بأنه عامل من عمال الدولة ، وكان جادًّا كل الجد فى القيام بالواجبات التى يقتضيها منصبه والشعور به ، غيْرَ مُبَالٍ بالعافية لنفسه ، وغير مُبَالٍ بما جاء فى القرآن[1] الذى استطاع كل حاكم أن يستنبط منه السياسة التى تناسبه . وقد عُرِف له إخلاصُه ، وعاد ذلك على أبنائه من بعده ، وكان ابنه عبيد الله أكبر شأناً ،

ومن ولاة العراق أيام معاوية ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، بحسب رواية أبى معشر والواقدى : تولى الكوفة عبدُ الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣ هـ ، والضحاك بن قيس الفهرى سنة ٥٥ هـ ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى سنة ٥٨ هـ ، والنعمان بن بشير الأنصارى سنة ٥٩ هـ . وتولى البصرة سمرةُ بن جندب الفزارى سنة ٥٣ ، وعبد الله بن عمرو بن غيلان سنة ٥٤ ، وعبيد الله بن زياد سنة ٥٥ . وقد كان عبيد الله أشد من أبيه على خوارج البصرة ، حتى اضطغن عليه المعتدلون منهم . وما يُرْوَى من حكايات شهداء الخوارج يرجع إلى عهده[2] .

أما أهل الشام الذين كان يحكمهم معاوية نفسه فلا نسمع عنهم إلا قليلا ، إذا

---

(١) [يقصد المؤلف بطبيعة الحال مجاوزة زياد لبعض حدود الشرع عندما كان يريد القضاء على الفساد . راجع ص ١١٦ — ١١٧ مما تقدم — المترجم] .

(٢) Chavarig p. 25ss. [راجع أيضاً الطبرى جـ ٢ ص ١٨٥ — ١٨٨ — المترجم] .

قيس بما نسمعه عن غيرهم ، وذلك أن اتفاق مصلحتهم ومصلحته في السيادة جعلتهم متحدين معه ، لأن السيادة كانت للشام . وهذا يتجلى في امتلاكها لبيت المال ، وفي ارتفاع الأعطيات فيها[1] . وكانت الشام أيضاً تختلف عن العراق اختلافاً داخلياً ، وذلك أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الإسلام ، وكانت حروب الفتح قد قذفت إليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل . فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية . ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية إلى ظروف الحضارة وصارت في النقطة الوسطى لإمبراطورية كبرى ، فلا عجب ألاّ يتحول العربُ دفعة واحدة من حياة البداوة إلى حياة المواطنين المهذَّبين . على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على أثر الفتح الإسلامي كثيرٌ من العرب ، خصوصاً من قيسٍ الذين انتقلوا إلى شمال الشام ، ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة ، إلى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة . وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ، ولم تكن قد جاءت مع مجيء الإسلام[2] . وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية — الرومانية والكنيسية المسيحية والدولة الرومانية ، فلم تَخْلُ هذه العوامل كلها من أن تترك أثرَها فيهم . ولم تكن مظاهرُ الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم . وكانت لهم أسرة قديمة من الأمراء دانوا لها بالطاعة دهراً طويلا ، ثم آل ما تعوّدوه من الطاعة إلى معاوية باعتباره الوارث الشرعي لأسرتهم السابقة ، فلم يكونوا بحاجة إلى أن يُلَقَّنُوا حقوق الدولة عليهم ، وكانوا يعترفون بشرعية الرياسة الإنسانية

---

(١) « نقل معاوية بيت مال الدولة (من الكوفة) إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق » هذا ما يقوله تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦١٥١ ، ٦١٥٢) .

(٢) وكانوا يفتخرون بأنهم لم يهاجروا إلى الشام حديثاً كالأمويين (الحماسة ص ٦٥٩ — بيت رقم ٥) .

القائمة ، ولم يمتحنوها بالرجوع إلى مقاييس القرآن وإلى المبادئ التى يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية . وكانوا يطيعون أميرهم أينما وجههم ، لأنهم لم يكونوا فى داخل أنفسهم يبالون بالإسلام أكثر مما يبالى هو نفسه ، وقد أثبتوا أنهم كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعاً ، ولا سيما أنهم لم يضعف تعوُّدهم للحرب ، بل كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدرباً منظّماً . وقد كان معاوية من الحكمة بحيث حافظ على حماستهم وحميّتهم ؛ وإن كان هو من حيث النسب ، قد كان أقرب لقيس منه لغيرها . ولم يكن الخلاف بين القبائل قد اتخذ فى ذلك العصر صورة التنازع الخبيث بين الأحزاب السياسية . وكان معاوية يقيم فى دمشق ، فى المنطقة التى كانت تسكنها كلب ، غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين . وتزوج امرأة من أشراف كلب ، وجعل ابنها يزيد وارثاً لعرش الدولة . وكان التصاهر ، بحسب تفكير العرب ، بمثابة التحالف السياسى . وقد تبين أيضاً أنه كذلك ، فكانت كلب كلها تشعر أنها أصهار للخليفة وأخوال لولى عهده[1] . ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أدمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ، ذلك أن دخول عرب الشام فى الإسلام جاء مبكراً ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وإن كان إسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة . ويستطيع الإنسان أن يفترض أن الصلة التى نشأت بين معاوية وبينهم أيام كان والياً كان لها أثر فى علاقته بأهل الشام من غير العرب الذين ظلوا على النصرانية . ولا يبدو أن التعارض بين السادة والرعية كان فى الشام على الحدة التى كان عليها فى العراق فى أول الأمر . ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم . بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص

---

(١) وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان من كلب أيضاً . ومن الجائز أن يكون الثأر لمقتل عثمان التى قبولا بين كلب نفسها لهذا السبب ، وأنه رماهم بين أحضان معاوية .

وقنسرين وغيرها ، بل كانوا أحياناً يقاسمونهم بيتاً لله ، نصفه مسجد" ونصفه كنيسة . وكان التراث المسيحى فى فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين (ديوان النابغة ، قصيدة رقم ١ بيت رقم ٢٤[1]) . وكانت للشام فى نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة . وفى بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة ، وصلى بعد ذلك على جبل الجلجلة ، ثم صلى عند قبر السيدة مريم . ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالى الإنسان فى تقدير ما لذلك من دلالة ؛ وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه إزاء العقيدة المسيحية فى أنه لما جاء إليه اليعاقبة والمارونية ليفصل ، بينهم فى نزاعهم فى العقيدة ، غرّم اليعقوبيين ، بعد أن غُلبوا أمام خصومهم ، عشرين ألف دينار ، أخذها منهم وأرسلهم . على أن معاوية لم يكن فى قلبه تعلق عميق بالإسلام ، وكان ، من حيث هو سياسى ، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين ، وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله ، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه فى عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان ، وهذا ما يتبينه الإنسان عن روح الروايات التى ترجع إليهم .

ويتكلم تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليقة) عن رعاية معاوية للنصارى (σπουδὴ τῶν χριστιανῶν) ! وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل الرها كنيستهم التى هدّمها الزلزال . وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذاً ، وقد أورثه ابنه يزيد ، وكان سرجون نصرانياً[2] . أما ما يروى من أن

---

(١) [بيت النابغة هو :

محلتهم ذات الإله ودينهم ۔۔۔ قويم لما يرجون غير العواقب

وهذا البيت قاله النابغة فى مدح الحارث الأصغر الغسانى معتذراً له عما وُشى به إليه من أمر المجرّدة . ودلالة البيت على ما يقوله المؤلف غير دقيقة وغير كبيرة — المترجم] .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٩ . انظر أيضاً التنبيه ص ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣١٢ . أما عند تيوفانيس فى أخبار سنة ٦١٦٣ فنجد أن Σέργιος ὁ τοῦ Μανσουρ, ἀνὴρ χριστιανικώτατος (سرجيوس بن منصور ، الرجل النصرانى) لا يذكر إلا فى أيام عبد الملك —

معاوية استعمل والياً نصرانياً على خراج حمص فهو خبرٌ موضوعٌ من غير شك[1] . ويستطيع الإنسان أن يأسف من أن معاوية ، بدلاً من أنه صار خليفة ، لم يقتصر على الشام فيؤسس هناك دولة وطنية ، ربما كانت تكون أثبت دعائم من تلك الدولة العالمية التى لاتنتمى إلى أمة معينة والتى انهار فيها سلطان العرب فى المشرق . ويجوز أنه قد خطرت له هذه الفكرة ، لكنه أحسّ أن تنفيذها مستحيل ، لأنه كان لابدّ له فى ذلك من أن ينفصل من الإسلام وينضم إلى الكنيسة المسيحية ، وذلك أن الإسلام فى ذلك الحين لم يكن يسمح بوجود دول خاصة .

وكان الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذى بنى عليه معاويةُ حقّه فى وراثة الخلافة[2] . أما بأى معنى قام بالثأر لعثمان فهو يتجلى فى أنه من أجل ذلك اتحد مع عمرو بن العاص الذى ألّب على عثمان أخبث تأليب . ولم تكن التقوى ولا البر بعثمان باعثاً لمعاوية ؛ وهو أيضاً لم يتبع سنّة سلفه المقتول . ولقد قبل النتيجة الإجمالية لحكم عثمان ، وهى سيادة بنى أمية ، ولكنه لم يعط للأمويين جميع المناصب التى تدرّ المنافع . ولقد عمل محاولات باستعمالهم[3] ، لكنه كان فى العادة

— قارن أيضاً الطبرى ج ٢ ص ٨٣٧ [إن سرجون بن منصور الرومى كان كاتب معاوية وصاحب أمره ، وكان يستشيره . ويذكر الطبرى أن يزيد بن معاوية كان يستشيره أيضاً . وكتاب « التنبيه » الذى يذكره المؤلف هو كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ م . وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية — المترجم] .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٥ [قارن الطبرى ج ٢ ص ٨٢ — المترجم] .

(٢) [ليراجع القارئ إلى جانب ما هو معروف فى كتب التاريخ كتاباً كتبه معاوية إلى علىّ (الكامل المبرد ص ١٨٤) ، وهو يبين موقف معاوية وموقف أهل الشام ، وفيه يطالب معاوية : ١ — بضرورة معاقبة قتلة عثمان . ٢ — بأن يكون أمر اختيار الخليفة بعد ذلك شورى بين المسلمين . ويقول معاوية . ١ — إنه هو نفسه لم يبايع علياً ، ومن هذا الوجه لا يعتبر خارجاً عليه ، مثل طلحة والزبير ، ٢ — وإن أهل الشام لم يبايعوه ، فلا تلزمهم طاعته كما تلزم أهل البصرة . هذا ولا يدفع معاويةُ مكانة علىّ فى الإسلام — المترجم] .

(٣) [جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٦٧) أن معاوية كان إذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف ، فإذا رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية جمع له معهما المدينة . فهل المقصود من عبارة المؤلف مثل هذا أيضاً ؟ والمعروف أن معاوية ولى بعض الأمويين أمصاراً أخرى — المترجم] .

لا يلبث أن يعزلهم ، ولم تصبح دمشق مقرهم الرئيسى ، بل بقيت المدينة مقراً لهم ، وبعد أن كانت المدينة حتى أيام معاوية عاصمة للدولة وجدت نفسها وقد رجعت إلى مركزها القديم ، شأنها فى ذلك شأن الطبقة الأرستقراطية التى كانت لا تزال تقيم فيها . وقد جعل معاوية ولاية المدينة من نصيب الأمويين عادةً ، ولكن أبن مران بن الحكم ، وهو فى عهده أمير على المدينة ، من مروان ابن الحكم الذى كان فى عهد عثمان كاتب الدولة ، الذى لا يخرج عن أمره شىء ! فلا عجب أن ينظر مروان بن الحكم إلى ابن عمه المقيم بدمشق والذى يظلله بحمايته بعين غير عين الرضا ، وأن أقرباء معاوية فى المدينة كانوا بالإجمال يطعنون عليه . وقد تجلت روحهم خصوصاً فى غيرتهم من زياد ، لأنهم كانوا يخشون أن تتجه إرادة معاوية إلى تقوية بيته على الأسرة كلها من طريق زياد وأن يجعل لزياد الخلافة من بعده . أما معاوية فقد حاول من جانبه أن يثير الشحناء بين فروع أسرة بنى أمية فى المدينة لكى يضعف بذلك من قوّتهم (الطبرى ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥)[1] . وأيضاً لم يصل الوئام بين معاوية وبين قريش بوجه عام إلى ما كان ينبغى أن يكون عليه . وقد اشتكى هو من ذلك ، وقال إنه لم يؤخّرهم إلا لأنهم انصرفوا عنه . وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة ، وكان هؤلاء منذ زمان طويل يحقدون على بنى أمية ، لأن بنى أمية هم الذين زحزحوهم عن المحل الأول الذى لم يزل لهم فى مكة حتى وقعة بدر . وقد فعل معاوية إلى جانب ذلك ما يجعل لبغضهم له سبباً خاصاً ، وذلك أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى ، صاحب المكانة الكبيرة ، كان عظيم الشأن فى الشام ، وقد مال إليه

(١) [كان معاوية يُغرّى بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم . فكتب للأول ، وهو وال على المدينة ، يأمره بمصادرة أموال الثانى ، فلم يفعل ، فعزله . ثم ولى الثانى ، وأمره أن يصادر أموال الأول ، فلم يفعل ، وكتب لمعاوية يعبر عن تعجبه من أنه يُضَغّن بعض الأمويين على بعض ، ويدخل بينهم القطيعة والشحناء — ويرد عليه معاوية متنصلا من ذلك — المترجم] .

أهلُها ، « لِمَا كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ، ولغَنَائه عن المسلمين في أرض الروم » وكان عاملا على حمص ، في وسط الشام ، وكان له نفوذ كبير مستقل بذاته . فخافه معاوية وخشى على نفسه منه ، فأمر معاوية الطبيبَ النصرانى ابن أثال أن يحتال فى قتله ، وضمن له ، إن هو فعل ذلك ، أن يضع عنه خراجه ما عاش ، وأن يوليه جباية خراج حمص . فدس ابن أثال لعبد الرحمن شربةً مسمومة ، فشربها فمات[1] . ويستطيع الإنسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك فى نفوس بنى مخزوم . أما علاقة معاوية بأشراف المسلمين وببيت الرسول ، وبآل الصحابة الأولين وبالأنصار أيضاً ، فكانت ، بطبيعة الحال ، علاقة ريبة وعداوة .

أما كبار العمال الذين ولاّهم معاوية أهم الولايات فلم يكونوا أمويين ، بل هم لم يكونوا من قريش ، إذا استثنينا واحداً منهم . وكان معاوية ثاقب النظرة فى معرفة من يصلح لخدمته ، فكان يختاره لها ، وكان يعرف كيف يضم إلى جانبه من يعنيه أن يضمه وأن يرتبطه معه ، بل كان يعرف كيف يستخدم فى أغراضه من يرتاب هو به ، كما فعل بعمرو بن العاص الذى كان وهو والٍ على مصر لا يشعر أنه عامل من قِبَل معاوية بقدر ما كان يشعر أنه حليفٌ له (الدينورى ص ٢٣٦[2]) . ونجـد أحياناً كثيرة إحصاء خدمه وأصحاب

---

(١) [يذكر المؤلف دس السم لعبد الرحمن بن خالد بيد الطبيب النصرانى دون أن يصرح بأن ذلك كان بإيعاز من معاوية ، ثم يقول : وظنّ أن ذلك كان بإيعاز من معاوية . ولكن كيف يمكن تعليل حرص الطبيب على قتل عبد الرحمن بن خالد ، وقتل خالد ابنه للطبيب نفسه بعد ذلك . مهما يكن من شىء فالحكاية موجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ٨٢ – ٨٣) ، وهى كما ذكرناها ، ويمكن المؤرخ أن ينقدها . على أنه جاء فى كتاب الأغانى (ج ١٥ ص ١٣) حكاية دس ابن أثال السم لعبد الرحمن وحكاية أن معاوية كان قد سأل أهل الشام فيمن يستخلفه عليهم ، فقالوا : عبد الرحمن بن خالد ، فسكت معاوية وأضمرها فى نفسه . وقد حرص معاوية على قتل مالك الأشتر ، فقتله عامل خراج نصرانى فى مصر بدس السم له أيضاً – المترجم] .

(٢) [كتب معاوية إلى عمرو يطلب – نظراً لكثرة النفقات التى لا بد له منها – أن يعينه بخراج مصر ، فأجابه عمرو فى أبيات شعرية : أنه لم يأخذ مصر لا ميراثاً ولا ولاية ، بل بشرط ، يقصد بطبيعة الحال اتفاقه مع معاوية على أن تكون له مصر طعمة ، نظير مساعدته لمعاوية على علىّ بن أبى طالب – المترجم] .

ثقته(١) ، ومعظمهم يبدون رجالا جُدُداً (homines novi) ، وكان معاوية يشاورهم ، معتبراً إياهم مستشاريه (σύμβουλοι) ومعتبراً نفسه المستشار الأول (πρωτοσύμβουλος)(٢) وعند الطبرى (جـ ٢ ص ١٤٦ فما بعدها) مثال على ذلك . وقد كانوا يستطيعون أن يعارضوه ، وهم فعلوا ذلك أيضاً (الطبرى جـ ٢ ص ١٤٤ و١٨٥) ولكن معاوية كان لا يدع الزمام يخرج من يده ، وكان يعرف كيف يهذب من يمنحهم شيئاً من الحرية : وكانت لا تغضبه خشونةُ الناس ولا ظهورهم بالانفعال المُسْرِف . وكانت شيمته هى شيمة السيد العربى ، من الطراز القديم . ولم يهبه الله الشجاعة العسكرية ، وإن كان لم يزل يوجِّه أهل الشام لقتال الروم قتالا لم ينقطع . وبمقدار حرمانه من الشجاعة العسكرية توفَّرت له صفات أخرى من صفات السيد فى أعلى صورها : اللين الحكيم الذى كان يستطيع به أن يُجَرِّد الخصم من سلاحه وأن يُخْزِيَه ، والحلم الكامل ، وضبط النفس فى أكمل صورة . وتروى حكايات لا تحصى فى تصوير معاوية ، هو والأحنف بن قيس التميمى ، مثلا أعلى لهذه الصفات . وكان الأحنف معاصراً لمعاوية ، وكان معاوية يقدره تقديراً عظيما . فقد كان معاوية فى جوهر أمره رجلا دبلوماسياً وسياسياً ، وكان يترك الأمور حتى تنضج ، ولم يكن يتعجلها إلا فى بعض الأحيان ، وربما استعمل دس السم فى الوصول إلى ما يريد . ولم يكن ينكر أن أصله من طبقة التجار ،

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٣٢٧٢ و ٣٣٩٠ و جـ ٢ ص ١٣٩ و ١٩٧ و ٢٠٥ وكتاب الأغانى جـ ١ ص ١٢ .

(٢) نجد عند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٦٩) هـذه العبارات Μαυίας καὶ οἱ συμβουλοι αὐτοῦ (معاوية ومستشاروه) (وفى أخبار سنة ٦١٧١) Μαυίας ὁ τῶν Σαρακηνῶν πρωτοσύμβουλος (معاوية المستشار الأول للعرب) . وقد انتقلت هذه التسمية إلى ما بعد أن فقدت مبررها بزمن طويل ، حتى وصلت إلى الخلفاء العباسيين . ونجد عند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٦٥) لقباً خاصاً ὁ δεύτερος ἀδελφός (الأخ الثانى) . وكان حاجب (Majordomus) ملك النبط يسمى أخاه . وكان بعض كبار موظفى السلوقيين يسمون أبناءهم ، فإذا كان هناك أكثر من أخ كان هناك ترتيب فى الدرجة .

وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً . وقد استولى على العراق ، وهو لم يصل إلى ذلك من طريق فتحها بأكثر مما وصل إليه من طريق شرائها . وكان إذا استطاع أن يصل إلى غرضه بالمال لم يبخل به ولكنه كان لا يعطي شيئاً بدون غرض ، وربما كان يجد شيئاً من المتعة فى أن يخيب أمل من يطمع منه فى كرم لا يعرف التمييز أو من يظن أنه يستطيع أن يخدعه . وفى رواية عن الشعبي ، وهو من أقدم الرواة ، عن قبيصة بن جابر الأسدي أنه قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أحب رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان إذا استمع اتكأ ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه . ورغم أنه كان طويلاً مُسْمِناً ، فإنه كان يبدو فى عين العرب جميلاً مهيباً إذا لبس عمامته السوداء واكتحل[1] . ويقول الواقدي إنه توفي يوم الخميس النصف من رجب سنة ٦٠ هـ وهو يوافق ١٨ يوليه سنة ٦٨٠ م ويقول إلياس النصيبي (Elias Nisibenus) إن يزيد ابنه تولى الخلافة يوم الجمعة منتصف رجب . أما أبو مخنف (الطبري جـ ٧ ص ٢١٦) فيقول إن ذلك كان فى هلال رجب . ويذكر أبو معشر أن مدة حكمه تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر ، ويزيد الواقدي على ذلك سبعة وعشرين يوماً . ودُفِن عند الباب الصغير فى دمشق ، وكان على قبره بيت مبنيّ . وظل يزار قروناً ، وكان قبره يفتح للزيارة كل يوم اثنين وخميس[2] .

٢ — ولما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه مُنْذِرةً بالمتاعب ، كما هو

---

(١) [يجد القارئ الكثير مما يرجع إليه كلام المؤلف هنا عن معاوية والكثير من أخبار فى كتب التاريخ ، خصوصاً عند الطبري جـ ٢ ص ٢٠٥ — ٢١٦ والمسعودي فى المروج جـ ٢ ص ٤٥ فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وفى التنبيه ص ٣٠٢ من الطبعة الأوربية ، وابن الأثير جـ ٤ ص ٢ فما بعدها من الطبعة الأوروبية . وراجع فهرس الأغاني والكامل للمبرد — المترجم] .

(٢) المسعودي جـ ٥ ص ١٤ . وقد لجأ الكميت الشاعر من غضب الخليفة هشام إلى قبر ابنه معاوية [أي معاوية بن هشام لا معاوية بن أبي سفيان كما يظن المؤلف — المترجم] (الأغاني جـ ١٠ ص ١١٥ و ١١٧ و ١٢١) .

الحال دائماً . وقد عمل معاوية ، خلافاً لمن تقدمه ، على أن يذلّل المصاعب قبل ظهورها ، وكما أنه هو لم يربط أشراف العرب بنفسه إلا من طريق البيعة التي أخذها لنفسه منهم أنفسهم ، فإنه أراد أن يضعها ، وهو ما يزال حياً ، في أعناقهم لولده يزيد ليكون خليفة من بعده ؛ ولكنهم ، فيما عدا أهل الشام بطبيعة الحال ، كانوا يأملون أن يُلْقُوا بعد موته النيرَ من على أعناقهم . وزعموا أنه بإرادته جعل الحكم وراثياً من الأب لولده ، على ما هو معروف عند الساسانيين والروم[1] ، إنما يرتكب بدعة منكرة . على أنه وإن كانت الرياسة عند العرب تورث في داخل نطاق القبيلة أو العشيرة ، فإنها ليست وراثية في أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد . أما بحسب الإسلام ، فليست الرياسة لبني الإنسان على الإطلاق ، بحيث يدّعون الحق في وراثتها . ورغم هذا ، فإن الضوضاء التي قامت حول ذلك لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم ، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقرراً ، وحتى إذا كان الإبن ليس هو صاحب الحق في ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروماً منه فأما الذي يظهر أنه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة . ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثمّ سنّةٌ مقررةٌ في هذا الباب على الإطلاق ، ولم يكن هناك أي نظام مقرّر لوراثة الخلافة .

أمارواية ُ مافعله معاوية ، وهوما نجده عند ج . ڤايل (G. Weil) و ا . موللّر (A. Müller) ، فهو موجود عند ابن الأثير (ج ٣ ص ٤١٧ فما بعدها) على هذا النحو : كان ابتداءُ أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قِبَل المغيرة بن شعبة ، وكان قصْدُ المغيرة في الحقيقة سيئاً . فقد أبلغه ابن معاوية يريد عزله عن الكوفة ، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه ، لتظهر لمعاوية كراهتُه للولاية ولكي يستريب

---

(١) إن الأبيات المذكورة عند المسعودي (ج ٥ ص ٧١) تذكر بالأبيات التي قالها الحطيئة ضد أبي بكر .

معاوية من خروجه منها ، فيبقيه فى منصبه . ثم دخل المغيرة على يزيد ففاتحه فى وجوب عقد البيعة له ، وحدّث يزيد أباه بذلك ، فأحضر المغيرةَ وسأله ، فعرض الفكرةَ ، وراقت الفكرةُ معاوية ، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله ويتحدث مع من يثق إليه فى ذلك . فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة سعيه للبقاء فى الولاية : « لقد وضعتُ رجل معاوية فى غَرْزٍ بعيد الغىّ على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتْقاً لا يُرْتَق أبداً » . ولكن لم يلبث أن جاء إلى دمشق وفدٌ من رجال الكوفة ؛ كان المغيرة قد أعطاهم شيئاً من المال ، يطالبون بعقد البيعة ليزيد[1] ، ولكن معاوية آثر الأناة وكتب إلى زياد يستشيره ، فاستشار زيادُ عُبَيْدَ ابن كعب النميرى ، وقال له : إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه قد عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوّف نَفْرة الناس . ويزيدُ صاحبُ رسلة وتهاونٍ مع ما قد أُولع به الصيد . ثم طلب زيادُ من عبيد بن كعب أن يلْقَى معاوية ويخبره عنه بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة فى الأمر ، فإن ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد . فقال له عبيد : لا تُفْسِدْ على معاوية رأيَه ولا تُمْقِتْ إليه ابنَه ! واقترح عبيد أن يلقى يزيد سرّاً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله ، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم . وأراد عُبَيْدٌ بذلك أن يرضى معاويةَ وأن ينصح ليزيد . وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها ، فبعث عبيدَ بن كعب إلى دمشق ، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التُّؤَدة . على أن معاوية لم يكشف عن نيته إلا بعد موت زياد ، وبدأ باستطلاع الجوّ فى المدينة ، وعلى عاصمة الإسلام الأولى التى كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقى للبيعة ، وخصوصاً أن كبار المسلمين

---

(١) [جاء على رأس الوفد موسى بن المغيرة أو أخوه عروة . فقاموا خطباء وتكلموا معربين عن حرصهم على وحدة أمة محمد وعما يجب على معاوية [وقد كبر] ، من تعيين خلف له ، لكى لا ينتثر عقد الأمة ، ثم أشاروا بيزيد . وسأل معاوية موسى أو عروة ، بعد أن تكلموا : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال : بكذا ، قال معاوية : لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً — المترجم] .

الذين كان لابد أن تُؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها ؛ فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم ، عامله على المدينة : إنى قد كَبِرتُ سنّى ودقّ عظمى وخشيت الاختلافَ على الأمة بَعْدى ؛ وقد رأيتُ أن أتخيّر لهم من يقوم بعدى وكرهتُ أن أقطع دون مشورة مَن عِنْدَك ، فاعرضْ ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردّون عليك . فلما عرض مروانُ عليهم الأمر قالوا : أصاب وَوُفّق ، وقد أحببْنا أن يتخيّر لنا ، فلا يألو . وكتب مروان إلى معاوية بما قالوه ، فردّ معاوية عليه ، وذكرَ عزْمَه على اختيار يزيد خليفة بعده . فلما أبلغ مروانُ كبارَ أهل المدينة بدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم ، وكان الاعتراض آتياً من قِبَلِ أبناء كبار الصحابة خاصةً ، كالحسين بن على وعبـد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر(1) وعبد الله بن الزبير . ولكن معاوية لم يتراجع عما أراد ، فكتب إلى عماله أن يوفدوا الوفودَ من ذوى النباهة من جميع الأمصار إلى دمشق ، وخطب فيهم مُعَظّماً أمرَ الإسلام ومتكلماً بوجه عام فى حُرْمَةِ الخلافة وحقّها وفيما يجب على الرعية من طاعة أولى الأمر ، ثم ذكر فضل يزيد وصفاتِه وعلمَه بالسياسة وعرّض ببيعته . وكان معاوية قد أوعز من قبل إلى رَجُل منهم لكى يتكلم بعده ويدعوه إلى بيعة يزيد ويحثّه عليها . فقام الضحاك بن قيس الفهرى وغيره ، فتكلموا وخلصوا إلى الغاية التى عرّضَ بها معاوية دون أن يصرّح بها ، وطالبوا بأخذ البيعة ليزيد . ولم يَشِذّ منهم إلا الأحنف ابن قيس ، فتكلم مُعَبّراً عن ارتيابه(2) . ولكن الذهب محى ما كان لكلامه

---

(١) [لما أبلغ مروان بن الحكم كبار أهل المدينة عن معاوية أنه اختار فلم يأل وأنه عزم على استخلاف يزيد بعده ، قال عبد الرحمن بن أبى بكر : كذبتَ والله يا مروان ، وكذب معاوية ! ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل — المترجم] .

(٢) [تكلم من تكلم منهم فى وجوب صَوْن وحدة الأمة من الفُرقة وسفك الدماء وفى صفات يزيد ، غير الأحنف بن قيس فإنه لما سأله معاوية : ما تقول ؟ أجاب : نخافكم إن صد

من أثر . وتلقى يزيد بيعة الوفود ، ولم تبق إلا بيعة أهل الحجاز : فركب معاوية بنفسه إلى هناك فى ألف فارس ، فلما وصل إلى المدينة خرج النَّفَرُ الممتنعون الذين كان يَهُمُّه أن يأخذ البيعة منهم خاصةً ، فيمن خرج للقائه ؛ فاستقبلهم بكلام شديد جارح ، فخرجوا إلى مكة : فسار وراءهم ، فلما خرجوا للقائه بمكة كلمهم كلاماً ليناً رقيقاً وأكرمتهم ووصل كلاً منهم بصلات . ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما أراد إلا آخر الأمر عندما قرُب مسيرُه إلى الشام . وقد حاول أن يبين لهم أنه لا يضيرهم كثيراً أن يكون يزيد خليفةً من حيث الاسم ، وأن يكونوا هم الذين يتمتعون بالحكم من حيث الحقيقة والواقع . فسكتوا طويلا ، وتكلم ابن الزبير آخر الأمر ورفض باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم(1) . عند ذلك قال معاوية : « إنى قد أحببتُ أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطبَ منكم ، فيقومُ إلىّ القائم منكم ، فيكذّبنى على رؤوس الناس ، فأحملُ ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقاله ، فأقسم بالله لئن ردّ علىّ أحدٌ كلمةً فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرُها حتى يسبقَها السيفُ إلى رأسه فلايبقينّ رجلٌ إلا على نفسه » ، ثم دعا صاحبَ حرسه بحضرتهم ، فقال : « أقمْ على رأس كل رجل من هؤلاء رجُلين ، ومع كل واحد سيفٌ ، فإن ذهب رجلٌ منهم يردُّ علىّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليَضْرباه بسيفهما ! » . ثم خرج ، وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين وخيارهم ولا يُبتَز أمرٌ دونهم ولا يُقضَى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس عند ذلك ، وكانوا يتربصون بيعة أولئك النفر » . وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم

= صدقنا ونخاف الله إن كذبنا ! وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضًى ، فلا تشاور فيه ؛ وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا — المترجم] .

(1) انظر ما يلى ص ١٤٠ — ١٤١ هامش .

من القتل ، وأقروا معاوية على كذبه ؛ فخرج معاوية إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد .

هذه رواية مصنوعة صنعاً ماهراً . أما ما يروى من أن المغيرة كان أول من بعث فكرة مبايعة يزيد ، وأن عبيد بن كعب النميري أشار على زياد بأن لا يعارض معاوية ، فإن المدائني يحكيه لنا أيضاً ، وحكايته موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٣ فما بعدها) في حوادث السنة التي يذكرها ابن الأثير . أما فيما يتعلق باجتماع وفود الأمصار عند معاوية لمبايعة يزيد فلا نجد عند الطبري من ذلك شيئاً ، وهو لا يذكر (ج ٢ ص ١٩٦) إلا مجيء وفد من البصرة على رأسه عبيد الله بن زياد ، وأن معاوية أخذ من الوفد البيعة لابنه يزيد ، ولكن الطبري يذكر ذلك في حوادث سنة ٦٠ هـ ، وهي السنة التي مات فيها معاوية . ويظهر أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أعم ، فأصبحت تذكر بالنسبة لوفود أخرى ، وقدم تاريخها . ونجد ما يدل على مرحلة الانتقال إلى هذا التعميم عند المسعودي[1] . أما الحادث الجوهري الطريف الذي تصل فيه رواية ابن الأثير إلى ذروتها ، أعني ظهور معاوية بنفسه بهذا المنظر العنيف في الحجاز ، فهو مجهول تماماً في الروايات القديمة[2] (ولا يعرفه المسعودي أيضاً) . ولا نجد عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ نقلا عن المدائني) أكثر من أن معاوية بعد وفاة زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حدث به حدث الموت ، فيزيد ولي العهد ؛ فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر[3] ؛

---

(١) جزء ٥ ص ٦٩ ، ويذكر أن ذلك كان في سنة ٥٩ هـ . ويجب تصحيح كلمة : الأنصار ، في كلام المسعودي ، بجعلها : الأمصار .

(٢) [على أنه عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٧) رواية موجزة تدل بلا شك على أن معاوية قدم الحجاز وتكلم مع النفر الممتنعين عن بيعة يزيد ، مع كل منهم على حدة ، في البيعة ليزيد . وهذه الرواية تصور دهاء معاوية ، لأنه أفهم كلا منهم أنه معارض وأنه يتزعم الآخرين وحصل منه على الوعد بالبيعة إن هم بايعوا — المترجم] .

(٣) الخامس ابن عباس ؛ وكان لا بد من أخذ البيعة منه . والمدائني من الموالين المخلصين لبني هاشم .

ولا يُذْكَر مكان قراءة هذا الكتاب ، ولا يذكر زمانه ، لأن عبارة : بعد وفاة زياد ، لا تدل إلا على مجيء حادث بعد حادث ، والغالب أن ذلك حدث في دمشق . وعند الطبري (ج ٢ ص ١٩٦) ، إلى جانب ما تقدم ، أن معاوية في سنة ٦٠ هـ أخذ بيعة وفد البصرة ليزيد[1] ، وعهد إليه بما يجب عليه أن يصنع بالنفر القرشيين الأربعة الذين امتنعوا عن البيعة[2] : ويحكي عوانة أن معاوية أوصى بما عهد به ، وكان يزيد غائباً ، إلى الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المرّي . فنستطيع على هذا أن نفترض أن معاوية حفظ خطّته زماناً طويلاً في نفسه ، وحاول في أواخر حياته تنفيذها : ولكن ذلك لم يُجْدِ نَفْعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم وبيعتهم أهم ما في الأمر ، ذلك لأنهم ، بحسب

---

(١) [تقدم هذا الوفد مع عبيد الله بن زياد كما تقدم — المترجم] .

(٢) [قال معاوية في وصيته لابنه : « يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد . وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إرباً إرباً » (الطبري ج ٢ ص ١٩٦— ١٩٧) . ونجد عند الطبري وصية معاوية لابنه في صورة أخرى نقلا عن عوانة (ج ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨) . وفيها يوصيه بإكرام أهل الحجاز وبالاستجابة لأهل العراق كلما طلبوا عزل والٍ ، ولو طلبوا ذلك كل يوم ، تفاديا للثورة من جانبهم ، وبأن يتخذ أهل الشام بطانة وعدة لنفسه ، لينتصر بهم ، وبأن يرجعهم إلى الشام إذا انتصر على عدوه لكيلا يأخذوا بغير أخلاقهم . ثم يعرب معاوية عن خوفه من قرشيين ثلاثة : الحسين بن علي وهو رجل خفيف يرجو معاوية أن يكفيه الله يزيد بمن قتل أباه وخذل أخاه ، يعني أهل العراق ، ويوصي معاوية ولده بمراعاة حقه ورحمه الصفح عنه ؛ وعبد الله بن عمر ، وهو رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً ؛ وعبد الله بن الزبير ، وهو خب ضب ، لا بد من الترصد له ، إلا أن يلتمس صلحاً . ويوصي معاوية ولده أن يقبل منه الصلح ، وأن يحقن دماء أهل الشام ما استطاع — المترجم] .

الإسلام ، كانوا أحق بالخلافة من يزيد . أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط[1] ، ولا بد وأنه مما يتفق مع شيمة معاوية ، وهو السيد الحليم ذو السن ، أن يذهب إلى الحجاز فى فترة يسود فيها السلام ، على رأس ألف فارس لكى يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظة ، ثم يدللهم ويتودد إليهم ، ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر[2] ، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء فى الحقيقة : لأنهم هم أنفسهم — وكانوا أهم من كل من عداهم — رفضوا بيعة يزيد رفضاً باتاً . أما القولُ بأنه دخل مكة على رأس قوة مسلحة ، وفى مكة لا فى المدينة أخذ البيعة ، فهو قول أبعد ما يكون عن الإمكان . والكلمات والمناظر المسرحية التى قد زُيِّنت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق . ويبدوا أن كل الرواية التى تقدم ذكرها لا تعدو أن تكون ظلاً قد أرسل مقدماً للحوادث التى وقعت فى أول خلافة يزيد ، وسننتقل إلى الكلام عنها :

---

(١) [راجع ما تقدم ذكره من أن الطبرى يحكى ما يدل على ذهاب معاوية إلى الحجاز وكلامه مع النفر الممتنعين . والشك جائز فى مظهر العنف الذى يحكى ابن الأثير أنه ظهر به معاوية فى الحجاز . والذى يتحصل مما عند الطبرى وما عند ابن الأثير : هو أن معاوية قدم إلى الحجاز ، وأنه تكلم مع النفر الممتنعين ، لكن ابن الأثير ينفرد بحكاية التدخل العنيف — المترجم] .

(٢) [يذكر ابن الأثير أن معاوية لما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس ، فلما نظر إليه قال : لا مرحباً ولا أهلا ، بدنة يترقرق دمها ، والله مهريقه ، فقال الحسين : مهلا ، فإنى والله لست بأهل لهذه المقالة ، فقال معاوية : بل ولشر منها . ولقيه ابن الزبير . فقال : لا مرحباً ولا أهلا ، خب ضب ، يدخل رأسه ويضرب بذنبه ، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ... ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقال له معاوية : أهلا ولا مرحباً ، شيخ قد خرف وذهب عقله . ثم فعل بابن عمر مثل ذلك . فأقبلوا معه ، لا يلتفت إليهم ، حتى دخل المدينة ، فحضروا بابه ، فلم يؤذن لهم ، على منازلهم ، ولم يروا منه ما يحبون ، فخرجوا إلى مكة وأقاموا بها ... ثم خرج معاوية إلى مكة ، فلقيه الناس ، فقال أولئك : نتلقاه ، فلعله قد ندم على ما كان منه ... فكان أول من لقيه الحسين ، فقال له معاوية : مرحباً وأهلا يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين ، وأمر له بدابة فركب وسايره ، وفعل معاوية مثل ذلك بالباقين ، وأقبل يسايرهم ، لا يسير معه غيرهم ، حتى دخل مكة ، فكانوا أول داخل وآخر خارج ، ولا يمضى يوم إلا ولهم صلة ... حتى قضى معاوية نسكه وحمل أثقاله ، وقرب مسيره ، فقال بعض أولئك النفر لبعض : لا تخدعوا ، فما صنع بكم هذا لحبكم . وما صنعه إلا لما يريد ، فأعدّوا له —

يحكي أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢١٦ فا بعدها) أن يزيد بعد أن تولّى الخلافة هلالَ رجب سنة ٦٠ هـ كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يخبره بموت أبيه ، وأمره في هذا الكتاب[1] ، الذي كان صغيراً حتى كأنه أذُن فأرة ، بأن يأخذ الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير — ولا يذكر في خطاب يزيد إلا هؤلاء الثلاثة — بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصةٌ ، حتى يبايعوا . فاستشار الوليدُ مروانَ بن الحكم ، رغم أن ما بينهما كان متباعداً ، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين ، خصوصاً الحسين وابن الزبير ، إلى البيعة والدخول في الطاعة ؛ فإن فعلوا قُبل ذلك منهم ، وإن أبَوْا قُدِّموا فضُرِبتْ أعناقُهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ؛ فإنهم إن علموا به من غير مبايعة وثب كل مرئ منهم في جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه . أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدرَ خطر ، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى القتال ، وهو لا يحب أن يُولّى على الناس إلا أن

—— جواباً ، واتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير ، فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمتم سيرتي فيكم ، وصلتي لأرحامكم ، وحملي ما كان منكم . ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه ، لا يعارضكم في شيء من ذلك » فسكتوا ، فقال « ألا تجيبون ؟ » مرتين ، ثم أقبل على ابن الزبير فقال له : هات ! لعمري إنك خطيبهم ، فقال ابن الزبير : « نخيّرك بين ثلاث خصال ... تصنع كما صنع رسول الله صلعم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر » ،قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلعم ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر . قال معاوية : « ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الاختلاف » ، قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ، ليس من بني أبيه ، فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ، ليس منهم أحد من ولده ولا من بني أبيه » ، قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال ، فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله ، قال : فإني قد أحببت ... الخ كما في ص ١٢٧ مما تقدم — المترجم] .

(١) [يؤخذ من الطبري : ج ٢ ص ٢١٦ ، أن يزيد كتب هذا الكتاب الذي فيه نعي أبيه للوليد ، صحيفة أخرى خاصة بأخذ البيعة من الثلاثة القرشيين — المترجم] .

يُدْفَعَ إليه هذا الأمر عفواً[1] . ولكن الوليد كان رجلاً يحبّ العافية ، فأرسل الوليد يدعو الحسين وابن الزبير فى ساعة لم يجلس فيها للناس ، فصرفا رسوله ، وتكلما فاستنتجا أن معاوية قد مات ، وأن الوليد يدعوهما للبيعة قبل أن يفشو فى الناس خبرُ موت الطاغيـــة . ثم ذهب الحسين إلى الوليد فأقرأه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : إن مثله لا يعطى بيعته سراً ، بل على رؤوس الناس علانيةً ، واقترح على الوليد أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم ، فرضى الوليد بذلك . وأراد مروان أن يقنع الوليد بحبس الحسين حتى يبايعَ أو يضربَ عنقه ، فأبى الوليد ذلك واستقبحه . أما ابن الزبير فإنه لما بعث إليه الوليد جعل يتلكأ ، حتى خرج من المدينة ليلاً . فبعث الوليد إلى الحسين ، فاستمهل الرسل حتى الصباح ، ثم خرج من المدينة فى الليل ، بعد ابن الزبير بليلة ، وذهبا إلى مكة فى آخر رجب سنة ٦٠ هـ (أول مايو سنة ٦٨٠ م) . على أن الواقدى (الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها) يحكى أن ابن عمر لم يكن فى المدينة لما ورد نعى معاوية ، وأنه لما عاد إليها انتظر حتى جاءت البيعة من البلدان ، فقدم إلى الوليد وبايعه ، وكذلك فعل ابن عباس ، وكان الرأى هو أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً .

وطبيعى أنه لم يلبث أن عُزِل الوليد بن عتبة عن المدينة ، فحل محله أمويٌّ آخر ، هو عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال بمكة . ويحكى

---

(١) [كان معاوية صادق النظر فى ابن عمر عند ما قال إنه رجل قد وقذته العبادة ، فليس ملتمساً شيئاً . وفى الطبرى (جـ ٢ ص ٢٢٣) أنه لقى الحسين وابن الزبير ، وهما فى طريقهما إلى مكة ، فسألهما : ما وراءكما ؟ فقالا : موت معاوية والبيعة ليزيد ، فقال لهما : اتقيا الله ولا تفرقا كلمة المسلمين . وجاء فى كتاب الأغانى (جـ ١ ص ١٢) أن ابن الزبير وسّط صفية زوجة ابن عمر لدى زوجها لكى يبايع ابن الزبير فقال ابن عمر لزوجته لما أكثرت الكلام فى ابن الزبير وأنه إنما انشق على بنى أمية غضبا لله ورسوله والمهاجرين : أما رأيتِ بغلات معاوية الشهب التى كان يحج عليهن فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن . وكان ابن عمر حريصا على جمع كلمة الأمة ومستعداً لمبايعة يزيد إذا بايعه الناس — الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٢ — المترجم] .

الواقدى أن ذلك وقع فى رمضان سنة ٦٠ هـ ، ويروى آخرون غير الواقدى أنه وقع فى ذى القعدة (الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٦) .

ورضى الحسين أن يستخرجه أهل الكوفة من مأمنه فى مكة[1] ، وذلك أنهم ألحّوا عليه بالكتب والرسل فى أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم ، ووصل إليه أول رسلهم بكتاب منهم فى العاشر من رمضان سنة ٦٠ هـ . فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل قبل أن يذهب هو ، وذلك لكى يرى صدق ما كتبوا به له ولكى يمهد له الأمر . ولم يلبث حين وصل أن دبّ إليه أهل الكوفة وبايعه منهم عدد كبير (اثنا عشر ألفاً) ، ولكنه لما وجد نفسه ، قبل أن يستحكم له الأمر ، مضطراً إلى قتال عبيد الله بن زياد — وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الذى عزل ، لأنه كان حليماً ناسكاً يحب العافية ويكره العنف — نادى بشعاره ، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف ، وقصد القصر الذى فيه عبيد الله بن زياد ، وكان عبيد الله قد جمع وجوه أهل الكوفة عنده ، فلما وصل مسلم إلى القصر ، ومعه أنصاره من أهل الكوفة ، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشائرهم وجعلوا يُكلّمونهم ويصرفونهم عن مسلم . فأخذ أصحابه يتسلّلون من حوله ، حتى أمسى ومعه خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهبوا أيضاً ، وبقى وحده يتردّد فى الطرق : ثم آوته امرأة كان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث ، فعرف أمره ، وانطلق إلى ابن الأشعث ، فأخبره بأمر مسلم ؛ وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله ، فأحاطوا بالدار ، فخرج إليهم مسلم وقاتلهم قتال الأبطال وردّهم مرتين ، وهو يقول :

---

(١) [راجع فيما يتعلق بهذا وبما يلى من مقتل الحسين الطبرى ، (جـ ٢ ص ٢٢٧ فما بعدها إلى ص ٣٩٠) ، ومروج الذهب للمسعودى (جـ ٢ ص ٨٦ فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ) — المترجم] .

أُقسم لا أُقتل إلا حُرًّا ! ؛ وإن رأيتُ الموت شيئاً مُرًّا
كلُّ امرئ يوماً ملاقٍ شرًّا أخاف أنْ أُكْذَبَ أو أُغَرّا

وبارزه من المحيطين بالدار بكير بن حمران ، فجرح كل منهما صاحبه . ثم أُعطِيَ له الأمانُ ، وأُخِذَ إلى عبيد الله مُجَرَّداً من سلاحه ، فأسلمه لبكير بن حمران ، فذبحه فوق القصر ورمى رأسه إلى الأرض وألحقها بجثته . وفعل عبيد الله مثل ذلك بعروة بن هانئ المرادى الذى كان أراد نُصْرَةَ مسلم . وأرسل عبيد الله بن زياد رأس مسلم إلى دمشق ، وصُلِبَتْ جثتُه فى الكوفة ، فكان أول رأسٍ أُرْسِل إلى الشام وأوَّلَ جثة صلبت من بنى هاشم . وهكذا انتهى أمره نهاية محزنة فى ٨ أو ٩ من ذى الحجة . وفى نفس الوقت ، فى الثامن من ذى الحجة ، خرج الحسين بن على من مكة مع أهله وولده ، رغم نصيحة أخيه وأهله له ألاَّ يُغَرِّر بنفسه ثقةً بأهل الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل . وكان قد شجّعه ما كتب به إليه مسلم فى الشطر الأول من مهمته ، يخبره ببيعة اثنى عشر ألفاً ، ويطلب إليه القدوم إلى الكوفة . ولقد علم الحسين ، وهو فى طريقه ، بالنهاية التعسة التى انتهى إليها مسلم ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع ، أو هو لم يرد أن يرجع ؛ [فقُتل وهو يُقَاتل جنود الكوفة فى كربلاء على نهر الفرات فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ ﻫ (١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م) . وهكذا انتهت خطةُ الثورة انتهاءً مؤلماً . ولكن استشهاد الحسين كان له شأن معنوى كبير ، وكان له تأثير عظيم عند الشيعة(١) .

أما ابن الزبير فقد أثبت أنه أخطر من الحسين بكثير . وقد قرت عينه بخروج الحسين من مكة ، لأنه تخلص بذلك من منافس أعظم منه فى أعين الناس(٢) :

---

(١) راجع ما كتبنا عن الشيعة Schia § 2 p. 60-71.

(٢) [راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ — المترجم] .

وقد أشفق يزيد من أن يتجدد في قتال ابن الزبير ، لأنه كان عائذاً بمكة ، وهي المدينة الحرام التي لا يصح فيها القتالُ وسفك الدم . على أن الروايات ، فيما يتعلق بمسلك يزيد إزاء ابن الزبير ، ناقصة مضطربة .

ويحكي أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٣٩٥ فما بعدها) في أخبار سنة ٦١ هـ (وهي تبدأ في أول أكتوبر سنة ٦٨٠ م) ، وهي السنة التي كان فيها عمرو ابن سعيد والياً على المدينة[١] ، ما يأتي :

استغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكومة بني أمية وللتعريض بيزيد . وكان يبايع الناس سراً ، فطالبه أصحابه أن يُظهر البيعة ، خصوصاً بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع ، فلم يرض بذلك إلا سراً ؛ أما علانية فكان يظهر أنه عائذ بالبيت . ولما سمع يزيد بما يصنعه ابن الزبير في مكة أعطى الله عهداً ليوثقنّه في جامعة (سلسلة) ، ولكنه فكر كيف يبرّ بقسمه ، فأرسل إلى ابن الزبير سلسلة من فضة يضعها حول عنقه . فلما مر بها البريد على مروان بن الحكم في المدينة تمثل مروان ببيت من الشعر لكي يصوّر قبول السلسلة دليلا على الضعف . وعلم ابن الزبير بذلك ، فرد البريد ورفض السلسلة . وعلا أمره في مكة ، وكاتبه أهلُ المدينة ، وقال الناس إنه بعد مقتل الحسين ليس لأحد أن ينازع ابنَ الزبير ، فهو الأحقُّ بالخلافة .

وفي رواية ترجع إلى الزهري (الطبري ج ٢ ص ٣٩٧ فما بعدها) أن أربعة

---

(١) لا يمكن أن تنهض رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢٨٠ س ٨ و ص ٣٩٧ س ٢) ، وهو بالجملة وفيما يتعلق بتحديد التواريخ ليس بالقوي ، لمخالفة التواريخ المحددة التي يذكرها الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها و ص ٣٩٩) . وأبو معشر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٥) وكاترمير (Quatremère) على صواب ، خلافاً لما يقوله فايل (Weil 1,326) على أنه من الجائز أن يكون عمرو بن سعيد لم يأت بعد الوليد بن عتبة مباشرة (الدينوري ص ٢٤٣ س ٢ و ٣) .

رُسُل ، منهم عبد الله بن عضاة الأشعرى وعبد الله بن مسعدة ، حملوا تلك « الجامعة » المكونة من قطع من الورق (العملة الفضية) . فأرسل مروانُ ابن الحكم ولديه عبد الملك وعبد العزيز مع الرسل من مكة إلى المدينة ، وأمرهما ، إذا وصلت إلى ابن الزبير رُسُل يزيد ، أن يتعرضا لابن الزبير ويتمثل أحدُهما أمامه بأبيات من الشعر تدل على أن قبوله للسلسلة علامة على الذُّل ، وهى :

فخُذْها ، فليست للعزيز بخطةٍ وفيها مقال لامرئٍ متذللِ

أعامرَ إنَّ القوم ساموك خطةً وما لك فى الجيران عَدْلٌ مُعدِّلُ

[؟] أراك إذا ما كنت للقوم ناصحاً يُقالُ له بالدلو : أدبرْ وأقبلِ

ففعلا ، وفهم ابن الزبير مغزى الأبيات ، فقال للغلامين ، أخبرا أباكما :

إلى لمن تَبْنعة صمٌّ مكاسرُها إذا تناوحت القصباءُ والعشرُ

فلا ألين لغــير الحق أسأله حتى يلينَ لضِرْسِ الماضغ الحجَرُ(١)

ويذكر وهب بن جرير أيضاً فى رواية له فى كتاب الأغانى (ج ١ ص ١٢) هذين الرسولين اللذين تقدم ذكرهما : ويستطيع الإنسان أن يخلص من هذه الرواية إلى أن الكلام فيها عن الحادث نفسه ، وإن كان يُحكى على نحو آخر مختلف كل الاختلاف ، وإن كانت السلسلة الفضية خاصةً لا يرد لها ذِكرٌ قط . فيقول ابن جرير إن يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصارى فى عشرة نفر — وهو يذكر أسماءهم(٢) — إلى ابن الزبير . فأخذ النعمان يُكثِر من الخلوة بابن الزبير والحديث معه ، فاغتاظ عبد الله بن عضاة من هذه الخلوة بين الأنصارى والمهاجر(٣) .

(١) [اضطررنا أن نوسع الترجمة هنا وأن نذكر الأبيات تحقيقاً لفائدة القارئ العربى — راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٣٩٨ .

(٢) اقرأ فى الأغانى (ص ١٢ س ٥) : الجلنانى بدلا من : الحزامى ، والسكونى بدلا من : السلولى .

(٣) كان ابن عضاة والرسل الآخرون عرباً عاديين من قبائل البدو ، أما الأنصار والمهاجرة ، وهم أهل المدينة ومن هاجر من مكة إليها ، فكانوا هم طبقتا الأشراف بين المسلمين .

وقال لابن الزبير يوماً إن هذا الأنصارى ما أمير بشىء إلا وقد أمرنا بمثله ، إلا أنه قد أمِّرَ علينا ، وإنى والله ما أدرى ما بين المهاجرين والأنصار ! فأجاب ابن الزبير : « يا ابن عضاة ! مالى ولك ! إنما أنا بمنزلة حمامة من حمام مكة ، أفكنت قاتلا حمامةً من حمام مكة ؟ » قال : « نعم ! وما حرمةُ حمام مكة ! يا غلام ! إيتنى بقوسى وأسهُمى ! . . » ، فأخذ سهماً ، فوضعه فى كبد القوس ، ثم سدّده نحو حمامة من حمام المسجد ، وقال : « يا حمامة ! أيشربُ يزيد بن معاوية الخمرَ ؟ قولى : نعم ! فوالله إن قلْتِ لأرْمينَّكِ يا حمامة ! أتخلَعين يزيدَ بن معاوية وتفارقين أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم وتقيمين فى الحرم حتى يُستَحَلّ بك ! والله لئن فعلتِ لأرْمينَّكِ ! » فقال ابن الزبير : « ويحك ! أيتكلم الطائرُ ؟ » قال : « لا ! ولكنك يا ابن الزبير تتكلم ! أقسم بالله لتبايعَنّ طائعاً أو مكرَهاً أو لتعرفَنّ راية الأشعريين فى هذه البطحاء ، ثم لا أعظِّمُ من حقِّها ما تعظِّم ! » ، فقال ابن الزبير : « أو يُستَحلُّ الحرَم ؟ » قال : « إنما يُحِلُّه من ألحدَ فيه ! » . ولم تخل قصة الحمامة من تأثير على المؤرخين المحدثين ، ولكنها مجرد قصة مُزَخرفة ، والفكرة التى فيها تتردد فى صورة أخرى عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٠)[١] . هذا إلى أن الأسماء الكثيرة التى تُذكَرُ فيها لا تقدم أى ضمان . واسم رئيس الوفد ، بوجه خاص ، يبدو أنه خطأ . ومن العسير أن يكون النعمان بن بشير قد أرْسِل من قِبَل الخليفة إلى مكة قبل ذلك بعام فى نفس المهمة التى كان عليه أن يؤديها فى المدينة

---

(١) بينا كان الحصين بن نمير ، فى جند الشام ، يحاصر ابن الزبير وأصحابه بمكة ، مات يزيد . وعلم ابن الزبير بموته قبل أن يعلم الحصين ؛ فصاح ابن الزبير بجند الشام : إن طاغيتكم قد قتل ، فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، ومن كره فليلحق بشأمه ! فغدوا عليه يقاتلونه ، فقال ابن الزبير للحصين : أدن منى أحدثك ! فدنا منه ، فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل ، والجفل الروث ، فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين فرسه عنهن ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم ، فقال له ابن الزبير : أتتحرج من هذا ، وتريد أن تقتل المسلمين ! ؟ فقال له الحصين : لا أقاتلك ، فأذن لنا نطف بالبيت ، وننصرف عنك ؛ ففعل ، وانصرفوا .

بعد ذلك بعام . وإذا كان للمؤرخ أن يختار فإن ما يرويه أبو مخنف (الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٤) أجدر بالقبول ، وهو أن يزيد أرسل النعمان بن بشير إلى الناس وإلى قومه فى المدينة لكى يَفْثَأهم عن النهوض إلى الفتنة ويدعوهم إلى المحافظة على وحدة الجماعة .

ولنكمل سلسلة الروايات بما رواه الواقدى ، وهو موجود عند الطبرى (جـ ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها) فى أخبار حوادث سنة ٦٠ هـ ، وإن كان ابن الزبير لم يظهر إلا بعد وفاة الحسين فى أوائل سنة ٦١ هـ : كانت الرسل تجرى بين يزيد وابن الزبير فى أمر البيعة ، حتى إذا فرغ صبرُ يزيد حلف ألا يقبل البيعة من ابن الزبير ، حتى يؤتى به فى جامعة (سلسلة) فى عنقه . فمنع ابنُ الزبير أمير مكة من قبل يزيد أن يؤم الناس ، فأمر يزيد عمْرَو بن سعيد أميرَ المدينة ، أن يوجه إلى ابن الزبير جيشاً ، فسأل عمرُو بنُ سعيد عمرَو بن الزبير ، وكان صاحب الشرطة فى المدينة : مَنْ رجلٌ نوجِّهه إلى أخيك ؟ فطلب أن يكون هو ذلك الرجل ، لما كان بينه وبين أخيه من بغضاء . فبعد أن سار عمْرٌو بجيش مختلط بعض الاختلاط — خرج فيه عربٌ وموالٍ لأهل المدينة — عسكر أمامَ مكة ، وأرسل إلى أخيه عبد الله بن الزبير أن يَبَرَّ يمين الخليفة ، وأن يحمل فى عنقه جامعةً من فضة أو ذهب يلبس عليها بُرْنُساً حتى لا تُرى ، وأن يَشْخَص أمام الخليفة ، ليؤدىَ له البيعة . فلم يستجب عبد الله بن الزبير إلى ذلك ، بل أمر بمهاجمة مقدمة جيش عمرو مهاجمةً مفاجِئةً ، ثم قبض على أخيه عمرو ، وحبسه فى سجن عارم وضربه ليقتص منه لكل من كان قد ضربهم من أهل المدينة ، وهو على شرطتها ، وجعل نهايته نهاية محزنة ، حتى مات تحت السياط . ويؤيد صاحب الأغانى (جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها) والأبياتُ التى يذكرها ، حكايةَ الحملة التعسة التى قادها عمرو بن الزبير ، فهى واقعة تاريخية من غير شك . فأما إرسال السلسلة الفضية فإنه لا يبدو عنصراً منسجماً مع ما فى الرواية ، وحكاية إرسالها موضوعة فى جملة القصة وضعاً لا يعدو أن يكون مصطنعاً ، وهى ترجع بالأحرى

إلى محاولات المفاوضة السلمية التي وقعت قبل اللجوء إلى الوسائل العنيفة . وفى هذا الباب لا يكون الحق فى جانب الواقدى ، بل فى جانب الرواة الآخرين ؛

وعُزل عمرو بن سعيد عن ولاية المدينة فى أواخر سنة ٦١ هـ ، على أثر دسيسة من الأمويين أنفسهم[1] ، لأنهم كتبوا إلى يزيد يتهمونه بالتراخى مع ابن الزبير ، وأنه لو شاء لأخذه وبعث به إليه فى دمشق . فسار عمرو إلى دمشق ودافع عن نفسه أمام الخليفة ، وشرح له الظروف التى دعته إلى مداراة ابن الزبير ، ثم حلّ محلّه الوليدُ بن عتبة الذى كان والياً على المدينة قبله ؛ والروايات متفقة على أنه حج بالناس سنة ٦١ هـ ، وظل والياً فى أثناء سنة ٦٢ هـ ، فى أثناء الشطر الأكبر من هذه السنة على الأقل ويحكى أبو مخنف (الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٢) أن ابن الزبير عمل بالمكر فى أمر الوليد بن عتبة ، وذلك بأن كتب إلى يزيد بن معاوية « إنك بَعَثْتَ رجلاً أخرق ، لا يتّجِهُ لأمر رشيد ، ولا يرعوى لعظة حكيم ، ولو بَعَثْتَ إلينا رجلا سهل الخلق ليّن الكَنَفِ رَجَوْتُ أن يَسْهُلَ من الأمور ما استوْعر ويَجتمع ما تفرق ، فانظر فى ذلك فإن فيه صلاح خواصّنا وعوامّنا إن شاء الله ! والسلام » فعزل يزيدُ الوليدَ بن عتبة ، وبعثَ مكانه عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وكان فتى غِرًّا حَدَثاً غُمْراً ، لم يجرب الأمور ، ولم يُحنّكْه السنُّ ولم تُضَرِّسْه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر فى شىء من سلطانه ولا عمله ويُؤخذ من الطبرى (جـ ٢ ص ٤٠٥) ، نقلا عن أبى مخنف أيضاً فيما يظهر (الطبرى جـ ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) ، أنه لم يتولَّ إلا بعد حجّ سنة ٦٢ هـ : ولكن يظهر (الطبرى جـ ٢ ص ٣٩٩ س١٨) أن هذا موضع شك : ومهما يكن من شىء ، فإن هذا التغيير فى ولاية المدينة وقع فى آخر سنة ٦٢ أو فى أول سنة ٦٣ هـ :

وسنة ٦٣ هـ (وهى تبدأ فى ١٠ سبتمبر سنة ٦٨٢ م) مملوءة بأجل الأحداث ،

---

(١) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ — ٤٠١ — المترجم] .

خلافاً للسنتين السابقتين لها . فيحكي أبو مخنف[1] أن الوالي الجديد أرسل من المدينة إلى يزيد وفداً من أهل المدينة ، من أشراف الأنصار والمهاجرة على سواء ، وكانوا من ذوى الكلمة المسموعة عند الناس ، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنها لم تكن مع بنى أمية على كل حال . وكان والى المدينة يأمل أن يستطيع يزيد ضمَّهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع . ولقد أكرمهم يزيد وأحْسَن جوائزهم[2] ، ولكنهم ، بعد أن انصرفوا من عنده وقدموا المدينة ، لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من حكاية أفظع الأمور عنه . فقالوا إنهم قدموا من عند رجل « ليس له دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ، وتضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب[3] ، ويسامر الُخرّاب والفتيان » . على أنه من الخطأ فى الفهم القول بأن الوفد كان يتألف من الأنصار ومن أصحاب النبى عليه السلام وحدهم . ويتكلم موللر (A. Müller, I, 367) عن الوفد ، متصوراً إياه مجموعةً عجيبة من شيوخ طيبين سُذّج ، وللملك ذُعروا من يزيد . ويكوّن موللر أفكاره الخاصة عنهم وعن الخليفة ، مع أن الخليفة كان يعلم بطبيعة الحال أحوال المدينة ، وهى أجلّ مدينة فى الإسلام ، علماً كافياً ، وكانت له ، شأن جميع العرب ، معرفة كافية بالناس ٥ ويذكر أبو مخنف محاولة أخيرة قام بها يزيد لكى يهدئ النفوس فى المدينة ، فهو لم يُرد أخذها بالعنف ، لأنه كان فيها من عشيرته من كان لا يحبُّ له أن ينهض فى الفتنة فيهلك ، فأرسل النعمان بن بشير ، خير رسول للسلام ، إلى هناك ، فكلم أهل المدينة من قومه ومن غيرهم ، ودعاهم إلى الطاعة ولزوم

---

(١) [يجد القارئ قصة إرسال الوفد إلى يزيد عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ — المترجم] . وتوجد إلى جانب ذلك رواية وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢ فا بعدها) ، ولكن ذكر التاريخ غير دقيق على الإطلاق ، فهو يقول : بعد وفاة معاوية .

(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ٤١٩ فا بعدها) ما يدل على خلاف ذلك . قال بعضهم ، وهو راجع من عند يزيد : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً .

(٣) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٦ : بالقرود .

الجماعة ، وخوّفهم من قوة أهل الشام ومن الفتنة ، ولكنه كان كأنما يخاطب آذاناً صماء[١] .

وكان ابتداء ثورة أهل المدينة ، بحسب رواية الأغاني (ج ١ ص ١٣ نقلاً عن المدائنى) منظراً مسرحياً فى المسجد : كان ابن الزبير قد نادى بخلع يزيد ، ومالأه أكثرُ الناس على ذلك ، فدخل رجال المدينة فى المسجد ، وقد ثارت نفوسهم فجأة . فقام عبد الله بن حنظلة وقال : خلعتُ يزيد ، كما خلعت عمامتى ، ونزعها عن رأسه ، وقال : إنى لأقول هذا ، وقد وصلنى وأحسنَ جائزتى ، ولكنه عدوُّ الله سكّير . وتبعه الناس يخلع كل منهم عمامته أو نعله أو خفّه أو ثوبه ، علامةً على التبرؤ والخلع كما هى العادة ، حتى حصل من ذلك كومٌ كبير . أما عند الطبرى فلا نجد شيئاً من هذا . ويذكر أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠٥ فما بعدها) من علامة ابتداء الثورة أنه بعد أن عاد الوفد الذى كان قد ذهب إلى يزيد وقالوا فيه ما قالوا ، أعلنوا : إنا نُشْهِدُكم أنا قد خلعناه ؛ فتابعهم الناس ، وتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه وولّوه عليهم ليحارب يزيد ويحارب حكومة بنى أمية . وكان ابن حنظلة عضواً فى الوفد الذى توجه إلى دمشق ، وكان من الأنصار ، وكان مشهوراً ، منذ ولادته ، بأنه ابن الشهيد الذى يُحكى أن الملائكة غسلته يوم أحد ، وقد ولد حنظلة بعد استشهاد أبيه ؛ وكانت أول خطوات الثوار أنهم وثبوا على من فى المدينة من الأمويين ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش . وكان بنو أميّة نحواً من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم ، أقدم رؤساء الأمويين وأكبرهم وأشهرهم وأسنّهم ، فحاصرهم الثوّار . فكتب مروان إلى الخليفة يخبره بما هم فيه من ضيق ويقول : « إننا قد حُصِرنا ومُنِعنا العذبَ ورُمينا بالحبوب (الحجارة) ، فياغوْثاه ياغوْثاه ! » . وبالرغم من أن يزيد قد سخر من

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥ — المترجم] .

بنى أمية ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ، مع أنهم أكثر من ألف رجل ، فإنه قرر أن يوجّه جيشاً على الفور ، يقوده عمرو ابن سعيد : ولكن عمرو بن سعيد قال للخليفة : « قد كنتُ ضبطتُ لك البلاد ، وأحكمتُ لك الأمورَ ، فأمّا الآن ، إذْ صارت إنما هى دماء قريش تُهْرَاق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولّى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم منى » . عند ذلك اتّجه يزيد إلى خادم قديم من خدام أبيه ، ثبتت كفايته وثبت إخلاصُه وصدقُ نصيحته ، هو مسلم ابن عقبة المُرّى . وقد رأى مسلم ، لما طلب إليه يزيد الخروج فى الجيش ، أن ألف رجل لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار ، ولا يجاهدون عدوّهم ويدافعون عن عز سلطانهم ، قومٌ أذلاّء ليسوا أهلاً لأن يُنْتَصَروا إلاّ بعد أن يجهدوا أنفسهم فى قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم ، حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعة الخليفة من الضعفاء المستسلمين ، ولكنه خرج بعد أن قال له يزيد : ويحك ! إنه لا خير فى العيش بعدهم إن هلكوا . وبدأ إعداد الجيش ، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب ، بعد أن أخذوا عطاءهم كاملا ، وأخذ كل جندى مائة دينار ، وُضِعَتْ فى يده من ساعته[1] . ولما بلغ أهلَ المدينة إقبالُ جيش مسلم ، وثبوا على الأمويين وحصروهم ولم يكفّوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألاّ يبغوا غائلةً ولا يَدُلّوا على عورة ؛ ثم أخرجوهم من المدينة ، فتوجّهوا إلى الشام . أما عائشة بنت عثمان ابن عفان ، وكانت زوجة مروان بن الحكم ، فقد توجهت إلى الطائف فى حماية على بن الحسين ، وهو الوحيد الذى قد نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذى كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة . ولقى مسلمُ ابن عقبة وهو فى طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادى

---

(١) وكان معظم الجيش ، كما هى العادة ، من كلب . أما رئيس قيس ، وهو زفر بن الحارث ، فقد كان يحارب فى صفوف ابن الزبير — قارن Chavarig P. 54 .

القرى . وقد كان أول الأمر ساخطاً عليهم ، فدعا بعمرو بن عثمان بن عفان أولَ الناس ، وقال له : « أخبرنى خبرَ ما وراءك ، وأشِرْ علىَّ ! » ، قال : « لا أستطيع أن أخبرك ، أخِذَ علينا العهود ألاَّ ندلَّ على عورة ، ولا نظاهر عدوًّا » . فانتهره مسلم ، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان ابن عفان . فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبلَه ، لعل مسلماً يجترئ به عنه ؛ فدخل عبد الملك واستطاع ، لحسن الحظ ، أن يردَّ غضب مسلم ، ووصف له خطة العمل ، وأشار عليه بما رأى . فأُعجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة ، واتبعها تماماً . وفى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ كان مسلم بجيشه أمام المدينة معسكراً فى الحرّة إلى شمال شرقى المدينة ، وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام ، وقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإنى أكره هراقةَ دمائكم ، وإنى أؤجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفتُ عنكم وسرتُ إلى هذا الملحد الذى بمكة ، وإن أبيتم كنَّا قد أعذَرْنا إليكم . ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى ، وطلب منهم الدخول فى الطاعة ، حتى يجعل حدَّ الجيش وشوكتَه على الملحد الذى قد جمع إليه المرّاق والفُسّاق من كل أوْب[1] . فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة ، بل على قتال جيش مسلم ، إن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها وإخافةَ أهلها ، وخاطبوا مسلماً وجيشه قائلين : « يا أعداء الله » . وكان أهل المدينة قد حصّنوا ركنها الشمالى المكشوف بأسوار وخنادق ، وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام ، على رأسها رجلان من قريش ، ورجل من أشجع ، وابن حنظلة الأنصارى . وكان ابن حنظلة فى الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها[2] .

---

(١) [المقصود هو ابن الزبير — المترجم] .
(٢) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ٤١٠ — ٤١٣ — المترجم] .

وإلى هنا تنقطع حكاية أبى مخنف عند الطبرى ، وتُكملها حكاية عوانة[1] وغيره ، وهى لا تتفق تماماً مع حكاية أبى مخنف : خرج أهل المدينة لمقابلة أهل الشام فى الحرّة ، وحملت خيلُ أهل المدينة ، بقيادة عبد الله بن حنظلة مرة والفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مرة أخرى ، على أهل الشام ، فانكشفوا وتقدّم فرسانُ أهل المدينة ، حتى بلغوا المكان الذى كان فيه مسلم بن عقبة نفسه . وتقول إحدى الروايات إنه كان يوم القتال مريضاً يُحْمَلُ على سرير ، وتقول أخرى إنه ركب فرساً له وأخذ يسير فى أهل الشام ويُحرّضهم على الثبات والقتال . ولكن أهل المدينة هُزموا آخر الأمر ، وقُتِل كثيرٌ من أشراف الأنصار ومن قريش ، منهم ابن حنظلة نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقول وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣) والسمهودى (Skizzen,4,26) إن السبب فى الهزيمة هو خيانةُ بنى حارثة ، لأنهم أدخلوا فى المدينة من ناحيتهم قسما من جيش الشام ، ضرب المدافعين من ظهورهم . أما تاريخ الموقعة فهو عند الواقدى (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢) الأربعاء لليلتين أو ثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، الموافق ٢٦ أغسطس سنة ٦٨٣ م . وأباح مسلم بن عقبة مدينةَ الرسول والخلفاء ثلاثةَ أيام للجند ، ينهبون ما فيها من مال أو سلاح ، ويقتلون الناس : وهذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤١٨) والسمهودى . أما عوانة فهو يحكى غير ذلك ، فيقول إن مُسلماً بعد الوقْعَة بيوم دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة فى قُبا ، كما يقول إنه فى هذه المناسبة قتل بعض الثوار ، وكان منهم عدد من القرشيين ومعقل بن سنان الأشجعى[2] ، وذلك رغم

(١) [نفس المصدر ج ٢ ص ٤١٣ فما بعدها — المترجم] .

(٢) كان معقل ، مثل مسلم نفسه ، من غطفان ، وكان صديقاً قديماً له ، لكنه كان حنقاً عليه ، وقال له مسلم : « أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجتَ من عند يزيد ، فقلت لى : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً ، نرجع إلى المدينة ، فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء —

معارضة مروان بن الحكم فى هذا القتل . وهذا الذى فعله مسلم فى اليوم التالى للمعركة لا يتفق مع القول بإباحته المدينة ثلاثة أيام للجند ، ينهبون فيها ويقتلون . ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده فيما يحكيه السمهودى من أنه نشأ عن ذلك ألف مولود غير شرعى ، ولا يعرف وهب بن جرير شيئاً عن إسلام المدينة للنهب (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣ س ١٥ فما بعده) .

وبعد أن فرغ مسلم من قتال أهل المدينة سار إلى مكة ، ولكنه لم يصل إلا إلى المشلّل . وهناك نزل به الموت وضميره مستريح ، مقتنعاً أنه فعل ما يرضى الله ، ولم يوص بماله لأبنائه ، بل إلى قبيلته وإلى أم ولد كانت عنده ، وترك القيادة ، على غير ما كان يحب ، إلى الحصين بن نمير السكونى ، لأن الخليفة كان هو الذى أمر بذلك ، وأوصاه فيما أوصاه ألا يُمكّن من أذنه قُرَشياً . وفى هذا تتفق رواية عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) مع رواية أبى مخنف إلى الحد الذى وصلت إليه رواية أبى مخنف . ويقول أبو مخنف إن وفاة مسلم كانت فى آخر المحرم سنة ٦٤ هـ . أما عوانة والواقدى فيقولان إن الحصين كان فى شهر المحرم معسكراً أمام مكة .

على أن ما يقوله المؤرخون المحدثون يختلف اختلافاً عجيباً عن الصورة التى نجدها مرسومة هنا لمسلم بن عقبة ، فيقول دوزى مثلا(١) : « ربما لا يكون هناك أحد يمثّل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم بن عقبة ، فلم يكن فيه أقل ظل للعقيدة الإسلامية ، ولا كان يقدّس شيئاً مما يقدسه المسلمون ، ولذلك كان أشد إيماناً بالخرافات الوثنية ، وكان يؤمن بالأحلام التنبؤية وبالكلمات الخفية التى

— المهاجرين ! فبم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة ! إنى آليت بيمين لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت » . وقوله : فبم ... من (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٠ س ٣) لا يحتاج إلى علامة استفهام .

(١) [ينقل المؤلف ما ينقله عن دوزى ومدّلر فى شىء من الاختصار والتصرف — المترجم] .

كانت تأتى من شجر الغرقد . وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد ، فقال له إنه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره ، لأنه ، فيما قال ، رأى فى المنام أنه سمع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول : «على يدى مسلم» . هذا ما يقوله دوزى (Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne 1,97s.) ويضرب ا . مولِّر على نفس النغمة ، فيقول : «كان فى نفس مسلم بن عقبة على الإسلام ، خصوصاً على المسلمين الأولين ، من الحقد ما كان فى نفس شَمِر بن ذى الجوشن قاتل الحسين ؛ وبالرغم من أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً ، فإن أمله الذى كان ينتظره طويلا ويرحِّب به لتأديب أولئك الذين كانوا أعداءً لكل ما هو وثنىّ ، ردّ إليه قوته حيناً ، وقد خرج فى الجيش ومعه الحصين بن نمير ليكون خلفا له ، إن حدث به حدث الموت ، وكان الحصين ، قبل ذلك بقليل ، الذرع الأيمن لعبيد الله بن زياد فى الكوفة[1] ، وكان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكعبة أكثر مما يحسه أمام جوزتين صمّاوين» .

فلأجل شجرة الغرقد التى فى رواية الأغانى (ج ١ ص ١٤) والتى لم يَسْتَنْشِرْها مسلم بن عقبة حقيقةً ، وإنما رآها فى المنام[2] ، يكون مسلم وثنياً لحماً ودماً ، وهو لما فى قلبه من بغض أهل المدينة ينتظر الفرصة متلهفاً ، وينتهزها للذبحهم ، مع أنه كان شيخاً ضعيفاً . إن الروايات القديمة لا تعرف شيئاً من هذا كله ، أما عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٥) فنجد أنه ، وهو على فراش الموت ، يشهد بأن أهم شىء عنده هو الإيمان بالله ورسوله[3] . وهو لم يتقدم للمهمة التى كلّفه بها يزيد ، بل هو لم يتقبّلها إلا كارهاً . ولم يكن يريد أن يبرد نار غضبه بمحاربة مدينة الرسول ،

---

(١) هذا خلط بين الحصين بن نمير السكونى من أهل الشام وبين الحصين بن تميم التميمى من أهل الكوفة ، وهذا يجعل وزر أولها أثقل ، راجع فيما يتعلق بشمر Schia p. 70 .

(٢) مثل الذى يحكى عن الحجاج — الطبرى ج ٢ ص ٨٢٩ س ١٥ . [من أنه رأى فى منامه أنه أخذ ابن الزبير فسلخه ، وأنه لذلك طلب من عبد الملك أن يبعثه إلى ابن الزبير — المترجم] .

(٣) [قال وهو يموت : « اللهم إنى لم أعمل عملا قط ، بعد شهادة أن لا إله إلا الله —

وإنما حاول ، حتى آخر لحظة ، أن يحافظ عليها ، بل إن من المشكوك فيه أن يكون بعد انتصاره قد أنهب المدينة للجند ثلاثة أيام . ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كريهة غير مألوفة(١) . كان مسلم خادماً مخلصاً لسيده ، وأخضع له الثوار ، وكان يقول : فيم غطفان من الخلع والخلافة ! وكان مسروراً أن المشكلة بالنسبة له ، كواحد من غطفان ، لم تكن موجودة . أما المطامح السياسية فقد تركها لأهل الفتنة والطامعين الذين كانوا عائذين بالمدينتين المقدستين ، وكان يرى أنهم انتهكوا حرمة الحرم وجعلوه بصنيعهم مُباحاً . وعلى هذا عمل ما عمل فى عزم المقتنع ، ومع مرور الزمن اعتُبر هذا منه إثماً منكراً ، وأصبح رمز الوثنية كما يبدو عند دوزى وموللر(٢) .

— وأن محمداً عبده ورسوله ، أحب إلىّ من قتل أهل المدينة ، ولا أرجى عندى فى الآخرة » — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٤٢٥] .

(١) كما يفترض دوزى ج ١ ص ١٠٧ — قارن الطبرى ج ٢ ص ٤١٨ س ١٨ .

(٢) [الحق أن مسلم بن عقبة كان قائداً حربياً فيه غلظة وجفاء ، وكان ، كما يصفه المؤلف ، خادماً من خدام الدولة يفكر بعقلها ولا يعرف غير ذلك . وهو من هـذا الوجه شبيه بالحجاج وزياد بن أبيه ، ولا شك فى صحة ما يقوله المؤلف من أنه كان حريصاً على عدم العنف ، لكنه بعد أن انتصر كان عنيفاً غليظاً جافياً ، فمن ذلك ما يحكيه الطبرى (ج ٢ ص ٤١٨ — ٤٢١) من أنه أمن رجلين من قريش ، فأتى بهما ، فقال لهما : بايعوا ! فقالا : نبايع على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله ! لا أقيلكم هذا أبداً . ثم قدمهما فضرب أعناقهما ، فلما اعترض مروان بن الحكم على قتل رجلين من قريش على هـذه الصورة نخسه مسلم بقضيب فى خاصرته ، ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة . ومن المناظر المؤلمة التى تتجلى فيها فظاظته ، أنه لما شخص عنده معقل بن سنان دعا بشراب . فقال له مسلم : أى الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل ، قال : اسقوه ، فشرب معقل حتى ارتوى ، ثم قال له : أقضيت ريك من شرابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والله لا تشرب بعد شراباً أبداً إلا الحميم فى نار جهنم ، أتذكر مقالتك لأمير المؤمنين : « سرت شهراً ورجعت شهراً وأصبحت صفراً ، اللهم غير ! » ، تعنى يزيد . ثم قدمه فضرب عنقه ، هذا مع أن معقل بن سنان كان صديقاً لمسلم قبل ذلك . ولما جاءه يزيد بن زمعة ، قال له مسلم : بايع ، قال : أبايعك على سنة عمر ، قال عقبة : أقتلوه ، قال : أنا أبايع ، قال : لا والله لا أقيلك عثرتك . فلما كلمه مروان أمر به فوجئت عنقه . وهكذا نجد مسلم بن عقبة يدافع عن الدولة وينتقم من الساخطين على يزيد . وكان يريد من الناس أن يبايعوا ، على أنهم خول ليزيد ، يحكم فى دمائهم وأموالهم —

ويواصل دوزى (ج ١ ص ١٠٨) غَزْل الخيط الذى ناطه إلى شجرة الغرقد فيقول : «كان عرب الشام قد سوّوا حسابهم مع أبناء المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم ، وكان الأشراف القدماء قد قضوا على الأشراف المحدثين . وكان يزيد ، بوصف أنه ممثل الأرستقراطية القديمة فى مكة ، قد ثأر لمقتل عثمان وللهزيمة التى ألحقها بجده أبى سفيان أهلُ المدينة تحت راية محمد [عليه السلام] . وكان ردُّ الفعل من جانب الوثنيين ضد الفكرة الإسلامية قاسياً لا هوادة فيه ، ولم يُشْفَ الأنصار قط من هذه الضربة ، وانكسرت قوتهم إلى الأبد . وظلت مدينتهم ، بعد أن كادت تخرب ، مأوى للكلاب حيناً من الدهر ، كما ظلت أرضها مأوى للوحوش . وذلك أن معظم أهلها أخذوا يبحثون لأنفسهم عن وطن جديد فى بلاد قاصية ، فانضموا إلى جيش أفريقية ، وظل الآخرون فى حال يُرْثَى لها ؛ وكان الأمويون ينتهزون كلّ فرصة لكى يُشْعِروهم ببغضهم واحتقارهم لهم ، لكى يضايقوهم ويجعلوا حياتهم مريرة » . ويأخذ المؤلف بهذه التصورات ، وهى تصورات ضالة تماماً ، ومعظمها خطأ تام .

أما الضربة الحقيقية فقد أصابت المدينة لما انتهت الخلافة الشرعية بمقتل عثمان وانتقلت الخلافة الجديدة إلى الأمصار . فأما الضربة الحالية فلم تأت بتغيرات

= وأهليهم ما شاء . وثم منظر آخر أهان فيه مسلمٌ عمرَو بن عفان ، وعابه هو وأمه ونتف لحيته . وأسخف من ذلك ما فعله مسلم بعلى بن الحسين ، مع أنه ابتعد عن الفتنة وكاتب يزيد وأوصى يزيدُ به ، فقد أخافه من غير أدنى مبرر ، حتى إنه ناوله مروان بن الحكم شراباً ، فقال له مسلم فى جفاء : لا تشرب من شرابنا ! فأرعدت كف على بن الحسين وأمسك القدح بكفه ، لا يشربه ولا يضعه ، ثم قال لعلى : إنه لولا ما أوصاه به يزيد لقتله . راجع أيضاً طريقته فى مخاطبة خليفته فى قيادة الجيش ، عند الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ . فلا يخرج مسلم عن أن يكون رجلا جافياً قاسياً وجلفاً غليظ القلب ، ولم يجعله مخلصاً للدولة وللخليفة إلا أنه كان ينتمى إلى قبيلة ضعيفة ليس لها شأن ؛ وهو من هذا الوجه يشبه كثيرين من عمال بنى أمية . ولولا أن المسألة مسألة حرب وسياسة يسودها العنف عند العرب لحق للمؤرخ أن يقول إن الإسلام لم يهذب شيئاً من طبع هذا الغطفانى الذى لم يكن على أى حال من أنبه العرب ولا أشرفهم ، وإنمـا كان قائداً فى خدمة الدولة ، ويجب عليـه أن يحافظ على سيادتها — المترجم] .

جوهرية ؛ فلم تخرب المدينة ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعد ذلك . وظلت المدينة ، كما كانت من قبل ، مدينةً مَرِحةً ومقراً لا للتراث الديني وحده ، بل لأرقِّ طوائف المجتمع العربي وأرقاها . ولذلك كان يفضّل الإقامةَ بها من يعتزلون الأعمال ويحبون أن يحيوا حياة اللهو ، كما صارت المدينة ملتقى المغنين والموسيقيين والطفيليين . وكل فصول كتاب الأغاني المتعلقة بهم تقدم لنا الشواهد على ذلك . ولنذكر منها ، بنوع خاص ، ما يقال عن أبي قطيفة وعن الأشعب وخصوصاً عن سكينة حفيدة الرسول الذكية المتحررة . وفوق ما تقدم ، فإن من الخطأ أن نتصور أن الأنصار كانوا وحدهم هم الذين أصابتهم عواقبُ وقعة الحرّة ، لأنه لايصرح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وحدهم هم أهل المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمان طويل لم تصبح مدينتهم ، وكانوا يقيمون فيها مع المهاجرة الذين كانوا يكافئون الأنصار في العدد ويزيدون عليهم في القوة . وكانت قريش بين هؤلاء المهاجرة تحمل المكان الأول ، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨ هـ إلى المدينة زرافات كثيرة ، وصارت عاصمة الدولة هي وطنهم الحقيقي ؛ وقد اشتركوا في الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار . وكان التمايز بين أشراف الإسلام وأشراف الجاهلية ، وقد كان على كل حال تمايزاً موجوداً بينهم ، قليل الشأن . ولم يكن ليزيد حزبٌ بين المدينة ولم يكن هو الممثل للأرستقراطية القديمة ، وإن كان ينتمي إليها ، وقد ألّفت الأرستقراطيةُ في الحجاز كله جبهة كاملة معارضة له ، كما ألّفت من قبل جبهةً معارضة لأبيه معاوية . فكانت قبائل مخزوم مثلاً ، وهي قبائل نابهة ، زبيرية الهوى تماماً بل لم يكن الأمويون في المدينة على علاقة طيبة مع يزيد ، ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار ، فمالوا إلى ابن الزبير ، وكان مسلم ابن عقبة مُحقاً في غضبه عليهم . فلم يكن في جانب يزيد إلا أهل الشام ، وقد ألّف منهم جيشاً من آلاف كثيرة ، ولكنهم كانوا يتقاضون

أعطيات كبيرة إلى درجة غير عادية . ولما كان هو نفسه غير ممتلئ النفس بالرغبة فى معاقبة الثوار ، بل كان يحاول أن يكتسبهم بالحسنى ، فقد أظهر حلماً كبيراً إزاءهم[1] . وكذلك لم يكن جنوده من أهل الشام متحرقين للقتال ، ولا شك أنهم كانوا يندهشون لو أنهم عرفوا ما ينسبه إليهم دوزى من أن حنقهم على « المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم » هو الذى استفزّهم للقتال . ولهذا فربما كان أهل العراق ، وهم ينتمون إلى أهل الردة ، أولى بكثير من أهل الشام بالحنق على أهل المدينة . أم هل كان أهل الشام ، مثل قبائل كلب ، هم الذين كانوا أكثر من استُنزفت دماؤهم ؟ إن دوزى يرسل لخياله وبلاغته العنان ، وهو بهذا قد أفسد تفكير من اتّبعه . أما الحقيقة البسيطة الثابتة فهى أن عربَ الشام ، شأنهم شأن غيرهم ، كان عليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به الإسلام ؛ على أن الأمر لم يكن أمر تغير دينى بقدر ما كان أمر تغير سياسى ، ولعل الانتقال كان فى أول الأمر غير محبوب لديهم ، ولكن لم يلبثوا أن تغلّبوا على ذلك لأنه كان لهم فى هذا التغير أكبر الفوائد ، لأن الإسلام جعل لهم نصيباً فى دولته وسيادته ، وهو قد وضع الدنيا تحت أقدامهم ، ولولا الإسلام ما كانوا ليصلوا إلى المكانة التى وصلوا إليها والتى احتلوها بعد ذلك . وعلى هذا فلا يمكن أن يكونوا لا يزالون حنقين على أولئك الذين ساعدوهم على بلوغ الغصن الأخضر الذى كانوا يجلسون عليه . وأبعد ما يكون من الصواب أن يُقال إن أهل الشام كانوا حنقين على المؤمنين القدماء — وهذه هى التسمية التى يطلقها ا، مولدّر على أهل المدينة — ذلك أن أهل الشام كانوا يتفقون مع أهل المدينة فى العقيدة والشريعة وفى العادات العامة والخاصة اتفاقاً تاماً ، وكان أهل

(١) [لما وصل إلى يزيد كتاب مروان بن الحكم يستغيث مما فعله أهل المدينة ببنى أمية الذين كانوا بها ، قال متمثلا :

لقد بدلوا الحلم الذى من سجيتى — فبدّلت قومى غلظــة بليان

وأمر بإعداد الحملة على المدينة — المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٦ — ٤٠٧] .

المدينة ، بطبيعة الحال ، أكثر حماسة لأداء الواجبات الدينية ، وكانوا خصوصاً أكثر كلاماً عنها ؛ ولكنهم لم يكونوا بوجه عام أولئك الشيوخ السذّج المتقشّفين المتعصّبين ، الذين يصفهم دوزى ؛ وإن تسميتهم « المؤمنين القدماء » ، وهو اصطلاح حديث ، لا يمكن أن تؤدى إلا إلى تصور معكوس للعلاقة بين تلك الأحزاب المتخاصمة . ذلك أن الخصومة ، بحسب أفكارنا التى ليست لها صبغة تيوقراطية ، كانت خصومة سياسية فحسب . فالمشكلة كانت مشكلة : مَن صاحبُ الحق فى الخلافة ؟ وقد زعم أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية ، وهم أبناءٌ لكبار الصحابة الستة القدماء ، مثل الحسين وابن الزبير ، أنهم أصحاب هذا الحق . وكان الرأى العام ، كما كانت غالبية قريش ، إلى جانبهم . ولا بدّ أن الأنصار كانوا يؤيدونهم ، كما أيدوهم فى الثورة على عثمان ، وذلك مِن جِهةِ أن المسألة كانت مسألة أن تَستَعيدَ العاصمةُ القديمة للدولة ما كان لها من سيادة . وتُوجَد بعض الدلائل على أن ابن الزبير هو الذى أرّث نار الثورة فى المدينة . وقد كان مسلم بن عقبة يعتبر المسألة كذلك . وكان السفيانيون فى دمشق يُعتَبَرون غاصبين ، ولم يؤيد الحكومة التى كان بيدها السلطان إلا أهلُ الشام ، وذلك دفاعاً عن مكان الصدارة الذى كان لولايتهم ، وهم لم يكونوا يأبهون لمسألة الحق الشرعى . غير أن مسألة الحق الشرعى هذه ، وهى فى نظرنا مسألة سياسية محضة ، كانت فى نظر الإسلام ، من حيث هو دولةٌ تيوقراطيةٌ ، جزءاً من الدين . وكان الذين يدعون الحق فى الخلافة يؤيّدون مطالبهم بمؤيّدات دينية . وكان يزيد يُعتَبَر غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً . ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن ، على ألسنة زعماء الحركة ، سوى ستار لما وراءها . أما الباعث الحقيقى لهم على الثورة فكان هو شهوة المجد والسيادة . وهم لم يكونوا يريدون خلع يزيد ، لأنه كان يشرب الخمر ويلهو ، بل لأنهم كانوا يأملون أن يتوصلوا إلى المنصب الذى كان

بختله ، ولذلك كان عند أهل الشام من الأسباب ما يبرر لهم أن يروا فى مسألة الحق الشرعى التى يثيرها خصومهم تمويهاً ونفاقاً يستر وراءه مسألة التطلع إلى السلطان[1] . وإلى هذا وحده يرجع ما اتهموا به خصومهم من النفاق ، وقد قابل خصومهم ذلك بأن اتهموهم بالانسلاخ من الدين .

وعوانة هو عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) أكبر الرواة لحصار مكة سنة ٦٤ هـ . فهو يقول إنه بعد موقعة الحرة ذهب «كلُّ أهل المدينة» إلى ابن الزبير فى مكة ؛ وهو لا يذكر إلا أفراداً من القرشيين بأسمائهم (ص ٤٠٤ س ٢٠ وص ٤٢٦ س ٨ — ١٠ وص ٥٢٨ س ١٢) . وكان خوارج اليمامة قد بادروا قبل ذلك ، تحت إمرة نجدة بن عامر ، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام[2] . وكان الحصين بن نمير قبل نهاية المحرم سنة ٦٥ هـ قد وصل إلى مكة فى جند الشام . ولم يوفَّق المدافعون فى أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام . وفى مساء السبت لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، الموافق السبت ٣١ اكتوبر سنة ٦٨٣ م ، قذف أهلُ الشام البيتَ بالمجانيق وحرقوه بالنار ، كما يقول عوانة .

ورواية عوانة هذه غير صحيحة . ولقد اشتعلت النار فى الكعبة حقيقة ، فاحترقت وانصدع الركن واسودّ ؛ ولكن أهل الشام لم يكونوا هم الذين أحرقوها . أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٥٢٨ س ١٧ — قارن ص ٥٢٩ س ٤) ، فهو يقول : «أحترق البيت» على البناء للمجهول ؛ ولا يذكر الفاعل . ويقول الواقدى (ص ٤٢٧) إن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير ،

(١) [يبالغ المؤلف فى نظرته للحوادث نظرة سياسية ، كأن الدولة ليست دولة دينية يرأسها الأكمل الأتقى — المترجم] .

(٢) إن التاريخ الذى يذكره أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) أسبق من الحقيقة . قارن Chavarig 29, Schia 75 وديوان الحماسة (ص ٣١٩ س ٢٢) .

أخذ قبساً فى رأس رمحه ، فطيَّرت الريحُ به ، فضرب أستارَ الكعبة ؛ ويقول المدائنى (الأغانى ج ٣ ص ٨٤) إن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك الشخص التعس الذى وقع منه ذلك . فيُحكى أنه لما حاصره أهل الشام سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه ، وكانت ليلةٌ ذات ريح شديدة صعبة ، وبرق ورعد ، فرفع ناراً على رأس رمح لينظر إلى الناس ، فأطارتها الريح ، فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها واستطالت فيها . وجهد الناسُ فى إطفائها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة تتهافت ، أما البيت الذى يستند إليه عوانة (ص ٤٢٦ س ١٥) فليس فيه ذكر النار ، بل هو ، بحسب ديوان الحماسة (ص ٣١٩) متعلق بمسألة أخرى ، هى حصار مكة فى عهد الحجاج (الطبرى ج ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها وص ١٥٤٢ س ٣) ؛ وفى أثناء هذا الحصار الثانى ضرب أهلُ الشام الكعبةَ ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة . وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد اختلط على عوانة ، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئاً من الغرض .

ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعيُ يزيد ، وقد كانت وفاته فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . ويقول الواقدى إن النعى وصل إلى مكة فى يوم الثلاثاء هلال ربيع الآخر سنة ٦٤ هـ ، أى بعد حرق الكعبة بسبعة وعشرين يوماً[1] . أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٥٢٩ س ٧) فهو يقول إن نعيَّ يزيد وصل لخمس عشرة ليلة مضت من ربيع الآخر . وأما عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٩ س ١٨) فيقول إن النعى لم يصل إلى مكة إلا بعد وفاة يزيد بأربعين يوماً . والرواية التى بحسبها يكون الخبر قد وصل فى أقصر مدة هى الأولى بالقبول . ويقول عوانة

(١) الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٧ س ٨) . ولا يتفق يوم الأسبوع مع يوم الشهر ، ويجب قراءة ٢٧ يوماً بدلا من ٢٩ عند الطبرى ، لأن حرق الكعبة ، بحسب اتفاق جميع الرواة ، وقع فى الثالث من ربيع الأول .

إن خبر موت يزيد بلغ ابن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام ؛ ولم يُرِدْ هؤلاء أن يصدّقوا أول الأمر ، حتى تأيّد لهم الخبر من جهة أخرى ، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض ابنَ الزبير . وكان الحصين يريد ، وهو لم يجد أمامه خيراً من ذلك ، أن يبايع ابنَ الزبير على الخلافة ، إذا قَبِل ابنُ الزبير إهدارَ الدماء التي أُريقت في المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكي تبقى الشام مقرّ الخلافة ؛ وقد قبل ابن الزبير الشرط الأول أخيراً ، أما الشرط الثاني فلم يقبله[1] ، وهو لم يكن أيضاً يستطيع قبوله إلا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي ، ولذلك تحطمت المفاوضات ورحل الحصين ، وقد بدا اليأس على جنوده ، لأنهم لم يكن لهم إمام بعد موت يزيد ، ولم يكونوا يعلمون من أجل من يقاتلون — وإلى هذا الحد كان اتخاذ الموقف السياسي مرتبطاً بالبيعة لشخص الإمام . ويروى أن بني أمية الذين كانوا في المدينة طلبوا من جند الشام أن يحملوهم معهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا في الحجاز يشعرون بأنهم آمنون على أنفسهم . ولكن رواية عوانة تنافي ذلك (الطبري ج ٢ ص ٤٦٩ س ٣) ، كما تنافيه أيضاً رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨١ س ١٠) والواقدي (ص ٤٦٧ س ١٠) ، فلم يخرج الأمويون باختيارهم ، وإنما أخرجهم من المدينة ابن الزبير ، وهذا ما يقوله أيضاً صاحب كتاب Continuatio Byz. Ar. § 29 فهو يقول :

Marvan insidiosc ab ipso Abdella ab Almedinae finibns cum omnibus liberis vel (=et) suis propinquis pellitnr

[أي : أخرج مروان من أرض المدينة غدراً مع أولاده أو (= و) أقربائه ، على يد عبد الله نفسه] .

---

(١) [لا شك أن ابن الزبير قد رفض الخروج إلى الشام ، وفي رواية أنه رفض إهدار دماء أهل المدينة ومكة . ويظهر أنه قبل الإهدار آخر الأمر ، ورواية الطبري غير صريحة تماماً — راجع ما دار بين الحصين وبين ابن الزبير عند الطبري (ج ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣٢) . ولم يكن ابن الزبير ، من حيث الأسلوب — بصرف النظر عن الموضوع — دبلوماسياً ، ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان لجوجاً (الطبري ج ٢ ص ٢٢٤ س ١٢) — المترجم] .

٣ — يقول أبو معشر والواقدى وإلياس النصيبى إن يزيد مات فى حُوّارين (قرب دمشق) يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، وهو الموافق يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر سنة ٦٨٣م[١]. ولما كان قد تولى الخلافة بغير حق شرعى ، وكان إلى جانب ذلك يحمل الإثم فى مقتل الحسين وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، فإنه لا يُذْكر بخير عند المسلمين . ولكن يزيد فى الحقيقة لم يكن من رجال العنف ، وكان يترك السيف فى غمده ما وسعه ذلك . وقد وضع حداً للحرب التى استمرت مع الروم سنين كثيرة . أما الذى يمكن أن يُعتاب عليه فهو قلة الهمة وقلةُ الاهتمام بالشئون العامة للدولة ، وكان ، خصوصاً وهو أمير ، لا يأبه لها ؛ وبذلك جعل ما كان يسعى إليه أبوه من تعيينه خليفة بعده مهمةً عسيرة ؛ وهو لم يشترك فى الحملة الكبيرة التى وجهت إلى القسطنطينية سنة ٤٩ هـ[٢] إلا كارهاً . ويظهر أنه بعد أن صار خليفة قد جمع همته بعض الشىء ، وإن كان لم يترك ، من أجل ذلك ، ما كان هواه قديماً من خمر وموسيقى وصيد ونحوه من أنواع الرياضة . وفى كتاب الصلة Continuatio § 27 يُقال عنه ما يأتى :

iucundissimus et cunctis nationibus regni eius subditis vir gratissime habitus, qui nullam unquam, ut omnibus moris est, sibi regalis fastigii causa gloriam appetivit, sed communis eum omnibus civiliter vixit[٣] . ومثل هذا الإطراء لم يُنقَلْ عن أحد ، وهو آتٍ من القلب :

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٤٢٨ س ٨ وص ٤٨٨ س ١٤ . أما ما يخالف ذلك (ص ٤٣٧ س ٣ وص ٥٠٦ س ٧) فهى أقوال خاطئة . ويذكر سنة ٦٣ هـ (ص ٤٦٨ س ١٥ ، قارن ص ٤١٢ س ٩) خطأ . ويذكر الزهرى والواقدى أن عمره كان ٣٨ أو ٣٩ عاماً ، ويذكر ابن الكلبى أنه كان ٣٥ عاماً — قارن .Nöldeke. DMZ. 1901, p. 683s

(٢) راجع مجلة Göttinger Nachrichten (١٩٠١ ص ٤٢٣) . ويبدو أن حضور يزيدَ القتال مرة تبين أنه شجاع وكفء (الأغانى جـ ١٦ ص ٣٣) [هـذا فى قيادته الحملة الصائفة على الروم ، وقد ضرب يزيد باب القسطنطينية — المترجم] .

(٣) [وترجمة هذا الكلام اللاتينى هى : « كان رجلا لطيفاً إلى أقصى حد ، وهو بعد أن أخضع جميع أمم مملكته أولاه الناس أحسن تقديرهم . وهو لم يطمح أبداً إلى أى مجد لنفسه —

يقول ابن عرادة ، وهو فى خراسان (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨) :

أَبَنِى أمية إنَّ آخر مُلْكِكُم   جَسَدٌ بِحُوَّارين ثَمَّ مقيمُ
طرقَتْ مَنِيَّتُهُ وعِنْدَ وِسادِه   كوبٌ وزِقٌّ راعفٌ مرثوم[١]

وقد بدا كأنما قد انهارت دولة بنى أمية لما مات يزيد ، فلم يؤيّدها أمراء الأمصار أيضاً . فعقد سَلْمُ بن زياد فى خراسان وعبيد الله بن زياد فى البصرة البيعة لأنفسهما ، وإن كانا قد فعلا ذلك حتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه . وكان طبيعياً أن ينال معاوية الثانى ، ابن يزيد ، وكان أبوه قد عينه خلفاً له ، اعتراف أهل الشام ، فى دمشق على الأقل . وقد أسقط عند توليه الخلافة ثلث الخراج « عن جميع أمصار مملكته »[٢] ، ولكنه مات بعد حكم قصير جدا . ويقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ — والبلاذرى ص ٢٢٩ س ٣) إنه تنازل عن الخلافة قبل موته : أما الواقدى (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) فلا يذكر شيئاً من ذلك . والأغلب أن رواية تنازله ترجع إلى محاولة تغطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بيت بنى أمية ، وهو فرع المروانيين ، قد أزال الفرع الأقدم ، وهو فرع السفيانيين ، عن الخلافة ظلماً وعدواناً ؛ وهذه المحاولة هى التى تفسر لنا أن معاوية الثانى لا يُذكر فى كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء ، بل الذى يذكرهو أن مروان جاء بعد يزيد مباشرة . ومثل هذا وقع فى قوائم التاريخ فى العهد القديم حيث يُغْفَل ذكر حكم اشبوشثا (Isboseth) ويُعتبر داود تالياً لشاول مباشرة[٣]

— بسبب ما كان يتمتع به من عظمة الملك ، بل عاش رجلا عادياً مع الجميع كأحد الرعايا » . والفضل فى ترجمة النصوص اللاتينية واليونانية فى هذا الكتاب يرجع إلى معاونة الزميل الفاضل العلامة الأستاذ أمين سلامة — المترجم] .

(١) ن : مرقوم .

(٢) راجع كتاب Cont. Byz. Ar, § 27 ؛ ومثل هذا الـ ἄφεσις [الإعفاء] كان عند تولى الملك عادة جارية .

(٣) قارن ما يقوله نولدكه (Nöldeke) فى Epimetrum zu Mommsens Ausgabe der Cont. Isidor. ، وفى مجلة DMZ. ١٩٠١ ص ٦٨٣ والصفحات التالية .

وفى حياة معاوية الثانى بدأت ، فيما يظهر ، الاضطراباتُ فى الشام ؛ وسننتقل إلى الكلام عنها . وقد جاءت هذه الاضطرابات من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون خصوصاً فى شمال الشام وفى الجزيرة على جانبى نهر الفرات (الطبرى ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤) وفى قنّسرين وقرقيسيا وحرّان . فيقال إن قبائل قيس كانت هى وحدها ، دون جميع أهل الشام ، هى التى امتنعت من مبايعة معاوية الثانى . وكانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية ، لأن أم كل منهما كانت كلبية (الحماسة ص ٣١٩ س ٢ ، ٤) . وكان لحسّان بن مالك بن بَحْدَل الكلبى خال يزيد مركزٌ قوى فى الدولة ؛ فكان كالمالك للأمر ، وكان العماد الأكبر لمعاوية الثانى ، وكان أخوه سعيد أميراً على قنّسرين . فرأت قيس أن إسناد الإمارة عليهم وفى مدينتهم إلى رجل من كلب أمر لا يمكن أن يطاق ، فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين . وقد فعلوا ذلك تحت إمرة زفر ابن الحارث الكلابى (الأغانى ج ١٧ ص ١١١) ، وكان زفر من قبل فى صفوف ابن الزبير يحارب يزيد (الحماسة ص ٣١٩ س ٢٢) . على هذا فقد كان زُبَيْرِىَّ الهوى ، وتبعته قيس بعد أن بويع لابن الزبير فى العراق المجاورة لأرض قيس . ولكن ابن الزبير كان له أيضاً بعض أجزاء الشام . وابن بحدل وحده — وهذه هى الصورة المختصرة لاسمه الكامل : حسان بن مالك بن بحدل — هو الذى ظل بعد وفاة معاوية الثانى متمسكاً بسلالة أخته ؛ ولكى يكون أقرب إلى دمشق ، فإنه خرج من فلسطين التى كان أميراً عليها وانتقل إلى الأردن . أما أمير حمص ، وهو النعمان ابن بشير الأنصارى ، ونحن نعرفه تماماً ، فقد بايع لابن الزبير . وفعل مثل ما فعل أيضاً ناتلُ بن قيس الجُذَامى ، فاستولى على فلسطين ، بعد أن تركها ابنُ بحدل . أما فى العاصمة ، وهى دمشق ، فقد كان الأمر فى يد الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان يقف موقفاً متأرجحاً وذا وجهين ، ولكن لما كان مُعَرَّضاً لخطر فقدان كلّ من الجانبين ، فإنه وجد نفسه آخر الأمر ،

مضطراً أن ينضم نهائياً إلى جانب ابن الزبير .

والأخبار متضاربة فيما يتعلق بتطور الحوادث حتى وقوع الصدام الدموى الحاسم فى موقعة مرج راهط . فيقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ فما بعدها) إن الأمويين الذين كانوا قد أخرجوا من المدينة ، وكذلك عبيد الله ابن زياد الذى فرّ من البصرة وكان أميراً عليها ، ذهبوا إلى دمشق ، ويظهر أن هذا كان بعد موت معاوية الثانى . وكان الضحاك ، وهو السيد فى دمشق ، يهوى هوى ابن الزبير ويدعو إليه سراً . وكان الذى يمنعه من إظهار هواه الحقيقى أن بنى أمية كانوا عنده . وبلغ ذلك ابنَ بحدل رئيس كلب الذين يَهْوَوْن هوى بنى أمية ورئيس اليمانيين ، فأراد أن يستخرج الثعلب من جحره ، فكتب إلى الضحاك كتاباً ليقرأه على الناس ، وفيه عظّم حقّ بنى أمية وحَسَّنَ بلاءهم عنده وصنيعهم إليه ، وذكر ابن الزبير ووقّع فيه واتّهمه بأنه منافق قد خلع خليفتَين ، وسرّح ابن بحدل بالكتاب مع رجل من كلب يدعى ناغِضَة . ودفع ابن بحدل إلى ناغضة نسخة أخرى من ذلك ليقرأها على الناس ، إنْ لم يقرأ الضحاكُ الكتابَ الذى أرسله ابن بحدل إليه . وكتب ابنُ بحدل إلى بنى أمية يأمرهم أن يَحْضُروا ذلك . فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك . فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر ، ولم يقرأ الكتاب ، فقام إليه ناغضة وطلب منه أن يقرأه ، فلم يفعل ، فأخرج ناغضة النسخة التى كانت معه وقرأها على الناس ، وكان من أثر ذلك منظرُ قتال هو المعروف بيوم جيرون[1] . فهاجت قيس وكلب بعضهم على بعض ، واقتتلوا فى المسجد . وانقسم الأمويون فى الجانبين . وقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ثم

---

(١) تسميته بيوم جيرون الأول تسمية غير صحيحة ، لأن ما يسمى يوم جيرون الثانى ليس سوى اختلاف فى قراءة النصوص (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ س ١٣ — ١٩) . وكانت جيرون بيتاً كبيراً قديماً . ويظهر أن ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة . ويسمى أحد الأبواب الكبيرة فى المسجد باسم باب جيرون — قارن الحماسة ص ٦٥٦ بيت رقم ٤ .

يزيد بن أبي النمس الغسانى ، ثم سفيان بن الأبرد الكلبي فأقرّ كلٌ منهم ما جاء فى كتاب ابن بحدل ، وأنكر عمرو بن يزيد الحكمى ما جاء فيه . وبعد الصلاة وثبت كلب على عمرو بن يزيد الحكمى فضربوه ومزقوا ثيابه . أما الضحاك فقد أمر بالقبض على المعارضين الذين هاجموا ابن الزبير ، وحبْسِهِمْ . ولكن قامت كلب وغسّان فأخرجوا رَجُلَيْهِم ، ولم يبق فى الحبس إلا الوليد بن عتبة ، لأنه لم يكن له قبيلة تخرجه ، ولقد قال : « لو كنتُ من كلب أو غسّان لأخْرِجت » ، فعند ذلك تدخل خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، وهما الأخوان الأصغران لمعاوية الثانى ، فجاءوا ومعهما أخوالها من كلب فأخرجوه من السجن .

وفى اليوم التالى ندم الضحاك على ما كان منه ، فبعث إلى بنى أمية واعتذر إليهم ، وقال إنه لا يريد شيئاً يكرهونه ، واقترح أن يكتبوا هم إلى ابن بحدل ويكتب هو إليه أيضاً ، فيسير ابن بحدل من الأردن إلى الجابية ، ويسير هو والأمويون حتى يوافوه هناك . ولكن الضحاك انقلب فى آخر لحظة ، بعد أن خرج الناس وخرجت بنو أمية ، وذلك أن ثَوْرَ ابن مَعْن بن يزيد بن الأخنس السلمى ، أحد رجالات قيس ، جاء إليه وكلمه قائلاً : دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرابى ، تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد ! » . وانتهى الكلام بأن مال الضحاك إلى ما اقترحه عليه ثورٌ من إظهار ما كان يُسِرُّه من طاعة ابن الزبير والدعوة إليه والقتال على ذلك . وعطف الضحاك من كان معه من الناس ، وسار بهم حتى نزل بمرج راهط ، قريباً من دمشق . وأظهر هناك البيعة لابن الزبير ، وبايعه على ذلك جُلُّ أهل دمشق ، من اليمن وغيرهم . وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير أمير حمص وإلى زُفَر بن الحارث أمير قنسرين وإلى ناتل بن قيس أمير فلسطين ، وكانوا جميعاً على طاعة ابن الزبير ، يستمدُّهم ، فأمدُّوه بالأجناد . أما بنو أمية فإنهم ذهبوا إلى ابن بحدل فى الجابية . وكانت

أهواء الناس في الجابية المختلفة[1] : وكان أمامَهم السفيانيون الذين كانت الخلافة حتى ذلك الحين في أسرتهم ، وكان يُمثّلهم بنو يزيد بن معاوية . وكان يقابلهم في الجانب الآخر الأكبر عدداً بقيةُ الأمويين ، وعلى رأسهم شيخُ بني أمية وكبيرُهم مروان بن الحكم . وكان هناك خلافٌ حول من تُعْقَد له البيعةُ : فكان ثمّ من يميل إلى خالد بن يزيد من أخواله الذين كانوا يأملون أن يَضَعَهُمْ على رقاب العرب وأن يتجنبوا شرّ مروان ، وكان هناك من يميل إلى مروان بن الحكم ، ممن لم يريدوا أن يبايعوا غلاماً حَدَثاً ، بل يريدون شيخاً يقف أمام بن الزبير . وقد انتهى الخلاف باقتناع ابن بحدل — وكان هو الوصي على أبناء يزيد — بمبايعة مروان . وأجمع الناس أيضاً على البيعة له ، على أن تكون الخلافة بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص . وكانت لأسرة عمرو بن سعيد هذا مطامع في الخلافة ، وكان لابد من إرضائها . وخرج مروان إلى مرج راهط ومعه أهل الأردن من كلب ، وأتتْهُ السكاسك والسَّكُون وغسّان وربع حسّان بن بحدل . وبينما كان الجيشان المتعاديان يعسكر أحدهما أمام الآخر ، وثب يزيد بن أبي النمس الغسّاني على دمشق في عبيدها ، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك بن قيس منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال . واستمر القتال في مرج راهط عشرين يوماً : وأخيراً هُزِمَتْ قيس وأهلُ الشام ، بعد أن قُتِلُوا مَقْتَلَةً عظيمة ، وقُتِل الضحاك ومعه ثمانون من أشراف الناس من أهل الشام ، كان كل منهم يأخذ

---

(١) كان من الأمويين فرع ، هو فرع العَبَلات ، وكان هذا الفرع نفسه ينقسم إلى العنابس والأعياص . وكان السفيانيون من العنابس ، وكانت معظم بقية الأسر الأموية من الأعياص . ومروان بن الحكم وابن عمه عثمان بن عفان كانا من بيت أبي العاص ، وكان عمرو ابن سعيد من بيت العاص ، وتتكرر الأسماء نفسها ، مع فوارق قليلة الشأن ، فيقال : أمية وعبد أمية ، العاص وأبو العاص — قارن الأغاني (ج ١ ص ٨ فما بعدها ، ص ٨٤ س ١٠ وج ١٠ ص ١٠٣ فما بعدها وج ٧ ص ٦٢ والطبري ج ١ ص ٢٥٣٥ .

القطيفة ، والذى كان يأخذ القطيفة كان يتقاضى عطاءً مقداره ألفا د، هم .

وإلى جانب رواية عوانة هذه تقف رواية المدائنى (الأغانى ج ١٧ ص ١١١) . لا يقول المدائنى شيئاً عن يوم جيرون ، وهو يحكى عن مروان شيئاً آخر . غير أنه يتفق مع عوانة فى آخر روايته اتفاقاً تاماً ، فيقول : إن مروان لما قدم إلى دمشق ، ومعه الأمويون الذين كانوا فى المدينة ، أقنعه الضحاكُ فى أول الأمر ، بالانضمام إلى ابن الزبير ، ورضى مروان بأن يتقدّم بنفسه على ابن الزبير ببَيْعَةِ أهل الشام ؛ ولكن عمرو بن سعيد ابن العاص وعبيد الله بن زياد ومالك بن هبيرة والحُصَيْن بن نمير[1] — والأخيران منهما من قبيلة سَكُون — أقنعوه بأن يقرر عقد البيعة لنفسه . فلما علم الضحاك بذلك رجع عن رأيه واعتذر لبنى أمية ، واقترح أن يذهب معهم إلى ابن بحدل فى الجابية ويشترك معهم فى اختيار الخليفة . فأقبل ابن بحدل فى أهل الأردن إلى الجابية . وسار الضحاك وبنو أمية فى أهل الشام إلى هناك أيضاً ؛ ولكن قيساً قبضت على الضحاك ، فى آخر لحظة ، وهو يصلى ، وقالت له : دَعَوْتَنا لبيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه الأمة ، فلما تابعناك خرجتَ تابعاً لهذا الأعرابى من كلب ، تبايع لابن أخته[2] ، تابعاً له ! فعند ذلك اضطر الضحاك أن ينقلب وأن يفعل ما أشاروا به عليه من إظهار بيعة ابن الزبير ، وسار حتى نزل مرج راهط .

وأقبل ابن بحدل حتى لقى مروان وسار إلى دمشق حيث انضمت إليهما اليمانيـة ، فساروا مع مروان حتى نزلوا المرج على الضحاك ، وهم نحو سبعة آلاف رجل ، والضحاك فى نحو من ثلاثين ألفاً ، وبدأ القتالُ فقُتِل الضحاك ، وقتل معه أشراف من قيس ، وأقبل زُفَر بن الحارث هارباً من وجهه إلى قرقيسيا ، وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة

---

(١) وفى رواية عوانة خلاف يسير — الطبرى ج ٢ ص ٤٧٤ ، وقارن ص ٤٨٧ .

(٢) هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع المقدمات ، وابن أخت ابن بحدل المقصود هو خالد ابن يزيد .

بنى مروان ، ثم أقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر بن الحارث ، فأقام معه ، وذلك بعد يوم خازر ، حين قُتِل عبيد الله بن زياد .

أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ فما بعدها) فهو يروى رواية مغايرة للملك تماماً ، فيقول إن مروان والأمويين الذين نفاهم ابن الزبير من المدينة ومكة ومن الحجاز كله لم يقصدوا دمشق ، لأن الضحاك كان أميراً عليها لعبد الله بن الزبير ، بل هم نزلوا تدمر ، المقر الرئيسى لكلب والنقطة الوسطى لتجَمّعهم . وبينما كان مروان على وشك أن يركب بنفسه إلى ابن الزبير ليبايعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبنى أمية ، إذ ظهر عبيد الله ابن زياد فى تدمر آتيا من البصرة ، فأشار على مروان بأن يأخذ البيعة لنفسه من أهل تدمر ويسير بهم وبمن معه من بنى أمية ، ويُخرِجَ الضحاكَ من الشام . ووافق عبد الله بن زياد على رأيه عمرُو بنُ سعيد . ثم أشار عمرو على مروان بأن يتزوج أرملةَ يزيد ليكون ابنها خالد فى حجره ، وكذلك حدث . فأخذ مروان البيعة لنفسه فى تدمر وسار بعد ذلك فى ستة آلاف رجل لقتال الضحاك ، وخرج الضحاك فى أهل دمشق ، وخرج معه زفر بن الحارث وغيره من أنصار ابن الزبير وساروا إلى مرج راهط ، فقُتِل الضحاك وعامة أصحابه فى المعركة ، وتفرق جيشه . فأما زفر بن الحارث فإنه أخذ وجهاً من تلك الوجوه هو وشابّان من سُلَيْم ، فجاءت خيلُ مروان تَطْلُبهُم ، فخاف الشابان السُلَمِيّان أن تدركهم جميعاً خيلُ مروان ، فقالا لزفر : يا هذا ! أنجُ بنفسك ، أما نحن فمقتولان ! وهكذا ضَحّيا بأنفسهما من أجله[1] . ثم لحق زفر بقرقيسيا ، واحتال على واليها حتى دخل المدينة ، ثم أخرجه منها وتحصّن هو بها . وأما ناتل بن قيس الجذامى أمير فلسطين ، فإنه خرج منها هارباً ولحق بابن الزبير فى مكة . ولما بلغ النعمانَ بن بشير أمير حمص خبرُ موقعة مرج راهط من أجناد حمص الذين

(١) وتشهد بذلك أبيات لزفر نفسه ، فهو صحيح — قارن كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣ فما بعدها .

انهزموا إليها ، خرج هارباً ليلاً ، ومعه أهلُه وولدُه وثُقْلُه . وتحيّر ليلته كلها ، وأصبح أهل حمص ، فطلبوه ولحقوه وقتلوه . وبعد هذا النصر أطبق أهلُ الشام كلهم على مروان واستوسقوا له ، واستعمل عماله على بلاد الشام .

والواقدى يقف فى موقف شبه وسط بين أبى مخنف من جهة وبين عوانة والمدائنى من جهة أخرى . ويمكن جمع روايات الواقدى المتفرقة عند الطبرى وتلخيصها على النحو الآتى : كان معاوية الثانى لما حضرته الوفاة قد أبى أن يستخلف أحداً (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) ، فبويع الضحاكُ مؤقتاً فى دمشق ، إلى أن يجتمع أمر الأمة الإسلامية (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨) . وكان الضحاك يعمل من أجل البيعة لنفسه ، ولكن قريشاً دفعوه إلى مبايعة ابن الزبير (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) ، وانضوى مروان تحت لواء الضحاك . ثم جاء الحصينُ بن نُمَيْر مع الأمويين الذين أخرجهم ابن الزبير من المدينة ، وأخبر مروان بخبر ابن الزبير ، وحثّه على أن يعمل هو وبنو أمية على إزالة ما هم فيه من اختلاف شديد وأن يقيموا أمرهم قبل أن يدخل ابن الزبير عليهم الشام فتكون فتنةٌ عمياء صمّاء . فكان من رأى مروان أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه . ولكن عبيد الله بن زياد قدم إلى دمشق ، لحسن الحظ ، وشدّ ظهر بنى أمية (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٧ فما بعدها) . وعند ذلك قصد مروان إلى الجابية ، لكى يتحالف مع ابن بحدل واليمانيين ، وهناك تلقى البيعة لنفسه باعتبار أنه شيخ بنى أمية وكبيرهم ، لأن أهل الشام لم يريدوا أن يبايعوا خالد بن يزيد ، لأنه كان غلاما حدثاً (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٢ فما بعدها) . وعند ذلك خرج مروان مع اليمانيين إلى دمشق ، وهُزِمت قبائل قيس عند مرج راهط فى سنة ٦٤ هـ ، وقُتِلَتْ مَقْتَلةً لم يُقْتَل مثلها فى موطن قط (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٣ س ١) .

وأهم النقط التى تختلف فيها هذه الروايات هى : لا يوجد ذكر ليوم جيرون

الذى كان فيه أول مَنْزَع للتوتر الموجود فى دمشق إلا عند عوانة ، ولا يُذْكر عند غيره قط . ويؤيده كتابُ الحماسة (ص ٦٥٦ بيت رقم ٤) تأييداً لايُدفَع ، والشارح يخطئ فى ذكر مناسبة ذلك (فهو يقول إنها كانت فى عهد معاوية الأول) ؛ وليراجع القارئ ، خلافاً لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٦٥٧ بيت رقم ٣) وينفرد أبو مخنف بالقول بأن الأمويين الذين أخرجوا من المدينة ذهبوا إلى تدمر ، ولقيهم هناك عبيد الله بن زياد ؛ وأبو مخنف يخالف فى ذلك جميع الرواة ، لأنهم يذكرون أن الأمويين توجهوا إلى دمشق[1] . على أن الواقع على كل حال هو أن ما حدث على مسرح جيرون حدث أيضاً فى دمشق وحضره بعض الأمويين (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ — ٤٧٢) . أما القول بأن جميع الأمويين الذين جاءوا من المدينة كانوا هناك فلا يظهر من وصف ما حدث ، ولا يُذكر مروان وعمرو ابن سعيد ، وهما لا يظهران حيث يُنْتَظَرُ أن يظهرا . ورغم هذا فإن رواية أبى مخنف قد جُعِلتْ أعمَّ مما كانت ، وذلك خطأ على كل حال ، لأن تدمر عند أبى مخنف لا تحل محل دمشق وحدها ، بل محل الجابية أيضاً . وهو يعتبر أن مبايعة مروان ، التى حدثت فى الجابية من غير شك ، حدثت فى تدمر . وربما كان ذلك لأن تدمر كانت المقر الرئيسى لقبائل كلب ولم تكن الجابية هى هذا المقر .

أما انقلاب مروان فلا يذكره عوانة على الإطلاق . وأما القول بأن مجىء عبيد الله بن زياد هو الذى أحدث هذا الانقلاب ، فهو ما يقوله أبو مخنف والواقدى ، وهما جديران بالثقة ، وخصوصاً أن المدائنى يوافقهما فيما يقولان (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩ ؟) .

ويقول عوانة والمدائنى إن الضحاك كان من أول الأمر يهوى هوى ابن الزبير ، وإن كان لم يجاهر بذلك : ويقول أبو مخنف إنه كان أميراً لابن الزبير

---

(١) انظر أيضاً كتاب Cont. Byz. Ar. § 29 .

على دمشق . ولكن أبناء الضحاك قالوا للواقدى (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) إن ذلك كذبٌ من جانب آل الزبير ، وإن الضحاك أراد أن يبقى محايداً لكى يصل هو إلى الخلافة ، وإنه لم يبايع ابن الزبير إلا كارهاً . ويستطيع الإنسان أن يصدق أبناء الضحاك . ويظهر أن الضحاك ، شأنه شأن مسلم بن عقبة ، قد احتفظ فى خلافة يزيد أيضاً بالمركز الذى كان له أيام معاوية ، وكان هو الساعد الأيمن لمعاوية ، وبعد أن انتهى ملك أسرة معاوية كان الضحاك هو الخليفة المؤقت فى دمشق ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه فوق الأحزاب ، وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير .

وكان الذى أخرجه عن الحياد هو بوجه خاص حسّان بن مالك ابن بحدل ، منافسه القديم وخصمه الخطر عندئذ . وكانت وراء حسّان قبائلُ كلب ، وظلّ حينا ينافح وحده عن راية بنى أمية بدفاعه عن حقوق أبناء يزيد ، وهم أبناء أخته . وقد انضم إليه أمَويّو المدينة فى ذلك ، ولكنهم لم يُقَدّموا فى أول الأمر مُرَشّحاً للخلافة من بينهم ، بل كانوا يعتقدون أنهم يجب عليهم أن يسالموا ابن الزبير ، مهما كان فى ذلك من خير أو شر ، ولم يغيّر رأيَهم إلا عبيد الله بن زياد ، ذلك أنه لما بيّن عبيد الله لمروان أنه ليس مضطراً أن يختار بين ابنى يزيد الغلامين القاصرين وبين ابن الزبير وحدهم ، بل يجب عليه أن يتقدم هو للرياسة ، كانت الوسيلة الوحيدة لذلك هى أن يتفاهم مع ابن بحدل لأن ابن بحدل هو الذى كانت فى يده دون غيره القوةُ الكافية (الطبرى ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤ — ٥) . ولتحقيق هذا الغرض تمّ الاجتماع فى الجابية ، ويظهر أن الضحاك كان قد وافق على أن يحضر الاجتماع ، وهو الذى وصل الاجتماع إلى غايته بعد مفاوضات طويلة . ومن المؤكد أن هذا الاجتماع وقع فعلاً ، وإن كان أبو مخنف لم يذكره ؛ ذلك أنه ما كان شيءٌ ليمكن أن يُعْمَل بدون ابن بحدل ، وظل ابن بحدل

يصلى بالناس فى الجابية أربعين يوماً ، وكان هو المنتصر الحقيقى فى مرج راهط[1] . يقول تيوفانيس فى أخبار حوادث سنة ٦١٧٥ :

Καὶ συναχθέντες οἱ Φοίνικες καὶ οἱ Παλααιστίνης ἐπὶ τὴν Δάμασκον ἔρχονται καὶ ἕως τοῦ Γαβιθᾶ πρός Ἄσαν ἀμηρᾶν Παλαιστίνης, καὶ δίδουσι χεῖρας δεξιὰς τῷ Μαρουὰμ καὶ ἱστῶσιν αὐτὸν ἀρχηγόν.[2]

أما المؤرخون المحدثون ، وعلى رأسهم دوزى ، فهم يتكلمون عن عداوة متأصلة بين كلب وقيس ، ويزعمون أنها ترجع إلى أزمان لا تعيها ذاكرة التاريخ ولا يمكن الوصول إلى عروقها . ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد فى الروايات السابقة على الإسلام . فالحقيقة هى أن العداوة لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل قيس إلى الشام[3] . على أن التمايز فى النسب بين قضاعة وقيس كان موجوداً من قديم ، ولكنه لم يصبح سبباً فى تسمم العلاقة بينهم إلا الآن . وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر ، لأن قضاعة كانت متوطنة فى الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة إلى هناك . ولكن الخصومة زادت حدة بوجه خاص لأن قبائل كلب أصبحت بفضل مصاهرتها

---

(١) قارن الحماسة ص ٣١٩ س ٧ :

وما الناس إلا بَحْدَلىٌّ على الهوى وإلا زُبَيْرِىٌّ عصى فتَزَبَّرا

ولكن قارن خصوصاً ص ٦٥٨ بيت رقم ١ — ٢

أَعَبْدَ المليك ما شكرتَ بلاءَنا فكُلْ فى رخاء الأمن ما أنتَ آكلُ

بجابية الُجولان لولا ابنُ بحدل هلكتَ ولَم ينطقْ لقومك قائلُ

(٢) [وترجمة هذا النص اليونانى هى : وبعد أن اجتمع أهل فينيقية وأهل فلسطين وذهبوا إلى دمشق ومنها إلى الجابية إلى الحسن أمير فلسطين بايعوا مروان ونصَّبوه خليفة — المترجم] .

(٣) وقد أصاب جولدزيهر (Muh. Studien I, 78) فى القول بأن التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يظهر حقيقة إلا فى الإسلام .

لمعاوية ويزيد قريبة من البيت الحاكم . وكان من أثر ذلك أن امتلأت نفوس قيس بالحسد ، لأنهم اعتقدوا أنهم قد زُحزِحوا إلى المرتبة الثانية ؛ ثم صاروا هم البادئين بالشرّ ، وذلك أنه لما ارتفع شأنُ ابن الزبير بعد وفاة يزيد ، انضمّوا إلى جانبه ، على حين حافظت كلب على ولائها للأمويين ؛ وهكذا امتزج الخصام القَبَلى بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هى بالإجمال الأحزاب السياسية التى كانت فى أصلها مستقلة عن القبائل . وفى موقعة مرج راهط ، إذا أخذنا بالقصائد القديمة التى قيلت فيها ، كانت قبائل سُلَيْم وعامر (هوازن) وذبيان (غطفان) — وكلها قبائل تنتمى إلى مجموعة قبائل قيس — يحاربون تحت إمرة الضحاك مع ابن الزبير : أما القبائل التى كانت تحارب لأجل مروان تحت قيادة ابن بحدل فكانت قبائل كلب وغسّان وسَكُون وسَكسك وتنوخ وطيّئ وقين ، وهذه المجموعة التى كانت تتألف من قبائل كلب[1] ، وهى القبيلة الرئيسية فى قضاعة ، كانت أكثر تنوعاً ، وهى تسمى أحياناً باسم شامل هو : اليمن . ولكن اعتبار قضاعة داخلة فى قبائل اليمن لم يكن قديماً ، ولم تنضم قبائل اليمن كلها فى الشام إلى قبائل كلب . وقد انتهت موقعة مرج راهط بانتصار كلب على قيس التى كانت أكثر من كلب ضعفين أو ثلاثة أضعاف . ولكن النزاع بين قيس وكلب لم ينته بذلك ، لأن قيساً كان لابد أن تثأر لقتلاها الكثيرين . وهنا ، لا قبل ذلك ، يبدأ على وجه أصح ذلك الخصامُ المرير المستمر الذى يعتبره دوزى ظاهرة قديمة جداً يردّها إلى الأزل ، مخالفاً فى ذلك للتاريخ مخالفة تامة .

---

(١) كانت سكون (من كندة) تعتبر أنفسها منهم (الطبرى جـ ٢ ص ٤٧٥ س ٢) . وكانت تنوخ وطيىء أيضاً مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً (الطبرى جـ ٢ ص ٤٨٤ س ١٢) . أما غسان (من الأزد) فكانت هى القبيلة القديمة الحاكمة من عرب الشام . وفى كتاب الحماسة (ص ٧١ بيت رقم ٣) تسمى قبائل كلب باسم تغلب ، إذا صح ما جاء فى الشرح .

وكان البغض الناشئ عن اختلاف الدم يتجدد فى كل مناسبة يجد فيها ما يشفيه ، وهو قد كان يُلهب نيرانَ العداوة ، حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية ، وبعد أن نُسيت ، بزمان طويل . والوزن فى ذلك يرجع إلى موقعة مرج راهط ؛ وفى هذا ينحصر شأنها الخطير وما جرّته من كوارث ؛ فلقد جاءتْ للأمويين بالنصر ، ولكنها فى الوقت نفسه زعزعت أسس ملكهم :

وتلقى مروانُ البيعة فى الجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، الموافق الأربعاء ٢٢ يونيه سنة ٦٨٤ م . بعد موقعة مرج راهط (آخر عام ٦٤ هـ) جاءت بيعةٌ أخرى كانت ذات صبغة أعمّ وأقوى احتفالاً ، وذلك فى دمشق فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، الموافق يوليه — أغطس سنة ٦٨٤ م .

وقد وصل مروان ، بفضل إخراجه من المدينة ، إلى عرش دمشق دون فضيلة اختص بها[1] ، بل ودون أن يكون هو نفسه قد أراد ذلك أو حدّث نفسه به . وقد بدا هذا لصاحب كتاب Cont. Byz. Arab . شيئاً عجيباً ، وله أن يعجب ؛ فهو يقول[2] :

---

(١) [الحقيقة أنه بعد موت يزيد وتنازل معاوية الثانى ثم موته لم يبق من بيت أبى سفيان سوى غلامين حدثين ، هما خالد وعبد الله ، ابنا يزيد . وكانت تلوح على خالد — الذى اتجه إلى دراسة الحكمة فيما بعد — علامات الذكاء ، ولكنه كان حدثاً لا يمكن اختياره للخلافة أمام ابن الزبير . ولم يكن هناك من بيت النبى نفسه أحد بعد قتل الحسين ووفاة الحسن ، وقد استعرض روح بن زنباع الجذامى الموقف فى خطبة له (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٥ — ٤٧٦) عند تنوّع الأهواء حول المرشح للخلافة ، فوجد أن عبد الله بن عمر ، الذى ذكره البعض ، رجل ضعيف لا يصلح لقيادة الأمة المحمدية ، وأن ابن الزبير ، رغم مكانته ، منافق خارج على الأمة ، قد سفك دماء المسلمين ؛ فلم يبق إلا مروان بن الحكم . ويذكر عند الطبرى فى مواضع أخرى ، ما كان لمروان من سن وتجربة ، وما كان مسلماً له به من أنه شيخ بنى أمية وكبيرهم . وإذن فلم يكن انتخاب مروان جزافاً ، بل كان لأنه لم يكن فى بيت بنى أمية من يصلح للخلافة غيره ؛ ولولا تعيينه خليفة اتفقت عليه كلمة أهل الشام الذين كانوا عماد الدولة العربية ، لتعرضت هذه الدولة لأعظم الأخطار . أما إنه لم يكن يطمح فى الخلافة فهذا صحيح — المترجم] .

(٢) [وترجمة هــذا النص اللاتينى هى : وشاءت إرادة الله أن يعتلى مروان العرش (بعد أن كان قد أخرج غدراً من المدينة) بعد فترة طويلة من الزمان ، وذلك بفضل جماعة من الجيش اتفقت على ذلك — المترجم] .

Marvan (insidtose ab Almidina pulsus) post modica temporis intervalla aliquantis de exercitu consentientibus deo conivente provehitur ad regnum.

وهكذا بقيت الخلافة فى بيت بنى أمية ، ولكن المروانيين أزاحوا السفيانيين عنها[1] ؛ وكان زواج مروان من فاختة[2] أرملة يزيد ، أشبه بأخذ الميراث منه بأن يكون زواجاً ومصاهرة . وقد آلم مروان بذلك نفس خالد بن يزيد[3] ، الذى أصبح فى حجره ، ألماً شديداً . وكان مروان لا يألو جهداً فى إسقاط خالد من أعين الناس (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧) ؛ وأخيراً حرمه مما كان قد وعده به فى الجابية من أن تكون له الخلافة بعده ، فأخذ البيعة لابنيه : عبد الملك وعبد العزيز ، على أن يكون عبد العزيز بعد عبد الملك[4] . ولم يعارض ابن بحدل فى هذا النكث بالعهد ، وربما كان ذلك لأن من شأن هذا النكث أن يُنَحِّيَ عمرو بن سعيد بن العاص أيضاً ، لأن مروان كان شيخاً قد كَبِرَتْ سِنُّهُ ودقّ عظْمُه ، وكان لا يُنْتَظَرُ له أن يعيش طويلا ؛ وكان خالد بن يزيد ، بحسب رأى العرب ، لا يزال صغيراً لا يصلح لتولى الخلافة ، وعلى هذا كان مآل الخلافة إلى عمرو بن سعيد ، وكان عمرو واثقاً من ذلك . ولكن فاختة انتقمت لابنها خالد من غدر مروان وتعمُّده إسقاط خالد فى أعين الناس ، فغطّته بالوسادة وهو فى سريره حتى قتلته ، وهذا ما يرويه الواقدى (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦ فما بعدها) ؛

٤ — ومات مروان بن الحكم ، بحسب رواية الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ س ١٧) ، فى رمضان ، وبحسب رواية الطبرى أيضاً (ص ٥٧٦ س ١٦) فى

---

(١) قارن ما تقدم ص ١٦٦ — ١٦٧ و ١٧٥

(٢) لم تكن فاختة فى رأى ا . مولر A. Müller, I, 375 بدوية أبية ، وإنما كانت قرشية [كيف وقد تقدم أنها كانت أخت ابن بحدل ، سيد كلب — المترجم] .

(٣) راجع البيت المذكور عند ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٥ ، وقارن ص ٢٩٦ س ٨ .

(٤) راجع فيما يتعلق بزمان هذه البيعة ومكانها كتاب أنساب الأشراف (ص ١٥١ ، ١٦٤ فما بعدها) .

هلال رمضان . وبحسب ما يقوله إلياس النصيبي في يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ ، الموافق الأحد ٧ مايو سنة ٦٨٥ م . وتختلف الروايات في عمره عند الطبري (ج ٢ ص ٥٧٧ فما بعدها) بين ٦١ و ٨١ عاماً بحسب الأقل والأكثر . ويقول تيوفانيس إنه حكم تسعة أشهر ، ويقول الطبري إنه حكم تسعة أشهر أو عشرة . ويذكر في كتاب Contin. Byz. Ar. § 29 أنه مات بعد عام مملوء بالحروب ؛ وإني أضم هذه الحروب إلى حروب ابنه وخليفته عبد الملك ، لأنها ليست إلا البداية ، ولأن الحدود بين حكميهما لا يمكن وضعها في كل الأحوال وضعاً دقيقاً[1] .

وكانت أكبر حرب هي الموجهة إلى ابن الزبير ، وعلى الأقل إلى الولايات التي كانت قد بايعت له وكان عليها أمراء من قِبَلِه[2] . وعاد الموقف في الجملة إلى ما كان عليه بعد مقتل عثمان . فوقفت الشام وحدها أمام جميع البلاد الإسلامية ؛ غير أن سيد الشام عند ذلك لم يكن واثقاً من ولائها له ثقة معاوية من قبل . وبعد موقعة مرج راهط انضمت فلسطين وحمص ، من غير تردد ، إلى الجانب المنتصر . وسلّمت قنسرين أيضاً . ولكن قبائل قيس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها وكان سيّدُها زفر بن الحارث في قرقيسيا . ورغم هذا ظهر مروان وعبد الملك من أول الأمر مهاجِمَيْن لابن الزبير ، وربما كان ما على ابن الزبير أن يواجهه من اضطرابات في الداخل ، خصوصاً في العراق ، أشد عليه من هجوم مروان وعبد الملك[3] .

وبعد أن اجتمع لمروان أمرُ الشام سار إلى مصر ، وأخذ البيعة فيها لنفسه ؛

---

(١) والحدود المرسومة عند الطبري (ج ٢ ص ٥٥٨ س ١٤ ، ٥٧٨ س ٩ ، ٧٠٨ س ٤) خطأ من غير شك .

(٢) قارن فيما يتعلق بخراسان الطبري ج ٢ ص ٨٠٦ ، ٨٣١ فما بعدها ، وقارن الفصل الثامن فيما يلي .

(٣) قارن فيما يتعلق بما يأتي : Schia, p. 79ss. Chavârig, p.37ss. .

ثم أقبل راجعاً إلى دمشق ، حتى إذا دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه الأصغر مصعب بن الزبير نحو فلسطين ؛ فسرّح إليه مروانُ عمرو بن سعيد فى جيش فهزمه[١] . غير أن محاوَلةَ مروان أراد بها استرداد المدينة باءت بالفشل[٢] ، ووجّه مروان عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لكى يعبر إلى العراق التى كانت قد مزقها النزاع بين الأحزاب الدينية السياسية . ويروى أن مروان وعد عبيد الله بأن تكون له جميع البلاد التى يغلب عليها وأنه أمره إذا هو غلب على الكوفة أن ينْهبهَا ثلاثة أيام (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٨ و٦٤٢) . وفى أول هذه الحملة ، عندما كان عبيد الله لا يزال عند جسر منْبج على الفرات . كانت مقتلةُ شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان ابن صُرَد عند عين وردة ، وكان قتلهم على يد الحصين بن نمير قائد عبيد الله ابن زياد يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، الموافق الجمعة ٦ يناير سنة ٦٨٥ م (الطبرى ج ٢ ص ٥٥٩ س ٤ ، ٢٠) . ثم اضطر عبد الله أن يشتغل عند ذلك بقتال زُفَر بن الحارث ومن معه من قيس نحواً من سنة[٣] ، وبعد ذلك تقدّم سائراً مع طريق الجيوش العادى إلى العراق قاصداً الموصل ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه المختار الثقفى قد استولى على الكوفة . وانحاز أمير الموصل من قِبَل المختار إلى تكريت (الطبرى ج ٢ ص ٦٤٣) ، فهزم عبيدُ الله الجيشَ الأول الذى وجهه إليه المختار ، بعد قتال عنيف ، وذلك فى العاشر والحادى عشر من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، الموافق ٩ و١٠ يوليه سنة ٩٨٦ م (الطبرى

---

(١) الواقدى عند الطبرى ج ٢ ص ٤٦٧ س ١٠ ، وأبو مخنف ص ٤٨١ ، وعوانة ص ٥٧٦ ؛ وقد تم ذلك على يد عمرو بن سعيد ، قبل أن يأخذ مروان البيعة لولديه — راجع كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ س ١٧ .

(٢) عوانة عند الطبرى ج ٢ ص ٥٧٨ فما بعدها وص ٦٤٢ ، راجع أيضاً كتاب أنساب الأشراف ص ١٥٥ س ٢ ، ١٨٠ س ٢ . وكان يوسف الثقفى والد الحجاج مشتركا فى ذلك ، وهذا بحسب حكاية ابن قتيبة ص ٢٠١ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٤٦٣ ، ويعتبر فان جيلدر (Van Gelder فى كتابه Muchtar, P. 96, 152) أن هذا خطأ ، دون أن يبدى الأسباب الكافية لما يقول .

ج ٢ ص ٦٤٦ وما يليها) . ولكن عبيد الله لم يلبث أن هُزِم بعد ذلك أمام جيش ثانٍ للشيعة يقوده إبراهيم بن الأشتر ، وذلك فى موقعة خازر ، فى أول سنة ٦٧ هـ [1] ؛ وقُتل عبيد الله نفسه كما قُتل الحصين بن نمير أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ٧١٤ س ١ — ٣) . وكان طبيعياً أن ترفع قيس رأسها من جديد فى قرقيسيا ، وشدّت من أزرهم رجالٌ من قبائلهم ، جاءوا تحت إمرة عُمَيْر بن الحباب ، وكانوا من قبل يحاربون فى جيش الشام ، ولكنهم انفصلوا عنه فى أثناء موقعة خازر أو بعدها . وذهب العمل الذى قضى عبيد الله قرابة عامين فى تحقيقه سدًى ، وكان لا بد أن يُعمَل من جديد . وكان من حسن حظ عبد الملك أن مصعب بن الزبير ، وكان أميراً لأخيه على العراق ، قد ضايقه الشيعة والخوارج فى إمارته نفسها ، فلم يكن يستطيع أن يفكر فى الشروع فى حرب خارج العراق .

وكان لابد أن يمضى زمانٌ طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التى فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أعنى إخضاع العراق التى كان يحكمها مصعب مستقلا بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات فى الداخل ، لأن نائلَ بن قيس ، فيما يظهر ، بدأ يتوثب من جديد [2] . ولكن الذى عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأخذوا يحرضون الجراجمة (die Mardaiten) فى جبال اللكام (Amanus) على العرب [3] ؛ ولكن مصعباً قُتل فى سنة ٧٢ هـ ، وانتهت الحرب الأهلية فى سنة ٧٣ هـ . وفيما

---

(١) أغسطس سنة ٦٨٦ م . وقد نبهنى دى غوى إلى التاريخ الدقيق الموجود فى كتاب التنبيه والإشراف المسعودى ص ٣١٢ س ١٧ [هو يوم عاشوراء سنة ٦٧ هـ — المترجم] .

(٢) راجع اليعقوبى ج ٢ ص ٣٢١ والمسعودى ج ٥ ص ٢٢٥ ، لكن ربما لا يكون هنا سوى خطأ فى تاريخ السنة .

(٣) Göttinger Nachrichten 1901, p. 428ss. ، [وجاء عند اليعقوبى ص ٣٢١ ، أنه لما أراد عبد الملك النهوض إلى محاربة نائل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طاغية الروم قد أناخ على المصيصة ، فكره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان ، فوجه إليه فصالحه وحمل إليه أموالا كثيرة — المترجم] .

يتعلق بالمدة بين سنة ٦٧ هـ ، التى قُتل فيها عبيد الله بن زياد ، وسنة ٧٢ هـ نجد الروايات ناقصة . والمهم هو تحديد أزمنة الحوادث ، وهى لا تزال مضطربة اضطراباً تاماً . ويجب ألا يعزب عن البال أن نقطة الانتقال من عام إلى عام ، بحسب التاريخ الهجرى ، كانت تقع فى ذلك الوقت فى الصيف وأن الحوادث التى كانت تتوقف فى الشتاء عادة (الطبرى جـ ٢ ص ٧٩٧ س ١٠) كانت تنقسم بين سنتين من سنى الهجرة ، على حين أنه لا تذكر فى تحديد تواريخ الحوادث إلا سنة واحدة .

ومن السهل أن نفهم لماذا ترك عبدُ الملك مصعبَ بن الزبير يحارب المختار فى سنة ٦٧ هـ ، وأنه لم يُزعج أهل العراق ، وهم يقتتلون ويفنى بعضهم بعضاً . ويذكر الطبرى (جـ ٢ ص ٧٦٥) وإلياس النصيبى أنه كان فى الشام قحطٌ شديد فى سنة ٦٨ هـ وبسببه لم يقدر أهلها على الغزو . ويتكلم تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٧٩ = ٩٩٨ من حكم السلوقيين = ٦٨ هـ) عن ذلك أيضاً . أما المدائنى (الأغانى جـ ١٧ ص ١٦١ س ٢٦) فليس على حق فيما يقوله خلافاً للملك ، وهو يضع المجاعة فى سنة متأخرة عن ذلك بعض التأخير .

ويقول رواةُ العرب وإلياس النُّصَيْبى[1] إن أول خروج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير كان فى صيف سنة ٦٨٩ م = ٦٩ — ٧٠ هـ . وكان معسكره ونقطة تجمع جيشه وقاعدة تدبير عملياته الحربية فى بُطْنَان حبيب من أعمال قنسرين ، فى هذه السنة وفى السنين التالية[2] . أما مصعب فكان معسكره فى

---

(١) إن ترتيب الأحداث العربية فى هذه السنين مضطرب عند تيوفانيس اضطراباً تاماً ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما يقوله عن زياد (= ابن زياد) والمختار وسعيد (= ابن سعيد) وعن مصعب إلا بعد إصلاح ترتيب الحوادث من حيث الزمان .

(٢) إن الرواية القائلة بأن عبد الملك كان مع الجيش فى بطنان حبيب منذ سنة ٦٧ هـ تخالف الرواية المتقدمة عليها التى تقول إنه فى هذه السنة لم يستطع أن يغزو بسبب القحط . وإنما تذكر هنا كلمة « بطنان » بمناسبة ما يحكى من أنه فى ذلك الوقت كان تحت أقدام الجيش بطنان الوحل ، وذلك بسبب المطر الذى نزل بعد الجفاف . وسبب التسمية لا بد أنه كان يرجع إلى أحوال دائمة لا إلى ظروف طارئة ، كما قيل عن هاربورج Harburg فى إقليم Landdrestei Lüneberg إنها هاربورج الوحل Dreck-Harburg .

باجُمَيْرا ، عند تكريت(١) ؛ وكل من المعسكرين كان ثغراً ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق . أما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العَدُوَّيْن ، غير أنها كانت أقرب إلى أن تكون فى يد مصعب منها إلى أن تكون فى يد عبد الملك ، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضاً إلى جانب مصعب . ولكى يكفى عبد الملك نَفْسَه خطرَ الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة (٢) ؛ ولكن عمرو بن سعيد بن العاص ثار فى دمشق وتحصّن بها ، يريد الحصول على ما صار له فى معاهدة الجابية من حق فى الخلافة وحرمه منه مروان بنقضه هذه المعاهدة . فصار عبد الملك مُهَدَّداً من خلفه ، واضطر إلى أن يقفل راجعاً لدرء هذا الخطر ، فأعمل السيف وقتل أعداءه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٥) ، وقتل بيده عمرو ابن سعيد بن العاص على نحو فيه غَدْرٌ وقسوةٌ منكرةٌ . والروايات (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها وص ٧٩٦ وكتاب أنساب الأشراف ص ٢٥) تضع بعض هذه الحوادث فى سنة ٦٩ هـ ، وتضع بعضها الآخر فى سنة ٧٠ هـ ؛ ولكن لا يصح أن يُخدع الإنسان بهذا فيعتبرها منفصلة ، لأنها فى الحقيقة متصلة وقد وقعت فى صيف واحد . والروايات مضطربة أيضاً فيما يتعلق بالمدى الذى ذهب إليه عبد الملك بالفعل فى حملته نحو الشمال الشرقى . فيقول الواقدى (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣) وإلياس النصيبى إنه رجع من عند عين وردة ، ولكن الواقدى نفسه (الطبرى ج ٢ ص ٧٩٦) يقول إنه لم يكن قد تجاوز بطنان حبيب . ويظهر أن عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها) يأخذ بالرواية

---

(١) يقول ياقوت (ج ١ ص ٦٦٤) إن عبد الملك أيام حربه مع مصعب بن الزبير كان يشتو فى بطنان حبيب ، وإن مصعبا كان يشتو فى مسكن . وكان لمسكن نفس الأهمية الجغرافية العسكرية تقريباً التى لباجُمَيْرا – قارن البلاذرى (ص ١٤٩ س ٨) .

(٢) راجع Götting. Nachrichten 1901 p. 488 [ويقول الطبرى ج ٢ ص ٧٩٦ ، إن عبد الملك صالح ملك الروم على أن يحمل إليه فى كل جمعة ألف دينار ، وذلك خوفاً منهم على المسلمين – راجع هامش صفحة ١٨٢ – المترجم] .

الأخيرة ؛ وهو يقول إن عبد الملك كان فى طريقه إلى محاربة زفر بن الحارث فى قرقيسيا[1] ، ولكنه اضطر أن يرجع لأن عمرو بن سعيد — بعد أن كان قد رافق عبد الملك إلى البطنان — رجع خفية هو وآخرون إلى دمشق ، واستولى عليها ، ونجد مثل هذا عند اليعقوبى (ج ٢ ص ٣٢١ فما بعدها) .

وفى السنة التالية ، سنة ٧٠ — ٧١ هـ = صيف ٦٩٠ م ، أعيدت الحملة ؛ وفى هذه المرة أيضاً لم يشتبك الخصمان . وبينما كان مصعب فى الميدان (الطبرى ج ٢ ص ٧٩٨ — ٨٠٣) دبّر عبد الملك ثورةَ قبائل كلب أو ربيعة (وهم المسمون الجُفْرِيّة) فى البصرة ؛ وقد اشترك فى قتال مصعب وزفر رجلان من تلقاء أنفسهما ، ولم يكن ناشئاً عن المحبة لعبد الملك بمقدار ما كان ناشئاً عن البغض لمصعب بن الزبير : وهما عبيد الله ابن الحرّ الجعفى من أشراف الكوفة (الطبرى ج ٢ ص ٣٠٥ و٣٨٨ فما بعدها و٧٦٥ فما بعدها) وعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكرى من أهل البصرة ، وكان شجاعاً مقداماً ومن أفتك الناس (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٠ و٨٠٧ — ٨١٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ و ٢٦٨ وكتاب الأغانى ج ١١ ص ٦٢) .

ولم ينته هذا اللقاء إلى شىء . يقول الطبرى فى حوادث سنة ٧١ هـ (ج ٢ ص ٧٩٧) إن عبد الله خرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير . ثم يذكر ما كان يقال من أن عبد الملك كان لا يزال يقرب من مصعب حتى يبلغ بطنان حبيب ، وأن مصعباً كان يخرج إلى باجميرا — فكانت المسافة بينهما غير كبيرة — ثم يهجم الشتاء ، فيرجع كل واحد إلى موضعه ؛ ثم يعودان ، ويمكن الشك فيما إذا كان ما يقال هنا من خروج عبد الملك مجرد تكرار خطأ لما كان

---

(١) وفى كتاب الحماسة (ص ٦٥٨ بيت رقم ٦) ذكر هجوم قيس على البطنان ، وأن الفضل فى رد هجومهم لقبائل كلب .

قد وقع في سنة ٦٩ — ٧٠ هـ . وثورة الجفرية التي يذكرها الطبري في حوادث سنة ٧١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٨١٣ س ١١ وما بعدها) كانت قد وقعت بحسب ما جاء عند الطبري نفسه (ج ٢ ص ٧٩٨ س ٥) في سنة ٧٠ هـ . ويظهر أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) يضع هذه الثورة في نفس الوقت الذي يضع فيه ثورة عمرو بن سعيد في دمشق ؛ ولكنه على كل حال لا يذكر تاريخ الحملة الأخيرة الحاسمة ، فيجعلها سنة ٧٠ — ٧١ هـ (الطبري ج ٢ ص ٨١٣) .

وعلى هذا فلا يمكن في الجملة إلا القول بجملتين . ولكن الإنسان مع هذا لا يظفر بحقيقة الأمر ؛ وهذا يتبين ، كما سنرى ، إذا حسبنا تاريخ الحوادث من أواخرها . ولكنه يتبين أيضاً من الدلائل المباشرة ؛ ففي بيت شعري من ذلك العصر (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ والمسعودي ج ٥ ص ٢٤١) يخاطب مصعبٌ هكذا :

أكلَّ عام لك باجُمَيْرا تغزو بنا ولا تُفيد خيرا

وفي بيت آخر (الطبري ج ٢ ص ١٠٣٨ س ٤) ذُكرُ كلمة باجميرا في صيغة الجمع ، أعني باجميرات . والمقصود هو جمع الزمان لا جمع المكان . أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) فهو يصرح بذكر ثلاث حملات في ثلاث سنين متوالية ، ويروى أنه لما كانت سنة ٧٢ هـ استشار عبد الملك رجالاً في المسير إلى العراق ومناجزة مصعب ابن الزبير ، فقال عبد الرحمن بن الحكم : يا أمير المؤمنين ! قد واليتَ بين عامين ، تغزو فيهما ، وقد خسرْتَ خيلك ورجالك ؛ وعامُك هذا عامٌ حاردٌ ، فأرِحْ نفسَك ورجالك ، ثم ترى رأيك . وقال له يحيى ابن الحكم — وكان عبد الملك يقول : من أراد أمراً فليشاور يحيى بن الحكم ، فإذا أشار عليه بأمر فليعمل بخلافه — : أرى أن ترضى بالشام وتُقيمَ بها ، وتدعَ مصعباً بالعراق ، فلعن الله العراق ! وقال له محمد بن مروان :

أرجو أن ينصرك الله ، أقمتَ أم غزوتَ ، فتشمَّرْ ! فإن الله ناصرُك ،
فاستعدَّ عبد الملك للمسير ، وخرج لقتال مصعب ، فجاءت له السنة الثالثة
بالنصر الحاسم .

وكان ذلك في صيف سنة ٦٩١ م = ٧١ - ٧٢ هـ ، وقضى عبد الملك
الشطر الأكبر من هذا الصيف في إخضاع أرض الجزيرة . وقد استسلم زُفَرُ
ابنُ الحارث في قرقيسيا بعد حصار طويل ، أما ابنه الهذيل فقد اضطر إلى
أن يلحق بعبد الملك في حروبه[1] . ونجد الأخبار المفصلة في هذا عند ابن
الأثير (ج ٤ ص ٢٧٥ فما بعدها) ، وعنده توجد أيضاً أخبار غَزْوٍ
لقرقيسيا قام به قبل ذلك ، بأمر من عبد الملك ، أبانُ بن عقبة بن أبي
معيط ، أمير حمص ؛ ولكنه لم ينته إلى شيء . وبحسب هذه الأخبار لم يستسلم
زُفَر أمام جيش كلب وقضاعة ، بل هو انضم إلى عبـــد الملك طوعاً
واختياراً ، بعد أن أعطاه عبدُ الملك الأمانَ . ولا شك أن هذا من إملاء
روح الفخر الكاذب عند قيس ؛ فهي تريد ، بعد أن انهزمت ، أن تُزيل
مرارة الهزيمة . ولكن كان لا بد بعد تسليم قرقيسيا من التغلب على عين وردة
(Rasaina) ، وكان عمير بن الحباب لا يزال فيها متحصناً مستمراً في المقاومة[2] ،
كما كان لا بد من التغلب على نصيبين أيضاً . وكان المسمَّون بالخشبية ، وهم بقية

---

(١) راجع كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ س ١٧ فما بعده ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٥) . أما تيوفانيس فهو يضع الاستيلاء على Circecium (قرقيسيا) في سياق حوادث خاطئ . [وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ - ٢٥ أن زفر بن الحارث لما صالح عبد الملك اشترط ألا يقاتل معه ، وابن الزبير حي . ولم يدخل الهذيل بن زفر بن الحارث في شرط أبيه . فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار معه الهذيل ، ثم تحول إلى مصعب ، وقاتل مع إبراهيم بن الأشتر . . . ثم عفا عنه عبد الملك لشجاعته - راجع أيضاً ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ - المترجم] .

(٢) راجع Barhebr. ، ط . Bedjan ص ١١١ . وحباب هو بطبيعة الحال ابن حباب ، راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٤ .

أتباع المختار الثقفى ، لا يزالون يدافعون عما فى أيديهم وقد استسلموا أخيراً ، وأدْمِجُوا فى الجيش[١] .

ولما جاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب كان قد مضى من الصيف شطرٌ كبيرٌ . وكانت المعركة فى دير الجاثليق بين مسكن ، حيث ضرب عبد الملك معسكره كما ضربه معاوية من قبل ، وبين باجُمَيْرا ، حيث كان يعسكر مصعب (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٥) . وكان الشهر شهر جمادى الأولى أو جمادى الآخرة ، أما السنة فتختلف فيها الروايات بين ٧١ و٧٢ هـ (راجع الطبرى ج ٢ ص ٨١٣ وكتاب أنساب الأشراف ص ٨) . ويذكر الواقدى وإلياس النصيبى سنة ٧١ هـ ، ويذكر غيرهما سنة ٧٢ هـ [٢] . وإذا صرفنا النظر عما تقدم ذكره ، فإن الدليل على صحة التاريخ الأخير هو أن إرسال الحجاج إلى الحجاز أعقب انتصار عبد الملك فى العراق مباشرة ، ولا شك فى أن إرسال الحجاج إلى العراق كان فى سنة ٧٢ — ٧٣ هـ[٣] .

وتوجد روايات كثيرة (أو بعبارة أدق : مجموعات من الروايات) فيما يتعلق بسير المعركة . وقد كانت العلاقة بين هذه الروايات مثاراً لمناقشة غير عادية ، وذلك

---

(١) المسعودى ج ٥ ص ٢٤١ ، وقارن أيضاً الأغانى ج ٥ ص ١٥٥ ، و ج ٨ ص ٣٣ ، و ج ١١ ص ٤٧ ، وكلامنا عن الشيعة Schia ص ٨٠ ، هامش رقم ١ وص ٨٤ هامش رقم ٣ .

(٢) هكذا يقول المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ٨١٣ ، ١٤٦٦ س ٩) ، والأغانى ج ١٧ ص ١٦١ ، وابن الكلبى نقلا عن جده ، وأبو مخنف فى كتاب أنساب الأشراف ص ٢٦ والمسعودى ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) وفيما يتعلق بسنة ٧١ هـ يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما رواه أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٨١٢) من أن المعركة كانت يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى أو الثانية . أما المدائنى فهو يذكر سنة ٧٢ هـ . ولكن يوم ١٣ جمادى الأولى أو الثانية فى هذه السنة لم يكن يوم ثلاثاء ، أما يوم ١٣ جمادى الثانية من سنة ٧١ هـ فكان يوم الثلاثاء . ورغماً عن هذا فيبدو لى أنه من المستحيل ومن المخالف للوقائع التى تؤيدها روايات ثابتة إنقاص عدد الحملات الثلاث التى وجهت إلى العراق إلى حملتين فقط وأن تكون قد مضت سنتان كاملتان بين احتلال الكوفة الذى كان نتيجة لمعركة الدير وبين أخذ مكة . وسأعود إلى هذا الموضوع .

أن آلفارت (Ahlwardt) قارن بين ما جاء فى كتاب التاريخ الذى نشره ، وهو جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى ، وبين ما عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٣ فما بعدها) ، ووجد أن ابن الأثير قد اقتبس من ذلك الكتاب أجزاء كبيرة ؛ وقد اعترض نولدكه (Nöldeke) على ذلك ، وربما كان اعتراضه ظناً منه أن الإنسان يستطيع هنا ، كما فى حالات أخرى ، أن يكتفى باعتبار أن الطبرى هو مرجع ابن الأثير . وقد أثبت بروكلمان (Brockelmann) أن هذا غير ممكن ، وذلك بعد أن كانت قد ظهرت نصوص الطبرى المتعلقة بالموضوع والتى لم يكن قد عرفها نولدكه[1] . ولكن هذا لا يؤدى إلى الفصل فى أمر المشكلة فلا يؤيد آلفارت إلا إلى حدٍّ ما ، ذلك أنه لابد من أن تدخل فى الاعتبار رواية أخرى أغفلها كل من آلفارت ونولدكه وبروكلمان ، وهى موجودة فى كتاب الأغانى (ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) وهى من جهة ما تتضمَّنُه قريبةٌ جداً مما جاء فى الكتاب الذى نشره آلفارت ، ولكنها لا تستند إلى ما فى هذا الكتاب ، وصاحبها هو الزبير بن بكّار . وإذن يتبين ما يأتى : ابن الأثير لا يتابع الطبرى وحده ، لكن معرفته بالكتاب الذى نشره آلفارت لا تزيد عن معرفته بما جاء فى كتاب الأغانى ، وهو فى الأجزاء المشتركة بينه وبين هذين المصدرين يوافق أحدَهما أحياناً ويوافق الآخر أحياناً أخرى ، لكنه يختلف عنهما من حيث صورة الرواية اختلافاً من شأنه أن يجعل القولَ بأنه رجع إليهما مباشرة قولاً مستحيلا . هذا إلى أننا نجد فيما يقوله أحياناً — إذ صرفنا النظر بطبيعة الحال عما نقله عن الطبرى — زيادات غَيْرَ موجودة فى المصدرَيْن المذكورين ، كالذى نجده من

---

(١) راجع مقدمة كتاب أنساب الأشراف ص ١٧ فما بعدها ، وراجع Göttinger Gel. Anz. ، عام ٨٨٣ ، ص ١١٠٢ ، ورسالة بروكلمان فى الدكتوراه عن العلاقة بين ابن الأثير والطبرى Über das Verhältnis von Ibn al-Athir zu Tabari ، شتراسبورج ، ١٨٩٠ ، ص ٤٤ وما بعدها .

حكاية سبب العداوة بين ابن ظبيان وبين مصعب . وإذن فالظاهر أنه اعتمد على كتاب آخر يرجع معظم ما فيه إلى مصادر واحدة[١] ؛ وبعض الرواة الذين تُذْكَر أسماؤهم هم فى الكتاب الذى نشر آلفارت وفى كتاب الأغانى هم بأعينهم الرواة الذين يُذْكرون عند الطبرى ، غير أن الطبرى يذكر الواقدى كمصدر ، وهو مرجعه فى الرواية الأساسية ، هذه الرواية التى تستمر ، رغم انقطاعات قليلة ، من ص ٨٠٤ س ١٥ — إلى ص ٨٠٨ س ٢ .

ولا تكاد توجد من الناحية التاريخية فوارقُ ذاتُ بال : استفاد عبد الملك من الفترة السابقة على القتال ، وهى الفترة التى انقضت لما كان الجيشان معسكرين أحدهما أمام الآخر فى مسكن وباجميرا ، على مسافة غير كبيرة — استفاد منها فى مكاتبة شيعته من أهل العراق وفى الاتصال بأشراف الكوفة ، فدعاهم لنفسه ووعدهم ومنّاهم . وهذا هو عين ما فعله معاوية من قبل وفى موقف شبيه بموقف عبد الملك ، ومن المكان نفسه . ولم يكن لأهل العراق رغبة فى القتال ، كما يدل على ذلك البيت الذى تقدم ذكره فى ص ١٨٦ ، وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة ، ولم يتعلموا من الحروب الحزبية المروّعة التى وقعت بينهم فى السنين السابقة على ذلك ، ولم يكن عندهم شىء من الوفاء السياسى والحزبى ؛ وكما تريد المومسة كلَّ يوم خليلا كانوا يريدون كل يوم أميراً (الأغانى جـ ١٧ ص ١٦٢ س ١٧ ، وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٦٥ س ٢٣) . ولقد هم أهل العراق بالغدر بمصعب ، فقال لهم قيس بن الهيثم : « ويحكم ! لا تُدْخِلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعّموا بعيشكم ليضيقنّ عليكم منازلكم ! والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسَلَه فى حاجة ؛ ولقد رأيتُنا فى الصوائف وأحدُنا على ألف بعير ، وإن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه ، وزادُه

---

[١] لا يمكن فى هذا المقام أن نعطى البرهان الكامل على ذلك ، لأن المسألة ليس لها إلا شأن أدبى وليس لها شأن تاريخى ، ومحاولة الحكم فى أمر العلاقة بين الكتب فيها دائماً شىء من الصعوبة .

خلفه » . ولكن ذلك لم يُجْدِ نَفْعاً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ؛ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤) . وكان لا بد لمصعب أن يترك أحسن جنده تحت قيادة المهلب ، لكى يحموا البصرة من هجوم الخوارج[1] . وكانت بين البصريين الذين كانوا معه قبيلة ربيعة التى لم يكن يطمئن إليها والتى كان لا بد له فى السنة السابقة أن يقضى على ثورتها (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٧ ، والأغانى ج ١٧ ص ١٢٧) . وجاء بمعظم جيشه من الكوفة ، ومنها كان خروجه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٤ ، ٨٠٧ ، وابن الأثير ص ٢٦٤ وما بعدها) . ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانبه ، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدهم على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجرى أنهاراً . ولهذا كانت مهمة عبد الملك مهمة سهلة ؛ فأدخل مِعْوَله بين أهل الكوفة ، والأبيات المحفوظة لنا من ذلك العصر (أنساب الأشراف ص ١١ فما بعدها) تعبِّر عن الألم من خيانة رجال الكوفة . وكان القواد الكوفيون الذين كاتبهم والذين تُذْكر أسماؤهم ، كوفيين خُلَّصاً (أنساب الأشراف ص ١٣ س ٢١ — ٢٣ ، ص ٢٧ س ١٤) ، وكلُّهم شرط عليه ولاية أصبهان ، فأنعم بها لهم كلهم ، جزاء على خيانتهم لمصعب (أنساب الأشراف ص ١٣ ، ٣٢) . وكانت أصبهان تابعة للكوفة ، وكان يتولاها رجالٌ من الكوفة . ولم يستطع مصعب أن يتخذ إجراءات صارمة إزاء الخونة الذين كان يراسلهم عبد الملك ، بل هو تركهم فى مواضعهم ، رغم أنه قد حُذِّر من ذلك . وكان الذى حذّره وأشار عليه بقتلهم أو بالقبض عليهم وإبعادهم على الأقل ، هو إبراهيم بن الأشتر ، صاحب النصر فى موقعة خازر ؛ فقد أعطى الكتاب الذى تلقاه من عبد الملك إلى مصعب مختوماً من غير أن يفضه أو يقرأه ، وقال

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤ ، وكلامنا عن الخوارج Chavarig, 36ss. .

له إن عبد الملك كتب الكتب إلى جميع القواد ، ولكنهم لم يظهروها له . وكان إبراهيم هو المخلص الوحيد ، وكان فى الوقت نفسه أبرز شخصية فى الكوفة ، وكان ظاهرةً جديرة بالإعجاب فى تلك البيئة ، والابن الجدير بأبيه الذى انتصر يوم صفين . وكان عدم استماع مصعب لنصيحته ، وذلك فى أوائل المعركة عند دير الجاثليق ، دليلاً على الهزيمة الحاسمة لمصعب ؛ ذلك أن عتّاب بن ورقاء التيمى هرب ، وكان على خيل مصعب ، وعصى بقيةُ القواد ورؤساء القبائل القائدَ الأعلى ، واعتذروا عن الهجوم بجنودهم بغير العذر . وأخيراً بقى مصعب وحده تقريباً فى مكانه ، ونظراً لهذا الموقف الفريد فى بابه صارت لموقعة دير الجاثليق شهرتها : ولا يحتاج الإنسان إلى معرفة بخطط الجيوش وقيادتها لكى يفهم مجراها . وقد بعث عبد الملك أخاه محمداً إلى مصعب يعطيه الأمان . فأبى وقال : إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً . ونادى محمدُ بن مروان عيسى ابنَ مصعب — يعطيه الأمان ويحثّه على ألاّ يقتل نفسه . وحاول مصعب أن يقنع ابنَه بقبول الأمان والمضىّ إلى عبد الملك ، فأنف أن يُقال عنه إنه أسلم أباه ، فقال له مصعب : فتقدمْ بين يدى احتسبْك ! فقاتل بين يدى أبيه حتى قُتِل ، وكان عيسى لا يزال صبياً ، لأن مصعباً نفسه لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين . ثم أُثْخِنَ مصعبٌ بالسهام ، فشدّ عليه زائدةُ ابن قُدامة ، وطعنه قائلا : يالثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه وحملها إلى عبد الملك[1] .

وبعد هذا النصر الذى ليس لصاحبه أن يفخر به كثيراً ، دخل عبدُ الملك

---

(١) [لما قتل مصعب أمر عبد الملك بدفنه هو وابنه عيسى ، وقال : واروه ! فقد والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم (ن . عقم) — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٨١١ — ٨١٢) ، وراجع خطبة عبد الله بن الزبير ، لما بلغه خبر مقتل أخيه مصعب ، عند الطبرى ، ج ٢ ص ٨١٨ — ٨١٩ — المترجم] .

الكوفة ، وأخذ البيعة من القبائل ، وفرّق أعمال العراق والمصرين : الكوفة والبصرة ، على عُمّاله[1] . وعسكر أربعين يوماً فى النُّخَيْلة ، فى نفس الموضع الذى كان معاوية قد عسكر فيه من قبل مع جيش الشام ؛ وفى ذلك الوقت وجّه الحجاجَ بن يوسف إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير ، هذا ما يقوله الهيثم بن عدى فى كتاب أنساب الأشراف (ص ١٨ ، س ١) ويوافقه الواقدى فى ذلك ، وهو يقول (الطبرى ج ٢ ص ٨٣٠ وكتاب الأنساب ص ٣٨) إنه بعد قتل مصعب بن الزبير أرسل عبدُ الملك الحجاجَ فى ألفين من جند أهل الشام إلى مكة ، وذلك فى جمادى ، أعنى فى الشهر الذى وقعت فيه معركة الدير ، أو فى الشهر التالى ، لأن اسم جمادى يطلق على شهرين ؛ وهو يذكر أن ذلك كان سنة ٧٢ هـ ؛ ولا يستطيع أن يذكر غير ذلك ، لأنه يقول إن حصار مكة لم يبدأ إلا فى أواخر سنة ٧٢ هـ وإنه استمر شطراً كبيراً من سنة ٧٣ هـ ؛ ولكن كيف استطاع إذن من قبل أن يجعل الموقعة الخاصة بذلك فى سنة ٧١ هـ ؟ لا يمكن حل هذا الإشكال بالرجوع إلى الشذرات المحفوظة لنا عن الواقدى ، ولا شك فى شدة اتصال الحوادث فى العراق والحجاز ، ولا شك أيضاً فى أن سنة ٧٢ هـ كانت هى السنة التى هُزِم فيها مصعب .

ويقول الواقدى إن الحجاج لم يقصد إلى مكة رأساً ، ولا هو عرض للمدينة ، بل ذهب أولا إلى الطائف ، فوصل إليها فى شعبان ، ولبث فيها عدة أشهر[2] . ومن هناك شرع يبعث البعوث لمناوشة ابن الزبير فى سهل عرفة ، وكانت خَيْلُه تَهزِم خيلَ ابن الزبير وترجع ظافرة . ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه ، ويسأله أن يُمِدّه بالرجال . وكان طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفّان قد احتل المدينة وأخرج منها عامل ابن الزبير (الطبرى

---

(١) فيما يتعلق بخراسان ، راجع هنا وفى حالات أخرى الفصل الثامن ما يلى .

(٢) المسعودى ج ٥ ص ٢٥٩ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٣٩ .

جـ ٢ ص ٨١٨ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ٣٤ فما بعدها) ، فأمر عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج ليساعده . وبدأ حصار مكة ، كما يقول الواقدى (الطبرى جـ ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها) ، فى هلال ذى القعدة سنة ٧٢ هـ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ٦٩٢ م) ، ورُميت مكة والكعبة بالمنجنيق(١) . وفى أثناء ذلك قام رعدٌ وبرق وصواعق ، وسقطت صاعقةٌ على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج ؛ فأعظم ذلك أهلُ الشام وأمسكوا ، اعتقاداً منهم أن ذلك شىء من الله بسبب مهاجمتهم الكعبة ، ولكن الحجاج استطاع أن يُذْهِب عنهم ما اعتقدوه . وأخذ أصحابُ ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً ألقَوْا السلاح جميعاً وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان ؛ وكان فيمن خرج حمزة وحبيب ابنا عبد الله بن الزبير نفسه . لكن ابن الزبير ، وكان شيخاً فى الثالثة والسبعين من العمر ، خجل من ذلك ، فودّع أمّه وقبّل رأسها ، وخرج يقاتل وحده ، وقُتِل (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٨ فما بعدها وكتاب الحماسة ص ٣١٩)(٢) .

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٣ .

(٢) [جاء فى الطبرى (جـ ٢ ص ٨٤٤ — ٨٥٢) أن ابن الزبير لما تفرّق عنه أصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر ، فقال لها : « يا أمّه ! خذلنى الناس حتى ولدىّ وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ » فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ! وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكتَ نفسك وأهلكت من قتل معك . وإن قلت : كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك فى الدنيا ! القتل أحسن ! » . فدنا ابن الزبير فقبل رأسها ، وقال : « هذا والله رأيى والذى قمتُ به » . ثم بين لها حقيقة مقصده وتمسكه بالحق والعدل ، وخرج من عندها ، وهى تدعو له ، وقاتل قتال الأبطال ، وهو يتمثل بأبيات فى الشجاعة والصبر من الشعر الجاهلى . وكان يشد وحده على الجم الغفير ، وكان كأسد فى أجمة .. حتى قتل . ولما بلغ مقتله الحجاج سجد شكراً لله . وعلقت رأسه ورأس بعض أصحابه فى المدينة ، ثم أرسلت إلى دمشق . وكان ابن الزبير فى شجاعته موضع إعجاب أعدائه . راجع تفصيل مقتله عند الطبرى — المترجم] .

ويقول الواقدى إن ذلك حدث بعد بدء حصار مكة بستة أشهر وسبعة عشر يوماً ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٩٢ م ، (الطبرى ج ٢ ص ٨٤٤ ، هامش f) ؛ ولكن اسم اليوم غير موافق لتاريخه ، فنى كتاب الطبرى (ج ٢ ص ٨٥١ س ١٠) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٥٧) أن الشهر لم يكن جمادى الأولى بل جمادى الآخرة . ويذكر إلياس النصيبى أن ذلك كان يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ، واسم اليوم بحسب ما يقوله إلياس أيضاً ، غير متفق مع مكانه من الشهر؟

ولم يكن تسليم مكة[1] سوى الفصل الأخير القليل الشأن فى الرواية ، وذلك أن الحجاز ، منذ مقتل عثمان ، كان قد أصبح ركناً ميتاً ، ولم يكن من الممكن جعلُه مركزاً للحياة السياسية ، ولا شك أن ابن الزبير كان يرمى إلى هذا ، وكان لابد له أن يجعله غايةً له ، تمشياً مع طبيعة الحركة التى ارتفع شأنه بسببها[2] . وقد كشف ، فى الوقت نفسه ، عن الصبغة الروحية لخلافته بأن ظلَّ مقيما فى الحرم الذى عاذ به ، حتى عندما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه . ولكن الأمر انتهى إلى أن أصبح هو نفسه فى أثناء الفتنة التى سُمِّيَت باسمه فى مكان ثانوى إلى أبعد حد . وكان القتال ، من حيث الاسم ، يدور حول شخصه ، ولكنه لم يشترك فيه ، وتقررت نهاية القتال بدونه أيضاً . ولم يكن شأنه فى جزيرة العرب نفسها ، فى أثناء سنين طويلة ، أكبر من شأن نجدة الخارجى (الطبرى ج ٢ ص ٧٣٧ ، وما قلناه عن الخوارج فى بحث لنا ص ٢٩ فما بعدها) . وهو قد أُخِذَ فى المكان الذى عاذ به ، وفيه قُتل . وبذلك انتهت الفتنةُ الكبرى وعادت الجماعة الإسلامية إلى وحدتها .

---

(١) تجد تهنئة شعرية لذلك فى شعر الهذليين ، قصيدة رقم ٢٥٩ بيت ١٧ فما بعده ، واقرأ : وَقَدْ . [ويشير المؤلف إلى نشرته لشعر الهذليين فى الجزء الأول من كتابه المسمى Skizzen und Vorabeiten ، برلين ١٨٨٤ ص ٩١ — ٩٢ — والشعر لأبى صخر فى قصيدته التى أولها : عفت ذات عرق عصلها فرئامها — المترجم] .

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦١ .

الفصل الرابع

بنو مروان الأولون

١ — على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت سنين طوالاً مع ابن الزبير ، بل ملأت هذه العواصف كلَّ مدة خلافة عبد الملك تقريباً ، كما سنرى . وفي الشام أيضاً استمرّ صَخَبُ العداء بين قيس وكلب . وقد ألقى زفر بن الحارث في قرقيسيا السلاح في السنة التي قُتل فيها مصعب بن الزبير ، ولكن العداء بين القبيلتين لم ينتهِ بذلك ، بل ظل إلى ما بعد تلك الحرب الطويلة . ولكي يدرك الإنسان هذا العداء في جملة الحوادث المتصلة به ، لابد له أن يرجع في الماضي ، حتى يصل إلى موقعة مرج راهط (الأغاني ج ١١ ص ٦١ س ٣١) ؛ ففي هذه المعركة دفعت قيس حسابها واقتيد منها . لكن كان لابد لها ، بحسب العادات العربية ، من أن تثأر لدماء قتلاها من المنتصر . وكانت قيس هي الموتورة ، فكانت هي التي بدأت ، وإنما كانت كلب تدافع عن نفسها . وقد اشتركت في هذا العداء من قبائل قيس قبائلُ عامر وسُلَيم وغنيّ وباهلة[1] ، وذلك بمقدار الجماعات التي نزلت من هذه القبائل في شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفتي الفرات . أما في جانب كلب فكانت سائر قبائل قضاعة[2] ، ولكن يظهر أنه لم يدخل في القتال بالفعل إلا قبائل كلب ؛ والمصادر لمعرفة « الأيام » المتفرقة المتباعدة أحياناً ، والتي كان

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٠ و ١٥ و ص ٢٥٨ س ١٨ و ص ٢٥٩ س ١٧ و ص ٢٦٠ س ٢٤ وفي ص ٢٥٦ س ١٠ يجب قراءة : أعصر ، كما في ص ٢٥٦ س ١٥ .

(٢) وتسمى قضاعة باليمنيين في بيت شعر لزفر بن الحارث — ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٨ .

فيها ذلك القتال الطويل ، هى القصائد الشعرية التى ترجع إلى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها . وكلها قد بقيت إلينا عند ابن الأثير وفى كتاب الأغانى وكتاب الحماسة وعند الميدانى . ومعظم هذه الأخبار جديرة بكل ثقة ، غير أنها منقطعة الصلة فيما بينها أحياناً ، وليس ثمّ ما يدل على زمانها ، ولا شك أن ثمّ وسيلة لوضعها فى ترتيب مقبول .

يقول صاحب الأغانى (ج ٢ ص ١٢٠ فما بعدها) إن القتال بدأ بأن أغار زُفَر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا ، وهو رئيس عامر ، على جماعة من كلب فى المصيّخ ، وقتل منهم عشرين رجلاً . فقامت كلب ، وعلى رأسها حُمَيْد بن حُرَيْث بن بحدل ، وهو ابن عم لحسان بن مالك ابن بحدل المشهور[1] ، للأخذ بالثأر ، فقتلوا ستين رجلا من نُمَيْر ، كانوا يعيشون بينهم فى تدمر . ويقال إن زفر بعد ذلك قتل خمسمائة أو ألف من كلب وإنه قتل منهم فى يوم الإكليل مقتلة عظيمة ، وإنه بعد هذه الفعلة الكبيرة رجع إلى قرقيسيا آمناً لم يُصبه سوء ، ومن غير أن يستطيع حُمَيْد أن يلحق به . ولكن غارة يوم الإكليل ، فى موضع آخر من كتاب الأغانى (ص ١٢٢ س ١٧ فما بعده) ، لا تنسب إلى زُفَر ، بل إلى عُمَيْر ابن الُحباب ، رئيس سليم . أما الذى لا شك فيه فهو أن عُمَيْراً كان منذ ذلك الحين هو القائم الحقيقى بالثأر لقيس من كلب ؛ ذلك أن القتال الكبير بين الشام والعراق حول الخلافة صرف زُفَر عن حروب الثيرات التى كانت تجرى فى البادية . وقد تلقى زفر فى أول الأمر هجمات عبد الملك وقاومها سنين طويلة ، كما رأينا ، وكان مائلاً لمصعب بن الزبير مدافعاً عن حماه .

على أن ظهور عمير فى الميدان يعطينا نقطة نستطيع منها تحديد أزمنة الحوادث ، لأنه كان لا يزال موجوداً فى معركة خازر فى الجيش الشامى ، ولم ينضم إلى زفر

---

(١) والشارح فى كتاب الحماسة ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ يخلط بينهما .

إلا بعد ذلك ، أعني أنه لم ينضم إليه قبل سنة ٦٧ هـ . وتذكر مجموعة كبيرة من « الأيام » التي كان يشهدها ويبرد فيها نار الثأر ، وتسمى هذه « الأيام » بأسماء مواضع مختلفة من بلاد السماوة . وعند أرض كابة أفلت منه حميد بن حريث ، ركضاً على فرسه السريع ، وما كاد يفلت ، حتى إذا ألحّ عُمَيْرٌ على قبائل كلب التي كانت تسكن في متناول غزواته ، اضطرت إلى أن ترحل عن البلاد آخر الأمر ، فهاجرت إلى بلاد الغور ، من أعمال فلسطين حيناً من الزمان .

وعند ذلك قفل عُمَير راجعاً عبر الفرات ، ونزل هو وقومه من سليم بإزاء بلاد الخابور ، وكان هذا هو السبب في الصدام بين تغلب النصرانية ، التي كانت قد هاجرت إلى هناك حتى بلغت نهر دجلة وما وراءه ، وبين قيس . وقد لجأت تغلب إلى زُفَر لكي يأمر سُلَيْماً بالرحيل عن قرى الخابور ، لأنهم صاروا يغيرون عليهم ويوجدون أسباباً للحروب . ورأى زفر أنه غير قادر على ذلك . وهكذا بدأ العداء والقتال بين تغلب وسليم ، وقد حاول زفر أن يتدخل لإنهاء هذا القتال ، لأنه لم يحبّ أن يدفع تغلب إلى إلقاء أنفسهم بين أحضان أهل الشام . ولكن عميراً ، وهو الرجل المشئوم ، عارضه في ذلك واستتر وراء مُصْعَبَ بن الزبير ، وسعى بتغلب لأنهم نصارى ، فاتّهمهم بالميل إلى أهل الشام ، واستطاع أن يهاجمهم باسم حكومة ابن الزبير ، وأن يطلق العنان للانتقام منهم ، فذبح منهم الكثيرين في يوم ماكس أو ماكسين . وعند هذا تنتهي رواية صاحب الأغاني (جـ ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها) ؛ وهي تجد ما يكملها عند ابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) وفي الأغاني (جـ ١١ ص ٥١ فما بعدها و٦١ فما بعدها) . ونجد هنا أن زفر أيضاً قد أُقْحِم في القتال دون رغبة أو إرادة منه ، ووقعت غاراتٌ واشتباكات كبيرة . وأماكن هذه الغارات ، وهي تذكر أيضاً في أشعار

الأخطل[1] . كانت عند نهر الخابور ونهر البليخ ونهر الثرثار وفى ناحية دجلة ، وكانت تغلب فى معظم الأحيان هى التى تُمنَى بالهزيمة ، على أنهم انتصروا فى أول الأمر عند الحشاك على نهر الثرثار الذى يصب فى دجلة غير بعيد من تكريت إلى جهة الجنوب ، وقتلوا عمير بن الحباب سنة ٧٠ هـ ، وبعثوا برأسه إلى عبد الملك فى دمشق . ولكن قيساً عند ذلك اضطرت زفر إلى أن يتولى الأخذ بثأر عمير ، فضرب تغلبَ ضربةً قاسية عند مدينة الكحيل ، على نهر دجلة ، وقتل مائتين من أسراهم وقعوا فى يده . ولكن الأحداث الكبرى التى وقعت سنة ٧١و٧٢ هـ ، وكان مسرحها أرض الجزيرة ، وضعت حداً للغارات الدموية هناك ، وأنقذت تغلب .

ولكن الحرب بين كلب وقيس ثارت من جديد بعد ذلك فى موضع آخر (الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها ، والميدانى ١٤ ، ٨٥[2] والأغانى جـ ١٧ص ١١٣ أ فما بعدها وياقوت جـ ١ ص ٧٣٩) . فقد أصاب حمدُ بن حريث بن بحدل الرئيس السابق لكلب ، فى حربه مع عمير[3] ، سبيلا سهلا لكى ينتقم من فزارة فى جزيرة العرب نفسها — وكان موطنهم الأكبر إلى شرقى المدينة — لما فعلته سليم وعامر على الفرات ، لأنه لم يستطع أن ينال منهم . ولم تكن فزارة هذه قد اشتركت حتى الآن فى القتال ، ولكنهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الكبيرة لقبائل قيس . ومنهم — من أعضاء بيت الأمراء القديم ، من الذين كانوا مستوطنين فى الكوفة — من كانوا قد أعانوا زفر وعميراً (ابن الأثير

---

(١) لم أستطع حتى الآن أن أراجع نشرة بارث (Barth) لديوان القطامى .

(٢) إن ترجمة فريتاج (Freytag) تحتاج إلى إصلاح كبير .

(٣) يذكر ابن حبيب عند الميدانى اسم أبيه حريث خطأ ، بدلا من ذكر اسمه . راجع ، خلافاً لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٢٦٠ بيت رقم ١) ، والأغانى جـ ١٧ ص ١١٣ أسفل و ص ١١٤ س ٢٨ .

جـ ٤ ص ٢٥٨ ص ١٩ فما بعده) . وجعل حُمَيْدٌ خالداً بن يزيد بن معاوية(١) ، وهو الذى كانت جدته من كلب ، يفتعل له عهداً باسم عبد الملك ليأخذ صدقات قبائل البدو . وخرج حميد باعتباره مفوّضاً من قبل الحكومة ، ومعه جمع كبير جداً من عبد ودّ وعُلَيْم من قبائل كلب ، مجتازاً الصحراء ، وأخذ يضرب فزارة ، وكان فى الحقيقة يقصدهم ، وارتكب فيهم فظائع منكرة ، متلمّساً لذلك الأسباب الواهية . فجُرح وقُتِل كثيرون ، وخصوصاً عند موضع يسمى العاه . واشتكى من أصابتهم أعماله إلى عبد الملك ، فظن عبد الملك أنه يكفى أن يدفع لهم دية قتلاهم . فأخذوا المال ، لكنهم اشتروا به سلاحاً وخيلاً ، وأعدوا أنفسهم لغارة يثأرون فيها لأنفسهم . فهاجموا منازل لكلب عند منابع بنات قيْن فى أرض السماوة ، وقتلوا تسعة عشر رجلاً من عبد ودّ وخمسين من عُلَيْم ، فَغَضِبَ عبد الملك لذلك أشدّ الغضب ، وأمر عامله الحجاج بأن يقتص من فزارة . وعند ذلك دفع الرجلان اللذان كان عليهما الوزرُ ، الشرَّ عَنْ قومهما بأن قدما على الحجاج طائعيْن ، فأرسلهما إلى عبد الملك . وكان لا بد لكلب من أن تكتفى بقتلهما . ويومُ بنات قين هو أشهر « يوم » فى كل الحروب المتواصلة بين قيس وكلب ، وهو لم يقع إلا عند ما كان الحجاج أميراً على المدينة (سنة ٧٣ و٧٤ هـ) . ولا يمكن أن يكون زمان السبب الذى دعا إلى هذا اليوم ، وهو ما أريق من دم فى العاه ، قبل ذلك بكثير(٢) . وعلى هذا فإن القول السائد فى كل رواياته

(١) [فى كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها أنه فى أيام الحرب بين عبد الله وابن الزبير كان أبناء القيسيات من بنى أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما يفعله بهم أخوالهم القيسيو ن . وكانت قيس مع ابن الزبير ، وكان هذا الفخر سبباً فى إغضاب أبناء الكلبيات أمثال خالد بن يزيد وعبد العزيز بن مروان . وخالد بن يزيد هو الذى بحث عن ينتقم من قيس ، وهو الذى دبر العهد المزور وأعطاه إلى حميد بن حريث بن بحدل — المترجم] .

(٢) على أنه ليس بمستحيل أن يكون قد وقع فى الفترة السابقة على عودة الوحدة للجماعة الإسلامية ، كما يقول ابن حبيب عند الميدانى . ولكن دوزى (I, 120) يجعل يوم بنات قين فى عهد معاوية ، وهذا خطأ تام .

هذه الحكاية ، من أن بشراً وعبدَ العزيز ابنيْ مروان المتباغضين[1] كانا فى دمشق يوم بنات قيْن وبَعْدَه أيضاً ، هو قولٌ خطأ ؛ بل هما قد كان أحدهما قبل ذلك بكثير أميراً على الكوفة ، والآخر أميراً على مصر ، فلا يمكن أن يكونا قد كانا فى دمشق إلا زائرين فترةً من الوقت .

وكذلك بقيت للحرب بين سُلَيْم وتغلب بقية ، بعد أن كان النزاع حول الخلافة قد انتهى ، وكان السلام فى الدولة عند ذلك قد عاد إلى نصابه منذ وقت طويل (راجع الأغانى ج ١١ ص ٥٩ فما بعدها ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١ فما بعدها وكان الأخطل الشاعر هو السبب فى إثارة هذه الحرب من جديد ، وذلك أنه قدم على عبد الملك وعنده الجحّاف بن حكيم السُّلَيْمى ، فسأله عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال نعم : هذا الذى أقول فيه :

ألا سائلْ الجَحّافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرِ

والأخطل يقصد ما فعله أخواله من تغلب بقبيلة الجحاف ، وكان الجحاف قد اشترك فى قتال تغلب تحت قيادة عُمَيْر بن الحباب . ولما بدأ الأخطل ينشد قصيدتَه كان الجحاف يأكل رطباً ، فجعل النوى يتساقط من يده غيظاً . فلما انتهى الأخطل من إنشاد قصيدته أجابه الجحاف قائلا :

بلى سوف نَبْكيهم بكلّ مُهنَّدٍ ونَنْعِي عُمَيْراً بالرماح الشواجِرِ

وفعل الجحاف ما فعله حُمَيْد بن حريث الكلبى من قبل ، فتلطّف لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له عهداً على صدقات تغلب وبكر فى الجزيرة . وخرج بصفته عاملا على الصدقات ، ومعه عدد كبير من فرسان قيس ، وقَصَدَ الجزيرة ؛ وفى أثناء الطريق كشف لمن معه عن قصده الحقيقى ، وحدّثهم بما كان من الأخطل

---

(١) [كانت أم عبد العزيز كلبية ، وأم بشر قيسية (الحماسة ص ٢٦٠) — المترجم] .

وأنه يريد منهم أن يوقعوا ببني تغلب شرَّ وقيعة ، وقال لهم : إنما هي النار أو العار ، فمن صبر فليتقدم ، ومن كره فليرجع ! فرجعوا عنه غير ثلاثمائة آثروا النار على العار ، واتبعوه قائلين : نحن معك فيما كنت فيه من شر وخير . وأغاروا على تغلب في سنة ٧٣ هـ ، عند موضع يسمى بِشرًا (أو الرهوب) ، فأسرفوا في القتل والفساد ، وبقروا بطون النساء ، وقتلوا ابناً للأخطل أيضاً . ووقع الأخطلُ نفسه في أيديهم ، وعليه عباءةٌ دَنِسة ، فسألوه ، فذكر أنه عبدٌ من عبيدهم ، فأطلقوه . وبعد ذلك لحق الجحاف بأرض الروم . ثم تدخَّلت قيس لدى عبد الملك لكي يُؤَمِّنَه ، فأذِنَ له بالرجوع بعد زمان طويل ؛ لكن كان لا بد أن يدفع لتغلب ديةَ ما أريق من دماء عند بشر ، فلما لم يقدر على ذلك تقدم إلى الحجاج ، وكان في ذلك الوقت أقوى رجل بين قيس ، لكي يحتمل دَفْعَ الدِّيات ، فاعتذر الحجاج أولاً ، ولكنه قبل آخر الأمر . ثمَّ صَلَح أمرُ الجحّاف أخيراً ، فتألّه وتنسّك ، وذهب مع القوم الذين شهدوا معه غزو تغلب إلى الحج ، وقد لبسوا الصوف وخَرَموا أنوفَهم ، وجعلوا فيها البُرى حتى وصلوا مكة . وتعلق الجحّاف بأستار الكعبة ، يدعو دعاء اليائس ، ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل ! فسمعه عبدُ الله بن عمر ، فقال له : يا هذا لو كنتَ الجحّافَ ما زِدْتَ على هذا ! فقال : فأنا الجحّاف .

ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه ؛ فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن يَحُولا بينهم وبين وضع القبيلة والثأر فوق كل شيء . فكانوا يُؤْثرون النار على العار ، وكانوا لا يندمون إلا أخيراً حين لا ينفع الندم . بل هم صاروا في ظروفهم الجديدة أشد قسوة مما كانوا عليه في الجاهلية في وطنهم القديم ، فصاروا يقتلون بعضهم بعضاً على نحو أوسع نطاقاً وأقل مبالاةً ، فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء ، وهذه عادة لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي ، ولكن يشهد بأنها

كانت موجودة فى الشام ما يقوله عاموس النبى[1] ؛ بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان السلام قد عاد ، استمرّ القتال الوحشى بين القبائل أمام أبواب دمشق وتحت بصر الخليفة ، ومع الاستهانة بهيبته أحياناً .

وكان للعداوات القبلية موطنٌ ثان فى الشرق الأقصى للدولة الإسلامية ، ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعة اشتد فى البصرة بسبب هجْرة أزد عمان فى أواخر أيام معاوية وفى أيام يزيد الأول . فتحالفت ربيعةُ مع الأزد ، وتحالفت تميم مع قيس ، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل . وفى أثناء الفترة التى اضطرب فيها أمرُ الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال فى البصرة[2] ، واضطُرّ أميرُها ، عبيد الله بن زياد ، إلى الهرب . وأراد مسعود بن عمرو ، رئيس الأزد ، أن يحتلّ منصبه ، واستطاع أن يستولى على القصر وعلى المسجد بالقوة ، يساعده الأزد وربيعة فى ذلك . ولكن بينما هو على المنبر فى المسجد إذْ اقتحمت عليه تميم ، فأنزلوه من على المنبر وقتلوه . وعند ذلك قامت حرب الثأر بين الأزد وتميم بسبب قتل هذا الأمير القبلى . ولكن الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وكان حكيماً حنّكته السِّنُّ ، أفلح فى إعادة السلام فى مقابل دفع دية كبيرة . ولكن العداوة بين الأحزاب لم تزُل ، ووجدت الصدور المُشْرَعة منزعاً فى خراسان[3] ؛ وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية ، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة . وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارُها اندلعتْ من جديد . وكانت فى أول الأمر بين تميم وربيعة ، ثم بين مضر (تميم وقيس) واليمن (الأزد وربيعة) ، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضاً على المسرح بفضل المُهلّب . وكان الخصام بين

---

(١) [راجع العهد القديم ، عاموس ، الإصحاح الأول ، فقرة ١٣ – ١٤ حيث يذكر من جرائم بعض بنى إسرائيل أنهم بقروا بطون الحوامل – المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٣٣ – ٤٦٧ – المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى أيضاً ج ٢ ص ٤٨٨ – ٤٩٦ – المترجم] .

مجموعات القبائل فى شرق الدولة مرتبطاً فى آخر الأمر بالخصام بينها فى مغربها : وكان الوزر فى ذلك وِزْرَ قيس خاصة ، لأن قيساً كانوا موجودين فى المشرق والمغرب على سواء ، وكانوا فى كل مكان متماسكين فيما بينهم « كما تتماسك أجزاء البناء » ، وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص فى ذاته أنواع الخصومات الأخرى ، وأن يقسم العالم العربى كله قسمين متنابذين .

وقد تسرّبت سموم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة ، وكان من العسير تفاديها . فماذا كان يستطيع أميرٌ أن يفعل ، إذا كانت قيس تعتبره أميرَها ! فهو إن ردّهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه : بل إن بعض الأمراء فى بلاط عبد الملك كانوا يتحمسون فى الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، بحسب نسب أمهاتهم(١) .

ولا شك أن الفكرة السياسية للإسلام ، أعنى الوحدة والتضامن فى الجماعة الإسلاميـــة ، كان لها تأثيرٌ مُضَادٌ لتأثير النزعة القبلية ، وكان الممثلون الطبيعيون للروح الإسلامية هم قريش الذين كانوا ، بحكم وضعهم القانونى فوق القبائل وخارج منافساتها ، وكان القرشيون الحاكمون ، أعنى بنى أمية ، قد اضْطُرّوا إلى أن يرموا أنفسهم فى الشام بين أحضان كلب لكى يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن الزبير . ولكن كانت تربطهم مع ذلك بقيس رابطةُ الدم(٢) . ومن هذا الوجه كان من السهل عليهم أن يقفوا موقفاً وسطاً . وقد عرف عبد الملك أين مصلحته فكان يحاول أن يرتفع عن منازعات الأحزاب . وبعد أن أقلعت قيس عن

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها – المترجم] .

(٢) قال عمَوَّبج الطائى يمتدح كلباً والحميد بن بحدل فى قصـــيدة له (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٧ س ١٩ فما بعده) :

فلولا أمير المؤمنـــين لأصبحت قضاعةُ أرباباً وقيسٌ عبيدَها

فالخليفة يعتبر من قيس (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٢ س ١٨) ، لأنه مثلهم من مضر على الأقل ، وليس من قضاعة أو اليمن .

المعارضة له ، عاملهم باللطف وحاول أن يسترضيهم . وكان زفر بن الحارث وابناه هذيل وكوثر من بعده ، من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً فى بلاط دمشق[1] . وكانت كلب بطبيعة الحال غير راضية عن ذلك ، ولكنّ ما عابوه على عبد الملك من أنه لم يكن يشكر لهم حسن بلائهم مع بنى أمية كما ينبغى له أن يشكر (الحماسة ص ٦٥٦ فما بعـــدها) هو فى الحقيقة مَدْحٌ له . أما القول بأنه تحوّل من جانب كلب إلى جانب قيس فهو يعبر عن الموقف تعبيراً معوجاً كل الاعوجاج ؛ فنحن نجد فى مجلس عبد الملك بعد ذلك أيضاً رجالا ذوى نفوذ ينتمون إلى مجموعة قبائل كلب ، كابن بحدل وروح بن زنباع . والأحرى أن يُقال إن عبد الملك تصرّف كما ينبغى على الخليفة وعلى السياسى أن يتصرف . فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام ، وهم بمعونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها ، وبمعونتهم حافظوا عليها ؛ ولو أن انشقاقاً حصل فى الشام لتضعضع الأساس الذى تقوم عليه سيادة بنى أمية على الدولة الإسلامية . أما خراسان فقد كانت فى ذلك الحين لا تزال فى مرتبة ثانوية جداً ، وكان الشقاق فى هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة . أما فى الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لابُدّ لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكى يحافظوا على مركزهم هُمْ ، وكان ذلك عاملاً فعالاً فى كسر شوكة الخصومة القبلية بينهم : فكانت كل ولايات الدولة ، عدا بلاد أهل الشام ، تعتبر خاضعة مغلوبة ، وكانت بلادُهم وحدها هى التى تعتبر الغالبة الحاكمة . وكانت مصلحتهم ، وهى مصلحة مادية إلى حد كبير ، فى أن تظل الخلافةُ والسيادةُ ملكاً لهم من جملة الأسباب التى أوجدت

---

(١) قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فما بعدها و ١٤٤٥ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٧٣ و ٢٥٣ ، وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٢ ، ١٥٣ فما بعدها . ويرى الإنسان من ذلك مقـــدار قوة مركز هؤلاء الأمراء القيسيين فى عهد بنى أمية ، ولكنهم لم يسيئوا استعمال هذا المركز .

شعوراً بالتضامن السياسى بينهم . وقد تجلى هذا الشعور بنوع خاص فى المناسبات التى كان لابد لهم فيها ، بوصف أنهم جيش الدولة ، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة فى الداخل والخارج ؛ وقد أتيحت لهم فرص كثيرة لذلك .

٢ — ولكى يزيد خلفاءُ بنى أمية فى رجحان كفة الشام من الناحية السياسية ، حاولوا ، فيما حاولوا ، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام : وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظل يحتل البيت الحرام فى مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ، ما داموا على ولائهم للأسرة الأموية ، إلا بمشقة . وقد استغل عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة ، وحضّهم على أن يحجوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجوا إلى مكة ؛ وهذا ما يحكيه أوتيخيوس (Eutychius) على الأقل[١] . أما الذى لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد فى أن يجعل لبيت المقدس ، باعتباره مكاناً مقدساً فى نظر الإسلام ، مظهراً أروع مما كان له ، وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذى بنى قبة الصخرة موجودٌ فى النقش الذى لا يزال باقياً فى الجزء القديم من هذا البناء . أما النقش الحالى فيُذْكَر فيه اسم المأمون الخليفة العباسى على أنه هو البانى . ولكن دى فوجى De Vogüe[٢] اكتشف أن اسم المأمون إنما أدخِل فى النقش الأصلى من طريق تصحيح لكتابة سابقة ، وقد فات على المصححين أن يصححوا التاريخ القديم الذى يبين السنة التى كان فيها البناء . ويمكن على هذا أن يكون النص الأصلى على القطع ، هكذا : بنى هذه القبة فى سنة ٧٢هـ عبد الله عبد الملك ،

---

(١) فى كتابه فى التاريخ (Annales) ط . Pococke جـ ٢ ص ٣٦٥ . ويحكى أوتيخيوس مثل هذا عن مروان (جـ ٢ ص ٣٦٢) وعن الوليد الأول (جـ ٢ ص ٣٧٣) .

(٢) فى كتابه Temple de Jerusalem ، ١٨٦٤ ، ص ٨٥ فما بعدها . راجع أيضاً ما يقوله جيلدمايستر Geldmeister فى مجلة Zeitschr. des Deutsch. Palästinavereins ، ١٨٩٠ ، ص ١٤ . ولا يرجع الخطأ المطبعى فى الأرقام إلى المؤلف الذى كان عند الطبع قد توفى .

أمير المؤمنين . فقد كان للشام فى بيت المقدس المكانُ الوحيد الذى يستطيع أن يبارى مكة ، على ظهر الأرض (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٦ س ٣) ، ولم يكن مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فحسب ، بل كان عند المسلمين أيضاً مكاناً مقدساً من أول الأمر ، ولم يَحَنْدِل عنه محمد عليه السلام إلى مكة إلا فيما بعد ، وذلك نتيجة لما قضت به الظروف من تساهل مع الوثنية العربية[1] . وقد جعل الخليفة عمر لبيت المقدس بفضل زيارته له شأناً خاصاً ، وأثار بذلك حسد أهل العراق . وفى بيت المقدس نصّب معاويةُ أيضاً نَفْسَه خليفةً ، وصلى فى هـــذه المناسبة على جبل الجلجلة وعند جيثسيانى . ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة ، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق ، وذلك بمجرد أن امتد سلطانُه إلى ما وراء بلاد الشام . وقد بدا أن فكرةَ إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للأمة الإسلامية كلها فكرةٌ لا يمكن تنفيذها[2] . ولكن عبد الملك حاول ، فيما بعد ذلك ، أن يجعل للشام شأناً دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن ، ومن قبله كان معاوية قد أمر فى سنة ٥٠ هـ بأن يُحْمَل المنبر النبوى إلى الشام ، فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية عند كسوفها . وأعظم الناسُ ذلك ، فرجع معاوية عما أراد وقال : « لم أُرِدْ حَمْلَه ، وإنما خِفْتُ أن يكون قد أرِض ، فنظرتُ إليه » ؛ ثم كسا معاوية المنبر . وقد همّ عبدالملك بما كان معاوية قد همّ به ، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك . ويقال إن ابنه الوليد همّ مرةً أخرى بما همّ به أبوه ، ولكنه كفّ عن ذلك ، لما طلب سعيد بن

---

(١) [يقصد المؤلف فى أغلب الظن تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة ، وهذا التحويل سياسة إلهية حكيمة ، لا يدركها من يريد أن ينظر إلى كل شىء بمنظار السياسة الإنسانية — راجع تفاسير آية : سيقولُ السفهاءُ من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قُلْ : لله المشرقُ والمغربُ ... الآية » (سورة البقرة) — المترجم] .

(٢) ويروى أن خالد بن عبد الله القسرى قال : لو أمرنى أمير المؤمنين نقضتُ الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام (الأغانى ج ١٩ ص ٦٠) .

المسيب من عمر بن عبد العزيز أن يكلّم الوليد فى ألا يتعرض لسخط الله عزّ وجلّ (الطبرى جـ ٢ ص ٩٢ فما بعدها نقلاً عن الواقدى). ولم يكن الأمويون بحاجة إلى أن يراعوا، فيما يتعلق بالمدينة، ما يراعونه فيما يتعلق بمكة من اعتبارات، ذلك أن أهل المدينة جاهروا بنى أمية بالعداء أكثر من مرة وأخرجوهم أخيراً من المدينة على بكرة أبيهم؛ وقد حملوا ذلك لأهل المدينة فى نفوسهم. ويظهر أن عبد الملك كان يعيّن من يعيّنه من أمراء المدينة، وفى نفسه شىء من الحنق على أهلها. وقد تميز بروح خاصة من الشر من بين هؤلاء الأمراء هشامُ بن إسماعيل المخزومى (تولى إمارة المدينة منذ سنة ٨٢ هـ).

وكان موقف عبد الملك منذ نشأته من الإسلام مغايراً لموقف سلفه منه؛ فقد وُلد عبد الملك فى الإسلام وتربّى عليه، فضلاً عن أن ميلاده كان فى مدينة الرسول، وفيها كان التراث النبوى الذى بقى جزءاً من تراث الحكومة التيوقراطية ينالُ عناية بالغة، وفيها أصبح موضوعاً لاهتمام طائفة من العلماء تفرّغت له، وقد اجتهد عبد الملك نفسه فى صباه فى هذه الدراسات الدينية، وكان يُعتَبَر من العلماء بالقرآن. ويروى أنه تغيّر لما تولى الخلافة (أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ و ١٩٠)[1]. ولاشك أنه بعد توليه الخلافة جعل كلّ شىء خاضعاً للسياسة، وقد عرّض الكعبة نفسها للهدم. ولكن عبد الملك، بحكم السياسة أيضاً، تحاشى أن يجرح العواطف الدينية لرعيته على النحو الذى كان عليه يزيد بن معاوية من قلة الاكتراث. وقد عرف عبد الملك هذه العواطف

---

(١) [جاء فى كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ أن عبد الملك أنكر مهاجمة الكعبة أيام يزيد، ثم ابتلى بأن كان ضربها على يديه. وأدخل عليه مرة أسرى، فأمر بضرب أعناقهم، قبل سؤالهم. فقال له رجل من أهل الشام، كان له صديقاً أيام تنسّكه: يا أمير المؤمنين! لقد أقست الخلافة قلبك، بعد أن كنت رؤوفاً! قال: كلا! الخلافة لم تقس قلبى، ولكنه أقساه احتمال الضغن بعد الضغن — المترجم].

أحسن بكثير مما عرفها يزيد ، وعرف كذلك كيف يحترمها أكثر منه ؛ فكان رجاء بن حَيْوَة الكندى ، وهو الرجل الصالح الذى سنسمع عنه فيما يلى ، مقرباً لعبد الملك وصاحب جاه عنده[1] . وقد قَتل عبد الملك أيضاً رجلاً ادعى النبوّة أيامه (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣) ؛ ويذكر اوتيخيوس (Eutychius,2. 365) أنه أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا فى دمشق إلى المسجد الذى كان إلى جانبها ، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى . على أنه تعوزنا المادة للحكم فى أمر علاقة عبد الملك برعاياه النصارى ، ولكنا نعرف أن نصرانية تغلب لم تَضِرْهم ولم تَضِرْ شاعرهم الأخطل فى نظر عبد الملك على كل حال . أما ما يذكره تيوفانيس (فى حوادث سنة ٦١٨٦ لتاريخ الخليقة) من قتل الخنازير فى الشام ، فقد نشأ عن العداء للنصارى ، ولكنه لم يأتِ من قِبَل الخليفة ؛

وحَيْثُما كان الإسلام متمشياً مع العروبة فى الأغراض ، فإنه كان يلائم أغراض الحاكم ، وكان يخدم أغراض الدولة بسهولة . ولم يلبث عبد الملك ، بعد أن فرغ من القضاء على منافسيه ، أن استأنف على الفور جهاد الروم ، بعد أن ركد هذا الجهاد خمسة عشر عاماً[2] . فهزم جوستنيان الثانى فى سباستبول سنة ٧٣ هـ التى تبتدئ فى أواخر سنة ٦٩٢ م ، وكان قائد عبد الملك هو أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية ، وكانت له أيضاً قيادة الجيش فى آسيا الصغرى وأرمينية . وكان المسلمون يقومون بغزو بلاد الروم فى كل عام غزوات صغيرة أو كبيرة ، كما كان الحال فى أيام معاوية . وهذه الغزوات ، وإن لم تكن لها نتائج ، فإنها كانت مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة ، لأنهم بفضلها لم ينقطع تدربهم على الحرب ؛

---

(١) كتاب أنساب الأشراف ص ١٩٣ . ويروى أن رجاء كان صاحب الخزانة أيام بناء مسجد الصخرة فى بيت المقدس (انظر Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins - ١٨٩٠ ص ٢١) .

(٢) انظر مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣١ فما بعدها وكذلك بدأت الحرب فى أفريقية من جديد (نفس المصدر ص ٤٣٤ فما بعدها) .

وكان من إصلاحات عبد الملك المرتبطة باستئناف الحرب مع الروم ، والتى كان لها أيضاً شأن فى إرضاء الشعور الدينى والوطنى ، تغييرُه لنظام العُمْلة . ويحكى البلاذرى (ص ٢٤٠ و ص ٤٦٥ فما بعدها) عن سبب ذلك ما يأتى : كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، وكانت الدنانير الذهبية تأتى إلى العرب من قِبَل الروم ، وكانت الأقباط تذكر المسيح فى رؤوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ، وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم ، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتابة فى رؤوس الطوامير ، مثل : قل هو الله أحد ، وغيرها من ذكر الله . فكتب ملك الروم إلى عبد الملك : إنكم أحْدَثتُم فى قراطيسكم كتاباً[1] نكرهه ؛ فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . فكبر ذلك فى صدر عبد الملك ، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية ، فأشار عليه بضرب العملة وبتحريم الدنانير الرومية ومنع التعامل بها وبمنع تصدير القراطيس من مصر إلى بلاد الروم ؛ فمكثت القراطيس حيناً لا تُحْمَلُ إلى بلاد الروم ؛ وبدأ عبد الملك بضرب الدنانير فى دمشق سنة ٧٤ هـ ، وبدأ ضرب الحجاج للدنانير فى آخر سنة ٧٥ هـ . وكانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الأثينية) هى الجارية . ويقول الواقدى (الطبرى جـ ٢ ص ٩٣٩) إن عبد الملك لم يبدأ فى ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية إلا فى سنة ٧٦ هـ ، ولكن إن كان تيوفانيس (سنة ٦١٨٣ من تاريخ الخليقة) على حق فيما يقوله من أن رد جوستنيان الثانى للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب فى استئناف الحرب بين المسلمين والروم ، فإن الأولى أن يُزاد فى سنى التاريخ الذى يذكره البلاذرى ، لا أن يُنْقَصَ منها . وكانت العملة الجديدة تضرب وعليها : بسم الله ، وكانت تنقش عليها آيات من القرآن تدل على

---

(١) [الطوامير هى القراطيس ، والمقصود بالكتاب هنا هو الكتابة — المترجم].

وحدانية الله وصدق رسالة رسوله[1]. ولقد كان العرب ، قبل أيام عبد الملك ، يضربون عملة من الفضة والنحاس ، لكن على نماذج رومية وفارسية . ويظهر على كل حال أن معاوية كان من قبل قد حاول أن يفعل ما حققه عبد الملك ؛ ففي كتاب المؤرخ السرياني الذي نشره نولدكه أن معاوية ضرب عملة فضية وذهبية ، لكنها لم تُقْبَل ، لأنه لم يكن عليها الصليب . وكذلك لم تكن العملة التي ضربها عبد الملك تُقْبَل في أول الأمر ، خصوصاً في المدينة (البلاذري ص ٤٦٦ فما بعدها) بحجة أن وزنها لم يكن يزيد على وزن الدنانير القديمة الممسوحة[2] .

وإلى جانب العمل على التخلص من التأثير الأجنبي من طريق ضرب عملة إسلامية خاصة ، عُمِلت محاولة مماثلة بقصد الوصول إلى الغاية نفسها ، وهي جعل اللغة العربية لغة الديوان ، أعني ديوان المال ؛ ذلك لأن إدارة الدولة كانت في الغالب مقصورة على الناحية المالية ، وكان حساب الدولة حتى ذلك الحين يُعمل بالرومية في دمشق ، وبالفارسية في الكوفة . ويبدو من حكاية البلاذري (ص ٣٠٠ فما بعدها ، وكتاب الفهرست ص ٢٤٢) أن بدء التعريب كان في الكوفة ، وكان زاذان فرّوخ بن بيرى[3] ، أو ابنه مردانشاه ، آخر كاتب فارسي ، وكان مساعده في ذلك صالح بن عبد الرحمن ، فعرض صالح على الحجاج أن يحوّل

---

(١) وقد كره الفقهاء من الحجاج أنه كتب على الدراهم اسمه بعد عبارة : بسم الله [ويؤخذ من البلاذري (ص ٤٦٨ وابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٧) أن الفقهاء كرهوا كتابة القرآن على العملة تعظيماً للقرآن ، حتى لا يمسه إلا المطهرون — المترجم] .

(٢) قارن أيضاً ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٧ فما بعدها ، ويتجلى عدم النجاح في تنفيذ وحدة حقيقية في العملة وفي الموازين في الدولة الإسلامية من حديث ينسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكره يحيى بن آدم في كتابه الخراج ص ٥٢ — ٥٣ : منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم .

(٣) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٠٣٤ وكتاب أنساب الأشراف ٣٤٣ و ص ٣٥٢ .

الحساب باللغة العربية ، وقد استطاع ذلك ، وإن كانت كتابة الكسور قد شقّت عليه — ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل فى الكوفة ، أما السبب الذى من أجله عُرِّب الديوان فى دمشق فإن البلاذرى (ص ١٩٣) يقص فيه قصة عجيبة فيقول : إن رجلا من كُتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماء ، فبال فى الدواة . فبلغ ذلك عبدَ الملك فأدّبه ، وأمر بنقل الديوان من الرومية إلى العربية وكلّف سليمان بن سعد بإنجاز هذا العمل ، فأتمّ ما عهد به إليه فى خلال عام ، وكوفئ عليه بأن أعطى خراج بلاد الأردن فى عام ، وكان مقداره مائة وثمانين ألف دينار . وبقى النظام الرومى والفارسى فى الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم تتغير إلا لغة الديوان ، ولا شك أيضاً فى أن الكُتاب الروم والفرس الذين كانوا فى خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا ، لأنهم كانوا يعرفون العربية ، وكان صالح بن عبد الرحمن الذى قام بنقل الديوان فى الكوفة ، هو نفسه ، فارسيـاً من سجستان (البلاذرى ص ٣٠٠ س ١٢ ، ١٣ وص ٣٩٣ س ١٥) ، وكان لا بد للكاتب من معرفة الفارسية والرومية لكى يستطيع النقل إلى العربية . ولم يزل لسرجون الرومى فى دمشق على عهد عبد الملك ما كان له من مركز ونفوذ أيام معاوية ويزيد (الطبرى ج ٢ ص ٨٣٧ س ١١)[1] .

ويقول تيوفانيس (فى حوادث سنة ٦١٩٩ من تاريخ الخليقة) — وهو ينسب إلى الوليد الأول ، لا إلى من قبله ، إحلال اللغة العربية محل الرومية فى الكتابة فى الديوان[2] — إن العرب قد اضطروا إلى الاحتفاظ بعلامات الأرقام

---

(١) [النص الذى يذكره المؤلف لا يدل على ما يقوله ، وكل ما فيه أن سرجون كان يكتب لمعاوية على الديوان ، ولكن البلاذرى (ص ١٩٣) يقول إن سرجون كان كاتباً لعبد الملك ، وإن عبد الملك عرض عليه عمل سليمان بن سعد — المترجم] .

(٢) وقد نقل الوليد الديوان إلى اللغة العربية بمصر سنة ٨٧ هـ ، لكن إحلال اللغة العربية لم يكن محل اليونانية بل القبطية ، كما يقول المقريزى (الخطط ج ١ ص ٩٨) .

الرومية ، وإن كتّابهم كانوا ما يزالون نصارى ؛ والحقيقة أن الكتاب النصارى فى العصر العباسى ، الذى ألف فيه هذا المؤرخ البوزنطى كتابه ، كانوا أقوى نفوذاً وأعظم سلطاناً مما كانوا فى أى وقت مضى ؛ ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه فى ذلك العصر أيضاً . ومهما يكن من شىء فإن العرب كانوا يُعتبرون غير صالحين لتولى شئون الخراج ، ولم يكن ذلك لمجرد قلة المعرفة الفنية عندهم (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ ، ١٤٧٠)(١) .

ويبدو للإنسان أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت إدارتها فيما يظهر ذات طابع فنى ومتدرج أكثر مما كانت عليه من قبل ، وإن لم تبلغ فى ذلك إلا درجة أقل بكثير مما بلغته إدارة الدولة العباسية : ومن المناصب العليا فى الدولة ما لا ذكر لوجوده قبل عهد عبد الملك ، ولكن لا يتحتم أن يؤخذ من ذلك أن هذه المناصب لم تكن موجودة من قبل . على أنه من المؤكد مثلا أن لقب الـ Πρωτοσύμβουλος (= المستشار الأول) أصبح لا يلائم عبد الملك ، وقد كان لقباً يلقب به عند مؤرخى الروم الخلفاء الأولون من بنى أمية . وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة أوشك معها أن يكون جافياً غليظاً ، حتى مع الحجاج ، على علو فضله ومكانته ، فكان يعامله معاملة تختلف كل الاختلاف عن معاملة معاوية لزياد ؛ وقد أصبح عبد الملك أيضاً لا يسمح لذوى النباهة من الرجال ، الذين كان — بحسب العادة القديمة — يجتذبهم إلى مجالسه ويشاورهم ، بأن يرفعوا الكلفة بين أنفسهم وبينه ، كما كان يفعل معاوية من قبل ، مطمئناً إلى أن رجحان عقله كفيل بأن يسعفه . ولم يكن لعبد الملك ولا لمن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفيانيين ، وهو

---

(١) [أخذ على عبيد الله بن زياد أنه استعمل الدهاقين فى جباية الخراج ، فعلل ذلك بأنه وجدهم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون فى المطالبة من العرب » — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨] .

اللطف الذي ربما كان لهم ، كما كان للسيد العربي القديم ، أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية . وإنما أراد عبد الملك أن يظهر بمظهر السيد الصارم (كتاب أنساب الأشراف ص ١٧٨)[1] .

وكان عبد الملك ، إذا كان الأمر أمر خلافته ، لا يأبه لأي اعتبار ؛ فقتل بيده ابن عمه عمرو بن سعيد ، لأنه تطاول للخلافة . وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة في أبنائه ، فلم ينقذه من بطش عبد الملك إلا الموت . على أن عبد الملك أعطى أقاربه من بني أمية من التمتع بالسيادة نصيباً أوفر مما كان يعطيهم إياه من كان قبله من الخلفاء ، فكادت تكون في أيديهم في أول الأمر كل إمارات الأمصار ، فكان عبد العزيز بن مروان أميراً على إفريقية ومصر ، وربما كان ذلك بفضل وصية أمر بها مروان في كره ، ويروى أن مروان كان يريد أن تكون لعبد العزيز ولاية العهد بعد عبد الملك[1] . وكان محمد بن مروان أميراً على الجزيرة وأرمينية ، وكان لهذه الإمارة خطرها ، نظراً للحرب مع الروم . وتقلد بشر بن مروان ، على صغر سنه ، إمارة الكوفة ؛ ثم ضمت إليه إمارة البصرة ،

---

(١) [يجد القارئ في خطبة لعبد الملك خطبها في الحجاز هذه العبارات مثلا : « أيها الناس ! لست بالخليفة المستضعف ، يعني عثمان ، ولا بالخليفة المداهن ، يعني معاوية ، ولا بالخليفة المأفون ، يعني يزيد . ألا وإن من قبلي من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون ، وإني والله لا أداويكم إلا بالسيف . . . . هذا عمرو بن سعيد قال برأسه كذا ، فقلنا بسيفنا كذا . . . . إن الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدوداً ، فما زلتم تزدادون في الذنوب ونزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا وأنتم عند السيف . . . » — المترجم ، نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٧ — ١٧٩] .

(٢) جاء في كتاب Cont. B.A. § 29 :

Marvan antequam moreretur. . . Aegyptum vel (= et) : ulterioris Aethiopiae partes, Tripoleos Africae et usque ad = Gaditana freta adiacentes provincias Habelaziz filio dereliquit [وقبل أن يموت مروان كان قد ترك لابنه عبد العزيز مصر أو (= و) أجزاء من الحبشة القصوى وطرابلس أفريقية والولايات المجاورة ، حتى مضيق قادس — المترجم] . وقد غضب عبد العزيز من عبد الملك ، لأن عبد الملك طلب منه أن يحمل له خراج مصر ؛ ولم تكن أم عبد العزيز أما لمروان (أنساب الأشراف ص ٢٣٩ ، ٢٦١) .

وقبل ذلك كان أموىٌّ آخر ، هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، يتولى البصرة . وكانت جماعة بنى أمية فى مجلس الخلافة ، منذ أن خرجوا مع مروان من المدينة إلى دمشق ، أكبر بكثير من ذى قبل . وكان هناك شأن أيضاً لخالد بن يزيد بن معاوية . وقد حاول عبد الملك أن يخفّف عليه وطأةَ ما كان يحس به من مضاضة بسبب إقصائه بغير حق عن وراثة الخلافة ، فقَرَّبه إليه وزوّجه من ابنته . وقد تزوج عبد الملك نفسه إحدى بنات يزيدَ ، وكان اسمها عاتكة ، وكانت زوجه الأثيرة عنده ، وكان لها عنده شأن عظيم .

وتُذكر فى كتاب أنساب الأشراف الذى نشره آلفارت[1] حكايات كثيرة عن هذا الخليفة الذى بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من خلفاء أسرة بنى أمية . وهذه الحكايات تزيد فى معرفتنا بشخصه وتعطينا إلى جانب ذلك أيضاً كل ما أحاط به من طرائف : فهى تحدثنا عن الأماكن التى كان يغير بينها مقامه بحسب فصول السنة ، وعن نسائه وعن أسرته ، وعما كان قد اعتاد أن يباشره فى كل يوم من أعمال ، وعن عنايته بتأديب أولاده ، عن فضائله ووجوه ضعفه ومعايبه — كان فاسد الفم — وعن الألقاب التى كان يلقب بها . وهو قد شاب قبل الأوان ، وتوفى عن ستين عاماً فى دمشق[2] ، يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٨٦ هـ . (= ٩ أكتوبر سنة ٧٠٥ م) .

---

(١) [راجع الكتاب المذكور ص ١٦١ — ٢٣٨ — المترجم] .

(٢) يذكر الواقدى عن أبى معشر (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٢ — قارن أنساب الأشراف ص ٢٦٤) أن عبد الملك مات يوم الخميس النصف من شوال ؛ وبحسب فستنفيلد **Wü·tenfeld** وافق يوم الخميس الرابعَ عشر من الشهر ، وهذا هو أيضاً التاريخ الذى يذكره إلياس النصيبى . أما حمزة فيذكر المدائنى (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٣) وصاحب أنساب الأشراف أن عبد الملك مات وله اثنتان وستون أو ثلاث وستون سنة ، أما أبو معشر فيقول إنه مات وله ستون سنة ، والواقدى يذكر أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٣ وأنساب الأشراف ص ١٦٣ ، وكذلك الأنساب ص ١٥٢ بالقراءة الصحيحة) ؛ ورقم الـ ٦٠ هو الأصل كما فى الطبرى (جـ ٢ ص ٤٦٧ س ١١) .

ويسمى عبدُ الملك أبا الملوك ، لأن أربعة من أبنائه صاروا ملوكاً من بعده ، وكان خلفاء بنى أمية بعده كلهم من ذريته ، ولم يخرج عن ذلك إلا اثنان من خلفاء بنى أمية المتأخرين . وكان أخوه عبد العزيز ، أمير مصر ، قد عُيّن خلفاً له ، وبويع أيضاً على ذلك . وقد جهد عبد الملك فى أن يحمله على التنازل عن الخلافة لكى يصرفها إلى أعزّ أبنائه عنده ، ولكن جهده لم يثمر . فامتنع عبد العزيز امتناعاً شديداً ، ولم يُفِدْ معه الترهيب ولا الترغيب . ولكن القدر أسعد عبد الملك بأن مات عبد العزيز قبله (الطبرى ج ٢ ص ١١٦٤ فما بعدها ، قارن أيضاً ص ١١٧١) ؛ وعند ذلك جعل عبدُ الملك ولايةَ العهد فى الوليد أكبر أبنائه . ثم ارتقى الوليد عرش الخلافة ، وفى عهده وثبت سيوفُ العرب وثبة جديدة ، فاحتلوا حصن طوانه (Tyana) بعد حصار طويل ، وأعدت حملة كبيرة على القسطنطينية نفسها . وهكذا بدأت من جديد فترةٌ من الفتوحات الكبيرة ، فغلب العربُ على ما وراء النهر وعلى أسبانيا . وفى داخل الدولة سادت السكينة بعد طول انتظار ، وجنى الوليدُ ثمرات عمل أبيه ، وهو قد ترسم آثاره ، فتمسك بالحجاج ، أمير المشرق الذى أثار على نفسه كثيراً من العداوات وكان بمثابة العلامة المميزة لحكومة الخلفاء الذين خدمهم . وقد كان الوليد حريصاً على أن يظهر بمظهر السيد والآمر ، ويقال إنه كان أول من تجبّر من الخلفاء (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤٣) ، وتنسب إليه كلمات من قبيل oderint modo metuant [1] (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٨) [2] . وقد عمل على تقوية الإسلام من حيث هو دين الدولة ، وربما كان له فى قلبه محبة عميقة أيضاً ، فوضع حداً لإيذاء أهل الدين والورع فى المدينة على يد أميرها هشام بن إسماعيل المخزومى ، وعيّن مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز ،

(١) [معنى هذه العبارة اللاتينية هو : فليكرهوا ، ما داموا خائفين — المترجم] .

(٢) [ختم الوليد أول خطبة خطبها بعد أن انتهى من دفن أبيه بقوله ، بعد حض الناس على الطاعة والاتحاد : أيها الناس ! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه — المترجم] .

وكان تعيينه موافقاً لهوى الفقهاء (الطبرى جـ ٢ ص ١١٨٢ فما بعدها) ؛ وكان الوليد يحتّم على الناس جميعاً أن يقرءوا القرآن ويعرفوه ، وكان يجعل ذلك شرطاً فى قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١) ؛ وإن كان هو فى شبابه قد كان يلحن فى اللغة التى نزل بها القرآن لحناً فاحشاً ، مما اهتم له أبوه كثيراً (أنساب الأشراف ص ٢٣٦ فما بعدها وص ٢٦٠) . وقد نفذ الوليد ما يقال إن أباه عبد الملك كان قد عزم عليه ثم تركه ، وهو أنه أخذ من النصارى فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، فوسع بها المسجد الملاصق لها وجدّده تجديداً رائعاً فى سنة ٨٤ هـ (البلاذرى ص ١٢٥ فما بعدها والطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٥) . وأخذ من كنيسة نصرانية فى بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها فى بيت المقدس فوق الصخرة المقدسة (Eutych. 2, 373) . وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة (البلاذرى ص ٦ ، ٧) . على أنه قد أغضب أهل الورع فى المدينة بذلك ، كما أغضبهم بأنه فى سنة ٩١ هـ خطب فيه الخطبة الأولى من الخطبتين ، وهو جالس ، على عادته فى الشام (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٣٣) . وكان مولعاً بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها ، فانتقلت هذه الروح منه إلى الناس (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٢)[1] . وقد جلب له الحجاجُ الجاموسَ من الهند إلى إقليم المستنقعات عند خلجان إلسوس . على أنه عُنِى أيضاً بأهل العاهات ، فأعطى المجذّمين وأعطى كلّ مُقعَد خادماً وكلّ ضرير قائداً ، لكيلا يضطروا إلى سؤال الناس (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١) . وكان أهل الشام أكثر من استفاد منه ، وكانوا يعتبرونه أفضل خلفائهم (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١ س ٣) . ومن العسير أن

---

(١) [جاء فى الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٢ – ١٢٧٣ : أن الوليد كان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع ، وكان إذا التقى الناس فى زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك ، فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجوارى . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : « ما وردك الليلة ، وكم تحفظ من القرآن ، ومتى تختم ، وما تصوم من الشهر ؟ » – المترجم] .

تصدق أنه كان فى الشام متحيزاً إلى قبيلة قيس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، ولأن المؤرخين القدماء لا يذكرون شيئاً من ذلك ، ونحن لا ينبغى أن نستنتجه من أمه ولادة بنت العباس العبسى كانت قيسية (أنساب الأشراف ص ١٧٢ س ١٩ فما بعده ، والحماسة ص ٦٧٢) وأن الحجاج ، وهو قيسى النسب ، كان ساعده الأيمن . ويميل المؤرخون المتأخرون إلى وضع كل الرجال الذين لعبوا دوراً فى تاريخ الدولة فى جانب أو فى آخر ، ويقلدهم دوزى فى ذلك . وقد مات الوليد فى يوم السبت منتصف جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هـ ، وهو فى حوالى الأربعين من العمر (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٦٩ فما بعدها) ، وكان يوم السبت يوافق ١٣ جمادى الآخرة = ٢٣ فبراير سنة ٧١٥ م[1] .

٣ — وفى خلافة عبد الملك وابنه الوليد ظل العراق سنين طويلة تحت إمرة الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفى الذى تقدم ذكره كثيراً والذى ظهرت مواهبه فى مكة والمدينة أول الأمر . وكان تاريخ العراق فى تلك الحقبة هو التاريخ الحقيقى للدولة الإسلامية .

ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلى باطنها كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذى استمر سنين طويلة حول الخلافة ؛ وقد أخمدت الثورة العنيفة التى قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالى ، بقيادة المختار الثقفى ، ولكنها خلفت فى النفوس ناراً متوقدة[2] ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها[3] . ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن

---

(١) لعل عبارة « منتصف الشهر » كانت لا تدل قديماً على اليوم الخامس عشر من الشهر على التدقيق ، كما يفهم ذلك عادة . ويذكر إلياس النصيبى أن الوليد توفى يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ .

(٢) انظر ما كتبناه عن الشيعة Schia p. 74ss. .

(٣) انظر ما كتبناه عن الخوارج Chavarig p. 32ss. .

يقضى عليهم ، وقد فتّوا فى عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج : فلما هُزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب فى ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقاً لذلك ، فانضم إلى المنتصر ، وعرف له المنتصرُ قدره . ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق لم يكونوا يصلحون إلا لتولى المنصب بلا عمل . فلم يكن من خالد بن أسيد الذى عُين على البصرة إلا أن نحى المهلبَ عن القيادة وجعله على خراج الأهواز ، وتولى هو فى أول الأمر القيادةَ فى محاربة الخوارج ، أولئك الثوار المتعصبين الخطرين ، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز ، فجاءت على أثر ذلك هزيمةٌ قبيحة لحقت بجيوش الدولة . فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بها ، رد عليه عبد الملك مُسفّهاً رأيه فى إبعاد المهلب ، وهو البصير بالحرب المقاسى لها ، وفى جعله أخاه قائداً مع أنه أعرابى من أهل مكة ، وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشيره فى كل ما يتعلق بقتال العدو . ثم إن عبد الملك ولى المهلب حربَ الأزارقة ، ولكنه ، بعزله خالداً عند ذلك وتعيينه أخاه بشراً بدلا منه وإسناده إليه إلى جانب إمارة الكوفة إمارة البصرة ، لم يسعف المهلبَ ، لأن بشراً ، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه ، لم يكن أحسن صنعاً ممن سبقه من أمراء بنى أمية ؛ وقد شق عليه أن إمرة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة ، فامتلأ قلبه حقداً عليه . وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتى له من الخليفة ، ولكنه أمر قائدهم أمراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأمر ، وبألا يقبل له مشورة وألا يحترمه . وكان بشر أخرق فيما صنع ، لأنه استجهل القائدَ وطلب منه ما لا يصح طلبُه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه ؛ ولذلك فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخفَّ

بعقله . وكان من الحظ الحسن أن بشراً توفى عام ٧٤ هـ[١] ، فوجه عبد الملك الحجاج والياً على العراق ، وقرّت بذلك عينُ المهلب . وقد تولى الحجاج عمله فى أول سنة ٧٥ هـ[٢] . وهذا هو مجمل حكاية أبى مخنف ، كما نجدها عند الطبرى (جـ ٢ ص ٨٢١ فما بعدها ، وص ٨٥٥ فما بعدها) .

وتقدم الحجاجُ إلى أهل الكوفة بخطبة خطبها لما دخل الكوفة لمباشرة مهام منصبه ، وهى ليست دون خطبة زياد بن أبيه ، شريكه فى الوطن وسلفه فى المنصب — تلك الخطبة التى ألقاها فى البصرة . وما جاء عند الطبرى جـ ٢ ص ٨٦٣ فما بعدها) من أخبار ذلك يرجع إلى عمر بن شبّة (نقلا عن أبى غسان والمدائنى) ، ويمكن مقارنته بما فى كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٦٦ فما بعدها وكتاب الكامل ص ٦٦٥ فما بعدها) . وقد صعد الحجاج المنبر متلثّما ، ولبث لا يتكلم . فقال محمد بن عمير بن عطارد : ماله ، ترّحه الله ، لا يتكلم ! ما أعياه وأشناه وأذمّه ! . . . ثم أخذ كفاً من حصى ليحصب الحجاج[٣] . وأخيراً قام الحجاج ليخطب خطبته التى أوّلُها :

أنا ابنُ جلا وطلاّعُ الثنايا متى أضعُ العمامةَ تعرفونى

وهى الخطبة التى تهدد فيها أهلَ العراق وتوعّدهم . وتبين لابن عمير أن الحجاج ليس عَيّاً ولا ضعيفاً ، فجعل الحصا يتساقط من يده ، كلما استمر الحجاج فى كلامه . وكانت أول مهام الوالى الجديد إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة ، وكأنما كان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشر بمثابة إشارة لترك معسكر المهلب فى رامهرمز ، دون إذنهم بذلك . وهم قد كانوا سئموا البقاء فى ميدان القتال بعيداً عن

---

(١) يقول الواقدى (الطبرى جـ ٢ ص ٨٥٢ س ٨ وص ٨٥٤ س ١) إنه مات سنة ٧٣ هـ ، ولكن هذا مستحيل .

(٢) لا فى رمضان كما يذكر عند الطبرى (جـ ٢ ص ٨٧٢) ، قارن الطبرى جـ ٢ ص ٩٤٤ س ٩ و ص ٨٧٦ س ٣ ، وأنساب الأشراف ص ٢٧٠ س ١ .

(٣) فالظاهر إذن أن زياداً ترك بعض الحصى فى المسجد [راجع ما تقدم ص ١١٩ — المترجم]

أهليهم وأولادهم زماناً طويلا ، وكانوا قد اعتادوا الرغد الحقيقى فى ديارهم (الطبرى ج ٢ ص ٨٦٥ فما بعدها[1]) . فأنذر الحجاج على الفور أهل الكوفة من أعلى المنبر ؛ أن من رُئى فى المدينة من الجند الهاربين من عصاة الجيوش بعد ثلاثة أيام فالذمّة منه بريئة ، ومالُه نَهْبٌ ، ودَمُهُ مباحٌ ، وقد عرف كيف يؤكّد هذا التهديد ، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها ، ثم بدأ الحجاج عمله فى البصرة بمثل ما بدأه به فى الكوفة ، وكان حظه من التوفيق هناك مثل حظه هنا . وتزاحم الجند الذين كان عليهم أن يعودوا إلى الجيش على قنطرة دجلة ، لكى يعودوا إلى رامهرمز ، وذهب الحجاج بنفسه معهم إلى أن بلغ رستقاباد . وكان عليه فى شعبان سنة ٧٥ هـ أن يقضى هناك على ثورة بسبب إنقاص الزيادة التى كان ابن الزبير قد زادها فى أعطيات أهل العراق . وتدل رواية صاحب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٨٠ فما بعدها) ورواية ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) على أن هذه الثورة كانت أخطر بكثير مما يبدو من الرواية المقتضبة الموجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ٨٧٩) ، وبعد القضاء عليها أصبح من الممكن توجيه القتال إلى الأزارقة بوسائل كافية ، وإن كان لم يمكن القضاء عليهم قضاء تاماً إلا بعد مضى أكثر من عامين[2] .

وفى الوقت الذى لم يكن قد تمّ فيه التغلب على الأزارقة فى المشرق ، قام خوارج آخرون فى أول سنة ٧٦ هـ ، فى غرب العراق ، كانوا يتميزون بأنهم ينتمون فى الأغلب إلى قبيلة واحدة أبيّة ، هم بنو شيبان من بكر . وكانوا قد تركوا مواطنهم الأولى على الضفة اليمنى للفرات ، فى بادية الكوفة والبصرة ، وهاجروا منذ زمان قصير إلى شمال أرض الجزيرة . وكان أشهر زعمائهم وأخطرهم

---

(١) يعتمد المؤلف فى هذا على ما جاء فى خطبة الحجاج فى الكوفة من قوله إن أهل العراق أشبه بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ... الخ ، ودلالة هذا على ما يقوله المؤلف ليست مباشرة – المترجم] .

(٢) راجع ما كتبناه عن الخوارج ص ٣٩ فما بعدها من كتابنا .

شبيب بن يزيد[1] الذى كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء ، كأنه فى كل مكان ، وكأنه ليس فى أى مكان ؛ بل هو فى سنة ٧٦ هـ خرج من الجزيرة إلى العراق وهزم جيوشاً كثيرة أرسلها الحجاج لمقاتلته ، وبلغ منه أن طرق أبواب العاصمة . وكانت الأرض التى اختارها لجولاته هى الأرض القديمة للخوارج الأولين ، أعنى أرضَ جوخىٰ على النهروان والجبالَ التى تقع إلى شمالها . وبعد أن لبث فترة طويلة فى بلاد أذربيجان الجبلية ، تقاطر إليه فى أثنائها خلقٌ كثير ، تقدم فى النصف الثانى من سنة ٧٧ هـ ، ومعه جيوش كبيرة ، نحو الجنوب ، يحاول هجوماً حاسماً على الكوفة ؛ وقد أمر الحجاج جيوشاً شتى لكى تجتمع لمناجزته ؛ ولكنه هزم جيوش الكوفة كلها هزيمة شنعاء جعلتهم يلوذون بالفرار ، ثم ترك الميدان . وكانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت ، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام ، وجاء هؤلاء فى الوقت المناسب تماماً ، وطردوا شبيباً ، فقفل راجعاً إلى أرض جوخى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ارتحل عنها إلى بلاد كرمان النائية ، أعنى إلى حصن الأزارقة المنيع ، ثم خرج من هناك والتقى عند دُجيل (فى الأهواز) بجيش الشام الذى أرسلَ وراءه ؛ وغرق ، وهو راجع عبر النهر ، وذلك فى سنة ٧٧ هـ (ربيع سنة ٦٩٧ م) . وهكذا أنقذ أهلُ الشام الكوفةَ ، وسنرى الثمن الغالى الذى كان لا بد أن يُدْفَع لقاء معونتهم . وإلى أبى مخنف[2] ترجع رواية أخبار شبيب والرواية المفصلة التى حكاها الطبرى (ج ٢ ص ٨٨١ — ١٠٠٢) .

---

(١) كانت أسرة شبيب تقطن غير بعيد من الموصل ، لكنها كانت قد هاجرت إلى هناك (انظر فيما يتعلق بالكوفة الطبرى ج ٢ ص ٩٧٧) من ماه الصاف ، أو الصف ، فى بادية الكوفة (الحماسة ص ١٥) ، وبقى بعض أقاربه يقطن هناك . وكان شبيب وأبوه يختلفان إليهم (الطبرى ج ٢ ص ٩١٥ ، ٩٧٨) . وربما كان تفرق بنى شيبان لم يأت اختياراً ، بل بسبب من معاوية .

(٢) راجع Chavarig p. 41ss

وفى سنة ٧٨ هـ ، بعد أن كان قد تمّ القضاء على خطر الخوارج فى شرق العراق وغربه ، ضمّ عبدُ الملك خراسانَ وسجستان إلى الحجاج ، وذلك زيادة على ما كان له من إمرة الكوفة والبصرة (الطبرى ج ٢ ص ١٠٣١ فما بعدها ، وأنساب الأشراف ص ٣١٠ فما بعدها) ، فأعطى الحجاج ولايةَ خراسان المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، قاهر الأزارقة ، الذى كان قد اكتسب مجداً وشهرة هناك من قبل (البلاذرى ص ٤٣٢) . وبقى المهلب هناك حتى وفاته (آخر سنة ٨٢ هـ) ؛ وقد أورث أسرته وقبيلته ما كان له من سلطان ؛

ووجه الحجاجُ إلى سجستان(١) عبيدَ الله بن أبى بكرة(٢) ، وهو بصرى نابه من البيت الثقفى المعروف الذى ينتسب إليه زياد بن أبيه : فقام عبيدُ الله فى سنة ٧٩ هـ بحملة وجّهها إلى زنبيل(٣) كابل وزابل ، لأنه منع الخراج ؛ فاستدرجه الزنبيل إلى الإمعان فى البلاد ، حتى انتهى إلى شِعْب ، ثم أخذ عليه الطريق ، فلم يستطع عبيدُ الله أن ينجو ويشق طريقه راجعاً إلا بعد مصالحة الزنبيل ؛ وقد تكبد خسائر جسيمة أصابت جند الكوفة خاصة ، وحزن حزناً قصّر أجله ؛ فيقال إنه مات كمداً ، وذلك فى سنة ٧٩ هـ (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٢٠) ، أو فى سنة ٨٠ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) . وكانت سجستان تحتاج إلى قائد

---

(١) فيما يتعلق بالتاريخ السابق لسجستان قارن البلاذرى ص ٣٩٢ فما بعدها .

(٢) [تجد حكاية حملة ابن أبى بكرة على الزنبيل عند الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٦ فما بعدها وفى كتاب أنساب الأشراف ص ٣١١ فما بعدها — المترجم] .

(٣) النطق الصحيح هو زُنْبيل (اسم علم ولقب فى وقت معاً) لا رُتْبيل (راجع ما يقوله كانيجهام (Cunningham) فى أعمال المؤتمر الدولى العاشر للمستشرقين ، مجلد ١ ص ٢٤٤ ، وراجع Justi, Namenbuch, 385 وكتاب Marquart, Eranschahr,37) ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٢ س ١٨ و ج ٣ ص ١٩٤ س ٣ ، ويوجد زنكبيل اليمنى عند الطبرى ج ١ ص ١٨٥٥ س ١٦ ؛ ويسمى الزنبيل سيد الترك — الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢ فما بعدها و ١١٣٧ س ٢ و ١٠٤٢ س ١٢ . وكان أهل البلاد إيرانيين ، لكن الأسر الحاكمة (والجند) كانوا تركا ؛ قارن ديوان الفرزدق طبعة بوشيه ص ٢٠٦ س ١٠ (؟) .

بجنك يكون والياً عليها ، فاختار الحجاج لذلك كوفياً أبياً من قبيلة ملوك كندة القدماء ، وهو عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، الذى كان فى بلاد كرمان[١] المجاورة لسجستان ، وشدّ أزره بجيش كبير كامل الأعطيات تامّ الأهبة والعدة ، انتخبه من أهل الكوفة والبصرة ، ولذلك سُمى هذا الجيش « جيش الطواويس » .

وكان هذا هو الموقف لما اندلعت على الحجاج فى سجستان ثورة جيش العراق ، وهى الثورة التى هزّتْ دولة الأمويين هزًّا شديداً . ويذكر الطبرى[٢] فى ذلك رواية أبى مخنف ، وهى رواية حيّة مُفَصَّلة ، مؤثراً لها على غيرها ؛ أما رواية كتاب الأنساب (ص ٣٠٨ فما بعدها) ، وهى أيضاً مفصلة تفصيلا وافياً ، فهى ترجع إلى رواة كثيرين . اتبع عبد الرحمن ابن محمد — وهو يسمى عادة بابن الأشعث نسبة لجدّه — طريقة مغايرة لطريقة سلفه ، فلم يقم بغارات متفرقة ، بل بحرب حقيقية منظمة ؛ وأراد أن يحذر مغبة التسرع فى التوغل فى البلاد ، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز عُمْراناً إلا خلّف فيه قائداً ، معه حامية من المسلمين ؛ ونظّم المراسلات بالبريد بين البلاد ، وجعل الأجناد على العِقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف . وبعد أن حاز أرضاً عظيمة وامتلأت يداه بالغنائم ، حبس الناس

---

(١) يقول أبو عبيدة (أنساب الأشراف ص ٣٢٠ فما بعدها ، والطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) إنه كان هناك لإخماد ثورة قام بها هميان بن عدى السدوسى السكرى (قارن كتاب الأنساب ص ٣٤٢) وفى روايات أخرى (الأنساب ص ٣١٨ س ٢ ، ٣٢٠ س ١٠) ، خلافاً لذلك أنه كان هناك لمحاربة الخوارج . وبحسب كتاب الأنساب (ص ٣٠٩ كان فى أول الأمر قد ذهب إلى سجستان من أجل ميراث له ، فجعل يختلف إلى بغىّ يقال لها ماهبوش ، فأخِيذَ معها . ولكن بحسب كتاب الأنساب (ص ٣٣٤ فما بعدها) كانت هذه تسكن كرمان ولم تستهوه هو بل استهوت عربياً ذيلا غيره ، حتى رهن من أجلها سرج حصانه وطلب من ابن الأشعث أن يفتكّه حتى يستطيع أن يركب معهم ، قارن ديوان الفرزدق ، طبعة بوشيه (ص ٢٠٩ س ١٢) .

(٢) [تجد رواية الطبرى فى الجزء الثانى ص ١٠٤٢ فما بعدها و ١٠٥٢ فما بعدها ، و ١٠٦٣ فما بعدها و ١٠٧٠ فما بعدها و ١٠٨٥ فما بعدها و ١٠٩٨ فما بعدها حتى ص ١١٣٨ — المترجم] .

عن الوغول فى البلاد حتى يتعوّد جنوده على طبيعة الجبال ، بما فيها من شعاب وعقاب ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ولكن الحجاج ، وهو الرجل السريع القليل الصبر ، كما هى عادته ، كتب إليه يتّهمه بالضعف والجبن ومحبة المهادنة والموادعة ، وحثّه فى كتب متلاحقة على التقدم فى بلاد العدو والتوغل فيها ، وهدّده ، إن لم يفعل ، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق ابن محمد بن الأشعث ، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند . فغضب عبد الرحمن وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج ، وقال لهم : إنى لكم ناصحٌ ولصلاحكم مُحِبٌّ ولكم فى كل ما يحيط بكم نَفْعُهُ ناظرٌ ، ولقد كان من رأيى فيما بينى وبين عدوكم رأىٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامكم وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه رأياً . . . وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منه كتاب يُعَجِّزنى ويضعّفنى ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس — وختم عبد الرحمن كلامه قائلا : « وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا أمضيتم ، وآبى إذا أبيتم » . وكان أهل العراق يبغضون الحجاج ، وكرهت نفوسُهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة فى بلاد قاصية ، فكانوا يرحّبون بكل فرصة تسنح للعودة إلى أوطانهم . وكان ابن الأشعث يعلم تماماً ما سيقولون فى جوابهم . فلما انتهى من كلامه ثار الناس فقالوا : لا ، بل نأبى على عــدو الله ولا نسمع له ولا نطيع . ثم قام أحدهم فقال : إن الحجاج لا يرى فيكم إلا رأى من قال لأخيه : إحمل عَبْدَكَ على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك ! إن الحجاج والله لا يبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب والعقاب والأشب ، فإن ظفرتم فغنمتم أكَلَ البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة فى سلطانه ، وإن ظفر عدوُّكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالى عنتهم ولا يُبقى عليهم ، فاخلعوا الحجاج وبايعوا أميركم عبد الرحمن ! فإنى أشهدكم أنى أوّل خالع . وقام آخر فقال : إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجمّركم تجمير فرعون الجنود . . .

ولن تعاينوا الأحبة ، فيما أرى ، أو يموتَ أكثرُكم ، بايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج فانفوه عن بلادكم ! ووثب الناس إلى ابن الأشعث وبايعوه جميعاً على خلع الحجاج وجهاده ، حتى يخرج من العراق . وكان أشدَّهم حماسة يمنيّو الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث[1] . على أن إخوة ابن الأشعث لم يكونوا فى جانبه (أنساب الأشراف ص ٣٢٦ فما بعدها) .

ولما أظهر عبدُ الرحمن خَلْعَ الحجاج وَادَعَ الزنبيل وكتب بينه وبينه كتاباً ، وعاهده ألا يرزأ منه شيئاً ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنبيل خراجاً أبداً ما بقى ، وإن انتصر عليه الحجاج لجأ ومن معه إلى الزنبيل ، فمنعهم ؛ وعيّن عبدُ الرحمن خلفاء لنفسه فى بُسْت وزَرَنْج ، حاضرتى سجستان ، ثم تحرك بالجيش فى سنة ٨١ هـ ، وانضم إليه فى طريقه جندٌ من الكوفة والبصرة ، كانوا فى حاميات الأمصار ، حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس ، قال النــاس بعضهم لبعض : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعنا عبد الملك ؛ واجتمعوا إلى ابن الأشعث ، فكان أول من خلع عبد الملك ، وخلعه الناس ، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخَلْع أئمة الضلال . ولم يكن ابن الأشعث بحاجة إلى أن يدفعهم للملك ، بل هم الذين دفعوه ؛ ولم يستطع أن يتحلّل من سلطان أولئك الجن الذين قد ناداهم . وأقبل الجيش ، كما يقول المهلّب فى كتاب يُرْوى أنه كتبه إلى الحجاج يشير عليه بما يفعل ، « مثل السيل المنحطّ من عل ، ليس يردّه شىءٌ حتى ينتهى إلى قراره » .

---

(١) يصرح الفرزدق بأن ربيعة ومضر لم يختلفا ، ولكنه يجعل الوزر الأكبر على يمن الكوفة ، على السبئية الذين رفعوا المختار اليهودى من قبل (ص ٢١١ بيت رقم ١٠ من الديوان) ، والآن يرفعون ابن الأشعث النسّاج (الديوان ص ٢٠٨ س ٩ و ٢٠٩ س ١٦ و ٢١١ س ١١) . ويلقب أهل اليمن بالنساجين (الحوّاكين) على سبيل التشنيع ، كما يلقب أزد عمان بالصيادين والسفانين.

أما المهلّب فى خراسان فإنه لم ينضم لابن الأشعث[1] ، ويروى أنه كتب إلى الحجاج يبلغه تحرُّكَ جيش ابن الأشعث إليه كالسيل المنحدر ، وأن لأهل العراق شِرّةً فى أول مخرجهم ، وبهم صبابة إلى أبنائهم ونسائهم ، ونصحه أن يخلّى لهم الطريق حتى يسقطوا إلى أهليهم ويتنسموا أولادهم ، فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام فى منازلهم ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، وتحدث لهم آراءٌ غير آرائهم[2] . ولكن الحجاج لم يستمع إلى نصيحة المهلب ، وكانت جنده الشام وفرسانها تسقط إليه فى كلّ يوم . ثم تقدم بجيشه ، ومعه الإمدادات التى بعثها عبد الملك من الشام ، وسار لقتال الثوار . ووقع أوّلُ صدام على ميدان القتال القديم عند نهر دجيل ، فى تُستَر ورستقاباد . فعبر ابن الأشعث النهر ، وانتصر فى مساء العاشر من ذى الحجة سنة ٨١ هـ ، الموافق ٢٥ يناير ٧٠١ م . وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم المنتصرون ودخلوا المدينة . أما الحجاج فإنه أمر الجند بالرحيل عن البصرة ومضى لا يلوى على شىء حتى نزل الزاوية ، إحدى ضواحى البصره وخندق بها ، وانضم إليه هناك بعض الثقفيين والقرشيين من أهل البصرة . وقد صمم الحجاج على أن يهلك ولا يتراجع . ولبث جنوده من أهل الشام وعلى رأسهم سفيان بن أبرد[3] الكلبى شهراً كاملا يقاومون هجمات أهل العراق الذين كانوا قد عسكروا فى الخُرَيْبَة (أنساب الأشراف ص ٣٥٥) ، وقد هزموهم آخر الأمر هزيمة حاسمة

---

(١) [كتب ابن الأشعث إلى المهلب يدعوه إلى الثورة معه ، فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة ، ثم قال : ما أعجب هذا ! يدعونى إلى الغدر من بعضُ ولدى أكبر منه ، وقال لرسول ابن الأشعث : قل له : اتق الله فى دماء المسلمين . ويقال إنه كتب إليه يلومه على الثورة وترك قتال المشركين والإقبال على قتال المسلمين ، وينهاه عن نكث البيعة وتفريق كلمة الجماعة . المترجم نقلا عن أنساب الأشراف ص ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥] .

(٢) هكذا عند الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٥٩) ، أما بحسب أنساب الأشراف (ص ٣٤٣) فإن النصيحة لم تقدم للحجاج إلا فى مناسبة بعد ذلك ، قدمها له زاد انفروخ كاتبه الفارسى أو قدمها عبّاد بن حصين [بل - يذكر صاحب الأنساب ص ٣٣٦ - ٣٣٨ نصيحة المهلب للحجاج] .

(٣) هو قاهر شبيب - قارن الأنساب (ص ٣٣٨ ، ٣٤٢) .

فى المحرم سنة ٨٢ هـ (أوائل مارس ٧٠١ م) . وانسحب ابن الأشعث على أثر ذلك مع شطر من جنده من أهل الكوفة[1] ، وساروا إلى الكوفة التى كانت المركز الحقيقى للثورة وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحى الأمصار . واستخلف ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس الهاشمى القرشى فى البصرة ، فواصل القتال ، لكن ذلك لم يدم إلا أياماً ، لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذى نادى به الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة وأفسحوا له الطريق حتى دخل المدينة (أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٥) . وفى أول صفر ٨٢ هـ (منتصف مارس سنة ٧٠١ م) استطاع الحجاج أن يبدأ فى التقدم نحو الكوفة . ولما انصرف ابن الأشعث إلى الكوفة واصل عبد الرحمن بن العباس الحرب مع الحجاج وقاتل بمن معه خمسة أيام أشد قتال رآه الناس ، ثم لحق هو وأصحابه بابن الأشعث فى الكوفة دون أن يلقوا السلاح .

وكان مطر بن ناجية التميمى عاملاً للحجاج على المدائن وناحيتها ، فأتى الكوفة ، فلما علم بهزيمة الحجاج وثب بالكوفة واستطاع أن يخرج جنـد الشام منها ، واستولى على القصر . فلما صحت عنده هزيمةُ ابن الأشعث أراد أن يبايع لنفسه خلفاً لابن الأشعث ، فلم يبايعه سوى نفر قليل من قومه ، فعدل إلى أخذ البيعة لعبد الرحمن بن العباس ، وتمّت على يد عبد الرحمن ابن أبى ليلى . وأقبل ابن الأشعث والخلاف على هذه البيعة قائمٌ ، فسبقت إليه همدان بالناس ، وكانوا أخواله ، واستطاع أن يقبض على ابن ناجية وأن يحبسه ، ثم بايعه ابن ناجية على كره منه بطبيعة الحال . وكان وثوب ابن ناجية بالكوفة أحد الأسباب التى من أجلها وجد ابن الأشعث نفسه مضطراً إلى أن يسرع بالرحيل عن البصرة والعودة إلى الكوفة (أنساب الأشراف ص ٣٤٨ ، ٣٥٤) . ولكن ابن الأشعث

---

(١) فى كتاب الأنساب (ص ٣٤٩ س ١) أنهم كانوا ألف رجل فقط ، وعلى هذا فلابد أن تكون غالبية الكوفيين فى جيشه قد انسحبوا إلى مدينتهم من قبل ، وكل القرائن ترجح ذلك .

استطاع أن ينتهي من القضاء على منافسه قبل أن يأتي إليه الحجاج . وأخذ الحجاج طريقه عبر الصحراء إلى الشاطئ الأيمن من نهر الفرات ، وعسكر في دير قُرَّة ، عند الكوفة ، حيث كان الطريق مفتوحاً أمام مواصلاته مع الشام . أما فيما يتعلق بالإمدادات فلم يكن أمامه بطبيعة الحال سوى طريق الفلاليج وعين التمر . وخرج أهل العراق الثائرون إلى خارج المدينة ، على العادة العربية ، واحتلوها معسكراً حصيناً عند دير الجماجم[1] ، أمام جنود الشام ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٨٢ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٠١ م .) . ويروى أنهم كانوا مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليهم ، وخندق كلُّ جيش في عسكره ، والناس يخرجون كل يوم فيقتتلون ، وظلّوا كذلك شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة . ثم اشتدّ القتال ، وقلق عبد الملك ، فأشار عليه رؤوس قريش وأهل الشام بأن ينزع الحجاج عن أهل العراق ، إن كان ذلك يرضيهم . فأرسل عبد الملك أخاه محمد ابن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين[2] من أهل الشام ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نَزْعَ الحجاج ، وأن تجرى عليهم أعطياتُهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً ؛ فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم ، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار . ولم يكن أمرٌ أشدَّ غيظاً للحجاج ولا أوجعَ لقلبه من هذا الذى عُرِض على أهل العراق . فكتب لعبد الملك يُنَبّهه إلى غدر أهل العراق وسابق أعمالهم مع عثمان ، ولكن عبد الملك أصرّ على عرض الصلح على أهل العراق . وقد أراد ابن الأشعث أن ينصحهم ويقنعهم بالقبول ، لكنهم

---

(١) هل هو دير الجلجلة ؟ ؟

(٢) وبذلك عرّى عبد الملك الحدود أمام الروم فاغتنم هؤلاء الفرصة (راجع مجلة Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤٢٣ .

ثاروا وخلعوا عبد الملك من جديد ، وكانوا يأملون أن ينهزم أهل الشام وشيكاً بعد ما لحقهم من ضيق وضنك ومجاعة .

ولكنهم أخطأوا التقدير . ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين ؛ أما أهل العراق فقد تركوا القتال بعد أن كان قد استمر مائة يوم ، وفي جمادى الآخرة سنة ٨٢ هـ (آخر يوليه سنة ٧٠١ م) أخلوا الميدان دون سبب كاف ، ولم يثبتوا على حماستهم ثبات أهل الشام على نظامهم . وفي آخر يوم من أيام القتال قاتل أهل العراق أحسنَ قتال ، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي ، وكان عليه هنا أيضاً أن يقوم بالعمل الحاسم مرة أخرى ، من قِبَل ميمنة جيش الحجاج حتى دنا من الأبرد بن قرّة التميمي ، وهو على ميسرة جيش ابن الأشعث ، فما قاتله كبير قتال حتى انهزم ، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة ، فظن الناس أنه قد كان أعطي له الأمان وقد صولح على أن ينهزم بالناس . وأثار ذلك ريبة الخيانة وأحدث ذعراً شاملا بين الجند ، فتقوّضت الصفوف من نحوه ، وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه هاربين . ولم يستطع ابن الأشعث أن يوقف فرارهم ، وفرّ هو أيضاً . وزاد الحجاج في فرارهم وتبديدهم بأن لجأ إلى الوسيلة التي لجأ إليها ونجح بها في البصرة ، وذلك أنه أمر منادياً بأن ينادي معلناً الأمان لكل من يعود إلى داره أو معسكره ، وأنه منع جند الشام من مطاردتهم . وهكذا وصل إلى الغاية دون إراقة كثير من الدماء ، واستطاع أن يدخل الكوفة منتصراً ، وهناك تلقى بيعة من ألقى السلاح واضطرهم في ذلك إلى أن يشهدوا على أنفسهم أنهم بثورتهم قد كفروا ، ولم يأنف من إنقاذ حياته بمثل هذا الإذلال إلا قليلٌ منهم[1] .

---

(١) [جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٠٩٧ – ١٠٩٨) أن رجلا من خثعم ، كان معتزلا للفتنة ، جاء إلى الحجاج ليبايع مع الناس ؛ فطلب منه الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر ؛ فقال: بئس الرجل أنا ، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال له الحجاج : إذن أقتلك ، فقال : وإن قتلتني ، فوالله إني ما بقي من عمري إلا ظِمء حمار ، وإني لأنتظر الموت صباح مساء ؛ فأمر الحجاج بضرب عنقه ، فرثى له الناس جميعاً من عراقي وشامي . —

ولكن الكثير من أهل العراق الذين تشتتوا فى الكوفة تجمعوا فى مواضع أخرى . رجع ابن الأشعث أول الأمر إلى البصرة ، وكان عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشى قد استردها له ، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً ، بل رجع على مسكن على نهر الدجيل[1] ، وهناك انحاز إليه جنود كثيرون وفلول جاءت من كل ناحية ، فقاوم الحجاج لمّا لحقه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٨٢ هـ (سبتمبر — اكتوبر سنة ٧٠١ م) وكان القتال مستميتاً ودام مدة طويلة وانحسم آخر الأمر ، كما يقول الطبرى (ج ٢ ص ١١٢٣ فما بعدها) بأن قامت فرقة شامية يقودها شيخ خبير بالبلاد وطرقها ، فاخترقت المستنقعات ، وحصرت أهل العراق بين نهرى دجيل ودجلة ، وهاجمتهم ليلاً ، ففروا يريدون عبور الماء ، وكان من غرق منهم أكثر ممن قُتل بحدّ السيف .

وهناك واصل ابن الأشعث تقهقره نحو المشرق ، واتبعه أهل الشام بقيادة عمارة بن تميم اللخمى ، وأدركوه واضطروه للقتال مرتين عند السوس وسابور ، ولكنه أفلح فى صدهم ، وسار من طريق كرمان حيث أقام زماناً طويلاً ، حتى وصل إلى سجستان (آخر سنة ٨٢ أو أول ٨٣ هـ) ، فأغلق عامله وواليه على زرنج الأبواب دونه ، بل وثب هذا الوالى عليه فأوثقه وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكاناً . وعند ذلك جاء الزنبيل ، فخلّصه من الأسر وتعهّد له بأن يمنحه حق الالتجاء عنده إذا احتاج إلى ذلك ، وأخذه

= وقد امتنع شيخ آخر من أن يشهد على نفسه بالكفر أشد امتناع وأشجعه . وجاء رجل بعده ، فقال الحجاج : إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الرجل ، يريد النجاة من القتل ، للحجاج : أتخادعنى أنت عن نفسى ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد ، فضحك الحجاج وخلى سبيله — المترجم] .

[1] ليست مسكن المنزلة الواقعة بين الموصل وتكريت ، كما يظن فايل ومولر ، بل هى مسكن أخرى فى ايزقباد (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٩ و ١٠٢٣ وياقوت ج ٤ ص ٥٢٩ و ٥٣١) .

معه إلى كابل هو ومن كان معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظّمه تعظيماً كبيراً . ولكن كثيراً من فلول جيش العراق لحقت فيما بين ذلك بزعيمها الهارب ، وتجمعت تحت قيادة عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس الذى تقدم ذكره وعبد الرحمن بن عباس الهاشمى الذى كان فى سجستان ، وطلبوا من ابن الأشعث أن يرجع إليهم ، فرجع أيضاً واستولى على مدينة زرنج ، وهناك عاقب عامله الخائن . وأخيراً لمـّا أقبلت جنودُ الشام تحت قيادة عمارة بن تميم ، عبرت جنود ابن الأشعث حدود خراسان على غير رضاه ، وكانوا يأملون أن يكونوا هناك بنجوة من القتال . ثم انشق عليه فريق من جيشه وسلك طريقاً آخر غير طريقه ، فاتخذ ابن الأشعث من ذلك سبباً للرجوع إلى الزنبيل وتركهم لمصيرهم . فأمّروا على أنفسهم ابن العباس الهاشمى واستولوا على مدينة هراة وقتلوا هناك عاملها من قِبَل يزيد بن المهلب الذى كان قد حل محل أبيه آخر سنة ٨٢ هـ . فاضطر يزيد على كره شديد منه أن يخرج لقتالهم ، فشتتهم بعد قتال قصير . وفى أثناء هذا القتال وقع فى يده كثير من الرجال ذوى المكانة ، فأطلق من كان بينهم من اليمنيين ، شركائه فى النسب ، وأرسل الباقين إلى الحجاج . وكان الحجاج يقيم فى مدينة واسط ، وهى إذ ذاك فى مرحلة التشييد (سنة ٨٣ هـ) ، فحاكمهم الحجاج محاكمة أراق فيها دماءَهم — وهذا هو ما يحكيه أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١١٠١ — ١١٠٦) . أما رواية المدائنى فهى تختلف عن رواية أبى مخنف بعض الاختلاف (الطبرى ج ٢ ص ١١٠٦ — ١١١٠) . ولكن عمارة بن تميم ، قائد جند الشام ، استطاع أن يستولى على سجستان بعد أن كان قد حاصر طائفة من جيش ابن الأشعث انشقت عليه تريد مواصلة القتال ، وذلك بعد أن آمنهم عمارة فخرجوا إليه ؛ ولكن ابن الأشعث نفسه كان ما يزال مصدر خطر على الدولة . وقد حاول الحجاج أن يغرى الزنبيل بالترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر ، لكى يسلم له ابن الأشعث بعد أن لجأ إليه ، واستطاع أخيراً أن يحصل من الزنبيل على

ما أراد وذلك بأن عرض عليه أن يعفيه من الخراج سبع سنين أو عشراً ، ولكنه لم يحصل على عدوه حيًّا ، بل حصل على رأسه مقطوعاً . ويروى أن ابن الأشعث كان قد مات مريضاً بالسل ، أو أنه انتحر قبل ذلك وأن الزنبيل إنما احتز رأسه بعد أن كان قد مات وأريد دَفْنُهُ . وكان ذلك فى سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٨ فما بعدها) .

وتحديد تواريخ هذه الحوادث ليس يقينياً إلى درجة الكمال . ولا شك أنه قد بقيت بعض الأيام والشهور عالقةً بذاكرة الرواة ، مثل يوم عرفة بالنسبة لموقعة تُسْتَر ، وهو فى آخر السنة التى بدأت فيها الثورة ، ومثل شهر المحرم بالنسبة للمعارك التى كانت عند البصرة فى السنة التالية ، ومثل شهر ربيع وجمادى بالنسبة لمعارك الكوفة ، وشهر شعبان بالنسبة لموقعة مَسْكِن[1] . أما فيما يتعلق بالسنين فالروايات مضطربة ، وقد اتبعتُ فيما يتصل بتاريخ السنين التاريخ الذى يجعل الثورة قد بدأت سنة ٨١ هـ ، وتكون بحسبه معارك البصرة والكوفة ومسكن قد وقعت فى سنة ٨٢ هـ ، ومعارك سجستان وخراسان فى سنة ٨٣ هـ . وبحسب ترتيب آخر للتواريخ تكون السنون متأخرة سنةً ، بحيث تكون سنة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ على الولاء[2] ، ثم يأتى موت ابن الأشعث فى سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ ، على أثر فتح جند الشام لسجستان مباشرة . ولكن مزية الترتيب الجديد ظاهرية فحسب ، لأنه من الممكن أن تكون قد مضت فترة طويلة بين فتح سجستان وبين موت ابن الأشعث . ومما له وزنه ، خلافاً لذلك ، أن الروايات متفقةٌ على أن ابن

---

(١) ولا ينهض دليلا قويا على خلاف ذلك ما يقوله الواقدى من أن موقعة دير الجماجم كانت فى شعبان سنة ٨٢ هـ وأن الثورة قد بدأت فى السنة نفسها (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٠ ، ١٠٥٢) . أما إن موقعة تستر كانت يوم عرفة فهو ثابت .

(٢) ويظهر أن أبا مخنف يخلط بين التواريخ المختلفة ، إذ يجعل أول الثورة معركة تستر فى سنة ٨١ هـ ، على حين يجعل معركة الزاوية (فى البصرة) كما عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠١١) فى سنة ٨٣ هـ ، لا قبل ذلك ، وهذا أيضاً هو تاريخ معارك الكوفة .

الأشعث جاء إلى سجستان فى سنة ٨٠ هـ ، وشرع فى محاربة الزنبيل على الفور ، وأن الحجاج قد أغضبه فى هذه الحملة نفسها ، مما دعاه إلى الثورة . وعلى هذا فليس من الممكن أن تكون الثورة لم تبدأ إلا بعد سنة ٨٠ هـ بعامين . ومما يدخل فى الاعتبار أيضاً أنه لما جىء بأسرى هراة الذين بعث بهم يزيد بن المهلب إلى واسط ، لم تكن واسط قد بُنِيَتْ ، وهذا ما يوجد صراحة فى الروايات (الطبرى ج ٢ ص ١١١٩ فما بعدها) ولكن الحجاج انتقل إليها فى سنة ٨٣ هـ ، وهو أقام بها فى سنة ٨٤ هـ على كل حال . وعلى هذا فمن الممكن أن تكون معارك سجستان وخراسان قد وقعت سنة ٨٣ هـ ، لا فى سنة ٨٤ هـ . ولا يستطيع الإنسان للأسف أن يصل من كثرة ذكر أسماء الأيام التى وقعت فيها الحوادث إلى رأى حاسم ، لأن الأيام المذكورة لا تتفق مع مكانها فى الشهور ، لا فيما يتعلق بسنة ٨١ هـ ولا بسنة ٨٢ و ٨٣ هـ[1] .

وقد ألقى ألفريد فون كريمر (Alfred von Kremer) على ثورة ابن الأشعث نوراً جديداً ، أعشى به بصر آخرين مثل ا . مولّلر ، وج . فان فلوتن (صاحب كتاب بحوث فى السيادة العربية[2] ، ذلك أنه يجعل ثورة ابن

---

(١) وبحسب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٤٠ س ١٠) كانت موقعة تستر يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٨١ هـ ، وكان نزول الحجاج معسكر الزاوية فى يوم الخميس ٢٣ ذى الحجة سنة ٨١ هـ (ص ٢٤٢ س ١٠) . وأسماء الأيام المذكورة لا تتفق مع أيام الشهر لا فى سنة ٨١ ولا فى سنة ٨٢ ، بل فى سنة ٨٠ هـ ، وهذه السنة ليست مذكورة فى أى من الروايات . ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها ، ويقول أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٤) إن قتال المائة يوم بدأ يوم الخميس ٢ ربيع الأول سنة ٨٣ هـ وانتهى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣ هـ . وهنا أيضاً لا تتفق أسماء الأيام مع مكانها من أيام الشهر لا فى سنة ٨٣ ولا فى ٨٢ ، وربما كانت أقرب إلى الاتفاق مع أيام سنة ٨١ ، حيث لا يزيد الفرق على يوم واحد . ويظهر أن مثل هذا الفرق شىء ممكن وأنه ينشأ من الاضطراب فى ذكر أول الشهر أو أول اليوم (فى المساء أو فى الصباح) . وعلى هذا فالظاهر أن الأصح هو سنة ٨٠ و ٨١ لا ٨٢ و ٨٣ هـ ، ولا سنة ٨١ و ٨٢ هـ . وتيوفانيس (فى حوادث سنة ٦١٩٢) لا يقول ما ينافى ذلك .

(٢) **Recherches sur la domination Arabe** ، امستردام ، ١٨٩٤ .

الأشعث راجعة إلى طموح من جانب الموالى ، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام فى الكوفة والبصرة ، للحصول على المساواة بطبقة الأشراف الحاكمين ، أعنى العرب ، وللتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم إلى أن تُقَيَّد أسماؤهم فى ديوان أصحاب الأعطيات — وكانت هذه الأعطيات رمزاً يدل على شرف العرب . وأراد الحجاج أن يتلافى التناقص فى دخل الدولة ، وهو تناقص لابد أن ينشأ من توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب وفرض الأعطيات للمسلمين من غير العرب — أو هو أراد أن يتلافى هذا النقص الذى كان قد حصل بالفعل — فأمر بفرض الجزية من جديد على الموالى الكثيرين الذين دخلوا فى الإسلام ، والذين ما كان يجوز بحسب الشرع أن يدفعوا جزية ، وبذلك أضرموا نار الثورة — يقول فون كريمر[1] : « أمر الحجاج بأن يدفع من دخل فى الإسلام ، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد ، ضريبة الرأس ، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ؛ وهذا إجراء كان من أثره ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم[2] . وقد اشترك فيها بنوع خاص كثيرٌ من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالى والقُرّاء ، وفى رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيدين فى ديوان الأعطيات ، أو إذا أردنا أن نعبِّر تعبيراً حديثاً ، هم كانوا من فرق المقاتلة فى الأمصار ، وقد انضم إليهم مثلهم . وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأعادهم إلى رشدهم[3] ، وصمم على أن يشتت كل طائفة للموالى تشتيتاً لا يجتمع بعده شمل ، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحّدة ، فأمر باستدعائهم أمامه وقال لهم : إنكم عُجْمٌ وعلوجٌ أشقياء ، والأجدر بكم أن تبقوا فى قراكم ؛ وبعد ذلك أمر بأن يُفَرّقوا فى القرى ، وشتت جميعهم تشتيتاً تاما . ولكى

---

(١) فى كتابه Culturgeschichtliche des Orients (١٨٧٥) جـ ١ ص ١٧٢ وكتابه Culturgeschichtliche Streifzüge (١٨٧٣) ص ٢٤ .

(٢) لا أعرف ما يقصده فون كريمر من عبارة : ومواليهم (Clienten) التى يضيفها لكلامه

(٣) وفون كريمر فى كلامه أكثر تعسفاً من الحجاج فى أعماله .

لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التى أمره بالمقام فيها ، فإنه أمر بأن يُطبَع على يد كل واحد اسم القرية التى يجب عليه ألاّ يبرَحها » ، ويعتمد فون كريمر على رواية للجاحظ فى كتابه « الموالى العرب » مذكورة فى كتاب العقد الفريد ، لابن عبد ربّه (ط . بولاق ج ٢ ص ٩٣[١]) .

ولا شك فى أن ثورة المختار لم تقض قضاءاً تاماً على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التى نشأت من دخول الموالى فى الإسلام طلباً للمساواة السياسية وفراراً من الجزية . ولا شك أيضاً فى أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقى فى الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار[٢] . لكن القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت فى روحها مجرد استمرار لثورة المختار لا يجد سنداً يؤيده فى المصادر الأولى الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى ، ولا فى كتاب أنساب الأشراف ؛ ولم يكن الموالى هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص . صحيح أن كثيرين منهم اشتركوا فيها ، ويذكر

---

(١) « وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقى ما لقى من أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاقدوا . فأقبل على الموالى وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها » . وعلى هذا فقد كان ما اتخذه الحجاج من إلزام الموالى البقاء فى قراهم أحد الإجراءات التى اتخذها لكسر القوة التى أصبحت بعد التجارب السابقة ، خطراً عليه فى مدينة البصرة ، بعد أن قد اتسعت اتساعاً عظيما . وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث ، وكانت قبلها بسنين ثورة ابن الجارود (كتاب الأنساب ص ٢٨٠ فما بعدها وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) ؛ ولا نجد أكثر من ذلك . أما (الطبرى ج ٢ ص ١١٢٢ و ص ١٤٣٥) فيروى أن الموالى الذين كان الحجاج قد أخرجهم، انضموا هم والقراء الذين كانوا يعطفون عليهم إلى ابن الأشعث ، ولكن لا ذكر عند الطبرى للقول بأن الثورة جاءت من الموالى .

(٢) ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول ، على سبيل الذم : إنه كما أن الكوفيين كانوا من قبل سبئية يعنى أتباعا للمختار ، فهم اليوم أتباع للثائر الجديد ابن الأشعث . راجع الديوان ص ٢١١ ب ٣ ، ١٠ ، ١١ .

أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٢) أنه كان فى معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب ، وكان معهم مثلهم من مواليهم ، ولكن هؤلاء الموالى كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب ، وكانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليهم معهم ، إن كان لهم موال ، إلى ميدان القتال ويجعلوهم يقاتلون معهم راجلين ؛ أما هم فكانوا يقاتلون على ظهور الخيل : ومثل هذه العلاقة كانت بين الفرسان وخُدّامهم فى العصور الوسطى . على أنه إذا كان الموالى قد اشتركوا فى الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالى . ومن الجائز أيضاً أنه قد كانت للموالى مصلحة خاصة فى معاداة حكومة الشام التى كانت عماد العروبة ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيِّدين ، ولم تأت الثورة منهم ، بل من جانب جيش « الطواويس » ، وهو الجيش الذى كان يؤلفه أهل العراق والذى انضمت إليه مسالح سائر الولايات والثغور : وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار فى سجستان[1] ،

(١) [الحق أن ثورة ابن الأشعث وليدة لعوامل كان لها تأثير فى الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب ، وهى قد تولدت عن طبيعة الرجال الذين قاموا بها . فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذى يرجع نسبه إلى ملوك كندة . وكأنه كان يشعر أن دم المجد القديم يجرى فى عروقه ، فيروى أنه كان أشد العرب أبهة وكبراً وأنه كان معجباً ذا نخوة وطموح شديد ، وأنه كان يقول : ما رأيت أميراً فوقى إلا ظننت أنى أحق بإمرته منه . ونظراً لهذه الروح المعروفة عنه ، فإنه لما أراد الحجاج أن يوليه قيادة جيش الطواويس جاء إليه إسماعيل بن الأشعث ، عم عبد الرحمن ، يشير عليه بألا يوجهه فى الجيش خوفا من تمرده ، وقال عم عبد الرحمن عنه : إنه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً . وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف ، من ثقيف الطائف ، رجلا ليس من علية أشراف العرب ، لكنه كان والياً من ولاة الدولة ، يعمل لمجدها ويخضع لرئيسها ويصدر فيما يقول أو يفعل عن « وجهة نظر الدولة » ، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة فى الداخل ونمو الخارج ، وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هانئة ، يدلون بغنى بلادهم وخصبها ، ويضمرون فى أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوى العيش الضنك وشيئاً كثيراً من الغيرة منهم والمقت لسيادتهم والاستهانة بقدرهم ، ويطمعون للرئاسة =

ثم فتحت له الكوفةُ والبصرةُ الأبوابَ . وقد اشترك فى ثورة ابن الأشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة ، فكان منهم رؤساء قبائل ، مثل ابن الأشعث

— أو الاستقلال ويتعلقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أياً كان ، سواء كان من أهل البيت أو من غيرهم .

وكان الحجاج بحكم شخصيته ومنصبه يبغض عبد الرحمن بن الأشعث ويقول : « ما بالعراق رجل أبغض إلى منه ، وما رأيته ماشياً أو راكباً إلا أحببت قتله . وكانت فى عبد الرحمن خيلاء ، فكان الحجاج يغتاظ منه ويقول له : « إنك لمنظرانى » ، يعنى أنه مختال فخور ، فيغيظه عبد الرحمن قائلا : « ومخبرانى » ، يعنى أن خيلاءه بقدر ماله فى الحقيقة من مواهب . وبلغ ابن الأشعث ما يكنه له الحجاج من البغض والحقد والرغبة فى القضاء عليه ، فأقسم ليحاولن إزالة سلطان الحجاج ، إن طال بهما العمر . هذا هو الموقف ، فماذا يمكن أن يخرج منه عند وجود أزمة بين سيد عربى وبين أمير للدولة على ولاية من الولايات ، أو بين أمير وبين الدولة التى يمثلها ! ثم جاءت الحرب مع الزنبيل ، فأعد الحجاج جيشاً من صفوة أهل العراق وأمر عليه ابن الأشعث ، رغم نصيحة الناصحين له بألا يفعل ، وقال لناصحه : « إنه لى أهيب وفى أرغب من أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعتى » . وظن الحجاج ، وهو رجل الدولة ، أن القائد العربى مطيع له ، وإن اشتد معه ، خاضع لأمره وإن أهانه وصغر من أمره ، ونسى رجل الدولة ، ما فى الطبيعة العربية من إباء وأنفة من احتمال الضيم ، فكان ما كان من ثورة ابن الأشعث التى ترجع إلى الإباء العربى وإلى بغض أهل العراق للحجاج ولأهل الشام معه ، وإلى ضجر أهل العراق من التضحية بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت فى بلاد العدو القاصية من أجل مجد الحجاج وخليفته بالشام . وإذا عرفنا أن الحجاج كان من قبل قد بعث عبيد الله بن أبى بكرة الثقفى ، فأهلكه فى محاربة الزنبيل ، ولحقه من ذلك غم شديد ، فإن للمؤرخ أن يتعمق فى معرفة الباعث الذى حمل الحجاج على توجيه ابن الأشعث وعلى استحثاثه على التوغل فى أرض العدو الكثيرة الشعاب والعقاب استحثاثاً شديداً ومهيناً ، مع علمه بالمصير المحزن الذى لقيه جيش ابن أبى بكرة فى تلك البلاد من قبل ، ثم على إلحاحه على ابن الأشعث لكى يتقدم مخالفاً ما تقضى به الخطة العسكرية الحكيمة . فلا بد أن يكون البغض الذى كان يملأ نفس الحجاج وابن الأشعث كل على صاحبه ويملأ نفوس أهل العراق على الحجاج وعلى السادة من عرب الشام قد لعب أكبر دور فى نفس الحجاج ، حتى خالف نصيحة إسماعيل ابن الأشعث ونصيحة المهلب ، وفى نفوس المتمردين على أوامر الحجاج أولا ثم فى الخروج على سيادة الدولة نفسها بعد ذلك ، اتهاماً لها بالظلم ولأصحاب الأمر فيها بالضلال . ولعبت العصبية القبلية فى ذلك دورها ، فتغنى الشعراء بمجد ابن الأشعث وبقرب زوال مجد بنى أمية . وقد حاول المهلب أن يثنى ابن الأشعث عن تمرّده منبهاً إياه إلى أنه بثورته ينكث عهد البيعة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه فى قتال المسلمين ودولتهم بدلا من استعمالها فى قتال المشركين ودولتهم . ولكن ذلك لم يجد نفعاً ، وغلب الكبرياء على الإيمان والأنفة على واجب الخضوع للدولة . وكثيراً ما حصل مثل هذا فى تاريخ العرب — وفيما يتعلق بالنصوص ليراجع القارئ كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٠٤٢ فما بعدها) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٣٠٨ فما بعدها) — المترجم] .

الكندى ، وجرير بن سعيد بن قيس من همدان (كتاب الأنساب ص ٣٤٠) وعبد المؤمن بن شبث بن ربعى من تميم (الطبرى ج ٢ ص ١٠٥٤) وبسطام ابن مصقلة بن هبيرة الشيبانى من بكر (الطبرى ج ٢ص ١٠٨٨ و١٠٩٩) ؛ وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبى وقاص (الطبرى ج ٢ص١٠٩٩) وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبدشمس ، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمى ؛ وكان منهم علماء مثل القاضى الشعبى والمؤرخ محمد بن السائب الكلبى صاحب أبى مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٦) ؛ ولا يُذْكر إلاّ اسمُ مولىً واحد ، هو اسم فيروز حُصَيْن ، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ولعله هو ابن سبُخْت الذى يذكره الفرزدق (الديوان ص ٢٠٦ ؟) وقد أنِفَت الطبقة الأرستقراطية العربية من قبول المعاملة الجارحة والغطرسة التى أبداها الحجاج ممثل سلطان الدولة الذى لم يكن يعتبر من أشراف العرب . يقول أعشى همدان الشاعر[1] (الأغانى ج ٥ ص ١٥٣) :

يأبى الإلهُ وعِزَّةُ ابن محمد ... وجدودُ ملك قبل آل ثمود
أن تأنسوا بمذممين ، عروقُهم ... فى الناس إنْ نُسبوا، عروقُ عبيد[2]
كم من أبٍ لك كان يعقد تاجه ... بجبين أبلج مِقْوَل صنــديد
وإذا سألتَ المجد أين محلُّه ... فالمجــد بين محمد وسعيــد
بين الأشج وبين قيس باذخ ... بخ بخ لوالــده وللمولود[3]

(١) [خرج أعشى همدان مع ابن الأشعث وجعل يقول الشعر فى مدح ابن الأشعث. وفى تحريض أهل الكوفة على القتال . وكان للأعشى مع ابن الأشعث مواقف محمودة وبلاء حسن ، وكان الأعشى من أخوال ابن الأشعث – المترجم] .

(٢) من الثقفيين ، كالحجاج .

(٣) يظهر أن المقصود بالأشج هو الأشعث ، قارن (كتاب الأنساب ص ٣٣٥) ، وقيس هو أبو سعيد الهمدانى المشهور الذى انضم ولد ولده جرير إلى ولد ولد الأشعث [الأشج هو فى الحقيقة أحد آباء ابن الأشعث] .

إذا دعا لعظيمة حشدت له همـــدان تحت لوائه المعقود
ما إن ترى قيساً يقارب قيسكم في المكرمات ولا ترى كسعيد

فى هذه الأبيات يعبر الأعشى عن روح الطبقات الأرستقراطية . وقد تبعت القبائلُ العربية رؤساءها ، وكانت القبائل هى فرق الجيش ، وكانوا أشد رغبةً فى اتباع رؤسائهم ، بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة فى المسالح القاصية شيئاً بغيضاً إليهم بالجملة ، وصار لا ينقطع حنينُهم إلى أوطانهم ؛ وكان يمن الكوفة وخاصةً من كندة وهمدان ومذحج كثيرى العدد بين الجند ، وكانوا فى الكوفة هم الغالبية ، وكانوا يعدُّون ابن الأشعث منهم . ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة لم يكن بينهم تنافر . وكان أشد الناس حماسة وأفواهم صوتاً فى الاشتراك فى الثورة هم القراء ، أعنى أهل الدين من العلماء بالقرآن ، وكانوا فى كل مناسبة كهذه يظهرون فى المقدمة باليد واللسان[1] ، وذلك أنه لم يكن هناك بدٌّ ، ما دامت الحـــكومة تيوقراطية ، من بيان السند الدينى الذى من أجله تُتَّهم السلطة الحاكمة بالظلم ، وعلى أساسه تَحِلُّ الثورةُ عليها . ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها بالجملة أسباب دينية ، بل هى كانت بالأحرى محاولة جديدة قوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم . ولما جاء الحجاج زاد فى ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب فى بلاد العراق ، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجى بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها فى الداخل ؛ فكان هؤلاء الجند يمثلون السيادة الأجنبية مجسَّمة[2]. وكان على جند العراق أن يقنعوا بأعطيات قليلة ويحتملوا فى الوقت نفسه مؤونة جند الشام ، وكانوا يُوجَّهون فى حملات بعيدة

---

(١) والرواة مولعون بإبراز فضائلهم حتى إن أبا مخنف (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٨٦ فما بعدها) ليذكر حكاية جبلة بن زحر القارئ كما لو كانت أهم حادث فى موقعة دير الجماجم ، قارن ما كتبناه عن الخوارج (فى ص ٩ وما بعدها) .

(٢) وكذلك أحدث دخول جند الشام فى إفريقية وإسبانيا أيضاً فيما بعد تذمراً .

ويُرسلون إلى المسالح القاصية ، على حين كان يبقى جند الشام فى أهلهم ؛ وإذن فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع ؛ فهو لم يكن صراعاً بين الموالى والعرب ، بل كان صراعاً بين عرب العراق وعرب الشام (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٨٩) ، فكان صراعاً بين ولايتين فى الدولة العربية كانتا تتنافسان دائماً . وكان أهل العراق ، أياً كان أصلُهم ، متحدين فى ذلك الصراع ، وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ، وهم خارج وطنهم ، بما بينهم من أواصر الاتحاد على أنهم كانوا فى الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاعة ؛ أما قول شاعر العراق فى وصفه موقف أهلها ، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث ، وهو :

تركنا دورنا لطغام عكٍّ وأنباط القرى والأشعرينا

(الطبرى جـ ٢ ص ١١٠٢) .

ففيه وصف إجمالىّ لأهل الشام ، بذكر البعض بدلاً من ذكر الكل ، ويظهر أنه هجاء لهم بأنهم غير متحضرين ، وهم يوصفون (عند الطبرى جـ ٢ ص ١٣٩٣) بأنهم الأنباط والأقباط ، يعنى الأعراب الأجلاف غير المتحضرين(١) .

وقد أدّى ذلك إلى زيادة فى شدة الحكومة العسكرية الشامية فى العراق ؛ وفى سنة ٨٣ هـ بنى الحجاج مدينة واسط ، وجعلها حصناً فى منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ، وجعلها مقراً للحكومة ، ونقل جمهور جند الشام إليها أيضاً . ويقال إنه فعل ذلك لكى يتلافى ارتكابهم للمفاسد فى الأحياء التى يقيم فيها الناس فى الكوفة والبصرة . ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق(٢) ويجعلهم حوله ليكونوا أداةً طيّعة

---

(١) [يذكر المؤلف هنا كلمتى Kaffern und Botokunden ، وهما فى الغالب تسميتان لقبائل متوحشة فى أواسط أفريقية — المترجم] .

(٢) ولهذا السبب نفسه أبقى جند الشام بعيدين عن خراسان لكى لا ينفث فيهم أهل العراق سمومهم ، فأرسلهم إلى الهند حيث لا يوجد عراقيون (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٥٧ ، ١٢٧٥) .

تحت يده ، ونقل مقرّ إقامته هو من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربى ، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه فى بلاد معادية ؛ وأخرج الحكومة عن الأساس الدينى الأبوى الذى نشأت عليه ، وأقامها على القوة فى صورتها الصريحة ؛ ولم يكن هناك سبيل غير ذلك ، إذا كان لا بد من المحافظة على سيادة بنى أمية على العراق :

وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أصبح شرق الدولة كله تحت قدمى الحجاج ، ولم تكن هناك مقاومة إلا من جانب المهالبة فى خراسان ، فإنهم كانوا ما يزالون رافعى الرأس ، وكانوا يعتمدون على قوة قبيلتهم ، أزد عمان ، الذين جاء بهم المهالبة إلى خراسان ، وكانوا سبباً فى أن تكونت هناك كما تكونت فى البصرة من قبل مجموعة من قبائل الأزد وربيعة (اليمن) فى جانب ، ومجموعة أخرى من تميم وقيس (مضر) فى جانب آخر . وكان على رأس المهالبة ومجموعة قبائل اليمن يزيدُ بن المهلب ، أمير خراسان ، وكان تابعاً للحجاج . لكن يظهر أن الحجاج لم يكن فى مقدوره أن يعزله ، مهما كان من ابن المهلب ما يدعو الحجاج إلى ذلك ؛ ولم يتحرك ابن المهلب للقضاء على أصحاب ابن الأشعث فى هراة إلا كارهاً ، ثم أخذ من وقع فى يده من أسرى هؤلاء الثوار بالهوادة ، خصوصاً اليمنيين منهم . وقد تلكأ طويلاً فى تنفيذ الأمر الذى صدر إليه بطرد ثوار قيس الذين كانوا قد ثبّتوا أقدامهم فى ترمذ (قرب بلخ) تحت إمرة موسى بن عبد الله بن خازم ، وذلك اتباعاً لوصية أوصاها المهلب لبنيه بألاّ يتعرضوا لابن خازم ، اعتقاداً منه أن أبناءه سيظلون ولاة ثغر خراسان ما بقى ابن خازم ، فإذا قُتل كان أولُ طالع عليهم أميراً على خراسان رجلاً من قيس[1]. وقد أراد الحجاج أن يخرج ابن المهلب من خراسان ، فكان يبعث إليه يستزيره فيعتلّ ابن المهلب بحرب العدو ونحوه من أعمال مانعة ، ولم يستطع الحجاج أن يعزله آخر الأمر

---

(١) [راجع هنا وفيما تقدم وما يلى الطبرى (ج ٢ ص ١١٥١ — ١١٥٢ ، ١١٣٨ — ١١٤٣) .

إلا بعد إلحاح شديد على الخليفة فى سنة ٨٥ هـ فحسبه الحجاج ونحّى إخوته شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت عبد الملك فى سنة ٨٦ هـ .

على أن مسلك عبد الملك من الحجاج كان أحياناً مسلك السيد الآمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج من قبل قد عمل جاهداً فى أن يجعل له ولاية العهد ، ترك الحجاج يتمتع بكامل سلطته ، بل كان ينصاع له ويستجيب إلى رغباته حتّى فى دائرة اختصاصه كخليفة . فمن أمثلة ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة ، فلجأ إليها بعضُ أهل العراق فراراً من عسف الحجاج ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد ينبّهه إلى ظلم الحجاج لأهل العراق واعتدائه عليهم بغير حق . فلما بلغ الحجاجَ ذلك كتب إلى الوليد بأن مُرّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ، وأن ذلك وهَنٌ فى سلطان الدولة . فطلب الوليد من الحجاج أن يرشح له رجلين ليوليهما مكة والمدينة ، فأشار الحجاج بخالد بن جرير ابن عبد الله القسرى ، وعثمان بن حيّان المُرّى ؛ فعزل الوليدُ عُمَرَ بن عبد العزيز وولّى خالداً مكة وعثمان المدينة ، وذلك فى سنة ٩٣ أو ٩٤ هـ (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٥٤) فجـدّ كل منهما فى استئصال شأفة أهل الريبة والفتنة جداً كبيراً(٢) . وفى عهد الوليد جنى الحجاج ثمرات عمله الشاق الذى قام به فى أيام عبد الملك ، فعمّت فى العـراق السكينةُ ، واغتنم هو ذلك فى العمل على مداواة الجروح التى ألحقتها برفاهية البلاد حربٌ استمرت عشرين عاماً . وكان الحجاج لايقل عن الوليد فى العناية باستصلاح الأراضى ، فوجه اهتمامه إلى تعهد الأنهار التى تتوقف عليها

---

(١) [كانت مهمة عثمان بن حيان هى القضاء على من لجأ إلى المدينة من أهل الفتنة فى العراق ، فحبس بعضهم وعاقبهم وأرسلهم إلى الحجاج فى السلاسل ، وأخرج كل من كان بالمدينة من أهل العراق حتى التجار منهم وطارد «أهل الأهواء» ، وهدد من يؤوى رجلا من أهل العراق بهدم بيته ، وله خطبة لها دلالة كبيرة على روح أهل العراق وخصالهم وإثارتهم للفتنة . — راجع (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٥٨ — ١٢٦١) — المترجم] .

خصوبة الأرض التى تغمرها المياه فى الحوض الأدنى لدجلة والفرات[1] ؛ وفى وسط أرض السيخ الكبرى التى كانت أرض مستنقعات وقصب أنشأ الحجاج مدينة واسط . وقد حاول أن يوقف ما أدى إليه نقص سكان الريف من تدفق أهلها نحو المدن الكبيرة . ويُروى أيضاً أنه منع أهل السواد فى العراق من ذبح البقـــر لكى تكثر الحراثة والزراعة[2] ؛ ولم يقم بحروب إلا مع الأعداء فى الخارج ، وقد انتصر انتصارات باهرة ، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلى الذى خلف المهالبة على خراسان بلاد ما وراء النهر فى عهد الحجاج ، كما فتح محمد بن القاسم الثقفى بلاد السند ؛ ويرجع الفضل إلى الحجاج فى اختيار هذين الرجلين للمنصب اللائق بهما ، وقد منحهما أيضاً تأييداً فعالا بفضل اسمه الذى كان يبعث الخوف فى أقصى

---

(١) عنى ملوك الفرس أشد عناية بتصفية مياه المناطق ذات المستنقعات وبإنشاء ممتلكات لهم فيها ، وكان أحدهم إذا استصلح قطعة من الأرض سماها باسمه . وفى عهد قباذ حدث ثقب كبير فى السد عند كسكر ، فغمر كثيراً من الأرض وبقى مهملا حتى أصلح أنوشروان الفساد ببعض الإصلاح . وفى سنة ٦ و ٧ من الهجرة حدثت من جديد ثقوب أكبر ولم تثمر كل جهود كسرى برويز التى بذلها للإصلاح . وفى أثناء الاضطراب الذى نشأ أيام الفتح العربى ازدادت رقعة منطقة المستنقعات عما كانت عليه من قبل ، ولم يستطع الدهاقنة (وكانوا ملاكا للأرض وولاة) بمجهودهم الخاص أن يكافحوا ذلك ، ولم تتغير الأحوال إلا فى عهد معاوية وخصوصاً فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام . فشق الحجاج نهرى النيل والزابى ، وجلب الجاموس الهندى إلى إقليم المستنقعات ، ومنها أدخله إلى جليقية . وإذا كان لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعل فذلك يرجع إلى أن الوسائل التى كانت فى مكنته كانت محدودة . وقد طلب ثلاثة آلاف ألف لإعادة بناء السدود ، فاستكثر الوليد ذلك ، ولكنه طلب من أخيه مسلمة أن يقوم بالمشروع على نفقته الخاصة ، وحصل مسلمة من ذلك على ربح عظيم ، وكان الخبير الذى أشرف على التخطيط ، فى عهد الحجاج وهشام هو حسان النبطى . وفى رواية غير جديرة بأن نصدقها أن الحجاج تعمد ألا يصلح الفساد الذى أحدثه فيضان عظيم فى عهده ، وذلك عقاباً للدهاقنة ، لأنه اتهمهم بالميل إلى ابن الأشعث — قارن الطبرى جـ ١ ص ٩٦٠ فما بعدها والبلاذرى ص ٢٩٢ فما بعدها والمسعودى جـ ١ ص ٢٢٥ فما بعدها وابن خرداذبه ص ٢٤٠ فما بعدها وياقوت جـ ٣ ص ١٧٤ فما بعدها .

(٢) البلاذرى ص ٢٩٠ و ٢٧٥ ، وابن خرداذبه ص ١٥ و ص ٢٤١ والأغانى جـ ١٥ ص ٩٨ وياقوت جـ ٣ ص ١٧٨ .

المشرق[1] . وكان الحجاج نفسه لا يذهب إلى الميدان ، ولكنه كان يعنى أخلص عناية بإعداد الجيش وتجهيزه بكل ما يحتاج إليه حتى أصغر الأشياء (البلاذرى ص ٣٤٦)[2] ، وكان لا يَضِن في ذلك بمال . وكان خمس الغنيمة يعوِّض عليه أكثر مما أنفق ؛ فأنفق مثلا فى الحملة الكبرى وجهها إلى الهند ستين ألف ألف درهم ، وعادت عليه بعشرين ومائة ألف ألف (البلاذرى ص ٤٤٠)[3] . وقد كانت مدة إمارته عشرين عاماً ، ومات ، كما كان يتمنى ، قبل موت الوليد ، وذلك لتسع بقين من رمضان أو فى شوال سنة ٩٥ هـ = يونيه أو يوليه سنة ٧١٤ م عن ثلاثة وخمسين أو أربعة وخمسين عاماً (الطبرى ج ٢ ص ١٢١٧ و ١٢٦٨) . وقد عين الوليد مكانه الأمير الذى اقترحه هو نفسه ، كما أقر جميع عماله فى مناصبهم ؛ وكان لأسرة الحجاج فى الكوفة شأنها فيما بعد[4] .

كان زياد بن أبيه والحجاج أعظم نائبيْن لخلفاء بنى أمية فى العراق ، وكان العباسيون يحسدون بنى أمية بحق على هذين الرجلين[5] ، وكان كلاهما لا يشعر بأنه فى منصبه صاحب قُنْية يستغلّها لمنفعته الخاصة ، بل كان يشعر بأنه ممثل سلطان الدولة . وقد مكّنهما سادتهما من سلطان كبير وتركوهما فى منصبهما إلى آخر

---

(١) قارن البلاذرى ص ٤٠٠ فا بعدها وص ٤٣٥ ، وما ذكر رايسكه (Reiske) تعليقاً على أبى الفداء ج ١ ص ٤٢٧ . وفيما يتعلق بالكرك الهندى الذى لا يعرف رايسكه أمره ، قارن الطبرى ج ٣ ص ٣٥٩ و ٣٧٠ .

(٢) [يقول البلاذرى إن الحجاج جهز محمد بن القاسم بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والمسال ، بل أرسل الحجاج معهم الخل المجفف على طريقة طريفة لكى يستعملوه فى طعامهم وفيما يحتاجون إليه – المترجم] .

(٣) [أنفق الحجاج فى حملة الهند ستين ألف ألف درهم ، وحمل إليه منها عشرون ومائة ألف ألف ، فقال الحجاج : شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم – المترجم] .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ١٦٩٩ س ٥ و ١٧١١ س ٧ – ١٠ و ١٧١٢ س ٧) .

(٥) [كان المنصور يقول : الخلفاء ثلاثة معاوية ، وكفاه زياد ؛ وعبد الملك ، وكفاه الحجاج ؛ وأنا ، ولا كافى لى . – المترجم نقلا من أنساب الأشراف ص ١٧٢) .

حياتهما ؛ وهما فى مقابل الثقة التى نالها أدّيا واجبات منصبهما بإخلاص ودون مبالاة برضا الرأى العام أو بسخطه . وإن المؤرخ ليشعر بميل إلى المقارنة بينهما : فأما زياد فإنه كان قد وصل إلى مكانة رفيعة قبل أن يجعله معاوية حليفاً له وقبل أن يضمّه إلى جانبه ، وأما الحجاج فيستطيع الإنسان أن يعتبره من صنع يدى عبد الملك . وكان زياد يعرف كيف يكبح جماح القبائل بعضهم ببعض ويسخّرهم فى العمل له ، وقد وُفّق فى ذلك وجنى ثمرته ؛ وكان عمر ابن عبد العزيز يُعْجَبُ به ، لأنه قبض على زمام أهل العراق من غير أن يكلف أهلَ الشام قط مؤونة مساعدته فى ذلك (الكامل ص ٥٩٥)[١] : أما الحجاج فلم يكن يستطيع أن يحافظ على سلطانه إلا من طريق الاستعانة بالسيادة الأجنبية ، أعنى مستنداً إلى جند الشام . على أن ذلك كان يرجع إلى تغير الظروف ، لأن التوتر بين الشام والعراق كان فيما بين عصر زياد وعصر الحجاج قد اشتد كثيراً .[أولم يقصر الحجاج فى أعماله عن سلفه زياد ؛ بل هو قد أثر فى توجيه السياسة بعد موته : وكان السؤال هو : مع الحجاج أو عليه ؟ وكانت إصلاحاته الإدارية ، فيما يتعلق بنظام العملة والمكاييل والضرائب وفى تنمية الزراعة مبدأ عهد جديد[٢] . وكان يلقى عناءً فى المحافظة على المستوى العالى لدخل الدولة فى العراق التى كدرتها الحروب المستمرة وأنضبت مواردها ؛ ولكن خزائنه لم تكن تخلو من مال ، وكان كثير الإنفاق (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٢ وأنساب الأشراف ص ٢١٧)[٣] . وكان فصيحاً تنقاد له الألفاظ ، حتى كان مغروراً بعض الغرور بجمال أسلوبه ، وكان يكره

---

(١) [قال عمر بن عبد العزيز فى علاقة زياد بأهل العراق : قاتل الله زياداً ، جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام فى شامهم — المترجم عن كتاب الكامل] .

(٢) انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم فى مواضع كثيرة خصوصاً ص ٩٩ فما بعدها .

(٣) [بلغت عبد الملك كثرة نفقات الحجاج وأنه مثلا ينفق فى اليوم ما ينفقه الخليفة فى الجمعة . . . الخ . فرد عليه الحجاج أنه قد جاء إلى بلاد ذات فتنة تتضرم بنيران الحوادث ، فهو يستعمل الحزم جاهداً ويعطى إذا لزم العطاء ، وأنه ناصح لأمير المؤمنين لا يضيع شيئاً — المترجم] .

أن يقال إن أحداً يفوقه فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢)[1] ؛ فلا غرو إذن أن نجد رواة خطبته التى ابتدأ بها ولايته على الكوفة يوشّونها بعبارات مُتَكَلَّفة ؛ وكان جنانه لا يتزعزع فى أى موقف من المواقف ، وإنما كانت عظمته تتجلى عند الشدائد[2] . ولكن الحجاج كان فيه تعجُّلٌ كبير ، ولم يكن صبوراً على من يكلِّفُه تنفيذ أوامره ، ولم يضع يده الحديدية فى قفاز من القطيفة ، ولا كانت له الآداب التى تُنَال بها محبة الناس ، بل كان غليظاً وشديداً أحياناً ؛ ولكنه لم يكن قاسياً[3] ، ولا كان صغير القلب ولا محدود الأفق . فقد عفا عن الشعبىّ الذى ثار مع ابن الأشعث ثم وقع أسيراً فى يده ، وقد أطلقه كرماً منه ، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب ، بل قال الحق ، معترفاً بأنه ثار وحارب عن قصد (الطبرى ج ٢ ص ١١١٢ — ١١١٣) . وقد عرف للمختار قدرَه ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والدولة ؛ وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإعجابه به . وهو لما ضرب الكعبة بالمنجنيق ، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة الشنيعة ، لم يتردد فى أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر[4] ؛

---

(١) [استدعى الحجاج رجلا ذُكر أمامه بالفصاحة ، كان يكتب الكتب ليزيد بن المهلب ، فسأله فيما سأله عن نفسه : هل يلحن ؟ فقال : تلحن لحناً خفياً ، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً ، وتجعل أنّ فى موضع إن وإن فى موضع أنّ . فقال له الحجاج : قد أجلتك ثلاثاً ، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك — المترجم نقلا عن الطبرى فى نفس الموضع] .

(٢) [مرت بالحجاج محن كثيرة ، ولعل أكبر محنة لقيها هى محنته أيام ثورة ابن الأشعث وتزعزع سلطانه وتزعزع ثقة عبد الملك به ، فليراجع القارئ تفاصيل ذلك عند الطبرى — المترجم] .

(٣) [لو راجع القارئ مثلا ما فعله الحجاج بالأسرى الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب ، وما فعله بمن استسلم بعد فتنة ابن الأشعث (الطبرى ج ٢ ص ١١١٨ و ١١٢٣ و ١٠٩٧ ، ١٠٩٨) فربما رأى رأيا غير رأى المؤلف — المترجم] .

(٤) [لما رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق جاءت صاعقة ، فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت الصاعقة على صوت الحجارة ، فأعظم جند أهل الشام ذلك وأمسكوا ، ولكن الحجاج لم يأبه بذلك واشترك بنفسه فى الرمى . وفى اليوم الثانى جاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت بعض —

فكان الحجاج أقلّ وقوعاً فى حبائل الخرافات والمأثورات من معاصريه .
ولكنه مع ذلك لم يكن كافراً بالله ، ومن المؤكد أنه لم يكن منافقاً . وكان فى
حياته وأعماله يراقب ضميره ، ولكن جراءته وقلة تحرّجه فى القضاء على
عش الفتنة الذى كان بمكة ، وكذلك عدم قبوله أن يتخذ أهل الفتنة فى الكوفة
والبصرة من الذين سنداً يبررون به ما يثيرونه من فتنة ، كان بطبيعة الحال
كافياً ، عند الرأى العام بالحجاز والعراق ، فى إثبات قلة إيمان الحجاج . وقد
اتُّهِمَ الحجاج بفظائع أخرى ، وهى فى الواقع مخترعة ، وقد ولّدها بغض
أعدائه له ، هذا البغض الذى لم يهدأ حتى بعد موته . فيروى مثلا فى رواية
لم يُذْكر صاحبها أنه قتل فى البصرة بعد موقعة الزاوية أحد عشر ألف رجل ،
بل مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً (الطبرى ج ٢ ص ١١٢٣) . ويظهر
أن كلا من فون كريمر وفلوتن يصدق مثل هذا المراء ، وهما ، إيثاراً
منهما لنظريتهما ، يتلمسان فى الموالى الدليل على تعطّش الحجاج للدم . ولكن
الروايات القديمة الصحيحة تقول خلاف ذلك تماماً ، فالحجاج أمرفى البصرة
والكوفة بعد انتصاره على الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن ألقى السلاح ، وكان
حريصاً كل الحرص على منع جند الشام من ارتكاب المفاسد فى المدن التى
يفتحونها . أما الذين أصروا على محاربته ولم يقبلوا الأمان ثم وقعوا فى يده بعد
ذلك ، فإنه قتل بعضهم ، كالذى فعله فى واسط من قتل بعض القرشيين وغيرهم
من الثوار الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب . ولكنه حتى فى ذلك كان يحترم
الحقوق المدنية الشخصية ، ولم يجرؤ مثلا على مصادرة أموال أحد الموالى

= جنود الشام ؛ فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ! لا تنكروا هذا ، فإنى ابن
تهامة ، هذه صواعق تهامة ، هذا الفتح قد حضر ، فابشروا ! إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم .
فصعقت من الغد ، وأصيب بعض أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون
وأنتم على الطاعة وهم على خلاف ذلك ! — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٨٤٤ — ٨٤٥
وأنساب الأشراف ص ٤٧] .

الأغنياء (فيروز حصين[1]) ، مع أنه لم يوص فى شأنها إلا فى اللحظة الأخيرة[2] :

٤ — وجاء بعد الوليد الأول أخوه سليمان ، وكان عبد الملك قد أخذ له البيعة ولياً للعهد بعد الوليد — فى جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ = آخر فبراير ٧١٥ م . وقد سار على أثر سلفه من حيث ما كان ينويه من توجيه ضربة كبيرة للقسطنطينية بعدّة وأهبة عظيمة ، وإن كانت هذه الضربة لم تكن موفقة[3] . لكن سليمان كان يخالف أخاه فى أمور أخرى ، فلم يكن راضياً عن ذلك النفوذ الكبير الذى جعله للحجاج ، ولا بد أنه فى هذه النقطة قد عارض أخاه ، وهو ما يزال والياً للعهد ؛ ففى سنة ٩٠ هـ فرّ يزيد بن المهلب من السجن الذى كان قد حبسه فيه الحجاج[4] ، وذهب إلى الرملة فى فلسطين ، حيث كان يقيم سليمان بن عبد الملك ، فجعله سليمان فى جواره واحتمل بعض المال الكثير الذى كان مطلوباً منه ، وتدخل لدى الخليفة من أجله بإلحاحٍ شديد ، حتى أمر الخليفةُ الحجاجَ بأن يكفّ عن يزيد بن المهلب ؛ وقد ألجأه سليمان تسعة شهور عنده ، فوقع تحت تأثيره وقوعاً تاماً وزادت نفسه امتلاءً على الحجاج . ولم يكن الحجاج غافلا عما كان يريده به سليمان ، فأيد الوليد فيما أراده من خلع أخيه سليمان وجعل ولاية العهد فى ابنه عبد العزيز ، فزاد بذلك فى كره سليمان له[5] ؛ فكان لدى الحجاج من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتوقع

---

(١) [راجع ما كان بين الحجاج وبين فيروز حصين وتعذيب الحجاج له عند الطبرى (ج ٢ ص ١١١٩ — ١١٢٢) — المترجم] .

(٢) وقد بقيت لنا قصائد لجرير والفرزدق فى مدح الحجاج .

(٣) راجع مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣٩ والصفحات التالية .

(٤) [راجع قصة هرب يزيد بن المهلب وإخوته ، عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٠٨ — ١٢١٧ — المترجم] .

(٥) كان هذا بحسب ما يفترض عادة هو السبب فى بغض سليمان للحجاج ، ولكن يظهر أنه كان بالأحرى نتيجة له ، ذلك أن أمر نية الوليد جعل ولاية العهد فى ابنه لا يذكر إلا فى أواخر حكمه (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٤ و ص ١٢٨٣ فما بعدها) ؛ بل إن التوتر بين سليمان والحجاج كان قبل ذلك : منذ سنة ٩٠ هـ . وهو المبرر لهرب يزيد بن المهلب إلى الرملة .

أكبر الشر من تولى سليمان للخلافة ، وكان دعاؤُه المستمر هو أن يجعل الله مَنِيّته قبل مَنِيّة الوليد (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢)[١] . وقد استجاب الله دعاءه ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال من الحجاج نفسه ، فصبّ غضبه على آل الحجاج وأصدقائه وعماله . فعزل عثمان بن حيان المرّى عن ولاية المدينة ، وخالد بن عبد الله القسرى عن ولاية مكة (الطبرى ج ٢ ص ١٢٨١ — ١٢٨٢ وص ١٣٠٥) ، وأمر بقتل آل الحجاج وبسط العذاب عليهم . أما قتيبة بن مسلم[٢] ، الأمير القوى فى خراسان ، فقد أراد أن يسبق القدر الذى كان يهدّده ؛ واعتمد على ماضيه وما كان فيه من فتح ونصر ، فحاول أن يضم إليه جنده فى ثورة على الخليفة الجديد ، لكنه لم يفلح . وذلك أن تميماً ، وكان قد أساء إليهم ، انقلبوا عليه ، فهزموه ؛ لأن بقية العرب تخاذلوا عن نصرته ؛ وأما محمد بن القاسم الثقفى ، فاتح بلاد السند

---

(١) [لما مرض الوليد رهقته غشية ، فظن الناس أنه مات وخرجت البرد بذلك . فلما قدم البريد على الحجاج استرجع ثم أمر بحبل فشد فى يده ، ثم أوثق إلى اسطوانة ، وقال : اللهم لا تسلط علىّ من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتى قبل منيته ، ثم جعل الحجاج يدعو . فإنه لكذلك إذ ورد عليه بريد بإفاقة الوليد . ولما أفاق الوليد قال عمر بن عبد العزيز : « ما أعظم نعمة الله علينا بعافيتك ، وكأنى بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك خر لله ساجداً ، وأعتق كل مملوك له ، وبعث بقوارير من أنبج الهند » . فما لبث إلا أياماً حتى جاء كتاب الحجاج بذلك . ولكن من عبر أحوال النفوس البشرية وعواقب الفناء فى خدمة الملوك أن الحجاج لم يمت حتى كان قد ثقل على نفس الوليد ؛ فيحكى أن الوليد كان يتوضأ يوماً للغداء ، فجعل خادمه يصب على يديه الماء ، وهو ساهٍ ، والماء يسيل ، والخادم لا يستطيع أن يتكلم ، فنضح الوليد الماء فى وجه الخادم ، وقال له : « أناعس أنت ؟ » وسأله : ما تدرى ما جاء الليلة ؟ » قال الخادم : « لا » ، فقال الوليد : « ويحك ! مات الحجاج » . فلما استرجع الخادم قال له الوليد : أسكت ! ما يسر مولاك أن فى يده تفاحة يشمها — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢] .

(٢) [كان قتيبة بن مسلم ، شأنه شأن الحجاج ، قد أيد الوليد فيما كان يريده من خلع سليمان أخيه وعقد البيعة لابنه عبد العزيز . فلما مات الوليد وتولى سليمان الخلافة ، خاف قتيبة . ولكنه أراد أول الأمر أن يسترضى سليمان ، ثم ثار عليه معتمداً على مجده فى الفتح وعظم قدره عند ملوك العجم وعلى أعماله المجيدة فى خراسان وعمله على رفاهية أهلها ومدعياً أنه عراقى النسب والهوى والرأى والدين ؛ ولكن لم يتبعه أحد — راجع التفاصيل عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٣ فما بعدها — المترجم] .

فلم يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة ، مع أن جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥ س ٣) ؛ فجيء به إلى واسط وحبس حيناً ، ثم قتل(١) .

وقد خلف الحجاجَ فى منصبه عدوُّه الألدُّ ، يزيد بن المهلب ؛ وهذا هو أكبر ما يميّز حكومة سليمان عن حكومة الوليد . ويرى دوزى (Dozy) أن هذا التغير نتيجة للاختلاف فى موقف كل من سليمان والوليد إزاء الأحزاب الكبرى التى كانت تتألف من القبائل ، فيقول إن الوليد كان قيسياً لحماً ودماً ، أما سليمان فكان يمنىّ الهوى(٢) ، ويقول : « إن حكومة الوليد كانت قد أبلغت قيساً ذروةَ قوّتـها ، فجاء سقوطها بعد موته على الفور ، وكان سقوطاً مريعاً » . على أن يزيد بن المهلب أخذ جانب اليمن فى صورة صريحة ، وكان ، باعتباره أزدياً ، ينتسب إليهم ، وكان معارضاً لقيس . أما الحجاج فإنه لم يضطره إلى معارضة اليمن وإلى

---

(١) [لما مات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان واستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، حمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد بن القاسم متمثلا :

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

وقد جزع أهل الهند عليه ، وقال ، وهو فى حبس صالح بن عبد الرحمن فى واسط :

فلئن ثويتُ بواسط وبأرضها رَهْنَ الحديد مكبَّلاً مغلولا
فلَرُبَّ فتيةِ فارس قد رُعتُها ولربَّ قِرْنٍ قد تركت قتيلا

ويقال :

ولو كنتُ أجمعتُ الفرار لوطِّئت إناثٌ أعِدَّت للوغى وذكورُ
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عَكٍّ علىَّ أميرُ
ولا كنت للعبد المزونى تابعاً فيالك دهرٌ بالكرام عَثُورُ !

[المترجم نقلا عبلاذرى ص ٤٤٠ — ٤٤١]

(٢) راجع كتاب دوزى Histoire des Musulmans d'Espagne ، ج ١ ص ٢١١ ، ٢١٥ .

الظهور من هذا الوجه بمظهر من يكون فى جانب قيس إلا يزيد بن المهلب وابن الأشعث من قبله ؛ وهو من نفسه لم يتنكر لأصله وأنه من ثقيف الذين كانوا يُعَدُّون من قيس ، كما قد آثر أن يختار حاشيته من دائرة من يعرفهم . وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، ولا يصح أن يبالغ فيه أحد ، ولا أن يعتبره القاعدة العامة ، ولا أن يعتبره نزعةً قيسية أصيلة كانت عند الحجاج ؛ وإذا كانت قيس أنفسهم يعتبرون الحجاج منهم فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك أنه كان زعيماً لحزب قيسى ، ذلك أن القبائل العربية كانت تتعلّق بكل رجل قوى تستطيع أن ترتقى إليه بالنسب ولو من بعيد . فالسبب الذى من أجله عيّن عبدُ الملك الحجاج ، والذى من أجله تمسك به الوليد ، لم يكن بوجه من الوجوه قيسيةً كانت عند الحجاج — ولم يكن الحجاج من أسرة نابهة — بل كان السبب هو كفاءته الشخصية . وكان الذى جعل للحجاج شأنه هو شخصه لا قبيلته ، وكذلك كان بغض سليمان منصبًّا على شخص الحجاج وعلى نفوذه الشخصى . ولا شك أيضاً أنه إلى جانب هذا قد سُعِيَ بالحجاج عند سليمان ، وقيل له إنه ليس هو الرجل الذى يصلح لتهدئة أهل العراق ، بل إنه الرجل الذى يُبغّض إليهم حكم بنى أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٧) ؛ وقد عزل سليمان عمالَ الحجاج ، لأنهم كانوا صنع يده ، لا لأنهم كانوا قَيْسِيِّيى الهوى . أما خالد بن عبد الله القسرى فكان ، خلافاً لذلك ، يعتبر عند اليمن على أنه منهم (الأغانى ج ١٩ ص ٦١) . وأما قتيبة فكان من باهلة ، وهى قبيلة محايدة ، وفى خراسان لم يكن أكثر خصومه هم اليمن بل المضريون ، ومن جهة أخرى كانت له محبةٌ فى الشام عند قيس الذين كانوا يقطنون أرض الجزيرة وكانت باهلة تقيم بينهم (الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠) . وكان موسى بن نصير فى إسبانيا يمنياً ، ويقال إن الوليد أساء معاملته لهذا السبب[1] . ولكن سليمان أساء معاملة عبد الرحمن بن موسى أكثر مما أساء

---

(١) قارن البلاذرى ص ٢٣١ كتاب Cont Isid. Hisp. § 76

الوليد معاملة أبيه ؛ وهذا واقع من شأنه أن يضايق دوزى وتلاميذه (ا . موللر A. Müller جـ ١ ص ٤٢٩ فما بعدها) أشد المضايقة . فلاشك أن سليمان لم يكن ينزع نزعة يمنية ظاهرة ، كما نزع يزيد بن المهلب . وليس ثمة أى أثر يدل على أنه كان فى الشام منحازاً إلى جانب اليمن عن جانب قيس ، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة[١] . وكانت أم سليمان هى أم الوليد ، وكانت قيسية من عبس ؛ ومن العسير جداً أن يتنكر سليمان لما يجرى فى عروقه من دم . أما انقسام العالم العربى إلى قسمين متخاصمين على أساس الانقسام القبلى ، فإنه كان فى ذلك الوقت ما يزال فى دور التكوين : وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الأقوياء من عداء شخصى سبباً جوهرياً فى تفاقم خطب هذا الانقسام ؛ ولا يصح للمؤرخ أن يعمد إلى ما هو نتيجة فى التاريخ فيجعله بمثابة صل وقاعدة يرجع بها إلى الوراء حتى يجعلها فى بدايات ما قبل التاريخ .

وبعد موت الحجاج امتنع الزنبيل فى سجستان عن دفع الإتاوة ، ولم يتحرج من أن يصرح بمقدار استصغاره لشأن من جاء بعد الحجاج (البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها)[٢] ؛ وأيضاً بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء ، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن تغير الأشخاص لم يأت معه تغير النظم وأن يزيد بن المهلب ، وإن كان قد آذى آل الحجاج وعماله (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٥٩) فإنه لم يسلك فى الحكم طريقاً غير طريق الحجاج . فهو أقام مثله

---

(١) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠٠ س ٥ — ٦ — المترجم] .

(٢) [لما منع الزنبيل المروض التى كان قد صالح الحجاج عليها سأل عمال يزيد بن عبد الملك قائلا : ما فعل قوم كانوا يأتوننا خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ قالوا : انقرضوا ، قال : أولئك أوفى معكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتا أحسن منهم وجوهاً . وقيل له : مابالك كنت تعطى الحجاج الإتاوة ولا تعطيناها ؟ فقال : كان الحجاج رجلا لا ينظر فيما ينفق ، إذا ظفر ببغيته ، ولو لم يرجع إليه درهم ؛ وأنتم لا تنفقون درهما إلا إذا طمعتم فى أن يرجع إليكم مكانه عشرة — المترجم نقلا عن البلاذرى] .

فى واسط ، واستبقى أهل الشام فى العراق ، ووجد أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الضرائب التى بغّضت الحجاج إلى العرب ، إن كان لا بد أن يبقى دخلُ الدولة فى المستوى العالى الذى كان عليه . على أن يزيد أراد أن يتفادى بغض أهل العراق له ، فطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ولاية الخراج وأن يقلدها لعامل آخر أشار به ؛ ولكن ذلك آل إلى شىء لم يكن يخطر له على بال ، لأن العامل الذى أشار به يزيد وعيّنه سليمان على خراج العراق كان عاملاً قديماً من عمال الحجاج ، وكان حتى ذلك الحين يعمل فى الديوان ، وقد جعله سليمان مستقلاً على رأس ديوان الخراج[1] ، وهو صالح بن عبد الرحمن أحد موالى سجستان ، وهو الذى نقل لغة الديوان إلى العربية ، وكان لصالح فى واسط أربعمائة من جند الشام تحت تصرفه يسيرون بين يديه إذا خرج ، وكان مستقلا عن يزيد استقلالاً تاماً . وقد ضيّق على يزيد ، فلم يمّلكه شيئاً ، ورفض فى جفاء أن يُحمّل خزانة الخراج تلك النفقات الكبيرة التى كان ينفقها يزيد ؛ وأخيراً ضجر يزيد بسبب هذا التضييق ولم يحتمل المقام فى العراق ، وعرف كيف يدبر الحيل ويلتمس السبل حتى أسند سليمان إليه إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق[1] ، فنقل مقر إقامته إلى الولاية القديمة التى كان عليها حيث لا يراقب أعماله أحد[3] . ولكنه فى خراسان لم يجد ما كان

---

(١) هذا بحسب رواية أبى مخنف - الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٦ فما بعدها ، أما كيف أن دوزى يفهم هـذه الرواية على هواه فيستطيع القارىء أن يطلع عليه عند دوزى نفسه (Dozy, 1, 226) . على أنه بحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٢٦٨ - ابن قتيبة ص ١٨٣) كانت ولاية الخراج قد فصلت عن الإمارة فى الفترة بين الحجاج ويزيد ؛ فلا بد أن يكون هذا الفصل قد ألغى أيام تولى يزيد للإمارة ، ثم عمل به من جديد بناء على طلبه ، وليس على هذا الذى نفترضه أى اعتراض .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٦ - ١٣١٤ - المترجم] .

(٣) كان ذلك فى سنة ٩٧ هـ . وقد احتفظ يزيد مع هذا بالإمرة على العراق .

يحتسب ، فقد كان رجلاً همه الطعام والشراب والنساء[١] ، وكان بديناً فاسد الصورة ؛ وتبين الفرق البعيد بينه وبين قتيبة بن مسلم . ولكنه أراد أن يفوق قتيبة بفتح جرجان وطبرستان ، فلم يُوَفَّق فى ذلك إلا توفيقاً ناقصاً ؛ وقد كتب إلى سليمان بتعظيم قيمة الفتح وعمد إلى الافتخار وتسميع الناس فبالغ فى تقدير قيمة خمس الغنائم التى حصل عليها ، وبذلك حفر الحفرة لنفسه بيديه[٢] .

وقد احتفظ سليمان بعد أن تولى الخلافة بمقر إقامته فى الرملة من أعمال فلسطين . وكان الناس هناك يحبونه كثيراً (الطبرى جـ ٢ ص ١٨٣١) ؛ ولكنه كان يكثر من الذهاب إلى معسكر دابق فى شمال الشام ، وهو المعسكر الذى كان قاعدة لتدبير أمور الحرب الكبيرة الموجهة إلى القسطنطينية ؛ وهناك مات بعد حكم لم يدم ثلاث سنين كاملة ، وكان موته فى صفر سنة ٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م) . ويقول إلياس النصيبى إنه مات يوم الثلاثاء الثامن من صفر ؛ أما أبو مخنف (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٣٦) فيقول إنه مات يوم الجمعة العاشر من صفر[٣] . وعلى حين كانت أحاديث الطبقة الممتازة فى زمان الوليد تدور حول مسائل الزراعة وتخطيط الضياع ، صارت أحاديث الناس فى عهد سليمان تدور حول التزويج والجوارى ؛ وكان سليمان نفسه غير متحفظ ، وكان صاحب نكاح وطعام ؛ ولكنه كان غيوراً شديد الغيرة ، فأمر بمكافحة الفحش فى المدينة ؛ وربما كان ما فعله أمير المدينة من خصى المخنَّثين بدلا من إحصائهم نتيجة لتصحيف فى الكتاب الذى

(١) [راجع مثلا ما يقوله عنه قتيبة بن مسلم وما حكاه عنه عمر بن عبد العزيز (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٨٧ و ١٣١٣ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى (جـ ٢ ص ١٣١٧ — ١٣٣٥) . وقد قدر يزيد بن المهلب خمس الغنائم بستة أو أربعة آلاف ألف ، فحاسبه عليها عمر بن عبد العزيز فيما بعد — المترجم] .

(٣) بحسب فوستنفيلد يكون يوم الثلاثاء هو التاسع من صفر ويوم الجمعة هو الحادى عشر منه . ومثل هذا الاختلاف فى يوم واحد يعرض كثيراً ، وليس بذى بال . [لكن إذا كان يوم الثلاثاء يوافق ٩ صفر فإن يوم الجمعة يوافق ١٢ منه — المترجم] .

وصله (الأغانى جـ ٢ ص ٥٩ فما بعدها)[1] ؛ وهو مع أنه كان شهوانياً ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يميل إلى أهل الديانة والصلاح ؛ وهذا يتجلى فى أنه كان يظهر العطف على معارضة أهل العراق للحجاج ، هذه المعارضة التى كانت دائماً تظهر فى ثوب معارضة دينية باسم الله وباسم سلطان الله ضد غشم الأقوياء ، كما يتجلى فى أنه كان يقرّب العلويين إليه (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٣٨ س ٧) وفى أنه عيّن أحد الأنصار والياً على المدينة ، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذى كان لجده محمد ضلع كبير فى الثورة على عثمان ، على أن أوضح ما يدل على ميله لأهل الدين والورع هو أنه كان يستمع لرجاء بن حيوة ، أحد علماء الدين فى القصر . وإن المكانة التى جعلها خلفاء بنى أمية لهذا الرجل هى مقياس لموقفهم هم أنفسهم من الإسلام . وقد بدأ تأثير رجاء فى عهد عبد الملك ، وازداد فى عهد الوليد ، وبلغ أوجه فى عهد سليمان . وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان بجعل الخلافة فى عمر ابن عبد العزيز ، وعندنا فى هذا رواية الواقدى التى ذكرها الطبرى[2] .

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه يزيد على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيه . وأخذ عبدُ الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك . ولكن سليمان لم يلتزم العهد ، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً ؛ ولكن أيوب مات

---

(١) [بلغ سليمان بن عبد الملك ما كان يأتيه المخنثون فى المدينة من فساد فى النساء والرجال ، ولاحظ لمأثير اشتغالهم بالغناء وإجادتهم له فى النساء ، فكتب إلى عامله على المدينة أن إخصِ من قبلك من المخنثين المغنين . وظن البعض أن كتابه كان فيه « أن إحص » ، ولكن القارئ صحفها ؛ وهذا غير معقول ، وقد صرح الرواة بأنه كذلك — المترجم] .

(٢) جـ ٢ ص ١٣٤٠ فما بعدها . وكان الهيثم بن واقد ، عم الواقدى ، وهو طفل ، حاضراً فى دابق ؛ وقد أصاب يوم استخلاف عمر بن العزيز ثلاثة دنانير (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٦١) .

فى حياة سليمان نفسه ، وقبل أن يجعل سليمان الخلافة فى ابنه الثانى داود[1] — وكان هذا مع الجيش الأموى أمام القسطنطينية — كان على فراش الموت (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٥ و ١٣٤١) . عند ذلك وضع رجاء يده فى الأمر ، وأقنع سليمان بأن يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجلَ الصالح . فتخطى سليمان الورثة المباشرين ، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع التقى ، عمر بن عبد العزيز ، على أن يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك . وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان ، فبقى رجاء عنده ، فلما مات حرّفه إلى القبلة وغمّض عينيه وسجّاه ، وأغلق عليه الباب واستوثق من إخفاء موته على أهله . ثم جمع الأمويين فى مسجد دابق دون أن يقول إن الخليفة قد مات ، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به الخليفة فى وصيته ومن سمّى فى العهد الذى كتبه ، ولم يذكر رجاء اسم ولى العهد[2] ، ولم يخبرهم بموت سليمان ولا باسم خليفته الذى عيّنه بنفسه إلا بعد أن بايعوا . وكانت مفاجأة كبيرة عند ما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان ، وفيه استخلاف عمر ابن عبد العزيز . وكان عمر من فرع جانبى من بنى أمية ، كان قد نحّاه عبد الملك ، والآن جاء ابنٌ لعبد الملك فآثره على أمراء الفرع الأساسى لبنى أمية على كثرتهم . ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد ، وربما كان أبعد شىء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه . ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر . ويظهر أن رجاء قد أحكم ما صنع ، وقد عارض هشامُ بن عبد الملك فى البيعة بعض المعارضة ، ولكنه أخذ

---

(١) والأسماء التى سمى بها سليمان أبناءه ، وهى الأسماء الموجودة فى التوراة ، ربما كانت دليلا على ورعه ، وهى فيما عدا ذلك نادرة عند الأمويين فى ذلك العصر . أما اسمه هو فقد أعطى له من غير أن يكون له فى ذلك دخل على كل حال .

(٢) بحسب رواية الواقدى أن سليمان نفسه ، وهو على فراش الموت ، فعل ما فعله رجاء فى المسجد بعد موت سليمان — ومن الواضح أن هذا تكرار فى الرواية .

جانب العقل لما هُدِّدَ بالسيف(١) . أما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضراً في دابق ، ولما علم بموت سليمان ظن أن زمانه قد جاء ، ولكنه اطمأن لما علم بأن عمر صار خليفة(٢) .

---

(١) [لما قرأ رجاء كتاب العهد الذي كتبه سليمان بمن يخلفه وانتهى إلى ذكر عمر بن عبد العزيز ، نادى هشام بن عبد الملك : لا نبايعه أبداً ، فقال رجاء : أضربُ والله عنقك ، قم فبايع ! فقام يجر رجليه — وتفصيل موت سليمان ومبايعة عمر موجود عند الطبري في الموضع المتقدم ذكره — المترجم] .

(٢) [لم يكن عبد العزيز بن الوليد يعلم بعهد سليمان ، ولا ببيعة الناس لعمر بن عبد العزيز ، فعقد لواء ودعا لنفسه . ثم بلغه الأمر ، فأقبل وبايع عمر ، فلما سأله عمر عما كان منه ، قال له بما فعل ، واعتذر بأنه إنما بايع لنفسه خوفا على الأموال أن تنتهب . — المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٤٥] .

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز والموالى

١ — كان عمر بن عبد العزيز ابناً لعبد العزيز بن مروان الذى ظل أميراً على مصر لخلفاء بنى أمية سنين طويلة . أما أمه فكانت أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتزّ بذلك . وولد عمر فى المدينة فى عهد يزيد بن معاوية (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٦١)(١) ، وقضى هناك الشطر الأكبر من صباه ، وتغذّى عقلُه بالتراث الروحى فى مدينة الرسول . وبعد أن مات أبوه (سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ) أخذه عبد الملك إلى دمشق وزوّجه ابنته ، ثم أرسله الوليد بن عبد الملك إلى المدينة أميراً على الحجاز ، وكان قصده من ذلك محو الذكرى السيئة التى خلفها الوالى الذى كان قبل عمر واسترضاه أهل المدينة . ووثّق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث ، وكان علم الحديث قد ازدهر هناك . ولم يكن يضايقه أن ينتقد علماء المدينـة أساليب حكومة الأمويين ، خصوصاً أساليب الحجاج . وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشقاق من أهل العراق يلجأون إلى الحجاز ، فلم يرضَ الحجاج عن ذلك بطبيعة الحال ، وعُزِل عمرُ بن عبد العزيز عن المدينة بناء على إلحاح الحجاج(٢) ، ولكن عمر لم يفقد العطف من جرّاء ذلك ، فقد كان أخاً لامرأة الوليد وظل عنده مُكَرّماً ، ولم تكن مكانته الكبيرة عند سليمان أقل من ذلك .

قويت الروحُ الإسلامية فى الأسرة الحاكمة ، كما رأينا ، فمنذ معاوية

---

(١) [جاء فى الطبرى جـ ٢ ص ١١٨٢ أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦٢ هـ — المترجم] .

(٢) [راجع ما تقدم ص ٢٤٣ — المترجم] .

وعبد الملك إلى الوليد وسليمان نراها فى ازدياد مستمر : وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بنى أمية . ولكن تدينه وورعه لم يكونا شبيهين بما كان عند سلفه ، ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماماً ، وكان الورع موجهاً لأعماله فى أمور الدولة . ولقد كان سليمان بن عبد الملك رجلاً متبدياً صاحب متاع : أما عمر فيكاد يكون زاهداً ، وقد أتاحت السيادة لسليمان وسائل للمتاع لا حدود لها ، أما عمر فقد ألقت السيادة على كاهله مسئولية ثقيلة ، وكان فى كل شىء يفعله يتمثل الحساب أمام عينيه ، وكان يخشى دائماً أن يقصر فى حدود الله[1] .

ولم يكن عمر ميالا إلى حروب الفتح ، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروباً

---

(١) [لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب : « أما بعد ، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى ... وإن الذى ولانى (يعنى الله) ليس على بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه . وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى الله ورحم » . وكتب عمر بن عبد العزيز لأهل الشام : « سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه ، ومن علم أن الموت حق رضى باليسير » . ويروى أنه قال : « من عمل من غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومعول المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقد أوصى أحد ولاته فى كتاب له : « كن عبداً ناصحاً لله فى عباده ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » . ولما كتب إليه الجراح بن عبد الله الحكمى ، بعد أن ولاه على خراسان ، قائلا : « قدمت خراسان ، فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة ... فليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك » . كتب إليه عمر : يا ابن أم الجراح ! أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا فى حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٥] .

فى سبيل الله ، بل من أجل الغنائم . على أنه ليس من المحقق على كل حال أنه هو الذى أرجع الجيش الإسلامى من القسطنطينية[١] . وهو لم يستطع أيضاً ، من حيث المبدأ ، أن ينهى الجهاد مع قيصر الروم ؛ ولكنه ترك المراكز الأمامية وجمّع جنود الغزو فيما دونها . وربما كان يرضى عن الانسحاب من بلاد ما وراء النهر ، لولا أن الإسلام كان قد رسخت قدمه فى بعض مدنها . ولكنه قد منع على الأقل توسيع الحدود هناك[٢] ، وكان جل اهتمامه متجهاً إلى السياسة الداخلية ، وهنا نجد أنه قد حصل فى عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذى كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأناً بكثير .

وقد شغل عمر أهم المناصب الكبرى بعمال جدد ، فحبس يزيد بن المهلب — وكان عمر يبغضه[٣] — حَبْسَ دَيْنٍ حتى يقضى ما عليه ، وذلك أن يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم أقاليم بحر الخزر[٤] ، وكان قد بالغ فى قيمتها على سبيل الافتخار وتسميع الناس . ووجه عمر إلى خراسان الجراح بن عبدالله الحكمى ، وإلى البصرة عدى بن أرطاة الفزارى ، وإلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى الذى ينتسب إلى عمر بن الخطاب ، وإلى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ،

---

(١) [جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٦ أن عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩ هـ كتب إلى مسلمة بن عبد الملك ، وهو بأرض الروم ، وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين — المترجم] .

(٢) وفى عهد عمر بن عبد العزيز فتحت مدينة نربونه بفرنسا وحصنت . فتحها المسلمون من قواعدهم فى إسبانيا .

(٢) [كان يزيد بن المهلب يبغض عمر بن عبد العزيز ويقول عنه : « إنى لأظنه مرائياً » ، فلما ولى عمر الخلافة عرف ابن المهلب أنه كان بعيداً من الرياء . وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثلهم » . وقد تبين لابن المهلب أن عمر لم يكن يظهر اتق رياء ، لأنه استدعاه وحاسبه — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٠] .

(٤) [يقول المؤلف : غنائم الخزر ، والمقصود هو غنائم جرجان وطبرستان ، كما تقدم كلام المؤلف — وفيما يتعلق بمحاسبة عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب على ما كان قد كتب به إلى سليمان من خمس الغنائم ليراجع القارئ كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٠ — ١٣٥٢ ، ١٣٥٩ — ١٣٦٢) — المترجم] .

وإلى الهند عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم . وكان الجراح (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤) وعمراً من مدرسة الحجاج ، وكان عدى وابن هبيرة من قبيلة قيس . ولكن عمر لم يعين هؤلاء الرجال على سبيل الانصراف عن الجانب الذى كان ينحاز إليه سلفه ، وعلى سبيل الإيثار لقيس أو للحجاج ، بل لأنهم كانوا رجالا أكفاء أمناء (الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٣ س ٣) ؛ وعين على الأندلس السمح بن مالك الخولانى ، أحد اليمنيين ، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ، لأنه كان يعلم من أمر هذين الرجلين أنهما غير متحيزين لفريق دون فريق ، وأن لهما قلباً يعطف على المظلومين . على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفى باختيار رجال يظهرون أنهم على شاكلته ، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاؤون ، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال ، بل كان يشعر أنه مسئول هو نفسه عما يجرى فى جميع البلاد ، ولم يكن همه الزيادة فى قوة الدولة ، بل إقامة الحق والعدل فيها ، وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسموعة(١) ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعى مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضاً أن منصب القاضى قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالا وأكبر شأناً مما كان ؛ فقد جاء فى كتاب كتبه عمر إلى عقبة ابن زرعة فى خراسان : إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها . فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا — يعنى الخليفة(٢) . وكان الحسن المشهور(٣) فى عهد عمر بن عبد العزيز قاضياً على

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ — ١١٨٣ — حيث يروى أن عمر بن عبد العزيز بدأ ولايته المدينة سنة ٨٧ هـ . باستدعاء الفقهاء وقوله لهم إنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم ، وطلبه منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم ، وفى هذا دليل على روحه بوجه عام — المترجم] .
(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦ — المترجم] .
(٣) [المقصود بطبيعة الحال هو الحسن البصرى — المترجم] .

البصرة ، وعامر الشعبي قاضياً على الكوفة . وقد أرسل عمرُ مع عبد الحميد ابن عبد الرحمن القرشي أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتباً عنده .

وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها ، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز . ولكن ليس السهل أن نتبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج ، والآراء التي جاء بها في هذا الشأن الفريد فون كريمر (Alfred von kremer) وتابعه فيها أوجست موللر (A. Müller) مشوبة بأخطاء حقيقية .

يرى فون كريمر وموللر أن الذي دعا عمر بن عبد العزيز إلى إصلاحاته في نظام الخراج إنما هو القصد إلى العودة إلى النظام القديم[1] ، وأن عمر بن الخطاب

---

(١) كان ذهن عمر بن عبد العزيز بحكم سلطان الدين عليه بعيداً من كل إدراك لما تقتضيه الحكمة السياسية . وإنه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة ، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه ، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دنيوية . والرومان ، وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة ، إنما قرروا المبدأ الذي قرروه عن علم ، وهو أنه لا دولة يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التي أدت إلى قيامها . أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية ، وأراد أن يستعيض عنها بتحقيق مبادىء مثالية استمدها من القرآن والحديث ، حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة ! ولكن عمر بن عبد العزيز ، وهو الخليفة الورع ، كان متأثراً بمبادئ حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة ؛ وكان تفكيره الساذج يقول له إن الله يريد كذا وكذا ، وإنه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه . أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم فيرى عمر أن الله قد أظهر ذلك للمؤمنين حساً ملموساً بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدى عبديه أبي بكر وعمر متمردى العرب أولاً ، ثم فارس كلها والشام ومصر ؛ وعلى هذا فلم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيّره في أهم نواحيه خَلَفٌ السوء تغييراً لا يمت إلى الدين بسبب . وإذا عرفنا كيف أن هذه التغييرات لم تقض بضرورتها الأهواءُ الشخصية بل دعت إليها شدة وطأة الوقائع القاسية ، فإنه يصبح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع إلى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التي نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقع على العين ضربةٌ بجمع اليد . ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز ، ذلك الخليفة الجدير بالإعجاب ، بما فيها من ورع مؤثر ، لم يكن يثيرها ولو قبس من تلك المعرفة .

كان مثاله أراد أن يتبعه وأن يرجع إلى ما كان قد وضعه من نظم ، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التى استحدثها خلفاء بنى أمية وعمالهم حتى ذلك الحين(١) وهنا يقوم سؤال مبدئى عن طبيعة المثال الذى أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه ،

= فلم يلبث بعد توليه عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذى وضعه الحجاج والذى كان يقضى بأن يدفع من يدخل فى الإسلام من أهل الذمة الجزية التى كانوا يدفعونها من قبل ، وذلك تلافياً للنقص فيما يدخل إلى بيت المال . ولما كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول فى الإسلام مفيداً لغير المسلمين من جديد ، فإن الخليفة الورع — وكان قد نظم فى الوقت نفسه دعوة حارة لنشر الإسلام فى جميع الأمصار — قد قرت عينه بأن يرى جحافل المؤمنين فى المشرق والمغرب قد زادت ملايين فى وقت قصير . وحتى لو كان دخولهم نفاقاً فى بدايته فإنه يجب أن لا ننسى أن الشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضى بالموت على من يرتد عنها ، وعلى هــذا كان ارتداد من أسلم مستحيلا ، وبعد ذلك سيكون معظم الجيل الثانى على الأقل مؤلفاً من مسلمين صادقين ، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت فى الحقيقة بفضل هذا الأمر الذى أصدره عمر زيادة كبيرة ، ولكن أصاب الخزانة من جرائه نقص كبير ، ثم جاء أمرٌ ثان لعمر فزاد فى هذا النقص زيادة أخلت بالتوازن فى مال الدولة إخلالا كبيراً . على أنه كان من الواضح لعمر نفسه أن العودة إلى تطبيق القانون القديم الذى يحرم امتلاك الأرض على المسلمين لا يمكن أن تكون فى صورة مطالبة كل من ملكوا أرضاً فى الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة خلت بأن ينزلوا عنها ، وكان هذا مستحيلا من الناحية العملية لأسباب كثيرة ، فتركت هذه التجربة على الأقل بسبب خطورتها التى لا حد لها . ولكن على حين أن كل شراء للأرض قد صار محرماً على المسلمين بعد سنة مائة للهجرة ، فإن عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل الذمة تمسكا منه بأصول الدين . فألغى الخراج عن أراضى المسلمين التى كانوا قد تملكوها مخالفين النهى عن ذلك ، وجعلها أرض عشر ، فصار ما يؤخذ منها أقل مما كان يؤخذ خراجا بكثير ، فأدى ذلك من جديد بطبيعة الحال إلى نقص كبير فى دخل الدولة ، وكان أيضاً إجراء غير موفق من الناحية العملية ، لأن هذه المحاباة للملاك ، إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضاً من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضاً من بعد ، بدت فى صورة ميزة بغيضة . وإذا كان الذين لم يملكوا أرضاً قد عوضوا من طريق التنفيذ لنظام الأعطيات السنوية ، فإن ذلك لم يأت شافياً للداء ، لأن هذه الأعطيات لم تكن عالية بدرجة كافية ، وإن كانت بالنظر إلى الزيادة الكبيرة فى عدد الداخلين فى الإسلام قد كلفت الدولة مبالغ لا تتصور . وإلى جانب كل هــذه الإجراءات التى أضرت ببيت المال أكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر ، وقد أوحى به إليه إحساس إنسانى بالعدالة ، ولكنه لم يكن موفقاً من الناحية العملية ، وهو يقضى برد جميع الأموال التى ابتزت من الرعايا ظلماً إلى أصحابها ، ولا نعرف إن كان هذا قد وقع مقصوراً على أموال فردية . ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع أن يتمنى فرصة أكثر مواتاة من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير أن يناله عقاب » . هذا ما يقوله ا . موللر A. Müller فى كتابه = تاريخ الإسلام فى = Geschichte des Islams im Morgen und = Abendlande

وفى هذا الشأن يدخل الاعتبار إجراءان يُنسبان إلى عمر الأول : فيروى أنه منع العرب من أن يقتنوا أرضاً فى البلاد التى فتحوها ، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب فى الإسلام لا ترفع عنهم إلا بالجزية ، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها ؛ والحقيقة أن عمر لم يفعل هذا ولا ذاك ،

وبحسب حكم الله وحكم العدل ، كان يجب تقسيم جميع الأرض المفتوحة على العرب المحاربين ، لأنها كانت ، بحسب قانون الغنائم ، ملكاً لهم . ولكنها ، لأسباب عملية ، بقيت دون تقسيم وصارت إما أرض بيت المال ، وإما أرض عامة المسلمين . وكان نصيب بيت المال أو نصيب الخليفة تلك الأراضى التى رحل عنها ملاكها السابقون ، أو الأرض التى كانت للملوك والأشراف وأخذت من غير قتال ، أو الأرض التى ليست ملكاً لأحد مثل مواضع البريد وبيوت النار . وهذه « الصوافى » كانت كثيرة ، خصـــوصاً فى أهم ولاية كان ينظر إليها بالنسبة لبيت المال ، أعنى أرض السواد[1] بالعراق . أما ما أخذته جيوش العرب عنوة ،

= المشرق والمغرب ، الجزء الأول ج ١ ص ٤٣٩ فما بعدها ، نقلا فيه تصرف من كتاب فون كريمر المسمى تاريخ حضارة المشرق ج ١ ص ١٧٤ فما بعدها (A. von Kremer, Culturgeschichte des Orients)

(١) « طول أرض السواد مائة وستون فرسخاً وعرضها ثمانون ، وطول أرض العراق مائة وخمسة وعشرون فرسخاً ، وعرضها مثل عرض أرض السواد ؛ فيكون طول أرض العراق أقل من طول أرض السواد بـ ٣٥ فرسخاً ، يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ ، وطول الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة ، ويكون بذراع المساحة ، وهى الذراع الهاشمية ، تسعة آلاف ذراع ، فيكون ذلك إذا ضرب فى مثله ، وهو تكسير فرسخ فى فرسخ ، اثنين وعشرين ألف جريب وخمسمائة جريب . فإذا ضرب ذلك فى عدد الفراسخ وهى عشرة آلاف فرسخ بلغ مائتى ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسباخ والآجام ومداس الطرق والمحاج ومجارى الأنهار وعراض المدن والقرى ومواضع الأرحاء والبريدات والقناطر والشادروانات والبنادر ومطارح القصب وأتاتين الآجر وغير ذلك ، الثلث ، وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب ، يصير الباقى من مساحة العراق مائة ألف ألف وخمسين ألف ألف جريب ، يراح منها النصف ويكون النصف مزروعا ، مع ما فى الجميع من النخل والكرم والأشجار ، فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة فى مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً ، كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك =

فكان يُعتَبر ملكاً لعامة المسلمين ، وقد تُرِك فى يد المغلوبين ووُضع عليه الخراج ؛ وكان الواجب أن يُقَسَّم الخراج فى كل عام على الملاك الشرعيين للأرض ، باعتبار أنه غلّة لهم . ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددها على هواها ، وبذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوافى ، وكان ما يُحصَّل منهما جميعاً من غلة يجرى إلى بيت مال الدولة . وقد تمّ هذا التطور فى فترة الفتوحات الكبرى ، وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعاً قانونياً فى آخر الأمر . ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب ، فيما يتعلق بأرض الخراج ، إلى حد منع الملكية الخاصة للأرض ، بالمعنى الحقيقى لهذه الملكية ، منعاً باتاً ؛ أما التحريم لملكية الأرض على العرب فى الأمصار تحريماً شاملاً فلم يوجد قط[1] . وقد جرى خلفاء النبى من بعده ، دون استثناء أبى بكر وعمر ، على ما كان قد جرى عليه النبى نفسه من تصرف حرّ فى الصوفى أو ممتلكات الدولة ، فكانوا يهبون أجزاء منها لأهل النباهة والفضل ، لا على أنها بمثابة عارية تبقى ملكا للدولة ، بل بمثابة هبات تصير ملكا خاصاً ، وهذه هى القطائع . وكان من أثر ذلك أن نال كل من على وطلحة والزبير ثروة كبيرة[1] . وفوق هذا صار مقاتلة العرب فى الأمصار أصحاب أرض بطبيعة الحال ، ولم تقتصر ملكيتهم على الدار وما إليها ، بل كانت لهم ضياع أيضاً فى القرى المحيطة بهم : وكان أول ما اتجه إليه

= مساحة جميع ما يصلح للزرع والغرس من أرض السواد » . هذا ما يقوله قدامة كما ذكره الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٣٠١ من طبعة إنجر ، وقد بين هرمان ڤاجنر Hermann Wagner فى Göttinger Nachrichten ، ١٩٠٢ ص ٢٢٤ فما بعدها أن تقدير المساحة خطأ ، وأنه أكثر مما هى عليه [ذكر المؤلف النص غير كامل ، والذى نقله ليس مساحة السواد بل مساحة العراق ، ولذلك ذكرنا النص أطول مما ذكره من أوله ومن آخره – راجع كتاب الأحكام السلطانية ص ٩٩ – ٣٠٢ . وفى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ١٤ من طبعة ليدن أن طول السواد ٢٢٥ فرسخاً وعرضه ٨٠ فرسخاً ، ويظهر أن ثم خلطاً بين تقدير مساحة أرض العراق وأرض السواد – المترجم] .

(١) قارن فى هذا Juynboll im Indischen Gids ، فبراير ١٨٩٩ .

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٤٢ ، ٥٦ فما بعدها و ٦١ و ٦٧ .

تفكيرهم فى أثناء خلافة عمر بن الخطاب هو القتال والغنيمة ، ولكن تفكيرهم تغيّر فى غضون ما جاء بعد ذلك من سنين أكثر هدوءاً . وكان الميل إلى امتلاك الأرض قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلى ، ولم يجئ الإسلام ، ولا محمد عليه السلام ، مانعاً من ذلك ، بل جاء على العكس مقوياً له . ولا شك فى أن الميل إلى التملك كان أحد العوامل فى حروب الفتوحات . والقانون القديم الذى كان يقضى بأن تكون الأرض غير المملوكة ملكاً خاصاً لمن يستصلحها كان موجوداً ، لا فى جزيرة العرب وحدها ، بل فى الأمصار أيضاً ، وقد استُغِلّ هنالك استغلالا واسعاً . ولم تقتصر الرغبة فى تملك الأرض على أرض الفلاحين المغلوبين التى وُضع عليها الخراج ، بل كانت هذه الأرض تنتقل إلى أيدى السادة من العرب فى صور شتى ، من طريق الشراء أو ما هو شرٌّ منه . أما القول بأن العرب قد منعهم التشريع منذ بادئ الأمر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط ، ولم يكن هنالك ما يدعو عمر بن الخطاب إلى معارضة شيء لا يكاد يكون فى عهده قد بدأ ، ولم يكن على أى حال قد أدّى بعد إلى نتائج ضارة .

وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذى وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق بالأرض لا بصاحبها ، سواء أكانت ملكاً لمسلم أو لغير مسلم ، وأن الدخول فى الإسلام لا يعفى الداخل فيه إلا من الجزية ، لأن هذه الجزية تتبع الطبقة الاجتماعية ، وهى علامة تميز المغلوبين فى مقابل المسلمين ، وكان كل من الخراج والجزية ، فى أول الأمر ، يعتبر خراجاً على حد سواء ، لا فرق بينهما فى ذلك ، وهو خراج يدفعه الخدم إلى أعضاء الحكومة التيوقراطية ، أو أبناء الدولة (إنجيل متى ١٧ — ٢٥)[1] ، وكان هؤلاء لا يدفعون ضريبة لا عن أشخاصهم ولا عن

(١) [تعبير المؤلف عن حقيقة الجزية أو الخراج غير دقيق فيما يتعلق بالإسلام ، فالجزية فدية أو ضريبة يدفعها غير المسلم فى مقابل تمتعه بحقوق المواطن فى الدولة الإسلامية وفى مقابل حمايتها له ، وهى لذلك لم تكن تؤخذ إلا من القادر على الحرب من شأنه أن يقوم بواجب =

أرض مزارعهم ، بل إنما كانوا يدفعون عشرما تُغِلُّه الأرض ، ولم يكونوا يعطونه للناس بل يعطونه لله ، وكانت الفكرةُ القائلة بأنه إنما يشين المسلم أن يدفع جزية عن نفسه ، فأما إن أُلزم بدفع الخراج عن الأرض التى يملكها فلا يشينه ذلك ، فكرة بعيدة عن الأذهان : وفى الاستعمال اللغوى القديم لا توجد تفرقة مّا بين الخراج والجزية ؛ فهما يدلان على شىء واحد ، هو الإتاوة التى يدفعها غير المسلم . وفى كثير من الأحيان نجد ذكر عبارة « جزية الأرض » ، وليس ورود عبارة « خراج الشخص » أقل من ذلك[1] ؛ أما بحسب أى تسمية كان يجب على الأفراد الذين يلزمهم الخراج أن يؤدوا ما عليهم فكان وَقْعُه على العرب قليلا ، وخاصة عندما يفرض الخراج مبلغاً إجمالياً ذا مقدار ثابت على الجماعة متضامنة فيما بينها : ويظهر أن هذا كان فى أول الأمر هو القاعدة العامة ، ولم يكن شيئاً شاذاً نادراً .

وإذن فقد كان المبدأ المعمول به فى أول الأمر هو أن الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج ، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربى مسلم[1] ، أو إذا دخل مالكها الذى ليس بعربى فى الإســـلام ؛ ولكن كان من جرّاء ذلك أن وُضعت إتاوة على الأرض المزروعة التى يتخذها

— الدفاع الوطنى ، ولذلك أيضاً كان يعفى من دفعها القسس والنساء والأطفال والشيوخ الضعفاء ؛ أما الخراج فهو ضريبة تقضى بفرضها كيان الدولة . فليس دافع الجزية خادماً ولا عبداً كما يفهم من كلام المؤلف ، أما النص الذى يشير إليه المؤلف فى إنجيل متى فهو يتضمن التفرقة بين الأجنبى غير الحر فى دولة وبين المواطن العادى فيها ، وهذا غير موجود فى الإسلام — المترجم].

(١) قارن ما يقوله دى غوى فى حواشيه على الطبرى وكذلك البلاذرى ص ٦٥ س ٥ — ٧ بص ٦٦ س ١٥ و ص ٣٥١ س ١ بص ٣٥١ س ٥ و س ١٣ . وفى خراسان كان يقال دائماً جزية ولا يقال خراج (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٤ فما بعدها و ١٥٠٧ فما بعدها) ، وفى كتاب الخراج نجد استعمال كلمتى الجزية والخراج دون تمييز بينهما ، ونجد فى كتاب الخراج أن عبارة جزية الأرض تستعمل استعمالا جاريا تماماً

(٢) وكذلك كانت الأرض الزراعية عندنا تعفى من الضرائب إذا ملكها أحد الأشراف ، لأنه بحكم أنه شريف كان معفى من الضرائب .

السادة من العرب ، ثم على دافع الجزية إذا دخل فى الإسلام ، وفى كلتا الحالين انمحى الفرق بين الطبقات وبين نوع ممتلكاتها ، هذا الفرق الذى كان ينبنى عليه النظام المالى على عهد عمر بن الخطاب ، ونشأت من ذلك صعوبات وأوضاع غير سليمة ، فإذا خُفِّضت الجزيةُ بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول فى الإسلام أضرّ ذلك ببيت المال ، وإذا أخذت مبلغاً إجمالياً بالمقدار الذى كانت عليه أولا زاد العبءُ على الجماعة ، بعد أن تكون قد صارت بسبب دخول من دخل منها فى الإسلام أقل مقدرة على دفع الجزية ؛ وهذا أيضاً لم يكن فى مصلحة بيت المال ، إذا هجر المسلمون الجدد — كما كان يحدث فى العادة ، وربما فى أكثر الأحيان — قراهم ومزارعهم ، فتركوها دون من يُعنى بها وهاجروا إلى المدن التى كان يقطنها العرب . وكان هذا سبباً فى حرمان أرض القرى من قوة اليد العاملة ، حتى تعرض بعضها للخراب ٥ ولكن الهجرة إلى المدن لم تكن شيئاً مرغوباً فيه . وحتى بدون هذه الهجرة كان فى الكوفة والبصرة — ولدينا عن العراق فيما يتعلق بهذا كله أحسن المعلومات ، وتكاد تكون هى المعلومات الوحيدة التى بين أيدينا — عددٌ كبير من المسلمين الجدد أو الموالى ، وكانوا أول أمرهم أسرى حرب قد أطلقوا ؛ وكان معظمهم من أصل فارسى ، وكانوا يكوّنون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب ، ولم يكونوا يدفعون لاخراجا ولا جزية ؛ ولكنهم لم يكونوا مقيدين فى ديوان المقاتلة ، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون أعطيات ، مع أنهم كانوا يرافقون سادتهم السابقين فى الحرب ويحاربون معهم ؛ وكانوا ملزمين أدبياً بأن يقوموا لسادتهم بكل أنواع الخدمات ، فكان موقفهم هذا ، لا هم أعلى ولا هم أسفل ، لا يرضيهم بطبيعة الحال . وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح ، فكانوا يسعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين ؛ وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذى كان يهدد الدولة العربية من جانبهم . وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القائمين بها ، ولكن ملءَ الفجوة

التي أوجدها السيف في صفوفهم كان سهلا بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حباً للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالى ، وكان هذا بمثابة فجوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ؛ ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميّز لها .

ترك هذا النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، وكان نظاماً بدائياً بعض الشيء وقاصراً على الخطوط الرئيسية ، المجالَ لتطور كان يهدد بالقضاء عليه ، ولكنه تطورٌ لم يحسب عمر حسابه من قبل . وفي عهد عمر نفسه بدأت تتجلى بعض نواحي القصور هذه ؛ ففي عهده كانت رغبة العرب في التملك متجهة في العادة إلى شيء غير اقتناء الأراضي والضياع . ولم يكن الذين يلزمهم دفع الجزية من غير العرب قد بدأوا يدخلون في الإسلام على نطاق أضر ببيت المال ، وكان بيت المال ، إلى جانب ذلك ، يفيض بما كان يحمل إليه من غنائم لا تنقطع ، ولم يكن عليه أن يواجه نفقاتِ المطالب الكبيرة التي جدَّتْ فيما بعد . أما في الجيل الثاني ، خصوصاً في عهد الأمويين ، فقد تغيرت الأحوال . ويُرْوَى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق ببيت المال ، فلم يُعْفِ العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعا عنهم . ولا بد أنه عامل المسلمين الجدد الذي بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية ، وكان في بعض الأحيان يعيدهم إلى قراهم بالقوة . وكانت إجراءاته جديدة لا تتفق وما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع على أنه الحق ، وقد أثارت صيحات إجماعية من كل من أصابه صنيع الحجاج من العرب ومن الموالى ، زاعمين أن ذلك ضربة في وجه الإسلام ؛ ولكن الحجاج لم يرجع عما صنع .

وكان عمر بن عبد العزيز بحكم ورعه مضطراً أن يسلك طريقاً آخر ، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافاً كبيراً ، ولكنه حاول أن يصل إليه من طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل ، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجاً ، سواء أكان عربياً أم كان مولى ، وسواء أكان من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا . ولكى يتفادى النقص فيما يدخل إلى بيت المال فإنه ، بعد مشاورة علماء المدينة من غير شك ، استنبط من السُّنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكاً للمسلمين جميعاً أولاً ، ثم هى بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها ، بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها إلى أيدى المسلمين ملكاً خاصاً معفى من الخراج ؛ وتبعاً لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتباراً من سنة مائة للهجرة . ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثراً رجعياً ، أما إذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية فى الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها مُتَقَبِّلاً لها — وليست القَبَالة خراجاً — ولكنه كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم ، ولا شك أنه كان فى العادة يرحل ، (وهذا ما لم يرد الحجاج أن يسمح به) : أما هل كان يصبح بسبب هجرته إلى العواصم ، صاحب حق فى العطاء ؟ فهذه مسألة ليس من السهل أن يُجاب عنها إجابة سريعة .

وعلى حين أن الاعتراف بحصانة المسلمين من دفع ضريبة الرعايا لم يجعل هناك محلاً إلا للنظام المأثور الذى لم يكن قد اقتُلِعَتْ أصوله بل عاد من جديد ، كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج إجراءً تشريعياً جديداً له أعمق الأثر ولكنه كان يستند على كل حال إلى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة للمبدأ الذى عُمِلَ به فى أيام الفتح ، وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمة ،

بل بقيت دون تقسيم ؛ ولكن هذه النتيجة العملية لم تكن فى أيام الفتح نفسها قد استُنْبِطَتْ بعد .

ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته . ونظراً للطريقة التى حاول بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئاً لا يمكن تفاديه : ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات ، كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين . ثم عاد الحال ، فيما بعد ، إلى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج ، لكن مع تعديل كانت له من الناحية الموضوعية أهمية قليلة ، وإن كان له من الناحية الشكلية شأن كبير ؛ ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل ، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص ، فلا تقع إلا على غير المسلمين ، وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا فى الإسلام ؛ أما الخراج فصار يعتبر متعلقاً بالأرض المزروعة ، كما اعتُبر أنه لا يشين الشخص ، ويجوز ، بل يجب ، أن يدفعه المسلمون أيضاً إذا كانوا يملكون أرض خراج . ولما كانت الأرض المزرعة هى أهم ما يُدْفَع عنه الخراج فإن إسقاط الجزية عن الداخلين فى الإسلام لم يكن فى الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة[1] . وهكذا أمكن أن يَفِيَ بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهى ، أمر تخريج هدت إليه الضرورة القاهرة : لأننا لو نظرنا بمنظار العقل السليم لوجدنا أن الذى يؤدى الخراج فى الحقيقة ليس هو الأرض بل مالك الأرض .

ونسمع عن إصلاح للخراج قام به آخر أمير للأمويين على خراسان ، وهو نصر بن سيّار ، فوضع نصر نظاماً يقضى بجعل الخراج مقداراً ثابتاً لا يتغير يُفْرَض على مختلف مناطق أرض الخراج ، بحيث لا يعدو خراج الأرض . ومن أجل هذا كان

---

(١) لم يطالَب المسلمين الجدد ، أعنى الموالى فى الكوفة والبصرة ، بدفع الجزية قط ؛ وهم إنما كانوا يشعرون بأنهم دون غيرهم ، لأنهم لم يكونوا يقيدون فى ديوان المقاتلة ولم تكن لهم أعطيات ، وكانت مطامحهم فى هذا الباب متجهة إلى مساواتهم بالمسلمين من العرب فى الحقوق .

لا بد أن يساهم ملاك الأراضى جميعهم بنسبة ما يملكون ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، وعرباً كانوا أو فرساً . ولكن فُصِلَتْ الجزية عن الخراج وأصبحت مقصورةً على المجوس واليهود والنصارى ، ولا يدفعها العرب المسلمون ولا الداخلون فى الإسلام . أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون فى الإسلام وتسقط عنهم الجزية فقد حُسب حسابُه مقدماً ، ولم يُرَ هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هى الدخل الضرورى الثابت لبيت المال(١) . وكان هذا النظام جديداً وغير معروف من قبل ، وهو قد انتشر بعد قليل من الزمان أو كثير إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، لأنه كان يوفق توفيقاً بارعاً بين المصلحة المالية وبين مبدأ إعفاء مواطنى الدولة التيوقراطية من دفع الإتاوة . ولا شك أن الفقهاء قد قاموا فى ذلك بمهمة التوليد والتخريج من النصوص ، وكان ذلك فى الحقيقة نتيجة لعمل استنباطى معقد من جانبهم غايته التوفيق بين مطالب متضاربة . غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذى لا شك فيه واعتبروه موجوداً من أول الأمر ؛ ولكن لو أنه كان فى الحقيقة موجوداً من أول الأمر لما قامت صعوبات قط .

٢ — ومن عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم ، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين ، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردّهم إياها إلى سنة النبى وسنة الخلفاء الأولين(٢) .

---

(١) يجد القارئ هذا الكلام أكثر تفصيلا فى الجزء الخاص بخراسان من الفصل الثامن ، ويستطيع أن يرجع إليه .

(٢) [لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا وفيما سبق كثيراً من المبالغة ، لأن القواعد التى كانت جديدة فى صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك فى أصولها ومصادرها الشرعية . وطبيعى أن يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للأحكام وبين صورتها فى النصوص الأولى أو فى السنة الأولى المأثورة عن النبى أو بين الصور القانونية الفرعية وبين القواعد العامة التى تتضمنها النصوص من القرآن والسنّة ؛ وهذا معروف فى كل العلوم الإسلامية مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفاً أو ادعاء من غير استناد إلى نص قرآنى أو سنة نبوية أو إلى ما يؤخذ منهما من طريق القياس — المترجم] .

ولذلك فإنهم يردُّون الصورة التى لم يصل إليها نظامُ الإدارة والخراج إلا بعد تردد طويل إلى عمر بن الخطاب ، مع أن عمر لم يخطُ فى ذلك إلا الخطوات الأولى الأساسية : فإذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن من الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلوّ الفقهاء فى إيمانهم بأن كل شىء كان موجوداً فى التاريخ السابق . والأجدر به أن يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره أقدمهم بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع ، ولأنهم اعتمدوا فى بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التى وضعها الحكام بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة ، وهذه لا يصح أن يتسرع الإنسان فيعتبرها قواعد عامة من غير تفكير فيها ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان ، ففى هذه المادة كثير مما لا يدخل فى بضاعة الفقهاء ولا يتمشى مع منازعهم : وإن آرائى عن هذه المسألة الصعبة المختلف فيها إنما اتضحت لى شيئاً فشيئاً ودون تكلف ، والمادة التى كانت أساساً لآرائى لم أجمعها فى أيام معرفتى بها ، وها أنا ذا أجمع منها ما تصل إليه يدى ، وفى ذلك مجال لإضافة هذا أو ذاك مما لم أذكره فى هذا الموجز الذى قدمته :

فنعرف من البلاذرى (ص ٣٦٨) أن الحجاج رد إلى الخراج أرضين كانت عشرية معفاة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدى قوم من العرب . وفى النص الذى ذكرناه فى ص ٢٣٥ — ٢٣٦ مما تقدم ، نقلا عن ابن عبد ربه ، أن الحجاج أخرج الموالى من حواضر الأمصار وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالى : « أنتم علوج وعجم ! وقراكم أولى بكم » ، ففرقهم وفضّ جمعهم كيف أحبّ وصيّرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجّهه إليها ، وكان الذى تولى ذلك رجلاً من بنى سعد بن عجل بن لجيم يقال له خراش بن جابر ، قال الشاعر :

وأنتَ من نَقَشَ العجليُّ راحتَه · وفرَّ شَيْخُكَ حتى عادَ بالحكم(1)

قال شاعر آخر :

جارية لم تدر ما سَوْقُ الإبل(2) · أخرجها الحجاج من كنّ وظل
لو كان عمرو شاهداً وابن جبل · ما نقشت كفاك من غير جدل

ولما عُيّن نوح بن درّاج ، أحد الموالى ، قاضياً على البصرة فيما بعد ، قال فيه أحد الشعراء :

إن القيامة ، فيما أحسب ، اقتربت · إذ كان قاضيكمُ نوح بن درّاج
لو كان حيًّا له الحجاج ما بقيت · صحيحةً كفُّه من نقش حجاج(3)

وتشهد بهذا أيضاً الروايات الموجودة فى كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١١٢٢ و ١٤٣٥ وفى كتاب أنساب الأشراف ص ٣٣٦) : فيُذْكَر أنه لما كتب عمالُ الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصلٌ فى قرية فليخرج إليها . فخرج الناس فعسكروا وجعلوا يبكون ويقولون : وا محمداه ! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون . فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنّعين فيبكون معهم ؛ وقدم ابن الأشعث على بغتة ، فاستنصر القراء أهل البصرة فى قتال الحجاج مع ابن الأشعث(4) ؛

ونجد عند البلاذرى (ص ٣٦٨) أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه

---

(1) كان الحكم بن أيوب الثقفى خليفة الحجاج فى البصرة .

(2) يعنى أنها لم ترتحل قط .

(3) وكذلك كان حسن البصرى الذى تولى القضاء أيام عمر بن عبد العزيز أحد الموالى .

(4) [بين النص كما ذكره صاحب كتاب أنساب الأشراف وبينه كما حكاه البلاذرى فرق فى بعض الكلمات . ولا شك أن فيه خطأ أو نقصاً ، وقد اخترنا هذه القراءة ، وليرجع القارئ إلى الأصول العربية — المترجم] .

الحجاج على المسلمين من دفع الخراج . ولم يكن ذلك فى ميسان وحدها بل فى سائر ما عداها . وفى كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه إلى أمير الكوفة وذكره الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) قرر عمر القاعدة الأساسية ، وهى ألا خراج على من أسلم من أهل الأرض . ويقول تيوفانيس (فى أخبار حوادث سنة ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) أن عمر أعفى النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من الخراج .

أما ما اتخذه عمر بن عبد العزيز من إجراء حرم به بيع أرض الخراج للمسلمين بعد سنة مائة للهجرة ، فيشهد به نص فى كتاب ابن عساكر عن تاريخ دمشق ، ذكره باللغة العربية الفريد فون كريمر Alfred von Kremer فى كتابه لمحات من تاريخ الحضارة فى بلاد الإسلام = Kulturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams ص ٦٠ والصفحات التالية وترجم بعضه فى كتابه عن تاريخ حضارة المشرق فى عهد الخلفاء بعنوان Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, I, p. 76ss. وهذا النص متعلق بالشام ، وهو أيضاً مهم ، لأنه يبين أن الأصول التى عمل بها فى الشام شبيهة بالأصول التى عمل بها فى العراق . ومعلوماتنا عن العراق خير من معلوماتنا عن غيرها .

يروى ابن عساكر « أن عمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيهم على ما كان بأيديهم[1] من أرضيهم يعمرونها ويؤدون عنها خراجها إلى المسلمين ؛ فمن أسلم منهم رُفِع عن رأسه الخراج[2] ، وصار ما كان فى يده

(١) [لا يدل النص على ما يعود إليه الضمير فى : « بأيديهم » ، والظاهر أن المقصود : كما يلى ، المغلوبون الذين استسلموا ولم يسلموا — المترجم] .

(٢) يلاحظ أن كلمة الخراج هنا تستعمل فى الدلالة على ما تدل عليه كلمة الجزية .

من الأرض ودارُه بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له فى ديوان المسلمين[1] ، وصار من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ؛ ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان فى يديه من أرضه من أصحابه من أهل قريته[2] ، لانقلابها صافية للمسلمين : وسموا من ثبت منهم على دينه ذمة للمسلمين ، ويرون أنه لا يصح[3] لأحد من المسلمين شراء ما فى أيديهم من الأرضين كرهاً ، لما احتُجِزوا به على المسلمين من إمساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم . فهاب لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر غشمهم[4] وأخذ ما كان فى أيديهم من تلك الأرضين ، وكرهوا للمسلمين أيضاً شراءها طوعاً لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها ، ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين وولاة الأمر فى طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم ، قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعاً لما كان من إبقاء عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين ، لا تُبتاع ولا تورث ، قوةً على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ولِمَا ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد قولَه عزّ وجل : ﴿ وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله ﴾ إلى تمام الآية . فقلتُ لغير واحد من مشايخنا ممن كان يقول هذه المقالة : فمن أين جاءت هذه القطائعُ التى بين ظهرانى القرى الراهنة[5] والمزارعُ التى بيد غير واحد من الناس ؟ فقال :

---

(١) كان طبيعياً أن يهاجر من يدخل فى الإسلام إلى المدن التى أسست الجيوش العربية ولم يبق على الديانة القديمة إلا الوثنيون .

(٢) فى الأصل قرابته وهو خطأ .

(٣) [فى الأصل : يصلح ، والأغلب أنه خطأ — ويشير فلهاوزن إلى خطأ وقع فيه فون كريمر فى ترجمته للأصل العربى مما لا محل لذكره هنا — المترجم] .

(٤) فى الأصل : قسمهم ، وهو خطأ .

(٥) فى الأصل : الراحنة ، وهو خطأ .

إن بدء هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم ، إذ كانت ظاهرة على الشام ، كانت هذه القرى التى منها هذه القطائع ، كانت من الأرضين التى كانت بأيدى أنباط القرى . فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان فى أيديها من تلك المزارع ، فلحقت بأرض الروم ، ومن قتل منها فى تلك المعارك التى كانت بين المسلمين والروم ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يُقَبِّلُها والى المسلمين كما يقبِّل الرجلُ مزرعته .. قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبَّلة تدخل قَبَالتُها بيت المال فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية فى إمرته على الشام إلى عثمان أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف فى كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، يسأله أن يُقْطِعَه إياها ليقوى بها على ما وَصَف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قُتِل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرَّها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : ثم إن أناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التى لم يكن عثمان أقطعه إياها ، ففعل ، فمضت لهم أموالاً يبيعون ويمهرون ويورثون . فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئاً ، سأله أشراف الناس القطائع منها ، ففعل . قالوا إن عبد الملك سُئل القطائع ، وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ، فنظر عبد الملك إلى أرض من أرض الخراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقباً [ف]أقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشراً ورآه جائزاً له ، مثل إخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة . قالوا : فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً ، فسأل الناس عبد الملك والوليد

وسليمان قطائع من أرض القرى التى بيد أهل الذمة ، فأبوا ذلك عليهم ، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم فى شراء الأرضين من أهل الذمة ، فاذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك فى الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيّروها لمن اشتراها ، يؤدى العشر ، يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : فلما ولى عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التى أقطعها عثمان معاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان ، فلم يردّها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجاً ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر . قال : وأعرض عمر عن تلك الأشرية بالإذن لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك . قال : وأعرض عن الأشرية التى اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر ، لما وقع فى ذلك من المواريث واختلاط الأمر ، وجعل الأشرية وغير الأشرية سواء وأمضاه لأهله ولمن كان فى يده ، كالقطائع للأرض ، عشر ليس عليها ولا على من صارت إليه بميراث أو شراء جزية . قالوا : وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس فى سنة مائة ، وأعلمهم أنها لا جزية(١) عليها وأنها أرض عشر ، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود ، وسمّى سنة مائة المدّة ، فسماها المسلمون بعده المدة . فأمضى ذلك فى بقية ولايته ، ثم أمضاه يزيد وهشام ابنا عبد الملك . قالوا : فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسُنَيّات ، ثم اشتروا أشربة كثيرة كانت بأيدى أهلها يؤدون العشر عليها ولا جزية عليها . فلما أفضى الأمر إلى أبى جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رُفِعَتْ إليه تلك الأشريةُ ، وأنها تؤدى العشر ولا جزية عليها ، وأن ذلك أضرّ بالخراج وكسره ، فأراد ردّها إلى أهلها ، [فـ] ـقيل له : وقعت فى المواريث والمهور واختلط أمرها [فـ] ـبعث المعدّلين إلى كور الشام سنة أربعين

(١) يلاحظ استعمال كلمة الجزية هنا فى معنى كلمة الخراج .

أو واحد وأربعين [ومائة] ، منهم عبد الله بن يزيد إلى حمص ، وإسماعيل ابن عياش إلى بعلبك ، فى أشباه لهم ، فعدّلوا تلك الأشرية على من هى بيده ، شراءً أو ميراثاً أو مهراً ، وعدّلوا ما بقى بأيدى الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى ، ولم تعدل الغوطة فى تلك السنة ، وكان من بيده شىء من تلك الأشرية من تلك الغوطة يؤدى العشر ، حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد هضاب بن طوق ومحرز بن زريق ، فعدلوا الأشرية ، وأمرهم أن لا يضعوا على شىء من القطائع القديمة ولا الأشرية خراجاً وأن يضعوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على ما بقى منها بأيدى الأنباط وعلى الأشرية المحدثة من بعد سنة مائة إلى السنة التى عدّل فيها .

قال : ونا ابن عايذ نا الوليد بن مسلم حدثنى سليمان بن عتبة أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله فى مقدمه الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التى بأيدى أبناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لآبائهم قديمة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى لما أظهر المسلمين على بلاد الشام وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص ، كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورُهم وإثخانهم فى عدو الله ، [و] عسكروا فى مرج بردى ما بين المزّة وبين مرج شعبان جنبتى بردى ، وكانت مروجاً مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها ، ليست لأحد منهم ، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذُلاًّ وقَهْرًا ، فأحيا كل قوم محلتهم وهيأوا فيها بناء ، فرُفِعَ ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم أمضاه عثمان ومَن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين . فقال : قد أمضيناه لأهله » .

وابن عساكر أحدُ مؤلفى القرن السادس للهجرة ، وهو قد كتب فى ظل الرأى الذى كان ، فى أيامه ، قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأى السائد ، وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة — وكانوا بعد وفاة النبى المنظّمين الذين يعتدّ برأيهم فى الحكم فى الأحوال التى تجددت بسبب الفتح — هم الذين

وضعوا فى كل المسائل الميزانَ الحق لما يحدث بعدهم ، وأن هبة أرض الصوافى وبيع أرض الخراج عملٌ فاسد يخالف الحق ، وأنه لم يحدث إلا منذ عصر الفساد الذى جاء مع خلافة عثمان وبنى أمية : ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك فى أن ابن عساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة ، ما دام ما يذكره غير متأثر بالرأى السائد الذى تكلمنا عنه . والأشياء التى يذكرها هى أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة . ونستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع فى عهد من تقــدمه من الخلفاء من تمزيق صواف الدولة وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين ، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج . أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافى ولم يهب شيئاً منها لأحد فإن ابن عساكر لا يذكر ذلك ، ولكن يمكننا أن نفترضه مطمئنين(١)

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد عارض فى تجريد الدولة من أرض الخراج من طريق بيع أهلها لها ، فإنه لا يمكن أن يكون قد رضى بأن تفقدها الدولة من طريق دخول أهلها فى الإسلام . ويظهر أنه اتخذ إجراءات من شأنها أن تجعل

---

(١) وما يذكره ابن عساكر من زوال وانتهاء أرض الصوافى تكمله رواية تستلفت النظر نجدها عند البلاذرى ص ٢٧٢ فما بعدها وعند يحيى بن آدم ص ٤٥ . ويقول يحيى بن آدم: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصفى السواد عشرة أصناف ، أصفى أرض من قتل فى الحرب ومن هرب من المسلمين ، وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مغيض وكل دير بريد ... وكان خراج ذلك سبعة آلاف ألف (درهم) . فلما كانت موقعة (دير) الجماجم أحرق الناس الديوان ، فأخذ كل قوم ما يليهم » . [ويذكر البلاذرى أن عمر أصفى عشر أرضين من السواد ... ... الآجام ومغايض الماء وأرض كسرى وكل دير بريد وأرض من قتل فى المعركة وأرض من هرب . . . . ولم يزل ذلك ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف فأخذ كل قوم ما يليهم — ولا تذكر الأصناف العشرة لا عند يحيى بن آدم ولا عنــد البلاذرى ، وذلك بسبب سهو الرواة — المترجم] . ولم يكن الخطر يهدد أرض الصوافى بسبب أن الخلفاء كانوا يهبون أن يشاؤون أجزاء منها ، بل كان فى الناس جميعاً غضب على الممتلكات الواسعة للدولة والخلفاء وكبار الناس ، وكانوا يحاولون أن يقضوا على الأساس التاريخى الذى يقوم عليه هذا الحق الذى لم يرضوا عنه فى تملك الأرض ، أو هم كانوا يحاولون أن يطمسوه .

تطبيق المبدأ الذى يقضى بإسقاط الجزية عمن يدخل فى الإسلام غير ضار ببيت المال ، وأن تجعل لهذا المبدأ شأنا معنوياً أكثر منه مادياً[1] : فعند يحيى بن آدم (ص ٤٤) أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا فى الإسلام إلى عُشْر ، وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله[2] يدفع ما كان يدفعه من قبل ، وأن من يهاجر إلى المدن تُرَدُّ أرضُه إلى أهل القرية . على أن إلزام من بقى على جدوله من الداخلين فى الإسلام بالاستمرار فى أداء الخراج لا يتفق مع ما هو معروف لنا من جهات أخرى ؛ ولكن التناقض يختفى إذا عرفنا أن هذا الأداء لم يكن يعتبر خراجاً ، بل كان يعتبر بمثابة قَبَالَة[3] ولا شك فى صدق ما يقوله الخليفة فى الموضع الذى أشرنا إليه من قبل ، من أنه يرى أن أرض الخراج وما يخرج منها للدولة من غلة إنما هو فَيْءُ الله على المسلمين[4]

---

(١) من العسير وجود أدلة على ما يقال من أن ملايين دخلت فى الإسلام ، فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، على أثر إسقاط الجزية .

(٢) إن أرض الخراج فى العراق هى الأرض التى ترويها الجداول ، وكانت أرض العشر لا توجد إلى خارج ما يرويه النهر .

(٣) جاء فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٣) أن دهقاناً من أهل عين التمر أسلم ، فقال له على عليه السلام : « أما جزية رأسك فنرفعها ، وأما أرضك فللمسلمين ؛ فإن شئت فرضنا لك ، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا ، فما أخرج الله عز وجل أتيتنا به » . [وفى كتاب الخراج أيضاً ما يلى : أسلم دهقان من أهل السواد فى عهد على عليه السلام ، فقال له على : « إن أقمت فى أرضك رفعت الجزية من رأسك وأخذنا منك أرضك ، وإن تحولت عنها فنحن أحق بها » . والمقصود من أن يكون هذا الدهقان قهرماناً هو أن يكون متولياً الأرض بالنيابة عن الخليفة ، يزرعها ويعطيه ما يخرج منها ، وهذا هو المقصود أيضاً من عبارة « تقبيل » الأرض ، أى أن مالكها الحقيقى يقبلها لمن يشاء ، أى يضمنها إياه بحسب الاصطلاح الحديث على مقدار يقدمه لصاحبها ، وهو المسمى القبالة — المترجم] .

(٤) [تابعنا المؤلف فى كلامه بقدر الإمكان ، وفى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٤) أن أناساً من أهل السواد طلبوا رفع الجزية عن أرضين فى أيديهم ووضع الصدقة عليها ، ومعنى هذا تحويلها من أرض خراجية إلى أرض عشرية . وسأل الوالى عمر بن عبد العزيز فى ذلك فكتب إليه : إنى لا أعلم شيئاً هو أنفع لنائبة المسلمين ومادتهم من هذه الأرض التى جعلها الله فيئاً لهم ، فانظر من كان منهم له بها أرض أو مسكن فاجر على كل جدول منها ما كان يجرى قبل ذلك ، ومن لم يكن له بها أرض أو مسكن فارددها إلى أهلها — المترجم] .

وأيضاً إذا كان عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يجعل لما قرره من عدم إنقاص ملك الدولة أثراً رجعياً ، فإنه أراد أن يحتفظ للمستقبل بجملة أرض الفيء كما هي . وهو وإن لم يمَسّ حق الإعفاء من الجزية والخراج بالنسبة للمسلمين — قدماء كانوا أو محدثين — فإنه لم يرد الإضرار بالحق التاريخي القديم من طريق تغييرات جاءت بعده ، ولا انتقال المزارع إلى ملكية الأفراد ، لأن هذه المزارع في الحقيقة ملك لجملة المسلمين ، لا يصح خروجها عن ذلك .

أما فيما يتعلق بالولايات التي كانت قد مضى على فتحها ما يقرب من قرن ، وكان نظام الخراج فيها ، طبقاً لقانون الفتح ولقانون الغنائم الإسلامي في صورة معدلة بعض التعديل ، قد وُضع وضعاً نهائياً ، فقد حافظ عمر ابن عبد العزيز في الجملة على الوضع المستند إلى هذا الأساس التاريخي ودرأ عنه ما يهدده من مؤثرات . أما في البلاد التي لم يغزُها المسلمون إلا في عهده ، أو على الأقل البلاد التي لم يكن قد تمّ إخضاعُها إخضاعاً حقيقياً ، مثل بلاد ما وراء النهر والهند وإفريقية والأندلس ، فقد فعل عمر غير ذلك . ويجب فيما يتعلق بصنيعه هنا أن ننظر إليه على حدته ولا يصح أن نخلطه بغيره ، فهو يقوم على اعتبارات خاصة به . فالإسلام يقضي على المسلمين ألا يبدأوا بقتال قوم وثنيين إلا بعد أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام وطاعة الله ؛ فإن أسلموا دخلوا في الدولة التيوقراطية ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولا خراج عليهم . هذا ما قضى به الإسلام ، لكن المسلمين لم يعملوا به تماماً ، بل هم أرادوا من الجهاد أن يأتي لهم بالأموال والغنائم ، وصار هذا هو غرضهم من الجهاد ، ولم يكن الغرض نشر الدين . أما عمر بن عبد العزيز فإنه كره الجهاد وأراد ، على العكس من ذلك ، أن تدخل الأمم في الإسلام دخولاً سلمياً ؛ وفي هذه الحالة كان لا يطالبهم بخراج . أما الكلام عن إسقاط الفيء فلم يكن موجوداً لأنه لم يكن هناك فيء .

فيحكي البلاذري (ص ٤٤١) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك

السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملكهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكانت قد بلغتهم سيرتُه ومذهبُه ، فأسلم هؤلاء الملوك وتسموا بأسماء العرب . ويحكى البلاذرى أيضاً (ص ٤٢٦) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، ورفع عمر الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم[١] . وجاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٣ — ١٣٥٤) أن رجلاً من الموالى يكنى بأبى الصيداء ، وكان فاضلا فى دينه ، ذهب مع رجلين من العرب فى وفد إلى عمر بن عبد العزيز ، فتكلم العربيان ، ولم يتكلم هو ، فسأله عمر إن كان من الوفد ، فلما أجاب بنعم ، طلب منه عمر أن يتكلم ، فشكا من أن عشرين ألفاً من الموالى يغزون فى خراسان مع العرب بلا عطاء ولا رزق ومن أن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، كما شكا من أن أمير خراسان رجلٌ عصبىٌّ جاف ، يقوم على المنبر فيقول لأهل خراسان : « أتيتكم حَنَفِيًّا ، وأنا اليوم عَصَبِىٌّ ؛ والله لرجلٌ من قومى أحبُّ إلىَّ من مائةٍ من غيرهم ! » ثم قال هذا المولى عن الوالى إنه سيفٌ من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فأُعجب عمرُ بكلامه وقال : « إذن مِثْلُك فليوفد » . ثم كتب عمر لأمير خراسان — وكان الجراح بن عبد الله الحكمى : انظر من صلّى قِبَلك إلى القبلة فضَعْ عنه الجزية . فسارع الناسُ إلى الإسلام ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامْتَحِنْهم بالختان ! فكتب بذلك إلى عمر ؛ فكتب إليه عمر « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثْه خاتناً » وحكى البلاذرى (ص ٤٢٢) والطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٤ فما بعدها) أنه لما تولى الخلافة عُمر بن عبد العزيز وظهر عدلُه ، وفَدَ عليه قومٌ من أهل سمرقند طمعاً فى عدله ، ورفعوا إليه أن قُتيبة بن مسلم ظلمهم وأخذ

---

(١) [فى كلام المؤلف أن عمر رفع الخراج عن أهل ما وراء النهر وفرض لهم أعطيات ، ولكنا تابعنا النص الذى اعتمد عليه وجئنا بالكلام أكثر تفصيلا — المترجم] .

أرضهم ودخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر . فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب إليهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخرج المسلمين أخرجوا ليعود الحال على ما كان قبل عهد قتيبة . فحكم القاضى بإخراج المسلمين من عرب سمرقند على أن يُنَابِذُوا أهل سمرقند على سواء ، فيكون صلحٌ جديد أو ظفرٌ وعنوةٌ . فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين ، فأقاموا بين أظهرهم(٢) .

وكذلك كتب عمر كتباً يدعو البربر إلى الإسلام ، فقرأها عليهم واليه إسماعيل بن عبد الله ، فغلب الإسلام على المغرب . وعلى أثر ذلك حطّ عنهم الجزية ، وكانوا يؤدون الجزية بأن يقدموا أبناءهم عِوَضاً عن المال ، وقد أمر عمر بأن من كانت عنده بنتٌ من البنات اللاتى قُدِّمْنَ فى الجزية بأن يخطبها إلى أبيها فيتزوجها منه ، أو أن يردّها إلى أهلها (البلاذرى ص ٢٢٥ و ٢٣١) .

وثم إجراء آخر غريب جداً فى بابه ، حكى صاحب كتاب Cont Isid Hisp & 186 أن السمح بن مالك اتخذه فى الأندلس ، وهو وإن لم يكن من صنع عمر نفسه فهو من غير شك يتمشى مع سياسة عمر وكان بتكليف منه ، وهو إجراء يتعلق بالأرض ، يقول الكتاب المتقدم :

Zama ulteiorem vel(=et) citeriorem Iberiam proprio stilo ad vectinalia inferenda describit. Predia et manualia vel quidquit illud est, quod olim predaviliter indivisum retentabat in Spania gens omnis arabica, sorte sociis dividendo partem ex omni et mobili mobili et immobili fisco adsociat. (٢)

---

(١) [فصلنا ما ذكر المؤلف طبقاً للنص الذى اعتمد عليه ، لأنا لو اقتصرنا على الترجمة لأصبح الكلام مبتوراً والمعنى ناقصاً . والمؤلف يقول إن عمر أبى أن يعطى مدينة سمرقند لأهل السغد ، وإن كان قد عرف أن العرب أخذوها منهم غدراً ، وأنه لم يصلح ما كان قد وقع منذ سنين . وحقيقة الأمر هى كما ذكرناه نقلا عن النصوص — المترجم] .

(٢) قد غيرت ترقيم Mommsen ، وأصلحت كلمة preda ، فجعلتها : predia طبقاً —

وإذن فعلى حين أن جزءاً من الأرض المفتوحة تُرك فى يد أهله السابقين فى مقابل تأدية الخراج ، فإن جزءاً آخر كان حتى ذلك الحين قد احتُفِظَ به ثم وُزِّع على الجند بعد أخذ الخمس منه . ولا نعرف شيئاً عن نوع هذا الجزء الذى كان محجوزاً ، وربما أنه كان يتكون من نظائر تلك الأرضين التى اعتبرت صوافى للدولة فى العراق والشام[1] . وكانت يد عمر ابن عبد العزيز فيما يتعلق بالأندلس لا تزال مطلقة بعض الشىء ، ولا شك أنه كان يقصد من هذا الإجراء الذى اتخذه أن يوثق صلة المحاربين العرب ببلاد الأندلس من طريق تمليكهم أرضاً فيها . ويقال إنه فيما صنع اعتزى إلى عمر بن الخطاب قائلاً : لولا أن عمر أقطع الجند أرضا فى الثغور الهندية لما أمكن سدُّها[1] . ولا شك أن عمر بن الخطاب لم يكن له شأن بالهند ، وأنه إنما كان يريد بوجه عام أن يجعل الأرض ملكاً للدولة ما وسعه ذلك . ولكن لا بد أن يكون صنيع عمر بن الخطاب دائماً هو المثل السابق ، ولو كان فى مسيره يتردد ذات اليمين وذات الشمال . على أنه مما يجدر ملاحظته مقدار قلة اتفاق المأثور القديم مع الآراء التى جاءت بعده من أن العرب لم يكن لهم حق فى أن يمتلكوا أرضاً فى الأمصار على الإطلاق .

وأضيف أخيراً إلى ما قدمت ذكره هنا بعض الروايات المتعلقة بإجراءات

— ما يلى ، وهو أن res mobilis معناها هو mantualia وأن res immobilis معناها هو predia

[أما ترجمة هـذا النص اللاتينى فهى : نظم السمح على طريقته الخاصة ايبيريا البعيدة أو (= و) القريبة ، وذلك بقصد فرض الخراج . وكان العرب فى إسبانيا قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل ، فقسمه السمح بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءاً من كل شىء ثابت ومنقول إلى بيت المال — المترجم] .

(١) قارن الهامش المذكور فى ص ٢٨١ مما تقدم ، وهو على كل حال لم يكن الخمس . [فى النص العربى الذى اعتمد عليه دوزى أن موسى بن نصير بعد فتح الأندلس لم يكن قد أتم تقسيم أرض العنوة على الجيش بعد أخذ خمسها لبيت المال ، فيجوز أن ما بقى هو المقصود . أما الإقطاعات التى أقطعها عمر للجند فكانت من الخمس — المترجم] .

(٢) Dozy, Recherches (1881), I, 76.

مالية أخرى اتخذها عمر بن عبد العزيز ، مبتدئاً بما يمس المسلمين منها :

كانت أرض فدك ، قرب المدينة ، مما أفاء الله به على رسوله ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى ولىّ الأمر من المسلمين ، فتولاها الخلفاء من بعده واصطفاها الأمويون ، فأقطعها معاوية لمروان بن الحكم ، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فردّها إلى ما كانت عليه أول أمرها وأعطاها لآل النبي عليه السلام ، وهم العلويون وبذلك ألغى عمر بن عبد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر . ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعهما اتباعاً تاماً . وكذلك ردّ عمر على إبراهيم بن محمد بن طلحة داره التى كانت قد أُخذت منه فى مكة (البلاذرى ص ٣٠ — ٣٢ ، والطبرى ج ٢ ص ١٤٨٣ فما بعدها) .

وفى اليمن كان محمد بن يوسف أخو الحجاج قد أساء السيرة وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفةً عليهم ، فلمّا ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (البلاذرى ص ٧٣) . وفى عمان كانت عشور التمر والحبّ تقسم فى فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فبيع مرةً وحُمِل ثَمَنُهُ إلى بيت مال البصرة ، فأمر عمر برد الثمن ليصرف فيما كان قد أمر بصرفه فيه (البلاذرى ص ٧٧ فما بعدها)[1] . ولم يكن المأثور المعمول به فى جميع أجزاء جزيرة العرب[2] على هذا النحو ، بل كان يختلف هنا وهناك بحسب اختلاف الظروف التى فيها دخلت القبائل والبلاد فى الإسلام أوّلَ الأمر[3] ، وبحسب كونها ظروفاً طيبة أو غير طيبة : فمثلاً نظراً لأهمية ثغر خراسان أمر عمر بن عبد العزيز بإبقاء خراجها فيها لكى تصرف منـه الأعطيات ؛ وكتب إلى واليه بذلك وبأنه مستعد أن يحمل إليه أموالاً أخرى ، إن كانت أموال الخراج

(١) [جئنا بالكلام أكثر تفصيلا بحسب الأصل ليكون مفهوماً — المترجم] .

(٢) هكذا الأصل لكن المقصود بالبلاد : البلاد التى كانت خاضعة لسلطان الدولة العربية . [المترجم] .

(٣) راجع كتابنا Skizzen ... 4. 95

لا تكفى (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦) . ولكن لا يصح أن نعتبر ما فعله عمر بالنسبة لخراسان قاعدة عامة سار عليها ، لأن ما فعله بخراسان كانت له أسباب خاصة .

أما فيما يتعلق بأعطيات المقاتلة من المسلمين فى مدن المعسكرات وفى حاميات الثغور فقد كانت الحكومة تسير فى أول الأمر على مشيئتها الخاصة ، فكانت تسقط من ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وكانت تزيد فى الأعطيات أو تنقصها كما تشاء ، وكان هذا دائماً سبباً للشكوى . وذلك أن أموال الفىء التى تجرى منها الأعطيات إنما هى بحسب قانون للغنائم لورثة جنود الفتح وحدهم ، ولم يسكت لهم صوت قط [فى المطالبة بأن يُعطى إليهم كلُّ مال الفىء . ولا يصح أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز — وعلياً من قبله ، كما يزعم البعض — عارضهم فى ذلك ، لأن عمر ما كان ليقدم أبداً على اتخاذ مثل هذا الإجراء بدون تفكير (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها) ، بل ذهب عمر فى إرضاء المطالب التى كانت توجه إلى بيت المال إلى حد بعيد ، فوسع دائرة أصحاب الأعطيات ، حتى صارت أكثر شمولاً لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، وهو لم يقتصر على إعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب فى خراسان من الخراج ، بل جعل لهم أرزاقاً وأعطيات ، وكتب لواليه على خراسان بعده بإرسال أموال إن لم تكفِ فى ذلك أموالُ الخراج فى خراسان ، ولكن لم تدع الحاجة إلى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٦) . على أنه يجب أن نشك كل الشك فى صحة ما يُقال من أنه كان يعتبر كل من يعتنق الإسلام ويلحق بالكوفة والبصرة مهاجراً ويجعل له من الحقوق ما للدرارى الفاتحين العرب : ذلك لأن هذا ما لم يكن يمكن تبريره من الناحية الفقهية وكان يكون له من الناحية العملية أسوأ النتائج . وكان عمر بن الخطاب قد فرض لعيال المقاتلة ، وأمضى عثمان ومن بعده ذلك ، وجعلوا الأعطيات موروثة لذرية الميت ، وجاء معاوية فضيّق دائرة

أصحاب الأعطيات من ذرارى المقاتلة ، ثم جاء عبد الملك فأوقفها كُلِّيَّةً ؛ فلما جاء عمر بن عبد العزيز أعادها (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها والطبرى جـ ٢ ص ١٣٦٧) . وأمر عمر بن عبد العزيز بإعانة فقراء المسلمين ، خصوصاً من كان يريد الحج منهم ، كما أعطى الزمنى أعطيات ثابتة ؛ ولم يفعل ما فعله الوليد الأول من قصر أعمال البرّ على أهل الشام ، بل هو شمل ببِرِّه العراق وخراسان ، لأنه لم يكن يميز بعض الولايات على بعض (الطبرى جـ ٢ ص ١٣٣٧ و ١٣٦٤ و ١٣٦٧ و ١٨٥٤) .

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (فى حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) يذكر فى ذلك ما يأتى : « ولما حدث فى تلك السنة زلزال كبير فى الشام[1] حرم عمر النبيذ فى المدن وأكره النصارى على الدخول فى الإسلام ، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية ، أما من لم يفعل فإنه قتلهم . وقد استشهد كثيرون ، وأمر بألا تقبل شهادة نصرانى على عربى ، وكذلك وجه إلى القيصر ليو (Leo) كتاباً بيّن له فيه عقيدة الإسلام أملا فى أن يقنعه بالدخول فيه » . وفى الذى يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق : أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك ، ولكن عمر لم يُكره النصارى على الدخول فى الإسلام مهدِّداً إياهم بالقتل[2] ، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذى ضمنه الإسلام للنصارى) ؛ وهذا ما لم يكن من عمر ، لأنه مسلم حق ؛ وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع

---

(١) كان الزلزال فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٩ هـ = ٢٤ ديسمبر سنة ٧١٧ م . وفى صفر (سبتمبر سنة ٧١٧ م) تولى عمر الخلافة .

(٢) يزعم ديل (Diehl) فى كتابه عن تاريخ إفريقية (Histoire d'Afrique) ، ١٨٩٦ ، ص ٥٩١) أن عمر بن عبد العزيز أمر الكاثوليك فى إفريقية أن يدخلوا فى الإسلام أو يرحلوا عن البلاد ، ويستند ديل إلى ما جاء فى رسائل Monum Germ. Epsist. 3, 267. ولكن البابا جريجور فى هذا الموضع لا يأمر Bonifatius بأكثر من ألا يهتم بأى وجه بالإفريقيين الذين فى جميع البلاد يريدون اللحاق بالهيئات الكنسية ، لأن معظمهم قد اعتنق مذهب مانى والبعض الآخر قد عُمِّد أكثر من مرة (Afros passim ad ecclesiasticos ordines praetendentes nulla ratione suscipiat, quia aliqui eorum manichaei, aliqui rebaptizati saepius sunt probati) =

التزاماً تاماً ، وإن كان الأمر ربما بدا فى أعين النصارى على غير ذلك . وقد حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التى ضمنها لهم الصلح ، ولم يكن يمنع إلا بناء كنائس جديدة (الطبرى ج ٢ ص ١٣٧١)[1] . وهمّ عمر بن عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس يوحنا بغير حق ، لو أنهم فى مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التى كانت خارج باب دمشق ، خصوصاً كنيسة القديس توما ، لأن النصارى صارت لهم هذه الكنائس فى الحقيقة خلافاً لشروط الصلح ، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد فتح عنوة ولم يعط للنصارى فى شروط الصلح . فلما لم يرض النصارى بذلك جعل عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذه الوليد من كنيسة القديس يوحنا (البلاذرى ص ١٢٥ — ١٢٦ والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥)[2] . وكان

— فهل يكفى هذا دليلا على أن عمر أصدر ذلك الأمر الذى كان من شأنه أن يخالف الشرع الإسلامى مخالفة تامة ؟

(١) [كتب عمر بن العزيز فى كتاب له لأحد عماله : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٧١ — ١٣٧٢] .

(٢) [ذكر البلاذرى ص ١٢٥ أن معاوية وعبد الملك من بعده أرادا أخذ كنيسة يوحنا لتوسيع المسجد وبذلا النصارى مالا عظيما ، فلم يقبلوا حتى جاء الوليد ، فجمع النصارى وبذل لهم مالا عظيما فأبوا ، فهدد الوليد بهدم الكنيسة ؛ فقال له بعضهم : من هدم كنيسة جن وأصابته عاهة ؛ فأحفظ ذلك الوليد ، ونادى بمعول وبدأ هدمها بيديه ووسع المسجد . ثم شكى النصارى لعمر بن عبد العزيز ما كان الوليد قد فعله بكنيستهم ، فكتب يأمر بأن يرد على النصارى ما أخذه الوليد من الكنيسة وزاده فى المسجد . فكره أهل دمشق ذلك ، وأقبل الفقهاء على النصارى ، فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم ، وأخبر عمر بذلك فسر به وأمضاه . أما الطبرى (ج ٢ ص ١٢٧٥) فيقول إن النصارى شكوا لعمر أمر كنيسة يوحنا ، فقيل له : إن كل ما كان خارجاً من المدينة افتتح عنوة ، فقال عمر : أرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما ، فإنها فتحت عنوة ونبنيها مسجداً ، فلما قال لهم ذلك ، قالوا : بل ندع لكم هذا الذى هدمه الوليد ودعوا لنا كنيسة توما ، ففعل عمر ذلك . هذا ما يؤخذ من النصوص التى يعتمد عليها المؤلف ، وفيه تفصيل لما يقول وفيه أيضاً إصلاح الفكرة التى أخذها من النصوص — المترجم] .

القانون الذى طبقه عمر هنا هو، على كل حال، القانون الشرعى الذى لا شك فيه، وكان لايمكن أن يفعل غير ذلك، إلا إذا تنكر للإسلام. أما الأحوال التى كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدراً، فكان نصارى أيلة وقبرس مثلا قد صولحوا على إتاوة، ولكنها زيدت على مرور الزمان لأسباب مختلفة، فلما جاء عمر بن عبد العزيز حطّ ما زيد على أهل قبرس وأمر بألا يزاد على ما صولح عليه أهل أيلة شيئاً (البلاذرى ص ٥٩ و١٥٤ فما بعدها). وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل نجران فى اليمن على ألفى حلّة، ثمن كل حلة أوقية، ووزن الأوقية أربعون درهما، وجعل لهم فى مقابل ذلك ذمةّ الله وعهده على أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم. ولكن عمر بن الخطاب أخل بالعهد إخلالا منكراً، وجد من يصوره فى صورة جميلة متنوعة، فأكره نصارى نجران هم ومن تبعهم من اليهود على الجلاء عن جزيرة العرب إلى العراق والشام، وذلك بأن اشترى منهم أرضهم أو أبدلهم غيرها فى مواطنهم الجديدة، واستمر سوادهم فى النجرانية قرب الكوفة، ولكنهم ألزموا على أن يستمروا على دفع المقدار القديم الذى كانوا قد صولحوا عليه. وكان رئيسهم فى النجرانية هو المسئول عن ذلك، وكان يأخذ ما صولحوا عليه من النجرانيين الذين ارتحلوا إلى الشام أيضاً. فلما جاء عثمان بن عفان حطّ عنهم مائتى حلة، ثم حطّ عنهم معاوية مائة أخرى، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات أو دخل فى الإسلام؛ فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائتى حلة، لأنه، كما يروى، اتهمهم فيمن اتهم بموالاة ابن الأشعث. فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وضعفهم وإلحاح الأعراب عليهم بالغارة وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم، فأمر عمر بإحصائهم، فتبين أنهم على العشر من عدتهم، إذ وجد أنهم أربعة آلاف نفس بعد أن كانوا أربعين ألفاً، فأراد أن يخفف عنهم، ورأى أن ما صولحوا عليه من مال ليس صلحاً على أراضيهم التى أخذت منهم غصباً (أو هى على الأقل خرجت عن

أيديهم) ، بل هو يجب أن يعتبر جزية على رؤوسهم مع إسقاط جزية من مات أو أسلم ، ونظراً لأن عددهم قد نقص إلى العشر فإن عمر أنقص تبعاً لذلك ما كانوا قد صولحوا عليه إلى العشر ، فألزمهم مائتى حلة بدلا من ألفين ، أو بعبارة أخرى ثمانية آلاف درهم بدلا من ثمانين ألفاً . وربما كان عمر ابن عبد العزيز قد أراد من وجه ما أن يصلح ظلم عمر بن الخطاب[1] (البلاذرى ص ٧٦ فما بعدها) .

وأمر عمر بن عبد العزيز واليَه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن فى الكتاب الذى تقدم ذكره ، وهو عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) ، أن يعدل فى معاملة الرعايا غير المسلمين أيضاً ، وأن يحسن معاملتهم ، وأن يأخذ الخراج فى رفق ، وألا يحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وألا يأخذ من العامر سوى الخراج ، متجنباً الهدايا التى كانت منذ زمان قديم تهدى للولاة فى

(١) [يجد القارئ عند البلاذرى قصة هؤلاء النجرانيين : وفد رؤساؤهم على النبى عليه السلام ، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، فدعاهم إلى المباهلة فتجنبوها ، وصالحوه على شروط منها : إعطاء ألفى حلة كل عام ، مع إمكان دفع ما يقابل بعضها سلاحاً أو خيلا أو عروضاً أخرى ومنها : أن يضيفوا رسل النبى عليه السلام شهراً وأن يعيروه (عارية ترد أو يرد ثمنها) ثلاثين درعا وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً ، إن كان باليمن كيد . وفى مقابل ذلك جعل لهم ذمة الله وعهده ألا يُفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ، وأن تكون لهم أرضهم وأموالهم . واشترط النبى عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ثم أجلاهم عمر ، وفى رواية أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر الرسول عليه السلام بألا يبقى دينان فى أرض العرب . وفى رواية أخرى أن النجرانيين تزايد عددهم واختلفوا فيما بينهم فاختصموا إلى عمر ، ويظهر أن بعضهم كان يريد إجلاء البعض ، لأنهم طلبوا منه أن يجليهم ، فاغتنم عمر ذلك وأجلاهم ، خوفاً منهم على المسلمين وتجنباً لوجود فتن فى الجزيرة . وفى رواية ثالثة أنهم خالفوا شروط الصلح ، فأكلوا الربا ، فأجلاهم عمر . ويجوز أن يكون الذى دفعه إلى ذلك أكثر من سبب ، وهو على كل حال اشترى منهم أرضهم وأموالهم ، وكتب إلى عماله أن يوسعوا لهم من الأرض ، وأن يجعلوا لهم ما يعمرونه ويستصلحونه منها ، تعويضاً لهم عن أرضهم التى كانت فى اليمن . وعند البلاذرى نص كتاب الصلح بينهم وبين النبى وذكر تفاصيل أخرى . ولا يمكن على كل حال أن يكون عمر قد أجلاهم من غير مبرر لذلك ، وإلا فإنه ينقض عهداً للنبى ، وهذا ما لا يمكن أن يفعله خليفة — المترجم] .

البلاد التي كانت فارسية ، مثل هدايا النيروز والمهرجان ودراهم النكاح وثمن الصحف وأجور الضرّابين والآيين[1] ، ومعنى هذه الكلمة هو العادة ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الإنجليزية (Custom)[2] . وهذه الهدايا لم تكن مشروعة ، وكان يصعب الإشراف عليها ، وفي معظم الأحوال كانت لا تدخل بيت المال ، ولذلك كان القضاء عليها عسيراً ، وكان الولاة لا يحبون أن يأتي لهم الناس في النيروز وغيره من مناسبات بأيدٍ خالية (الطبري ج ٢ ص ١٦٣٥ فما بعدها) .

وقد دعت عمرَ إلى تحريم بيع أرض الخراج اعتباراتٌ ترجع إلى أحوال بيت المال . فهو قد أراد أن يتفادى نقص الخراج الناشيء من انتقال أرض الخراج إلى أيدي المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبب ، ولكنه بذلك وضع في نفس الوقت سدًّا أمام الرغبة في اقتناء الضياع ، محاولا أن يحمي دافعي الخراج من الملاك من أن تطغى على أرضهم شهوة التملك من جانب السادة العرب الذين كان امتلاك الأرض أكثر فائدة لهم بحكم أنهم لم يكونوا يؤدون عنها خراجاً . ومثل ذلك حدث في شمال غربي ألمانيا ، في مقاطعة « براونشفيج — لونبرج » (Braunschweig — Lüneberg) مثلا ، من معارضة الأمراء لأسباب مالية في انتقال الأرض الزراعية إلى يد الأشراف ، لأنها عند ذلك تعفى من الضرائب ، ولكنهم في نفس الوقت أنقذوا بذلك طبقة الزراع دون أن يقصدوا إلى إنقاذها . ولا شك في أن عمر بن عبد العزيز لم ينجح نجاح هؤلاء الأمراء ، ولكن

---

(١) [يحسن الرجوع إلى نص الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد والي الكوفة ، وهو مذكور عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦) بنصه الكامل ، وهو أوضح وأشمل من كلام المؤلف — المترجم] .

(٢) إن فكرة الضرائب الجمركية غير معروفة في التشريع الضرائبي الإسلامي ، فلا يوجد بحسب هذا التشريع إلا الخراج والعشر . على أن المشرعين الإسلاميين عرفوا كيف يطبقون قاعدة أخذ الخراج والعشر على التاجر الذي يرتحل ببضائعه .

الأحوال فى المشرق كانت أيضاً مغايرة للأحوال فى ألمانيا ؛ فكان فى المشرق قليل من الفلاحين بالمعنى المعروف عندنا ، هذا إلى أن ملاك الأرض من غير العرب كانوا فى الغالب دهاقين أو بعبارة أخرى ، سادة يملكون الضياع والقرى وكان الفلاحون تبعاً لهم .

٣ — وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثم شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير ، وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر ابن عبدالعزيز نظرة استهزاء مقصود ؛ وهذا هو ما بدأه دوزى ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره . من الجائز أن يكون عمر متأثراً بالدين ، أعنى فى هذه الحالة بعلم الفقه ، تأثراً أكثر مما يريد البعض ، وأن يكون تدقيقه فى محاسبة نفسه قد أدى به فى كثير من الأحيان إلى تشكك عاقه فى تنفيذ سياسته . فيروى أنه مرة ختم خطبة له بقوله : أقول لكم هذا وما أحسُّ بأنى خير منكم[1] . فلم يكن عند عمر

(١) [لا يذكر المؤلف المصدر الذى اعتمد عليه ؛ ولكن ثم خطبة لعمر بن عبد العزيز ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٨ — ١٣٦٩) ، وهى تدل على نواح كثيرة من روحه وشخصيته ، وفيها جوهر العبارة التى يذكرها له المؤلف ، وها هى بنصها الكامل : « أيها الناس ! إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض . ألا فاعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافداً بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان . ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، حتى ترد إلى خير الوارثين ! وفى كل يوم تشيعون غاديا ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وانقضى أجله ، فتغيبونه فى صدع الأرض ، ثم تدعونه غير موسود ولا ممهد ، قد فارق الأحبة وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهن بعمله فقير إلى ما قدم ، غنى عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فاستغفر الله وأتوب إليه ، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما من أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه ساوانى ولحمتى الذين يلونى ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وأيم الله لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان منى به ذلولا عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعة وينهى عن معصية » . ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات . ويظهر أن هذه هى الخطبة التى يقصدها المؤلف ، غير أنه لم يقرأها إلى نهايتها — المترجم] .

ابن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأن له سلطاناً شخصياً ، هذا الشعور الذى كان لجدّه عمر بن الخطاب ، وكان به يُرهب الدنيا ، ولكن عمر ابن عبد العزيز لم يكن معنياً بنفسه ، بل عنى بالخير للناس والبرّ بهم ، وقد دفعه ورعه إلى الحكم الصالح وإلى معالجة الأعباء الكبيرة التى كان يقتضيها الحكم الصالح بما هى أهل له .

وليس من الضرورى ، بطبيعة الحال ، أن يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما اتجهت إليه نيته الطيبة ، فمثلا يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنه ضيّع الأموال ، ولكنا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الأمر فى ذلك ، فهو إذا كان قد أسقط الجزية عمن دخل فى الإسلام من الشعوب والممالك ، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لمجرد الغنائم ، ولم يفرّط فى شىء يدخل فى بيت مال الدولة : لأن السمك لم يكن قد وقع بعد فى الشبكة ، أما فى الولايات التى كانت قد فُتحت قبل عهده بزمان طويل ، وتقررت جزيتها وخراجها طبقاً لقانون الفتح ، أعنى أرض السواد وأرض مصر ، فإن عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذى كان قد جرى العمل به ، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخلها ، كما أنه حاول أن يتفادى الضرر الذى من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين . ولا شك أيضاً فى أنه ، إذْ مَنَعَ من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة ، إنما نال من العمال وحدهم ، وهم الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا . وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المـــال بسبب أنواع المساعدات والبرّ التى قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم . أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئاً من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز[1] ولا هو

---

(١) [راجع ما تقدم فى هامش ص ٢٩٤ حيث يعرب عمر عن عدم رغبته فى جمع الأموال . وهنا نجد دليلا على روح البر التى كانت تملأ نفسه ، حتى إنه كان يتمنى أن يكون عيش الناس وعيشه سواء ، أما فيما يتعلق بأنواع البر فقد قدم المؤلف ذكر بعضها . وفى =

أسرف فيها أيضاً فى حملات حربية على القسطنطينية : وكان فى ذلك مخالفاً لسلفه كل المخالفة . وكذلك عنى عمر بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ، والأغلب أن ذلك عوض النفقات التى اقتضتها إصلاحاته ضعفين . أما ما يزعمه البعض (ا . موللر A. Müller 1,441) من أن أموال الدولة فى عهده قد تلاشت ، كما يزول الشىء بإشارة سحرية ، وأن ما يتحصل من الخراج قد انحطّ دفعة واحدة ، فإنى لا أريد هنا أن أتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعمٌ لا يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه ، وذلك أن الأحوال المالية كانت سيئة فى الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت إلى حالة الصحة ، ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة . ومن ذا الذى يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه أسقط عن البربر الجزية ، جزية الأبناء — فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية — وأنه خفّف العبءَ على نصارى نجران ، وأنه عمل على حماية الرعية من العمال ، وأنه حرص على ألاّ تكون إدارةُ الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً !

أما فون كريمر وأوجست موللّر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز إنما تدخل فى الأمور المالية دون أية ضرورة عملية جرّياً وراء ما صوّره له ورعه من مثل عليا خيالية ، فأفسد المجرى الطبيعى للمالية وأخرجها عن الطريق الذى أدّى بها إليه التطور السابق ؛ وهما يزعمان أيضاً أنه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية . أما الحقيقة فهى بالأحرى أن المؤرخين اللذين ينقدون أعمال عمر هم اللذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة

— الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٤) زيادة على ذلك أنه أمر بعمل خانات لفقراء من يمر من المسلمين يوما وليلة ولتعهد دوابهم ولفقراء من كانت به علة يومين وليلتين وتقوية المنقطع بما يصل به إلى بلاده . وقد كان عدل عمر وإحسانه سبباً فى كثرة المطالب والشكاوى — المترجم] .

ومحتاجة إلى تنظيم جديد . ولم يكن عمر نفسه هو الذى أحدث الاضطراب في نظام الخراج ، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل ، وما كان يمكن أن يستمر . ولم يكن الواجب الذى أراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً ، بل كان واجباً حقيقياً ومُلِحًّا . وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدِّيّة هو الحجاج ، غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس . أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب على طريق آخر ، مراعياً تلك الحساسية التى يؤيدها الإسلام أو التى تستند إليه على الأقل . وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التى تمخّضت عنها الأيام وكان لا بد لها من حلّ ، وهى إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدى مالكين لا يلزمهم أداءُ الخراج .

وبذلك أيضاً يبطل فى الجملة مايؤخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زعزع أركان الدولة الأموية . فالحقُّ أنها كانت تَميدُ من قبله ، وكانت من أول الأمر مزعزعة . فأما القاعدة التى تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهى أن دولةً لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى اعتمدت عليها فى قيامها ، هذه القاعدة التى يسوقها ا . موللر فى أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافَه عن سنّةِ سلفه من خلفاء بنى أمية ، فهى قاعدة يمكن أيضاً أن تُذْكَر فى معرض النقد لخلفاء بنى أمية أنفسهم ، ذلك أن حكومتهم لم تكن بأى حال من الأحوال سائرةً على سنّة حكومة النبى عليه السلام وأصحابه ؛ وهى وإن كانت قد أرادت أن تتمسك بالإسلام ، وما كان يمكنها أن تتنكر له ، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيِّدها بل أن يقوّضَ الأساس الذى قامت عليه . وكان على بنى أمية دائماً أن يشتغلوا بالقضاء على الثورات التى كانت تقوم لمحاربة سلطانهم باسم الله وباسم الدين . وإلى جانب ذلك كانت تهددهم من جانب أهل العراق عداوةٌ لا تلين ، هذه العداوة التى كانت تندلع بين حين وآخر فى صورة ثورات هائلة على الاستبداد الشامى البغيض . على أن أكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التى لم تكن

موجهة إليهم وحدهم بل إلى السيادة العربية على إطلاقها : وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقاً لقانون الفتح ، بحيث جعلها دولةً العرب على المغلوبين وأقامها على أساس من التمييز الديني والقومي على السواء بين طبقتين منفصلتين : طبقة العرب المسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب ، أو بعبارة أخرى طبقة الأرستقراطية الحربية من العرب ، وطبقة دافعي الجزية والخراج من كافة غير العرب . ولكن عمر بن الخطاب بصنيعه هذا لم يُقِم بناء الدولة على أساس ثابت ، ذلك أن الحاجز الذي كان يفصل بين السادة العرب والخدام من غير العرب أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب في الإسلام شيئاً فشيئاً ، وبسبب غلبتهم في المدن التي أنشئت للجيوش العربية . وكان صبغ المغلوبين بصبغة الإسلام شيئاً فشيئاً ، وهو عملية طبيعية لا يمكن إيقافها ، سبباً في تعويض النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب للخطر ، وإن كان ذلك لم يحصل في عهد عمر ، بل في عهد بني أمية الذين أخذوا بذلك النظام . وكان الواجبُ ، مراعاة للأصول التي تقوم عليها الدولة التيوقراطية على الأقل ، أن يكون المركز السياسي للمواطنين فيها تابعاً للدين ، وأن يكون الإسلام لا القومية ، هو الذي يجعل للمواطنين فيها حقوقهم :

وكان الموالي بالباب يتربصون الدوائر ، كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب . وكان الإسلام في جانبهم ، فاجتذبتهم الثورة التي كانت تستند إلى الإسلام ؛ وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يجيب مطالبهم دون ثمن غال ، ولعل الاعتبارات التي كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتبارات دينيةً أكثر منها سياسية ؛ ولم يكن من المستطاع كَسْرُ الروح الإسلامية ، بل كان لابد من أن يُحْسَب حسابُها ، وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار ؛ وعلى هذا فإن خليفةً أموياً يجتهد في أن يتمشى مع أصول الإسلام وفي تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامي بأن يزيل أسباب الشكوى التي كان لها

ما يبررها ويستجيب إلى ما يمكن الاستجابة إليه من مطالب ، إن خليفةً يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئاً يضرّ بمصلحة أسرته الحاكمة . وربما كان هذا هو البرنامج الذى وضعه عمر بن عبد العزيز ، فهو قد حاول أن يجد فى الإسلام أساساً مشتركاً بين الجميع ، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفّزة الطامحة المعادية لها . وهو ، تمشّياً مع هذه الغاية ، سار على سياسة التفاهم والتصالح . ولم يكن عمله فى ذلك مقصوراً على الموالى وحدهم ، فقد حاول أيضاً أن يزيل أسباب التذمر فى الأمصار ، وخصوصاً حاول أن يزيل ما كان فى نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم ، وكان بِرُّه يتسع للجميع على سواء ، بل كان يظن أنه يستطيع إرضاء الخوارج بمناظرته إيّاهم فى آرائهم[1] ، وهو قد نجح على الأقل فى أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياتُه . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين ، على حين أنه كان شديداً على غيرهم من المجرمين ، وقد أثبت برّه بالعلويين ، وردّ إليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات . وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة ، وترك لعن على بن أبى طالب على المنبر ، وكتب بذلك إلى الآفاق[2] أما القول بأنه كان يعترف فى أعماق نفسه بصحة دعوى العلويين فى الخلافة فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك[3] ولا يصح تصديقه . لقد كان عمر بن

---

(١) [راجع فى هذا الطبرى مثلا (ج ٢ ص ١٣٤٨ — ١٣٤٩) ، حيث طلب عمر من رئيس من رؤساء الخوارج أن يناظره — المترجم] .

(٢) الأغانى ج ٢ ص ١٥٣ واليعقوبى ج ٢ ص ٣٦٦ ، ويشك فايل Weil فى صحة هذه المسألة شكا ليس له مبرر ، وذلك أنه ، حتى بعد عمر ، لم يصدر أمر رسمى بلعن على (الطبرى ج ٣ ص ١٤٨٢ — ١٤٨٣) .

[أراد سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان أن يزين لهشام بن عبد الملك ، وهو يحج بالناس سنة ١٠٦ هـ ، لعن على بن أبى طالب ؛ فثقل كلامه على هشام ورد عليه قائلا : ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنه ! قدمنا حجاجاً . فلم يقع ما طلبه حفيد عثمان فى نفس هشام إلا موقعاً سيئاً — المترجم نقلا عن الطبرى فى الموضع المشار إليه] .

(٣) يميل الفصل المعقود لعمر فى كتاب الأغانى إلى تصويره شيعياً مستتراً ؛ ولكن يستطيع الخوارج ، وهم من الشيعة على طرفى نقيض ، أن يعتبروا عمر بن عبد العزيز منهم .

عبد العزيز مسلماً من الطراز القديم ، وكان الإسلام الأول لا يؤيد فى الجملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق فى الخلافة : وربما كان من شأن الإسلام أن يرضى عن الأمويين أيضاً — رغم أن أصل سيادتهم لم يكن متفقاً مع القانون — لو أنهم بعد ذلك لم يخالفوا الإسلام . وقد شهد المنصور العباسى لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية فى جملتها ؛ ولكنه كان يرى أن عمر كان أموياً ، لأنه تمسك بتقديم أهل بيته (الطبرى ج ٢ ص ٥٣٤)(١) .

وهذا هو حكم صاحب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور (الفصل ٣٨) على عمر بن عبد العزيز :

Hamer in exercitibus nihil satis prosperum nec quicquam adversum peregit, tantae autem benegnitatis patientiae fuit, ut hactenus tantus ei honor lausque referatur, etiam ab externis quantus ulli umquam viventi, regni gubernacula praeroganti adlatus est. (٢)

ومهما يكن من شىء فقد كانت أغراض عمر أغراضاً طيبة ، وربما لم تكن

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف بحسب ما فهمه من النص الذى اعتمد عليه ، وهو من حيث الفكرة صحيح بعض الشىء ، أما ما يؤخذ من النص فهو هذا : وهو أن المهدى جلس للمظالم ، فتقدم إليه رجل من آل الزبير يطالب رد ضيعة كانت له من أبيه واصطفاها بعض ملوك بنى أمية ، فلما أمر المهدى بالبحث عن حقيقة أمرها فى الديوان العتيق اتضح أن أمرها قد عرض على عدة منهم لم يروا ردها إليه ومنهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدى : يا زبيرى ! هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو منكم معشر قريش ، لم يَرَ رَدَّها . قال : وكل أعمال عمر ترضى ؟ قال : وأى أعماله لا ترضى ! ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بنى أمية فى خرقة فى الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بنى هاشم فى ستين . قال للمهدى : أكذلك كان يفعل عمر ؟ قيل : نعم . فقال : أردد على الزبيرى ضيعته . يتبين من جملة هذه الحكاية حسن ظن المهدى بعمر بن عبد العزيز ورضاه عن أعماله ، لكن ما يعاب على عمر من أنه كان يحابى الأمويين إنما جاء من جانب الزبيرى فى معرض نقده لأعمال عمر التى أراد المهدى أن يعتبرها صواباً كلها . ويدل السياق على أن النقد جاء على لسان الزبيرى . — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٣ ص ٥٢٤] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هى : « إن عمر لم يقم فيما يتعلق بتسيير الجيوش لا بما جلب نصراً ولا بما جر نكبة ، لكنه كان رجلا له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الأباعد ، وقد نال من ذلك ما لم ينله حى » يطمح إلى الملك — المترجم] .

أيضاً بعيدة عن الحكمة ، ولا يمكن التكهن بما كان سيحقق من أعمال ؛ لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف ؛ فقد توفى عن تسع وثلاثين عاماً فى يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٩ فبراير سنة ٧٢٠ م .) فى الخناصرة ، قرب دمشق . ويقول أبو عبيدة إن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السمّ ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج ، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، مخالفاً فى ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز[1] . ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية وهى لا تنمّ إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اختُرِم وفارق الدنيا قبل الأوان ، وأن النظام الذى كان سائداً قبله عاد من جديد .

(١) [تختلف الروايات فى تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز ، وهى موجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦١ فما بعدها) ، وعند المسعودى فى كتاب التنبيه والإشراف مثلا ص ٣١٩ من طبعة ليدن . أما مسألة أن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السم فهى موجودة عند الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٨ — ١٣٤٩ . وهى تتلخص فى أن بعض الخوارج ثاروا فى عهده ، فكتب عمر إلى زعيمهم : بلغنى أنك خرجتَ غضباً لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يديك نظرنا فى أمرنا . فبعث الزعيم الخارجى رجلين لمناظرة عمر ، فكان مما اعترضنا به عليه أنه أقر يزيد بن عبد الملك لكى يلى الخلافة بعده . فقال لهما : صيّره غيرى ، فقيل له : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك ؟ فقال عمر : أنظرانى ثلاثاً . وخرج المندوبان الخارجيان من عنده . وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفى أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد ، فدسوا إليه من سقاه سما ، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات . فالظاهر أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج وأراد التفكير فيما يصنع — المترجم] .

الفصل السادس

المروانيون المتأخرون

١ ــ كان يزيد بن عبد الملك حفيداً ليزيد بن معاوية من طريق ابنته عاتكة التى تزوجها عبد الملك ، وكثيراً ما يُنْسَب إلى أمه النابهة ، فيسمى يزيد بن عاتكة[1] ؛ وكان يحس أنه أشرف من بقية بنى مروان ، وكان يباهى بما يجرى فى عروقه من دم سفيانى . والحقيقة أن عرقاً من جده لأمه كان ينبض عليه ، وإن كان لم يرث من جده رقته وتلطفه مع الناس .

ولم يكد يرتقى عرش الخلافة حتى كانت كائنة صار لها تأثيرها الحاسم فى حكومته وفى العصر التالى له . فقد كانت ليزيد بن عبد الملك صلات وثيقة بالحجاج ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أخى الحجاج نفسه ، فأنجبت له فى حياة الحجاج ابنه الوليد الذى صار خليفة فيما بعد ، وقد أسمت ابنها الأول الذى توفى الحجاج على اسم خاله . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب ؛ وكان يزيد هذا والياً على العراق ، وقد عذّب آل الحجاج . وكان يزيد بن المهلب من المستظلين بظل سليمان بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيراً[2] ؛ فهرب من السجن الذى كان حبسه فيه عمر بن عبد العزيز إلى أن يقضى الأموال التى كان كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك أنها صارت إليه عند

---

(١) كانت لا تزال فى ذلك العهد تعلق قيمة كبيرة على ميلاد الرجل من أم كريمة ، وكانت أم مسلمة بن عبد الملك جارية غير عربية ، ولذلك لم ينظر إليه الترشيح للخلافة رغم أنه كان رجلا كفؤاً وحاذقاً ورغم أنه كانت له فى أسرة الأمويين أرفع مكانة .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٩ س ١٥ — ١٣٦٠ س ٢ ، ص ١٣٦٠ س ١١ ، حيث يعبر ابن المهلب عن خوفه من يزيد بن عبد الملك — المترجم] .

فتحه جرجان وطبرستان[1] ، ويقول الواقدى إن يزيد لم يهرب من السجن إلا بعد وفاة عمر[2] . أما أبو مخنف ، وهو عمدة الرواة الذين اعتمد عليهم الطبرى ، فيقول إنه هرب بعد أن علم بأن المرض قد ثقل على عمر . وقصد يزيد البصرة ، موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أزد عمان . وقد مر فى طريقه بقبيلة قيس ، فأتبعوه ، ولكن ردهم عنه الهذيل بن زفر . وبعث والى الكوفة جماعة من شرطة الكوفة ووجوه الناس وأهل القوة فيها ليعرضوا له ، ولكنه مرّ غير بعيد منهم ، فأشفقوا من الإقدام عليه . ومضى حتى ظهر أمام البصرة فى كتيبة كبيرة من أصحابه الذين أقبل فيهم ومن رجال من أهل بيته ومواليه ، جمعهم أخوه محمد بن المهلب وخرج بهم لاستقباله . وكان عدىّ بن أرطاة الفزارى والى الكوفة قد قبض على من وصلت إليه يده من آل المهلب ، وخرج مع قبائل البصرة ، فوقفوا أمام المدينة لكى يمنعوا ابن المهلب من دخولها ، ولكنه لما أقبل جعل لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحّوا له عن السبيل . واستقبله المغيرة بن عبد الله الثقفى فى خيل ، فحمل عليه محمد بن المهلب فى الخيل ، فأفرج له عن الطريق . فدخل ابن المهلب البصرة ، وأقبل حتى نزل داره ، واختلف إليه الناس . ومن الواضح أن الخليفة الجديد لم تسبق خلافته سمعة طيبة ، ويظهر أنه لم يكن من جند الشام لا فى البصرة ولا فى الكوفة العدد الكافى . ويجوز أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أعادهم إلى الشام من قبل .

وقد بدأ يزيد بن المهلب بمفاوضة عدى بن أرطاة أمير البصرة فى أن يُفرج عن بنى المهلب الذين كان قد حبسهم فى القصر بالبصرة ، وذلك فى مقابل أن

---

(١) زدنا كلمات على الأصل الألمانى ، أخذناها من التنبيه للمسعودى (ص ٣٢٠ - ٣٢١) ، زيادة فى الإيضاح - المترجم] .

(٢) تجد ذلك فى الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١ س ٢ - ٣ . وتجد قصة ابن المهلب وما كان منه عند الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٩ - ١٣٦١ وص ١٣٧٩ وص ١٤١٦ - المترجم] .

يصالحه على البصرة ويخلّيه وإياها ، حتى يأخذ لنفسه ما يجب من يزيد بن عبد الملك ؛ فلما لم يقبل عدى جعل ابن المهلب الحكم للسيف : وقد انضمت إليه قبائل اليمن ، أعنى الأزد وربيعة ، وكانوا متحالفين فى البصرة وفى خراسان . وكان ابن المهلب قد استمال الناس بما فرق فيهم من ذهب وفضة . أما قبائل تميم وقيس — وكانوا منذ القدم ينافسون قبائل اليمن — فإنهم كانوا فى جانب الوالى ، ونظراً لأن الوالى لم يكن جواداً بالأموال ، لأنه لم يكن يستحل أن يمد يده إلى بيت المال[1] ، فإن أنصاره من قيس وتميم ، بل وبعض جند الشام ، تراخوا وتفرقوا عنه عند أول صدام بين الفريقين ؛ وفر عدىّ منهزماً ، فحوصر فى القصر . وكان المهالبة محبوسين هناك أيضاً ، فلما سمعوا الأصوات تدنو والنشاب تقع فى القصر علموا أن أخاهم قد ظهر ، وخشوا أن يقتلهم أنصار عدى ، فأغلقوا الباب عليهم ووضعوا خلفه الأمتعة واتكوا على الباب . وجاء أعداؤهم وعالجوا الباب فلم يستطيعوا الدخول ، حتى أعجلهم أنصار ابن المهلب ، فتفرقوا . وبعد أيام قليلة سقط القصر فى يد ابن المهلب ، وأسر عدى بن أرطاة ، وجىء به إلى ابن المهلب ، وهو يبتسم ، لأنه كان واثقاً من أن الثوار لن يمسوا له شعرة واحدة خوفاً من جند الله (أعنى جند الحكومة) فى الشام[2] .

---

(١) [جاء فى الطبرى (جـ ٢ ص ١٣٨٢ — ١٣٨٣) أن ابن المهلب كان يقطع لمن يأتيه من الناس قطع الذهب والفضة ، وأن عدى بن أرطاة كان لا يعطى إلا درهمين درهمين ، ويقول لأصحابه : لا يحل لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبلغوا بهذا حتى يأتى الأمر فى ذلك — وللفرزدق أبيات فى هذا — المترجم] .

(٢) [جىء إلى ابن المهلب بعدى بن أرطاة ، وهو يبتسم ، فقال له ابن المهلب : لم تضحك ؟ فوالله لينبغى أن يمنعك من الضحك خصلتان : إحداهما الفرار من القتلة الكريمة ، حتى أعطيت بيدك إعطاء المرأة بيدها ، والأخرى أنى أتيت بك تتل كما يتل العبد الآبق إلى أربابه ، وليس معك منى عهد ولا عقد ، فما يؤمنك أن أضرب عنقك ؟ فقال له عدى : أما أنت فقد قدرت على ، ولكنى أعلم أن بقائى بقاؤك ، وأن هلاكى مطلوب به من جرته يده ؛ إنك قد رأيت جنود الله بالمغرب وعلمت بلاء الله عندهم فى كل موطن من مواطن الغدر والنكث ، فتدارك فلتتك وزلتك بالتوبة واستقالة العثرة قبل أن يرمى إليك البحر بأمواجه ! ... المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٢ ص ١٣٨٥ فما بعدها] .

وكان حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب ، لما ثار عمُّه ، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعاً ، ولكنه لما أقبل بالأمان ، ومعه خالد بن عبد الله القسرى وعمرو بن يزيد الحكمى ، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدى بن أرطاة وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحث الناس على الجهاد ؛ وكان يزعم أن جهادَ أهل الشام أعظمُ ثواباً من جهاد الترك والديلم(١) . فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يَشْتَدّ بها أزره . ولكن كان فى البصرة رجلٌ تَجَرّأ على أن يرفع صوته معارضاً ليزيد ، وذلك هو الحسن البصرى ، صديق عمر بن عبد العزيز . فقد كان الحسن يُثَبِّط الناس عن الفتنة ويحضّهم على أن يكفوا أيديهم عن قتال على دنيا زائلة وأن يكتفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه فى الآخرة : وقد اتهم الثوارُ الحسنَ بأنه موالٍ لأهل الشام وبأنه الشيخ الضال المرائى ؛ فقال فيه مروان بن المهلب مثلاً : « والله لو أن جاراً له نزع من خُصٍّ داره قصبة(٢) لظل يرعف أنفُه ، أيُنكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلبَ خيرَنا وأن ننكرَ مظلمتنا ! » . ولكن الحسن لم يكفّ عما كان يفعل ، وهو لم يُفتَتن عن رأيه كما لم يُفتتَن إرميا النبى فى موقف مشابه لموقفه ، بل هو مضى فى سبيله محاولاً أن يثبّط من استمع إليه عن الاشتراك فى الفتنة ؛ وقد كان له تأثير خصوصاً على الموالى فى بعض القرى القريبة من البصرة(٣) . على أن الحسن ، بفصله بين الدين والسياسة فى الدولة التيوقراطية ، قد

(١) [هذا هو مضمون خطبة ليزيد بن المهلب (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩١) . أما بيعته (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩٨) فكان يقول لمن يبايعه : " تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ؛ فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ومن أبى جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه " . فإذا قالوا : نعم ، بايعهم — المترجم] .

(٢) كانت الدور العادية فى البصرة تبنى من القصب .

(٣) [ولذلك يقول عنه مروان بن المهلب : وأيم الله ليكفّنّ عن ذكرنا وعن جمعه إلينا سقّاط الأبلة وعلوج فرات البصرة ، قوم ليسوا من أنفسنا ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا ، أو لأنحين عليه مبرداً خشناً — المترجم] .

اتخذ موقفاً شاذاً(٢) ، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة ، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب . وقد اتبع عامة المؤمنين فى البصرة ، وعلى رأسهم القراء ، دعوة يزيد ، وتبعهم عددٌ كبير من الموالى ، وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخماً كبيراً . ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد ؛ ثم تبين أن الإسلام حليف صعب القياد .

وغلب ابنُ المهلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ولكن لم تنضم إليه خراسان . وهى ولايتُه القديمة التى فيها قومه ، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تمكّن الأزد من أن تتحرك . وقد أشار على ابن المهلب أخوه حبيب وغيره أن يخرج من العراق حتى ينزل فارس ، فيأخذ بالشعاب والعقاب ويدنو من خراسان ويطاول أعداءه ، وفى يده القلاعُ والحصون ، ويكون الناس قد انضموا إليه . ولكنه لم يرد أن يترك العراق أمام جند الشام ، وكانوا

---

(١) [لا شك أن أهل الدين كانوا دائماً معارضين لأساليب بنى أمية ولأساليب عمالهم فى الحكم ، وكثيراً ما كان عمالهم ينتقضون عليهم ، وكأنما كانوا يحسون أن لهم الحق فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠) . أما موقف الحسن البصرى فهو يحتاج إلى تأمل ، فقد كان صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبابرة . ولعل الحسن أيضاً كان يكره المهالبة للسبب الذى كرههم له عمر من قبل ، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عتاة ، وأنه كان يرى فى يزيد بن المهلب أنه غير صادق فيما يدعو إليه من الكتاب والسنة ، وأن الأولى به أن يوضع قيد فى رجله ويرد إلى محبس عمر الذى حبسه فيه . ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصرى كان راضياً عن أهل الشام ، فقد دفع عن نفسه هذه التهمة دفعاً صريحاً (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩١ — ١٣٩٣) . ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست لله فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة . وقد عجب الحسن النضر بن أنس بن مالك كيف غره ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة ، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس إرضاء لبنى مروان . ولا شك أن الحسن كان يمقت المهالبة ، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يمقت الفتنة خصوصاً من أجل الباطل ، ولولا أن نغمة الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هى الغالبة فى كلامه لكان الإنسان على حق فى رفض ما يقوله المؤلف من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة . فربما كان العكس هو الصواب ، لأن الحسن اشترك فعلا من طريق تثبيطه الناس عن الدخول فى فتنة لم يتوفر لها السند الدينى الصادق ، راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠ — ١٤٠١ — المترجم] .

قد تقدموا نحوها بل أراد أن يسبقهم إلى الكوفة بقدر الإمكان . وفى آخر سنة ١٠١ هـ (صيف ٧٢٠ م) خرج إلى الكوفة ماراً بواسط ، فاستولى عليها ، ثم مرّ بفم النيل ، ووقف عنـــد الموضع الذى يصب فيه النيل فى الفرات ، فى مكان كثيراً ما يسمى عقراً قريباً من بابل القديمة[1] . وقد حاول والى الكوفة الذى كان معسكراً فى النخيلة على الشاطئ الآخر أن يأخذ على ابن المهلب طريق الكوفة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكثيرين من أهل الكوفة من الانحياز إليه ، وكان منهم طائفة تحمل أنبه الأسماء العربية ، ولم يكونوا من قبائل اليمن وربيعة فحسب ، بل من قبائل تميم أيضاً .

ولم يمض غير قليل حتى ظهر على المسرح مسلمة بن عبد الملك ، قائد الحملات الحربية فى آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة ، فأقبل فى مُعظَمِ جيش الشام . وقد حدث من يزيد أنه عبر الفرات للقاء مسلمة وعسكر بهدوء على مقربة منه ، وذلك أن اثنين من زعماء الفرق التى كان يتألف منها جيشه ، وكان لها تأثير كبير

---

(١) بحسب البيت الموجود فى كتاب التنبيه للمسعودى (ص ٣٢٢ س ١) كانت الموقعة بين بابل وعقر ، وعلى هذا فإن عقراً المقصودة كانت تقع ، شأنها شأن بابل ، على الضفة الشرقية للفرات ، ولم تكن هى عقر كربلاء التى يجب البحث عنها إلى الغرب من مدينة المندية . على أن وصف الطريق الذى سلكه مسلمة بحسب رواية الطبرى (ج ٢ ص ١٣٩٥) يثير مشكلة ، فهو يقول : " إن مسلمة أقبل يسير على شاطىء الفرات حتى نزل الأنبار ، ثم عقد عليها الجسر ، فعبر عليه من قِبل قرية يقال لها فارط ، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب فى (عقر) " . ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية ، فلا بد أن يكون مسلمة قد سار أولا من هناك ، من عند بلدة الفارط إلى الغرب ، ثم قفل راجعا إلى الضفة الشرقية ، كما فعل قحطبة فيما بعد . أما ما يقال من عبوره النهر مرة أخرى فلا يذكر الرواة عنـــه شيئاً ، ولكن يذكر جسرٌ عبر عليه أهل الشام إلى عقر وأحرقوه وراءهم . ويعتبر نولدكه (Nöldeke) أن عقراً (ἄκρα) هى قصر (castra) ؛ وهو محق فى ذلك ، لأن نهر النيل القديم ، أحد روافد الفرات ، يصب فى الفرات بين بلدة قصر وبين بلدة بابل ، ولأن الحصن كان يقع عند مصب النيل بين عقر وبابل . والمعلومات الطبوغرافية الموجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٩٧) غير واضحة ، وهى ليست أوضح منها عند ابن سيرابيون (B. Serapion) . لكن الطبرى يذكر (ج ٢ ص ١٣٩٧) أن مسلمة قطع الماء ووصل إلى أعدائه .

على جمهور الجيش ، وهما السَّمَيْدع الكندى وأبو رؤبة ، اعترضا على مهاجمة أهل الشام ليلاً ، وقال لابن المهلب : إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قابلو هذا منا ، فليس لنا أن نغدر ولا أن نريدهم بسوء ، حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا(١) . فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لرأيهم على كره منه ، كما خضع علىّ بجنده يوم صفين من قبل ؛ ولكنه كان قد فقد البقية الباقية من ثقته بجنوده ، وصرح فى يأس شديد بما كان يودّه من أن يكون معه قومه من أزد خراسان بدلاً من تلك الجموع التى لا حصر لها .

وفى يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٠٢ هـ = السبت ٢٤ أغسطس سنة ٧٢٠ م بدأ مسلمةُ الهجوم ، بعد أن أحرق الجسر وراءه . ولم يثبت أهل العراق ، وكانت تميم الكوفة أوّل من لاذ بالفرار ، وقد شبّه يزيد بن المهلب أنصاره ، وقد انهزموا من غير كبير قتال ، ببقّ دُخن عليه فطار ، أو بغنم عدا فى نواحيها الذئب . ولم يندهش يزيد لذلك ، وقد أشار عليه أبو رؤبة بأن يرجع إلى واسط ، فيتحصن بها حتى تأتيه الأمداد ، ولكنه أنف من ذلك وآثر الموت فى ميدان القتال ، فلقى الموت فيه . وقُتِل معه اثنان من إخوته كما قُتل السميدع الزعيم الورع .

---

(١) إن الآراء التى ذكرها المؤلف لأحد المرجئة هى التى تضمنتها قصيدة الشاعر ثابت قطنة ، وقد أوردها المرحوم أحمد أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » ، وهى :

يا هندُ فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
نُرْجى الأمور إذا كانت مشبّهةً ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهمو ... والمشركون استووْا فى دينهم قددا
ولا أرى أنّ ذنبا بالغٌ أحدا ... م الناس شركا إذا ما وحّدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا ... سفكُ الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله فى الدنيا فإنّ له ... أجرَ التقىّ إذا وفّى الحساب غدا
وما قضى اللهُ من أمرٍ فليس له ... ردٌّ وما يقض من شىءٍ يكن رشدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ... ولو تعبّد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمانٌ فإنهمـا ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شقّ العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ... ولستُ أدرى بحقٍّ أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به ... وكل عبدٍ سيلقى الله منفردا

[المترجم]

وأُسِرَ نحوٌ من ثلاثمائة من جيش ابن المهلب ، بعد اقتحام معسكره . وقُتل بعضهم بعد ذلك ، وكان منهم طائفة من تميم ، كانوا قد انهزموا بالناس أملاً فى أن يعرف لهم جند الشام فَضْلَهم فى أنهم بانهزامهم بالناس قد سهلوا على جند الشام النصر ، ولكن أملهم لم يتحققْ ، فكانوا أول من ضربت أعناقُهم . ومن جهة كان معاوية بن يزيد بن المهلب فى واسط ، فلما جاءه الخبر بهزيمة أبيه أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا فى يده فضرب أعناقهم ، وكان منهم عدىُّ بن أرطاة أمير البصرة ورجالٌ آخرون . ولم يُبق معاوية منهم إلا على رجل شيخ من قومه له شرف ومعروف ، لم يتهمه ولم يتخصّفْ بتَغْنِيَه .

وتفرق سواد الهاربين مع كل ريح ، ولكن المُطَارِدين لم يتعقبوا إلا المهالبة الذين نفروا كالوحوش . وقد اجتمعوا أولا فى البصرة ، وكان معهم بعض أشراف اليمن فى الكوفة وبعض سلائل ابن الأشعث ومالك الأشتر . ومن هناك ركبوا السفن ولججوا فى البحر حتى نزلوا على شاطئ كرمان . وبعث مسلمة بن عبد الملك فى طلبهم هناك ، فحاولوا الالتجاء إلى قندابيل من شاطئ السند ، ولكنهم لم يجدوا هناك سبيلاً إلى الإفلات ، فقد لحقهم المطاردون ، وخرج المهالبة بأسيافهم ، فقاتلوا مطارديهم ، حتى قُتِلوا عن آخرهم إلا اثنين نجوا ولحقا بخاقان وزنبيل . وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى الشام وعُلِّقت فى حلب ، وأُرْسِلَ نساءُ المهالبة وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك فى الحيرة . فأقسم مسلمة أن يبيع ذرية المهالبة ، مخالفاً فى ذلك كل آداب الإسلام . ولكن الجرّاح بن عبد الله الحكمى ، وكان رجلاً من أكفأ عمال الأمويين وأخلصهم ، أنقذ ما تقضى به الآداب الإسلامية فعرض على مسلمة أن يشتريهم بمائة ألف ليبرّ بيمين مسلمة . ولكن مسلمة لم يأخذ المال ، وخلّى سبيلهم إلا تسعةَ فتيةٍ أحداثٍ بعث بهم إلى يزيد بن

عبد الملك ، فضرب أعناقهم . أما أموال المهالبة فقد صودرت بطبيعة الحال[1].

وقد أسندت ولاية العراق فى أول الأمر لصاحب النصر فى موقعة عقر ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، فعين ولاةً جدداً فى الكوفة والبصرة وخراسان ، ولكنه لم يلبث أن عزل لأنه لم يرسل إلى دمشق شيئاً من خراج العراق[2] . وعُيّن مكانه أميراً للأمويين على العراق وعلى ولايات المشرق عُمَرُ بنُ هبيرة الفزارى الذى كان فى عهد عمر بن عبد العزيز والياً على أرض الجزيرة . وكان قيسياً من أنقى دم فى قيس ، وكانت إدارته متمشية مع ذلك[3] ، وقد لقيت قبائل الأزد واليمن بوجه عام ، خصوصاً فى خراسان ، على يديه عنتاً ، فأبعِدوا وأهينوا وعُذّب الموالون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت أموالُهم ، ولكن كانت قيس هى التى انتصرت واستطاعت أن تشعر بأنها هى السيدة فى المشرق كله ، وهى وإن كانت متنازعة فيما بينها ، فإنها أخلصت فى الاتحاد أمام القبائل الأخرى . ومما له مغزاه فى هذا الصدد حكاية يذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٤٥٣ فما بعدها) ، وإن كانت حكاية غير جديرة بالثقة . فيحكى الطبرى أن عمر بن هبيرة عيّن سعيد بن عمرو الحرشى ، وكان من قيس ، على خراسان ، فكان يستخف بأمر ابن هبيرة ويهزأ به فيقول عنه : قال أبو المثنّى ، فعل أبو المثنّى . فوجّه ابن هبيرة رجلاً من قيس أيضاً ، هو معقل بن عروة ، إلى هراة إما عاملا وإما فى غير

---

(١) قارن أبيات جرير فى تعليق رايسكه (Reiske) على أبى الفداء ج ١ ص ٢٠٧ ، وهذه الأبيات غير موجودة فى طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ .

(٢) وكذلك لم يرسل عبد العزيز بن مروان إلى دمشق شيئاً من خراج مصر ، ولم يكن ثم ما يدعوه إلى ذلك . ويجوز أن يكون مسلمة قد عين أميراً على العراق على أن تكون له هذه المزية مكافأة له على ما أحرزه من نصر .

(٣) ويقول الفرزدق الشاعر ، وإن لم يكن يمنياً بل مضرى النسب ، متهكماً بعد أن عين ابن هبيرة الفزارى على العراق :

ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمِّرت   أن سوف تطمع فى الإمارة أشجع

وكانت فزارة هى رأس غطفان قيس وكانت أشجع هى ذنَبَهم .

ذلك ، فقصد هراة دون أن يمر بالحرشي ؛ وكتب هذا إلى عامله أن يحمل إليه معقلَ بن عروة ، فلما جيء به إليه سأله : ما منعك من إتيانى قبل أن تأتى هراة ؟ فأجاب أنا عامل لابن هبيرة ، ولأنى كما ولاّك ! فضربه الحرشي مائتين وحلّقه ، فغضب ابن هبيرة وازدادت موجدته على الحرشي ، فعزله ، ثم أسلمه إلى عدوه معقل بن عروة فعذّبه وضيق عليه ، وأمره ابن هبيرة يوماً أن يعذبه حتى يموت ، فلما أمسى ابن هبيرة جلس إلى سُمّاره ، كما يفعل الأمراء ، فقال « من سيد قيس ؟ » فقيل له : « الأمير » ، فقال : « دعوا هذا ! سيد قيس الكوثر بن زفر ، لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفاً ، لا يقولون : لِمَ دعوتَنا ، ولا يسألونه[1] ، وهذا الحمار الذى فى الحبس ، قد أمَرْتُ بقتله ، فارسها . وأما خيرُ قَيْس لها فعسى أن أكونه ؛ إنه لم يعرض إلىّ أمرٌ أرى أنى أقدر فيه على منفعة وخير إلا جررته إليهم » ؛ فعند ذلك قال له أعرابى من بنى فزارة : « ما أنت كما تقول ! لو كنتَ كذلك ما أمرت بقتل فارسها » . فلما سمع ابن هبيرة كلامه أرسل إلى معقل بن عروة يأمره بالكَفّ عما كان أمره به من تعذيب الحرشي حتى يقتله . ثم تغير وجه الصحيفة بعد حين ، فاضطر ابن هبيرة إلى الهروب من خالد بن عبد الله القسرى ، وأرسل خالد عدوّه الحرشي فى طلبه ، فلما لحقه الحرشيُّ ، وهو فى سفينة يريد أن يقطع الفرات ، سأله : أبا المثنى ! ما ظنُّك بى ؟ فأجاب : ظنى بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك (قيس) إلى رجل من قريش (قسر) ؛ فقال : هو ذاك فالنجاء !

وكان لشبح الحجاج بعد موته من التأثير ما يصعب أن تَقَرّ به عينُه . وذلك أنه بسبب عداوته فى حياته لابن الأشعث وابن المهلب قد زاد فى حدة النزاع بين

---

(١) يوصف زفر بن الحارث رئيس قيس فى أرض الجزيرة دائماً بأنه رجل نبيل بنوع خاص ، وبأنه كان فوق المنافسات السياسية ، وقد ورث ابناه : هذيل وكوثر ، ما كان له من جاه ، وكان لهما احترام كبير عند الخليفة . قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٢٦٠ فما بعدها ، والأغانى ج ١٦ ص ٤٢ وديوان القطامى الذى يقوم الآن بارث (Barth) بنشره .

قبائل قيس وقبائل اليمن : وقد أدى إلى ذلك تحيز الخلفاء ، أياً كانـ الجانب الذى مالوا إليه . ثم جاء يزيد بن عبد الملك ، فنكأ ، لاعتبارات أخرى ، ذلك الجرح الذى أحدثه سليمان والذى لم يكن فى أيام حكم عمر ابن عبد العزيز قد اندمل إلا قليلا . وتأثر يزيد بن عبد الملك بالحجاج ، فارتاب بالمهالبة ، وكان يكنّ لهم فى قلبه بغضاً ، وكان تخوفه وارتيابه من مطامعهم فى المشرق لها ما يبررهما ، وكانت ثورتهم سبباً فى انفجار هذا البغض . ولكن إفناء جميع أفراد ذلك البيت القوى النابه ، وهو فَعْلَة لم يسمع بمثلها فى طول تاريخ الدولة الأموية ، كان بمثابة إعلان الحرب على قبائل اليمن . وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بنى أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذى يحمل الوزر فى ذلك ، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه فى ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ولم يكن من شىء قد بعثه على ذلك إلا مجرد الرغبة فى الانتقام ، وكان بعيداً عن أن يكون رجلا سياسياً يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية ، لأعماله . أما فى الشام فإنه لم يحاب قيساً على قضاعة ، لأن قضاعة كانت نواة الجيش الذى انتصر فى موقعة عقر ، وكان الذى قتل يزيد بن المهلب ، عند ما جاء لقتال مسلمة بن عبد الملك ، رجلا ، من كلب ؛ وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شأفتهم .

وقد ابتعد يزيد بن عبد الملك كل البعد عن سياسة التقريب والمصالحة التى جرى عليها عمر بن عبد العزيز قبله مباشرة . ويقول ابن الأثير (جـ٥ ص٥٠) إنه « عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه ، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً آجلا » . وهو لم يكد يتولى الخلافة حتى عين ولاةً جدداً على المدينة وإفريقية من غير أن يُقْدِم من فوره على إحداث تغيير منظم وشامل ، وأخذ أهلَ السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية ، بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يُسْقِطها عنهم . وفعل مثل ذلك مع البربر يزيدُ بن

أبى مسلم[١] عامله على إفريقية ، ولكن البربر تآمروا عليه وقتلوه وولوا على أنفسهم الوالى الذى كان عليهم قبله ، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك يبلغونه ذلك رسمياً : إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون ، فقتلناه وأعدنا عاملك قبله . فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إنى لم أرض ما صنع يزيد بن أبى مسلم ، وأقر عاملهم السابق على إفريقية[٢] . وكان يزيد لا يمنع ولاته إذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم . وإذا كان قد خالف عمر بن عبد العزيز ، فإنه لم يفعل ذلك بباعث من السياسة ، ولا عن قصد . وهو عند ما كان يريد أن يصلح من أمر نفسه أراد أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز (الأغانى جـ ١٣ ص ١٥٧) ، ولكن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل فى الزهد والتحرر من الإثم مما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الأرستقراطيين[٣] . وهو قد كان نبيلا فارساً وفتى سيداً أكثر منه حاكماً ، فترك الولايات لأمرائها ولم يهب وقته لأمور الدولة ، بل للهوى والغناء والشراب . ولذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم يعودون إلى الحظوة والمكانة الشريفة عنده . وهو لم يكن كثير المراعاة لكرامة البيت الذى كان يمثله ، بل هو لم يكلف نفسه مؤونة المحافظة على مظهر الخلافة ، ولقد لعبت مغنيتان ، هما : سلامة وحبابة ، دوراً كبيراً فى بلاطه ، وكان

---

(١) [كان يزيد بن أبى مسلم مولى للحجاج ، ويظهر أنه أراد أن يسير سيرته فى رد من لحق بالمدن من مسلمى الموالى إلى قراهم ورساتيقهم وفى وضع الجزية على رقابهم ، كما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم (راجع الطبرى) جـ ٢ ص ١٤٣٥ — المترجم] .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١٤٣٥ . ويقول البلاذرى (ص ٢٣١) إن الذى قتل الوالى هم حرسه من البربر ، لأنه أراد أن يسم كل امرئ منهم على يده : حرسى .

(٣) [يصفه المسعودى فى التنبيه (ص ٣٢٠) بأنه كان فخوراً متكبراً يحب اللهو ، لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ فيدعه — المترجم] .

من يريد بلوغ شيء يلجأ إليهما . ويروى أن ابن هبيرة نفسه قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذى وصل إليه (ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥ فما بعدها والأغانى ج ١٣ ص ١٥٧) . وقد جزع على موت حبابة جزعاً أخرجه عن كرامته ، حتى أن مسلمة بن عبد الملك رجاه ألا يظهر فى الناس على الأقل فى هذه الحالة التى لا تليق بخليفة . وقد مات بعد حبابة بسبعة أيام ؛ وظن الناس أنه مات كمداً على فقد فتاته المحبوبة[1] .

يحكى تيوفانيس أن عمر بن عبد العزيز كان يطمح إلى أن يدخل القيصر ليو (Leo) فى الإسلام ، وهو يحكى فوق هذا أن يهودياً عرّافاً من أهل اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك إن خلافته ستمتد أربعين عاماً إن هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ؛ ويمضى تيوفانيس فيقول إن ذلك بعث يزيد على إصدار أمر عام بتحطيم الصور المقدسة ؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل ، بل إن هذا الأمر لم يبلغ إلا دوائر ضيقة ؛ ولكن القيصر ليو كان على هذا الرأى الشنيع المخالف للدين ؛ وقد قواه فى ذلك نصرانى اسمه بشر ، على أسماء العرب ؛ وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الإسلام ، ثم ارتد عنه بعد أن أطلق ولكنه بقيت فى نفسه آثار منه ، وهذا ما يقوله تيوفانيس ؛ ولكن مما يدعو إلى الشك الكبير فى وجود هذا الأمر الشيطانى الذى يقال إن الخليفة أصدره أنه لم يعرفه إلا الأقل من الناس ؛ أما مجرد ما يقال من أن يهودياً تنبأ للخليفة بأن تمتد خلافته أربعين سنة فهو موجود عند الطبرى أيضاً[2] ؛ ولكن النبوءة لم تتحقق ؛ فلم تدم خلافة يزيد الثانى إلا أربع سنين . فقد توفى يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ (٢٦ يناير سنة ٧٢٤ م) فى

---

(١) [يجد القارئ أخبار حبابة ويزيد فى كتاب الأغانى (ج ١٣ ص ١٥٤ — ١٦٦) ، وهى مفصلة تفصيلا كافياً ، كما يجد شيئاً من ذلك عند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦٤ — ١٤٦٦ — المترجم] .

(٢) [الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٣ — ١٤٦٤ — المترجم] .

البلقاء من أعمال دمشق[١] . وتختلف الروايات فى عمره بين ثلاثة وثلاثين وبين أربعين عاماً .

٢ — وكان يزيد قد جعل ولاية العهد لأخيه هشام ثم لابنه الوليد بن يزيد من بعده ، ويلاحظ المؤرخ الإسبانى الذى كتب مكملا لتاريخ إيزيدور أن :

Talis enim inter Arabes teneinr perpetim norma, ut nonnisi cunctas regum succesiones prerogative a principe percipiant uomina, ut eo decidente absque scandala adeant regiminis gubernacula. [٢]

ومما يستلفت النظر فى الحقيقة ترتيب ولاية العهد من طريق الوصية ، وقد سُمى هشام بن عبد الملك باسم جده لأمه : هشام بن إسماعيل المخزومى ، وقد حابى أخواله . وهو تسلم شعار الخلافة ، وهو العصا والخاتم ، فى الرصافة[٣] ، وهى مدينة كانت قد بنتها الروم على حافة صحراء الشام ، غير بعيد من الرقة ، وكان قد جدد بناءها ، وكان — وهو خليفة — يؤثر الإقامة بها ، لأنه كان يكره هواء دمشق خوفاً من الطاعون . وتلقى هشام البيعة فى العاصمة . وكان قليل الشبه بأخيه . فكان بعيد النظر متيقظاً طيب السيرة : وأول صفاته أنه كان يعرف كيف ينجح فى مشروعاته ، ولكنه كان يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر بن

---

(١) [يقول المؤلف إنه توفى يوم الأربعاء فى إربد من أعمال شرق الأردن ، وهو بهذا يخالف ما عند الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٣ وفى التنبيه للمسعودى ص ٣٢٠ — المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هى : وهكذا كانت القاعدة المرعية بين العرب دائماً ، بحيث تكون وراثة العرش من حق الخليفة ؛ فهو الذى يعين من يأتى بعده ، حتى إذا مات وصل من بعده إلى دفة الحكم من غير غدر — المترجم] .

(٣) يقول الطبرى خلافاً لذلك إنه تسلمها فى حمص (الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٣ س ١٦) [لا يقول الطبرى فى هذا الموضع أكثر من أنه لما مات يزيد كان هشام فى حمص . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦٦ — ١٤٦٧) أن الخلافة أتت هشاماً وهو بالزيتونة فى منزله فى دويرة له هناك ... فجاءه البريد بالعصا والخاتم . وسُلم عليه بالخلافة ، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق — المترجم] .

عبد العزيز ؛ ولم يكن عنده شيء على الإطلاق من تلك الروح المثالية المعروفة عن عمر[١] .

وكان أول ما فعله أن كسر شوكة القيسيين الذين كانت قد أخذتهم العزة بالإثم فى المشرق ، فعزل عمر بن هبيرة وعين مكانه خالد بن عبد الله القسرى فى شوال سنة ١٠٥ ﻫ (مارس سنة ٧٢٤ م) ، وبذلك صار على العراق وال يمكن أن يُعتبر فى عداد زياد والحجاج إلى حد ما . وشخصه يثير من عطفنا عليه أكثر مما يثيره شخص الخليفة نفسه ، وإن كنا نعلم عن سقوطه وما جر من نكبات أكثر مما نعرف عن أعماله أيام ولايته .

كان خالد بن عبد الله القسرى قد بدأ حياته فى عهد الحجاج ، وأرسل بناء على سعى الحجاج إلى مكة فى سنة ٩١ ﻫ ، لكى يحول بين أهل الشقاق والفتنة من سكان العراق وبين أن يتخذوا البيت الحرام مأوى لهم . وقد قام بهذه المهمة بأن حرّم على الناس إيواء أهل الفتنة وجعل أصحاب الدور مسئولين عمن ينزل فيها . وقد نال التقدير إلى جانب هذا فى البلاد المحيطة بمكة لما قام به من إجراء المياه فيها ، لكنه لم ينل من الشكر على ذلك أكثر مما ناله پيلاتوس (Pilatus) على مثله فى بيت المقدس . ونظراً لأنه كان من صنائع الحجاج فإن سليمان بن عبد الملك عزله ، ولم يسند إليه بعد ذلك عمل ، حتى رفعه هشام ، وعهد إليه بأهم منصب فى الدولة وقد جعل خالد مقر ولايته فى واسط ، كما فعل الحجاج من قبل ، وتفرغ للأعمال السلمية . ويظهر أنه كان رقيق الطبع لين الجانب ، وإن كانت لم تعوزه الهمة[٢] .

---

(١) يجد القارئ شيئاً كثيراً من سيرة هشام عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ — ١٧٤٠ — المترجم] .

(٢) يقول ڤايل (Weil, 1, 620) معتمداً على الطبرى : إن خالداً عامل الوالى الذى كان قبله معاملة قاسية وإنه قتله أخيراً ؛ ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد فى طبعة ليدن لكتاب الطبرى ، أما الذى عند الطبرى فهو أن ابن هبيرة أفلت من طلب خالد إياه وأنه عاد إلى وطنه قنسرين ، فوقع فى يد الخليفة فأمر بجلده مائة سوط ، ولكنه رغم ذلك غضب كل الغضب من =

ولم يكن يعتبر فى عداد أهل الحرب ، بل كان يعتبر من أجبن الناس . وكان الناس ينعون عليه أنه كان مرة على المنبر ، فجاءه خبر ثورة قام بها الشيعة فى الكوفة ، فدهش وتحير ، فقال : « أطعمونى ماء » . وتبين فيما بعد أنه لم يهلك فى هذه الفتنة سوى ثمانية من الفرس ؛ على أنه لم تكن هناك إلا مناسبات قليلة تدعو خالداً إلى إخراج السيف من قرابه ؛ وفى أواخر إمرته حدثت بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج ولكن واحدة منها فقط هى التى اتخذت صورة ذات بال[1] . وعلى الجملة عاشت العراق فى عهده فترة من الهدوء غير مألوفة فى طولها ، وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٨ س ١٣ فما بعدها . ولكنه رغم هذا لم يكن محبوباً ، بل عودى ألد العداء ، وقد جمع صاحب الأغانى (ج ١٩ ص ٥٢ فما بعدها) كوما كبيراً من حكايات أصحاب المثالب فى حقه ؛ ويوجد عند الطبرى أيضاً مقدار كاف من ذلك .

وكانت قبيلة قسر التى ينتمى إليها خالد فرعاً من بجيلة ، وكانت بجيلة فى

= يزيد بن هبيرة لأنه لم يرض أن يزوج ابنته لابن الخليفة . وأيضاً عامل خالد بعض الثوار معاملة لينة ولم يحرقهم إلا بأمر من الخليفة (الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٨ — ١٦٢٩) . أما الكميت الشاعر فإن خالداً لم يطلقه ، فيما يقال ، إلا لكى يخرج من المصيبة إلى مصيبة أكبر منها عند هشام .

(١) كان الفرس الثمانية الذين نادى من أجلهم خالد بقدح الماء هم المسمون " وصفاء الكوفة " ، وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد " الساحر " وبيان [بن سمعان ؟] . ويجوز أنهم كانت لهم صلة بالدعوة العباسية . وأيضاً يظهر أن وزير السختيانى (تاجر السفيان — قارن يحيى بن آدم ص ٣٤ س ١٨) ، وهو الذى أقلق بجماعته ناحية الكوفة ، كان مولى فارسياً وأنه كان من إحدى فرق الشيعة . أما الصحارى بن شبيب وبهلول بن بشر فكانا من الخوارج العرب . أما الأول فهو ابن شبيب المشهور ، وقد أغار فى ثلاثين رجلا من بكر من ناحية جبُّل على الدجلة على ضيعة خالد المسماة « المبارك » . وأما بهلول فقد قام بثورة أكبر شأناً ، وذلك بأن خرج من الموصل وانتصر مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله ، ولكنه قتل بعد ذلك فى موقعة الكحيل . والذى روى أمر هؤلاء الثوار عند الطبرى هو أبو عبيدة [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦١٩ — ١٦٢٩ (أخبار المغيرة وبيان) و ص ١٦٣٣ — ١٦٣٤ (أخبار الصحارى بن شبيب) — المترجم] .

الجاهلية قد مزقتها خلافاتٌ داخلية كبيرة ونزلت مرتبتها حتى لم يعد لها شأن ، ولم يرتفع أمرها من جديد بعض الشيء إلا بعد الإسلام . وإذن فلم تكن لخالد قوة تؤيده من قومه ، ولم تكن وراءه قبيلةٌ قويةٌ ذاتُ نباهة يستطيع أن يعتمد عليها . وهذا وإن بدا أنه كان مما يفت فى عضده فقد كان مما يساعده فى مقابل ذلك على القيام بأعباء منصبه أن قبيلته بجيلة لم تكن تنتسب إلى مصر ولا إلى اليمن ، فهو لم يكن مضطراً بحكم نسبه أن يتخذ فى النزاع بين مجموعات القبائل المتخاصمة موقفاً معيناً . ولكن قيساً كانوا بطبيعة الحال مضطرين إلى أن يعتبروه عدواً لهم ، لأنه كان قد أرسل لكى يزيل ابن هبيرة « خَبَّرَ قيس لها » ولكى يزيل سلطانهم . ويظهر أيضاً أن سائر مضر لم تتقبل تعيينه قبولاً حسناً ، وقد قُدِّر لأحد أشراف تميم فى البصرة ، وكان معانداً لواليها من قِبَلِه وهو من أبناء أبى موسى الأشعرى ، أن يلقى حتفه من جراء ذلك[1] . وخالد نفسه ، وإن كان قد جاء بنية التمسك بالحياد ، فإنه انجرّ فى تيار المنازعات بين الأحزاب ، وقد دفعته عداوة مضر ، طائعاً أو مختاراً ، إلى أن يأخذ جانب اليمن ؛ وهو يبدو ، بحسب الروايات ، من أول الأمر ، يمنياً لحماً ودماً[2] « شديد العصبية على مضر والبغض لهم »[3] هم ومن ينتمى إليهم من قريش حتى أنبيائهم . ومن المضحك ما يحكى من أنه كان ، بما يشعر به من شرف بجيلة ، لايخفى ما يخالج نفسه من إحساسات ؛ ولا شك أن فيما يحكى من ذلك مبالغةً كبيرة ، ومن هذا الوجه شتان

---

(١) [لم أهتد إلى هذا فيما قرأته من نصوص — المترجم] .

(٢) [راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٨ — ١٤٧١ — المترجم] .

(٣) [الأغانى ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ . وقد اقتبسنا هذه العبارة لتكون أبلغ فى التعبير عما يريده المؤلف من أن خالد بن عبد الله القسرى « كان فى صدره احتقار لمضر » . ونجد ذكر تعصب أسد بن عبد الله القسرى أخى خالد على مضر مما كان سبباً فى عزله من خراسان عند الطبرى (ج ٣ ص ١٤٩٧ فما بعدها) وتجد فخر خالد وغروره وما كان من عزل هشام إياه عند الطبرى ، ج ٢ ص ١٦٤١ — ١٦٥٨ — المترجم] .

ما بينه وبين يزيد بن المهلب زعيم الأزد غير مدافع ، ولم يكثر أهل اليمن الضجيج فى رفع شأنه إلا بعد عزله وخصوصاً بعد موته ، واتخذوه ذريعة للثورة دون أن يريدهم على ذلك ، بل على كُرْهٍ منه . أما هو فقد كان يعلم تماماً أنه لم يصب الأموال ويبلغ الرفعة إلا بفضل بنى أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٦ — ١٦٥٧) وكان يشعر بأنه خادمهم ، لا أنه رئيس قبيلة أو رئيس حزب . وقد أثبت ولاءه لبيت بنى أمية بأن اشتد فى معارضة هشام ، لما أراد مخالفة وصية يزيد بن عبد الملك وإخراج ابنه الوليد بن يزيد من ولاية العهد ، وإن كان خالد لم يكن يجهل ما سيصيبه من هشام . وقد حافظ خالد بعد سقوطه أيضاً على صدق الولاء لبنى أمية ، وكان من شأن هذا الولاء ، خصوصاً فى ذلك العصر ، أن يظهر كأنه فى نور باهر .

وقد جرّ خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوةَ الإسلام أيضاً ؛ فقد كانت أمه رومية نصرانية ، وظلّت على نصرانيتها ، وقد بنى لها كنيسة فى الكوفة فى ظهر قبلة المسجد الجامع ، وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة[1] وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً . واستعمل فى أعمال الخراج وفى الإدارة كثيراً من المجوس ، وعابه بهلول الخارجى بأنه « يهدم المساجد ويبنى البِيَع والكنائس ويولّى المجوسَ على المسلمين ويُنكِحُ أهل الذمة المسلماتِ » . وقد حكيت عنه فضائح تقشعر لها الأبدان[2] ، فقيل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان آبقاً من موالى عبد القيس من هَجَر ، وإنه كان فى حداثته فى المدينة يتخنّث ويتبع المغنين والمخنثين ، وإنه كان يمشى مع عمر بن أبى ربيعة صاحب

(١) ولكن النصارى فى الحيرة ، وهى المدينة النصرانية قرب الكوفة ، أخذوا جانب أعداء خالد لما سقط (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٣) .

(٢) يجد القارئ كثيراً من أخبار خالد فى الأغانى ج ١٩ ص ٥٣ — ٥٦ ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٣ — المترجم] .

التشبيب الكثير ويترسل بينه وبين النساء ، حتى كان يقال له : خالد الخريت ، وإنه زنديق كافرٌ فاسق ، وإنه قال عن بئر زمزم — وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائى جديد — إنها « أم الجعلان » وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبي عليه السلام وآل بيته وعن كتاب الله نفسه ؛ ويجوز أنه قال ما ينسب إليه فى مقام التعريض بغباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجلٌ عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب . ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلى ، وأنه لم يكن دائماً يمسك لسانه الفصيح ، حتى صدرت منه عباراتٌ نابية استُغلت فى التشنيع عليه[1] .

وقد فعل خالد إلى جانب ذلك ما جعله هدفاً لمطاعن أخرى ؛ فقد امتاز باهتمامه الشديد بأمور الزراعة ، وكان فى ذلك ينافس هشامَ ابن عبد الملك . وهو قد مضى فيما كان الحجاج قد بدأه ، وكان الإخصائى الفنى الذى تولى فى عهده أعمال التجفيف فى جهة واسط فى مستنقعات دجلة الأدنى هو حسّان النبطى الذى خدم الحجاج من قبل . وقد عمل خالد فى ذلك أكثر مما يعود عليه بالنفع ، فاقتنى من طريق تجفيف المستنقعات مساحةً من الأرض واسعةً وخصبة جداً ، ويحصى الطبرى (ج ٢ ص ١٦٥٥) ضياعه الكبيرة بأسمائها . وقد حصل له مما أخرجته تلك الضياع غلاتٌ هائلة . ولم يكن يبالى بالمال ، وكان يسرف فى الهبات خصوصاً لخدمه وخاصته ، فجعلهم بذلك موالين لشخصه . وكان يسرهُ أن يظهر بمظهر السيد الكبير ، لكنه كان بخيلاً على الطعام لا يوسع فيه ، وكان يغتاظ ممن يأكل من الضيوف فيكثر .

ولا عجب أن ينشأ التذمر من هذا كله . وقد سخط الناس بالإجمال على حفره الأنهار ، أعنى استصلاح مساحات كبيرة من الأرض البكر ، وكان لا يستطيع

(١) [راجع مثلا الأغانى ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ — المترجم] .

ذلك إلا أهل الحظوة والحظ ممن يُؤْذَن لهم فيه وتكون لديهم وسائل الزراعة ؛ وقد أقبل على هذا العمل فى ذلك العهد إقبالا كبيراً وعلى أوسع نطاق أمراء البيت المالك وخصوصاً هشام بن عبد الملك ، ولكن الناس ما كانوا يستطيعون أن يتجرأوا بسهولة على هشام ، فتجرأوا على عامله خالد الذى كان حتى من غير ذلك مكروهاً عند طوائف كبيرة . وربما يكون الناس لم يتكلموا فى العيب على خالد أنه استغلّ نفوذه فى منصبه من أجل مصلحته الخاصة ، لأن ذلك كان هو العادة فى ذلك الوقت ، ما دام صاحب النفوذ يحترم حق الأفراد فيما يملكون ويحمل إلى دمشق مما يفضل من الخراج مقداراً كافياً . أما الذى أُخِذَ على خالد فهو أنه كان يؤخّر بيع غلته فيرتفع سعر القمح . وكان الناس يعتقدون أيضاً أن المال الذى يبعثره حوله لم يحصل عليه مما يخرج إليه من ضياعه وحدها ، بل اعتقدوا أنه كان يختلس من بيت المال الذى كان تحت يده مبالغ كبيرة ؛ وهكذا أثارت أموال خالد عليه الحسدَ ، وجاءت طريقتُه التى كان يحاول بها أن يجعل لنفسه أصدقاء فخلقت له أعداء يزيدون بكثير على ما خلقت من أصدقاء .

ورغم هذا فإنه لبث فى إمرته على العراق زهاء من خمسة عشر عاما ؛ وهى أطول مدة قضاها وال على العراق ، إذا استثنينا الحجاج . وربما يحسب من الفضل للخليفة أنّه استبقاه فى الإمرة هذه المدة الطويلة ، ولكن الخليفة أطاع إلحاح أعداء خالد آخر الأمر ، وذلك أن قوماً من أشراف قريش ومن الأمويين ممن كان خالد قد استخفّ بهم وعضّهم بلسانه ، تضافروا مع قيس عليه (الطبرى ج ٢ ص ١٦٤٢ و ١٦٥٥ فما بعدها) ، وحاولوا أن يضموا إليهم حسّاناً فى الدسّ له ، وكان حسان عليما بأحواله . أما هشام فلم يكن فى الحقيقة يرتاب به من الناحية السياسية[١] ، ولكنه رغم هذا أحس بشىء من الغيرة منه ، وكان يستطيع فى

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨١٤ — المترجم] .

الواقع أن يعتبره منافساً له من الناحية الاقتصادية . وقد ارتاب فى أمره أيضاً بسبب ظهوره بمظهر الرياسة والكرم ، وبسبب كلمات له كان يقولها استخفافاً بهشام وبلغت هشاماً[1] ، فتغير له وعزم على أن يعزله وأن يعيّن مكانه يوسف بن عمر الثقفى القيسى ، أحد أقرباء الحجاج ، وكان يوسف قد تولى إمرة بلاد اليمن سنين طويلة . وعندما كان يحدث مثل هذا التغيير كان الأمير المعزول فى كثير من الأحيان يُفاجأ بالأمر الواقع ، فلا يعلم بعزله إلا إذا قدم عليه من سيخلفه فى منصبه وأخذه ليحاسبه على أعماله ، فكان لا يُعطى له من الوقت ما يتمكن فيه من الاستعداد للمفاجأة ؛ ولكن السرّية التى اصطنعها هشام فى هذه الحادثة كانت شيئاً غير مألوف وتروى فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٦٤٧ فما بعدها) حكاية مسلّية[2] ، وذلك أن هشاماً أخفى تعيين يوسف بن عمر ، حتى على حامل كتاب التعيين ، وأمره أن يُقبل فى ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة فجأة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ[3] (مايو سنة ٧٣٨ م) ، وهناك وضع نصارى الحيرة وثقيف ومعهم آخرون من مضر فى الكوفة أنفسهم تحت تصرفه ولم يقاومه أحد . أما خالد فكان فى واسط ورضى بأن يقبض عليه وأن يُؤسَر هادئاً . وكان حَبْسُه فى الكوفة . ولم يجعل يوسف بن عمر مقرّ ولايته فى واسط بل فى الحيرة . ويظهر أن الحيرة ، وهى المدينة النصرانية الصغيرة قد بدت أكثر ملاءمة لأن تكون مقر الجند من

---

(١) [نقل إلى هشام أن خالداً كان يقول عنه : ابن الحمقاء أو الأحول (الطبرى ج ٢ ص ١٦٤٦ — ١٦٤٧) . وكانت أم هشام حمقاء حقيقة (الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٦) . ولكن هشاما كان « محشواً عقلا » (الطبرى ج ٢ ص ١٧٣١ س ٤) ؛ أما غيرة هشام من خالد لما كان قد اقتناه من أموال وضياع فهى موجودة عند الطبرى ج ٢ ص ١٦٤١ — ١٦٤٧ — المترجم] .

(٢) [لم نفصل هنا شيئاً وليراجع القارئ القصة عند الطبرى — المترجم] .

(٣) [هذا بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٨ ، ١٨١٢ ، ولكن قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٢ — المترجم] .

مدينة الكوفة الإسلامية المجاورة لها ، الحافلة بالسكان المسلمين : وقد منع هشام نفسُه يوسف من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة .

ولبث خالد فى السجن مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد ثمانية عشر شهراً ، ولم ينصره أحدٌ من اليمنيين بيد ولا بلسان إلا رجلٌ عبسى من قيس ، فإنه قال (الطبرى جـ ٢ ص ١٨١٦ — ١٨١٧) :

ألا إن بحر الجود أصبح ساجياً أسير ثقيف موثقاً فى السلاسل

فإن تسجنوا القسرىَّ لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه فى القبائل

وكان لا بد من أن يحاسب على أموال الدولة ، ومعنى ذلك أن يعترف بأنه رزأ مبلغاً كبيراً وأن يتعهد بدفعه ، وكان التعذيب للوصول منه إلى ذلك هو الوسيلة المُجرَّبة . وقد استأذن يوسف بن عمر هشاماً فى إطلاق يده على خالد وتعذيبه ، فلم يأذن له هشام ، حتى أكثر عليه يوسف وألح ، فأذن له مرة واحدة وبعث حرَسيًّا يشهد ذلك ، وحلف لئن أتى على خالد أجلُه ، وهو تحت العذاب ، ليقتلنَّه به[1] . وفى شوال سنة ١٢٠ هـ (سبتمبر سنة ٧٣٩ م) أمر هشام بتخلية سبيله ، لأنه لم يمكن استخراجُ شيء منه ، فذهب خالد إلى بلدة « القرية » ، بإزاء باب الرصافة ، فأقام حيناً ، وهشام لا يأذن له فى القدوم عليه ، واضطر خالد إلى الاكتفاء بمكاتبة الأبرش الكلبى ، وكان مستشار هشام الذى يثق فيه . وبعد أن أقام خالد حتى شهر صفر سنة ١٢١ هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) سار حتى نزل دمشق ، وأقام فيها بعد ذلك . على أن يوسف بن عمر لم يمسك عن مطاردة الغنيمة التى أفلتت من بين مخالبه ، و أقنع الخليفةَ المتمنّع ، فى آخر الأمر ، بأن يأذن بأخذ يزيد بن خالد على الأقل ، فأذن له بأخذه ، ولكن يزيد أفلت بالفرار . وقد تحامل على خالد إلى جانب يوسف بن عمر كلثومٌ بن عياض القسرى ، صاحب شرطة دمشق ،

(١) [الطبرى جـ ٢ ص ١٨١٢ — ١٨١٣ — المترجم] .

وإن كان لا يتحتم أن يكون قد اتفق مع يوسف ، فقد كان ابنَ عمِّ خالد ؛ وكان يحكم وظيفته هو الذى يراقبه . وسواء عن حسن نية أو عن تحامل وغيرة من خالد فإن كلثوماً اتهم موالى خالد ، وهو وابنه يزيد فى غزوة الصيفَ التى كان يوجِّهها هشام فى بلاد الروم ، بأنهم هم الذين أحدثوا تلك الحرائق التى كانت تظهر كل ليلة فى دمشق ، حتى أتت على الكثير من دورها[1] ، بقصد الوثوب على بيت المال . وصدَّق هشامٌ ذلك ، لأنه لم يتهم كلثوماً بالتحامل على ابن عمه ، وكتب إلى كلثوم يأمره بحبس آل خالد ، الصغير منهم والكبير ، والموالى والنساء . ولم يلبث أن ظهر أن خالداً لم يكن له أيةُ علاقة بالذين كانوا يحدثون الحرائق وأنها كانت من فعل رجل من أهل العراق يُقال له أبو العمرَّس وأصحاب له ، فكانوا إذا وقع الحريق أغاروا يسرقون ، لكنها كانت من فعل قومٍ من أهل العراق على كل حال . وعند ذلك كتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنّفه ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس . حتى إذا رجع خالد ، وكان قد علم بحبس آله ولم يعلم بتخلية سبيلهم ، غضب غضباً شديداً ، وظهر غضبُه لما اجتمع الناس فى داره ، إذ قال فيهم : « خرجتُ غازياً فى سبيل الله سامعاً مطيعاً ، فخُلِفْتُ فى عَقِبى وأخِذَ حرمى وحُرَمُ أهل بيتى ، فحُبِسوا مع أهل الجرائم كما يُفعَل بأهل الشرك ، فما منع عصابة منكم أن تقوم فتقول : علامَ حُبِس حُرَمُ هذا السامع المطيع ؟ ليتكفُّنَّ عنى هشام أو لأدعونَّ إلى عراقىِّ الهوى شامىِّ الدار حجازىِّ الأصل — يعنى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس — وقد أذنتُ لكم أن تبلغوا هشاماً ! » . وفى مناسبة أخرى أراد هشام سؤالَ خالد ، لما بلغه من أنه أذن لرجل أن يمتدحه متقرِّباً إليه بعبارات فيها اجتراء على مقام الذات الإلهية . فأجاب خالد بأن الرواية تحريفاً ، واتهم الخليفةَ بمثل ما اتهمه به أعداؤه ، فكظم الخليفةُ غيظَه واكتفى

(١) يذكر تيوفانيس (حوادث سنة ٦٢٣٢ من تاريخ الخليقة) هذه الحرائق أيضاً . فلا بد أنها أثارت شيئاً من السخط والذعر .

بأن قال : « خرِّف أبو الهيثم »[1] ، يعني أنه يهذى بما لا يدرى . وكان هشام دائماً لا يتخذ خطوة مؤذية لخادمه القديم إلا كارهاً ، لأنه لم يكن فى الحقيقة يشك فى ولائه له[2] ، وكان يندم فى كل مرة على ما فعل . ويكفى من النبل لهشام أنه كان يشعر بالخجل وأنه لم يحمل غضب خالد على محمل سوء ، بل رأى فيه دليلاً على حسن طويته . وقد أذن له فى السنين الأخيرة من خلافته أن يقيم فى دمشق دون أن يتعرض له ، ولكن لا شك أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لما كان يراه من محبة لخالد عند الناس .

وإذا كان الهدوء قد ساد العراق سنين طويلة فى عهد خالد ، فإنه لم تلبث بعدها أن حدثت فى العاصمة فى عهد خلفه ثورةٌ كانت تؤذن بأحداث غير معروفة العواقب . ذلك أن زيد بن علىّ بن الحسين بن على[3] كان قد خرج من المدينة ، موطن أسرته ، على كل شديد منه ، ووقع فى الكوفة ؛ لكنه بقى هناك لا يستطيع الفكاك ، لأنه وقع فى أيدى الشيعة ، فأمسكوه عن الخروج ، وقالوا له إنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية ، وإن سيادة بنى أمية فى الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام ، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من أهل الكوفة يضربون دونه بسيوفهم . واغترّ زيدٌ بكلامهم ولكنه أخذ لنفسه الحيطة ، فكان دائماً يغير الدار التى ينزل فيها ، واستمرت إقامتُه فى الكوفة نحو عشرة أشهر فى الجملة ، وفى خلال هذه الفترة اتخذ الأهبّة للثورة ، وضمّ لنفسه أنصاراً فى البصرة والموصل أيضاً ، وبايعه الناس فى الكوفة حتى أحصى ديوانُه خمسة عشر ألف رجل ، وكانت بيعتُه التى يبايع

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ — ١٨١٩ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ — ١٨٢٠ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٦٦٧ — ١٦٦٨ ، ١٦٩٨ — ١٧١٤ — المترجم] .

عليها الناس : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقَسْم هذا الفىء بين أهل السواد ، ورد المظالم ، وإقفال المُجَمَّر[1] ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقّنا » ؛ فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمَّةَ رسوله بالوفاء وأشهد الله . ولبث يوسف بن عمر غافلا زماناً طويلاً لا يدرى عن الحركة شيئاً ، ولكنه أفلح أخيراً فى أن يحصل على معلومات عما يدبِّرُه زيد ، من رجلين من الموالين له كان يوسف قد قبض عليهما . ثم عرف أيضاً أن زيداً ، على أثر هذا القبض ، قرر التعجيل بالثورة مخافةَ أن يؤخَذ ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ (٦ يناير سنة ٧٤٠ م) ، فأمر يوسف بدعوة أهل الكوفة فى يوم الثلاثاء السابق على يوم الثورة ، وجمعهم فى المسجد الأعظم ، وهناك حصرهم ، وغلّق عليهم أبوابَ المسجد ، ووضعهم فى حراسة طائفة من جند الشام . ويظهر أنهم بعد أن تبينوا خطأهم كانوا راضين كل الرضا عن نجاتهم فى المسجد من عواقب ما أقدموا عليه . ولما جاء زيد ، ومعه مائتان وثمانية عشر رجلا ، كان قد جمعهم فى ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد الشديد ، وأراد أن يخلصهم من الحصر ، لم يتحركوا ، واضطر أن ينسحب من أمام المسجد ، لأن ألفين من جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة لمحاربته ، فردَّهم زيدٌ فى يوم الأربعاء ، وثبت فى الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رُماة النشّاب من القيقانية والبخارية حتى جاء الليل ، فأصيب زيدٌ بسهم فى جانب جبهته اليسرى ، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا الكوفة . ومات زيد من السهم ، ووقعت جثته فى أهل الشام ، وصُلِب جسدُه فى الكوفة . وأما رأسه فقُطع وأرسل إلى هشام بن عبد الملك فى الشام ، فأمر به فنُصِب على باب دمشق ، ثم أرسل به إلى المدينة ، ومكث بها

---

(١) [يقصد من طالت غيبته عن أهله يحارب فى بلاد بعيدة عنهم — المترجم] .

مصلوباً حتى مات هشام . وأما ابنه يحيى ، وكان غلاماً حدثاً ، فقد استطاع أن يفر إلى خراسان ، فأقام مختفياً فى بلخ سنين كثيرة . ولكنه عُرف بعد ذلك ، فصار ينتقل من مكان إلى مكان ، حتى قُتِل سنة ١٢٥ هـ ، فى عهد الوليد بن يزيد ، وهو يحارب من كانوا فى طلبه[١] .

ومع أن هذه الثورة قد انتهت إلى نهاية يُرْثى لها ، فإنها كانت ثورة لها شأنها ، لأن ثوارت شيعية أخرى أعقبتها . وأمام هذه الثورات سقطت دولة دمشق آخر الأمر ، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن نهض أبو مسلم لينتقم له ، فقتل قاتليه .

٣ — ولا شك أن المؤرخ يخطىء فى تصوير هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا هم له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية . على أن هشاماً لم يكن جندياً[٢] ، ولكنه لم يكن يرهب الحروب ، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل ، وجهز جيوشاً كبيرة ، ولم يدخر فى ذلك الأموال ولا حياة الرجال . وكانت يداه دائماً مشغولتين بالمشروعات الحربية فى أكثر المواضع تباعداً .

ففى أول حكمه استأنف قتال الروم ، وكانت الحروب معهم قد توقفت بعد أن أدى غزو القسطنطينية فى سنة ٩٨ — ٩٩ هـ (٧١٦ — ٧١٧ م) إلى استنزاف قوى الدولة دون أن يؤدى إلى نتيجة . ويحكى البلاذرى (ص ١٦٥ — ١٦٧) أن هشاماً بنى حصوناً ومسالح فى مواجهة الروم ، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان فى كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً فى وقت معاً لتلتقى فى نقطة واحدة ، وكان الذى يقود هذه الغزوات ابنه معاوية وابنه سليمان ، وكان كل منهما رجل حرب مولعاً بها . أما معاوية فهو جد الأمويين فى الأندلس ، وقد مات فى سنة ١١٨

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٧١٣ — ١٧١٤ ، ١٧٧٠ — ١٧٧٤ — المترجم] .
(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٥ — ١٧٣٦ — المترجم] .

أو ١١٩ هـ (٧٣٦ — ٧٣٧ م) فى بلاد الأعداء ، ويروى أنه ثار بين يديه ثعلبٌ ، فركض خلفه ، فعثر به فرسُه ، فسقط ومات ، فقال هشام متوجّعاً : تالله لقد أجمعتُ أن أرَشّحه للخلافة ، ويتبع ثعلباً !(١) ، ولكن البطل الأكبر فى هذه الحروب كما تُصَوِّره الرواياتُ والأساطير هو عبد الله البطّال ؛ وقد بذل المسلمون فى حربهم للروم جهوداً كبيرة وأفلحوا فى افتتاح بعض القلاع والمدن ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون الثبات فيها فى الشتاء ، يقول أحد المؤرخين الروم :

Nonnulla prospera per duces exercitus a se missos in Romania terra et pelago gessit(٢)

على أن الروم لم يخفقوا فى الدفاع عن أنفسهم ، ففى سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) قضوا على جيش عربى عند اكرونيوس (Akronius) من أعمال أفريجية (Phrygien) . وفى هذه الموقعة قُتِل عبد الله البطال . وفى السنة التالية قام الروم من جانبهم بالهجوم على عاصمة بلاد ملطين (Melitene) ، ولكنهم ارتدوا لما خرج هشام بنفسه مسرعاً من الرصافة وملبياً نداء العرب المحاصرين . وإلى جانب الحروب التى وجهها هشام إلى الروم كانت هناك حروب أخرى فى الشمال الشرقى من الدولة الإسلامية وجهها إلى الترك فيما دون بحر الخزر ، وفى هذه الحروب أيضاً لم يكن الحظ دائماً مواتياً للعرب ، ففى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) هُزموا هزيمة كبيرة ، ولكن الموقف تحول بعد ذلك فى مصلحتهم ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى مسلمة بن عبد الملك وخصوصاً إلى مروان بن محمد .

وفى نفس الوقت زحف المسلمون من جهة المغرب على أوروبا زحفاً يكاد يكون أشدَّ اندفاعا من زحفهم عليها من جهة المشرق(٣) ، وبذلك وضعوا العالم

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٨ — ١٨٣٩ — المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هى : وهو لم يحرز إلا بعض النصر فى تلك الحملات البرية والبحرية التى وجه فيها قواد الجيوش إلى بلاد الروم — المترجم] .

(٣) إن أغنى الأخبار وأحسنها فى هذا الصدد موجود فى كتاب Continuatio Isidori Hispana ، ولكن فهمها للأسف عسير جدا بسبب سوء لغتها اللاتينية ، وقد جمعها ورتبها —

المسيحى بين نارين . وهم قبل خلافة هشام بسنين كانوا قد هاجموا الفرنج من جهة إسبانيا وكان الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى ، أمير الأندلس ، هو أول من عبر جبال البرانس ، وربما كان ذلك فى عهد سليمان بن عبد الملك . وفى عهد عمر بن عبد العزيز فتح السمح بن مالك الخولانى مدينة أربونه (Narbonne) وظلت هذه المدينة نقطة ارتكاز وحصناً يلجأ إليه العرب زماناً طويلاً ، ولكن السمح لما تقـدم إلى تولوشة (Toulouse) هزمه الفرنج بقيادة أودو (Eudo) وقتلوه فى ذى العقدة سنة ١٠٢ هـ (مايو سنة ٧٢١م) ، فلما جاء خلفه عنبسة بن سحيم الكلبى قام ، بعدة غزوات كثيرة لم يكن هو نفسه الذى تولى قيادتها ، بحملة كبيرة فى سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦ م) ومات فيها ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك . ثم أعقبت ذلك فترةُ توقُّف لأن الأمراء كانوا يتغيرون بسرعة وكانوا فى شغل بأمور داخلية . وأحسّ البربر الذين كانوا يؤلفون شطراً كبيراً فى الجيوش العربية بأن العرب يؤخرونهم عن مكانتهم ويضايقونهم فى حقوقهم كمسلمين وكجند .

وكان العرب أنفسهم قد مزّقتهم الخلافاتُ ، ولم يتغير الموقف إلا بعد أن عين هشام على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى مكان الهيثم بن عبد الكافى الذى كان متشدداً ومقته الناس . وكان لا بد لعبد الرحمن من أن يبدأ بإزالة الشوكة التى فى جسمه ، وذلك أن مونوزا البربرى انتقض على العرب واستقل بثغر الشمال ، وكان قد حالف أودو الفرنجى وتزوج ابنته . وبعد أن قضى عليه عبد الرحمن اتجه إلى أودو وهزمه بين نهر الجارون ونهر الدوردونى ،

= الدكتور لودلف شفنكوف Ludolf Schwenkow ، فى رسالة تقدم بها إلى جامعة جوتينجن سنة ١٨٩٤ م ، بعنوان Kritische Betrachtung der lateinischen Quellen Zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber . ولا ينتقص من قيمة هذا الكتاب ، بما فيه من عمل دقيق غاية الدقة ، أن مؤلفه كثيراً ما يتبع فيما يتعلق بالموضوعات الشرقية الخالصة آراء معكوسة .

ثم لاحقه فى جهة إقليم نهر اللوار ، فالتقى فى رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢) فيما بين مدينتى تور وپواتيه بقارله (بشارل مارتيل) الذى كان أودو قد دعاه لنجدته . وبعد مناوشات دامت أياماً قام العرب بهجوم عام عنيف . ولكن الفرنج الشرقيين ثبتوا طول اليوم ، وفى الصباح التالى أدهشهم أنهم وجدوا العرب قد أخلوا الميدان بعد أن قُتِل قائدهم . وهنا يقف جيبون (Gibbon) ليتخيل مصير أوروبا لو أن العرب انتصروا : إذن فلربما كان القرآن يُفَسَّر اليوم فى جامعة أكسفورد ، ولكانت قداسة الديانة المحمدية وحقائقها تُتلى من المنابر أمام شعب قد خُتِن . والحق أن فضل الفرنج على أوروبا النصرانية كان كبيراً ، ولكن الحق أيضاً أن الروم فى شرق أوروبا احتملوا من الجهد والمشقة فى حماية أوروبا أكثر مما احتمله الفرنج .

ولكن العرب لم يُدْحَرُوا عند مدينة تور دحراً حاسماً[1] ، وقد حثَّ الخليفة نفسه بحماسة شديدة على مواصلة القتال مع الفرنج . وفى سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) عنّف الخليفةُ عبد الملك بن قَطَن الفهرى خليفة عبد الرحمن الغافقى على الأندلس لإبطائه فى القيام بمهاجمة الفرنج . وعلى هذا سار عبد الملك لقتالهم ، لكنه لم يتقدم كثيراً ، فقد سدَّ النصارى أمامه طريق جبال البرانس (جبال البرتات) ودحروه إلى السهل . وعند ذلك عين الخليفةُ عقبةَ بن الحجاج السلولى مكانه (سنة ١١٧ هـ) ، وهو الذى نجد اسمه عند المؤرخين الإسبان محوَّراً فى اللغة اللاتينية تحويراً جميلاً : أوْكوپا (Aucupa) : ولكن عقبة شُغِل أولا وقتاً طويلا بالمسائل الداخلية ، ولما تحرك بعد ذلك قاصداً بلاد غاليس (بلاد الغال) لحقته فى سرقسطة الكتبُ لكى يعود إلى إفريقية للمساعدة على إخماد الثورة التى قام بها البربر هناك ، فرجع

---

(١) [موقعة تورپواتية تسمى عند العرب موقعة بلاط الشهداء — المترجم] .

وعبر الجبال[1] التي دون جبل طارق ثم جاز المضيق ومعه الجيش العربي الإسباني . وبعد أن اعتقد أنه قام بما عليه من عمل في إفريقية قفل راجعاً إلى الأندلس ومات سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) .

وقد قضت الظروف على البربر أن يصبروا على كره منهم حلفاء للفرنج ، لهم شأنهم ، وذلك أن البربر تذمروا من أن العمال العرب ، بعد موت عمر بن عبد العزيز ، صاروا يعاملونهم ، مع أنهم مسلمون صادقون في إسلامهم ومع أنهم يشتركون في الجهاد متحمسين ، معاملة الخدم الذين يلزمهم أداءُ الجزية . فصارت نفوس البربر تربة خصبة لبعض دعاة الخوارج الذين جاءوا من العراق وعلى رأسهم ميسرة الصُّفْري لبذر بذور مبادئ الخوارج بين البربر . ويحكي سيف (الطبري ج ٢ ص ٢٨١٥ فما بعدها) أنهم في أول الأمر ، ومن غير ثورة ، التجأوا إلى هشام لكي يسألوه أن يرفع عنهم ما يَشْكُون منه ، ولكن لم يُؤْذَن لرسلهم في الدخول عليه ، فلما نفدت نفقاتُهُم رجعوا ، بعد شيء من الانتظار ، وهم يشعرون بخيبة الأمل ، وكتبوا أسماءهم في رقاع تركوها للخليفة . وعند ذلك اقتنعوا بأن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه ، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذي يكرههم على أن يمتصوا دم الرعايا . ولهذا ثاروا ثورة مُريعة بقيادة أحد الخوارج ، امتدت من مراكش إلى القيروان . وتبيَّن أن أمراء إفريقية غير قادرين على أن يفعلوا إزاء هذه الثورة شيئاً . وكذلك لم تُفِدْ معونة عقبة ، بعد أن عاد إلى إفريقية قادماً من الأندلس ، إلا قليلا . وكان لا بد من مجيء الفيلق الثالث ، أعني أنه

---

[1] (١) وبحسب كتاب الصلة الإسباني لتاريخ ايزيدور وقعت عند هذه الجبال الموقعة التي قتل فيها لوذريق ملك القوط ، على مقربة من جبل طارق فيما يظهر [جاء في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي (ط . مدريد ١٨٦٨ م ص ٧) : وكان اجتماع طارق ولوذريق على وادي بكة (Beca) من شذونة (Sidonia) فهزم الله لوذريق . . . . الخ — المترجم] .

كان لا بد من أن يأتى جند الحكومة من الشام ، كما كان الحال فى العراق ، فأرسلهم هشام . وفى سنة ١٢٣ هـ[1] (٧٤١ م) ظهرت فى ميدان القتال بالمغرب الأقصى جحافلُ خيل الشام ، وكان على رأسهم كلثوم بن عياض القسرى[2] عامل دمشق ؛ ولكن حتى جند الشام ، على جودة عُدَّتهم وحسن مرانهم على القتال ، هُزِموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعُراة ، وقُتِل كلثوم فى معركة كبيرة عند نهر نوام (Nauam)[3] ، يصفها مؤرخو الشام وصفاً فنياً رائعاً ، ولم يستطع ابن أخيه بلج بن بشر أن ينجو إلى سبتة ومنها إلى الأندلس إلا بثلث جيشه ، وكانت تلك أشنع هزيمة هُزِمها العرب على الإطلاق حتى ذلك الحين ، وكانت أشنع بما لا يقاس من هزيمتهم عند مدينة تور ، فقد استطاع البربر باسم الإسلام أن يضربوا العرب فى المغرب أشدَّ ضربة ، وإن كان العربُ فى السنة التالية قد أحرزوا نصراً استطاعوا بفضله أن يستولوا على القيروان ، وأن يثبتوا أقدامهم فيها ؛

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح كما عند البلاذرى (ص ٢٣٢) . أما عند الطبرى (جـ ٢ ص ١٧١٦ وعند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٣١ من تاريخ الخليقة) فنجد أن التاريخ الذى يذكرانه هو ١٢٢ هـ . ولكن فى هذه السنة التى كان فيها خالد القسرى مشتركاً فى حملة حربية فى آسيا الصغرى كان كلثوم ما يزال صاحب الشرطة فى دمشق ، وهو يسمى عند تيوفانيس (سنة ٦٢٣١) باسم Δαμασκηνός (الدمشق) .

(٢) هو يسمى فى العادة القشيرى كما عند البلاذرى وابن الأثير فى جميع المواضع وعند الطبرى أيضاً (جـ ٢ ص ١٧١٦ و ١٨٧١) ، ولكن الصواب هو « القسرى » . كما يسميه الطبرى (جـ ٢ ص ١٨١٤ فما بعدها) لأنه كان ابن عم لخالد بن عبد الله القسرى . ويقول ا . مولر (A. Müller, 1,448) إنه « قيسى بطبيعة الحال » ، كأن مولر يعرف ذلك بداهة بفضل معرفته بنفسية العرب والأصول التى كان يجرى عليها هشام فى حكومته (A.Müller 1,445) وكثيراً ما يحصل الخلط بين كلمتى قسرى وقيسى ، وبين كلمتى : قشيرى وقريشى ، قارن مثلاً الطبرى (جـ ٢ ص ١٤٥٦ س ٧) [على أن كلثوما هذا يسمى فى تاريخ ابن القوطية (ص ١٧) هكذا : كلثوم بن عياض القيسى — المترجم] .

(٣) [يقول ابن القوطية فى تاريخه (ص ١٥) إن المعركة كانت عند موضع يقال له : نفدوره . . . المترجم] .

وكذلك فى الطرف الآخر من الدولة الإسلامية ، بلاد نهر الشاش التى لم تعرف الهدوء قط ، كانت الحركة فى عهد هشام أقوى منها فى العادة ، ذلك أن أهل السغد كانوا قد تبعوا أمراءهم ودخلوا فى الإسلام أيام عمر بن عبد العزيز ، بعد أن وعدهم عمر بألاّ تؤخذ منهم جزية . ولكن عمال الدولة بعد ذلك لم يتقيدوا بهذا الوعد ، وكانوا يتغيرون كثيراً ، وكان أحدهم يسير على سياسة ويسير من يخلفه على سياسة أخرى ، ولكنهم جميعاً كانوا يجعلون القوة فوق الحق . فإذا أعفى أحَدُهم أولئك المسلمين الجدد من الجزية فإن ذلك كان يُعتبر فضلاً وإحساناً منه سرعان ما يُرْجع فيه ، حتى إذا غضب أهل السغد من ذلك وامتلأت نفوسهم حقداً رموا بأنفسهم بين أحضان الترك ، أعدائهم القدماء ودعوهم إلى بلادهم . وكان أهل الديانة والورع من المسلمين يعطفون عليهم ، ولم يقتصروا فى التعبير عن هذا العطف على مجرد الكلام ، وصار من العسير على أمراء العرب أن يقووا على الدفاع عن أنفسهم أمام هذا التكتّل ، ووقعت جيوشهم أكثر من مرة فى أشد المآزق خطراً ، وكانوا يفرحون إذا استطاعوا النجاة ولو بخسائر كبيرة . ومما يدل على مقدار تعوّد الخليفة على الأخبار السيئة التى كانت ترد من خراسان أنه كان لا يصدق الخبر الصحيح إذا ورد إليه مُنْبئاً بانتصار جنوده[1] . وكان كل ما يستطيعه فى تدارك الأمور هو أن يغيّر القائد ، ولكن ذلك كثيراً ما كان ينتهى بالفشل ، وكان دائماً يجرّ إلى عواقب وخيمة . ولكن الخليفة فى آخر الأمر اتخذ إجراء فعالاً ، فبعد أن عزل خالد بن عبد الله القسرى ، كان يوسف بن عمر – وهو الذى خلَف خالداً على العراق – يُمَنّى نفسه بأن يسند إليه الخليفة إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق . ولو أنه نال ذلك لاستخلف على خراسان عاملاً قيسياً لحماً ودماً ، فزاد بذلك من حدة التنازع بين الأحزاب القَبَلية ، وكانت الخصومة

(١) [راجع الطبرى مثلا ج ٢ ص ١٦١٤ – ١٦١٦ – المترجم] .

بينها لا تحتاج إلى مزيد ؛ ولكن الخليفة حال بين يوسف بن عمر وبين ما يشتهي ، فقام من جانبه بتعيين نصر بن سيَّار الكناني[1] ، وكان صاحب سنٍّ وتجربة وقائداً محنَّكاً وعاملا من أكفأ العمال ، ولم يكن ينتمي لأية قبيلة قوية في خراسان . وقد بذل كل ما في طاقته ، ولكنه كان يحاول أمراً مقضياً وموقفاً خاسراً .

ومات هشام في الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٦ فبراير سنة ٧٤٣ م) ، ولم يكن قد تقدمت به السنُّ كثيراً ، فكان في وسط العقد الخامس من العمر[2] . ولكن لعل الشباب لم يَتَبَدَّ عليه قط ، وكان مظهره غير رائع ، فقد كان « أحول شديد انقلاب العيْن » وهو وإن كان قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه ، فإنه لم يكن له من الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجتذبهم إليه أو يملؤهم رهبة منه ، وكان فيه شيء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ ، ولكنه كان « دقيق النظر . . . متيقظاً في سلطانه ، سائساً لرعيته »[3] ، وهو لم يفعل بنفسه مايغضب أهل التقى ، بل كان مسلماً حسن الإسلام ، من طراز السلف الأولين ، وكان صديقاً لرواة الحديث والأثر أمثال الزهري وأبي الزناد ، وعدواً للقدرية المبتدعة الذين أثاروا البحث في مسائل اعتقادية ، وكانوا يقولون بالاختيار (الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٧ — قارن أيضاً ص ١٧٣٣) ، ولذلك لم يكن متعصباً على رعاياه المسيحيين . فأذن لهم (للملكانية منهم ؟) في أن يعيدوا شغل كرسي أنطاكية بعد أن كانوا قد مُنِعوا

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها و ص ١٧١٨ فما بعدها — المترجم] .

(٢) [الطبري جـ ٢ ص ١٧٢٨ فما بعدها — المترجم] .

(٣) [آثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبيه للمسعودي ص ٣٢٢ عوضاً عن كلمتين للمؤلف ، ويجد القارئ كثيراً من صفات هشام عند الطبري جـ ٢ ص ١٧٣٠ فما بعدها — المترجم] .

من ذلك أربعين سنة . ولكنه اشترط عليهم ألا يعينوا من يحبون من أهل العلم والنباهة ، بل أن يعينوا راهباً بسيطاً هو اصطفان (Stephanus) ، صديق هشام وأن يختاروه بطريقاً عليهم . وهم قد رضوا أيضاً بذلك[1] .

ويحكى أن رجلاً نصرانياً شج غلاماً لمحمد بن هشام ، وبدلاً من أن يرفع محمد الأمر إلى القاضي ذهب خصى لمحمد فضرب النصرانى ، فلما بلغ ذلك هشاماً ضرب الخصى وشتم ابنه محمداً . وكان هشام فى حكومته يسعى إلى أن يجعل نفسه فوق الأحزاب ، ولكن ليته استطاع أيضاً أن يغير من نفوس العرب والولاة . وكان فيه شىء من خشية الظهور أمام الناس ، فآثر أن يعتزل فى الرصافة بعيداً عن الأنظار ، وكان إذا قدم عليه من الناس من يريد أن يلقاه كلّف صديقه الأبرش الكلبى أن يتصل بهم ، وكان الأبرش موضع ثقة هشام (الطبرى ج ١ ص ٢٨١٦ ، وج ٢ ص ١٨١٣) .

ولكن هشاماً كان رغم ذلك ممسكا زمام الأمور وكان يفهم عمله ويهب له وقته وكان ديوانه مثالا للدقة والنظام ، وكان ذلك موضع إعجاب الخليفة المنصور العباسى . وقد قضى هشام على فساد كان موجوداً ، وهو أن أعطيات المقاتلة كانت تُمْنَح لقوم من الأشراف أشبه شىء بالاستغلال من غير عمل ، فصار لا يأخذ أحدٌ العطاءَ فى أيام هشام ، حتى من أمراء الأمويين ، إلا إذا قام بالغزو بنفسه أو أناب أحداً عنه . وكان لهشام مولى اسمه يعقوب ، فكان يأخذ عطاء سيّده وينوب عنه فى ميدان القتال . والحكايات الكثيرة التى تحكى عن هشام كما تحكى بكثرة عن عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، تصوره فى صورة

---

(١) انظر ما يقوله تيوفانيس فى أخبار سنة ٦٢٣٤ (من تاريخ الخليقة) ، وقارن أيضاً أخبار سنة ٦٢٣٦ . وقتل أسرى الروم إذا لم يفك أسرهم أو لم يعتنقوا الإسلام ، وهو ما يذكره تيوفانيس فى أخبار سنة ١٢٣٢ ، ليس شيئاً غريباً ولا خاصاً ، لأنه كان من قوانين الحرب القديمة .

رجل مبالغ فى الحساب فى الإنفاق متعنّى بالتدبير على قواعد الاقتصاد[١] »

ولكن هذه الصفة التى ربما يكون من الممكن تبريرها ، إذا نظرنا إلى أن من تقدم هشاماً من الخلفاء كان يخالفه فيها ، انقلبت عنده إلى عيب جرّ النكبات ، وذلك أنه اهتم بأن يملأ خزانته ، ويصفه تيوفانيس بهذه الكلمات :

ἤρξατο κτίζειν κατὰ χώραν καὶ πόλιν παλάτια καὶ κατασπορὰς ποιεῖν καὶ παραδείσους, καὶ ὕδατα ἐκβάλλειν[٢]

وهو قد فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وأثار بذلك سخطاً شديداً إلى حد أن العباسيين ، فى وضعهم لبرنامج حكومتهم وفى التحبب إلى من دخل فى طاعتهم ، لم يجدوا شيئاً أحسن من أن يعدوهم بأنهم لا يريدون أن يبنوا قصوراً ، ولا أن يحفروا أنهاراً ، ذلك أن النهر معناه امتلاك الضياع وأن القصر من لواحق ذلك . ونظراً لأن هشاماً كان من كبار ملاك الأرض فإنه كان ينافس خالد بن عبد الله القسرى ، وكان يمنع خالداً من أن يبيع غلته حتى تباع غلات أمير المؤمنين ، فكان السعر يرتفع ارتفاعاً كبيراً ، والأدهى من ذلك أن هشاماً كان يعتبر الدولة نفسها أشبه بصافية من صوافيه[٣] ، يجب أن يخرج منها أكبر ما يمكن من المال . وانتهت سياسته فى الحكم آخر الأمر إلى نزعة ظاهرة نحو ملء الخزانة ، فكان لا بد أن يحمل إليه عماله أكبر ما يمكن من الأموال ، ولم يكن يعبأ بالوسائل التى يبتزونها بها ، وزاد فى جزية أهل قبرص وضاعف جزية أهل الإسكندرية ، ودفع برعاياه فى أرض ما وراء النهر وإفريقية والأندلس إلى أحضان اليأس . يقول صاحب كتاب الصلة الأسبانى الذى أكمل تاريخ ايزيدور :

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ — ١٧٤٠ ، والمسعودى فى التنبيه مثلا ص ٣٢٢ — ٣٢٣ — المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اليونانى هى : شرع فى بناء الدور وإنشاء الضياع فى المدن والقرى وفى عمل البساتين البديعة وفى تجفيف الأرض — المترجم] .

(٣) [يعنى الممتلكات الخاصة التى تتبع الخليفة — المترجم] .

Cupiditate praereptus tanta collectio pecuniarum per duces Oriente et Occidente ab ipso missis est facta, quanta nulla umquam : tempore in reges qui ante eum fuerant extitit congregata : unde non modicae populorum katervae cernentes in eo improbam manere cupiditatem ab eius dicione suas dividunt mentes. (§ 94)(١)

هذا ما يقوله عن هشام صاحب كتاب الصلة ، مع المبالغة المألوفة فى تقدير ما جمع من أموال . ويستطيع الفريد فون كريمر ومن تابعه أن يحكموا بأن هشاماً عاد إلى الأصول السليمة القديمة التى كان يسير عليها خلفاء بنى أمية ، وذلك بعد ما يزعمونه من تزعزع فى إدارة الدولة الاقتصادية على يد عمر بن عبد العزيز . ولكن مهما يكن من شيء فإن آخر حكم هشام ، وكان حكماً طويلا مملوءاً بالجد والعمل إذا قورن بغيره ، كان تعساً إلى أكبر حد ممكن . وهو لم يكن محبوباً عند أحد ، وقد فشل فشلا كبيراً فى كل شيء ، ثم ترك وراءه تلك الدولة الشاسعة الأطراف فى حال أسوأ وأقرب إلى اليأس مما كان قد وجدها . ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها فى أيامه .

٤ — كان يزيد بن عبد الملك فى وصيته التى عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام ، قد عيّن ابنه الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام . وكان الوليد بن يزيد شبيهاً بأبيه يزيد ، غير أنه كان يُربى عليه فيما كان له من صفات ، وهو يسمى عند صاحب الصلة لتاريخ أبزيدور « بالجميل » ، وكان حسن الصورة قوى البنية إلى درجة غير مألوفة ، ولكنه كان مع ذلك قوى الحيوية ممتاز المواهب العقلية التى أيقظها ووجّهها مؤدّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيبانى اللغوى المشهور . وقد نشأ فى بلاط عمه هشام ، ولكن لم يكن فى صباه سعيداً ، وكان يفعل ما يشتهى ولا يأبه إلى ما سوى ذلك ، وكان مطمئناً على مستقبله ، لأنه كان يعلم من أول الأمر أنه

---

(١) [وترجمة هذا النص اللاتينى هى : وقد استولى عليه الجشع ، وجمع له العمال الذين بعثهم إلى المشرق والمغرب من الأموال ما لم يجمع للملوك الذين كانوا قبله . ولذلك رأى غير قليل من الناس أنه قد ملكه الجشع المعيب ، فانصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطانه — المترجم] .

وارث عرش الخلافة ؛ وقد دفعه إلى التمادى فى ذلك من كان حوله من أهل المجون والفسق . ووجد هشام أنه يعوزه الجد و الظهور بالمظهر اللائق بولى العهد ، فكان يتبرم بأنه يقضى وقته فى الصيد والشراب مع رفاق من أهل اللهو واللذات وبأن الموسيقى والشعر كانا أحب إليه من القرآن . وقد حاول هشام إصلاحه ، ولكنه لم يحسن اختيار الطريق إلى ذلك ، فأخطأ الغرض ، ولم يجد الوليد فى تبرم هشام به وسوء معاملته له ما يدل على نية طيبة ، وكان يفسِّر ذلك بأن هشاماً يريد أن ينزعه من ولاية العهد . ولعل الوليد لم يكن فى ذلك مخطئاً ، لأنه كان طبيعياً ، ومهما يكن من شيء فإن سوء سلوك الأمير الذى استعصى على الإصلاح دعا هشاماً آخر الأمر إلى أن يخلعه من ولاية العهد وأن يجعلها فى ابنه مسلمة بن هشام .

ولكن هشاماً اصطدم فيما أراد بمعارضة حاسمة من جانب بعض أشراف الأمويين وكبار العمال ، وخصوصاً أن مسلمة نفسه كان فتى هازلا . ولم يرض الوليد نفسه بأن يتنازل عن حقه . ثم جاءت المضايقة التى لقيها من هشام وحاشيته بسبب رفضه التنازل فجعلته أشد عناداً ، وملأت نفسه بالبغض . وأخيراً لم يطق الحياة فى القصر ؛ وبعد أن مات مسلمة بن عبد الملك ، ذلك الرجل ذى السن والمكانة العالية الذى كان يعيب هشاماً ويكفُّه عن الوليد ، خرج الوليد من الرصافة[1] وذهب إلى مكان منعزل فى البرية إلى الشرق من فلسطين[2] ؛ وهناك مضى فيما كان عليه ، بل ازداد تمادياً . ولم يكن يعوزه الزوار الذين كانوا يطمعون فى

(١) ويظهر أن هذا هو الذى يؤخذ مما جاء فى الأغانى (جـ ٦ ص ١٠٣) . أما ما يقال من أن ذلك حدث فى السنين الأخيرة لخلافة هشام ، فهو يؤخذ بوضوح مما عدا ذلك أيضاً . وقد مات مسلمة بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

(٢) ذهب الوليد إلى الأبرق أو الأزرق ، عند ماء يقال له : الأغدف ، بين أرض بلقين وأرض فزارة (أغانى جـ ٦ ص ١٠٤ والطبرى جـ ٢ ص ١٧٤٣) من أعمال عمان (الطبرى جـ ٢ ص ١٧٩٥ س ١١) . ويمكن أن يؤخذ مما جاء عند الطبرى (جـ ٢ ص ١٧٥٤ س ١١) أن ذلك المكان كان قريباً من منزل زيزاء ، لكن هذا المكان بعيد جداً إلى الجنوب .

فى كرمه وفى دُنُوّ ملكه ، فيجدون عنده ما يرجون . وكان يترقب موت هشام ولا يُخفى ذلك . ولم يكن يكتم ما يجول فى نفسه من إحساسات ، بل كان يعبّر عنها فى أشعار لا يحتفظ بها لنفسه .

وقد اضطر أن ينتظر سنين ، ثم وقع الأمر الذى لم يكن هو وحده يترقبه . ذلك أن حكم هشام كان قد طال ، فتنفس الناس الصعداء لما أغمضت المنيةُ عينيه . ولم يكد يموت حتى خرج عياضُ بن مسلم ، كاتب الوليد ، من السجن — وكان الوليد قد خلفه فى الرصافة ليكتب له بما يكون فيها من أحداث ، فأخذه هشام وضربه وحبسه — فختم عياض أبواب الخزائن حتى لم يبق قمقم لتسخين الماء لهشام ولا شيء يُكَفَّن به ، وذلك أن عياضاً أمر بإنزال هشام من على فرشه وبحمله خارج غرفته . وتلقى الوليد مع أخبار هذه الحوادث شارات الخلافة[1] . وقد احتفل بتلك الساعة على طريقته من التعطش للشراب ، ألف قصيدة مثّل فيها لنفسه بنات هشام يَنْدُبْنَه ، وعبّر عما يضمره لهن[2] ، وأمر أن تحصى أموال هشام وولده فى الرصافة وبأن يؤخذ أبناؤه وعياله وحَشَمُه إلا مسلمة ابن هشام ، ذلك أن مسلمة ، وإن كان منافساً حقيقياً له وإن كان أيضاً قد سخر منه سخرية قاسية باسم مستعار ، فإنه كان يكثر الكلام مع أبيه فى الرفق بالوليد ويكفّه عنه . ولم يلبث الوليد أن ذهب إلى دمشق لكى يتلقى البيعة فى العاصمة (الأغانى ج ٦ ص ١١١ س ١٢) . وجاءت الوفود من جميع الآفاق ، وكتب إليه العمال الكتب يهنئونه[3] ويخبرونه بأخذ البيعة له فى ولاياتهم ويصفون

---

(١) لا يتكلم الوليد نفسه (الأغانى ج ٦ ص ١٠٩ س ١) عن شيء سوى الخاتم ، ويرد بعد ذلك (ص ١٠٩ س ١٨) ذكر الخاتم والقضيب والطومار ، ولا شك أن الطومار هو الخطاب الذى جاء فيه نعى هشام له . [لكن نجد عند صاحب الأغانى ج ٦ ص ١١٠ ذكر الحلة والقضيب والخاتم — المترجم] .

(٢) [راجع مثلا الأغانى ج ٦ ص ١٠٨ فما بعدها — المترجم] .

(٣) [راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ — المترجم] .

سرور الناس واستبشارهم وتحقق أملهم فى خلافته ، وكان احتفالاً كبير ؟ وقد أظهر الوليد ما يدل على تقديره لما كان وعلى عرفانه به ، كما أنه استطاع أن يحقق الآمال التى عُقِدت عليه بفضل الأموال التى ادخرها له هشام ، فزاد الناس جميعاً فى العطاء عشرة دراهم ، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهماً ، وردّ الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة ، بعد أن كان هشام قد منعها عنهم عقاباً لهم على ميلهم إلى زيد بن على ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته فى جوائزهم الضعفَ . وأجرى الأرزاق على زَمْنَى أهل الشام وعميانهم ، وكساهم ، وأمر لكل منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام[1] .

ولكن الوليد انتقم من أعدائه ، غير أنه لم ينتقم من آل هشام مباشرة خشية أن يثير على نفسه الأمويين ، فاكتفى بأن ضرب سليمان بن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك إلى عمان وحبسه بها ، وحبس الأفقم يزيد بن هشام . لكنه عاقب إبراهيم ومحمد ابنى هشام بن إسماعيل المخزومى على ما اقترفاه من التخلى عنه والانضمام إلى جانب مسلمة بن هشام ، لأن مسلمة كان ابن أخت لهما ؛ فوجههما إلى المدينة أولاً ، وكانا قد فعلا هناك ما بغّضهما إلى الناس فأقيما للناس (يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ١٢٥ هـ = ١٤ يونيه سنة ٧٤٣ م) ، ثم أمر بأن يُبعث بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وأمره أن يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا . وقد فعل ذلك ، وكان هذا أيضاً هو مصير بنى القعقاع العبسيين الذين كانوا قد أيدوا هشاماً فيما أراده من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها فى ابنه (ابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٨) ، فعزلوا عن ولايتهم

---

(١) [جاء عند الطبرى أن الوليد لم يقل فى شىء يُسأله : « لا » ، فقيل له : « إن فى قولك : أنظر ، عدة ما يقيم عليها الطالب » ؛ فقال : « لا أعود لسانى شيئاً لم أعتده » الطبرى جـ ٢ ص ١٧٥٤ — المترجم] .

قنسرين وحمص وأسلموا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى لينتقم منهم ، وكان بنو القعقاع قد ضربوا عمر بن هبيرة بأمر هشام قبل ذلك بعشرين عاماً . وهكذا وقع فصلٌ دموى أخير من فصول العداوة بين قبيلتى عبس وفزارة . وكذلك عزل الوليد عُمّالَ هشام فى المدينة ودمشق وعيّن عمالاً غيرهم ، فوجّه خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى والياً على المدينة ومكة والطائف ، ووجه إلى دمشق رجلاً من ثقيف أيضاً من سلالة الحجاج مباشرة ، هو عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف — وهكذا صار الوليد بسبب نسب أمه موالياً لقيْس .

أما فيما يتعلق بالمنصبين الكبيرين فى العراق وخراسان ، فإنه أقر الواليَيْن اللذين وجدهما ، وهما يوسف بن عمر فى العراق ونصر بن سيار فى خراسان[1] ، بل هو أقر حتى آخر أيامه الأبرش الكلبى ، كاتب هشام فى المنصب الذى كان له من قبل ، وجعله موضع ثقته — فكان خلافُه مع هشام خلافاً شخصياً فحسب . وكان من حيث التمسك بالدين يختلف فى سلوكه الشخصى عن هشام اختلافاً كبيراً ، لكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيراً[2] . أما الزهرى وأبو الزناد صديقا هشام فكان الوليد يبغض أحدهما[3] ، لأنه كان يعيبه مع هشام ؛ فأما الآخر ، وكان قد التزم الحكمة والصمت فى أمر يزيد ، فإن الوليد أكرمه ، وهو كان يحبه من قبل . وكذلك عادى الوليدُ القدريةَ المبتدعة ، كما عاداهم هشام من قبل ، وأقرّ ما كان قد صنعه هشام من نفى رسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع) ، واعتبر ذلك عملاً ترجى

(١) [لكن الوليد باع فى آخر أيامه نصر بن سيار وعماله إلى يوسف بن عمر ، (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ فما بعدها) — المترجم] .

(٢) [ربما قصد المؤلف مثلا ما يقوله فيما يلى : من أن الوليد لم يغير شيئاً مما عمله هشام بالقدرية (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ — المترجم] .

(٣) [هو الزهرى ، بحسب الأغانى ج ٦ ص ١٠٦ ، وقد مات قبل تولى الوليد الخلافة — المترجم] .

منه المغفرة لهشام . وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه فى أمر القدرية ، فهو لم يتَرَضَّ كما لم يرض هشام من قبل بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلى . ويمكن أن يؤخذ من بعض الأخبار التى ذكرها تيوفانيس أن الوليد قد اضطهد النصارى . غير أن هذا لا يبدو متفقاً مع المعروف عن طبيعة الوليد وخليقته . ويظهر أنه فى الحقيقة لم يكن له يد فيما عومل به الأسقف بطرس الدمشقى ، وبطرس الميومى الذى كان عاملاً على الخراج . وكل من هذين الرجلين سعى إلى العذاب والاستشهاد من طريق سب الإسلام وشتم النبى عليه السلام ؛ أما ما كان فى عهد الوليد من نقل بعض أهل قبرس إلى الشام فلم يكن له علاقة بالدين .

ويمكن القول فى الجملة إن الوليد بن يزيد إنما كان يعبث بما له من سلطان . فكان ينظر إلى قيامه بشئون الحكم كما ينظر إلى نوع من الرياضة والفروسية ، ولم يشمل بأمور الحكم اشتغال جد وعناية ، وهو بعد أن تولى الخلافة لم يغير إقامته فى بريّة شرق الأردن (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٥ س ١١) ، ولم يزايل روحَه ذلك الإحساسُ المرير المشرب باحتقار الإنسانية وكراهية الناس ، وهو الإحساس الذى تكوّن فى صباه . وهو بعد موت هشام أيضاً تباعد عن الجو الذى كان ينبغى أن يكون فيه ، ونفّر من نفسه قرابته وأترابه (أغانى ج ٦ ص ١٣٧ س ٦) . وكان لا يبالى أقل مبالاة بالرأى العام ولا يجعل له سبيلاً على نفسه . وكان له بطبيعة الحال ديوانٌ فى قصره ، ولكن كان لا يفارقه الجو الذى كان يرتاح إليه من قبل ، من خيل وكلاب وصيد ومغنّين ومغنيات وشعراء وأدباء ، وكان فى أثناء النهار يركب ويجول فى البادية ، وكان الإجهاد البدنى بالنسبة له ضرورة أشبه شىء بلعب الأطفال . وقد بلغ من شدة قوته أنه كانت تُوتَد له سكةُ حديد فيها حبلٌ ويشدُّ الحبل فى رجله ، ثم يثب على دابته ، فينتزع السكة ويركب ، ما يمسُّ الدابةَ بيده . أما الليل فكان يقضيه فى الشراب . وكان

الوليد يتميز بشعور جنونى بما له من قوة ؛ ويحكى عنه أنه قال ؛ وَدِدْتُ أن كل كأس يُشْرَب من خمر بدينار ، وأنّ دون كل امرأة أسداً ، حتى لا يشرب إلا سخىّ ولا ينكح إلا شجاع . ولكن الوليد لم يكن منغمساً فى الغلظة الوضيعة كل الانغماس ، بل اجتمع عنده الودُّ لشرار النساء مع العشق الملتهب للمرأة النبيلة ، يسعى طويلاً لوصلها دون أن يظفر بها ، حتى إذا نالها أخذها منه الموتُ . وكانت كل مناسبة تبعث الشعر فى نفسه قصائد قصيرة يعبر فيها عن إحساس الساعة تعبيراً رشيقاً سهلاً فى صورة مبتكرة ؛ وربما كان يستطيع الإنسان أن يجمع تاريخ حياته من هذه القصائد ، لو أنها بقيت حتى وصلت إلينا كاملة ، ولكن نظراً لأنه كان خليفة فلم يكن يليق به أن تُجْمَع أشعاره وتُذاع فى الناس ، وإنما كانت تُخْتَلَس اختلاساً ، بل يُرْوى أن الوليد كان أحياناً يخطب الجمعة شعراً (١) . فهو كان يقدر على أشياء كثيرة ، ولكن كل شىء كان عنده وليد الحالة النفسية المؤقتة التى يكون فيها ، وكانت أحواله تتغير بسرعة ما يتقلب كفُّ اليد ، فقد تجده يتعمق فى مناقشة دينية مع أحد العلماء ، وتجده بعد ذلك يشرب خمراً ويهزأ بما هو مُقَدَّس ؛ ولم يكن يرد لأحد رجاءً ، وهو لم يكن سريع الغضب فحسب ، بل كانت فيه أيضاً قسوة الأطفال ؛ ولقد كان من البلاء أنه تولى الخلافة(٢) .

وقد أنفق الوليد الأموال التى كان قد جمعها هشام أسرع مما كان يظن ، وكان

---

(١) [راجع ما روى من خطبه وكتبه شعراً ، وخطبة من على المنبر شعراً بأكلها ، فى الأغانى ج ٦ ص ١١١ ، ١٢٨ — ١٢٩ — المترجم] .

(٢) قارن ما فى الأغانى عن الوليد ٦ ص ١٠١ فما بعدها . وكثير من ذلك غير جدير بالثقة . ولقد قال خالد بن عبد الله القسرى لما ذكر أمامه الوليد فى معرض المجون والفسق : أمر الوليد أمر غائب عنى ، ولا أعلمه يقيناً ، إنما هى أخبار الناس (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٦ ، ١٧٧٧) .

لا يكفيه دخله العادى ، بل كان يحتاج إلى أموال لا تتيسر عادة . وقد استفاد يوسف بن عمر من هذا لكى يشترى نصر بن سيار الذى كان قد أصبح متعززاً عليه بما له من استقلال . فعرض على الخليفة مالاً كثيراً لكى يضمّ إليه ولاية خراسان : وقد حصل عليها ، فبعث الخليفة فى استدعاء نصر بن سيار وعياله أجمعين إلى الشام ، وكلّفه أن يُحْضِر له معه أشياء كثيرة من بُزَاة الصيد والخيل والبراذين والبرابط والطنابير وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورءوس السباع والأيايل وكل صنّاجة ووصيفة حسناء . ولم يدخر نصر مالا ولا وقتاً فى الحصول على ما أراده الخليفة ، وعلى كثير من الجوارى الحسان والمماليك بكامل سلاحهم : ولكنه عندما خرج آخر الأمر من خراسان تأتى خبر مقتل الوليد ، فقفل راجعاً .

ومن جهة أخرى أفلح يوسف بن عمر ، هذا الشيطان المارد ، فى أن يجعل خالد القسرى فى قبضة يده ، وذلك بعد عناء طويل فى عصر هشام ، لم يظفر منه بطائل . ولقد كان لدى الوليد من الأسباب ما يستوجب عليه الشكر لخالد ، ذلك أن خالداً دافع عن الوليد لدى هشام وأنه بعد أن مات هشام لم ينقلب على الوليد ، رغم محاولة أعداء الوليد إيقاعه فى شرك الخيانة له ؛ ولكن الوليد ارتاب به ، لأنه كان يعلم أكثر مما كان يستطيع أن يقول(١) . فقبض عليه الوليد وحاول أن يستخرج منه أشياء ، فلم يكشف عنها لكى لا يوقع غيره فى البلاء والمحنة ؛ وقد عذّبه الوليدُ ، فلم يتكلم ولم يتأوّه ، فعند ذلك باعه إلى عدوّه اللدود يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف . فحمله يوسف بن عمر إلى الكوفة على أقسى

---

(١) [لما أجمع المتآمرون على قتل الوليد جاءوا إلى خالد القسرى ودعوه إلى أمرهم ، فلم يجبهم . فلما سألوه أن يكتم عليهم وعدهم ألا يسمى أحداً منهم . ثم أراد الوليد الحج ، وخشى خالد أن يفتكوا به فى الطريق ، فقال للوليد : يا أمير المؤمنين ! أخر الحج هذا العام ، فلما سأل الوليد خالداً عن السبب لم يجبه ، فأمر الوليد بحبسه وأن يرد ما عليه من أموال العراق (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٨) ، ويظهر أن هذا هو الذى يريده المؤلف — المترجم] .

صورة ، وعذبه حتى مات دون أن يستطيع كَسْرَ كبريائه ، أو حتى أن يبلغ منه أن يتكلم أو يعبس من الألم . ومات خالد تحت العذاب فى المحرم سنة ١٢٦ هـ (نوفمبر سنة ٧٤٣ م) ودُفن فى الحيرة .

وقبل ذلك بقليل (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٠) كان يحيى بن زيد بن على قد قُتِل ، وحُمِل رأسه إلى الوليد ، فأمر بنصب الرأس أمام طائفة من علية القوم كان قد دعاهم إلى وليمة . ثم ازدادت المرارة التى أحدثتها أفعالُه فى دوائر واسعة النطاق فى المشرق ، لأنه أمر بأن يُفْعَل بقبيلة كلب فى العراق ما فعله العبرانيون من قبل فى صنم لهم بأن أحرقوه وذروا رماده فى الماء . ومن البديهى أن يكون السخط الذى أحدثه قتلُ خالد ، بعد عذاب طويل ، شديداً جداً فى حينه ، ذلك أن ما فعله الوليد بخالد كان بمثابة تحدٍّ لقبائل اليمن . وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسرى هو إغراء قبائل قيس بقبائل اليمن . وبدا أن الخليفة قد صار هو ويوسف ابن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحداً لا يفصل بينهم فاصل . ويدل على أن هذا كان هو رأى الناس حقيقة أشعارٌ بعضها حقيقى وبعضها موضوع . ولأول مرة حدث تذمُّرٌ سياسى شامل فى العراق وفى الشام ، وألف هذا التذمر بين اليمن هنا وهناك ، وكان أشد الناس تأثراً بذلك هم يمن الشام وخصوصاً كلب ، لأن خالداً كان قد قضى سنيه الأخيرة فى دمشق، ونال هناك محبة أصدقاء كثيرين . ولكن التذمر من الخليفة خاصة كان أكثر منه من قيس بوجه عام ، وقد نفخ أعداء الخليفة الشخصيين فى نار الفتنة واستغلوها لأغراضهم الخاصة . ولم يكن الاشتراك فى الثورة الصغيرة التى نشأت عن ذلك اشتراكاً إجماعياً ، وهى وإن كانت قد جاءت من جانب قبائل اليمن ، فلم يكن اليمانية وحدهم فى جانب والقيسيون وحدهم فى الجانب الآخر ، بل نجد عبس قيس يقفون فى الجانب المعادى للخليفة ، لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع

بنى القعقاع . ومن جهة أخرى لم يأت لنجدة الخليفة البهرانيون(١) من حمص فحسب ، بل جاء أيضاً قومٌ من كلب من قبائل عامر وسُلَيم بن كيسان . ولم تندلع النار على الفور فى قوة ، لكنها امتدت إلى أوسع نطاق بسبب مقتل الوليد . وكانت كل مناسبة كافيةً فى إثارة الشر الكامن ، وفى إيجاد منزع للصدور المُشْرَعة ، وكان كل نزاع قابلا لأن ينقلب نزاعاً عاماً بين القبائل . وقد لعب الإسلام بطبيعة الحال دوراً فى ذلك ، فكان أهل الديانة والورع حانقين على الخليفة الذى لا دين له ، خصوصاً القدرية الذين كانوا أولى الناس بأن يسخطوا عليه (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٧) .

وكان الوقت الذى انقضى بعد تولى الوليد ، وكان فيه خالد بن عبد الله القسرى لا يزال يقيم فى دمشق ، كافياً لوضع خطة التآمر على الوليد . وكان على رأس المتآمرين أعمامُه هو ، فكانوا من أمراء بنى أمية ، وإن كان من الجائز أنهم لم يكونوا هم الرءوس المفكرة المدبرة للمؤامرة (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٣) . وقد كانوا هم نصحاءه الطبيعيين ، لكنه انسحب من زمرتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم وإشرافهم ، وأصبح مسلكه مهدِّداً بإضاعة ميراث آبائه ، الذى كان لهم هم أيضاً الحق فيه . وقد أغضبهم أيضاً بأن عقد البيعة من بعده لاثنين من أبنائه ، من غير أن يُدْخِل بينه وبينهما أحداً ، لأنه كان قد لقى فى صباه ما لقى من دخول هشام بينه وبين أبيه ، وذلك بالرغم من أن ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد ، وكانا فوق ذلك ابنيْن لأم ولد كانت جارية عنده(٢) ، فلم يكونا لهذين السببيْن وبحسب

---

(١) يخطئ ا . موللر فى اعتبارهم قيسيين .

(٢) [لا يتفق هذا مع ما يقوله المؤلف فيما بعد من أن أحدهما شكا من أن أمه من كلب — فلا شك أن ههنا خطأ — المترجم] .

ما تقضى به العادة العربية والإسلامية أهلا لولاية الحكم(١) . وقد شعر أبناء الوليد بن عبد الملك خاصة ، وكانوا كثيرين (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٤) ، أن ما فعله يزيد آذاهم أذًى بالغاً ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك ، وهو أبوهم ، كان أكبر أبناء عبد الملك ، وكانوا يأملون أن يصلوا إلى الخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٥) ولكن لم يكن دَوْرُهم قد جاء بعد ؛ والآن يُنَحِّيهم أبناء يزيد بن عبد الملك عن المكانة التى يطمحون إليها . وقد انضم إليهم أيضاً أبناء هشام وغيرهم من بنى مروان . ولم يكن ابن عمهم الوليد راضياً عنهم ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم أنه قد أعدّ مائة جامعة (سلسلة) من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بنى أمية ليقتله بها . وكان من الذين يؤيدونهم ، وربما كانوا أيضاً هم الذين كانوا يحرضونهم ، قوم من أشراف كلب(٢) فى دمشق ، وكانوا قواداً وعمالاً ساخطين أزيلوا عن مناصبهم ، ويقال إنهم سعوا إلى خالد بن عبد الله القسرى لكى ينضم إليهم . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٧٧٨) أسماءهم ، ولكن منصور بن جمهور صار أكثرهم ذكراً عند المؤرخين فيما بعد ، وكان طبيعياً أن ينضم أبناء خالد القسرى إلى حزب هؤلاء المتآمرين على الخليفة ؛ وقد ظهر يزيد بن خالد من مخبئه ولعب فى ذلك دوراً كبيراً . ومن جهة أخرى وقف السفيانيون إلى جانب الوليد بن يزيد لأنه كان ينتسب إليهم من طريق جدته بنت يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان ، وكان أبرزهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفيانى . وكان إلى جانب الوليد أيضاً من بنى مروان العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان موضع ثقة الوليد .

---

(١) قارن كتابى الوليد إلى نصر بن سيار عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٥ — ١٧٦٤ ، وتاريخهما الثلاثاء ٢٢ رجب سنة ١٢٥ هـ (٢١ مايو سنة ٧٤٣ م) والخميس ١٥ شعبان سنة ١٢٥ هـ (١٣ يوليه سنة ٧٤٣ م) . وقد كتبهما سمال والنضر . وقد رفض خالد القسرى أن يوافق على مبايعة الصبيين قبل أن يبلغا — الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٦ .

(٢) وكان يرتبط بكلب بعض قبائل اليمن الخالصة ، وكانوا يسكنون فيما حول دمشق .

ووثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان أكثر إخوته طموحاً ، وكانت أمه إحدى بنات ملوك السغد وقعت أسيرة فى يد المسلمين ، فأخذ البيعة لنفسه وصار خليفة إلى جانب الوليد بن يزيد . وقد انضم إليه أولياءٌ وأنصارٌ بما بعثره عليهم من المال (تيوفانيس فى أخبار سنة ٦٢٣٥ من تاريخ الخليقة) ، واستطاع بفضل فصاحته وبما كان يظهره من النسك والتواضع أن يَضُمَّ إليه أهلَ الديانة (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧ ، ١٨٦٧) . ولما جاء الوقت الذى واعدهم عليه تنكّر وركب حماراً ، وسار إلى دمشق فى سبعة نفر ، وأخذ وهو فى دمشق يتصل بأنصاره ، ولم يكن معظمهم فى دمشق نفسها ، بل كانوا يسكنون فى القرى المحيطة بها . وبمعونتهم دخل المسجد الجامع فى يوم جمعة[1] ، وهو يوم الصلاة الجامعة الذى يقع عليه الاختيار عادة لمثل هذه المناسبة ، وكان فى المسجد كثير من السلاح وعدة الحرب ، وقبض يزيد على عمال المدينة ، كما أمر بالقبض على أميرها الغائب[2] وعلى أمير بعلبك . ثم دخل المدينة ، وقد فُتِحت أبوابُها ، ألفٌ وخمسمائة رجل من كلب جاءوا إليه من المزّة ، وجاء قوم من غسان ولخم وكندة وغيرهم من القرى الأخرى المجاورة ، وكان معظمهم من قبائل اليمن خاصة . ولم تقع فى أى مكان مقاومة ذات بال ، ويظهر أن الحكومة لم يكن تحت تصرفها عددٌ يذكر من الجند المستعدّين للقتال ، بل كان الجند فى الأمصار بعيدين من الشام . ولم ينتصف اليوم التالى حتى بايع الناس فى دمشق يزيد بن الوليد ، وكان فرحاً ، وكان يتمثل بأحد أبيات النابغة ، مما عجب له من كان معه من أهل الدين ، لأنه كان قبيل الصبح يسبّح وهو الآن ينشد الشعر . ولكن لما انتدب يزيد المتطوعين إلى قتال الخليفة الشرعى لم يجتمع إليه إلا قليلون ، ولم يستطع رغم ما بذل من عطاء كبير أن يحصل على أكثر من ألفى رجل ، وقد

---

(١) لا يذكر تاريخ دقيق لذلك .

(٢) كان يخاف على نفسه من هواء دمشق ، فكان يقيم فى قطن .

أمر عليهم عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وأخذوا يتناقصون كلما تقدموا فى المسير[1] .

أما الوليد بن يزيد فإنه فوجئ بأول أخبار الثورة ، وقد حمل إليه الخبر مولى له خرج على فرسه مسرعاً حتى بلغ الوليد من يومه ، وقد نفق فرسه ؛ فكان جزاؤه من الوليد أن ضربه مائة سوط . وقد رفض ما أشار عليه أولياؤه به من المسير إلى حمص أو تدمر أو إلى حصون أخرى كانت قريبة . ولم يترك ماء الأغدف إلا فى آخر لحظة عندما كان جيش عبد العزيز فى طريقه إليه . ولجأ الوليد إلى حصن البخراء الذى لم يكن بعيداً عنه ، وكان معه مائتا رجل ، وقد أسرعت إليه فرق كثيرة من الفرسان جاءوا من بعيد ومن قريب ، منهم قوم من كلب ، جاءوا من تدمر (وعلى رأسهم الوليد بن أخى الأبرش الكلبى) وبهرانيون أقبلوا من حمص وغيرهم : ونهض عباس بن الوليد أيضاً لنجدته ومعه أبناؤه الثلاثون ، ولكن عبد العزيز عرض له قبل أن يبلغ الوليد ، فأسره وأرغمه على أن ينضم إلى جيشه .

وجاء الرسل الواحد بعد الآخر ينقلون إلى الوليد أخبار الأعداء الزاحفين إليه ، ولكنه كان لا يلتفت إلى ما يقوله الرسل إلى أن رأى الأعداء أمامه . كان جنده القليلون معسكرين بحسب العادة العربية أمام الحصن ، وكان قد أعطاهم صكوكا يتقاضونها فيما بعد لأن المال كان قد نفد من يديه . وقد رأوا أن حاضرهم ليس فيه أمل ؛ وأعطاهم انضمامُ العباس بن الوليد إلى المعسكر الآخر مثلاً خطراً[2] .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٧ .

(٢) [هذه هى الترجمة الحرفية لكلام المؤلف ، والمقصود إما أنهم قلدوا العباس بن الوليد فى عدوله إلى جيش عبد العزيز ، وبدأت الخيانة ، ويدل على هذا ما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٨٠٥ — ١٨٠٦) ؛ وإما أن منع العباس من الوصول إلى الوليد وإكراهه على الانضمام إلى جيش الأعداء (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٨ ؛ ١٨٠٣ — ١٨٠٤) أظهر للمدافعين غلبة الأعداء . وعلى كل حال ، فقد « أسقط فى يد أصحاب الوليد وانكسروا » (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠٥) — المترجم] .

وزاد الطين بلّة أن كلب تدمر لم يريدوا أن يقاتلوا كلب دمشق . ولم يكن أمام عبد العزيز ، لما بدأ الهجوم عند طلوع الشمس ، إلا لعبة سهلة . وقد اشترك الوليد بن يزيد فى المعركة بنفسه وكان أشجع من قاتل ، ولكنه لم يلبث أن وجد أن الجميع تفرقوا عنه ، فرجع إلى الحصن ودخل ، ثم جلس ونشر المصحف يقرأ ، وقال : « يوم كيوم عثمان » . وتلقى الضربات التى قتلته ، وهو على تلك الحال[1] . وأقبل أحد موالى خالد بن عبد الله القسرى ، فسلخ من جلد الوليد قَدْرَ الكفّ وأتى بها إلى يزيد بن خالد علامةً على الثأر لخالد . أما رأسه فقد حُزَّتْ وحُمِلَتْ إلى يزيد ، وكان الذى حزّها رجل يلقب بوجه الفلس[2] . فأمر يزيد بنصب الرأس على رمح والطواف به فى مدينة دمشق . وبعد شهر دُفع الرأس إلى سليمان بن يزيد أخى الوليد ، فلم يجرؤ على دفنه جبناً منه ، وأخذ يتهم أخاه المقتول ويذكر ما كان منه من شرب الخمر والمجون والفسق . وكانت هذه الكارثة يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافق يوم الخميس ١٧ أبريل سنة ٧٤٤ م[3] . وإذا أراد المؤرخ أن يصدق يزيد بن الوليد فيما يقوله ، فهو يقول إنه ماثار إلا غضباً لله ورسوله ودينه وإنه وصل إلى الخلافة بإرادة الشعب ، ويقول

---

(١) تذكر أسماء الذين اقتحموا على الوليد وقتلوه عند الطبرى جـ ٢ ص ١٧٣٠ — قارن أيضاً ص ١٨٧٨ . [والذى يذكره المؤلف عن نهاية الوليد مضمون إحدى الروايتين اللتين ذكرها الطبرى (جـ ٢ ص ١٧٩٥ — ١٨٠١) ؛ وعند الطبرى رواية أخرى : جـ ٢ ص ١٨٠٦ — ١٨٠٧ — المترجم] .

(٢) [ليس هذا الرجل هو الذى احتز رأس الوليد ، والروايات مختلفة فى ذلك — راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٨٠٠ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ — المترجم] .

(٣) يذكر الطبرى (جـ ٢ ص ١٨١٠ س ٦) والمسعودى فى كتاب التنبيه (ص ٣٢٤) أن القتل كان لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة وأنه كان يوم الخميس . وفى الطبرى أيضاً (جـ ٢ ص ١٨٣٦ س ١٤) أن ذلك كان يوم الأربعاء . ويذكر تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٥) الخميس ١٦ أبريل سنة ٧٤٤ م ؛ على حين أن إلياس النصيبى يذكر يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة .

إن الوليد إنما قُتل لأنه رفض ما عُرِضَ عليه من أن يكون الأمر شورى ، حيث ينظر المسلمون لأنفسهم من يقلّدونه الخلافة ، فلم يجب الوليد إلى ذلك وبادر بالحملة على من أرسلوا إليه لدعوته إلى كتاب الله وسنة رسوله. (الطبرى جـ ٢ ص ١٨٣٤ فما بعدها وص ١٨٤٣ فما بعدها)(١) .

ولما علم أهل حمص بمقتل الوليد وثبوا على دار العباس بن الوليد وهدموها ، متّهمين إياه بخيانة الوليد والانحياز إلى عدوه . وقصدوا دمشق وعلى رأسهم أبو محمد السفيانى بعد أن قال لهم : « لو قد أتيتُ دمشق ونظرتُ إلى أهلها لم تُختالِفْنى » ، فأمّروه عليهم ظناً منهم أنه لن يكاد يظهر أمام المدينة حتى تقع فى يديه ، ولكن الذى وقع كان غير ذلك ، فقد هزمهم سليمان بن هشام قريباً من دمشق . وكان مصيرهم الفناء التام لولا أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى وقوما من كلب حالوا بينهم وبينه . أما أبو محمد السفيانى فأخذ إلى الخضراء ، سجن دمشق . وفيه حبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفيانيين . واجتمع أمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد . وقد قامت ثورات أخرى فى أنحاء من فلسطين ولكن قضى عليها بالعنف أو بالصلح(٢) .

٥ — وخطب يزيد بن الوليد بعد أن بايعه الناس خطبة افتتح بها عهده ، فضمنها كثيراً من المعانى ، وتشبّه بعمر بن عبد العزيز ، قديس بنى أمية ، فقال إنه إنما خرج غضباً لله ورسوله ودينه ، ثم هاجم الوليد بن يزيد ، وبعد ذلك وعد الناس بأن لا يضع حجراً على حجر ولا لَبِنَةً على لبنة ، وألا يَكْرِى نهراً

---

(١) [جاء فى الطبرى أن عبد العزيز قائد يزيد بن الوليد كان معه كتاب معلق فى رمح مكتوب فيه : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يصير الأمر شورى . أما ما يقوله المؤلف فهو مأخوذ من خطاب كتبه يزيد بن الوليد إلى أهل العراق ، راجع إلى جانب الإشارة التى يذكرها المؤلف ما جاء عند الطبرى جـ ٢ ص ١٨٠٤ — المترجم] .

(٢) [راجع فيما تقدم مثلا الطبرى جـ ٢ ص ١٨٢٦ — ١٨٣٤ — المترجم] .

ولا يكنز مالاً ولا يعطيه زوجة ولا ولداً ، ولا ينقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى يَسُدّ ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل شيء نقله إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه ، وألا يُجَمِّرَ الجُنْدَ فى الثغور تجنباً لفتنتهم وفتنة أهليهم ، وألاّ يغلق بابه دون أحد حتى لا يأكل القوىُّ الضعيف ، وألا يحمل على أهل الجزية ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وكان مما قاله : « وإن لكم أعطياتكم عندى فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ؛ فإن وفيتُ لكم بما قلتُ فعليكم الطمعُ والطاعة وحسنُ المؤازرة ، وإن أنا لم أفِ لكم فلكم أن تخلعونى إلا أن تستتيبونى ، فإن تُبْتُ قبلتُم منى ، فإن علمتُم أحداً ممن يُعْرَف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته » ، وختم خطبته قائلاً : « أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا وفاء له بنقض العهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهلٌ أنْ يعصى ، أقول قولى هـذا وأستغفر الله لى ولكم[1] » . وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أعماق نفوس القدرية الذين كانوا فى مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة وهم الذين كان يزيد يتودد إليهم أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٧ و١٨٧٤ و١٨٩١ س ١٢) . ولما انتهى يزيد من خطبته قام قيس بن هانئ العبسى ، وكان رجلاً صالحاً غوغائياً (ديماجوجيا) ، فأثنى على يزيد ثناء ممقوتاً ، لأنه قال : « يا أمير المؤمنين ! اتق الله ودُمْ على ما أنتَ عليه ، فما قام مقامك أحدٌ من أهل بيتك ، وإن قالوا : عمر بن عبد العزيز !

---

(١) [خطبة يزيد عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٤ — ١٨٣٥ . وقد آثرنا اتباع نص الخطبة فى النقط التى اختارها منها المؤلف — المترجم] .

فأنت أخذتها بحبل صالح ، وإن عمر أخذها بحبل سوء »[1] . وقد رأى مروان ابن محمد أن هذا المتملق قد ذم جميع الأمويين وذم عمر بن عبد العزيز معهم « ولما ولى مروان بعث إليه رجلاً فقتله . وإذا كان يزيد قد وعد بدفع الأعطيات في كل سنة والأرزاق في كل شهر فإن ذلك وعدٌ لم يتحقق أكثر مما يتحقق مثله في تركيا[2] ، ذلك أنه نقص الناس الزيادة التي كان الوليد بن يزيد قد زادهم إياها في أعطياتهم ، فسُمّي لذلك : يزيد الناقص ، أو ὁ λειψός[3] ،

وقد اعتمد يزيد على أهل اليمن وخصوصاً كلباً ، اعتماداً ظاهراً . فلم يكن يُرى أحدٌ من قيس يغشاه أو يقف ببابه (الطبرى جـ ٢ ص ١٨٣٧) ؛ وعيّن على العراق منصور بن جمهور الكلبي ، وكان « أعرابياً جافياً » متهوراً ، ولم يكن من أهل الدين » فذهب منصور إلى العراق في اليوم الذى قتل فيه الوليد بن يزيد . وقد تعرض له خمسمائة من كلب وأرادوا أن يأخذوا عليه الطريق . ولكنهم لم يُهايجوه ، فانتزع سلاحهم منهم وأدخلهم الكوفة ؛ هذا مع أنه لم يكن معه سوى ثلاثين من رجاله ، وفي رواية أخرى أنه كان معه سبعة نفر[4] . ولم يجد يوسف بن عمر من يؤيده بين جند الشام في الحيرة والكوفة ، ولم يكن من الممكن، في ذلك الوقت، الاعتماد على المقاتلة من أهل العراق . وأخفق يوسف في محاولته أن يفرّق ما بين قيس وكلب ، فجعل يعمد إلى من بحضرته من اليمانية

---

(١) [راجعنا هنا ما جاء في الطبرى جـ ٢ ص ١٨٣٥ — ١٨٣٦ ، غير متقيدين بما يقوله المؤلف مما هو استنتاج من خطبة قيس بن هانئ العبسى القصيرة جداً على كل حال — المترجم] .

(٢) [ظهر كتاب المؤلف في سنة ١٩٠٢ — المترجم] .

(٣) [هذه الكلمة اليونانية معناها : المنقص » ، ولا شك أنها جاءت في كتاب تيوفانيس الذى يعتمد عليه المؤلف في بعض الأحيان ، على أن في تسمية يزيد بالناقص أكثر من وجه (الطبرى جـ ٢ ص ١٨٢٥ ، ١٨٧٤) — المترجم] .

(٤) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٨٣٦ — ١٨٤١ — المترجم] .

فيلقيهم فى السجون ، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المُضَرِيَّة ، فيقول له : « ما عندك إن اضطرب حبلٌ أو انفتق فتقٌ » ، فيقول : « أنا رجلٌ من أهل الشام ، أبايع من بايعوا وأفعل ما فعلوا »[1] ، ذلك أن جند الشام لم يكن لهم إمامٌ بعد مقتل الوليد بن يزيد ، فلم يكونوا يعرفون الخليفة الذى عليهم أن يقاتلوا من أجله . وتردد يوسف بين العناد والتحدّى، وبين الشجاعة والخور ، فكان أحياناً يتعالى كأنما يقف على أطراف أصابع قدميه ، وأحياناً أخرى ينكمش فى نفسه . وكان لا محالة واقعاً فى يد منصور بن جمهور ، وكان منصور يريد أخذه ، لولا أن سليمان بن سليم الكلبى أنقذه بأن استحثّه على الفرار وسهّله عليه ، فخرج يوسف إلى البلقاء ، من أعمال شرق الأردن ، وهناك اختبأ . ولكن اختباءه لم يَطُل ، فقد وجّه يزيدُ بن الوليد محمدَ بن سعيد الكلبى ، أحد قواده ، للتفتيش عنه فى البلقاء ، فأخرجه من بين أهله ونسائه وبناته ، وكان قد لبس ملابس النساء . ثم أخذه فزجّ به فى سجن الخضراء . وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس لحيَةً ، حتى كانت لحيته تجوز سُرَّته ، وكان من أصغرهم قامة ، فأضحك الناس لما بدا عليه من حمق وخوف لا معنى له ؛ والطول لحيته التى أغرت الحرسَ ، فأخذ أحدهم بها وهزها ونتف بعضها[2] .

ودخل منصور بن جمهور الحيرة والكوفة فى أوائل رجب سنة ١٢٦ هـ (آخر أبريل سنة ٧٤٤ م) ، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق ، وأطلق من كان ألقى بهم يوسف بن عمر فى السجون من العمال وأهل الخراج[3] . واستولى عماله على واسط والبصرة دون مقاومة ، ولكنه لم يبق طويلاً على

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧ — ١٨٣٨ — المترجم] .

(٢) يجد القارئ خبر عزل يوسف بن عمر وما أصابه عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٦ — ١٨٤٣ مثلا — المترجم] .

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ — ١٨٥٥ ، على الولاء — المترجم] .

إمرة العراق ، فعزله يزيد فى رمضان أو شوال سنة ١٢٦ هـ (يوليه سنة ٧٤٤ م) وعيّن مكانه عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز . وكان يزيد يعتقد أنه بذلك يُرْضِى أهل العراق ، لأن عبد الله كان شبيهاً بأبيه ، ولأن أهل العراق كانوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز[1] .

وقد اعترفت ولايتا سجستان والسند بالخليفة الجديد ، وعيّن هو عليهم والياً من كلب . وقد خضعت له مصر أيضاً ، فيما يقوله تيوفانيس . ولكن ليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخ الإسبانى الذى كتب كتاب الصلة لتاريخ إزيدور إذ يقول : Omnes suae patriae (eum) ocius recognoscunt (= وقد بايعه كل أهل بلاده) ، ذلك أن نصر بن سيار فى خراسان ومروان بن محمد فى أمينية والجزيرة لم يشعرا أنهما عمال للخليفة الجديد ، واتخذا موقف ترقّب[2] . ولم يطل انتظارهما ، لأن يزيد مات فى يوم الجمعة ١٢ من ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٤٤ م) ، وكان ذلك بعد أن تولى الخلافة بمائة واثنين وستين يوماً[3] . وكان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم . ويقول المؤرخون إن القدرية لم تزل تحثّه على البيعة لمن يخلفه وتقول له إنه لا يحل له أن يهمل أمر الأمة ، حتى بايع لأخيه ولمن يأتى بعد أخيه[4] . وعلى هذا فلم يكن تأثير القدرية على يزيد تأثيراً دينياً فحسب :

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ — ١٨٥٥ ، على الولاء — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى مثلا ج ٢ ص ١٨٤٥ ، ١٨٧٦ — المترجم] .

(٣) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبى [وفى الطبرى (ج ٢ ص ١٧٨٣ — ١٨٧٤) أنه توفى سلخ ذى الحجة فى رواية ، ولعشر بقين منه فى رواية أخرى ، وبعد الأضحى فى رواية ثالثة ، وأن مدة خلافته خمسة أشهر وليلتين أو خمسة أشهر واثنى عشر يوما أو ستة أشهر وأياماً — المترجم] .

(٤) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٩ — المترجم] .

الفصل السابع

مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة

١ – كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التى آذنت بسقوط أسرة بنى أمية . وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحاراً سياسياً . وكان عهد الإيمان بحقها الشرعى فى الملك وبقداسة خلافتها قد ولّى ، حتى فى الشام ، ذلك أن بلاد الشام نفسها ، وكانت حجر الزاوية فى النظام الذى كان قائماً ، قد لفّتها دوّامةُ الثورة ، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم فى الشام أيضاً . أما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين أخلص أولياء الدولة ، وكانوا هم الجيش الذى تعتدّ به الحكومة كما تعتدّ القبيلة برجالها ، فإنهم أيضاً خرجوا على الولاء لها وانزلقوا إلى الثورة على الخليفة ، بعد أن كانوا يؤمنون بحقه الشرعى[1] . ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه مقدار ما كان لتزعزع سلطان الدولة فى القلب من تأثير على الأطراف ؛ فأخذت تنحلّ فى كل مكان تلك العرى التى كانت تمسكها القوةُ المركزية ، وقامت أنواعٌ مختلفة من التمرد والعصيان فى كل مكان . وفى وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمّعات لا تلبث أن تزول . فكانت مختلف العناصر الهائجة تتجمع حول نقطة واحدة ، ثم تتفرق بعد ذلك وتدخل فى تنظيمات أخرى ، وكانت تلك الفترة أنسب ما يكون للمغامرين والمتغلّبين : وكان الواحد منهم تصبح له فى أقصر وقت قوةٌ كبيرة ، ثم كان يختفى من جديد من غير أن يترك أى أثر .

---

(١) راجع مثلا ما قاله مروان بن محمد عما كان من أهل الشام من وفاء وطاعة ، ثم من شكث وانتقاض – الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٠ – المترجم] .

وقد ظهر على المسرح رجلٌ لم يولد على فراش أبيه(١) ، وهو مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم ، من فرع جانبي فى الأسرة الحاكمة ، ليحارب أبناء عبد الملك ، وخصوصاً أبناء الوليد وهشام ابنى عبد الملك الذين كانوا يحملون الوزر فى مقتل الوليد بن يزيد وكانوا هم الذين استفادوا منه . وكان مروان إذذاك بين الخمسين والستين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ٩٤٠) ، وكان يلقب على سبيل الاستهزاء : بالحمار ، لأنه كان يحب أكل الفاونيا (Päonie) ، وهى تسمى وردة الحمار(٢) . . وكان أبوه محمد ، أحد أخوة عبد الملك ، أميراً على أرض الجزيرة وأرمينية سنين كثيرة ، وكان وهو فى هذا المنصب يقود الحرب مع الروم ، ثم حلّ محله مسلمة ابن عبد الملك وغيره . وفى سنة ١١٥ هـ ارتفع نجم مروان من جديد ، وأسندت إليه على الأقل أرمينية وآذربيجان ، وكان هذا المنصب يتطلب جندياً ، وقد كان مروان عند حسن الظن به ، فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعاً لا يلين ، وأن يقوم بغزوات موفقة فى أرض الترك ، وكان هذا المنصب الذى لبث فيه اثنى عشر عاماً بمثابة مدرسة حربية له . وكان نظام الجيوش فى ذلك العصر قد أخذ يتغير شيئاً فشيئاً ، وأخذت الجيوش تنظم تنظيماً فنياً . ذلك أن نظام المقاتلة القديم أخذ يبدو نظاماً غير صالح للغزوات الطويلة الشاقة البعيدة ، كما أخذ يتجلى أن هؤلاء المقاتلة لا يصلحون لتحقيق غايات بعيدة عن نفوسهم ، فزُحزحوا عن مكانهم وحل محلهم جندُ الدولة من أهل الشام . وكانت الأعطيات المستمرة التى تُعطى لكل عربى قادر على القتال قليلة الجدوى فى الأغراض العسكرية ، وكان الحاكم إذا أراد رجالاً يخضعون للنظام ويسيرون

---

(١) أنساب الأشراف ص ٢٦ .

(٢) هذا ما يقوله مؤرخو الشام ، أما ا . مولر (A. Müller, I, 453) فهو يفسر هذه التسمية من عنده على أنها مدح . وهو يشير فى ذلك إلى ما يقوله إلياس (II, 658) . ويسمى مروان أيضاً بالجعدى ، ولا أعرف سبب هذه التسمية — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩١٢ [كان يسمى بالجعدى لأنه تتلمذ على الجعد بن درهم — المترجم] .

أينما وجههم ، لا بد له أن يجتذبهم بالمال . فمثلاً دفع يزيد بن معاوية إلى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من كان مستعداً أن يذهب فى الجيش الذى وجّهه إلى المدينة ، وعرض يزيد بن الوليد على من يتقدم لمحاربة الوليد بن يزيد ألنى درهم ، وأعطى الوليد بن يزيد للمدافعين عنه كلاً منهم خمسماية درهم ، وأُعْطِيَ كل من خرج من أهل الشام لمحاربة الخوارج فى اليمن فى سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) مائة دينار وفرس وحيوان للحمل ، بل يحكى أن الضحاك بن قيس ، وهو أحد الخوارج ، إنما حصل على أتباع له بأن كان يعطيهم أرزاقاً كبيرة (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٣٩) . أما الآن فقد بدأت تحل محل القبائل التى كانت تؤلف فرق الجيش فى النظام القديم فرقٌ بالمعنى الحقيقى لتكون صلب الجيش ، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل ؛ وكانت كل فرقة تحمل أحياناً اسم قائدها كالوضّاحية والذكوانية نسبة إلى عمر بن الوضّاح ومسلم بن ذكوان . وقد سار مع هذا التنظيم جنباً إلى جنب تَقَدُّمٌ فى الخطط العسكرية ، ذلك أنه فيما سبق من الزمان كان الجند يحاربون صفوفاً طويلة طبقاً للعادة العربية وللنظام الذى صار سنّة بعد أن وضعه النبى عليه السلام . وبين الصفّيْن المتقاتلين كانت تقع المبارزات الفردية ، وكانت نتيجة هذه المبارزات فى كثير من الأحيان هى التى تعيّن مصير المعركة : إما بالتقدم من الجانبين وإما بالفرار . أما الآن فقد انحل نظام الصفوف القديم ، بعد أن تجلى ما فيه من ضعف وحل محله نظام الكراديس ، أعنى الوحدات الصغيرة التى كانت أكثر تماسكاً فيما بينها وكانت أسرع حركة . وينسب إلى مروان بن محمد إنشاء نظام الكراديس هذا . وهو وإن كان يجوز أن بداياته ترجع إلى ما قبل ذلك فإن مروان هو الذى نَفَّذَه[1] . وإذا كان مروان يعتبر هو واضع هذا النظام فى ذلك ما يدله على مقدار كبر شهرته .

(١) [راجع مثلا الطبرى جـ ٢ ص ١٩٤١ ، ١٩٤٤ — المترجم] .

ولكن مروان كان إلى جانب ذلك عليا بألاعيب السياسة ودسائسها ، فكانت له علاقات بجميع الجهات ، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط فى كل مكان(١) . فلما صارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بعث بهنئه من كل قلبه ويستبشر بعهده . ومع أن هشام بن عبد الملك هو الذى كان قد عين مروان بن محمد فى منصبه فإن مروان فى كتابه انتقد هشاماً وما كان منه من تصغير بالوليد ومحاولة تنحيته ، وذلك فى كتاب مملوء بالجد ، بعث به مروان إلى الوليد(٢) . ولكن مروان فى الحقيقة كان يرى فى الوليد غير ذلك وفعل غير ما قاله له (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣ يا) . ومهما يكن من شيء فإن قتل الوليد بن يزيد جاء ملائماً لأغراضه ، فقد استطاع أن ينهض للثأر من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستنداً إلى اعتبارات وجيهة . فلم يكد يسمع بقتل الوليد حتى أعلن العصيان على يزيد بن الوليد ، فخرج من أرمينية متجهاً إلى الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قد وثب على حران ومدائن الجزيرة فاستولى عليها (الطبرى ج ٢ ص ٨٧٠) ، لأن واليها من قبل الوليد ، وهو عبدة بن رباح الغسانى ، خرج منها إلى الشام لما بلغه قتل الوليد ، ولكنه لم يكد يسير حتى وثب فى ظهره اليمانيون من جند الشام تحت إمرة ثابت بن نعيم الجذامى . وكان مروان قد ترك هؤلاء اليمانيين فى أرمينية على أبواب القوقاز لكى يصدّوا هجمات الترك ، وخصوصاً أنه لم يكن يطمئن إليهم كل الاطمئنان . فاضطر إلى القفول راجعاً ، وقبل أن تبدأ المعركة أمر مناديا أن ينادىَ فيسألهم عن سبب انشقاقهم عليه وعما ينقمون منه مع حسن سيرته فيهم وولايته عليهم ، فأجابوه : « إنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا ، وقد قُتِل خليفتُنا وبايع أهلُ الشام يزيدَ بن الوليد ، فرضينا بولاية ثابت ورأسناه ليسير بنا على

---

(١) [راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣ : كان يقول ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبرونى بذات أنفسهم — المترجم] .

(٢) [تجد هذا الكتاب عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ — المترجم] .

ألويتنا حتى نرد على أجنادنا » . ولكن مروان أمر مناديه أن ينادى فيهم : وقد كذبتم ، وإنما أردتم أن تركبوا رءوسكم ، فتغصبوا من مررتم به من أهل الذمة أموالهم وأطعمتهم وأعلافهم ، وما بينى وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إلىّ فأسير بكم حتى أوردكم الفرات ، ثم أخلى عن كل قائد وجنده ، فتلحقون بأجنادكم » ، فلما رأوا منه الجد ، انقادوا إليه وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده الأربعة ، فوضع السلاسل فى أرجلهم . وأعطى مروان جند الشام ما أرادوا من العودة إلى بلادهم ، فأخذهم معه وضبطهم عن الاعتداء والظلم . وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة يكوّنون نواة جيشه . حتى إذا ورد حرّان خلّى سبيل جند الشام . أما هو فقد بقى فى حرّان ، ووجد أن من الحكمة أن يبايع يزيد بن الوليد ، وخصوصاً أن يزيد كاتبه على أن يبايعه ويتولى فى مقابل ذلك جميع البلاد التى كان أبوه محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك ، وهى الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان .

ولكن يزيد بن الوليد مات بعد أن تولى الخلافة بستة أشهر ، وكان قد عقد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد خلفاً له ، فلم يتم له أمْرُه ولم يبايع له إلا أهلُ جنوب الشام[1] . فعاد مروان إلى خطته القديمة على الفور . وعبر الفرات إلى الشام وانضمت إليه قيس قنسرين تحت قيادة يزيد[2] بن عمر بن هبيرة ، كما انحاز إليه عرب حمص[3] . ولم يجد مقاومة إلا فى عين الجر عند نهر فى سلسلة جبال

---

(١) [يقول الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٥ : « وكان يسلّم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة ... وكانت ولايته سبعين ليلة » — المترجم] .

(٢) يقول المؤلف : يوسف بن عمر . . . وهذا خلاف لما فى الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٦ — المترجم] .

(٣) ويجب بطبيعة الحال تصحيح كلمة Edesa التى وردت عند تيوفانيس فى أخبار سنة ٦٢٣٥ ، بحيث تصبح Emesa ، أى حمص .

لبنان الشرقية (Antilibanus) ، حيث يلتقى بنهر الليطانى (Lita) ، وهناك كان جيش جنوب الشام يقوده سليمان بن الخليفة هشام[1] ، وكان سليمان ابن هشام هذا قد قضى كل صباه فى حرب الروم ، وكان أحب شىء إليه أن يكون فى ميدان القتال على رأس جنوده ، وكان الذكوانية هم الحرس الذى يحميه[2] ، ولكنه لم يكن كفوءاً لمروان ، فاشتبك معه عند ذلك الحين لأول مرة ، ثم اشتبك معه بعد ذلك مرات كثيرة ، فهزم سليمان وفر راجعاً إلى دمشق ، وتفرق جيشه الكبير . ولكن مروان بعد أن انتصر اصطنع العفو والموادة ، فلم يقتل سوى اثنين من كلب وقعا فى يده ، وكان لهما ضلع فى مقتل الوليد بن يزيد . أما بقية الأسرى فقد خلى عنهم بعد أن قوى كل واحد منهم بدينار وألحقهم بأهليهم ، ولكن بعد أن أخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابنى الوليد بن يزيد ، وكانا عند ذلك محبوسين فى دمشق ، وكان من حكمة مروان أنه لم يخرج مطالباً بحق لنفسه ، بل أظهر أنه المدافع عن حق ورثة الوليد بن يزيد . وقد دفع ابنا الوليد حياتهما ثمناً لذلك ، لأنهما كانا فى يد الأعداء ، فلما وصل سليمان بن هشام منهزماً إلى دمشق اجتمع إليه وإلى إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج رءوس من معهم ، مثال يزيد بن خالد القسرى والأصبغ بن ذوالة الكلبى ، فقال بعضهم لبعض : « إن بقى الغلامان ، ابنا الوليد ، حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما ، لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما ، والرأى أن نقتلهما ! » ، فولّوا ذلك يزيد بن خالد القسرى ، فأرسل يزيد مولى لأبيه فى عدة من أصحابه فدخل السجن وشدخ الغلامين بالعمد ، وقتل يزيد يوسف

---

(١) ويصف تيوفانيس ذلك الموضع ؛ وهو يسميه Garis ويترجم كلمة Sita كما لو كان معناها : الملعون ؛ أما فى السريانية فالموضع يسمى En Gara ، قارن DMZ. ، ١٨٩٧ ص ٥٨١ وعين الجر تقع على الطريق بين بعلبك ودمشق (الطبرى ج ٣ ص ٤٨) .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٩٢ س ١٢ — المترجم] .

ابن عمر ، وكان فى نفس السجن . أما أبو محمد السفيانى فإنه تحصَّن فى بيت من بيوت السجن ولم يمكن أخذُه ، حتى دخلت خيلُ مروان بن محمد دمشق . وقبل أن يصل مروان كان سليمان قد استطاع فى الوقت المناسب أن ينهب ما كان فى بيت المال ويقسمه فيمن كان معه من الجنود ويخرج من المدينة[1] ، وذهب مع إبراهيم بن الوليد إلى تَدْمُر ، مقر قبيلة كلب .

وبعد أن أسعدت الأقدار مروان بن محمد بإزالة ابنَى الوليد بن يزيد من طريقه أخذ البيعةَ لنفسه فى دمشق يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ ديسمبر سنة ٧٤٤ م[2] . وكان أبو محمد السفيانى أول من بايعه . وزعم أن الحَكَم وعثمان ابنى الوليد ، وهما يعالجان الموت ، قد أوصيا بأن يكون مروان هو الخليفة بعدهما ، وأنشد أبو محمد السفيانى قصيدةً للحكم ابن الوليد ، قالها وهو فى السجن ، يستغيث فيها بمروان ويصف يزيد بن الوليد بأنه : « الناقص القدرى » الذى أشعل نار الحرب ؛ وهى تنتهى بهذه الأبيات :

أَتُنْكَثُ بيعتى من أجل أمى ... فقد بايعتمُ قبلى هجينا

فليتَ خُؤولتى من غير كلب ... فكنا من ولاة آخرينا

فإنْ أهلِك أنا وولى عهدى ... فمروان أمير المؤمنينا

وهكذا يشكو الحَكَم[3] من أنه ينتسب من جهة أمه إلى قبيلة كلب البغيضة ومن أنه قد فقد حقه فى الخلافة لهذا السبب . ويزعم تيوفانيس أن

---

(١) [راجع فى هذا مثلا الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٦ — ٧٨٧٩ — المترجم] .

(٢) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبى ، غير أنه يجب تصحيح يوم الثلاثاء الذى يذكره بحيث يكون يوم الاثنين ، وذلك طبقاً لما جاء فى كتاب التنبيه للمسعودى ص ٣٢٥ ، وإن كان التاريخ الذى يذكره المسعودى غير صحيح .

(٣) [ظن المؤلف خطأ أن الشاكى هو أبو محمد السفيانى — المترجم] .

مروان ، بعد أن دخل دمشق ، قتل كثيراً من أشراف الناس وممن كان لم ضلع فى مقتل الوليد وابنيه الحكم وعثمان ، وأنه قطع أيدى قوم آخرين وأرجلهم ، ولكن الأغلب أن هذا ليس صحيحاً . ومن الجائز أن يكون مروان قد أخذ بعض من لهم ضلعٌ حقيقى فى مقتل الوليد بن يزيد بجريرتهم ، إن كانوا قد وقعوا فى يده . ويظهر أيضاً أن مروان قد اشتد مع الثائرين من أهل الدين ، فهو قد قتل قيس بن هانئ العبسى الذى تكلم عند بيعة يزيد بن الوليد كلاماً جاوز فيه الحدود وآذى به بنى أمية جميعاً ، كما أن مروان تعقب القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليه[1] . ولكن الروايات العربية تقول إنه دخل دمشق فى المرة الأولى دون قتال ، وإنه لم يظهر بمظهر المنتقم . وإذا كان موالى الوليد بن يزيد قد ثاروا إلى عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك فقتلوه ، وإلى قبر يزيد بن الوليد فنبشوه وصلبوه ، فإن ذلك لم يحدث بأمر من مروان ، بل يحكى أن مروان سمح للعرب فى الأقسام الأربعة الكبرى التى كانت تتألف منها الشام[2] بأن يختاروا بأنفسهم من يحبّون أن يولوه على أجنادهم ، وهو لم يمانع ، عملاً منه بالمبدأ الذى سار عليه ، فى أن يكون ثابت بن نعيم الجذامى والياً على أجناد فلسطين ، مع أن ثابتاً كان هو الذى تزعم حركة العصيان التى قام بها جند الشام فى أرمينية ، خروجاً منهم على طاعة مروان . وقد أراد مروان بذلك كله أن يبعث الثقة فى النفوس وأن يهدئ الخواطر ، حتى إذا أتم عمله واستوت له الشام وعاد إلى منزله من حرّان، طلب الأمان منه خَصْماه الكبيران : سليمان بن هشام والخليفة إبراهيم بن الوليد ، فآمنهما

---

(١) يصف تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٤١) مروان بأنه جبرى (Fatalist) ، وذلك لإنكاره القول بالاختيار ، والحقيقة أن مروان لم يكن بطبيعة الحال يراعى اعتبارات اعتقادية ، بل اعتبارات سياسية .

(٢) هى فلسطين والأردن ودمشق وحمص . أما قنسرين ، فنظراً لأنها كانت لقيس فهى لاحقة بأرض الجزيرة وكانت تعتبر منفصلة عن الشام .

مصطنعاً العفو والفضل . وقد قدما عليه فى حرّان وصارا فى عسكره ، وكان يكرمهما ويدنيهما ، وكان يسيران معه فى موكبه(١) .

وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالاً لكلب وقضاعة ، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه ، وهو أيضاً اتخذ مقر إقامته بين قيس ، فى حرّان بأرض الجزيرة ، وهناك كان يقيم أبوه ، وكان هناك نما هو وترعرع ، وهناك كان يشعر أنه فى وطنه(٢) . ويقول صاحب كتاب التنبيه إن جميع من ملك قبله من بنى أمية كانوا ينزلون دمشق ، وأن منهم من كان يتبدّى(٣) . ومهما يكن من شىء فإن بعض خلفاء بنى أمية ، وإن كانوا قد آثروا الإقامة بعيداً عن دمشق ، فإنهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ، ولم يكن مقصدهم أن يُجرّدوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة . أما مروان فيظهر أنه كان فى الحقيقة يقصد ذلك . فقد نقل مقر حكومته إلى حران ، ونقل إليها — كما يقول تيوفانيس — كل الأشياء والخزائن التى كانت فى دمشق ، وقد جرّ هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحسّ الشام كلّه — عدا الأجزاء الشمالية — أنه أيضاً قد انتُزعَتْ منه السيادة . وقد أخذت الخلافاتُ بين الأحزاب تختفى وسط هذا الشعور شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناس يشتاقون إلى عودة العهد السابق . وإلى جانب ذلك لم يكن من اليسير بطبيعة الحال القضاءُ على ما كان هناك من ميل إلى البيت الشرعى الذى أُزيل عن العرش وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد وتحويلُ هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام ، أمّه أمُّ ولد .

(١) [راجع فى هذه الحوادث الطبرى مثلا (جـ ٢ ص ١٨٩٠ — ١٨٩٢) — المترجم].

(٢) ويفسر تيوفانيس ميل مروان إلى مذهب الجبرية بأنه كانت له علاقة وثيقة بالآراميين الذين بقوا فى حران على وثنيتهم .

(٣) [راجع كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٢٥ من طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ — المترجم].

ولم ينقض عام ١٢٧ هـ حتى انتقض الشام على مروان[1] . ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين ، لأن ثابت بن نعيم الجذامي كان هو روح الثورة ؛ ولكنها امتدت إلى جميع الجهات ووصلت حتى إلى مدينة حمص التي كانت حتى ذلك الحين في جانب الوليد بن يزيد وجانب مروان . وفي الثاني من شوال سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ يوليه سنة ٧٤٥ م[2] ، ظهر مروان أمام حمص ، فذهبت عن أهلها شجاعتُهم وسمحوا له أن يدخل المدينة ، وغدروا بألف فارس من كلب كانوا قد جاءوا من تدمر مسرعين إلى نجدتهم[3] . وعند ذلك أرسل مروان جيشاً كبيراً إلى دمشق لكي يفكّ الحصار الذي ضربه عليها عرب الغوطة تحت قيادة يزيد بن خالد القسري ، فشتت شمل المحاصرين وقُتِل يزيد ابن خالد القسري ، وأحرقت المزّة التي كانت عشاً لرجال كلب . وبعد ذلك اتجه الجيش إلى مدينة طبرية قصبة الأردن ، فطرد ثابت بن نعيم الذي كان يحاصرها ،

---

(١) يذكر الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ١٧٤٢) سنة ١٢٨ هـ . بل يذكر إلياس النصيبي سنة ١٢٩ هـ . وأنا أتابع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) كما أتابع الرواية الأساسية عند الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٠ فما بعدها) . وستتبين أسباب ذلك في أثناء كلامنا التالي ، وكان من الممكن الخلط في التواريخ لأن مروان حاصر حمص مرتين : في سنة ١٢٧ ، ١٢٨ هـ .

(٢) بعد عيد الفطر بيومين سنة ١٢٧ هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٨٩٣) .

(٣) يقول تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) إن مروان صلب مائة وعشرين من كلب (Χάλβενοι) . أما الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٣ — ١٨٩٤) فهو يقول إن مروان صلب القتلى حول المدينة . وكان العباس بن الوليد يقيم في حمص . وفي سنة ١٢٦ هـ كان أهل حمص قد هدموا داره لأنه انحاز إلى جانب أعداء الوليد بن يزيد . ولكن يظهر أنه قد صار له من جديد تأثير على أهل حمص ، وأنه غير اتجاههم السياسي وأثارهم على مروان ، لأن مروان بعد أن استولى على حمص أخذه وحبسه . وجاء زنجي فوضع رأسه في كيس من الجير كان قد جيء به للطبخ . وقد فرح لذلك النصارى ، لأن العباس ، وكان مسلماً متحمساً ، قد أغضبهم على نفسه . وكان النصارى في ذلك الوقت لا يزالون كثيرين في حمص ، ويجوز أنهم قاموا بنصيبهم في تسليم المدينة إلى مروان الذي كان بعيداً عن التعصب الديني — راجع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) ؛ والمعلومات الدقيقة التي يذكرها هذا المؤرخ أجدر بالتقديم على ما جاء في الطبري (جـ ٣ ص ٤٣) من رواية موجزة .

ثم هزم ثابت مرة أخرى فى فلسطين وأسر آخر الأمر[1] ، فأمر مروان بثابت وبنيه فقطعت أيديهم وأرجلهم ، ثم حملوا إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها ، ثم قتلوا وصلبوا على أبواب دمشق . وأخيراً جاء دور مدينة تدمر ، المقر الأساسى لكلب ، وكانت هى المدينة الوحيدة التى لا تزال ثائرة . وقد توجه إليها مروان بنفسه ، ولكن الأبرش بن الوليد استأذن مروان فى استعمال السياسة وطريق المفاوضة والتخويف ، فأفلح فى تفادى الحرب ووصل إلى إقناع أهل تدمر بمبايعة مروان . وشخص كبارُ أهل المدينة أمام مروان ، ولم يهرب إلا أفراد قليلون خافوا على أنفسهم منه ، ففروا إلى برية كلب[2] .

وأخذ مروان البيعة لابنيه : عبد الله وعبيد الله ، فى دمشق ، وزوّجهما ابنتى هشام بن عبد الملك ، وجمع للاحتفال بالزواج جميع بنى أمية ، وكان هذا الزواج بمثابة حفلة رسمية للدولة . وكان مروان يعتقد فى ذلك الوقت أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بنى أمية وأن يضمها إلى جانبه ، ثم دعا أهل الشام إلى الخروج فى الحملة التى كان ينوى القيام بها على العراق ، ولم تكن العراق قد خضعت له بعد ، فتقدموا ، وأخذ منهم عشرة آلاف رجل ، وجهزهم بالسلاح والخيل ، وأمرهم أن يلحقوا بالجيش الآخر الذى كان يتألف من عشرين ألف رجل من أهل الجزيرة وأهل قنسرين ، وكان يسير تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة مع الفرات أول سنة ١٢٨ هـ (ربيع سنة ٧٤٥ م) . فلما مر جيش العشرة آلاف رجل بالرصافة ، أقبلوا على سليمان بن هشام — وكان قد استأذن مروان ، وهو عائد معه من تدمر ، فى أن يقيم فى الرصافة أياماً حتى يجم هو

---

(١) بحسب رواية الواقدى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٢) كان ذلك فى شوال سنة ١٢٨ هـ ، ويتجلى من تسميته بالاسم القديم : ابن الجلاس ، أن نعيم بن ثابت هو عين ثابت ابن نعيم .

(٢) [راجع فى هذا الطبرى مثلا (ج ٢ ص ١٨٩٢ — ١٨٩٧) — المترجم] .

ومواليه - ودعوه إلى خلع مروان ومحاربته ، وقالوا له : « أنت أرضى منه وأولى بالخلافة » . واستزله الشيطان ، فأجابهم . ومع أن مروان كان قد آمنه وأكرمه وأنه كان عنده من الأسباب ما يدعوه إلى أن يرعى عهد الولاء له ، فإن سليمان ، وهو القائد المحب للحرب الذى لا يحتمل الحياة الهادئة ، لم يستطع أن يقاوم الفتنة التى جاءت له « فخرج إلى الثوار بإخوته وولده ومواليه واستولى على قنسرين التى كانت مجردة من الجند ، وتدفق إليه أهل الشام من كل ناحية ، حتى ليروى أن سبعين ألفاً كانوا فى آخر الأمر تحت رايته . وعند ذلك أمر مروان فريقاً صغيراً من الجيش الذى كان فى طريقه إلى الكوفة بالوقوف عند دورين تحت إمرة ابن هبيرة ، وقاد هو الجزء الأكبر من الجيش راجعاً إلى الثائر الذى وثب فى ظهره ، وهاجم مروانُ سليمان فى معسكره عند قرية يقال لها خساف[1] ، غير بعيد من قنسرين ، فهزمه ، ولم يعامل العرب الذين أسرهم بشىء من العفو ، فكان لا بد لهم من الموت ، إلا من قال منهم أنه عبد مملوك ، ليُبقى على نفسه . ويذكر الطبرى أن مروان قتل ما يزيد على ثلاثين ألف أسير ، أما عند تيوفانيس فإن عدد القتلى فى جملتهم لا يتجاوز سبعة آلاف . أما سليمان بن هشام فقد انحاز مع فلول جيشه إلى حمص ، ولكنه بعد أن اقترب منه مروان فر إلى تدمر ومنها إلى الكوفة . وبقى الجيش فى حمص بقيادة أخيه سعيد بن هشام ، فحاصر مروان مدينة حمص للمرة الثانية ولم يستطع أن يجبرها على التسليم فى هذه المرة إلا بعد حصار أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً[2] ، وبعد أن نصب عليها نيفاً وثمانين

---

(١) [يقول المؤلف : الخفاف ، وهذا يخالف ما عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٦ س ١٤ و ١٩١٣ س ٢ - المترجم] .

(٢) هذا ما يقوله إلياس ، قارن أيضاً تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٧) . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٩١٢) أن الحصار دام عشرة أشهر ، ولكن لا مجال لذلك ؛ ولعل حملة سنة ١٢٨ هـ كلها لم تدم أكثر من عشرة أشهر .

منجنيقاً تقذفها بالحجارة ليلاً ونهاراً ، حتى تتابع على أهلها البلاء والذل وطلبوا الأمان . وقتل مروان قوماً من ألد أعدائه . أما سعيد بن هشام وأبناؤه فقد أسرهم وحبسهم[1] . ولا يقال متى أخذ أبا محمد السفيانى وحبسه ، ولكن أخذَهُ ثابتٌ مما جاء فى الطبرى (جـ ٣ ص ٤٣) ، وهو حادث طريف ، لأنه يدل على أن هذا الأموى أيضاً قد جرفه تيارُ الثورة التى لم تترك أحداً ، وقد هدم مروان أسوار حمص وبعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى ، إلا أنطاكية فإنه لم يهدم أسوارها ، لأن أغلب أهلها كانوا نصارى[2] . ويدل هدم مروان للأسوار على أنه قد لاقى مقاومة من هذه المدن[3] . وفى سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) كان مروان قد انتهى من إخضاع الشام ، فوقعت ممزقة تحت قدميه[4] .

٢ — وفى أثناء ذلك كان كل شىء فى شرق الدولة مضطربا وكان يزيد ابن الوليد فى رمضان أو فى شوال سنة ١٢٦ هـ قد أسند الولاية على العراق إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، وذلك مكان منصور بن جمهور الكلبى الذى ظل رغم هذا محتفظاً بمكانة لها تأثيرها فى الكوفة . أما مقر الحكومة ومقر جند الشام فقد بقى فى الحيرة ، وكانت الحيرة بمثابة مفتاح الكوفة . وإلى جانب هذا أمكن القبض على زمامها بفضل القصر الذى كان فيه صاحب الشرطة

---

(١) يقول تيوفانيس إن مروان قتل كل أقارب هشام وآله ، ولكن هذا غير صحيح (قارن بين ما جاء فى الطبرى جـ ٣ ص ٤٣ وبين ما جاء فى جـ ٢ ص ١٩١٢) . ويذكر نفس الرواية قتل السكسكى الذى كان يعتبر فارس من أهل الشام مرتين فى صورتين مختلفتين (الطبرى جـ ٢ ص ١٩١٢) . ومن الجائز أنه يجب التمييز بين معاوية السكسكى وأبى علاقة السكسكى ، والأخير منهما يسمى القضاعى ، وإن كانت سكسك إنما لحقت بقضاعة وانضمت إليها من غير أن يرجع نسبها إليها فى الحقيقة .

(٢) راجع ما يقوله تيوفانيس فى أخبار سنتى ٦٢٣٧ ، ٦٢٤١ .

(٣) ربما كان الواقدى غير مخطئ فى أنه قد جعل أسر ثابت بن نعيم وقتله حوالى هذا الوقت .

(٤) [راجع فى الحوادث المتقدمة الطبرى مثلا جـ ٢ ص ١٩٠٨ — ١٩١٣ — المترجم] .

ورجاله . وطبيعى أن يكون أهل الكوفة على غير وُدٍّ مع جند الشام الغرباء عنهم . وقد عمل عبد الله بن عمر على ما فيه استرضاؤهم ، وربما كان بعض ما قصده من التغيير المستمر للعمال وأصحاب الشرطة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٢) هو أن يحقق هذا الغرض نفسه ، ولكن كان المال هو وسيلته الكبرى فى ذلك ، فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطياتهم ، بعد أن كانت قد مُنِعت عنهم لأنهم لم يكونوا فى الحقيقة يؤدون واجبات حربية ولم يكونوا يستخدمون السلاح إلا فى الثورة . وبعد أن مات يزيد ابن الوليد وتولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد زاد عمر فى الأعطيات . وقد تذمر قواد أهل الشام من ذلك ونازعوه فيه قائلين : « تُقَسِّم على هؤلاء فَيْئَنا ، وهم عدونا ! »[1] . ولكن أهل الكوفة لم يروا فيما بدا من روح الخير عند ابن عمر إلا دليلاً على الضعف ، فلما مات يزيد بن الوليد ظنوا أن مركزه قد تزعزع إلى حد أنهم اجترءوا عليه بالثورة[2] .

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة فى ذلك الوقت رجلٌ يمكن أن يعتبر من آل بيت النبى عليه السلام ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . فهو أحد أحفاد جعفر بن أبى طالب أخى على بن أبى طالب[3] ، وكان قد وفد هو وإخوته على عبد الله بن عمر يلتمس صِلَتَه ، لكنه بقى فى الكوفة لا يريد عنها رحيلاً ، وتزوج من أسرة ذات نباهة . ونظراً لنسبه

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٤ — ١٨٥٥ لترى أيضاً كيف استطاع ابن عمر أن يتغلب على الموقف بأن أخرج جند الشام من جهة وأراد أن يكبح جماحهم بجند الكوفة من جهة أخرى — المترجم] .

(٢) [وقد جاء هذا من جانب الشيعة بنوع خاص — راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٨٣ — المترجم] .

(٣) [تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية والروايات المختلفة فى ذلك والظروف التى طمعا فيها لنفسه أو حسّن له غيره أن يفعل ذلك ، وما كان من جميع أمره عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٩ — ١٨٨٧ وص ١٩٧٦ — ١٩٨١ — المترجم] .

فقد بدا أنه أهل للخلافة(١) ، وقد أظهر استعداده للخروج من أجلها ، وكان الزيدية ، أعني الشيعة الذين كانوا قبل ذلك ببضع سنين قد ثاروا على حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن علي ، يكوّنون نواة أنصاره ، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر ، وكان بينهم كثير من الموالي ، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه ، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر في الحيرة . ولم يكن في ابن عمر شيء من التراخي ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرجه عن هدوئه شيء مهما كان . وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور عام في تيّارها ، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدي به إلى الغرض . وبينما كان يأكل ويشرب ترك لجنده من أهل الشام أن يصمدوا المهاجمين ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد فرّ أهل الكوفة عندما بدأ القتال ، وذلك في المحرم سنة ١٢٧ ﻫ (اكتوبر — نوفمبر سنة ٧٤٤ م) . ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان ، بل صمدوا في القتال أياماً في القصر وفي شوارع الكوفة ، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية ، يذهبون حيث شاءوا ، لا يمنعهم أحد(٢) .

فخرج ابن معاوية من الكوفة ، ولم يكن قد انتهى الدور الذي أراده ، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا) ، فبايعه أهلها ، وكان قد أتاه قوم من

---

(١) [قال له أهل الكوفة ، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد : أدع لنفسك ، فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان » الطبري ج ٢ ص ١٨٨٠ — المترجم] .

(٢) [يحكي المؤلف القصة كلها في اقتضاب ؛ فلابد من الرجوع إلى المواضع التي أشرت إليها في هامش سابق . أما ما يقوله عن عبد الله بن عمر فليس دقيقا تماما ؛ لأن الذي حصل هو أن ابن عمر كان رجلا سياسياً هادئاً ، فلما جاءه خبر قدوم ابن معاوية إلى الحيرة لقتاله وخادمه بين يديه ليأذن له بتقديم الطعام ، لم ينزعج ، بل أطرق ملياً يفكر ، وكأنما أراد أن يجعل فترة تناول الطعام فترة رسم الخطة ، فلما انتهى من طعامه استدعى قواده ففرق فيهم الأموال ، وخرج بنفسه مع الجند وأدار المعركة على طريقته الخاصة ، وهي كما يقول المؤلف (ص ٣٦٩ مما تقدم) تعتمد على المال كوسيلة أساسية — راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٨٥ — ١٨٨٧ مثلا — المترجم] .

أهل الكوفة . ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها ، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والرى ، وانضم إليه خصوصاً كثير من العبيد والموالى ، أى من الفرس . فاستقر أولاً فى أصبهان ، لكنه ذهب إلى أصطخر فى فارس سنة ١٢٨ ﻫ (٧٤٥ — ٧٤٦ م) ، وخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان ، لأنه بدا بحكم نسبه أهلاً للخلافة . وبايعه أيضاً آخرون من صغار الثوار الذين ظهروا فى ذلك الوقت فى تلك الناحية ، وكانوا يريدون أن يقرّهم على ما غلبوا عليه ، ومنهم محارب بن موسى وسليمان بن حبيب(١) . وجاء آخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم فى أوطانهم ، فاستتروا تحت جناحه ، طامعين فى أن ينالوا منه صلةً أو ولاية . أما التشيّع الذى ارتفع شأن ابن معاوية بسببه فقد كان عنده شيئاً ثانوياً ، وقد التفّ حوله كلُّ ألوان الناس . وهكذا قامت فجأةً فى المشرق الذى لم يكن له سيّدٌ دولةٌ شاسعة من الدول السريعة الزوال : وهذا من العلامات التى كان يتميز بها ذلك العصر .

ثم إن ابن عمر أسعده الحظ بالتخلص من عبد الله بن معاوية (فى المحرم سنة ١٢٧ ﻫ) . ولكن ابن عمر لم يعترف بخلافة مروان بن محمد (صفر سنة ١٢٧ ﻫ) ، بل هو بعد أن سقطت حكومة الأمويين فى الشام كان هو الذى يمثلها فى العراق دون أن يظهر بمظهر الخلافة ، وكان معوّله على قبائل اليمانية من أهل الشام (قضاعة وكلب) ، وهى على كل حال لم تتعلق به إلا لأنه لم يكن هناك خيرٌ منه . وكان أهل اليمن قبل ذلك بزمان طويل يؤلّفون الشطرَ الأكبر من جند الدولة ، وصاروا يكوّنون ما يشبه المستعمرة فى الكوفة والحيرة ، ولكنهم إذ ذاك برزوا أكثر من ذى قبل ، بعد أن ثقل عليهم العناء والسأم من أمر بلادهم ،

---

(١) لا شك أن هذا شخص آخر غير القاضى المسمى بالاسم نفسه والذى كان قاضياً فى الشام فى عهد الوليد وسليمان وهشام ، أبناء عبد الملك .

وبعد أن أصبحت أبوابها موصدةً دونهم . وقد شد من أزرهم مهاجرةٌ آخرون ، لم يستطيعوا ، أو هم لم يريدوا ، أن يسالموا مروان ، كما زادهم قوةً إخوةٌ وأبناءٌ لخالد القسرى وقوادٌ من كلب ، من طراز منصور بن جهور ، وآخرون من زعماء أحزاب الأقلية فى الشام ، ممن جاءوا بأهليهم معهم . وعندما يرد عند الطبرى ذكر أهل اليمن فى حروب ذلك العصر ، فإن المقصود عادة هم يمن الشام فى الكوفة .

ولم يستطع مروان فى أول الأمر أن يفعل أكثر من أن يعيّن على العراق أحد كبار رجاله ليكون والياً مُضَادًّا لعبد الله بن عمر ، وهو النضر بن سعيد الحرشى . وكان النضر قيسياً ؛ وكان أبوه قائداً وعاملا ناجحا تخرّج فى مدرسة الحجاج . وقد أفلح فى أن يضم إليه المُضَريين الذين كانوا فى جيش الشام ، ولكن أهل اليمن ، وخصوصاً كلباً — وكانوا هم الغالبية وكان منهم الأصبغ بن ذوالة القائد الكبير وأحد قتلة الوليد بن يزيد — بقوا على ولائهم لعبد الله بن عمر ، الوالى القديم . فاستطاع عبد الله أن يثبت فى الحيرة ، على حين نزل الحرشى فى دير هند . وقد لبث الواليان المتنافسان أربعة أشهر يتناوشان فيما بين الحيرة والكوفة ولكن لم يكد يحدث فى هذه المناوشات اشتباك دموى حقيقى ، ثم اضطرهما إلى الصلح خطرٌ هدّدهما معاً[1] .

وذلك أن الخوارج ظهروا على المسرح واحتلوا المكان الأول حيناً من الزمان ، وكانوا دائماً فيما قبل قليلى العدد . ولذلك كان لا بد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة . ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا أميراً كبيراً كالحجاج ، بما كلفوه بذله من جهد ، لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدّىّ بالتوصل إلى تولى الحكم ، بل كانت سياستهم « غير سياسية بتّةً » ، وكانت غايتهم أن ينجوا بأرواحهم من شرور هذه الدنيا ، لا أن يسيطروا على العالم الإسلامى ، لأنهم

(١) [راجع الطبرى مثلا ج ٢ ص ١٨٩٧ فما بعدها — المترجم] .

كانوا يتبرءون من غيرهم من المسلمين . فأما الآن فقد تضخَّمت جماعتهم الصغيرة ، فصارت جماهير كبيرة ، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدُّد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم ، وصاروا يقبلون كل من ينضمّ إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم . وهم وإن كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقالتهم فى الدين ، فإنهم لم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل فى صفوفهم . على أنهم الآن لم يكونوا فى الحقيقة يسعون إلى الجنة ، بل صاروا يطمعون فى ملك الدنيا ، وصاروا فى ميدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء ، ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل ، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا .

وقد بدأت الحركة فى أرض الجزيرة ، وهى الولاية التى كانت بمثابة وطن لمروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس فى الجنوب بل بين ربيعة فى الشمال ، وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائماً بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين ، خصوصاً عن مضر ، منافسيهم القدماء . وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون فى مضر النبوة والخلافة . وكانت شيبان بكر بنوع خاص — وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتى نهر الدجلة — هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شبيب ابن يزيد . وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ثار بينهم سعيد بن بهدل الشيبانى وبايع لنفسه خليفة على الخوارج ، وهو بعد أن تغلب على بسطام البيهسى — وكان هذا قد خرج منافساً له فى وطنه ومفارقاً لرأيه — خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمالٌ فى النجاح أكثر مما كانت تلوح فى البلاد التى كانت لمروان . ولكن سعيدا مات وهو فى الطريق ، فخلفه فى منصبه شيبانى آخر ، هو الضحاك بن قيس ، من بيت مُرَّة النابه الذى كان منه شبيب أيضاً ، فانحاز إليه الخوارج فى شهرزور وأرمينية وآذربيجان ، حتى صارت

تحت لوائه آلاف كثيرة . وتوجه معهم إلى الكوفة ، وقد تضافر عليه الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحرشي) ، ولكنهما لم يستطيعا صدّه ؛ وهُزما في رجب سنة ١٢٧ هـ (ابريل سنة ٧٤٥ م) أقبح هزيمة . وعلى أثرها أخليا الكوفة ، فأما الحرشي فإنه توجّه إلى مروان في الشام ، وأما ابن عمر فإنه لحق بواسط[1] ، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب ؛ وفي شعبان سنة ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) اتبعه الضحاك وحاصره . وقد تميز في قتال الخوارج منصورُ بن جمهور ، ولكنه كان أول من جنح إليهم[2] وقَبِلَ مقالتَهم في الدين ، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتثل لكلام الله[3] . وفي أواخر شوال سنة ١٢٧ هـ (أول أغسطس ٧٤٥ م) سلّم لهم ابن عمر أيضاً بعد شيء من التردد ، ودخل في طاعة الضحاك وصلّى خَلْفَه ، فقال أحد الشعراء في هذه البيعة :

ألم تَرَ أن الله أظهر دينَه فصلّتْ قريشٌ خَلْفَ بكرِ بن وائل

---

(١) هذا ما جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٩٩) . أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٢) فهو يقول إنهما جميعاً هربا إلى واسط وعادا هناك إلى نزاعهما السابق ، ولم يصيرا يداً واحدة إلا بعد أن ظهر الخوارج ، ولكن أبا عبيدة يقول أيضاً إن الحرشي في واسط لم يشترك في قتال الخوارج ولا في الصلح معهم . فلا بد إذن من أن يكون قد اعتق ضريناً وذهب من واسط إلى الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٣) ، وفي هذه الحالة يجوز أن يكون قد قتل عامل الكوفة من قبل الضحاك ، كما يحكى أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٣ ، ١٩١٤) . أما بحسب ما جاء في رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٩٩ فما بعدها ، ص ١٩٣٨) فإن الذى فعل ذلك هو عطية التغلبي ، وهو يشق طريقه من واسط إلى الكوفة فالشام ، في سبعين أو ثمانين من قومه .

(٢) [كان الخوارج يقاتلون كأنهم الأسد عند أشبالها ، وقد هرب جنود ابن عمر والحرشي أمام شدة بأسهم . وقد قاتلهم منصور بن جمهور أشد قتال ، حتى إذا رأى ألا أمل في قهرهم أشار على ابن عمر أن يرضيهم ويحمل بأسهم على مروان بن محمد ، فتردد ابن عمر ، فانحاز منصور إلى الخوارج وناداهم : إني جانح أريد أن أسْلِمَ وأسمع كلام الله . وكان لابد لمن يريد أن ينضم إليهم من أن يقول ذلك ، وكان ذلك امتحانهم له . وقد لحق بهم منصور وبايعهم — المترجم عن الطبرى ج ٢ ص ١٩٠١ ، ١٩٠٧ المترجم] .

(٣) كان الخوارج يعتبرون أنهم هم وحدهم المسلمون ، وكانوا يعتبرون من عداهم من جماعة المسلمين غير أهل لهذه التسمية .

والشاعر يعبر هنا عن عجبه من أن أحد الأمويين بايع خارجياً من شيبان على الإمامة ، ذلك أن الانتقال السياسى فى هذه الحالة كان فى نفس الوقت انتقالاً دينياً . والحقيقة أن هذا التغير كان عجيباً ، وفوق هذا لم يأنف ابن عمر أن يكون والياً من قبل الخوارج على كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس وفى أن يبقى فى واسط . ووقع ابن عمر وهو فى هذا المنصب فى نزاع مع عبد الله بن معاوية ، جاره من جهة المشرق .

أما الضحاك فقد رجع إلى الكوفة ، ومنها صار يحكم النصف الغربى من دولته ، ويُروى أنه بعد أن بقى بعيداً عن وطنه عشرين شهراً[1] رجع إليه فى أرض الجزيرة فى وقت كان فيه مروان مشغول اليدين تماماً فى الشام ، ولكن لا شك أن رجوعه لم يكن قبل منتصف سنة ١٢٨ هـ (ربيع ٧٤٦ م) ؛ جاء الضحاك واستولى على الموصل وأخرج منها عاملها ، وكانت قد التفّت إليه جموع كثيرة ، وخصوصاً أنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة . ويقال إن جيشه بلغ مائة وعشرين ألف رجل . وطبيعى أن هذا العدد يستند إلى تقدير شعبى . ولكن تيوفانيس يقول إن الضحاك كان له جيش هائل وكان معه مهاجرة كُلب ومغامروهم ، ويمكن أن نَعُدّ منهم سليمان بن هشام ابن عبد الملك الذى كان قد أنقذ فرقته الذكوانية من هزيمة معركة يوم خساف وانحاز فى أربعة آلاف رجل إلى الخوارج .

وبينما كان مروان يخضع الشام كان يتعرض لخطر ضياع أرض الجزيرة من

---

(١) هكذا عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٢٨) . أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٤) فيقول إن الضحاك خرج إلى الجزيرة فى ذى القعدة سنة ١٢٧ هـ (أغسطس — سبتمبر سنة ٧٤٥ م) كما يقول أيضاً إن مروان انتهى من إخماد حمص فى نفس الشهر من السنة نفسها الطبرى ج ٢ ص ١٩١٣) ، ففرغ للضحاك . والتاريخان مرتبطان ، ولكن السنة غير صحيحة فى الحالين ، أما فى التاريخ الثانى فالشهر صحيح .

يده ، وهي القاعدة التي كانت تستند قوته إليها . ولكنه لم يترك ما كان مشتغلاً به من حصار حمص ، بل اكتفى مؤقتاً بأن كلف ابنه عبد الله — وكان قد خلفه وراءه على أرض الجزيرة — بأن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط بلاد الجزيرة ، بعد أن كان مروان قد غلب على الموصل . فسار عبد الله حتى بلغ نصيبين ، ولكنه بعد قتال لم يمكنه المضي فيه لكثرة جيش الضحاك تقهقر إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك . غير أن الضحاك أخفق في محاولته الاستيلاء على الفرات عند الرقة . وكان مروان فيما بين ذلك قد استطاع أخيراً أن يقهر حمص ، ثم خرج بنفسه إلى الرقة لقتال الخوارج ، والتقى الجيشان عند كَفَرْتُوثَا ، فقُتِل في اليوم الأول للمعركة ، لأنه كان من عاداته أن ينزل الميدان ولا يبالي . وهو في مساء ذلك اليوم ترجّل في أهل الثبات من أصحابه — وأكثر جنده لا يعلمون ما كان منه — فأحدقت به خيل مروان فألحّت عليه هو وأصحابه حتى قتلتهم عند العتمة ، ولم يكن يعلم بقتله أحدٌ . ولما علم مروان أرسل في البحث عنه على ضوء النيران والشمع ، فوجدوه ، وتبين أنه كان في وجهه أكثر من عشرين ضربة ٥ وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بني شيبان اسمه الخيبري ، فعاود الهجوم من بعد غده ، وتقدم حتى اقتحم معسكر الأعداء ، ففر مروان في قلب جيشه ، ووصل الخيبري إلى حجرة مروان وجلس على فرشه . ولكن تكاثر عليه عبيدٌ من أهل العسكر ، وضربوه بعمد الخيام وقتلوه . وكان ذلك في أواخر سنة ١٢٨ هـ (الموافق حوالى سبتمبر سنة ٧٤٦ م)[١] .

---

(١) يتفق تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) مع عبد الوهاب صاحب الرواية الأساسية عند الطبري ، فهو يقول إن الضحاك ثار سنة ١٢٧ هـ في Persis ، أي في العراق ، وإنه ظهر في أرض الجزيرة سنة ١٢٨ هـ ، وأرسل إليه مروان ابنه في أول الأمر ثم خرج إليه مروان بنفسه بعد فتح حمص وقتل الثوار .

ولكن الخوارج لم يُغْلَبُوا إلا فى السنة التالية[1] ، وكان لا يزال لهم جيش فى أربعين ألف رجل ، وقد بايعوا شيبان بن عبد العزيز اليشكرى (أبا دلف) خليفةً عليهم . وأشار عليهم سليمان بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل ، ولكن الموصل كانت ما تزال بأيديهم وكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب . وكان مروان معسكراً قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة من سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ — ٧٤٧ م) من غير أن يصل إلى انتصار حاسم . ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذى كان مسرعاً من جهة الكوفة لمساعدة مروان وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين ، فتخلوا عن مركزهم فى الموصل حوالى آخر سنة ١٢٩ هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق .

وكان عامل مروان الذى انتزع العراق من يد الخوارج ، فجعل مقامهم على الدجـــلة مستحيلاً ، هو يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قيس قنسرين ، وكان أبوه فى عهد يزيد بن عبد الملك أميراً على الكوفة ؛ وكان قد خرج إلى هناك فى أوائل سنة ١٢٨ هـ ، ولكنه اضطر إلى أن يقف طويلاً على الحدود عند قرقيسيا ، ولم يستطع الهجوم إلا فى أواخر تلك السنة أو فى أوائل سنة ١٢٩ هـ ، وبعد اشتباكات كثيرة موفّقة مع المثنّى بن عمران — وكان هو من قِبل الخوارج الوالى الذى كان منصور بن جمهور يحارب تحت إمرته — أفلح فى دخول الكوفة فى رمضان سنة ١٢٩ هـ (مايو أو يونيه سنة ٧٤٧ م)[2] ، وبعد ذلك استولى

---

(١) تيوفانيس — فى أخبار سنة ٦٢٣٩ = ١٢٩ هـ .

(٢) هذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٦) ، وهو وإن يكن مؤرخاً عالماً كالواقدى فإنه فى هذه الحكاية لابد أنه كان على علم بالأمر ، لأنه كان فى ذلك الزمان يعيش فى الكوفة شيخاً كبيراً ، أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٤ فما بعدها) فهو يذكر أخباراً أخرى ، ولكنه ليس أهلا للثقة ، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريفة ويقص قصصاً ممتازاً فإنه من حيث هو مؤرخ لا تصح مقارنته بأبى مخنف .

على مدينة واسط وأسر عبد الله بن عمر . أما منصور بن جمهور فقد فرّ مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية ، وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على الدجلة قد تقهقروا هم أيضاً إلى هناك ، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حيناً ، بعد أن لم يكن له كبير شأن ، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك . فقد اجتمع إليه الشيعة والخوارج وكلب والعباسيون والأمويون . وقد بدا أن كل الفوارق فى هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقتٌ طويل حتى تفرقت هذه الفلول المختلفة التى ألفت بينها الضرورة ولم تحتمل الحياة معاً[1] .

وعاد مروان إلى مقر حكومته فى الحيرة ، وكان له أن يعطى نفسه شيئاً من الراحة[2] ، ذلك أن أهم ولايات الدولة : الجزيرة والعراق والشام ومصر ، كانت قد خضعت له ، وأيضاً كان قد تم القضاء على خوارج حضرموت الذين فتحوا صنعاء ومكة والمدينة فى جزيرة العرب ، وكان القضاء عليهم فى سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) . وقد لبث مروان فى ميدان القتال ما يقرب من ثلاث سنين : حقق فيها وهو يحارب عالَماً معادياً له ، انتصارات غير مألوفة ، وقد فاق كل من كان قبله من ملوك بنى أمية بفضل مقدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة .

وهو قد ترك محاربة الخوارج ومحاربة ابن معاوية فى المشرق لابن هبيرة ، عامله على العراق . أما الجيش الذى أرسله إليه ابن هبيرة لمساعدته فى حرب الخوارج عندما كانوا على نهر دجلة فقد كان تحت إمرة عامر بن ضبارة ، فكلفه مروان بمطاردتهم ، ففعل حتى دخل بلاد ابن معاوية . وكان معه قائد

---

(١) [راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الضحاك وخلفائه الطبرى مثلا ج ٢ ص ١٨٩٧ — ١٩٠٨ ، ١٩١٣ — ١٩١٦ ، ١٩٣٨ — ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ — ١٩٤٩ — المترجم] .

(٢) ومن المشكوك فيه أنه كان ينوى ذلك . وقد استفاد الروم من الحرب الأهلية ، فوسّعوا حدودهم نحو الشرق . وربما أن مروان كان إذ ذاك يريد أن يتحول لحاربهم . على أنه هاجم قبرس من مصر ، لكن دون أن يظفر بما أراد .

آخر من قواد ابن هبيرة هو نباتة بن حنظلة . وقد هُزم ابن معاوية وهو يحارب ابن ضبارة فى مرو الشاذان سنة ١٣٠ هـ ، فترك دولته وشأنها وفرّ من الأعداء إلى خراسان ، وهناك قتله أصحابه . أما شيبان بن عبد العزيز اليشكرى ، قائد الخوارج ، فإنه ذهب إلى الساحل الشرقى من جزيرة العرب ، وقُتِل أخيراً ، وهو يحارب بنى جلندى أمراء عمان ، وكانوا قد استوطنوها منذ زمان طويل ، وكان قتله سنة ١٣٤ هـ[1] . وأما سليمان بن هشام ومنصور ابن جمهور فقد عبرا البحر متوجهين إلى أرض السند[2] .

حتى إذا أفلح قواد ابن هبيرة فى تشتيت هذه الكتلة ، التى تألفت من مغامرين ، وكانوا على أحسن أهبة لإخضاع العرب فى فارس لسيادة مروان إخضاعاً تاماً ، انبرى لهم خصوم جدد لا قِبَلَ لهم بهم ، وهم أهل خراسان تحت اللواء الأسود لبنى العباس . وقد حاول نصر بن سيّار عامل بنى أمية على خراسان فى ثنايا سنين طويلة أن يحذرهم من الخطر الداهم ، وهو ألحّ أيضاً فى طلب المعونة لإخماد النار قبل الضرام ، فذهب سعيه سدًى . ذلك أن مروان كان عنده فى وسط الدولة من المشاغل ما يكفيه ، وكان لا يريد أكثر من أن يستطيع المحافظة على ما صار فى يده . حتى إذا كان مروان فى ذروة نجاحه برز له فجأةً ذلك الشبحُ الأسود الذى لم يكن قد فطن إليه . واستطاع أهل خراسان أن يضيعوا عليه ثمرة عمله الشاق ، وذلك فى الوقت الذى كان يبدو فيه أنه قد وصل إلى الغرض . والواقع أنه لما ظهر أبو مسلم كان أقوى من مروان .

---

(١) هكذا عند الطبرى ج ٣ ص ٧٨ ، قارن أيضاً ج ٢ ص ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، ١٩٧٩ ، أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٨) فهو يقول إن شيبان بن عبد العزيز قتل فى سجستان سنة ١٣٠ هـ . والأرجح أنه يخلط بينه وبين شيبان بن سلمة الحرورى الذى لعب فى ذلك الوقت نفسه دوراً فى خراسان وقتل بالفعل سنة ١٣٠ هـ ، لكن لا فى سجستان بل فى سرخس .

(٢) راجع نهاية أمرهما فى الأغانى (ج ٤ ص ٩٦) واليعقوبى (ج ٢ ص ٤٢٠) والطبرى (ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٠) .

الفصل الثامن

القبائل العربية فى خراسان

١ ـ كانت ثورة الفرس من أهل التشيع فى خراسان هى السبب فى السقوط النهائى لدولة بنى أمية ، لكن الذى مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث فى تاريخ خراسان ، وخصوصاً تلك العداوة المستمرة التى كانت بين قبائل العرب هناك ، وهى عداوة كانت قد بدأت فى البصرة من قبل ، وذلك أن خراسان كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف فى خراسان فإن عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التى كانت فى البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك .

وفى أول العصر الأموى ، أدى التحاسد بين القبائل فى الكوفة إلى ضروب من التوتر ، لكنه لم يؤدّ إلى انفجارات معها أعمال عنيفة ، ولم يكن التطاحن الدموى إلا بين الأحزاب السياسية . أما فى البصرة فكانت الظروف فى أول الأمر تكاد تكون شبيهة بما كانت عليه فى الجاهلية ، فكانت السخائم فى صورتها الكامنة والظاهرة تملأ نفوس القبائل ، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة . وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم ورباب ، وكان قد انضم إليها أساورة الفرس ، ودخل الزطّ والسبابجة من الهنود فى حماها ، لأنها كانت أقوى مجموعة[1] . وكان ما بين تميم وربيعة متباعداً منذ الزمن القديم ، ثم انضمت عبد القيس إلى بكر فى البصرة ، وكانت عبد القيس

(١) البلاذرى (ص ٣٧٢ فما بعدها) ، والكامل (ص ٨٢ س ١٦ فما بعده) .

قليلة العدد فى الكوفة ، وكانت الأزد هى التى تمثل قبائل اليمن ، على حين أن مذحج وهمدان وكندة — وهى القبائل العربية الأصيلة النابهة — كانت هى أكبر القبائل فى الكوفة(١) .

ولم تَقْوَ الأزدُ فى البصرة إلا من طريق هجرة جاءت متأخرةً ، فى أواخر أيام معاوية وفى أيام يزيد ابنه (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٠ والبلاذرى ص ٣٧٣) . ولم يرض الناس أن يكون لهؤلاء المهاجرين المحدثين الذين لم يشتركوا فى الفتوحات الكبرى فى عهد عمر وعثمان ما كان للقبائل القديمة من حقوق (الطبرى ج ٢ ص ٧٧٩) . وكان مجىء هؤلاء الأزد سبباً فى تغيير ما كان للقبائل حتى ذلك الحين من قوة ، بعضها بالنسبة لبعض ، وإن كان الأزد لم يبلغوا أوجَ عزِّهم إلا على يد المهلب وأبنائه . وكانت تميم تريد فى أول الأمر أن تكسب صداقة الأزد وأن تجعل منهم حليفاً لها ، ولكنها لم تَخْطُ الخطوة الأولى فى سبيل ذلك ، لأن الأحنف بن قيس حكيمها الأكبر وصاحب الكلمة النافذة ، قال لها إن من يبدأ بطلب الحلف يكون له دائماً الشأن الثانى فيه(٢) . لذلك سبقتهم ربيعةُ إلى ذلك ، فحالفوا الأزد حلفاً أكّدته العهودُ والمواثيق (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٠ ، ١٤٩٧) . ولما كانت تميم حليفةً لأهل العالية ، أعنى متحدة مع قيس ، فقد نشأ عن ذلك انقسام

---

(١) ويقابل أرباع الكوفة أخماس البصرة وخراسان وهى : ١ — بكر ، ٢ — عبد القيس ، ٣ — تميم ، ٤ — الأزد ، ٥ — أهل العالية (أهل المدينة) خصوصاً قيس — الطبرى (ج ٢ ص ٤٦١ س ٢١ ، ١٣٨٢) ، ومعنى الربع والخمس معروف ، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة : الحى أو القسم ، فى تقسيم لا يحتم أن يكون فى الحقيقة رباعياً أو خماسياً ، ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التى تسمى الأخماس طبقاً لها ، أجزاء من قبائل أصغر ، مثل لحاق كندة وطيىء بقبائل بكر فى البصرة .

(٢) [لما نزل الأزد فى البصرة قالت تميم للأحنف : بادر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة ! فقال الأحنف : إن أتوكم فاقبلوهم ، وإلا فلا تأتوهم ، فإنكم إن أتيتموهم ، صرتم لهم أتباعاً . ولما سعت ربيعة لمحالفة الأزد ، قال الأحنف فى ربيعة : أما إذ أتوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذناباً — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٠] .

إلى قسمين ، فكان هناك الأزد (اليمن) وحلفاؤهم من ربيعة فى جانب ، وكانت مضر (تميم وقيس) فى الجانب الآخر . ولكن لا يصح أن يظن الإنسان أن جميع الأزد لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالى سنة ٦٠ هـ ، بل كان هناك أزدٌ من قبل وكانوا هم وأزد الكوفة ينتمون إلى الفرع الغربى ، خصوصاً إلى دوس ، وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة ، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل العدد الجديد الذى لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير ، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقى لجزيرة العرب . وكان أزد عمان ، خلافاً لأزد الصراة ، يسمون مَزون ، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة إلى أصلهم المشترك ، فقد كان يقطن عُمَان كثيرٌ من غير العرب ، وكانوا يُنْبَزون بصناعتهم القديمة ، وهى صيد السمك ، كما كان يُنْبَز أزد غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة .

وفى سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ وَجّه معاويةُ إلى البصرة بابن الحضرمى لكى يؤلّب على علىّ ، مستعيناً بتميم . ولا بد أن يكون قد أفلح أن يضم إليه شطراً كبيراً من تميم ، لأن زياد بن أبيه ، ذلك العامل الشاب الذى كان إذ ذاك حليفاً لأمير البصرة ، طلب من بكر أن ينزلوه فى جوارهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ، فلجأ إلى أزد الصراة فوجد ركناً حصيناً لنفسه ولبيت المال عند رئيسهم صبرة بن شَيْمان الحدانى (من دوس) ؛ ولكن علياً قام بمحاولات بواسطة أوليائه من تميم لكى يصرف تميم البصرة عن ابن الحضرمى ، فقُتِل أولُ رسول كلّفه بذلك ، لكن ورسوله الثانى ، وكان جارية بن قدامة ، أصاب نجاحاً ، فتخلّت تميم عن ابن الحضرمىّ ، وحاصره جارية فى دير سنبل وأحرقه هو وأتباعه . وقد حفظت لنا الأيام أبياتاً فى ذم تميم بسبب هذا الحادث الذى ظل عارُه لاحقاً بهم زماناً طويلاً (راجع رواية المدائنى عند الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ فما بعدها) .

وكان ذلك هو مبدأ المودة بين الأزد وبين زياد وأسرته ، وكان زياد يحفظ لهم الجميل دائماً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) ، وأوصى أبناءه بأن يلجأوا إليهم ، إذا ضاقت بهم ضائقة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٠) . وكان الأزد فى أصل الأمر عنصراً محايداً أمام التنافس بين تميم وبكر ، فكانوا لذلك عنصراً من شأنه أن يكون ملائماً لاعتماد الحكومة عليه .

ولم يقع الانفجار الحقيقى فيما كان بين القبائل من سخائم إلا بعد هجرة أزد عمان إلى البصرة وإلا بعد موت يزيد بن معاوية ، وكان هذا الانفجار سبباً فى زلزلة سيادة الأمويين فى كل مكان . وأخبار ذلك مُفصَّلة تفصيلاً وافياً عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ فما بعدها) ، لكنها لا تخلو من تعقيد ، ومما يعود على الباحث بالفائدة أن يحلّ العقد ويتبين الخطوط البسيطة ، وخصوصاً أنه لا يكاد بدون ذلك أن يفهم كلمة تقال عن تلك الحوادث بما كان لها من عواقب خطيرة ولا أن يفهم كلمة عنها فهماً صحيحاً . وأكبر رواة الطبرى فى ذلك هو أبو عبيدة ، ذلك الجامع المكثر لأخبار القبائل العربية ، وروايته ، وإن لم تكن لدينا كاملة ، فإن من الممكن إكمالها بمساعدة رواية وهب بن جرير ، وهو يوافق أبا عبيدة فى الجملة والجوهر :

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٥ س ١٧ وص ٤٣٦ س ١٥)[1] : لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد الحسينَ بن على وإخوته بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية ، فسُرّ بقتلهم أولا وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده . ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان علىَّ لو احتملتُ الأذى وأنزلتُه معى فى دارى وحكّمته فيما يريد ... حفظاً لرسول الله صلعم ورعاية لحقّه وقرابته ، لعن الله ابنَ مرجانة ! ... قتله ، فبغّضنى بقتله إلى

(١) وتقابل ذلك رواية وهب — الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ س ١٢) .

المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فبغضنى البرُّ والفاجرُ . . . وكان لعبيد الله مولى ، يُقال له أيوب بن حمران ، قد جعله فى الشام رسولاً ليأتيه بأخبار يزيد ، فلما كان ذاتَ يوم جاء أيوب إلى البصرة مسرعاً ، وأبلغ عبيد الله موت يزيد واختلاف أمر الناس فى الشام . فأمر عبيد الله بدعوة الناس إلى الاجتماع فى المسجد ، فأعلن لهم النبأ ، وعرّض بثلب يزيد ، ثم تكلم عن أعماله هو فى أثناء ولايته البصرة . فقال إنه لما تولى البصرة ، كان ديوان المقاتلة (من العرب) يشتمل على سبعين ألفاً ، وكان ديوان العمال (من الموالى) يشتمل على تسعين ألفاً ؛ أما الآن بعد ولايته فقد صار ديوان المقاتلة يشتمل على ثمانين ألفاً ، وديوان العمال على مائة وخمسين ألفاً »] وقال إنه ما ترك صاحب ظِنَّة يخاف منه على أهل البصرة — وكان يقصد الخوارج خاصة — إلاّ سَجَنَهُ . ثم قال لأهل البصرة : « إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفى ، وقد اختلف أهلُ الشام ، وأنتم اليومَ أكثر الناس عدداً وأعرَضُه فِناءً وأوسعه بلاداً، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم ! فأنا أوّلُ راضٍ من رضيتموه ؛ فإن اجتمعَ أهلُ الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتُم ذلك كُنْتُم على جَدِيلتِكُمْ ، حتى تُعطَوْا حاجتَكم ؛ فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، وما يستغنى الناس عنكم ! » . وكان عبيد الله يقصد أن يرشح نفسه أميراً إلى أن يأتى أمير ، ذلك أنه بموت الخليفة انتهى واجبُ الطاعة للحكومة ، وهو واجب يلتزم بحكم البيعة لشخص الخليفة . فقام أهل البصرة خطباء ، وقالوا له : أيها الأمير ! إنّا والله لا نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهَلُمَّ نُبَايعْكَ ! فامتنع عبيد الله مراراً ، فألحوا عليه ، حتى بسط يَدَهُ وبايعوه ، ثم انصرفوا . فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفّهم بالباب والحيطان وهم يقولون : « يظنُّ ابنُ مرجانة أننا نولّيه وننقاد له فى الفُرْقَةِ ؛ كَذَبَ والله ! » ثم صاروا يأمرهم

بالأمر فلا يطيعون ويرى الرأى فيردونه عليه، ويأمر رجاله بحبس المذنب فيحولون بين رجاله وبين هذا المذنب، ولم يلبثوا أن نبذوا كل طاعة له ووثبوا عليه[1].

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٧ س ١٥): كان الذى أعطى الإشارة للثورة هو سَلَمة بن ذُؤَيب التميمى؛ فقد ظهر فى سوق الإبل على فرسه، وقد تقنّع بسلاح وفى يده لواءٌ، وهو يدعو الناس لمبايعة العائذ بمكة، يعنى عبد الله بن الزبير[2]. فعند ذلك جمع عبيدُ الله أهل البصرة فى المسجد وأنشأ يقص عليهم أولَ أمره وأمرهم ويقول إنه قد كان دعاهم إلى اختيار أمير يرتضونه: فبايعتَه معهم، وإنهم رغم ذلك أبوا إلا أن يبايعوه هو. ثم قال لهم: إنكم مسحتم أكفَّكم بالحيطان وباب الدار وقلتم ما قلتم، وإنى آمر بالأمر فلا يُنَفَّذ، ويُرَدّ علىّ رأيى، وتحول القبائل بين أعوانى وبين طَلِبَتى، ثم هذا سَلَمةُ بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم إرادةَ أن يفرّق جماعتكم ويضرب بعضُكم جِباهَ بعض بالسيف. فقال الأحنفُ بن قيس بن تميم والناس جميعاً: نحن نأتيكَ بسَلَمة، فأتوا سَلَمةَ، فإذا جَمْعُه قد كَثُفَ وإذا الفتقُ قد اتّسع على الراتق، وامتنع عليهم، فلما رأوا ذلك قعدوا عن عبيد الله بن زياد فلم يأتوه.

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ٢٠)[3]: كان عبيد الله فى

(١) استطاع عبيد الله فى أول الأمر أن يكتسب الهيبة بأن أمر عماله أن يفرقوا ما فى بيت المال فى القبائل والمقاتلة ليل نهار — وكان ذلك المال بحسب الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٩) ثمانية آلاف ألف درهم أو تسعة عشر ألف ألف (قارن ج ٢ ص ٤٤٣)، وكان للقبائل والمقاتلة الحق فى مال الفىء الذى أخذته الحكومة وجمعته بعد ما صرف منه من أعطيات، ولكنه بعد أن عصوه كف عن ذلك. ولما هرب أخذ معه ما تبقى فى بيت المال، وكانت خفائس ذلك لا تزال تتردد فى آل بيته — أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠ فما بعده).

(٢) يدعى برونوف (Brünow) من عند نفسه أن سلمة كان مبعوث ابن الزبير، كما يدعى ... مولر أنه خليصة. أما الروايات فلا تعرف عن ذلك شيئاً، فلا يصح أن يخترعه المؤرخ، ذلك أنه كان من البديهى أن تتجه أنظار المعارضين لبنى أمية إلى ابن الزبير. هذا إلى أنه ليس من شأن من يريد أن يدعو الناس إلى مبايعة خليفة أن يظهر فى السوق على فرس ومعه لواء — قارن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ١٥، ص ٤٦٥ س ٢.

(٣) تقابل ذلك رواية وهب — الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ س ٢٠.

موقف سيّئ ، حتى إنه دعا رجال الشرطة(١) ، فأرادهم أن يقاتلوا معه ، فقالوا : إن أمرّتنا قوادُنا . فقال له إخوته : والله ما من خليفة فتُقاتِل عنه ، فإن هُزِمْتَ فِئْتَ إليه وإن استمددْتَه أمدّك ! وقد علمتَ أن الحرب دُوَل ، فلا ندرى لعلها تدول عليك ، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلكونا وامتلكوها ، فلم تبق لك باقية . وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة : « والله لئن قاتلتَ القوم لأعتمدنّ على ظُبَة السيف ، حتى يخرجَ من صلبى » . فلما رأى ذلك عبيدُ الله قرر — كما فعل أبوه من قبل ، وكما أوصاه أيضاً — أن يلتجئ إلى الأزد ، طلباً لحمايتهم من ثورة تميم . فلما جاء الليلُ خرج بخزائنه وذهب مع الحارث بن قيس إلى مسعود بن عمرو العتكى ، رئيس الأزد ، وذهب معه جميع إخوته(٢) ، ولم يجسر على الخروج نهاراً مخافة أن يقتل ، وكان فى الليل معرّضاً لأن تصيبه سهامُ الحراس الذين كانوا يخرجون لمطاردة الخوارج . وقد عرفه رجلٌ ، فرماه بسهم وقع فى كور عمامته حتى إذا وصل بسلام إلى مسعود ارتاع مسعود وقال للحارث : كان يُتَعَوَّذُ من سوء طوارق الليل ، فنعوذ بالله من شر ما طَرَقْتَنَا به . وذلك أن مسعوداً لم يشأ أن يعادى جميع أهل البصرة من أجل عبيد الله ، وخصوصاً أن الأزد كانوا قد أَبْلَوْا من قبل فى حماية زياد فلم يُكافأوا على ذلك وأن مسعوداً وقومه كانوا قد بايعوا لابن الزبير ؛ فهدّأ الحارثُ من روعه وأفهمه أن إجارته لعبيد الله لا تتعارض مع البيعة التى بايعها وأن كل ما يُراد منه هو أن يُبْلِغ عبيد الله بن زياد مكاناً آمناً خارج البصرة(٣) .

---

(١) يسمون عند الطبرى البخارية (قارن أيضاً ص٤٦٤ وخصوصاً البلاذرى ص١١٤ ؟) ، وإلا فيسمون خاصة السلطان ، أعنى جند الحكومة خاصة فى مقابل المقاتلة .

(٢) عتيك أنبه بطون أزد عمان ، وكان مواطنهم القديم فى دَبَا ، ومنهم أيضاً المهلب ابن أبى صفرة .

(٣) رواية أخرى لأبى عبيدة — الطبرى ج ٢ ص ٤٤٥ س ٧ ، أما بحسب رواية وهب فإن مسعوداً أظهر استعداده على الفور — الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ س ١٠ .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٦ س ٣)[١] : لما هرب عبيد الله ابن زياد أصبح أهل البصرة بغير أمير ، واختلفوا فيمن يأمرون عليهم ، ثم ارتضوا قيس بن الهيثم السلمى ونعمان بن سفيان الراسبى لكى يختارا أميراً يرضيانه لهم ، وتمّ اختيار رجل له قرابةٌ بالنبى عليه السلام وبمعاوية ، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه هند بنت أبي سفيان ، وكان يلقب ببَبّةَ ؛ ودخل ببّةُ القصر فى أول جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٧ س ١٢ وص ٤٤٩ س ٢٠) : وحدث بعد ذلك أن وفد على ببّةَ رجلٌ من ولد عبد الله بن عامر القرشى آتياً برسالة من عبد الله بن خازم فيها بيعتُه ؛ وجلس القرشى فى حلقة بالمسجد فيها مالك ابن مِسْمَع . وحدث أن قام نزاعٌ ، فأغلظ القرشىُّ لمالك بن مسمع فقام رجل من بنى بكر بن وائل ولطم القرشىَّ ؛ وهاج من كان هناك من مضر وربيعة ، وكادت تقع حربٌ حقيقية ، لولا تدخل مالك بن مسمع . ثم وقع أن رجلاً من بنى يشكر كان جالساً مع رجل من بنى ضبّة فى المسجد ، فتذكرا لطمة البكرى للقرشىّ ، ففخر بها اليشكرى وقال للضبّى : « ذَهَبَتْ طِلْقاً » ، يقصد أن القرشى احتمل اللطمة دون أن يثور لكرامته . فعند ذلك غضب الرجل الضبى ، وقام إلى اليشكرى فوجأ عنقه ، ووقذ الناسُ ذلك اليشكرىَّ فحُمِل إلى أهله ميتاً ؛ وعند ذلك ثارت بكرٌ كلها وهبّت لمحاربة تميم ، وكان على رأسهم مالك بن مسمع رئيسهم القديم ، لأن أشيم بن شقيق رئيسهم الجديد لم يشأ أن يقودهم إلا بعد أن يرسل إلى تميم رسولاً[٢] ، واستخفّت بكرٌ مالكَ بن مسمع ، فتَخَفّفَ ، ولكنه قبل أن يهاجم تميماً طلب إلى الأزد أن يجددوا

---

(١) رواية وهب عند الطبرى ج ٢ ص ٤٤٤ س ٦ و س ١٧ .

(٢) ويتجلى نفس التنافس والخلاف بين القواد فيما يحكيه الطبرى ج ٢ ص ٤١٤ ٣ — قارن ج ٢ ص ٤٤٨ — أما بحسب ص ٤٥٥ س ٥ فما بعدها فإن أشيم ، لا مالكا ، كان هو القائد .

الحلفَ الذي كان عقد قديماً بين الأزد وبكر[1] وبلغ عبيدَ الله ، وهو في بيت مسعود بن عمرو ، ما حدث من تباعد بين بكر وتميم ، فأعان مالك ابن مسمع بأموال جزيلة ، حتى أمكن التغلّب على قوم كانوا معارضين في تجديد الحلف . ولم يَرْضَ الأزدُ بأن يسيروا إلا أن يكون الرئيس منهم ، فرضيت بكر بأن يتولى الرياسة مسعود بن عمرو الأزدى ، فقال مسعود لعبيد الله بن زياد : سِرْ مَعَنَا حتى نعيدك إلى الدار ! — يقصد قصر الإمارة ، فأبى وأمر برواحله فَشُدَّتْ عليها أدواتها وأعدَّ متاعه وتأهّب للسفر ، ولكن الأزد ألْقَوْا له كرسياً على باب مسعود ، فقعد عليه ، وبعث غلماناً له على خيل مع مسعود ليأتوه بما يحدث خيراً كان أو شراً ، وانتهى مسعود إلى المسجد فدخله وصعد المنبر وأبى بَبّةُ أن يتعرّض له . ولما لم يَحُلْ أحدٌ بين مسعود وبين صعود المنبر خرج مالك بن مسمع فأحرق دور قوم من بنى العدوية ، فبينما هو في ذلك إذ أتاه من أبلغه قَتْلَ مسعود .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ٦) : جاء بنو تميم إلى الأحنف حكيمهم ورئيسهم فقالوا له إن ربيعة والأزد قد دخلوا المسجد ، فقال لهم : لستم بأحق بالمسجد منهم ؛ ثم أتوه بعد هنيهة ، فقالوا : قد دخل القصر فقال : لستم بأحق بالقصر منهم . كل ذلك ، والأحنف هادئ ، فعند ذلك قام سَلَمة ابن ذؤيب ونادى : إلىّ يا معشر تميم ! فإنما هذا جبسٌ لا خير لكم عنده ، يقصد الأحنف . وبدرت « ذؤبانُ بنى تميم » ، والتدب مع سلمة خمسمائة ، وانضم إليهم أربعمائة من الموالى (كانوا من الأساورة) على رأسهم ماه أفريدون . ثم تتابعت الأخبار السيئة ، وعند ذلك ارتأى الأحنف ضرورة استعمال السيف

---

(١) أودعت إحدى الوثيقتين عند الصلت بن حريث الحنفى (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٩ س ١٧ — قارن الكامل ص ٦٢٧ س ١٠) .

فسأل عن عبّاد بن حصين ، فلم يجده ، فسأل عن عبس بن طلق الصريمى فوجده ، فحلّ عمامته وعقدها فى رمح ، وسلّم هذا اللواء لعبس بن طلق . وعند ذلك صاح الناس : « هاجت زبرا » ، وبرا هذه كانت أمةّ للأحنف ، وإنما كنّوا بها عنه . ولما سار عبس بن طلق جاء عباد بن حصين فى ستين فارساً . وسأل عن القائد الذى خرج على رأس القوم ، فلما عرف أنه عبس ابن طلق قفل راجعاً إلى أهله ، لأنه لم يرض أن يحارب تحت لواء عبس .

عن إسحاق بن سويد (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٤ س ٦)[1] : وأبلى ماه أفريدون وقومه أحسن البلاء فى القتال إلى جانب تميم ، وكان كل واحد منهم يرمى خمس نشابات فى رَمْيَة ، فلم تثبت بكر أمام هذا الوابل من السهام . ودخلت تميم المسجد وأنزلتّ مسعوداً من على المنبر وقتلته . وبادر أشيم بن شقيق من بكر هارباً ، وكان هذا فى أول شوال سنة ٦٤ هـ . ويذكر أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٦) أن فرار عبيد الله كان فى هذا التاريخ نفسه ، لأنه يرى أن عبيد الله هرب إلى الشام بعد مقتل مسعود (الطبرى ج ٢ ، ص ٤٣٩ س ١٠) .

عن أبى عبيدة (الكامل ص ٨١)[2] . قام بالثأر لمقتل مسعود أخوه زياد بن عمرو العتكى ، وكان لا يزال غلاماً حدثاً ، فدخل المربد فى اليوم التالى وجمع جيشاً وجعل بكراً على ميمنته وعبد القيس على الميسرة والأزد فى القلب .

---

(١) أغفل الطبرى رواية أبى عبيدة للاشتباك بين الفريقين فلم يذكر منها (ص ٤٥٥ س ٩) سوى ما قاله الحسن البصرى متهكماً بمسعود من أنه يدعو الناس إلى السنة وينهى عن الفتنة ، فقد قال له الحسن : « ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يديك » ، وسوى ما روى من أن القوم لم يلبثوا أن أنزلوا مسعودا من على المنبر وقتلوه . وإسحاق بن سويد يملأ الفجوة ، وهو بالجملة (وأيضاً فى التواريخ) يتابع أبا عبيدة ويختلف عنه فى تفاصيل صغيرة ، فعنده مثلا أن القائد لم يكن مالكا ، بل أشيم .

(٢) وهذه القطعة الأخيرة من رواية أبى عبيدة غير موجودة أيضاً عند الطبرى ، وهو يذكر مكانها رواية أخرى لعوانة (ص ٤٦١ س ١٨) .

ونظم الأحنف تميماً وأعد جيشاً ، فوقفت بحذاء الأزد سعدٌ ورباب ، وعلى رأسهم سعد بن طلق الصريمى . ووقفت بحـذاء بكر بنو حنظلة ، وعلى رأسهم حارثة بن بدر . ووقفت أمام عبد القيس بنو عمرو بن تميم . ولكن لم يقع قتال ، وذلك أنهم لما تواقفوا بعث الأحنف إلى الأزد وربيعة يقول لهم : « يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، وأنتم جيراننا فى الدار ويَدُنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرّقتم علينا ، فدفعنا عن أنفسنا . ولاحاجة لنا فى الشر ما أصبنا فى الخير مسلكاً ، فتيمموا بنا طريقاً قاصدة ! فوجّه إليه زياد بن عمرو : تَخَيَّرْ خلةً من ثلاث ، إن شئْتَ فانزلْ أنت وقومك على حكمنا ، وإن شئْتَ فخلِّ لنا عن البصرة وارحَلْ أنت وقومك إلى حيث شئتم ، وإلاَّ فَدَوا قتلانا وأهدروا دماءكم ، وليُودَ مسعودٌ دية المعشرة ، يقصد أن تُدْفع له عَشْرُ ديات ، شأن من كان يودى من ملوك الجاهلية . فبعث إليه الأحنف : سنختار ، فانصرفوا فى يومكم هذا ! فهز القوم رايتهم وانصرفوا . فلما كان الغَدُ بعث الأحنف إليهم : إنكم خيّرْتُمونا خلالاً ، ليس فيها خيار : أما النزول على حكمكم ، فكيف يكون ، والكَلْم يقطر دماً ! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل ، قال الله عز وجل : « ولو أنا كَتَبْنَا عليهم أنْ اقتُلوا أنفُسَكم أو اخرُجُوا من دياركم مَا فَعَلُوه » ، ولكن الثالثة إنما هى حَمْلٌ على المال ، فنحن نُبْطِل دماءنا وندى قتلاكم ، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين ، وقد أذهب الله أمْرَ الجاهلية . فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ويُغْمَد السيف ويُودى سائرُ القتلى من الأزد وربيعـة ، فتضَمَّن ذلك الأحنفُ ، ودُفِع إياس بن قتادة المجاشعى رهينة ، وقد أعطى يديه مختاراً ، وتشهد بذلك أبيات للفرزدق . وقد نهض الأحنف ، على عادته ، فى هذه المناسبة بأهم واجبات السيد العربى ، وهو حفظ السلام[1] ، على نحو نادر المثال . وإلى جانبه اشتهر إياس بن قتادة ، أحد أثرياء

---

(١) قد بولغ فى بيان فضل الأحنف على كل حال ، ويحكى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٥ س ٥ ، ٦) أن اثنين كانا هما اللذين توسطا فى الصلح .

تميم ، شهرة كبيرة ، لأنه احتمل الشطر الأكبر من الديات (أنساب الأشراف ص ١٨٧) .

ويمكن تصحيح رواية أبي عبيدة في بعض النقط بالاستعانة بقطع من روايات لرواة آخرين ، لم يكن هروب عبيد الله بعد مقتل مسعود في شوال سنة ٦٤ ﻫ (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٨) ؛ بل الذي يؤخذ من أبيات للهيثم بن الأسود (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ س ٥) هو أن مسعوداً بنفسه مكّنه من الخروج إلى الشام . وهذا ما يقوله أيضاً وهب بن جرير (الطبري ج ٢ ص ٤٥٦) . وكذلك يروي عوانة (ص ٤٦١) أن عبيد الله ذهب إلى الشام في منتصف جمادى الثانية أي بعد موت يزيد بتسعين يوماً . وعلى هذا فلم يكن عبيد الله أمام الحوادث الدامية يقف متفرجاً صامتاً ، بل هو لم يكن حاضراً على الإطلاق ، ولم يقع في أثناء حضوره الاختيار للأمير ، لأن من العسير أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك في مثـل تلك الفترة القصيرة ، بل وقع اختيار الأمير نتيجة لعقد السلام بين القبائل بعد انقسامها انقساماً أنذر بالخطر . وهذا ما يقوله عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣) : بعد قتل مسعود وحَسْم النزاع اجتمع أهلُ البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً يصلّي بهم ، حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله ابن عامر أميراً ثم أمّروا بَبّةَ إلى أن عيّنَ ابن الزبير عليهم والياً بعد ثلاثة أشهر ، وهذا هو الذي يفسر لنا ما جاء في رواية أبي عبيدة من أن بَبّةَ التزم السكوت التام ، لما دخل الأزد المسجد والقصر ، وما ذلك إلا لأنه لم يكن بعد قد صار أميراً .

ويروي عوانة فوق ذلك (ص ٤٦١) أن عبيد الله بن زياد ، لما هرب ، استخلف مسعوداً على البصرة . ومهما يكن من شيء فإن مافعله مسعودٌ قد وقع أثناء الفترة التي كان فيها خليفةً لعبيد الله ، بعد أن كان هذا قد هرب . فأراد أن يغتصب منصب الإمارة الخالي (ص ٤٥٦ س ١٦) ، فلم يخرج لقتال تميم ، بل

دخل المسجد والقصر ، وأخذ على سبيل التعبير الظاهر عن ذلك مكان الأمير على المنبر ، وهو من على المنبر قد أُنزِل . وكانت تميم قد أخرجت عبيد الله ، فلم تشأ الأزد أن تترك الأمر فى أيدى تميم ، بل شاءت أن تَسْتَبِقَ تميماً وتأخذَ الأمر من يدها ، ووقع القتال حول ذلك . ويتجلى من هذا أيضاً أن مسعوداً إنما تدخل من نفسه ولمصلحته الشخصية ، وأنه لم ينتظر حتى تدفعه ربيعةُ إلى ذلك . فأما حكاية الصفعة فهى مسألة ثانوية تماماً .

ويتجلى الوضع المعنوى الإجمالى من رواية عوانة تجلياً واضحاً : فشاءت محاولة قبيلة ورئيس لها ، يجوز أنه كان مفَوَّضاً من قِبَل الأمير الهارب ، فى الوصول إلى الإمارة وتحطَّمت تماماً بسبب معارضة قبيلة أخرى منافسة لها ، ذلك أن الإمارة لم تكن ممكنة إلا فى قريش ، لأنها كانت تقف خارج ما بين القبائل من نزاع وتنافس . ويخطئ عوانة (ص ٤٦١) فى روايته : إذ يقول : إن رجلاً من عصابة الخوارج الذين انضموا إلى تميم كان هو الذى قتل مسعوداً . أما عند غيره من الرواة فالذين فعلوا ذلك هم الفرس تحت قيادة ماه أفريدون ، أو هُمْ الأساورة على وجه التدقيق (ص ٤٦٥) ، وكانوا قد انضموا إلى تميم منذ زمان طويل . أما الخوارج فكانوا العدوّ المشترك لجميع قبائل البصرة ، وهذا الخطر المنتظر من جانب الخوارج هو أكبر ما دعا قبائل البصرة إلى الكف عن السير فى طريق الخصام وإلى الاتفاق على أمير . وقد اضطر الأمير الذى اختاروه إلى التنازل عن الإمارة ، لأنه لم يحقق الغرض الذى اختير من أجله ولم يجدّ فى مقاتلة الخوارج . ورواية المدائنى حاسمة فى هذه المسألة (ص ٤٦٥) فهو يقول : إن الأزد هم الذين زعموا أن الأزارقة قتلوا مسعوداً ، لأن الأزد أرادوا أن يمحوا عن أنفسهم عار أن تكون تميم قتلتْ أميرَهم وأن يكونوا قد درءوا عن أنفسهم متاعب الأخذ بثأره بقبولهم الدية . وما يلاحظه عوانة (ص ٤٦١ س ١٠) من أن الخوارج الذين قتلوا مسعوداً كانوا يقطنون عند نهر الأساورة ينمّ عن عدم اطمئنانه إلى ما يقول .

٢ — وهذا نشأت العداوة بين الأزد وتميم واليمن ومضر من حادثة معينة يمكن تحديد تاريخها ، كما يتجلى من الحكاية المتقدمة التى لها من أجل ذلك أهميتها . ولم يقض الصلحُ على التوتر الذى كان موجوداً وكاد أن ينفجر بعد ذلك بعامين ، عندما شرع المختار الثقفى فى ثورته بالبصرة (الطبرى ج ٢ ص ٦٨٠ فما بعدها) . على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق فى محاربة الخوارج ، هذه المحاربة التى كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام . ولم تشأ تميم أن تتخلف وراء الأزد الذين كان يقودهم المهلب بن أبى صفرة . على أنه إذا كان العداء بين القبائل قد خفت حدّتُه فى البصرة ، فإنه أخذ فى خراسان صورة أشدّ خطراً ، وكان ما بين القبائل من عداء قد انتقل من البصرة إلى خراسان ، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة ، وكان عرب خراسان من أهل العراق ، وكان أغلبهم بصريين وكانوا مُقتَسَّمين عسكرياً إلى خمسة أقسام ، كما كان الحال فى البصرة . وكان والى خراسان فى العادة تابعاً لأمير العراق ، رغم أن الخليفة كان فى كثير من الأحيان هو الذى يعينه وكان فى بعض الأحيان تابعاً للخليفة مباشرةً .

وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذى لا تزال القلاقل تحدث فيه ، وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلا . ولم يدُمْ فى خراسان سلامٌ قط ، ولا كانت لها حدود ثابتة . وكان العرب هناك فى صراع دائم مع الفرس والترك ، ولكنهم فوق ذلك كانوا يغتنمون فترات الهدوء فى إفناء بعضهم بعضاً . ومع أنهم كانوا معرّضين للأخطار فإن طريقتهم فى الحياة كانت غير سياسية وشبيهة تمام الشبه بما كانت عليه فى وطنهم القديم . وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة وإلى سعة أرجائها ، لأنها صحراوية من وجوه شتى . وقد كان يهددهم الخطرُ من الخارج ، لكن ذلك لم يجمع كلمتهم ، بل هو هيّجهم وجعلهم أكثر خشونة وأشدّ غلظة . وكان الإسلام

أيضاً سبباً جديداً من أسباب الثورة والهياج(١) . فأصبحت خراسان أشبه شىء بجزيرة عرب ثانية مع فرق ، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت فى أرض الأعداء وأن ظروفها كانت أكثر تعقيداً وأحداثها أوسع نطاقاً وأنها كانت تسمح للنزعات الفوضوية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث وعن التقيد بالقيود .

وروايات المدائنى ، وهو الراوية الذى لا يكاد الطبرى فيما يتعلق بحوادث خراسان يعتمد إلا عليه تُذَكِّرُ الإنسانَ إلى حد ما بحكايات الأبطال فى العصر الجاهلى ، كما هى معروفة من كتاب الأغانى . وفى كثير من الأحيان لا يجد الإنسان سوى مجموعة روايات مفككة تتضمن أخبار القبائل ، أو بعبارة أخرى ، مجموعةً من « أيام » العرب (الطبرى جـ ٢ ص ١٥١٦ س ١٦) ، يغلب عليها الاهتمامُ بذكر ما يتعلق بالبطولة والأبطال وذكر ما يدور حول غزوات النهب والسلب . وكان عرب خراسان ، وخصوصاً تميم ، يعتزّون بالتمسك بقوميتهم فمضوا فى الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون . ولكن كان يُعوِز ذلك تلك الصبغةُ الواقعة المتزنة العميقة التى تصطبغ بها الآثار الباقية للعروبة الأصيلة القديمة .

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموى فى عهد عثمان . وكان ذلك الفتح عبارةً عن سلسلة من الحملات ، وُجِّهت إلى نواحٍ مختلفة فى وقت واحد . ولم يتمّ الفتحُ دفعة واحدة فى سنة واحدة ، وكثيراً ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مرَازبةُ الفرس بمركزهم القديم فى صورة مُعتَدِلة ومقيَّدة بعض الشىء . وإلى جانب الحملات الكبرى التى وُجِّهتْ تحت إمرة قواد تعيِّنهم الدولة ، وهى الحملات التى أوقعت الضربات

(١) [يقصد المؤلف ، كما قد تبين من مواضع كثيرة من كتابه وكما سيتبين فيما يلى ، أن الدولة لم تعمل بمبادئ الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا ذلك إلى الثورة عليها من جانب أهل الديانة ومن جانب المظلومين . وثورة خراسان التى أسقطت الدولة كانت باسم الدين وباسم المساواة التى جاء بها – المترجم] .

الأولى بالفرس ، كانت هناك غزوات صغرى قام بها أهلُ القبائل من أجل أنفسهم . لا باسم أحد ، وذلك لكي يستقرُّوا أينا أمكنهم . وفي غرب إيران ، وفيها كانت تقع العاصمة ، وهي مدينة أبرشهر (نيسابور) كانت قيس هي الغالبة ، خصوصاً في العصر الأخير (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩) ؛ أما في الشرق فقد كانت أرض بكر وأرض تميم متداخلتين : وكانت هاتان القبيلتان تتنازعان على بعض الأماكن ، تدّعى كلٌّ منهما أنها هي التي احتلّتها قبل الأخرى . وهما لم تكونا تتنافسان في خراسان وحدها ، بل في سجستان أيضاً . وهاتان الولايتان المتجاورتان متصلتان ، رغم أن كلاًّ منهما في كثير من الأحيان كان يديرها والٍ على حدة . وبعد أن كان الشأن الأكبر في أول الأمر لسجستان انتقل إلى خراسان . وكانت زَرَنْج هي عاصمة سجستان ، كما كانت مرو عاصمة خراسان .

وكان قواد جيوش الفتح بحسب العادة القديمة يُكافأون بأن تُسنَدَ إليهم إدارةُ الجهات التي يسعدهم الحظ بالتغلب عليها . وقد لعب الأحنف في ذلك العهد دوراً رائعاً من الناحية العسكرية أيضاً ، ولكنه لم يبق في ولاية البلاد التي فتحها مدة طويلة . ولعله ، بحكم أنه كان سيد تميم في البصرة ، قد أحسّ أنه أكبر من ذلك وكان أقدم أمراء خراسان (أو أجزاء منها) الذين يحدثنا عنهم التاريخ هما قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم ، وكلاهما من سليم إحدى قبائل قيس . وكان للاضطرابات التي أعقبت مقتلَ عثمان صداها في أقصى المشرق من الدولة العربية ، فقد استطاع ماهويه ، مرزبان مرو — وكان هو الذى خان آخر شاهانشاه في فارس — أن يحصل من على بن أبي طالب على الموافقة على أن يؤدّى الدهاقنةُ والأساورة والدهشلارين إليه الجزيةَ . ولكنه رغم هذا التساهل لم يحافظ على احترام سيادة على[1] . أما كيف أعيد سلطانُ الدولة

---

(١) وفي نفس الوقت استولى الحبطات من العرب ، وقد ظهروا بمظهر المائلين إلى عثمان (أى بمظهر الحياد) على عاصمة سجستان ولم يخضعهم إلا الحصين بن مالك ، قائد علىّ ، بعد عامين ، وعلى اسم هذا القائد سمى مولاه المشهور فيروز حصين [البلاذرى (ص ٣٩٢ — ٣٩٦ . المترجم]

العربية فى شرق الدولة بعد مقتل عثمان فهذا ما لا نعرفه (قارن البلاذرى، ص ٤٠٩) . وفى عهد معاوية عُيِّن قيس بن الهيثم والياً ، ثم عُيِّن بعده مُنَافِسُه عبدُ الله بن خازم[1] . ولما جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والياً عليها (فى سنة ٤٥ هـ) ضُمَّت إليه ولايةُ خراسان وسجستان ، فصار هو الذى يعيِّن العمال عليهما فقسَّم خراسان إلى أربعة أقسام مستقلَّة : مرو ، أبرشهر (نيسابور) ، مرو الروذ (ومعها فارياب والطالقان) ، هراة (ومعها باذغيس وقادس وبوشنج) ؛ ولكنه جمعها فى سنة ٤٧ هـ تحت إمرة الحكم بن عمرو الغفارى الذى توفى سنة ٥٠ هـ . فجاء بعده الربيعُ بن زياد الحارثى ، وكان آدمَ أصهب أفْوَه ، وهو الذى فتح سجستان وأرغم المرازبة على طلب الصلح ، فاستقبلهم فى ميدان القتال حيث جلس هو ومن معه من العرب على أجساد القتلى هادئين[2] . وكان الربيع مسلماً صالحاً ، ويقال إنه اغتمَّ كثيراً لمقتل حُجْر بن عدى . وفى تلك الأيام كان قد هاجر إلى خراسان خمسةٌ وعشرون ألفاً من أهل البصرة ، ومثلُهم من أهل الكوفة ؛ ولعلَّهم لم يكونوا أهدأ الرؤوس . وبعد موت زياد (سنة ٥٣ هـ) جاءت فترة فى أثنائها بدا كأنما قد أصبح شرق الدولة العربية ضيعة يستغلّها أبناؤه . ففى أواخر أيام معاوية وفى عهد ابنه يزيد كان على خراسان عبد الله بن زياد ، ثم جاء بعده ، بعد فترة انقطاع ، عبد الرحمن بن زياد ، وأخيراً جاء سلم بن زياد . أما فى سجستان فكان هناك عبّاد بن زياد ويزيد بن زياد . وكانوا جميعاً شباناً ، ولكن كان الذين يقومون بتدبير شئون تلك البلاد القواد والعمال القدماء الخبيرون بأحوالها ، أمثال قيس بن الهيثم السلمى وأسلم بن زرعة.

---

(١) خلافاً لما يقوله البلاذرى ، ص ٤٠٨ ، قارن الطبرى ج ٢ ص ٦٥ فما بعدها .

(٢) [كان الربيع بن زياد أول من شرب من نهر بلخ وأول من صلى وراءه ؛ أما ما يقوله المؤلف عن جلوسه على جثث القتلى فليس موجوداً عند الطبرى ولكنه موجود عند البلاذرى ص ٣٩٤ — ولا شك أن ذلك كان بقصد إرهاب الأعداء — المترجم] .

الكلابى وغيرهما ، وكان بعضهم يتربَّص ببعض ولا يكفُّ عنه الأذى ، إذا كانت القوة فى يده .

ولما مات يزيد بن معاوية بدأت فى خراسان أيضاً المنازعات القبلية ، ووثب زنبيل كابل وهزم يزيد بن زياد والى سجستان ، وأسر أخاه أبا عبيدة . وعند ذلك حلّ طلحةُ الطَلَحَات ، ذلك الخزاعى الثرى ، محل يزيد ، فصالح الزنبيل وافتدى أبا عبيدة من الأسر بمال كثير . ولكنه لم يلبث أن مات ، وجاء بعده وال من قبيلة بكر ، كان قد استخلفه ، فلم تخضع له تميم ، بل طردته . وعلى أثر ذلك انفجر العداءُ بين مضر وربيعة ، وجنى الزنبيل ثمرة ذلك (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٤ والبلاذرى ص ٩٧) . وكان لذلك أثره فى خراسان . وأراد سلم بن زياد ، وكان والياً هناك ، أن يكتم عن الناس موت الخليفة وما أصاب إخوته أبناء زياد (فى سجستان والبصرة) ، حتى إذا لم يمكن كتمُ الأمور دعا سَلْمٌ الناسَ إلى أن يبايعوه ، على أن يقوم بتدبير الأمور إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فبايعوه . غير أنهم سرعان ما نكثوا به فاختفى هارباً ، وخلّف على مرو المهلبَ بن أبى صفرة الأزدى ، وكان سلمٌ قد جاء بالمهلب معه من البصرة . ولكن بعض رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك فولى سلْمٌ سليمانَ بن مرثد البكرى على مروالروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ، وهو من بكر أيضاً ، على هراة ، حتى إذا صار سلم بنيسابور ولقى عبد الله ابن خازم السلمى سأله عبد الله : من ولَّيْتَ على خراسان ؟ فأخبره ، فلامه قائلاً : « أما وجدتَ فى مضر رجلاً تستعمله حتى فرّقت خراسان بين بكر ابن وائل ومَزُون عمان ! » وطلب عبد الله من سلم أن يكتب له عهداً على خراسان ، فتعجّب سلمٌ قائلا : أوَلِى أنا خراسانُ ! قال : اكتب لى عهداً ، وخلاك ذمٌّ ! وكتب سلم العهد لعبد الله ، وأعطاه فوق هذا مائة ألف درهم طلبها منه . فخرج المهلب من مرو ، لأنه لم تكن له قبيلة تؤيده ، وذلك أن الأزد

لم يكونوا كثيرين بخراسان ، واستخلف رجلاً من بنى جُشَم بن سعد ابن زيد بن مناة بن تميم ، أراد هذا أن يمنع ابن خازم لما أقبل على مرو ، فكانت بينهما مناوشة أصيب فيها التميمى ثم تحاجز الفريقان ، ودخل عبد الله مرو الروذ ، ومات التميمى بعد ذلك بيومين (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ — ٤٩٠) .

وقد وقفت تميم إلى جانب ابن خازم بوجه عام ، وإن كان لا ينتمى إليهم بل إلى مضر ، وكان معادياً لبكر[1] وهو بمعونة تميم بدأ يحارب بكراً . وقد خرج أولا من مرو إلى مرو الروذ ، وحارب سليمان بن مرثد فقتله ، وتوجّه بعد ذلك إلى محاربة أخيه عمرو بن مرثد فى الطالقان ، فقتله أيضاً . ولجأ الهاربون من بكر إلى أوس بن ثعلبة فى مدينة هراة ، وهناك تجمّع عند أوس كلُّ البكريين ، وكانوا قد حنقوا حنقاً شديداً بسبب ضياع مدينة مرو الروذ والطالقان من أيديهم[2] ، فأرادوا أن يُخرجوا جميع مضر من خراسان كلها ، وقالوا : لا تتسع خراسان لمضر وربيعة . وقد أكرهت تميمُ عبدَ الله بن خازم على أن يفاوض بكراً ، ولكن المفاوضات فشلت ، كما كان يتوقع عبد الله . وكان أحدهم قد اعترض عليه فى قتال بكر ، وطلب إليه ألا يقاتلهم إلا بعد الإعذار إليهم ، فبعثه رسولاً إليهم ، فلما عاد يائساً بسبب تشدد قبائل بكر[3] قال له عبد الله بن خازم : « لقد أخبرتُك أن ربيعة لم تزل غاضبة على ربها منذ بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم من مضر » . ويقال إن القتال قد استمر أمام مدينة هراة

---

(١) بحسب ما جاء فى البلاذرى ص ٤١٤ أقرّ ابن الزبير عبد الله بن خازم على الولاية .

(٢) [يقول المؤلف : بسبب ضياع هراة ، ولكن هراة ، بحسب كلامه لم تكن قد سقطت بعد ، أما الذى كان قد سقط فهو مدينة مرو الروذ والطالقان . على أن الذى أحنقهم أشد الحنق هو قتل سليمان وعمرو ابنى مرثد (راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ — ٤٩٧ والبلاذرى ص ٤١٤ — المترجم] .

(٣) [فشلت المفاوضات أمام تشدد بنى صهيب من موالى بكر ، حتى سخر البعض من ذلك ، راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٩١ — ٤٩٢ — المترجم] .

أكثر من عام[1] . فجعلت بكرٌ ظهرها إلى المدينة وخندق رجالها حول المدينة واحتموا بالخندق أمامهم ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجمات ابن خازم ، حتى نال من شرفهم وشجاعتهم بأن ناداهم قائلا : «يا معشر ربيعة ! إنكم قد اعتصمتم بخندقكم ، أفرضيتم من خراسان بهذا الخندق ! » . فأحفظهم ذلك وخرجوا من موقعهم الحصين إلى القتال فى الميدان الواسع ، فهُزموا وخسروا خسائر كبيرة ، وأقسم ابن خازم ليقتلنّ منهم كلّ أسير يُؤتى به ، حتى تغيب الشمس . وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان ، وكانت فى تلك الأيام فى يد الزنبيل ، ولكنه مات هناك من جراحاته . وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الحرب دائرة بين قبائل بكر وتميم فى المشرق ، كانت هناك حرب أخرى تدور بين قبائل كلب وقيس فى المغرب ، وذلك فى سنة ٦٤ — ٦٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٠ — ٤٩٦) . وقد كان من أثرها إضعاف بكر إضعافاً دائماً[2] .

أعانت تميم عبد الله بن حازم على من كان بخراسان من ربيعة ، حتى قهرهم وأخضع مدينة هراة وصَفَتْ له خراسان . ولكنه جفا تميما وأبى أن يمكّنهم من الاستقرار فى هراة استقرار الفاتحين . فعيّن على هراة ابناً صغيراً له اسمه محمد وضمّ إليه بُكَيْر بن وشاح[3] وجعله على شرطته ، وأمره ألاّ يمكّن

---

(١) إن حكاية سليمان بن مجالد ، أحد معاصرى أبى مخنف ، وأبو مخنف يذكره كثيراً ، هذه الحكاية الموجودة عند الطبرى ج ٢ ص ٤٩٣ س ٦ — ٤٩٤ س ١٧ ، لا تدخل فى هذا الموضع ، بل فى عصر بعد ذلك بكثير ؛ أما رواية أبى الحسن الخراسانى (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٤ س ١٨ — ٤٩٥ س ٧) فهى تملأ فجوة فى الرواية الأساسية للمدائنى .

(٢) [قُتلت بكر فى هراة قتلا ذريعاً ، فخسروا ثمانية آلاف رجل (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٦ — المترجم] .

(٣) كان تميميا من بنى سعد ، أما تسميته عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٩٥ س ٧) بالثقفى فهى خطأ — قارن الطبرى ج ٢ ص ٨٦٠ س ١٠ فما بعده و ١٠٢٢ س ١ وص ١٠٣٠ س ١٣ و ٢٠ فما بعده و ص ١٠٤٧ س ١٨ . [وكان عبد الله بن خازم قد جعل شماس ابن دثار العطاردى مع ابنه أيضاً ، وأوصى الرجلين بنصحه وتربيته والعناية بأمره . ثم انشق شماس وانضم إلى تميم ، وكان له شأن فى الخصومة القائمة ، كما سيلى ، وقد أسقط المؤلف حكايته هذه — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٤] .

تميماً من دخول هراة . وقد عرض بكير عليهم أموالاً كثيرة على أن ينصرفوا ، ولكن هذه الطريقة للتخلص منهم زادتهم عناداً وأحدثت مرارة فى نفوسهم ، فاقتحموا المدينة على محمد بن عبد الله بن خازم وشدوه وثاقاً وشربوا ليلتهم ، وجعل كلما أراد رجل منهم البول بال عليه ، ثم قتلوه فى الصباح[1] . وكان معنى هذا أن تميما نبذوا عهد الصداقة لوالده عبد الله ، فخرجوا إلى مرو وازدادوا قوة بعد أن انضم إليهم من كان فيها من قومهم ، وولوا عليهم حُرَيْش بن هلال القُرَيْعى ، وأرادوا محاربة ابن خازم . وكانت هذه الحرب على الطراز القديم ، فلم تكن هناك معارك ، بل كان هناك فرسان أبطال ، لم يُدْرَك مِثْلُهم ، « الرجل منهم كتيبة » وكانوا يغيرون ويأتون المغامرات ، فيُحكى مثلا أن الأشعث بن ذؤيب ، وهو أخ لزهير ابن ذؤيب العدوى (من تميم) ، قُتل فى تلك الحرب فسئل ، وكان به رمق : « من قتلك ؟ » فقال : « لا أدرى ! طعننى رجل على برذون أصفر » ؛ فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه ، فمنهم من يقتله ومنهم من يهرب ، فتحامى أهلُ العسكر البراذين الصفر ، فكانت مُخلاة فى العسكر لا يركبها أحد ، وهذه صورة مُمَيَّزة لأحداث تلك الحرب . حتى إذا طالت الحرب سنتين وضجرها الفريقان وملاّها تفرّقت تميم ، فأضعفت نفسها بذلك ، فتوجه شماس بن دثار العطاردى إلى سجستان (الطبرى ج ٢ ص ٥٤٦ و ١٠٢٦) ، وحريش بن هلال إلى مرو الروذ واستطاع أن يثبت هناك زماناً[2] ، لكنه اضطر آخر الأمر إلى الخروج من خراسان

---

(١) [هنا يمزج المؤلف بين روايتين عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٩٤) . وليس من المعقول أن يكونوا دخلوا المدينة دون معركة ، ونحن لانسمع عن هذه المعركة ، بل الأحرى أن يكونوا دخلوها بعد قتله ، وأنهم قتلوه خارج المدينة : ترصدوا له وأخذوه وهو يتصيد وفعلوا ما فعلوا . وهذا شطر من إحدى الروايتين . وإن قضاء ليلة شراب على النحو المتقدم لا يتيسر فى مدينة ، حتى ولا بعد معركة — المترجم] .

(٢) يقول حريش (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٨ س ٣) : حولين ما اغتمضت عينى بمنزلة « إلا وكفى وساد لى على حجر . ولا يتحتم من هذا الطبرى ج ٢ ص ٥٩٥ س ١٤) أنه ظل —

« الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ — ٦٩٨) وبلجأ الآخرون من فرسان تميم بقيادة زهير بن ذؤيب إلى قصر فَرْتَنَا ، غير بعيد من مرو الروز . وهناك حاصرهم ابن خازم واضطرهم إلى التسليم وقتلهم دون رحمة (الطبرى ج ٢ ص ٦٩٦ — ٧٠٠) ؛ ويظهر أنه استطاع أن يحكم مرو حيناً لا يعكِّر حُكْمَه شيء ، غير أنه بعد سنين قليلة اضطر إلى إخماد ثورة جديدة قامت بها تميم فى أبرشهر بقيادة بحير بن ورقاء الصريمى (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٦ س ٩) ، واستخلف ابن خازم بمرو بكير بن وشاح ، ولكنه لم يترك ابنه موسى فيها لأنه لم يأمن عليه من تميم ، فأمره أن يخرج منها بكنوزه وثُقْلِه فيعبر نهر بلخ ويلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن يقيم فيه ، ثم تقدم قاصداً أبرشهر . وبينما كان يحارب بحير بن ورقاء هناك أتاه فى آخر سنة ٧٢ هـ[1] كتابُ عبد الملك بن مروان ، يَعِدُه بأن تكون خراسان له طعمةً سبع سنين ، إذا بايع له . فتصور ابن خازم أن فى ذلك إهانةً له ، لأنه كان يريد أن يكون له الأمر بقوته الخاصة ، وأمر رسول عبد الملك بأن يأكل الصحيفة التى حملها إليه . ولما رفض ابن خازم ما عرضه عليه عبد الملك كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح ، وكان ابن خازم قد استخلفه على مرو ، يعهد إليه بولاية خراسان ويَعِدُه ويُمنّيه ، فقبل الولاية . ولم يستطع ابن خازم أن يتغلب على بكير وبحير مجتمعيْن ، فحاول أن يذهب إلى ابنه موسى فى ترمذ ، ولكن بحيراً لحقه . وقُتل ابن خازم بعد أن اعتوره بالطعن ثلاثةُ فرسان ، فدفعهم عن نفسه دفعاً شديداً ، حتى صرعوه ، فلما وقع قعد على صدره وكيع بن الدَّوْرَقية ، ليذبحه[2] . وكان وكيع أحد الموالى

— يقاتل ابن خازم حَوْلين . ويجوز أنه يدخل فى هذين الحولين فترة الحرب مع بكر ، ذلك أننا نجده فى سنة ٦٦ هـ خارج خراسان . انظر ما كتبناه عن الخوارج ص ٣٤ ، وقد قتل حريش سنة ٨٢ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٦ س ١٥) .

(١) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٣٤) تاريخاً متأخراً عن ذلك .

(٢) يسمى باسم أمه ، وكانت من سبى دورق ، من خوزستان (راجع البلاذرى ص ٤١٥ — ٤١٦) .

الغلاظ الجفاة ، وقد ذكّر ابنَ خازم بثأر أخ له لأمه كان ابن خازم قد قتله ، فعند ذلك تنخّم ابن خازم في وجه وكيع مستنكفاً من أن يكون أحد الموالي مساوياً له ، وذبحه وكيع ، واحتُزّت رأسه ، فاغتصبها بكير ابن وشاح من يد بحير وأرسلها إلى عبد الملك ، مدّعياً أنه هو الذي قهر ابن خازم وقتله . أما بحير ، وهو المنتصر الحقيقي على ابن خازم ، فقد قيّده بكير وحبسه حيناً (الطبري ج ٢ ص ٨٣١ — ٨٣٥) .

وكان هذا سبباً في حرب بين أخويْن من تميم أنفسهم ، وخصوصاً من بني سعد بن تميم ، وكان بنو سعد في خراسان ، وخصوصاً في مرو ، أكثر منهم في البصرة ، وكان كل من بكير وبحير ينتمي إلى بني سعد . واختلفت تميم ، فتعصّبت مُقاعِسُ والبطون لبحير ، وتعصب بنو عوف[1] والأبناء لبكير ، ولكن لما تبين عرب خراسان آخر الأمر أن سيادتهم على خراسان لا محالة زائلة ، إن لم ينقذوها من أخطار التطاحن وإن لم تكتسب صبغة شرعية بفضل تأييد يأتيها من قِبَل سلطة عليا ، عند ذلك طلبوا هم أنفسهم من عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ هـ أن يُعيّن على خراسان والياً قرشياً يكون فوق تباغض القبائل وتحاسدها[2]. فبعث عبد الملك أحد الأمويين من أسرته ، وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص ، وكان فتى سيداً كريماً وسهلاً ليناً يحب العافية ، فلما بلغ أبرشهر خرج بحير بن ورقاء لاستقباله ، وحاول أن يسعى ببكير عنده وأن يُحذّره منه ومن غدره ، ولكن بحيراً لم يفلح فيما أراد ، فأقرّ أميةُ كل عمال بكير في مناصبهم وعرض عليه أن يوليه شرطته ، فلما زهد بكير أَنَفَةً منه في هذا المنصب ،

---

(١) [يقول المؤلف أرس والأبناء ، ويظهر أن هنا تحريفاً ، لأن الذي يؤثر عند المؤرخين هو قبائل بني عوف ، راجع مثلا الطبري ج ٢ ص ١٠٤٩ — المترجم] .

(٢) [جاء في الطبري ما يأتي : خاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه — المترجم] .

مع أن صاحب الشرطة كان فى نفس الوقت يقوم بخلافة الأمير إذا غاب ، عند ذلك أعطى أميةُ المنصب لعدوه بحير (الطبرى ج ٢ ص ٨٥٩ — ٨٦٢) ؛

وغضب بكير وحنق ، لأنه اضطر أن يخلى المجال أمام الأمير القرشي[١] ، فاغتنم فرصة خروج الأمير فى حملة حربية ، وثاو فى ظهره بمدينة مرو[٢] ، وكان أهل الجنود الذين خرجوا فى الحملة فى قبضة بكير[٣] ، فسارع أمية بالعودة وتساهل فى مفاوضة بكير والبِرّ به ، فقضى عنه ديونه وأمّنه أربعين يوماً حتى يخرج إلى إحدى مدن خراسان إذا شاء . ولكن بكيراً بقى فى مرو ، ومضى يحرّض على أمية ، فاتهمه بحير بالتدبير لأمية ونقل إلى أمية كلاماً لبكير عنه . ولكن أمية كذّبه ، حتى تأيدت له الشكوى من جانب آخر ؛ وعند ذلك قبض الأمير على بكير ، وتبين أن التهمة صحيحة ، لأن شهودها لا مغمز فيهم[٤] ، وقُتِل بكيرٌ بسيفه فى يوم جمعة ، قتَلَه بحيرٌ ، لأن أحداً لم يرض أن يقتله . وقال بحير وهو يقتله : لا يصلح بنو سعد ما دمنا حَيَّيْن (الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٢ — ١٠٣١)[٥] .

ولكن آخر فصل من قصة الحرب بين بنى سعد لم ينته إلا فى سنة ٨١ هـ ؛

---

(١) [إنما أحنق بكيراً سعىُ بحير بالوشاية والإفساد بينه وبين أمية سعياً دائماً ، ذلك أن أمية عامل بكيراً معاملة السيد الكريم فقطع أسباب العداوة ، ولكن لم يزل بكير بالأمير حتى صار يتصرف مع بكير تصرفاً أغضبه ، وجعله يشعر بأن الأمير يُضارّه ويرتاب به — المترجم نقلا عن النصوص التى ذكرها المؤلف] .

(٢) من العسير أن يكون ذلك لم يقع إلا فى سنة ٧٧ هـ آخر سنى أمية ، قارن بين الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٣ وبين ١٠٢٨ ، وبين البلاذرى ص ٤١٦ .

(٣) [هدد بكير بأن يرمى كل من يرمى سهما من المحاصرين له برأس رجل من ولده وأهله ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٧ — المترجم] .

(٤) [لا يؤخذ ذلك من النصوص ، فقد اتهمهم بكير بأنهم أعداؤه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٠ — المترجم] .

(٥) يختصر المؤلف هنا اختصاراً كبيراً ، وليرجع القارئ إلى الموضع المشار إليه عند الطبرى ليرى الرواية مفصلة ، ونحن قد تابعناه فى الترجمة محاولين بقدر الإمكان أن نراعى النص العربى — المترجم] .

فتعاقد سبعة عشر رجلاً من الأبناء ، وهم عشيرة بكير ، على قتل بحير ، ولكنهم لم يقصدوا إليه مجتمعين ، بل ذهب كلُّ واحد منهم منفرداً معتمداً على يده وحدها ، وقد أفلح أحدهم ، وهو صعصعة بن حرب العوفى : فى اغتياله . فسار حتى جاور قرابةً لبحير ، ولم يزل يأتيهم ويجالسهم ويلاطفهم حتى أنسوا به وأعطوه كتاباً إلى بحير ، وفيه أوصَوْه أن يساعده على الحصول على ميراث كان له . ثم قصد إلى بحير ، ولم يزل عنده حتى أنس به . ثم طعنه غيلة بخنجر كان قد غمسه مراراً فى ابن أتان ليزداد حدة . وكان طعنه له أمام الناس ، كما ينبغى للثائر أن يفعل ، وقد صاح ، وهو يطعنه ، قائلاً : « يا لثارات بكير ، أنا ثائرٌ ببكير ! » فَقُبِضَ عليه وقُتل ، فاحتمل الموت صابراً سخيةً بذلك نفسه . وذهب إليه الأبناء فى السجن وقبّلوا رأسه . ولكنهم بعد مقتله غضبوا وقالوا : علام قُتِل صاحبُنا ، وإنما طَلَب بثأره ! ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن دُفعت له دية ، وذلك بعد أن مضى وقت ، فيه أوشك الخصام بين الأبناء وبين البطون أن يثور من جديد (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٧ — ١٠٥١)[1] .

وكانت لا تزال هناك لثورة عبد الله بن خازم القيسى بقية لم يتم القضاء عليها ، ذلك أن سيادته وجدت من يمثلها ويرثها إلى ما بعد مقتله باثنى عشر عاماً . ذلك أن ابنه موسى — وكان ثطّاً[2] — قد استطاع أن ينجو بنفسه من مرو فى الوقت المناسب وأن يخرج ، ومعه بضع مئات من فرسان كانوا معه ومن

---

(١) [لا يعطى كلام المؤلف حقيقة الوضع ، ونجد عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠٥١) أن التنازع وقع بين عوف بن كعب والأبناء وبين مقاعس والبطون ، حتى خاف الناس أن يعظم البأس بينهم ، فقال أهل الحجى : احملوا دم صعصعة واجعلوا دم بحير بواءً بدم بكير ، فودوا صعصعة . ثم ودى صعصعة مرة أخرى . ولو أن دفع الدية وحده يكفى فى تسكين ثائرة الموتورين ، كما يؤخذ من كلام المؤلف لما بلغ الخصام عند العرب من أجل الأخذ بالثأر المبلغ الذى نعرفه — المترجم] .

(٢) [الثط الخفيف شعر اللحية ، وهو وصف موسى ، وهو من كلام المهلب بن أبى صفرة عنه مع أولاده — راجع هامشاً تالياً — المترجم] .

صعاليك ضموا إليه ، حتى جاوز نهر بلخ ، وقد حاول المرة بعد المرة أن يجد ملجأً يستقرّ فيه ، ولكنه كان لا يأتي بلداً إلا كره أهلُها مُقامَه فيهم وسألوه أن يخرج عنهم ، وذلك لما كانوا قد سمعوه من أمره . وأخيراً تمكن بدهاء ومُماكَرَة وملاطفة ، ثم بحيلة جريئة فيها شيء من الغدر ، من أن يستقر في ترمذ جنوب بلخ على الشاطئ الآخر من النهر ، في حصن يقع على صخرة بارزة تشرف على النهر . وتجمعت له فلول قيس ، حتى صار تحت تصرفه ألف ومائة رجل ، جعل يغير بهم على من حوله . وكان جيرانه يخافونه هو وفرسانه كما يخافون من الجن[1] . وقد فشلت حملة وجهها إليه أمية بن عبد الله أمير مرو . فلما جاء بعده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد ابن المهلب لم يتعرضا لموسى[2] ، ثم زاد جُنده بمن انضم إليهم من فلول جيش ابن الأشعث ، حتى بلغوا ثمانية آلاف رجل . وأخذ يقوم بغزوات أخرى أبعد مدّى ، وقد شدّ أزرَه في ذلك قائدان من قواد الفرس ، هما حُرَيْث بن قُطْبة وأخوه ثابت ، انحازا إليه بمن كان معهما ، مُنْشَقَّين على الجيش العربي ، جيش المهلب ، وكانا قبل ذلك على صلات بالأسر الحاكمة من أهل البلاد ، وخصوصاً بطرخون صاحب سمرقند ، واستطاعا بمعونة أهل البلاد أن يُعِدّا جيشاً ليقاتل السادة العرب مع موسى . ولم يرد موسى رغم ذلك أن يقدم بيده على مهاجمة يزيد بن المهلب في خراسان ، بل أراد أن يخرج عُمَّالَه من أرض ما وراء النهر . وقد أمكن أيضاً تطهير أرض ما وراء النهر من بقايا السيادة العربية تطهيراً تاماً ، ولكن حريثاً وثابتاً كانا في أثناء ذلك قد قوى أمرُهما ، وصار لهما التدبير الحقيقي ولموسى اسم الإمارة . فثار الحسد لها في

(١) [راجع في ذلك قصة طريفة وحيلة عجيبة لجأ إليها موسى لكي يوقع الرعب في نفوس أهل البلاد ، ذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١١٤٨ — ١١٤٩ — المترجم] .

(٢) [قال المهلب لبنيه : إياكم وموسى ! فإنكم لا تزالون ولاة هذا الثغر ما أقام هذا الثَّطّ بمكانه ، فإن قُتل كان أول طالع عليكم أميراً على خراسان رجلٌ من قيس — المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١١٥١ — ١١٥٢] .

النفوس ، وأراد بعض أصحاب موسى منه أن يقتلهما فأبى أن يغدر بهما ، ولم يزالوا به يُلِحُّون عليه ، حتى أفسدوا قلبه عليهما . وإنهم لفى ذلك إذ جاء هجومٌ على أرض ما وراء النهر ، فخرجت على موسى الهياطلة والتُّبَّت والترك ، وكان موسى قد أفلح قبل ذلك فى صد هجوم لهم ، وقد ردهم عن ترمذ فى هذه المرة أيضاً وأبعدهم مسافة كبيرة . ثم بدأ من جانبه فى الهجوم ، وألحق بهم عند كفتان[1] هزيمة شتّتت جمعَهم ، وفى هذه المعركة قتل حُرَيث بن قطبة ، ولم يجزع موسى لذلك ، بل ربما كانت تقرعينه لو أنه تخلص من أخيه ثابت أيضاً . وقد أراد لذلك أن يغتال ثابتا[2] ، ولكن أحد عيون ثابت أبلغه ذلك ، فهرب إلى مدينة خُشْوَراغ[3] ، وخرج إليه كثير من العرب والعجم ، وأقبل لنجدته أيضاً طرخون صاحب سمرقند بجيش كبير وتقدم الرجلان معاً إلى ترمذ فحاصراها وضيقا الخناق على موسى ، ولكن أحد الفدائيين العرب استطاع أن يتسلل إلى ثابت وأن يقتله . وعند ذلك تجرأ موسى على بيات[4] معسكر الأعداء ، فتوصل إلى أن رحلوا عنه . ولكن لم يلبث المفضل بن المهلب ، أخو يزيد ابن المهلب وخليفته على خراسان ، أن حالف طرخون السغد وسَبَّلَ الختّل على موسى ، فلم يستطع موسى أن يثبت أمام هذا التكتل ، وقُتل وهو يحاربهم ، عثرتْ به فرسُه ، فسقط ، فابتدروه فقتلوه . وسلّمت ترمذُ ، وقُتل الأسرى من جنودها ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ .

٣ — وفى الفترة التى كانت فيها قوة عرب خراسان تتلاشى فى هذه الخلافات الدامية ، ضاعت الفتوحات الأولى التى قاموا بها فى أرض ما وراء

---

(١) [فى بعض النصوص : كفتان ؛ وفى بعضها كفهان — المترجم] .

(٢) [يجد القارئ تفصيل حكاية موسى عند الطبرى جـ ٢ ص ١١٤٥ — ١١٤٦ المترجم] .

(٣) هكذا تجب قراءة الكلمة ، قارن الطبرى جـ ٢ ص ١٥٩٤ س ٩ .

(٤) [يعنى الهجوم فى الليل — المترجم] .

النهر(١) ضياعا تاماً ، بل اغتنم الترك ذلك وتجاسروا على الهجوم على خراسان حتى وصلت غارات النهب على أيديهم إلى قرب نيسابور (البلاذرى ص ٤١٤) ؛ وبعد أن عاد الهدوء والنظام جدد العرب أيضاً غزواتهم السابقة ، وكان أمية بن عبد الله أمير خراسان هو أول من عبر نهر بلخ ، بعد فترة وقوف طويلة . ولكنه لم يكن رجل حرب ، ومن قبل لم يمكن بقاؤه على إمرة العراق ، لأنه هرب أمام أبى فديك الخارجى هروباً مخزياً . ولم يستطع فى خراسان أن يقيم شرفه المتداعى . وبعد أن أصاب شيئاً من النجاح (بلاذرى ص ٤٢٦ س ١٠ فما بعده) هُزِم أخيراً هزيمة حاسمة ، ولم يستطع أن ينجو بجيشه عبر نهر الشاش منصرفاً إلا بعد جهد وإشراف على الهلاك ، وجلب على نفسه استهزاء الشعراء حتى قال أحدهم :

ومن سمّاك ، إذ قسّم الأسامى : أميةَ ، إذ وُلِدتَ ، فقد أصابا(٢)

وعلى أثر ذلك عزله عبد الملك من منصبه سنة ٧٨ هـ . فلما أسندت إلى الحجاج مع ولاية العراق ولايةُ خراسان وسجستان ، عين مكانه المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، وكان المهلب قد انتهى فى منتصف سنة ٧٨ هـ من القضاء على الخوارج فى كرمان ، ولكنه لم يأت إلى مرو بنفسه إلا فى سنة ٧٩ هـ (٣) . ولم يستطع المهلب ، فيما وراء النهر ، أن يفعل ما فعله أسلافه ، وفى آخر سنى ولايته حاصر مدينة كِش فأخفق(٤) ، ورضى بأن يدفع أهلُها إتاوةً ، ثم انصرف عنهم ،

---

(١) وفى عهد عبد الله بن عامر من قبل كانت قد وُجّهت حملاتٌ إلى أرض ما وراء النهر ، ثم تجددت على يد عبيد الله بن زياد ، وكان قد جاء إلى البصرة بجيش من أسرى بخارى ثم جدد الحملات سعيد بن عثمان خليفة عبد الله . وقد قتله خدمه من السغد ، كما جددها سلم بن زياد ، وقد ولدت له امرأته ولداً فى سمرقند .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٣١ — المترجم] .

(٣) [الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٢ — ١٠٣٥ — المترجم] .

(٤) يحكى المدائنى حصار كش مرتين فى ظروف هى هى ، فى سنة ٨٠ ، ٨٢ هـ (الطبرى ج ٢ ١٠٤٠ و ١٠٧٧ فما بعدها) . ويمكن تسوية هذا الفرق فى التاريخ وتعليله بأن الحصار دام عامين (من منتصف ٨٠ إلى ٨٢ هـ) .

ومات فى زاغول (قرب مرو الروذ) وهو راجع ، وذلك فى ذى الحجة ٨٢ هـ ، الموافق يناير سنة ٧٠٢ م . فلم يزد مَجدُه الحربى فى خراسان عما كان عليه ، ولكن ذهابه إلى خراسان كانت له أهمية كبيرة ، فقد أخذ قبيلته معه ، وكانت حتى ذلك الحين ، تحارب الخوارج تحت إمرته[1] . وقد تحالف الأزد أيضاً فى خراسان مع بكر وربيعة[2] . وبذلك فقدت مُضَرُ (تميم وقيس) ما كان لها من تغلّب وخصوصاً عند ما كان الأمير يضع قوة منصبه الرسمى فى الجانب المعادى لمضر .

وقد استخلف المهلّبُ فى منصبه وفى رئاسة قبيلته المتنوعة فى تكوينها ابنه يزيد مؤقتاً ، ثم أقرّه الحجاج فى منصبه ، وقد قام يزيد بحروب فى فرغانه وخوارزم ، كما حارب فيما دون النهر أيضاً فى باذغيس ، ولكن دون أى كسب جديد ، أو على الأقل دون أى كسب دائم ،وكان يزيد رغم ولعه بالنساء والطعام وضخامة جسمه رجلاً نشيطاً قادراً على النهوض بالأعمال ، ولكن طموحه وزهوه كان أكثر من مقدرته على العمل ، وكان يشعر بشىء من المضاضة أن يكون تابعاً للحجاج ، وخصوصاً أنه رئيس الأزد ، على حين أن الحجاج ، ذلك الرجل المُحْدَث ، كان من قيس وهو لم يقض على ثوار أهل العراق الذين هربوا إلى خراسان بعد إخضاع ثورة ابن الأشعث إلا كارهاً ، ولما وقع فى يده الثوار خلّى سبيل اليمنيين منهم ولم يُسْلِم إلا المضريين ، ولم يغفل الحجاج عن

---

(١) جاء الشاعر ثابت قطنه والشاعر كعب الأشقرى ، وكلاهما أزدى ، من فارس وكرمان وكان فيهما ميدان القتال ضد الخوارج ، إلى خراسان . ويجوز أن أفراداً من الأزد كانوا قد هاجروا قبل ذلك ، ولكن شأن قبيلة الأزد لم يرتفع إلا بمجىء المهلب ، ولا يسمع الإنسان أقل إشارة إلى الحلف بين أزد وبكر فى الحروب السابقة بين تميم وبكر .

(٢) فيما يتعلق بالنسبة بين الأقسام (الأخماس) من حيث العدد (راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩١) فقد كان لتميم عشرة آلاف مقاتل وللأزد مثلها ، ولقيس (أهل العالية) تسعة آلاف ولبكر سبعة آلاف ، ولعبد القيس أربعة آلاف . والجملة أربعون ألف مقاتل ، وعلى هذا فإن جملة العرب فى خراسان لم تكد تتجاوز مائتى ألف .

[معرفة روح يزيد هذه ، فعزله فى ربيع الآخر سنة ٨٥ هـ (إبريل سنة ٧٠٤ م)
وعين مكانه المفضل بن المهلب أخا يزيد لأبيه ، وكان المفضل يسعى بيزيد .
وربما كان أحب شىء إلى الحجاج أن ينتزع خراسان من قبضة المهالبة
والأزد جملة ، ولكنه لم يقدم على ذلك طالما كان موسى بن خازم ثابتاً قوى
الجانب فى ترمذ وبلاد ما وراء النهر : وقد ظن الناس ذلك على الأقل ،
والأغلب أنهم فى ظنهم كانوا صادقين ، وكان المهلب ويزيد ابنه مقتنعين
أنهما لن يطيقا والياً قيسياً إذا ذهب موسى ، لأن موسى نفسه كان من قيس
وكانت أهواء قيس إلى جانبه ، ولذلك لم يتعرض المهالبة لموسى ، بل حافظوا
عليه كما يحافظ الإنسان على عدو مفيد له ، وذلك لأن الحاجة إليهم ستظل
قائمة وشأنهم سيظل مرتفعاً ما دام موسى فى مكانه . ولكن المفضل انحرف
عن هذه السياسة التى انتهجها المهالبة . وجدّ فى حرب موسى بن خازم ،
وبذلك قوّض الأساس الذى كان يستند إليه ، فإنه لم يكد ينتهى من القضاء
على موسى حتى عُزل من منصبه ، بعد أن قضى فيه تسعة أشهر . وكذلك
عُزل حبيب بن المهلب وعبد الملك بن المهلب من منصبهما أيضاً ، وحُبس
يزيد بن المهلب نفسه ، ثم عين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (سنة ٨٥
أو ٨٦ هـ) . وكان ابناً لمسلم بن عمرو الباهلى البصرى الذى كان مخلصاً
لحكومة الأمويين موالياً لها ، وبذلك انكسرت شوكة التغلّب الذى كان للأزد
وربيعة فى خراسان . وكانوا يسمون خاصة اليمن . وكان العرب فى أيام قتيبة
يسمون المضريين بوجه عام (الطبرى ج ٢ ص١١٨٥ س ٥) ، أما قتيبة فكان
ينتمى إلى قبيلة ممزّقة غير نابهة ، هى قبيلة باهلة التى كانت خارج المجموعات
الكبرى للقبائل ، وكان من العسير أن تجد مكانها فى أنساب القبائل
ومناشئها ، ولكنها انضمت إلى قيس بحكم الظروف[1] ، ولم يكن شىء

---

(١) وكذلك أيضاً فى أرض الجزيرة ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ ، وابن الأثير
ج ٤ ص ٢٥٦ فما بعدها وانظر ما تقدم ص ١٩٦ هامش رقم ١ .

أحب إلى الحجاج من أن يكون قتيبة ليست له عشيرة قوية ، فيدعوه ذلك إلى أن يعوّل على الدولة .

ولم يكن العرب قبل عهد قتيبة بن مسلم قد غزوا إلا بعض البلدان الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من خراسان ، وهى أيضاً لم تكن قد أخضعت إلا إخضاعاً موقتاً . وهذا ما يتبينه الإنسان من أخبار موسى بن عبد الله بن خازم . وكان قتيبة هو أول من شق الطريق لفتح هذه البلاد ، وأقل ما يمكن أن يقال أنه هو الذى شق طريق الفتح الحقيقى لها . ولكى يتسنى لنا أن نفهم الحملات التى قام بها فهماً جيداً يحسن أن نُلِمّ بشىء موجز من الملاحظات الجغرافية والملاحظات المتعلقة بأحوال الأمم ، وذلك فيما يتعلق بثَغْرَىْ خراسان .

كان أحد هذين الثغرين هو طخارستان أى أرض بلخ أو البكتريان (Bakterien) القديمة . وطخارستان هى فى الحقيقة تلك الأرض الجبلية الواقعة على ضفتى نهر بلخ الأوسط حتى بَذَخْشان ، وتدخل فى ذلك أيضاً ، بحسب ما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١١٨٠ س ٧) شومان وآخْرُون . أما فى العادة فلا يُفْهم من طخارستان سوى الأرض الواقعة جنوب نهر بلخ . وكان العرب يعتبرون ذلك جزءاً من إقليم مدينة مرو الروذ ، وكانت أقصى مدن معسكراتهم فى جهة المشرق ، وذلك أنهم لم يحتلوا مدينة بلخ (بكترا (Baktra) احتلالاً دائماً ، ولكن بلخ كانت لا تزال هى العاصمة الحقيقية لتلك البلاد ، وكان يقع فى منطقة بلخ إلى جهة المشرق خُلْم والطالقان والفارياب وغيرها من المدن ، أما إلى الجنوب وفى أعلى بلاد الغور (Paropamisus) فكانت تقع رساتيق جوزجان أو جوزستان وغرشستان أو غرجستان (مع مدينة باميان التى تتحكم فى الممر بين الجبال) ؛ وإلى الغرب كانت تقع باذغيس بين وادى مرغاب وهريروذ . أما إلى الجنوب الشرقى فكانت غازنين ولشتى تتبعان كابلستان وسجستان .

أما الثغر الآخر الذى كان أعظم شأناً فى خراسان فقد كان أرض ما وراء النهر ، ويتبع ذلك بوجه عام من جهة المشرق أرضُ الختلان وأرض جبال (جبل الملح ١٥٩٦) الختّل التى تمتد من بذخشان إلى الغرب حتى نهر وخشاب[1] ، ثم تأتى بعد ذلك أرض الصغانيان ، أو أرض الصغان[2] . أما إلى الغرب ، فيما بين ترمذ على نهر بلخ وسمرقند على نهر السغد (Polytimetus) فكانت تقع مدن شومان وآخرون ، ثم كِش ونَسَف ؛ والمدينتان الأخيرتان تلحقان عند المقدسى (ص ٢٦٧ ، ٢٨٢ فما بعدها) بأرض الصغانيان ، ولكنهما عادة تلحقان بأرض السغد ، وأرض السغد تقع إلى جانبى نهر السغد الأدنى الذى يسير حتى يتلاشى فى واحة بخارى دون أن يبلغ نهر بلخ[3] . والعاصمة القديمة لأرض السغد هى سمرقند ، وإذا ذكر اسم السغد فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو سكان مدينة سمرقند وأرضها . وإلى المشرق من أرض السغد تقع من جهة بلادُ أشروسنه الجبلية على المجرى الأعلى الضيق لنهر السغد ، ومن جهة أخرى إلى شمال الجبال تقع أراضى الشاش وفرغانه على نهر الشاش (Jaxartes) عند أبواب بلاد الترك . أما المجرى الأدنى لنهر بلخ فهو بعد أن ينحنى نحو الشمال يخترق صحراوات حتى يكوّن آخر الأمر واحة خوارزم . والمعبر الأكبر فى هذه المسافة يكون عند آمل ، ويكون العبور على جسر من السفن .

أما سكان كل هذه البلاد الواسعة ولغتهم وحضارتهم[4] فقد كانت إيرانية ،

---

(١) وهى الآن سرغاب ، وفى تسمية وخش – آب بقى اسم نهر (Oxus) ، وقد صار لا يستعمل فى تسمية النهر الأكبر .

(٢) يسمى ملك هذه البلاد صغان – خُداه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٦ و ١٦٠٠ فما بعدها .

(٣) يسمى الآن زرفشن واسم (Polytimetus) غير مفهوم والأولى أن يكون اسمه (Polytmetus) ، ذلك لأن النهر مؤلف من نهيرات كثيرة ينقسم إليها ، ونظام الرى القديم فى هذه البلاد هائل ومشهور لا يفوقه نظام آخر .

(٤) وإلى جانب نظام الزراعة القائم على نظام الرى الفنى كانت التجارة أيضاً (الفراء ، الحرير ، الماء ، الرقيق) مهمة جداً على الطريق إلى الصين .

وأما من الناحية السياسية فقد كان يسودها انقسام كبير ، وهذا الانقسام لم يأت مع سقوط الدولة الساسانية ، بل كان قد وقع قبل ذلك . فكانت هناك طبقة الأشراف الذين يسمون الدهاقنة ، وقد تميز من بينهم حكام ينتمون إلى أسر ويحكمون الأشراف العاديين ، وهم كبار الملاك والحكام فى القرى ، ونجد فى الرساتيق المتفرقة وفى المدن الكبيرة أمراء فيهم وراثة الحكم ، ولهم ألقاب خاصة بهم[1] . وليست كل هذه الألقاب آرية ، فنها ألقابٌ غير آرية ، وذلك أن الإيرانيين ، وهم قد كانوا ممزّقين كل ممزّق ، لم يبقوا بنجوة من الاختلاط بغيرهم ولا من الخضوع لهم ، ففى إقليم Parätacene جاء الخُتّل وكوّنوا طبقة فوقهم وملكهم يسمى السَّبَل[2] . ويظهر أنهم هم الهياطل (Hephthaliten) القدماء ، وكان هؤلاء من قبل يحكمون أرض ما وراء النهر كلها ، ولذلك يسميها المقدسى بلاد الهيطل ، بإطلاق هذه التسمية . ولكن فى الفترة التى تعنينا دراستها هنا كان الهياطلة قد اندحروا وراء الترك ، وكان الموطن الحقيقى لهؤلاء يقع إلى الشرق من نهر الشاش ، ولكنهم فى أثناء الغارات التى كانوا يقومون بها من هناك ، متوغّلين مسافات بعيدة جداً ، كانوا كثيراً ما يتقدمون إلى المدن الإيرانية ويستقرون فيها ويؤسسون أمراً حاكمة ويأخذون إتاوة من البلاد ، ونجد اللقب التركى « طرخون » أو « طرخان » موجوداً فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، وهو يطلق على الأمير التابع للخاقان[3] .

---

(١) كثيراً ما نجد لقب خُداه ، ونجد لقب الشاه فى خوارزم والأصبهبذ فى بلخ والأخشيد فى فرغانة والشير فى غرشستان .

أما لقب الإخريد ولقب الفيلك فى كش ولقب الأشقند فى نسف ولقب الأفشين فى أشروسنة فهى فى الحقيقة أسماء أعلام .

(٢) إن لم يكن هذا اللقب اسم علم — قارن جيش (حنش) بن سَبَل .

(٣) الطبرى ج ٣ ص١٦٤٧ ، حيث نجد عبارة الخاقان وطراخنته ، قارن لقب الرَّبنْجَن فى رُب والتُنسيك (الترسل) فى الفارياب والسهرك (السهرب) فى الطالقان والشاذ — وكلها فى طخارستان . وسيد الترك يسمى دائماً بالخاقان ، كأنما لم يكن هناك سوى خاقان واحد .

فكان الترك فى ذلك الزمان هم فى الحقيقة الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفى طخارستان ، وكان على العرب أن يحاربوا الترك خاصة فى طخارستان على الأقل ، وقد ردّهم العرب وأخرجوهم من خراسان ووضعوا حداً لغارات السلب من جانبهم . وصار العرب ينافسون الترك فى السيادة على السكان الإيرانيين منافسة ناجحة . ولكن العرب أيضاً كانوا يكتفون بإخضاع البلاد إخضاعاً سطحياً جداً ، وكانوا فى جميع الجهات يتركون السلطة المحلية على ما هى عليه ، ويأخذون إتاوة كانت تسمى فدية ، أى مقابل الكفّ عن شن الغارات وعن النهب ، فإذا لم تدفع هذه الفدية — وهـــذا ما كان يقع بمنتهى السهولة — فعند ذلك تبدأ الحروب من جديد . ولم يكن العرب دائماً يكرهون أن تتكرر المناسبات التى تمكنهم من القيام بغارات النهب .

ولم يحدث على يد قتيبة تغيير أساسى فى هذا الوضع ، ولكنه وسّع نطاق السيادة العربية إلى ما وراء الثغور توسيعاً أبعد أثراً مما كان لها من قبل ، فلبث سنين كثيرة يخرج للغزو ، وفى كل ربيع كانت تأتى المقاتلة من أبرشهر وأبيورد وسرخس ومن هراة ومرو الروذ إلى مرو ، لكى تخرج فى الغزو دون أن يحتاج قتيبة إلى دعوتها . وفى سنة ٨٦ هـ قام قتيبة بحملة على آخَرون وشومان كان قد أعدها سلفه (بعد فتح ترمذ) ، وقد تعهد الملك بدفع الإتاوة . وفى السنة التالية توجه قتيبة لغزو المدن الواقعة فى واحة بخارى ، وفى سنة ٨٧ و ٨٨ هـ فتح بيكند وتومشكت ورامدين ، وقد غنم فى مدينة بيكند ، وهى مدينة تجارية ذات مخازن كبيرة للبضائع [1] ، مستودعاً غنياً بالأسلحة ، فجهز به جنده العرب ، وكانت عدته الحربية حتى ذلك الحين قليلة ، ولم يكن جنده يملكون إلا ثلاثمائة درع (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠ ا فما بعدها) وفى سنة ٨٩ — ٩٠ هـ غلب على بخارى نفسها ، وقد

---

(١) ويظهر أن إلياس النصيبى يقصد هذه المدينة فيما ذكره من أخبار سنة ٨٧ هـ .

حثّه الحجاج على ذلك ، وكان الحجاج قد طلب أن تُرْسَل إليه خريطةٌ لتلك البلاد ، وتولى هو وضع الخطة الحربية . وفى سنة ٩١ هـ اشتغل قتيبة فى طخارستان بإخضاع ثورة متشعبة تشعباً كبيراً ، وكان الطرخان نيزك هو روح هذه الثورة ، فاستدرجه قتيبة من الحصن الذى كان قد لجأ إليه بمدينة اسكيمشت[1] ، ثم قتله غدراً هو وآخرين من الطراخنة والدهاقنة ، ثم عبر بعد ذلك نهر بلخ وافتتح مدينة شومان ، وكان ملكها أيضاً قد اشترك فى الثورة التى قام بها الطرخان نيزك ، ثم تقدم قتيبة عبر الباب الحديدى[2] وأخضع مدينتى كِش ونسف[3] ، وأقام فى بخارى حكومةً جديدة بعد أن قام بقتل من اقتضى الحالُ قتلَهم . وفى سنة ٩٢ هـ كان فى سجستان ، ويروى أنه أرغم زنبيل كابل على دفع الإتاوة . ثم أغار فى سنة ٩٣ هـ على مدينة خوارزم إغارة لم تكن متوقعة على الإطلاق .

وقد كان دعاه إلى ذلك سراً شاه خوارزم ، فأخذ قتيبة فى أول الأمر أيضاً جانب الشاه على أخيه الأصغر ، ولكنه بعد ذلك أخرجه من خوارزم وأقام حكومة عربية فى البلاد . ومن خوارزم توجه إلى سمرقند مُخْفِياً مقصده عن جنوده ما أمكنه ذلك ، وكان طرخون سمرقند فى سنة ٩١ هـ قد صالح قتيبة على إتاوة ، ولكن رعاياه أسقطوه بسبب هذه الذلة واضطروه إلى الانتحار وحل محله اخشيد غوزك ، وقد رحّب قتيبةُ بهذا السبب للتدخل ، وتمّ الصلح بعد حصار طويل ، وتعهد الغوزك بدفع الإتاوة ، وتمّ الاتفاق على أن يدخل قتيبة سمرقند ويقيم الصلاة فى مسجد جديد يؤسَّسُ لذلك ، ثم يخرج من المدينة على الفور ؛

(١) راجع الأصطخرى (ص ٢٧٥) ، وهذه المدينة تقع إلى الشمال قليلا من خط عرض ٣٦° وإلى الشرق قليلا من خط ٦٩° وتسمى فى المصورات الإنكليزية باسم إسكيمش ، قارن Marquart : Eranschahr ، ١٩٠١ ، ص ٢١٩ .

(٢) هذا هو اسم ممر ضيق مشهور يقع على فرع النهر الذى يسمى الآن بنهر كشكه ، وقد صوره ريكلوس (Reclus, 6, 502) .

(٣) المقصود من فارياب عند الطبرى (ج ٢ ص ١٢٢٩ س ٣) هو فرياب — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ س ٣ .

ولكن قتيبة بعد أن دخل المدينة لم يخرج منها ، بل جعلها مدينة لحامية العربية وقاعدة لفتوحات أخرى . فمن هناك تقدم فى السنين الثلاث الأخيرة لولايته (من سنة ٩٤ إلى ٩٦ هـ) ، فدخل وادى زرفشان الأعلى ودخل أرض الشاش وفرغانة ؛ بل يروى أنه بلغ كشغر حتى اتصل بالصين[١] . وتتفق رواية المدائنى ، كما حكاها الطبرى ، مع رواية البلاذرى فى الجملة ، غير أن المدائنى لا يذكر سجستان وكشغر ، ولكن أشعاراً كثيرة من ذلك العصر تؤيد رواية المدائنى[٢] .

وكان من عادة قتيبة أن يترك الأمراء فى البلاد التى يفتحها على حالهم ، إذا صالحوه على إتاوة ، وإنما كان يضم إليهم رقباء أو نوايا من العرب فى كثير من الأحيان ؛ أما بعض المواضع التى تكون لها أهمية كبيرة فكانت « تُستَعمَر » ، إذا ساغ أن نعبر بالتعبير الرومانى ، أى أنها كانت تُختَار لتكون مقراً للعروبة وللإسلام ، وإن لم يُخرَج منها أهلها السابقون وإن بقى لهم أيضاً فوق ذلك شىء من الاستقلال الإدارى فى ظل حكامهم القدماء . وكان لهؤلاء خاصة فرض الضرائب وجبايتُها . وقد جُعِلَتْ سمرقند خاصة مقراً للجيش العربى ، فجاءت إليها حامية قوية معدّة بكل عدّة الحرب ، فاحتلتها وهدمت بيوت النار ومعابدها

---

(١) قارن الأشعار الموجودة عند الطبرى (جـ ٢ ص ١٢٧٩ فما بعدها وما ذكره البلاذرى ص ٤٢٦ س ١٨ .

(٢) أهم شعراء خراسان هم ثابت قطنه الأزدى (الأغانى جـ ١٣ ص ٤٩ فما بعدها) وكعب الأشقرى الأزدى (الأغانى جـ ١٣ ص ٥٦ فما بعدها) ونهار بن توسعة البكرى (الأغانى جـ ١٤ ص ١١٥) وزياد الأعجم مولى عبد القيس (الأغانى جـ ١٤ ص ١٠٢ فما بعدها) والمغيرة بن حَبْناء التميمى (الأغانى جـ ١١ ص ١٦٢ فما بعدها) ، وثم شعراء آخرون غير معروفين لا يذكرهم إلا الطبرى . والفرزدق والكميت والطرماح ، كلهم أيضاً يتناولون بين حين وآخر أموراً من أمور خراسان ، وكان الشعراء يتعصبون دائماً لقبائلهم ، واهتمامهم بالأشياء وحكمهم عليها يتبعان ذلك ، رغم ما يقوله نهار بن توسعة فى الكامل (ص ٥٣٨ س ١٥) . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر ، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث المجردة فى ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة .

الأوثان . ويروى أنه صدر الأمر بأن يخلو منها كل وثنى من ليلته . وكذلك اتخذت فيما يظهر فى خوارزم وبخارى إجراءات مماثلة ، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التى اتخذت فى سمرقند . وقضى أيضاً على الوثنية فى بخارى . أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثنى كانت الطواويس توضع فيه فلا بد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك[1]، وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة للبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور ومرو ومرو الروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان . ولا شك فى أن « استعمار » تلك المدن كان خطوة أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون ومما كانوا قد وصلوا إليه فى تلك الناحية وكان لهذا « الاستعمار » أثره الدائم فى جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضاً حواضر كبيرة انتشر منها الإسلام وصارت حواضر للعناية بالعلوم العربية .

وعلى هذا فلم يكن زهو العرب بما أصابوه من نجاح ، كما نعبر عن ذلك الزهو الأشعار الكثيرة ، زهواً أجوف ، وذلك أن الحرب فى تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم . فقد كانوا فى أول الأمر قِلّةً فى العدد ، ولم يكن سلاحهم كافياً ، وكان بُعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدراً لعقبات كبيرة قامت فى سبيلهم ، وكان لا بد لهم أن يحملوا معهم المؤَن والملابس التى تقيهم البرد ، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا فى الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أعداؤهم بالذين يُستهان بهم . وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها فى معظم الأحيان جيوشٌ جرارة ، وهى كانت تأتى من بلاد بعيدة فى الغالب ، وكان معظم هذه الجيوش يتألف من الترك ، وكان يقودها الترك أيضاً . والحق أن العرب كانوا يحاربون الترك من أجل السيطرة على تلك

---

(١) يجب أن لا يعزب عن البال بوجه عام أن الرعايا الإيرانيين لم يطالبوا قط بالدخول فى الإسلام وأنهم قد تركت لهم الحرية فى الدين .

النواحى ، وقد انتزعوها من أيدى الترك . وكان هذا فى الواقع عملاً كبيراً استحق به العرب السيادة على الإيرانيين ، لأن هؤلاء ما كانوا ليستطيعوا أن يردوا الترك عن بلادهم . ويجب أن يُعْزَى الشطر الأكبر من الفضل فى ذلك لقتيبة بن مسلم قائد الجيوش العربية ، فقد شآى سلفه جميعاً ، وكان له عند كبار الإيرانيين من الهيبة أكثر مما كان للمهلب وابنه يزيد[1] . ولقد كان يسلك فى الحرب مسلكاً قاسياً وخبيثاً ، وكان فى سبيل الله وفى سبيل الإسلام لا يرهب الغدر[2] ، وكثيراً ما يرجع الفضل فى نجاحه إلى قلة مبالاته بالمبادئ ، ولكنه لم يتميز بذلك عن الطراز العادى لمن تكون بيده القوة من العرب[3] .

على أنه لما بلغ قتيبة أوج مجده وقوته جاء سقوطه : وقد أثار هذا الحادث دهشة كبيرة فى العالم الإسلامى ، والمدائنى يدخل روايته المفصلة فى ذلك أجزاءً من رواية لأبى مخنف . مات الوليد بن عبد الملك منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (أواخر فبراير سنة ٧١٥ م .) وجاء بعده سليمان ابن عبد الملك وكان يبغض الحجاج وأتباعه ، لأنهم سعوا فى أن يبعدوه عن ولاية الخلافة[4] . ولكن الحجاج أنقذه الموتُ من انتقام سليمان ، فاستطاع هذا أن يبرد نار الثأر فى قتيبة ثم جاء يزيد بن المهلب وعبد الملك بن الأهتم فحرضاه على قتيبة وزادا من حنقه عليه . ولما بلغ قتيبة خبر موت الوليد وولاية سليمان الخلافة بعده كان مع الجيش فى ميدان القتال بأرض فرغانة ، وقد كان يعلم أن مصيره لن يقتصر على العزل ، بل إنه سيتعرض لأن ينزل به ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، فلم يَرَ أن يظل ساكتاً حتى يحل به هذا

---

(١) [قال الأصبهبذ : « لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جحر فى الأرض مكبلا بالحديد ويزيد (ابن المهلب) معنا فى بلادنا والٍ علينا لكان قتيبة أهيب فى صدورنا وأعظم من يزيد » ، ولقد كان قتيبة فى نظر الترك بمثابة ملك العرب – المترجم – الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠٠] .

(٢) [كتب الحجاج إلى قتيبة : اختلهم واقتلهم فى الله – المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠٠] .

(٣) [ومن غير العرب أيضاً – المترجم] .

(٤) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٢٨٤ – المترجم] .

كله ، غير أنه لبث حيناً من الزمان قبل أن يتخذ قراراً حاسماً[1] . وقد أشار عليه أحد أخوته أن يبعث غزوةً ويوجّه فيها كل من يخافه ، وأن يسير حتى ينزل سمرقند ويقول لمن معه : « من أحبَّ المقام فله المواساةُ ومن أراد الانصرافَ فغيرُ مُستَكْرَهٍ ولا متبوعٍ بسوء » ، حتى لا يبقى مع قتيبة بعد ذلك إلا مُناصِح : وأشار عليه أخ آخر بأن يخلع سليمان على الفور وأن يدعو الناس إلى ذلك[2] . فآثر قتيبة أن يلف الجيشَ كله معه في الثورة على الخليفة ، فخطب في مسجد فرغانة وبيّن لممثلى الجيش من هو ومن سليمان ويزيد بن المهلب ، وذكر للناس ما صنعه من التأليف بينهم والعدل فيهم وقسمه الفيء وإجرائه الأعطيات وتأمينه البلاد ، وقارن بين عهده وعهد الولاة قبله[3] ، ثم طلب من الناس أن يؤيدوه . ولكن الناس كانوا إذذاك في آخر حملتهم الحربية لتلك السنة[4] ، وكانوا يحنّون إلى الأهل والولد ، فلم يشعروا برغبة كبيرة في مشروع خطر بعيد النهاية ، ولم يجبه أحد منهم . ولم يكن قتيبة يتوقع ذلك ، فغضب وفقد توازنه حتى صار لا يدرى ما يقول ، وانفجر ، وهو على المنبر ، يتناول باللوم والتقريع الشديد والتشنيع المؤلم جميعَ القبائل ، وذكر كل ما قيل في التشنيع عليها ولم يُوَفِّر عرض أية قبيلة . ولما نزل

---

(١) يروى أنه كتب لسليمان ثلاثة كتب ، ولكنه لم ينتظر جوابها ، فنام رسول سليمان ، وهو في حلوان ، بأخبار ثورة قتيبة ، أما ما يذكره فايل (1,556s.) من أن سليمان كتب لقتيبة كتابين فلا ذكر له عند الطبرى ، وفي ذلك من الخطأ أن قتيبة لا يزال يعتبر موجوداً في مرو وأنه يؤمر بالخروج إلى فرغانة . وقبيلة باهلة ، التي كثيراً ما تعتبر هنا عند المدائني صاحبة تراث خاص ، قد حاولوا أن يبرئوا صاحبهم قتيبة ، انظر مثلا (الطبرى ج ٢ ص ١٣١١). [ويجد القارئ أخبار الكتب الثلاثة التي كتبها قتيبة لسليمان عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٤ — ١٢٨٥ . على أن قيساً تزعم أن قتيبة لم يخلع سليمان ولم يخرج من طاعته (الطبرى ج ٢ ص ١٣١١ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٦ فما بعدها — المترجم] .

(٣) [الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٧ — المترجم] .

(٤) من العسير أن يكون خبر وفاة الوليد قد بلغ فرغانة قبل شهر يولية ، ثم إنه قد مضى وقت بعد ذلك قبل أن يظهر قتيبة بخطته .

عن المنبر ودخل منزله أتاه أهل بيته ونبّهوه إلى ما كان منه من إغضاب أعدائه وأنصاره على السواء ، فقال إنه لما لم يجبه أحد غضب حتى لم يَدْرِ ما يقول — ثم أعاد تشنيعه على القبائل .

وبذلك أسخط قتيبة كل من فى الجيش من العرب واستفزهم بشتائم من شأنها أن تغضبهم أشد الغضب ، فشى بعضهم إلى بعض سرًّا يتآمرون على خلع هذا الوالى الخائن للخليفة . وكان الأزد حانقين عليه من أول الأمر ، لأنه أخرج المهالبة . وكانوا أشد الناس ضيقاً به ، فتفاهموا مع حلفائهم من ربيعة وجعلوا حُضَيْن بن المنذر البكرى مستشاراً لهم ، ولكن حُضَيْناً خشى منافسة مضر وتميم بما كان لهم من قوة ، وقال لهم : إن أخرجتم مضر من الأمر أعانوا قتيبة . فلما قالوا له إن تميماً موتورة من قتيبة قال لهم : لا تنظروا لهذا ، فإنهم يتعصبون للمضريّة . وهكذا تُرِك المجال لتميم لتكون هى البادئة ، ونصح حُضَيْن قومه أن يجعلوا الرياسة فى تميم وأن يختاروا وكيع بن الحسن ابن أبى سود ، لأنه مقدام لا يبالى ما ركب ولأن له عشيرة كثيرة وهو موتور من قتيبة . والحق أن تميماً كانت غاضبة من قتيبة ، لأنه وترهم بقتله ابن الأهتم ، وذلك أن قتيبة كان قبل ذلك بسنوات فى أثناء غزوة بخارى قد استخلف عبد الله بن الأهتم على مرو ، فاغتنم عبد الله ذلك للسعى بقتيبة والدسّ له عند الحجاج ، ولكنه أخفق واضطر إلى أن يهرب إلى سليمان بن عبد الملك فى الشام ، وكان سليمان إذ ذاك ولياً للعهد ، يصارع من أجل المحافظة على حقه . فانتقم قتيبة من أخى ابن الأهتم ومن ابن عمه ، فأثار بذلك على نفسه التِّرَةَ من جانب تميم[1] . وفوق ذلك كان قتيبة نفسه قد أغضب وكيع بن الحسن بن أبى سود[2] ، سيد تميم ، وذلك أن وكيعاً انتصر مرة على الترك نصراً كبيراً ، فكتب

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٥ فما بعدها ، والأغانى جـ ٣ ص ١ الطبرى جـ ٢ ص ٨١٧ و ١٣٠٩ فما بعدها و ١٣١٢ .

(٢) لا يصح الخلط بينه و بين سميه الذى قتل ابن خازم ، وكان تميميا أيضاً ولكن من فرع آخر .

به قتيبة إلى الخليفة ولم يجعل مجد النصر لوكيع بن الحسن ، وهو الذى أحرزه واستحقه ، بل هو جعله لأخيه عمرو بن مسلم . ثم أغضب قتيبة وكيعاً أكثر من ذلك بأن أخذ منه قيادة خُمْس (فرقة) تميم وجعلها لرجل من بنى ضبّة ، فتولى وكيع قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيّان النبطى[1] ، أحد القواد الإيرانيين ، وكان قلبه مترعاً بالحنق على قتيبة لأسباب لا تحتاج إلى بيان (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٣)[2] . وكان حيّان هذا رجلاً خطراً فى مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى ، له تأثير كبير ، وكان يعرف كيف يدبّر المؤامرات على نحو ما يعرفه العرب ، وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى ، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام ، وكانوا يؤلّفون فرقة خاصة بهم تحارب فى الجيش العربى ، وكانوا هم أنفسهم موالين لقتيبة ، ولكن حيّاناً عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه ، فقال للعجم : هؤلاء — يقصد العرب — يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً ؛ فأجابوه إلى ذلك .

وقد أنزل قتيبة فى أول الأمر ما وصل إليه من تحذير منزلة كلام أهل الحسد ، ولكنه دهش أخيراً من أن وكيعاً صار لا يحضر مجلسه ، فدعاه إليه ، فتمارض ، فذهب إليه رسول قتيبة ، فوجده قد طلى على رجله مَغْرةً ، ووجد على ساقه خرزاً وودعاً ، وعنده رجلان يرقيان رجله ، فلما قال الرسول لوكيع : أجِبْ الأمير ! قال : قد ترى ما برجلى ! فرجع الرسول إلى قتيبة ، وانتهى الأمر إلى أن أراد قتيبة حملَ وكيع إليه بالقوة . فلما عرف وكيع ذلك قطع الخرز الذى كان على

---

(١) كان يسمى النبطى لا لأنه نبطى ، بل للكنته ، أى لأنه لم يكن يحسن النطق بالعربية (الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١) . [وكان حيان قائد جيش الموالى بخراسان ، وكانوا سبعة آلاف ، فعرض على وكيع أن يكف عنه على أن يجعل له وكيع خراج جانب نهر بلخ طول حياته — المترجم] .

(٢) [وكان قتيبة قد أمر بضرب حيان وحلقه — المترجم] .

رجله ولبس سلاحه وانتقل من فراش المرض المزعوم إلى ظهر فرسه . وقد خرج وَحْدَه ، ولكنه جعل حوله جماعة كافية ، لكي يستطيع أن يهجم على قتيبة . أما قتيبة فلم يجتمع إليه إلا أهل بيته من إخوته وأبناء عمومته القلائل من باهلة وآخرون من ثقاته . أما الأعاجم وعلى رأسهم قائدهم حيّان — وكان قتيبة يعتقد أنه يستطيع أن يُعَوِّل عليهم — فقد انحازوا إلى المهاجمين ، ونادى قتيبة في الناس ، فلم يُجِبْه أحد حنقاً عليه ، فتعزّى عن اليأس بالصبر ودعا ببرذون له مُدَرَّب ، كان يركبه في الزحوف ، فلما قُرِّب إليه ليركبه جعل يقمص حتى أعياه . فعاد قتيبة إلى سريره أمام حصن فرغانة ، ينتظر ، وهو مستسلم ، تلك النهاية التي لا بد أن تنتهي إليها المعركة وشيكاً . فقُتل إخوته وأنصاره وقُتل هو أيضاً ، واحتز رأسه رجلٌ من الأزد . ولقد أخطأ قتيبة في تقدير ما ظن أنه يقدر عليه من إثارة الجيش معه على الخليفة . ولو أنه كانت له قبيلةٌ تؤيّده لجرى الأمر على غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها) ، ولكن لم يكن له ما كان يحتاج إليه ، فقد كانت باهلة قبيلة ضعيفة ، وتخلت عن قتيبة قيسٌ التي كان يعتز بها ، كما تخلى عن مساعدته الأعاجم . ورغم قوة تلك الفكرة التي أراد بها أن يؤثر في الجماهير فإنها لم تأت له بأنصار ، لأنه ما كان يريد سوى المحافظة على نفسه وعلى منصبه . وليس من السهل على إنسان مهما كان كفوءاً عظيم المقدرة ، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبُه ، أن يستطيع ضمَّهم إلى جانبه عندما يكون ثائراً على السلطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه . وقد لقي عبيد الله بن زياد في البصرة وأخوه سلم بن زياد ما لقوا من عواقب هذه التجربة ، فقد أخطآ في الحسبان ، لما ظنا أنهما يستطيعان المضي في حكم الولايات التي كانا عليها حكماً مستقلاً عن الخلافة ؛ وذلك أن أميراً أياً كان ، ما لم يكن في نفس الوقت رئيس قبيلة ، لا يستطيع شيئاً من غير الخليفة ، وهو أيضاً لا يستطيع شيئاً إذا أراد الخروج على الخليفة ، لأن القيمة الشخصية للأمير ليست كافية في أن تكفل له النجاح . على أن أمراء الأعاجم قد استنكروا مسلك العرب إزاء قتيبة

واعتبروا ذلك أشبه شيء بالانتحار . وقد كانوا على حق ، لأن سقوط قتيبة ألحق بالسيادة العربية على الثغور التي افتتحها وأسس فيها القواعد العربية ضربةً قاسية[1] .

وقد وقعت الكارثة في سنة ٩٦ هـ ، بحسب ما جاء عند الطبرى[2] ، وفي أول سنة ٩٧ هـ ، بحسب ما جاء عند ابن قتيبة . وبعد أن قُتل قتيبة وَنال وكيع اعتراف القبائل بالإمارة له موقتاً طالب برأس قتيبة المقطوع ، فلما امتنع الأزديُّ الذي كانت عنده الرأس — لأن الأزد حرضته على ذلك — أشار وكيع إلى خشب جاء به ونصبه وقال : « إن هذه الخيل (يريد الخشب المنصوب) لا بد لها من فرسان » ، ومعنى ذلك أنه يهدد الممتنعين عن الإتيان بالرأس بأن يصلبهم . وقد كان لكلمته تأثيرُها ، فحُمِل إليه الرأس ، وأرسله إلى الخليفة ، لكنه أرسله مع رجال من قبائل شتى ولم يبعث من بني تميم أحداً ، لأن تميماً لم تكن لترضى عن ذلك ، ثم خطب في المسجد[3] خطبة قصيرة افتتح بها عهده ، وكانت تتكون من مجموعة من أمثال بذيئة تنمّ عن روح العنف ومن أبيات من الشعر ، ولكنها كانت كافية للإفصاح عن رأيه ، وقال في آخر خطبته : « والله لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ : إني والغ دماً : إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعارَكم ، والله ليصيرنّ القفيز في السوق غداً بأربعة (دراهم) أو لأصلبنّه — صلوا على نبيكم ! » ، وهو يقصد من ذكر المرزبان ، فيما يظهر ، قتيبة ، كأنما كان قتيبة أحد كبار العلوج من الطراز الإيراني[4] . أما وكيع نفسه فقد ظهر بمظهر العربي من النموذج الأصيل

(١) [يذكر الطبرى (جـ ٢ ص ١٣٠٠) قول رجل من العجم : يا معشر العرب ! قتلتم قتيبة ؛ والله لو كان قتيبة منا فمات فينا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا ، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة — قارن الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠٢ — المترجم] .

(٢) [تجد كل ما يتعلق بقتيبة بن مسلم وبثورته ومقتله عند الطبرى مثلا (جـ ٢ ص ١٢٨٣ — ١٢٩٧) — المترجم] .

(٣) لا شك أن ذلك كان في مرو لا في فرغانة [تجد خطبته عند الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩٨ — المترجم] .

(٤) على أنه قد كان في مرو رجل يسمى المرزبان حقيقة ، وربما كان على الشرطة في السوق .

القديم ، وكان جاداً فى إسلامه ، ولكنه مثلا لم يكن يأخذ الناس بعقوبة الجلد التى جعلها القرآن حداً لبعض الجرائم . فقد جىء له يوماً بسكران ، فأمر به فقُتِل ، فقيل له : « ليس عليه القتل ، إنما عليه الحد » ، فقال : « لا أعاقب بالسياط ، ولكنى أعاقب بالسيف » . ولما قتل قتيبة أمر وكيعٌ رجلا فنادى : لا يُسلبَنّ قتيلٌ ، فسَلَبَ رجلٌ من العرب أحد قتلى باهلة ، فضرب وكيعٌ عُنُقَه(١) ، ومنع من مثل ذلك العمل منعاً شديداً . وهكذا كانت لوكيع طريقته الخاصة . وقد أقرَّهُ سليمان بن عبد الملك فى الولاية فى أول الأمر ، ولكن بعد تسعة أشهر أوعشرة حل محله يزيد بن المهلب ، فتولى خراسان إلى جانب ولايته العراق ، وكان عليها من قبل . وكان ليزيد ، خلافاً لقتيبة ، قبيلةٌ وراءه تشدّ أزره ، والإنسان يلاحظ ذلك . ولما ولى يزيد وصلت الأزدُ إلى دفة الحكم وإلى موارد الغنائم ، وأزيلت تميمُ عن مكانها ، ولقى وكيع من العذاب ما لقى . هذا إلى أن يزيد بن المهلب جاء بجند من جند الدولة فى الشام فأدخلهم إلى خراسان ، بعد أن كان الحجاج قد تعمد أن يجعلهم بعيدين عن خراسان (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧) ، وكان لا يستعملهم إلا فى الهند . وملأ يزيد جميع المناصب بأبنائه وأقربائه كما هى العادة ، وكان يحسُّ فى خراسان أنه فى بيته ، فكان فى خراسان أقلَّ تحرجاً مما كان فى العراق . وقد أتيحت له فى الولاية الجديدة فرصةٌ أكثر مواتاةً للنهب وابتزاز الأموال ، وكان لا بد له من المال فى حاجاته الغالية الثمن — مثل الجوارى الحسان — لأنه كان يظهر بمظهر الأبهة الكبيرة .

ويُروى أنه كلما كان قتيبة يفتتح فتحاً ، كان يُسَرُّ به سليمان بن عبد الملك(٢) ، فيقول ليزيد بن المهلب : « أما ترى ما يصنع الله على يدى قتيبة ! » ، فيجيب

(١) [تدل هذه القسوة على شطط فى العقوبة يتجاوز حدود الشرع مبالغة فى الردع ، دون أن تدل على استنكار الحدود الشرعية — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٢٧ — المترجم] .

يزيد بأن هذه الفتوح ليست بشىء وأن الشأن لجرجان التى تحول بين الناس وبين الطريق الأعظم إلى خراسان . والواقع أن البلاد الجبلية الواقعة إلى الجنوب الشرقى من بحر الخزر كانت منطقة تقطع اتصال الأرض الإسلامية قطعاً يضايق مواصلات الدولة . فلما ولى يزيد بن المهلب خراسان لم يكن له همّ غير فتح جرجان ، ولكن لم يَدْعُهُ إلى ذلك شعورُه بما يوجبه عليه الشرفُ ، بعد أن قال فى فتوحات قتيبة ما قال ، بمقدار ما دعته إليه فرصةٌ سانحة أتاحت له فتح جرجان[1] . وذلك أنه كان فى جرجان فى ذلك الوقت نزاعٌ على الملك بين الأمير فيروز بن قول مرزبان جرجان وبين ابن عم له يقال له المرزبان ، وكان المرزبان هذا حليفاً لصول التركى صاحب دهستان ، ففرّ فيروز وقصد إلى يزيد بن المهلب وطلب المعونة منه ، وفى ربيع سنة ٩٨[2] هـ خرج يزيد فى جيش جرّار لا نظير له من قبل ، وكان الجزء الأصغر منه من أهل خراسان ، أما الأكبر فكان يتألف من أهل العراق ومن أهل الشام . فأعاد فيروزَ إلى عرشه من غير قتال ، وكان فيروز قد أشار على يزيد باستدراج الصول من معقله فى الجبال إلى البحيرة ، ففعل ، وحاصره فغلبه ، ويقال إنه قتل أربعة عشر ألفاً من أسرى الترك صبراً وإنه غنم غنائم لا يمكن إحصاؤها . وبعد أن تمّ ليزيد إخضاع أرض دهستان وبياسان تقدم قاصداً أصبهبذ طبرستان ، فبعث إليه الأصبهبذ يطلب

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣١٧ فما بعدها ، خصوصاً ١٣٢٣ فما بعدها — المترجم] .

(٢) يروى أن ذلك كان فى سنة ٩٨ هـ ، ومن البديهى أن تكون الحملة قد بدأت فى الربيع ، وهو يقع فى النصف الثانى من هذه السنة ، ولا يمكن أن تكون الحملة قد استمرت إلى ما بعد الخريف ، وفى الخريف كان فى الشام موت سليمان بن عبد الملك ، فخلفه عمر بن عبد العزيز ، وقد أعقب هذا التغير فى الخلافة سقوط يزيد بن المهلب . وإذا كان هذا هو الثابت ، فإنه لا يمكن أن يكون حصار الصول قد دام ستة أشهر وحصار المرزبان قد دام سبعة أشهر . أما الصحيح فهو أنه لابد أن يكون يزيد قد خرج إلى جرجان بعد وصوله إلى خراسان بثلاثة أشهر أو أربعة ووصوله كان فى النصف الأول من سنة ٩٨ هـ وكان قد أرسل ابنه مخلداً ليسبقه إلى خراسان .

الصلح ، فأبى يزيد ، رجاء فتح طبرستان عنوة ، لأن ذلك يؤتيه غنائم أكثر . ولكن يزيد هزم هزيمة كبيرة ، ووجد أنه فى نفس الوقت مهدد في ظهره بسبب ثورة فى جرجان ، وعند ذلك لجأ إلى حيّان النبطى ، رغم ما كان منه من إساءة إلى حيّان ، لكى ينصح له ويتوسط فى الصلح ، فذهب حيّان إلى الأصبهبذ وقال له : « أنا رجل منكم ، وإن كان الدينُ قد فرّق بينى وبينكم ، وأنت أحبُّ إلىّ من يزيد . وقد بعث يستمدّ ، وأمدادُه منه قريبة ، وإنما أصابوا منه طرفاً ، ولست آمنُ أن يأتيك ما لاتقوم له ، فأرحْ نفسك منه وصالِحْه ، فإنك إن صالحتَه صَيّر حَدّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا » ، فصالح الأصبهبذُ على إتاوة اتفق مع حيّان عليها ، ورجع حيان إلى ابن المهلب وأبلغه شروط الصلح ، فلم يكد ابن المهلب يصدّق ، من سوء ما كان يتوقع . حتى إذا تخلص ابن المهلب من هذا المأزق رجع إلى جرجان : وكان المرزبان قد ثار فيها من جديد والتجأ إلى حصن ، فاستولى عليه ابن المهلب بعد حصار طويل . وكان ابن المهلب ، بعد أن نكث أهلُ جرجان وغدروا بجنده ، قد أعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ألاّ يُقلِع عنهم ولا يرفع عنهم السيفَ حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه ، فبعد أن انتصر أراد أن يبرّ بيمينه ، فأجرى الماء فى الوادى على الدماء ، وكان على الوادى أرحاء ، فطحن واختبز وأكل ، ثم بنى مدينة جرجان ، ولم تكن قبل ذلك مدينة . وكتب يزيد ابن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بالفتح العظيم الذى تمّ على يديه ، ويقول إنه كان قد أعيى ملوك الفرس وخلفاء الإسلام ، حتى فتحه الله لسليمان ابن عبد الملك ، فافتخر بذلك الفتح الذى لم يكن رائعاً ولم يكن على كل حال إلا فتحاً مؤقتاً . غير أنه فى كتابه أخبر الخليفة أنه قد صار عنده من خُمس الفيء ، بعد أن صار إلى كل ذى حق حقُّه من الفيء والغنيمة ، أربعة آلاف أو ستة آلاف ألف درهم ، ووعد بأنه سيحملها إلى الخليفة . وقد نصح يزيد كاتبُه ألاّ يرتبط

مع الخليفة ببيان مقدار المال تجنباً للنتائج المتنوعة التى تنتج من ذلك ، فأبى يزيد ومهد بما فعل إلى نزول القدر الذى يستحقه ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك توفى فى صفر سنة ٩٩ هـ ، فى صيف(١) السنة التى كانت فيها الحملة الحربية على جرجان ، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال يزيد بن المهلب إنه إنما كتب بذلك إلى سليمان ليسمّع الناس به ، فقال له عمر إن تلك الأموال إنما هى حقوق للمسلمين لا يسعه تركُها ، وطلب من يزيد أن يؤدّيها . فلما لم يفعلْ حبسه حتى يؤدى ما عليه .

٤ — لقد ارتفع شأن الأزد فى خراسان بارتفاع المهالبة ، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم ، فتأخروا إلى المحل الثانى وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة . وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما خالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحيادَ بالنسبة للقبائل ، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد ، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب . ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه بدأ ردّ فعل قوامُه التعصّب على الحزب الذى مالأه سليمان بن عبد الملك ، وخصوصاً بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التى كان المهالبة قد قاموا بها فى العراق ، فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأتباعهم شعار حكومته ، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزد فى خراسان أيضاً ، وإن لم يكونوا قد اشتركوا فى تلك الثورة على الإطلاق . فأقصِىَ المهالبةُ عن جميع مناصبهم وعُذّب رؤساؤهم وأسلموا لباهلة لكى ينتقموا منهم لمقتل قتيبة بن مسلم ، وعادت السيادة لمضر مرةً أخرى وعلى رأسهم تميم ، ولكن الأمير نفسه لم يكن من تميم ، وإن كان منها فى كثير من الأحيان نائبه صاحب الشرطة ، وهم جند الحكومة الملازمين للعاصمة ،

---

(١) سبتمبر سنة ٧١٧ م ، وكان الانتقال من سنة ٩٨–٩٩ هـ يقع فى منتصف أغسطس سنة ٧١٧ م .

بل كان الولاة دائماً من قيس ، وكان منها عمال الدولة منذ أيام الحجاج ، ولكن ارتباط أمراء قيس برابطة النسب القبلي وتكوينهم حزباً واحداً لم يكفهم عن العداوة والشر فيما بينهم ، فكان الخلف منهم فى الغالب يعذب سلفه ويبتز منه المال بدعوى أنه يطالب بما كان تحت تصرفه من أموال الدولة ، وكان الأمير يفعل مثل ذلك مع العمال الذين استعملهم سلفه ، وكانت هذه هى صورة المسئولية الوزارية عند العرب . وكان التغير المستمر المفاجئ فى الحكومة عائقاً دون تنفيذ سياسة متصلة ، وكان الحكم أمراً شخصياً محضاً ، وكان بمثابة سياسة نهب يسرع الوالى فى استثمارها أو فى التهام الغنيمة التهاماً ، إذا صح التعبير . ولم يكن ذلك مقصوراً على خراسان ، لكنه كان يجرى فيها على أوقح صورة وعلى أخطرها أيضاً ، لأن الحاجة إلى حكومة ثابتة الأركان دائمة السلطان فى تلك البلاد النائية المعرضة لهجمات الأعداء كانت أشد ما تكون ، وكان من تأثير هذه الظروف أنه لم تلبث أن تزعزت أركان الفتوحات التى قام بها قتيبة بن مسلم ، وصارت الحاجة دائماً تدعو إلى إعادة فتح ما فتح . وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التى أسسها قتيبة للعروبة والإسلام فى بلاد السغد ، خصوصاً سمرقند وبخارى ، كما أن العمل على صبغ تلك البـلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد .

ولكن نشأ من ذلك خطرٌ جديد على السيادة العربية لم يكن متوقعاً ، ولم يزل خطبُه يتفاقم باستمرار . فقد كان الأمير الذى وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجرّاح بن عبد الله الحكمى ، وكان من مدرسة الحجاج ، فغزا الختّل فى أرض Parätacene بعد أن لم يكن قد غزاهم أحدٌ من قبل غزواً يستحق الذكر ، وكتب الجرّاح يخبر الخليفة بذلك[1] . وأوفد وفداً : رجلين من العرب ورجلا من موالى بنى ضبة يُكنى أبا الصيداء ، وكان أبو الصيداء هذا رجلا فاضلا فى دينه ، فتكلم العربيان ، وهو جالس

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٣ فما بعدها — المترجم] .

لم يتكلم ، فقال له عمر : « أمَا أنت من الوفد ؟ » قال : « بلى » ، قال : « فما يمنعك من الكلام ! » . وهنا وجد أبو الصيداء — وإن كان عربياً بالولاء[1] — أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمةً طيبة فى مصاحة الأعاجم الذين دخلوا فى الإسلام ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومِثْلُهم قد أسلموا من أهل الذمة ، يُؤْخذون بالخراج . وأميرنا عَصَبِىٌّ جاف ، يقوم على منبرنا فيقول : «أتَيْتُكم حَفِيًّا ، وأنا اليوم عَصَبِىٌّ ، والله لَرَجلٌ من قومى أحبُّ إلى من مائة من غيرهم . . . » ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان » ، فقال عمر : « إذَنْ مِثْلُكَ فليُوفد » ، وكتب عمر إلى الجراح يأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم ، فسارع الناس إلى الإسلام[2]. ولما قيل للجراح . إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية ، ونصحوه أن يمتحنهم بالختان ، كتب بذلك إلى عمر ، فردّ عليه عمر يقول : « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه خاتناً . واستدعى عمرُ الجراحَ ثم عزله بعد أن كان قد قضى فى الولاية ما يقرب من عام ونصف ، وذلك فى رمضان سنة ١٠٠ هـ (إبريل سنة ٧١٩ م) ، وعين مكانه والياً أكثر ليناً ، وكان ضعيفاً يحب العافية[3] ، وهو عبد الرحمن ابن نعيم الغامدى ، وكان أزدياً ، لكنه لم يكن من أزد عمان ، أعنى من الحزب الأزدى فى خراسان . وقد جعله عمر على الحرب والصلاة ، وضم إليه على الخراج عبد الرحمن بن عبد الله القشيرى من قيس ، وكان رجلاً ذا همة وإقدام . وبقى ابن نعيم بعد موت عمر فى منصبه حيناً ، ثم عُيّن مكانه فى سنة ١٠٢ هـ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص أحد الأمراء الأمويين ، وهو المعروف باسم سعيد خُذَيْنَة ، لأنه كان رجلاً

---

(١) وكان لا يعرف الفارسية (الطبرى جـ ٢ ص ١٥٠٧) ، أما إنه كان مولى ، فإن هذا لا يجعله إيرانياً .

(٢) فدخل فى الإسلام كثير من الملوك فيما وراء النهر (البلاذرى ص ٤٢٦) .

(٣) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٣٥٦ — المترجم] .

ليناً سهلاً متنعماً[1] . وقد زاد بأمر يزيد بن عبد الملك فى الإساءة إلى الأزد وفى معاداتهم ، ولكنه لم يشتدّ فى معاملة الأعاجم ، أو على الأقل فى محاربة السغد الذين كانوا قد ثاروا على العرب فى ذلك الوقت بجهة سمرقند — ولم يثوروا فى العاصمة نفسها — ولحقوا بالترك ، بعد أن كانوا قد عادوا إلى الهجوم على ما حولهم ، وساعدوهم على العرب . وبسبب هذا اللين الذى بدا للعرب أنه قد وُضِع فى غير موضعه عُزِل سعيد خذينة عن منصبه ، وعُيِّن مكانه سعيد بن عمرو الحرشى[2] . فاشتد سعيد مع أهل الفتنة ، وخافوا على أنفسهم منه ، فأجمعوا على الخروج من بلادهم والهجرة إلى فرغانة . ولم يكن للعرب فى فرغانة ما كان لهم فى غيرها من سلطان . وقد هاجر منهم خاصة أهل مدن قِىّ وإشتيخن وبَيارْكَث وبُنْجيكَث وبُرْماجَن[3] ، وقد خرجوا ومعهم أمراؤهم وعلى رأسهم كارزنج صاحب مدينة قِىّ ، وكان فى الحقيقة شأنه شأن غيره من أمراء السغد تركىّ الأصل[4] . وقد توجه معظم المهاجرين[5] إلى مدينة خُجَنْدة (خوكند) على نهر الشاش ، ولكن سعيداً اتبعهم وحصرهم فى مدينة خجندة . وكان ملك فرغانة

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧ ، ١٤١٧ ، ١٤٢١ ، ١٨٦٧ ، والبلاذرى ص ٤٢٧ وكتاب الأغانى ج ١٢ ص ٥٢ .

(٢) ينتمى إلى بنى الحريش بن كعب من أهل الجاهلية .

(٣) [الطبرى ج ٢ ص ١٤٣٩] وكانت اشتيخن وبرماجن تقعان غير بعيد من سمرقند ، أما بنجيكث فهى ليست مدينة أشروسنه ، بل المدينة المسماة بالاسم نفسه قرب سمرقند ، وكذلك كانت مدينة قى (الطبرى ج ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦ و ١٤٤١ س ٤) تقع قريبا من سمرقند على نهر زرفشن . وفيما يتعلق باسم بياركث قارن الاسم العلم بيار عند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٤٦ س ١٠) . والمقطع كث هو أشهر مقطع يرد فى آخر أسماء المدن .

(٤) فى بيت الشعر المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٢٨١ س ٥) وهو مغلوط ، كتبت كلمة كارازنج بدلا من كلمة كارزنج ، قارن الطبرى (ج ٢ ص ١٤٤٦ س ١٠) . وبحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦) كان ملك قِىّ ، وكان يلقب هناك بلقب ترك خاقان ، فى أول الأمر صديقاً للعرب .

(٥) خلافا لما جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٤١ س ٧) وص ١٤٤٦ فما بعدها ، قارن الطبرى (ج ٢ ص ١٤١٨ س ١) .

قد أخبر سعيداً بأمرهم وأشار عليه بأن يعاجلهم لأنه لم يكن لهم جوارٌ عنده ، ولم يكن قد حل الأجل المضروب لدخولهم فى جواره ؛ وهكذا خاب ظن المهاجرين فى معونة ملك فرغانة لهم ، فسلّموا وطلبوا الصلح والأمان والعودة إلى بلادهم ، على أن يؤدوا ما عليهم من إتاوة وينفذوا شروطاً اشترطها عليهم . وكان من هذه الشروط أن يردّوا من أيديهم من نساء العرب وألا يغتالوا أحداً وإلا حلّت دماؤهم . ولكن أحد أمرائهم قتل امرأة كانت فى أيديهم ، فلما تيقّن الحرشى من ذلك قتل أميراً لهم . وخاف كارزنج مثل هذا المصير على نفسه ، وكان نازلا عند العرب ، فاحتال فى طلب المعونة من ابن أخيه ، وقال لأيوب بن أبى حسان الذى كان نازلا عنده : « إنى ضيفُك وصديقك ، فلا يجمل بك أن يُقْتَل صديقك فى سراويل خَلَق ؛ فخُذْ سراويلى » ، ثم قال : « وهذا لا يجمل ، أن أقتل فى سراويلاتكم ، فسَرِّحْ غلامك إلى جلَنْج ابن أخى يجيئنى بسراويل جديدة » . وكان قد قال لابن أخيه : إذا أرسلتُ إليك أطلب سراويل ، فاعلم أنه القتلُ[1] . فجاء جلنج وحاول الهجوم على معسكر المسلمين ، ولكنه أخفق . وكان السغد قد قتلوا أسرى من المسلمين فى أيديهم ، فعند ذلك أمر الحرشى بقتل جميع جنود السغد ، الأمراء ومن معهم . وقد حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بالخشب ، لأنهم لم يكن معهم سلاح ؛ ولكن ذلك لم يُغْنِ عنهم شيئاً . وفى اليوم التالى قتل الحرشى عدة آلاف من الحرّاثين . على أنه كان فى اليوم السابق قد عزل التجار ولم يقتلهم ، وكان معهم مالٌ عظيم قدموا به من الصين ، وكان عددهم أربعمائة ، ورغم ذلك بقى فى فرغانة كثيرٌ من أهل السغد ، لأنهم لم ينزلوا جميعاً فى مدينة خُجَنْدَة (الطبرى ج ٢ ص ١٦١٣ فما بعدها و ١٧١٧) .

---

(١) [نظراً لأن المؤلف يختصر اختصاراً لا يكون معه الكلام مفهوماً تماماً ، نصلنا الترجمة بعض الشىء طبقاً للطبرى ج ٢ ص ١٤٤١ — ١٤٤٩ — المترجم] .

وأخضع الحرشى ، وهو فى طريقه راجعاً ، مدناً وقلاعاً أخرى كانت قد شقت عصا الطاعة ، وقد غلب عليها صلحاً وتسليا فى معظم الأحيان . ولكنه كان إذا عرف أن فى القلعة مالاً كثيراً صالح أصحابها بعد قبض ما فى القلعة[1] . وقد أراد عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق — وكان الحرشى تابعاً له — أن يجعل من ذلك سبباً للموجدة على الحرشى[2] ، ولكن هذا الغضب كانت له فى الحقيقة أسباب أخرى ، وذلك أن سعيداً الحرشى كان فى كثير من الأحيان يتجاهل ابن هبيرة ، وهو أيضاً لم ينفذ أمراً له باستخراج الأموال من قوم من العرب كانوا فى خراسان ، وكانت أهواؤهم مع ابن المهلب[3] . هذا إلى أن ابن هبيرة وجّه معقل بن عروة إلى هراة ، فلم يمرّ على الحرشى ، بل قصد إلى هراة رأساً . فأمر الحرشىّ بحمله وسأله : « ما منعك من إتيانى قبل أن تأتى هراة ؟ » فأجاب : « أنا عامل لابن هبيرة ، ولاّنى كما ولاّك » ، فضربه الحرشى مائتين وحلقه ؛ ولهذا عزله ابن هبيرة وأمر بأن يحمل من مرو إلى الكوفة مقيداً ، وعذبه ونفخ فى بطنه النمل . وكان ذلك مظهراً من مظاهر العداء بين رجال قيس الذين كانت لهم السيطرة الكاملة فى عهد يزيد بن عبد الملك ، وذلك أن كلاً من ابن هبيرة وسعيد الحرشى كان قيسياً ، وخصوصاً ابن هبيرة نفسه[4] ، وهذا فى الوقت نفسه مثال يُقنع المتأمل ويبين كيف كان رجالات قيس لا يبالون بجميع

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٤٧ — ١٤٤٨ — المترجم] .

(٢) [راجع فى معرفة أسباب موجدة ابن هبيرة على الحرشى الطبرى (ج ٢ ص ١٤٤٦ — ١٤٥٧) — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٥ — ١٤٦٠ — المترجم] .

(٤) [لم تكن أم الحرشى عربية وهذا ما يؤخذ مما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٤٥٦ — ١٤٥٧) — المترجم] .

الاعتبارات إذا كان الأمر أمر المناصب وأمر الجشع فى طلب المال[1] — ومع هذا كانوا يداً واحدة على من عدا قيس .

وجاء بعد سعيد الحرشى مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابى[2] . وهو أيضاً قيسى تخرج فى مدرسة الحجاج ، وكان الحجاج قد ضم مسلماً ، بعد أن مات أبوه ، إلى أولاده فتأدب معهم ونبُل . وكان عدى بن أرطاة قد ولى مسلماً من قبل ولاية خفيفة لكى يبدأ حياته ويرتفع ، فقام بها وضبطها وأحسن ، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل مسلمٌ الأموالَ التى كانت تحت يده إلى الشام . فلما قدم ابن هبيرة على العراق أجمع على أن يوليه ولايةً ، فدعاه ليلة إلى سمره ، ويظهر أنه أعجِب به ، فعقد له على خراسان وعهد إليه بأخذ أموال من قوم أغنياء كانوا قد اقتطعوها واتهمهم أعيان العرب فى خراسان بأنها عندهم . ولم يكن ابن هبيرة يبالى من أين يأتى المال ، ما دام يصل إليه[3] . وواصل مسلم الحرب مع السغد والترك ، ففى ربيع سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤م) جهز حملة على فرغانة وخرج فيها[4] ، ولكن الأزد وربيعة وثبوا فى طخارستان وامتنعوا من اللحاق به[5] ، وكان

---

(١) [تدل الروايات المتقدمة فى العداوة بين ابن هبيرة والحرشى على أنها نشأت خصوصاً من كبرياء الحرشى واستخفافه بابن هبيرة — المترجم] .

(٢) [راجع فيما يتعلق بولاية مسلم على خراسان الطبرى جـ ٢ ص ١٤٥٧ — ١٤٦٣ — المترجم] .

(٣) [لا يؤخذ هذا بسهولة مما جاء فى الطبرى (جـ ٢ ص ١٤٥٩ — ١٤٦١) ، وقد حاولنا بقدر الإمكان التمشى مع الأصل العربى — المترجم] .

(٤) ليس من الواضح إن كان مسلم قد افتتح أفشينة فى هذه الحملة ، أو هو فتحها قبل ذلك ، وأفشينة مدينة تلحق بكور سمرقند (الطبرى جـ ٢ ص ١٤٦٢ س ٩ و ١٤٦٣ س ١ و ١٥١٧ س ٨) . أما البلاذرى (ص ٤٢٨ س ٣) فهو يجعل اسم الأفشين اسم علم على شخص .

(٥) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٤٧٣ فما بعدها — المترجم] .

على رأسهم عمرو بن مسلم الباهلي ، أخو قتيبة بن مسلم[١] ، فبعث مسلم خليفته نصر بن سيّار الكناني ، فهزمهم عند بروقان ، وكانت مقراً للحامية العربية في بلخ ؛ ولم يكن من شأن ذلك أن يؤلف بين مضر واليمن . وبعد ذلك سار مسلم بنفسه حتى إذا وصل إلى بخارى بلغه الخبر بوفاة يزيد بن عبد الملك ، وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان سنة ١٠٥ هـ — يناير سنة ٧٢٤ م) وأن هشاماً عزل ابن هبيرة القيسي وعيّن مكانه على العراق خالد بن عبد الله القسري (من بجيلة) ، فكان من أثر ذلك أن هرب كثير من جنده ، ولكنه مضى في المسير حتى جاوز خُجَنْدَة ودخل أرض الترك ، ولكنهم هجموا عليه وهزموه ، فلم يستطع أن ينصرف راجعاً إلى خجندة عبر نهر الشاش إلا بمشقة كبيرة[٣] ، وهناك بلغه خبر عزله (سنة ١٠٦ هـ — صيف أو خريف سنة ٧٢٤ م) ، فجاء بعده أسد ابن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسري أمير العراق ، وكان أسد لا يزال شاباً .

وكان أسد ، شأنه شأن أخيه ، يميل إلى قبائل اليمن ، وإن لم يكن في الحقيقة ينتسب إليهم من حيث القبيلة . وذلك أن بجيلة كانت مثل باهلة ، تقف خارج مجموعات القبائل المتنازعة . فضرب[٢] قوماً من عرب خراسان أصحاب المناصب الكبيرة ، منهم البختري بن أبي درهم البكري[٤] (من نسل حارث بن عباد) ،

---

(١) كانت باهلة تغير موقفها من مجموعات القبائل بحسب الظروف لأنها لم تكن بطبيعتها تنتمي إلى مجموعة ما .

(٢) في رواية قصيرة ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٢ — ١٤٦٣) مقدماً ، وهي في الحقيقة نفس الرواية التي يذكرها فيما بعد (ص ١٤٧٧ فما بعدها) ، نجد أنه يذكر نهر بلخ ، مع أنه لا يمكن أن يكون إلا نهر الشاش ، والعرب يقولون في كثير من الأحيان : " النهر " فحسب ، ويتركون معرفة أي نهر هو المقصود لمعرفة القارىء بالجغرافية .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ فما بعدها) — المترجم] .

(٤) [يسمى ابن درهم وابن أبي درهم الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ ، ١٤٧٥ ، ١٤٩٩ ، ١٦٠٥ — المترجم] .

فاحتمل العذاب من غير جزع ، لأن نصر بن سيار لقى من العذاب مثل ما لقى . وكان البختري يبغض نصر بن سيار بسبب يوم البروقان[1]، وكان بعض العمال الذين عينهم أسد بن عبد الله من الأزد ، ولكنَّ فَرَحَ الأزد بخروجهم من الظلام إلى ضوء الشمس لم يدم طويلاً ، وذلك أن الخليفة أمر بعزل أسد في سنة ١٠٩ هـ ، وكان أسد يواد دهاقنة خراسان ، فصحبوه إلى العراق[2] .

[وكان الوالى الذى جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمى[3] ، وكان أيضاً من قيس ، فحاول أن يهدئ ثائرة السغد المعاندين ، سالكاً في ذلك الطريق الذى سلكه عمر بن عبد العزيز . وكان الذى دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة اليشكرى ، أحد الموالى من الأعاجم ، وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذى كان ذهب في وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز وكان سبباً في أن عمر أمر بالمساواة بين العرب وبين الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ، وهو أبو الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة ، فوجهه إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام ، على أن يضع الجزية عمن يدخل منهم في الإسلام ، فذهب أبو الصيداء ، ومعه قوم من العرب على رأيه وطريقته ، قاصداً سمرقند ، فساعده على ما أراد ابنُ أبى العَمَرَّطة الكندى ، وهو ابن ذلك الشيعى الكوفى الذى كان قد خرج بسيفه من قبل يحارب من أجل حجر بن عدى ، وكان ابن أبى العَمَرَّطة إذ ذاك والياً

---

(١) قارن على كل حال الطبرى (ج ٣ ص ١٥٣٠) .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٧ فما بعدها] . ثم رجع أسد إلى خراسان فيما بعد والياً ، والبلاذرى يجمع ولايتيه معاً ، ورواية المدائنى كما هى عند الطبرى مضطربة فيما تضمنته من ذلك ، وإذا كان أسد قد نقل مقر ولايته إلى بلخ فلا شك أن ذلك كان فى أثناء ولايته الثانية ، لأننا نجد بعد ذلك أن مرو قد صارت مقراً لولايته مرة أخرى ، ولا نجد ذكراً لتغيير فى ذلك ، ويجوز أيضاً أن يكون ضرب نصر بن سيار قد وقع فى ولاية أسد الثانية . أما ولايته الأولى فليس المعروف عنها بكثير .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٤ فما بعدها و ١٥٠٧ فما بعدها — المترجم] .

على حرب سمرقند وصلاتها . وقد نجحت دعوة أبي الصيداء نجاحاً كبيراً ، فأنشئت مساجد كثيرة وأخذ الوثنيون يدخلون فى الإسلام زرافات ، ولكن من العجيب أن الدهاقين الذين كانت الحكومة العربية قد تركتهم على سلطانهم لم يكونوا راضين بذلك ، لأنهم كانوا هم المسئولين عن تحصيل الجزية ، وكان من العسير عليهم أن يحصلوا على الأموال الكبيرة — وكانت مفروضة عليهم بمقدار لا يصح أن ينقص — إذا سقطت الجزية بسبب الدخول فى الإسلام عمن كان يدفعها حتى ذلك الحين . ولهذا شكوا لأشرس وقالوا له : « ممن نأخذُ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً[1] ؟ » ويُذْكَر من الدهاقين الذين جاءوا إلى أشرس دهاقين بخارى خصوصاً غوزك ، أخشيد سمرقند الذى عرفنا أمره أيام قتيبة . فحاول أشرس أن يتخلص من نتائج عمله ، فبدأ بتضييق الطريق على الداخلين فى الإسلام ، وذلك بأن أخذ يطالبهم بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ونحو ذلك ، فلما لم يكْفِ هذا عزل ابن أبى العمرَّطة وعين مكانه عمالاً آخرين وأمرهم أن يأخذوا الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم ، فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنع هؤلاء من دفعها ، واعتزل قومٌ من أهل السغد ، وكانوا سبعة آلاف ، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وكانوا حانقين . وخرج أبو الصيداء وقومٌ معه من مختلف قبائل العرب (من تميم والأزد وبكر) لينصروهم ، وكان منهم ثابت قطنة الشاعر وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز وغيرهم ؛ ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بشىء من الشدة وشىء من السياسة عن القضية التى تعصبوا لها ، وبذلك فقد المتمردون فى سمرقند من يؤيدهم وأعيدوا إلى خضوعهم القديم ، وألحّ العمال فى جباية الجزية واستخفوا بأشراف العجم وعظمائهم وعاملوهم معاملة غير كريمة[2] .

---

(١) [يقصدون أنهم قد تعربوا أى أصبحوا مسلمين على دين العرب — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٧ — ١٥١٠ — المترجم] .

ولكن المشكلة لم تنته بذلك ، وكان العدول عن سياسة المسالمة والعودة إلى سياسة الشدة سبباً فى إثارة السغد فى جميع تلك الناحية وفى إسخاطهم إلى أكبر حد ، وهم لكى يتحرروا من سلطان العرب استجاشوا الترك . ويروى أن خسرو ، أحد أبناء يزدجرد آخر ملوك الساسانيين ، كان معهم . وكان مركز الثورة فى واحة بخارى ، وجاء الخاقان إلى هناك ، ومعه جيش كبير من الترك والفرس . وفى سنة ١١٠ هـ ، فى أواخر هذه السنة على الأرجح[1] ، أعنى فى ربيع سنة ٧٢٩ م ، خرج أشرس على رأس الجيش العربى من مرو لكى يدرأ ذلك الخطر ، ولكن الترك سدوا أمامه طريق العبور على نهر بلخ ، فلم يستطع أن يعبره ويتقدم إلى بيكند ويعسكر فيها إلا بعد فترة جهد وقتال . وعند ذلك قطع الترك عنه الماء وأصاب الجيشَ من العطش جهدٌ شديد ، فمات منه سبعمائة ، وعجز الناس عن القتال . وأخيراً قام الحارث بن سريج فحضّ الناسَ وقال لهم : القتل بالسيف أكرم فى الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً ، وتقدم بعض الفوارس فخاطروا بأنفسهم وقُتل بعضهم ، ولكنهم قاتلوا الترك فكشفوهم وأزالوهم عن الماء ، وابتدر الناس فشربوا ، وقُتل من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبدالملك بن دثار الباهلى وغيرهما . وواصل العرب سيرهم وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولحق غوزك سمرقند بالترك ، وشق العرب طريقهم إلى بخارى فعسكروا فيها ، ومن هناك قاموا بحملات أخرى (على خوارزم مثلاً) ، ولكن بعض فرق الجيش العربى انقطعت ، فذهبت فرقة إلى كَمَرْجَة (قرب بيكند) ، فاتجه الخاقان بكل قوته إليهم وحصرهم فى كَمَرْجَة ، ولكنهم استماتوا فى الدفاع ورفضوا

---

(١) لم يخرج أسد إلا سنة ١٠٩ هـ (فى رمضان) ؛ وبحثة أبى الصيداء وما كان لها من نتائج تحتاج أيضاً إلى حين من الزمان .

كل اقتراح من العدو ، حتى وجد الترك ألا فائدة من الحصار وأعطوهم الأمان على ألاّ يتوجهوا للحاق بالجيش الأساسي في بخارى ، بل على أن يعودوا إلى الدبوسية[1] .

وهكذا أصبحت يد الخاقان طليقة لكي يتفرغ إلى أشرس في بخارى ؛ ولم يستطع أشرس أن يفتتح أرضاً جديدة ، ويظهر أيضاً أنه لم يكن قادراً على مثل ذلك . ولهذا عين الخليفةُ والياً ليخلفه بعد أن يفك عنه الحصار ، فجاء الجنيد بن عبد الرحمن المرّي[2] ، وكان حتى ذلك الحين في الهند ورجع منها ومعه خمسمائة من جند الشام ، وبادر بعد وصوله[3] لنجدة أشرس ، فاستطاع بعد مشقة أن يواصله ، وأفلح في هزيمة الترك عند زرمان وفي فك الحصار عن سمرقند ، وبعد ذلك نجح في قيادة جيشه سالماً إلى خراسان ، وربما كان هذا هو غرضه الأكبر[4] .

وكان الجنيد في أواخر سنة ١١٢ هـ - ربيع سنة ٧٣١[5] قد وجه بعوثاً من الجيوش العربية في نواح شتى ، خصوصاً إلى طخارستان ، وعند ذلك جاءته استغاثة سورة بن الحرّ التيمي من سمرقند ، لأن الخاقان وأمراء من الأعاجم تحالفوا معه كانوا قد هاجموا سمرقند ، وعلى الرغم من أن الجنيد لم تكن لديه قوة كافية ، فإنه نهض على الفور وسار عبر نهر بلخ حتى بلغ كيشّ ، وكان هناك

---

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥١٢ - ١٥٢٥ - المترجم] .

(٢) كثيراً ما يذكر في اسمه : المزني ، وهو خطأ - (مثلا الطبري ج ٢ ص ١٦٢٧ س ٣) .

(٣) سنة ١١١ هـ ، لكن لم يأت قبل آخر تلك السنة ، وذلك أن الطريق من بخارى إلى الشام ومن الشام إلى الهند ومنها إلى خراسان كان طويلا شاقا ، ولا شك أن أشرس بقي في بخارى في الشتاء (سنة ١١١ هـ) .

(٤) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٧ - ١٥٣٠ المترجم] .

(٥) يمكن أن يفهم من قولنا ربيع ١١٢ هـ أول هذه السنة أو آخرها ، لكن آخرها ، بحسب الظروف ، هو الأرجح هنا ، والتواريخ تختلف فيما يلي سنة ، فهي تتردد بين ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ ، وأنا أعتبر أن الأعداد الكبرى هي الصواب .

طريقان يؤديان من كِش إلى سمرقند : أحدهما طريق المحترقة ، يخترق منطقة المروج والحشائش والأشجار ، وقد تجنبه الجنيد ، لأن الزمان كان فصل الصيف ولأنه خاف أن يُشعِل العدوُّ النار فى العشب والشجر ؛ وكان الطريق الثانى ، ويسمى طريق العقبة ، يخترق الجبال ، فاختاره الجنيد ؛ ولكن الترك هاجموه فى شِعْب غير بعيد من سمرقند ، ولولا شجاعة نصر ابن سيار ، وخصوصاً لولا شجاعة الغلمان من الموالى الذين كانوا تابعين الجيش ، لفنى الجنيد ومن معه ، ذلك أن هؤلاء الغلمان ، بعد أن طال القتال وسقط الأبطال وكلّت السيوف حتى صارت لا تقطع ، قطعوا العمد وصاروا يقاتلون بها ، حتى ملّ الفريقان وتحاجزا[1] . ولكن الأشرس كان لا يزال فى موقفه الخطر ، وهو لكى ينقذ نفسه طلب من سورة أن يأتى إليه من سمرقند ، ولو أن سورة ومن معه من جند العرب خرجوا من سمرقند لهلكوا ، ولكن الجنيد استطاع أن ينقذ نفسه وأن يدخل سمرقند . فاتجه الخاقان إلى بخارى ، وكان عليها أحد أبناء قتيبة ، فحاصرها ، ولكن الجنيد أتبعه من أقصر طريق وهزمه عند الطواويس ، وذلك فى شهر رمضان ، ودخل بخارى فى يوم عيد المهرجان[2] . حتى إذا قرت عين الجنيد بتأمينه بخارى وسمرقند قفل راجعاً قبل دخول الشتاء . أما الجند الذين كان هشام قد أرسلهم إليه من

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٣٢ — ١٥٣٦ المترجم] .

(٢) لا شك أن ذلك لم يكن فى سنة ١١٢ هـ كما تذكر الروايات بل فى سنة ١١٣ هـ (نوفبر سنة ٧٣١ م) ، وعلى هذا فلا بد أن يكون عيد المهرجان فى ذلك الوقت قد احتفل به بعد الاعتدال الخريفى الطبرى ج ٢ ص ١٥٥٢ س ٧ ، وقارن ص ١٥٥٠ س ١٣ فما بعده) . وكذلك كان عيد النيروز بحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٨٤٦ س ١٦) بعد الاعتدال الربيعى بكثير ، وعلى هذا فلابد أن يكون خطأ ما جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٥ س ١٨) . ويظهر أنه فى أيام العباسيين أصلح تقويم الأعياد ، ففى سنة ٢٣٩ هـ وافق يوم النيروز يوم شعانين النصارى الطبرى (ج ٣ ص ١٤٢٠) . وفى سنة ٢٤٥ هـ أخّر عيد النيروز أكثر من ذلك (الطبرى ج ٣ ص ١٤٤٨) ، قارن أيضا الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢٤ و ص ٢١٤٣ فما بعدها و ص ٢١٧٣) .

البصرة والكوفة ، وكانوا فى الصغانيان فى طريقهم إليه ، فقد وجههم إلى سمرقند . ولا يذكر عن الجنيد شىء فى أخبار سنتى ١١٤ و ١١٥ هـ[1] .
وفى أول سنة ١١٦ هـ (ربيع سنة ٧٣٤ م) عزل عن منصبه وحل محله عاصم ابن عبد الله الهلالى[2] ، وكان عاصم أيضاً من قيس ، ولكن هشام بن عبد الملك عينه مكان الجنيد لكى يغلبه ويزهق نفسه لأنه كان عدواً للجنيد ، وذلك أن هشاماً كان غاضباً على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة ابنة يزيد بن المهلب (الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٣) ، وكان فى نظر هشام أكبر الثوار ، ولكن الجنيد كان قد مرض بسقى البطن فمات لحسن حظه قبل أن يصل عاصم إلى مرو ، فلم يستطع هذا أكثر من أن يحبس عمارة بن حريم ابن عم الجنيد وخليفته وأن يأخذ عمال الجنيد ويعذبهم[3] .

٥ — وقد تزلزلت السيادة العربية فى أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة بسبب التردد بين اللين والشدة تردداً ليس له ضابط ، وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام ، وذلك بأن سوّى بين الداخلين فى الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن أُلغى فى عهد خلفه ، وهذا وإن لم تبلغنا عنه رواية صريحة فإنه يمكن أن يؤخذ بلا شك من أنه بعد موته أصبح لا بد من استعمال سياسة العنف مع أهل السغد لإرغامهم على دفع الجزية ؛ وقد امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنهم قد صاروا مسلمين . ويمكن أيضاً الاستدلال على مخالفة المبدأ الذى قرره عمر بأن كثيراً من أهل السغد أرادوا أن يتخلصوا من دفع الجزية ، فتركوا البلاد هم وأمراؤهم وذهبوا إلى بلاد الترك

---

(١) [راجع بقية أخبار الجنيد عند الطبرى ج ٢ ص ١٥٣٦ — ١٥٥٣ ، ١٥٦٤ — ١٥٦٥ — المترجم] .
(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٤ فما بعدها — المترجم] .
(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٤ — ١٥٦٥ — المترجم] .

ليدخلوا فى حماهم . ويجب أن نلاحظ فى هذا المقام أنه وإن كان المبدأ الذى وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقرراً فإن مسلمى الأعاجم فى خراسان لم يثوروا عندما خولف ، وذلك أنهم كانوا منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعية السياسية للعرب ، وأن رابطة الإسلام كانت قد ألفت بينهم وبين العرب ، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا فى الحقيقة قادرين على الثورة ، وهذا يصدق أيضاً بالنسبة للمدن مثل بخارى وسمرقند ، وكانت قد توطدت فيها قواعد السيادة العربية . أما الثوار فكانوا هم أهل السغد ، أعنى أنهم كانوا خارج المدن الكبرى ولم يكونوا قد خضعوا للسيادة العربية إلا خضوعاً مزعزعاً للغاية ، وكانوا حديثى عهد بالإسلام ، وهم لم يعتنقوه إلا طلباً لمزايا مادية ونفوراً من دفع الجزية ، فاتبعوا أمراءهم ؛ ولا شك أنهم فى نفس الوقت ارتدوا عن الإسلام ، لأنه لم يكن بعد قد رسخت عروقه فى نفوسهم . ويتجلى مقدار قلة العمل بالمبدأ الذى وضعه عمر وحاول تطبيقه تجلياً أوضح مما تقدم من أن الأشرس قرره للمرة الثانية[1] ، وعند ذلك تكرر الموقف من جديد ، وكان أبو الصيداء ومن على رأيه وطريقته — وهم الذين كانوا قد بعثوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبدأ الذى قرره — هم أيضاً الداعين من جديد إلى الإصلاح ، وقد فشل هذا الإصلاح مرة أخرى ، وذلك للأسباب المالية التى لا شك أنها كانت فى المرة الأولى أيضاً هى الأسباب الحاسمة . وأيضاً لم يكن عجم خراسان بل عجم السغد هم الذين ثاروا من أجل ذلك . بل يظهر أن الوعد بإسقاط الجزية فى عهد الأشرس لم يكن موجهاً إلى الموالى بإطلاق معنى هذه الكلمة ، ولا كان موجهاً إلى موالى خراسان ، بل إلى من

---

(١) [يقصد المؤلف أن الأشرس أعاد ما فعله عمر من دعوة أهل ما وراء النهر إلى الدخول فى الإسلام على أن يسقط عنهم الجزية (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٧) ، ويقصد من تكرار الموقف من جديد أنهم دخلوا الإسلام للتخلص من الجزية ، فانكسر الخراج ، فأعاد وضع الجزية على الداخلين فى الإسلام ، وكانت الثورة (الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٧ وما بعدها — المترجم)] .

دخل الإسلام فى بلاد السغد فحسب . غير أن ثورة السغد فى أيام أشرس كانت أوسع نطاقاً وأشد خطراً من الثورة التى كانت بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وخصوصاً أن الترك كانوا قد دخلوا البلاد وتولوا الزعامة . وقد استطاع العرب أن يثبتوا وأن يحافظوا على سلطانهم فى المدن الكبرى وفى نقط أخرى حصينة ، وأمكن القضاء على حركة الثورة فى سمرقند نفسها من غير كبير مشقة[1] .

ثم جاءت محاولة ثالثة ترمى إلى مساعدة مسلمى الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب فى الحقوق الوطنية فى الدولة التيوقراطية ، غير أنها لم تأت من أعلى ، بل جاءت من أسفل ، من قِبَل الحارث بن سريج ، من أهل الدبوسية ، وهو الذى صادفناه محارباً شجاعاً فيما تقدم[2] . ويقال إنه كان فى أوائل أمره أحد ثوار الخوارج المتشددين فى الدين ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن متشدداً فى متابعة الآراء المتطرفة التى تعصب لها الخوارج ، وهو لم يعقد الخلافة لنفسه ، ولا بايع غيره عليها ، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم لهذه الفرقة[3] . وأيضاً كان الحارث نفسه يدخل فى مناظرات حول مبادئها الأساسية[4] ، وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسة للتوفيق بين المتخالفين ، فتركت مسائل الخلاف وخصوصاً مسألة الإمام الحق — وهى المسألة التى لم يمكن قط أن يوصل فيها إلى حل — فى المحل الثانى ، وهى قد تركت لكى يحكم الله فيها . وفى مقابل ذلك صارت الجماعة الثائرة تؤكد شيئاً

---

(١) راجع فى هذا وفيما يلى كتاب O. van Vloten : Recherches sur la domination arabe, Verhandl. der Amsterdamer Akademie, 1894, Letterkunde I, 3.

(٢) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٣ س ٣ و ص ١٩٢٧ س ١٢ وقارن أيضاً ص ١٨٩٠ س ٧) .

(٣) [هذا ما يقوله المؤلف . وليس من السهل معرفة قصده ، والأغلب أنه يقصد المرجئة ، ولكننا نعلم أن الجهم صار فيما بعد رأس فرقة بأكملها — المترجم] .

(٤) [يؤخذ من الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٧ وص ١٥٧٠—١٥٧١ وص ١٥٧٧ و ١٥٨٣ ، أن الحارث أراد أن يؤيد ثورته بالدين ، وأنه طلب من يناظره فيما ثار لأجله — المترجم] .

يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين ، وهى الدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الدولة الثيوقراطية ومعارضة الاستبداد الذى كان قائماً ونصر جانب الحق الذى قدّسه الدين على جانب الظلم والعسف . وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة فى خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو ، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً فى جلب خطر خارجى عظيم ، وليس هذا فحسب ، بل هى قد تركت وراءها سخطاً أدبياً عميقاً تجاوز الطائفة التى أصابتها نتائج تلك السياسة فبلغ إلى أبعد منها بكثير . وقد بدأ الحارث ثورته[1] مستنداً إلى هذا التذمر ، فحرض الموالى وأثارهم بأن وعدهم بإحقاق حقهم فيما وُعِدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدهم بأن يشركهم فى الأعطيات التى كانت تعطى للمقاتلة . وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء ، وهكذا سار الحارث على أثر أبى الصيداء ، وكان من بقى من أصحاب أبى الصيداء فى عداد حاشيته ، مثل أبى فاطمة الأيادى (من الأزد) وبشر بن جرموز الضبىّ (من تميم) . وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين فى الدولة الثيوقراطية ، ولكن اشترك فى الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عربٌ كثيرون من تميم والأزد ، ولم تكن الثورة بوجه من الوجوه مقصورة على المرجئة ، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وكانت البلاد التى ظهر فيها هى أرض «الثغرين» ، وقد رفع الراية السوداء فى بلاد ما وراء النهر أول الأمر ، وكان ذلك فى السنين الأخيرة من ولاية الجنيد ،

---

(١) [راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج (الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ — ١٥٧٢ ، ١٥٧٦ — ١٥٧٧ ، ١٥٧٩ — ١٥٨٠ ، ١٥٨١ — ١٥٨٦ ، ١٥٨٩ — ١٥٩١ — المترجم] .

وهى السنين التى لا يذكر فيها من أمره شىء . وعند مجىء عاصم بن عبد الله والياً على خراسان امتدت الثورة فشملت طخارستان أيضاً . وأقبل الحارث من جهة النَّحُنْد حتى وصل إلى الفارياب ، وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالاً كُلِّل بالنجاح ، ولم يستطع عمال بلخ ومرو الروذ وهراة وغيرها أن يثبتوا أمامه . وخضعت له طخارستان كلها ، كما خضع له أيضاً العرب أنفسهم ، وكانوا هناك يتألفون من الأزد وبكر بنوع خاص ، وقد انضم إليه أيضاً جبغويه نائب ملك الترك فى طخارستان العليا ، كما انضم إليه أمير الخُتَّل .

ولم يكن قد بقى فى يد حكومة الأمويين (الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٢) من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى مرو وأبرشهر ، وكلاهما فى غرب خراسان ، وقد تضخم جيش الحارث بعد انتصاراته فى طخارستان تضخماً كبيراً ، وفى هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجّالة من جند الأعاجم ، فتقدم الحارث إلى مرو ومعه جيش جرّار ، وكان قد كاتب تميماً فى مرو لأن أصله كان من هناك (الطبرى ج ٢ ص ١٨٩٠) ، وكان عاصم يريد أن يتقهقر أمامه إلى أبرشهر ، أى إلى أرض قيس ، ولم يفلح رجاله فى إقناعه بالثبات إلا بمشقة كبيرة ، وكان قد اطمأن تماماً بعد أن حلفوا له بالطلاق والعتاق على الصدق فى القتال . واستطاع عاصم أن يرد أول هجوم قام به الحارث ، ولكنه لما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسرى ليحل محله على خراسان أوشك أن ينضم إلى الحارث ، ولكن يحيى بن حُضَين رده عن ذلك ، وكانت بكر فى ذلك الوقت ، مع أنها كانت مع الأزد فى الحزب المعارض ، قد غيرت اتجاهها ورأيها بقيادة هذا الرجل العاقل ، لأن بكراً قد تبينت أن المصلحة العامة للأمة العربية كانت معرضة للخطر ، وقد تميزت بكر عن غيرها فى مقاتلة الحارث ، فهزم الحارث مرة أخرى ورجع عبر النهر ، وحاصر هناك مدينة ترمذ ، وكانت مدينة هامة ،

ويُذكر أن خراسان كانت فى تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة ، وقد كان الخليفة نفسه قد عين عاصم بن عبد الله والياً عليها ، ففعل عاصم ما كان سبباً فى عزل هشام بن عبد الملك إياه عن ولايتها فى أول سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) ، وذلك أنه كتب إلى هشام[1] على سبيل الإخلاص فى النصيحة : أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادُّها ومنافعها ومعونتها فى الأحداث والنوائب قريبة إليها نظراً لبعد الخليفة عنها ، وتباطؤ غياثه لها . فعزله هشام ، واغتنم ذلك خالدُ بن عبد الله القسرى ، فعين أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان ، ولكن كان قد آن الأوان لكى تنتهى سيادة قيس فى خراسان . وفى رواية أخرى[2] أن هشاماً نفسه أمر خالداً أن يُعَيِّن أخاه مكان عاصم ، فاستطاع أسد بن عبد الله أن يَعُدَّ من الفخر لنفسه أنه أرسل إلى خراسان للمرة الثانية وفى ظروف عصيبة ، وقد أثبت أنه كان أهلاً للثقة التى وضعت فيه ، فاستخلف جُديعاً الكرمانى الأزدى . وهو على كل حال لم يسلم نفسه للأطماع الحزبية لأهل اليمن ، وخلَّى سبيل عمال الجنيد الذين كان عاصم قد حبسهم ، وإن كانوا بحكم أنهم من قيس أعداءً لأسد بن عبـــد الله (الطبرى ج ٢ ص ١٥٨١ س ١٣ – ١٥) .

وبدأ أسد قتاله للحارث فى أرض ما وراء النهر ، فأخضع هناك كثيراً من المدن التى كانت قد وقعت فى يد الحارث ، مستعملاً فى ذلك السياسة والصلح أحياناً والسيف أحياناً أخرى — ويجوز أن سمرقند كانت من تلك المدن[3] .

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٣ فما بعدها – المترجم] .

(٢) [الطبرى ، ج ٢ ص ١٥٨١ فما بعدها – المترجم] .

(٣) لا يذكر أن سمرقند سقطت فى يد الحارث ولا أن أسداً استردها ، بل يذكر فقط أن أسداً ذهب إلى هناك وقطع الماء عن المدينة . ولكن لا يمكن أن نفهم من ذلك أكثر من عمل عدائى ، ذلك أن الماء كان يأتى من وَرَغسر حيث كان يوجد مركز خروج الأنهر ، وكلمة وَرَغ معناها السكر ، أما كلمة سَرْ فمعناها هو معنى كلمة رأس القناة السامية ، وهى تدل على النقطة التى يبتدئ منها توزيع الماء بواسطة السكر [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٦ – المترجم] .

غير أن أسداً لم يفعل شيئاً مع الحارث لما كان الحارث أمام ترمذ ، ولكن أهل ترمذ ، مع أنهم عجم ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ، حتى رأى الحارث أن ينصرف عنها قاصداً طخارستان ، وتفرق عنه أنصاره وحلفاؤه .

وعند ذلك تحول أسد إلى طخارستان ، وكانت هذه البلاد قد أخضعها قتيبة بن مسلم من قبل ، ولكن لم يكن فيها — فيما عدا مرو الروذ — قاعدة للسيادة العربية ثابتة ثباتاً ما سوى مدينة بلخ ، فدخلها أسد واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين ونقل إليها من كان بالبروقان من الجند ، وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه ، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً — ويدل هذا على مقدار أهمية طخارستان فى نظره . ولكنه خلط بين الجند ولم يجعلهم أقساماً (أخماساً) كما كانوا فى البروقان من قبل غير مختلطين بالأعاجم ، وإنما أراد بذلك أن يخلط بين الجند من مختلف القبائل ليتجنب تعصب بعضهم على بعض . وهو قد حافظ على ما كان بينه وبين الدهاقنة من مودة — وكان محبوباً عندهم من قبل — وذلك لكى يستطيع من طريقهم أن يؤثر فى الطبقات الدنيا للشعب . وكلّف الرعايا الأعاجم بإعادة بناء مدينة بلخ ، ولكنه أسقط قيمة العمل الذى بذلوه فى ذلك من الخراج الذى كان مفروضاً عليهم ، وعهد إلى برمك بالإشراف على البناء ، وكان برمك دهقان النوبهار ، وهو جد البرامكة الذين صار لأسرتهم شأن كبير فيما بعد[1]. وعلى هذا فقد كان أسد يسعى إلى إيجاد روح التفاهم بين العناصر المتعادية وإلى مزجهم شيئاً فشيئاً فى حدود معقولة .

وكان الحارث بن سريج قد هرب إلى طخارستان العليا لائذاً بأصهاره التغلبيين الذين كانوا فى قلعة التبوشكان ، ولكن أصهاره لم يريدوا أن يضحوا

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٠ ، ١٤٩١ س ١٨ — ٢٠ ، والمؤلف لا يذكر أن نقل الجند كان فى سنة ١٠٧ هـ — المترجم] .

بأنفسهم من أجله ، فأخرجوه ومن كان معه ودخلوا فى مفاوضات مع أسد ، ولكن أسداً عرف من مفاوضين جاءوا إليه فغدروا بقومهم أن أهل القلعة ليس عندهم طعام ولا ماء وأن القلعة لا تكاد تصمد للدفاع ، فأرسل الكرمانىّ لمهاجمتها ؛ فاضطر من فيها إلى التسليم بعد أن أجهدهم الجوع والعطش ، وقُتل الأسرى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٨)[١] وبيع النساء والأولاد — رغم أنهم من دم عربى — فى سوق بلخ على من يزايد فى شرائهم .

وفى سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م)[٢] قام أسد بغزو الخُتَّل فى شمال نهر بلخ وفى مواجهة بلخ نفسها ، وكانوا لم يتم إخضاعهم بعد ، وكانوا أيضاً قد حالفوا الحارث بن سريج ، وكان أميرهم يقيم فى نواكث ، فاستجاش بخاقان الترك طالباً نجدته ، ولكن لما خرج الخاقان من سُوبات متقدماً إلى خُشُوَراغ أخبر بذلك أسداً لكى يحذره ، وكان الخاقان لا يريد النصر للترك بل كان يزاحم العرب : وبعد أن تردد أسد بعض التردد رأى أن يقفل راجعاً ، ولكن بعد أن عبر النهر ظهر الأعداء على الضفة الأخرى ، ثم ضربوا بكوساتهم وعبروا على دوابّهم وهى تنخر أشد النخير ، ولكنهم لم يهاجموا الجيش الأساسى لأسد ، بل هاجموا فرقة كان قد سرّحها أمامه بالأثقال والغنائم من الشاء والماشية حتى بلغت بطن واد ، فأصابها العدو واستطاع أسدٌ أن ينقذ الجند ، وكان ذلك فى آخر رمضان سنة ١١٨هـ[٣] .

---

(١) [راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٩ — ١٥٩١ — المترجم] .

(٢) [يذكر الطبرى ذلك فى أحداث ١١٨ هـ (ج ٢ ص ١٥٩٣ فما بعدها) — المترجم] .

(٣) ١١ أكتوبر سنة ٧٣٦ م وتاريخ السنة هنا يختلف سنة ، ويذكر أن « يوم الأثقال » كان فى سنة ١١٩ هـ ، ولكن لو حسبنا السنين من الخلف لتبين أن سنة ١١٨ هـ هى الصحيحة .

ولا بد أنه قد سُرّ بالنجاة بجلده إلى بلخ ، فتغنى الصبيان بالفارسية بأغانى يغيظونه بها[1] .

ولكن الخاقان لم يدع أسداً يستمتع بالهدوء ، فذهب الخاقان إلى جبغوية الختّرلُخى[2] فى شرق طخارستان ، ويروى أن الحارث بن سريج — وكان يقيم هناك — قد استجلبه إلى طخارستان ، فخرج فى وسط الشتاء ومعه أتباعه وحلفاؤه متوجهاً إلى الغرب ، وعلم أسد بخبر ذلك فى ليلة الأضحى من سنة ١١٨ هـ (١٩ ديسمبر سنة ٧٣٦ م) ، فأمر برفع النيران على المدينة لكى ينجوا الناس بأنفسهم إلى بلخ ، واستخلف الكرمانى بن علىّ[3] فى المدينة وسار بنفسه من غير تردد ، وأخذ معه من كان عنده من أهل الشام — لأنه كان قد صرف بقية الجند إلى أوطانهم فى أول الشتاء — وقصد الخاقان . وكان الخاقان معسكراً غير بعيد من مدينة جوزجان . وكان قد بث الغارات فى جميع النواحى ، ولم يبق معه إلا أربعة آلاف رجل ، فهاجمه أسد[4] ، فوجه فرقة قادها أمير الجوزجان من طريق كان يعرفه ،

---

(١) [مثل :

أزختلان آمدى   بروتباه آمدى

بيدل فراز آمدى

ومثل :

أزختلان آمديه   برونباه آمديه

آبار باز آمديه   خشك نزارآمديه

لكن هذا أيضا يذكر فى تاريخ سابق (سنة ١٠٨ هـ) . أما ما نحن بصدده هنا فهو من حوادث سنة ١١٩ هـ (راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٢ ، ١٤٩٤ ، ١٥٩٣ — ١٦١٩) ويظهر أن ثم خلطاً بين حوادث ولايتى أسد على خراسان — المترجم] .

(٢) خرلُخ قبيلة تركية (ابن خرداذبه ص ٣١) ويذكر فى أيام قتيبة أن جبغوية كان رئيس الشاذ ورئيس طرخان نيزك الذى كان تابعاً للشاذ أو منضما إليه — قارن ما أرسل إلى الخليفة فى ذلك وهو عند الطبرى ج ٢ ص ١٦١٥ .

(٣) المقصود هو جديع بن على الكرمانى ، وكلمة « بن على » غير موجودة فى الأصل الألمانى ، ولكنها موجودة فى الطبرى ج ٢ ص ١٦٠٥ . [المترجم]

(٤) كان على ميمنة أسد الأزد وبنو تميم وبنو الجوزجان وأهل الشام من فلسطين وقنسرين وكان على ميسرته ربيعة وأهل حمص والأردن ، وكان فى المقدمة أهل دمشق والشرطة والحرس وغلمانه . وكان جند الشام بطبيعة الحال مع الأمير دائماً ، ولم يكونوا يذهبون فى الشتاء إلى —

وهاجم الخاقان من الخلف ، فاضطره بذلك إلى الإسراع فى الهرب ، وأراد الخصىّ أن يحمل امرأة الخاقان ، فأعجله العربُ ، فلم يجد طريقاً لتجنب عار وقوعها فى يد العـــرب ، إلا أن يطعنها بخنجر . وظفر المسلمون بالمعسكر ، فوجدوها تتحرك ، ووجدوا القدور تغلى ، فأطلقوا أسرى المسلمين الذين كانوا هناك ووقع فى يدهم كثير من سبى الترك وغنائم لاتحصى من الشاء والدواب والدروع وغيرها من آنية الفضة ، فبعث أسد بجوارى الترك إلى دهاقين خراسان[1] ليستنقذ من كان فى أيديهم من أسرى المسلمين . وتلقّف أسدٌ خيلاً للترك كانت منصرفة لتغير على بلخ ، فارتدت بعد أن كانت قد بلغت بيعة مرو الروذ .

وحال الشتاء دون المضى فى مطاردة الخاقان ، فمكث الخاقان عند جبغوية فى طخارستان حيناً ، ثم عاد إلى بلاده من طريق أشروسنة ومعه الحارث ابن سريج . وبعد ذلك بقليل قتله أحد كبار رجاله ، وهو كورصول الترقشى الذى يرد ذكره كثيراً ، وعلى أثر ذلك ظل الترك فى خلاف فيما بينهم[2] ، وتركوا العرب ينعمون بفترة من الهدوء .

وقد أمر أسد ، بعد أن عاد إلى بلخ[3] ، بالصوم شكراً لله لما فتحه عليه ،

= أوطانهم كما يفعل عرب خراسان . وكان مع الخاقان الحارث بن سريج وأصحابه (من أهل السغد والبابية) وملك السغد وأمير الشاش وخرابغرة من أشروسنة (وهو جد أفشـين كاوس المشهور) وصاحب الختل وجبغوية . أما ملك السغد فربما أنه صاحب أشتيخن الذى تبع هو وأشكنده نسف الخاقان للحرب فى بلاد الختلان ، على حين أن صغان — خداه كان يحارب فى صفوف أسد ، وهكذا كان العجم يحاربون فى الجانبين ، ولكن يلوح مما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٦١٣ س ٢ فما بعده) كأنما لو كان خرابغرة قد بقى فى وطنه أشروسنة ، وقد كان فى قلبه معادياً للخاقان .

(١) يفسر فان فلوتن (ص ٢٥ هامش ٢) هذا الخبر البسيط (الطبرى ج ٢ ص ١٦١١) تفسيراً سيئاً — راجع كتابه ص ٢٥ هامش رقم ٢ .

(٢) راجع فيما تقدم الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٣ — ١٦١٤ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦١٥ قارن ص ١٦١٤ — المترجم] .

ولما بلغ خبر الانتصار على الخاقان إلى هشام فى دمشق لم يكد يصدقه ، وأيّده فى ذلك من كان عنده من قيس حسداً منهم لأسد . ولم يكن هشام يتلقى من خراسان من قبل سوى أخبار النكبات ، فطلب توجيه مقاتل ابن حيّان النبطى من خراسان إليه ، وكان مقاتل رجلاً صادقاً ، فقصّ على الخليفة أخبار غزو أسد بلاد الخُتّل وما كان من تطور فى القتال حتى استباح المسلمون عسكر خاقان وأجلَوْه عنه ، وكان هشام يستمع إلى مقاتل وهو متكئ ، فلما أخبره مقاتل باستباحة عسكر خاقان استوى جالساً .

وفى صيف سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) استأنف أسدٌ الحربَ مع الخُتّل[1] ، ولم يكن الترك قادرين على مساعدتهم ، هذا إلى أن الختل كانوا فيما يظهر مختلفين فيما بينهم ، وذلك أن بدر طرخان خرج من أرض الباميان واغتصب الحكم (قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٩٤) وقد وقع هذا الغاصب من طريق غدر شائن فى يد أسد ، فأسلمه إلى رجل من الأزد كان له عنده ثأر لكى يقتله[2] . ولكن أسداً مع هذا لم يفعل كثيراً ، بل اكتفى بتوجيه خيله فى غارات فى أودية بلاد الختّل ، وفى الشتاء التالى لذلك ، فى أول سنة ١٢٠ هـ ، عاجله الموت بغتة ، ولكن موته نجّاه فى الحقيقة من الوقوع فى عواقب سقوط أخيه خالد[3] .

---

(١) [راجع فيما يلى الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٩ — ١٦٣٣ — المترجم] .

(٢) كان أسد قد أعطاه الأمان وجعل له عهد الله والنبى والخليفة والمسلمين ، فلما لم يحافظ أسد على عهده قذف بدر طرخان بحجر فى الهواء وقال : هذا عهد الله ، ثم قذف ثلاثة أحجار أخرى قائلا : هذا عهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين . [الحقيقة أن أسداً لم يغدر الغدر الذى يصفه المؤلف ، وكل ما فى الأمر أنه تساهل جداً مع بدر طرخان ، فلما أراد أن يتدارك الأمر وأرسل رجلا وراء بدر طرخان ، ظن هذا أن أسداً نقض العهد فقال ما قال ، فعاقبه أسد [المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٩ فما بعدها] .

(٣) عزل خالد فى جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ (مايو سنة ٧٣٨ م) ، ولكنه تلقى خبر موت أخيه وهو لا يزال فى منصبه (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٠ س ١٢) . وفى رجب سنة ١٢٠ هـ خلف نصر بن سيار أسداً على ولاية خراسان ، وكان بينهما فترة أربعة أشهر —

وكان كبار العرب وكبار العجم يجلّونه فيفدون إليه ويقدمون له الهدايا القيمة ، وقد قدم إليه فى يوم المهرجان ، فيمن قدم إليه بالهدايا ، خراسانُ ، دهقان هراة ، فقام بين يدى أسد خطيباً وبيّن من كريم صفاته وشجاعته وأعماله العظيمة ما رفعه به إلى السماء السابعة[1] . ثم مرض أسد ، وأفاق إفاقةً ، فخرج يوماً ، فقُدِّمت له كمثرى ، وأراد أن يتلطف بخراسان ، دهقان هراة ، فرمى إليه بواحدة وكان فى جوف أسد فيما ذكر دُبَيْلةٌ ، فانقطعت عند ذلك ومات — هذا ما يحكى ، ولكن ما يذكر من أن ذلك كان بمناسبة عيد المهرجان فهو غير صحيح ، وهو يزيد الشك فى القصة التى تشبه فى ذاتها ما يقال فى الأساطير[2] .

§ ٦ — وكان سقوط خالد بن عبد الله القسرى ، الذى ظل أميراً على العراق سنين طويلة ، فاتحة الفترة الأخيرة المحملة بالكوارث والتى انتهت بسقوط الدولة الأموية ؛ فقد خلفه على العراق والٍ قيسىٌّ لحماً ودماً ، متعصبٌ لقيس ، وهو يوسف بن عمر ، من أسرة الحجاج . ولا شك أنه لم يكن شىء أحبَّ إليه من أن يعين على خراسان والياً من قيس ، لولا أن هشام بن عبد الملك حال دون ذلك وعيّن نصر بن سيار خلفاً لأسد ، وكان نصر من ذوى الأسنان القلائل جداً الذين ظهروا فى تاريخ تلك الحقبة ، ولم تؤثر سنوه الكثيرة فى حدة ذهنه ويقظته ، كما تشهد بذلك أفعاله ، بله القصائد التى ظل ينشئها حتى أواخر أيامه . وكان

= الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٨) . وعلى هذا يكون قد مات فى صفر سنة ١٢٠ هـ (فبراير سنة ٦٣٨ م . أما الرواية القائلة بأنه مات فى يوم عيد المهرجان فلا يمكن الأخذ بها ، لأن ذلك العيد وقع فى الخريف ، ولا يمكن أن يصلح خريف ١١٩ ولا خريف ١٢٠ هـ تاريخاً لذلك .

(١) [يجد القارئ هذه الخطبة عند الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٦ — ١٦٣٧ ، وهى تدل على فكرة أسد دهاقنة إيران عن أنفسهم وعن العرب — المترجم] .

(٢) [يؤخذ من الطبرى (ج ٢ ص ١٦٣٨) أنه قد انقضت فترة بين يوم المهرجان وموت أسد — المترجم] .

قد نشأ فى أرض خراسان وشاب وهو فى خدمة الدولة ، وكان مما دعى الخليفة إلى إيثاره على غيره أنه لم تكن له عشيرةٌ قوية يضطر إلى أن يستند إليها[1] ، وذلك أنه لم ينتسب إلى أى من القبائل الكبرى فى خراسان ، بل كان من كنانة التى كانت قليلة العدد هناك . ولما كان كنانياً فقد كان من الطبيعى أن يميل إلى تميم ، لأن تميماً وكنانة ينتسبان جميعاً إلى خِنْدِف ، فعزل العمالَ الذين قد عينهم سلفُه وعدوُّه أسد بن عبد الله — ولكن من غير أن يعذِّبهم — وعين مكانهم خِنْدِفيِّين أى عمالاً من تميم بنوع خاص[2] . وإلى جانب المدن الأربعة[3] التى كانت فى خراسان حواضر للدولة ، كانت هناك بلخ وخوارزم وسمرقند (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٤) ، فنقل نصر مقر الحكومة من بلخ وأعاده إلى مرو ، أى من طرف أرض السيادة العربية إلى وسطها .

وقد قام نصر فى الفترة الأولى من ولايته بمحاربة الترك ، وكان هو البادئ بمهاجمتهم . فخرج من بلخ وغزا ماوراء النهر من ناحية باب الحديد ، ومر بمدينة وَرَغْسَر قاصداً سمرقند ، وهناك وقع فى يده اثنان من دهاقنة بخارى كانا قد أسلما على يديه ، ولكنهما ثارا ، اعتقاداً منهما بأن ظلماً وقع عليهما ، وأجمعا على الفتك بواصل بن عمرو القيسى عامل بخارى وببخاراخذاه رئيس المسلحة . حتى إذا كان نصر يستمع إلى أمرهما من بخاراخذاه ، قالا : نموت كريمين ؛ فشد أحدهما

---

(١) [لما استشار هشام بن عبد الملك أصحابه فى رجل يصلح لولاية خراسان استبعد من رشحوا له من كان صاحب شراب أو فيه تيه وعظمة أو كان موتوراً أو غير عفيف أو كان منتسباً إلى قبيلة لا يعتمد عليها فى سد الثغور وهكذا ، فلما قيل له إن نصر بن سيار ليست له عشيرة ، قال : أنا عشيرته — المترجم نقلا عن الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٠ فما بعدها] .

(٢) [كان هشام بن عبد الملك لا يميل إلى قيس ولا إلى ربيعة (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٢ ، ١٦٦٣) ، وكذلك لم يكن نصر بن سيار يميل إلى قيس . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٦٦٤) أن نصراً ظل أربع سنين لم يستعمل فيها إلا مضريًّا — المترجم] .

(٣) [راجع مثلا ما تقدم ص ٣٩٦ — المترجم] .

على واصل فطعنه فى بطنه بسكين ، فضربه واصل بسيفه ضربة أطارت قحف رأسه ، فمات ومات واصل : وأما الثانى فطعن بخاراخذاه ، ولكن الجوزجان بن الجوزجان شدّ عليه فقتله . والمظنون هو أن الظلم الذى شكا منه هذان الدهقانان هو إلزامهما بدفع الجزية مع أنهما كانا مسلمَيْن . وبعد أن فتح نصر سمرقند توجه إلى أشروسنة ، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه من الأعاجم ، ثم خرج إلى الشاش ، وكان فى الشاش فى ذلك الوقت كورصول ، قاتل الخاقان ، وكان أميراً على جماعة تبلغ أربعة آلاف قُبّة ، فوقع فى يد العرب بعد اشتباك ، وقتله نصر وصلبه على شاطئ النهر . وكان الحارث بن سريج يقاتل العرب فى صفوف الترك ، وكان معه عرّادتان ، فلم يرض أن ينصبهما تلقاء تميم ، لأن تميماً كانوا من قبيلته ، وانتهى الأمر بأن صالح نصر أهل الشاش واشترط عليهم يُخرِجوا الحارث بن سريج ، وبعد ذلك صار نصر إلى فرغانة ، ولكنه اكتفى بأن صالح أهلها وقفل راجعاً دون أن يسير إلى ما وراء نهر الشاش . ومن الجائز أن تكون هذه الحملة قد تطلبت أكثر من عام من الزمان ، أما المدائنى فهو يجعلها ثلاث حملات ، وهذا غير معقول[1] ، وهو إنما ينوّع فى الروايات ويجمع كل التفاصيل الممكنة ويهتم خاصة بذكر ما هو من قبيل الحكايات العجيبة ؛ أما البلاذرى (ص ٤٢٩) فلا يذكر لنصر إلا حملة واحدة ، وهى حملة أشروسنة ، ويقول إنها انتهت نهاية غير موفّقة[2] . أما الأعمال الرائعة التى ينسبها إلى نصر ا . موللر (A. Müller, 1, 412) متابعاً لفايل (Weil, 1, 632) ، فلا شك أن نصراً لم يعملها ، ولكنه استطاع أن يرغم الترك فى بلاد الشاش على التخلّى عن الثائر المهيّج ، الحارث بن سريج ، وعلى إخراجه من بلادهم ، وإن كانوا لم يسلموه

---

(١) يقول المدائنى إن نصراً توجه إلى : أ — باب الحديد ورجع ، ب — وإلى سمرقند ورجع ، ج — وإلى الشاش ، ولكن أ و ب مجرد مراحل لـ ج .

(٢) والقول بأن تاريخ ذلك كان فى عهد مروان بن محمد بعيد جداً من الصواب .

له . وقد خرج الحارث إلى الفارياب وأقام حيناً إلى أن اندلعت نار الحرب الأهلية بعد مقتل يزيد بن الوليد . وكذلك سمح نصر لأهل السغد الذين كانوا قد خرجوا من ديارهم ، ولم تصبح لهم فى بلاد الشاش وفرغانة شوكةٌ بعد الاضطرابات التى أعقبت مقتل الخاقان ، بأن يعودوا إلى أوطانهم ، ولكنهم كانوا قد اشترطوا للعودة شروطاً كرهها وأنكرها أمراء خراسان ، مثل عدم معاقبة من ارتدَّ منهم عن الإسلام وعدم أخذهم بما عليهم لبيت المال ونحو ذلك . ولم يرض نصر بهذه الشروط ، ولم يرض بها هشام بن عبد الملك ، إلا تألّفا لأهل السغد وتجنباً لنكايتهم فى المسلمين (الطبرى ج ٢ ص ١٧١٧ — ١٧١٨) .

وإصلاح نظام الخراج الذى قام به نصر من شأنه أن يلقى ضوءاً على سياسته الداخلية ، ويروى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٦٨٨ فما بعدها) أخبار ذلك . وقد أعلن نصرٌ برنامج هذا الإصلاح فى خطبة خطبها فى مسجد مرو فقال : « ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس ، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين ؛ ألا إن إشْبُداد بن جريجور[1] كان مانح النصارى ؛ ألا إن عقيبة اليهودى كان مانح اليهود يفعل ذلك ؛ ألا إنى مانح المسلمين ، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين ؛ ألا إنه لا يُقبل منى إلا توفّى الخراج على ما كُتِبَ ورُفع[2] ، وقد استعملت عليكم منصورَ بن عمر بن أبى الخرقاء ، وأمرته بالعدل عليكم ؛ فأيما رجل منكم من المسلمين كان يُؤخذ منه جزيةٌ من رأسه

---

(١) هكذا تجب قراءة الأسماء المسيحية التى يصعب التصرف عليها مكتوبة بالعربية .

(٢) إن القراءة الصحيحة موجودة فى هامش ص ١٦٨٨ مع علامة V (توفير بدلا من توفى) ؛ [نجد فى المتن عند الطبرى : « توفى الخراج على ما كتب ورفع » . وبحسب القراءات التى ذكرها الناشر فى الهوامش يمكن قراءة المتن هكذا « توفى الخراج على ما كتب ودفع » — ومن البين أن قراءة المتن صحيحة وإن كانت القراءة بحسب الهوامش غير مستحيلة — المترجم] .

أو ثُقِّل عليه فى خراجه وخُفِّف مثل ذلك عن المشركين فليَرفع ذلك إلى منصور بن عمر ، يحوله عن المسلم إلى المشرك » . ويروى أنه لم تأت الجمعة الثانية حتى أتى ثلاثون ألف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رءوسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد أُلقيت عنهم جزيتُهم ، فحُوِّل ذلك عليهم وأُلقِيَ عن المسلمين ، ثم صنّف نصر الخراج حتى وضعه مواضعه ، ثم وظّف الوظيفة التى جرى عليها الصلح ، وكان يؤخذ من مرو فى أيام بنى أمية مائة ألف درهم سوى الخراج » .

وعلى هذا صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هى الجماعات التى تدفع الجزية ، وكان رَبّان اليهود يأخذ الجزية من اليهود ، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى ، والمرزبان[1] يأخذها من المجوس ، وكان المجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى ، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلا[2] . ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحوّلوا الجزية من المجوس والنصارى واليهود ويلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية ؟ إن كلام المدائنى فى هذا الموضوع غير مفهوم ، ومما لا يمكن تصديقه أبداً أن تكون الجزية

---

(١) وإذن فالمرزبان فى هذه الحالة ، هو رئيس المجوس — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٢ س ١٣ .

(٢) كان النساطرة السريان قد انتشروا فى الشرق انتشاراً بعيداً ، كما هو معلوم ، وقد وضع أسقف أو مطران مرو جسد يزدجرد آخر ملوك الساسانيين فى ناووس (الطبرى ج ١ ص ٢٨٧٤ فما بعدها و ص ٢٨٨١ و ٢٨٨٣ — قارن ج ٢ ص ١٤٤٨ س ٥ وص ١٥٤٣ س ١) . وتذكر منازل الرهبان ويذكر مكان القديس ماسَرجَسان عند مرو ، وتذكر بيعة فى مرو أيضاً وبيعة عند مرو الروذ (الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٢ س ٢ وص ١٩٢٥ س ١٣ وص ١٩٥٧ س ١٤ و ص ١٥٦٩ س ١٤ وص ١٦١٢ س ١١) وفى قرية النصرانية خلف نصر بن سيار زوجته المرزبانة ، وهو يحاول الهروب من مرو الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٥ س ١٠ وقارن ١٨٨٩ س ٦) . وكان فى طخارستان موضع هام يسمى اليهودية .

فقد ألقيت عن ثمانين ألفاً كان يجب عليهم أن يؤدوها ، وأن تلقى على ثلاثين ألفاً لا يجب عليهم أداؤها ؛ فلا بد أن يكون الموقف هنا بحسب كل ما هو معروف من المواقف المشابهة له ، هو أن دخول غير العرب فى الإسلام كان لا يخرجهم عن تبعيتهم للجماعة التى كان عليها أن تؤدى الجزية . وكانت الجزية بحسب ما جرى عليه الصلح من قبل قد تقررت على مقدار ثابت لا يتغير ، بحيث إن لم يدفعها الداخلون فى الإسلام وجب على بقية الجماعة التى ينتمون إليها أن تدفعها عنهم حتى انتهى الأمر بأن أصبح جمع ذلك المبلغ المحدد غير ممكن ، وعلى هذا فإن واجب أداء الجزية كان قد صار عبئاً على من وقع على كاهلهم بمقتضى شروط الصلح ، يورثونه أبناءهم من بعدهم ، حتى لو دخل هؤلاء الأبناء فى الإسلام بعد ذلك . وكان الرؤساء المحليون من غير العرب يعملون بهذا المبدأ بإذن من الدولة العربية ، وقد تبين أن ما حاوله عمر بن عبد العزيز قبل غيره من إحداث تغيير أساسى فى هذا الوضع كان شيئاً لا يمكن تنفيذه ، ولكن تبين فى الوقت نفسه أن مما يخالف روح الإسلام أن يبقى الداخلون فيه — وهم بحكم إسلامهم مواطنون فى الدولة التيوقراطية — مثقلين بعبء الجزية ، شأنهم شأن غير المسلمين ممن ليسوا مواطنين فى الدولة الإسلامية وإنما كانوا يتمتعون بتسامح المسلمين معهم ، فكان لا بد من التمييز بين الفريقين ، ولكن بشرط أن لا ينقص مال الجزية عن المبلغ المقرر لها ، وقد قام نصر بذلك على النحو الذى لا بد منه على كل حال ؛ وكان الخراج من قبل يأتى من ضرائب متنوعة . وكان يشتمل على الخراج الذى يدفعه ملاك الأرض أو من يقوم مقامهم ، ولما كانت كل أنواع الضرائب تسمى خراجاً فلم يكن هناك سوى ضريبة واحدة تسمى الخراج أو الجزية ، وكان معنى هاتين الكلمتين حتى ذلك الحين واحداً (الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٧ فما بعدها) ؛ أما فى عهد نصر بن سيار فقد وضع نظام يقضى بأن يجبى الخراج بالمقدار الثابت الذى تقرر على المدن والنواحى ، كل على حدتها ، ومن الأرض وحدها ، وعلى

هذا حُدِّد مقدار الخراج من جديد ، وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه ، سواء كانوا مسلمين أو كانوا رعايا غير مسلمين خاضعين للدولة الإسلامية[1] . ولما كان الخراج يُؤخذ عن عين الأرض لا عن الشخص الذى يملكها ، فلم يكن فى ذلك ما يُشعِرُهُ بالصغار . وقد حدث مع ذلك جنباً إلى جنب فصلٌ تام بين خراج الأرض — فأصبح وحده هو الذى يسمى خراجاً — وبين ضريبة الرأس التى بقى لها اسم الجزية . أما ضريبة الرأس ، التى كانت تختلف فى المقدار وكان ما يتحصل منها يقل عاماً بعد عام كلما زاد عدد الداخلين فى الإسلام ، فقد صارت باباً يمكن الاستغناء عنه فى الخراج الثابت للدولة ، وخصوصاً أنها أسقطت عن المسلمين بالكلّيّة وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين منهم جميعاً ، بقصد تكليفهم ما يبين قلة قيمتهم الشخصية[2] . وتتجلى لأول وهلة صلاحية النظام الجديد الذى وضعه نصر ، إذا قورن بذلك النظام الذى كان من قبل يُعتَبَر هو النظام المتفق مع الشرع ، والذى بمقتضاه كان المسلمون يُعفَوْن من دفع الخراج . وهكذا ظل الفرق بين معاملة الدولة للمسلمين وغير المسلمين قائماً ، أما المسلمون ، عرباً كانوا أو موالى ، فقد صاروا من حيث المبدأ والقانون يقفون على قدم

---

(١) انتقلت الأرض إلى أيدى المسلمين ، لا من طريق دخول مالكيها السابقين فى الإسلام فحسب ، بل أيضاً من طريق حصول العرب عليها وشرائهم لها . ويظهر مما جاء فى الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٢٩ س ٦) أنه حتى قبل عهد نصر بن سيار كان على العرب الذين اقتنوا أرضاً أن يدفعوا خراجها ، وأن يعطوه إلى الدهاقين ، وكانوا بطبيعة الحال يدفعون الخراج عنها .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف ، والحق أن مشكلة دفع غير المسلمين الجزية فى الدولة الإسلامية قد قام حولها كلام كثير ، مع أنها ليست شيئاً عجيباً فى عصرها ، وما هى إلا بمثابة ضريبة حماية فى مقابل دفاع الدولة الإسلامية عن غير المسلمين فيها وضمان حقوقهم وإعفائهم من الواجبات الحربية — المترجم .

المساواة[1] ، وعلى هذا الوجه أمكن تفادى النقص فى الدخل الثابت للدولة ، وذلك أن تفاوت مقدار ما كان يتحصل من مال الجزية — وهو لم يكن كثيراً — وكذلك تناقصه المستمر شيئاً فشيئاً لم يكن له شأن له كبير . ومن الراجح جداً أن النظم التى وضعها نصر لم تقتصر على ناحية مرو ، بل شملت كل الولاية فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، لأن هذه النظم لم تكن شيئاً خاصاً ، وقد عُمِل بها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية التى كانت أحوالها مشابهة لأحوال خراسان وما لحق بها ، وصارت هذه النظم هى القانون الصحيح الذى زعم الفقهاء فيما بعد أنه كان موجوداً من أول الأمر ، مع أنه فى الحقيقة لم يتكون إلا شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب فى أن المدائنى تأثر بمزاعم المتأخرين فلم يستطع أن يفهم ما وجده نصر وما ألغاه وفى أنه يتصور فى إصلاحات نصر أشياء عجيبة وجد أنها تخالف القانون بعض المخالفة . على أن المدائنى يذكر الوقائع صحيحة : وهى أن المقدار الثابت للخراج وُظِّف على جميع ملاك الأرض حتى على المسلمين منهم ، أما الجزية فقد أسقطت عن المسلمين وفُرِضَت على غير المسلمين وحدهم .

وربما كان من الممكن على أساس هذه المساواة بين المسلمين أن يتحقق توازنٌ دائم بين العرب والأعاجم ، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك ، فقد عاد العرب فى خراسان إلى التنازع وإهــلاك بعضهم بعضاً ، وكانت الثورة فى الشام هى التى بعثت فى هذه المرة على الثورة فى خراسان ، وكانت تلك الثورة ردَّ فعل من جانب الحزب الثائر على طغيان حزب قيس فى أيام الوليد بن يزيد . وجاء الوليد بن يزيد بعد هشام فى أول ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) فأقرَّ نصراً فى منصبه أول

(١) ولكن بطبيعة الحال كان الأعاجم يدفعون فى الواقع أكثر مما يدفعه العرب لأن معظم الأرض كانت فى أيدى الأعاجم وخصوصاً فى أيدى الدهاقنة الذين كانوا من جانبهم يمتصون دم الزراع . ولكن دفع الأعاجم أكثر مما يدفعه العرب لم يكن والحالة هذه ظلماً .

الأمر[1] ، ولكنه بتأثير رئيس قيس ، وهو يوسف بن عمر[2] أمير العراق ، عزله بعد فترة ما ، ودعاه إلى دمشق وكلّفه أن يحضر معه أشياء كثيرة من الجوارى والبراذين والخيل والآنية والصنوج والدفوف وغيرها من الأشياء الجميلة ، وأن يقدم عليه فى وجوه أهل خراسان . فتباطأ نصر فى الاستعداد لذلك متعمداً ، حتى كان لا يزال بخراسان فى يوم النيروز سنة ١٢٠ هـ[3] ، لما بلغه خبر مقتل الوليد ، فلم يعترف بيزيد بن الوليد الذى ثار على الوليد بن يزيد ، ولا اعترف بأميره الذى بعثه إلى العراق ، أو على الأقل لم يعترف نصر اعترافاً عملياً ، بل دعا القبائل إلى مبايعته أميراً على العراق حتى تنتهى الفتنة وتتفق الكلمة على خليفة وحتى يأتى أمير من قِبَله . وقد انضمت إليه الأزد وربيعة ، مع أنهم كانوا حتى ذلك الحين غير راضين عنه ، وصار نصر لا يقصيهم عن المناصب كما كان يفعل من قبل ، وقد عمل فى الحقيقة عن جمع كلمة عرب خراسان حتى يعتبروا أن الحكومة حكومتهم جميعاً ولا يعتبروها شيئاً يتنازعون عليه ، وقد سهّل عليه ما أراده من اتخاذ موقف الحياد وعدم الميل إلى حزب دون حزب أنه كان كنانياً لا ينتسب إلى المجموعات الكبرى للقبائل ، ولكن الحكومة كانت فى نفس الوقت فى يده لأنه على رأسها ، ويروى أن شاعراً موالياً له تغنى باسمه قائلاً : نحن بربيعة نكبح جماح

---

(١) [راجع فى هذا وفيما يلى الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ — ١٧٦٨ ، ١٨٤٥ — ١٨٠٠ ، ١٨٥٥ — ١٨٦٦ — المترجم] .

(٢) وكان يوسف بن عمر نفسه هو وقيس قد دسوا لنصر بن سيار (سنة ١٢٣ هـ) عند هشام بن عبد الملك ولكنهم أخفقوا .

(٣) قتل الوليد بن يزيد فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٤٤ م) ، وقد علم نصر بقتله سراً من رجل كان من عمال البريد قبل وصول الخبر الرسمى بعشرة أيام ، وذلك أن كلمة « السكك » التى جاءت عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٤٥ س ٢١ — قارن ١٨٤٩ س ١٠) هى سكك البريد — قارن الطبرى (ج ٢ ص ١٧٠٩ واللسان ج ٤ ص ٥٣) . ومن العسير أن يكون الخبر وصل إلى نصر فى أقل من شهر ، وعلى هذا فإن النيروز لم يقع فى تلك السنة قبل منتصف مايو — انظر ما تقدم ص ٤٣٨ هامش رقم ٢ .

قيس وبالأزد نكسر شوكة تميم فيكون الأمر لكنانة[1] . فغضب نصر غضباً شديداً على هذا الشاعر المُفْسِد المجرد من كل فهم سياسى ، لأنه بما قال لا يخدم إلا أغراض خصوم نصر .

ولكنه لم يمض وقت طويل حتى انتفضت الأزد على نصر ومعها ربيعة ؛ ويجب ألا ننسى أنهم بحكم أنهم يمانية لا بد أن يقفوا فى جانب يزيد بن الوليد ومن يؤيده من قبائل كلب : ولما لم يدفع لهم نصر أعطياتهم نقداً ؛ بل من آنية الذهب والفضة التى كان قد أعدها للوليد بن يزيد ، جاهروا بالثورة . وكان على رأسهم جُدَيْع الكرمانى من الأزد ، وجهر جديع بأنه كان يرمى من وراء طاعته للأمويين أن يطالب بثأر بنى المهلب (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٨ س ١١) الذين قتلهم الأمويون قتلا لا رحمة فيه وهو بذلك قال كلمة كان لها صدًى فى قلوب الأزد جميعاً : وذلك أنهم استطاعوا أيام المهلب وأولاده أن « يأكلوا » خراسان ، ولم يتمكنوا من ذلك بعد أيام المهالبة ، ولم ينالوا فى أيام أسد بن عبد الله ما كانوا يريدون . وقد استطاع نصر أن يقبض على الكرمانى نفسه وأن يحبسه فى قهندز مرو فى آخر رمضان سنة ١٢٦ هـ (منتصف يوليه سنة ٧٤٤ م) ، ولكنه هرب من الحبس بعد شهر وذهب إلى موضع بجهة مرو ، وهناك اجتمع إليه جيش من الأزد وربيعة . وخرج نصر لقتاله ، ولكن لم يشتبك الفريقان وأشفق كل منهما من ذلك ، وبدأت بينهما مفاوضات للصلح ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة ، لأن الكرمانى كان يكره نصراً كرهاً عميقاً ولم يرد أن يعاهد نصراً لأنه لم يكن يأمنه .

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك وظهوره

---

(١) [هذا معنى ما يذكره المؤلف وهو لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه حتى نستطيع ذكر كلام الشاعر بنصه — المترجم] .

على المسرح من جديد — وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦ هـ ، لأن يزيد ابن الوليد — وكان قد آمنه(١) — مات آخر سنة(٢) ١٢٦ هـ . ولما كان الحارث عدواً للكرماني فإن نصراً دعاه لكي يخرج من سمرقند(٣) — وكان قد نزلها أول الأمر — ويأتي إلى مرو ، فأقبل الحارث إلى مرو في آخر رمضان سنة ١٢٧ هـ (أول يوليه سنة ٧٤٥(٤) م) . وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التي غمره بها نصر فإنه لم يلزم جانب نصر ، وظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية ؛ وهو طالب بها نصراً أيضاً(٥) . وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم . والحق أن نصراً أفرط في التساهل مع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٦ — ١٨٦٩ ، ١٨٨٨ — ١٨٩٠ ، ١٩١٧ فما بعدها — المترجم] .

(٢) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد (الطبري ج ٢ ص ١٨٧٤) ، وربما كان من أجل ذلك ميالا إلى أهل السغد [ولكن الذي يقوله الطبري هنا هو أن أم يزيد كانت أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى — المترجم] .

(٣) [يقول الطبري (ج ٢ ص ١٨٨٨) إن الحارث وافى مرو لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ — المترجم] .

(٤) [وفي رواية أن نصراً أراد مصالحة الحارث دون إذن أمير العراق ودون إذن الخليفة ، وذلك خوفا من مجيء الحارث إليه هو وأصحابه والترك معه وطمعاً في مخالفته و مناصحته — الطبري ج ٢ ص ١٨٦٧ — ١٨٦٨ — المترجم] .

(٥) [أطلق نصر أبناء الحارث ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم وأنزله قصراً ، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه في أصحابه ، وعرض عليه نصر أن يوليه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل ، وأرسل إلى نصر يقول له : « لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل ، فإن فعلت ذلك ساعدتك على عدوك » ، وأرسل إلى الكرماني يقول : « إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل العدل والفضل عضدته وقمت بأمر الله ، وإن لم يفعل استعنت عليه وأعنتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة » . وظل الحارث على مبدئه الذي ثار من أجله قبل ذلك ، وقد قال لنصر : « خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور ، وأنت تريدني عليه » . ولكن ليس هذا مبدأ خاصاً بالمرجئة ، بل هو أولى أن يكون رأي الخوارج . راجع فيما يتعلق بالنصوص الطبري ج ٢ ص ١٨٨٨ — ١٨٩٠ ، ١٩١٩ — المترجم] .

هذا المنافس الخطر الذى جلبه على نفسه[١] ، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه فى خدمة قضية الأعاجم فى أرض الثغرين ، وكتب لهم كتاباً بسيرته وسياسته وأغراضه فى إحقاق الحق والعدل ، وكان رجاله يقرأون ذلك فى الطرق والمساجد ، وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرضاه أصحاب الحارث ، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر . ولكن ذلك لم يغن نصراً شيئاً ، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق فى أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذى يملأ نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع . هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأنانية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه ، ويروى أن الحارث ونصرا تناظرا فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيّان وجهم بن صفوان ، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى ، فلم يرض نصر . وعند ذلك بدأ النزاع الصريح ، ونزل الحارث معسكراً أمام مرو ، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨ هـ آخر مارس سنة ٧٤٦م) . وفشلت المحاولة بطبيعة الحال ، فأسر جهم بن صفوان وقُتِل ، وكان الجهم هو الداعى إلى مذهب المرجئة[٢] وهو المؤلف لكتاب عن سيرة الحارث وبرنامجه ، وكان يقرؤه على الناس[٣] . ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرمانى ،

---

(١) [يجد القارئ اعتراف نصر نفسه بذلك عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ س ١١ قارن ص ١٩٣٠ س ١٠ — ١١ — المترجم] .

(٢) [كان جهم فى الحقيقة صاحب فرقة قائمة بذاتها لها آراؤها الخاصة بها ، وهى فرقة الجهمية — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ — المترجم] .

(٣) [المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩١٨ — ١٩١٩) هو أن الجهم هو الذى كتب كتاباً فيه سيرة الحارث ، وكان يقرؤه على الناس وأنه كان « يقص » فى عسكر الحارث . وعند الطبرى أيضاً (ص ١٩٢٠) أن الحارث بن سريج كتب سيرته ، أى سيرة نفسه ، فكانت تقرأ فى طريق مرو والمساجد . على أن المشهور أن جهماً كان كاتباً لابن سريج ، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن أنه كان هناك كتاب بمعنى مصنف ، بل المقصود من الكتاب ما يشبه منشور الدعاية اليوم ، وفيه سياسة صاحب الدعاية وأغراضه ووسائله — المترجم] .

ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن اختفى من مسرح السياسة سنة ونصف سنة ، فدخل الكرمانى فى النزاع وغيّر وجهته ، وبعد قتال دام أياماً رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور ، مقر قيس ، وأن يخلى مرواً للثائرين .

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرمانى لم يلبثوا حتى اختلفوا ، وذلك أن من كان من الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أعانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا فى مرو يحاربون مع نصر ، وهم لا ينسوا للكرمانى أنه فى أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصهار الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان ، وأنه بقر بطون خمسين رجلاً منهم وقطع أيدى ثلاثمائة منهم وأرجلهم إلى غير ذلك مما نقموه عليه[1] . وكان أول من نبذ هذا التحالف غير الطبيعى بين الحارث والكرمانى هو بشر بن جرموز ، أكبر أنصار الحارث ، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلباً للعدل ، وإن انضمام الحارث إلى الكرمانى معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية . فاعتزل بشر فى خمسة آلاف أو أربعة آلاف وخمسمائة ، ولما بدأ القتال بعد ذلك انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرمانى ، ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تميماً ومضر فى آخر رجب سنة ١٢٨ هـ (إبريل سنة ٧٤٦ م) وأخرجوهم من مرو وخربوا عسكرهم ، وقُتِل الحارث نفسه وصُلب جَسَدُه عند مدينة مرو بغير رأس ، فنال الجزاء العادل على أعماله ، مهما كانت آراؤه ومقاصده . فهو فى محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة وحشد قوى الخير والشر جميعاً فى محاربة الحكومة الأموية ، وهو فى أول ظهوره قاد الترك لمحاربة العرب . فلما أخفق ظل لاجئاً عند الترك سنين كثيرة ، فلما ظهر من جديد فرّق كلمةَ تميم ، وكان لاتحاد كلمتهم فى ذلك

---

(١) [جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصراً بعث إليه أنه سيكف عن قتاله لأن اليمانية عيروه بهزيمته .

الوقت الشأن كل الشأن فى المحافظة على السيادة العربية . وقد كان الحارث بذلك سبباً فى أن اليمانية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة ، بل فى أنهم أردَوْا مضر كلها ، ويحق ما قيل عنه من أنه رجل مشئوم[1] ، وأنه كان الممهد الحقيقى لأبى مسلم[2] .

وعلى الرغم من أن نصراً كان من قبل قد تعصب على قيس ، فإنهم ، لما رجع إلى نيسابور ، أحسنوا لقاءه فى ذلك الوقت العصيب[3] ، كما انحاز إليه المضريون الذين أخرجوا من مرو . ويروى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد بالخلافة ، ولكن طالما كانت العراق وما يلحق بها من بلاد العجم فى قبضة الخوارج وفى قبضة عبد الله بن معاوية بن جعفر فإن الطريق كان مقطوعاً بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية فى الشام ، ولم تتغير الحال إلا فى سنة ١٢٩ هـ ، لمـا خضعت العراق لمروان بن محمد ، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاعترف له نصر بالرياسة باعتبار أنه رئيسه المباشر[4] ، ولم يكن من نيته قط أن يخرج على الأمويين ، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بنى أمية حول الخـلافة فى الشام . وربما يكون قد بايع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يُغْنِه إلا قليلاً ، فبقى

---

(١) [راجع أبياتاً تنسب لنصر بن سيار وغيره فيما أدخله الحارث على العرب من الذل والشؤم المردى ، وهى عند الطبرى جـ ٢ ص ١٩٢٥ — ١٩٣٦ — المترجم] .

(٢) وقد فسر لون علمه الأسود (الطبرى جـ ٢ ص ١٩١٩ س ٢ فما بعده) على هذا الوجه ، وإن كان ذلك بغير حق كامل ، أما الصحيح فإنه يوصف فى الأشعار بأنه أردى مضراً وأنه حالف الكفار على العرب (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٢٤ س ١٠ ، ١٩٣٥ فما بعدها) و ص ١٥٧٥ فما بعدها . وقد قال له نصر بن سيار :

إرجاؤكم لزَّكم والشِركَ فى قَرَنٍ   فأنتمُ أهلُ إشراكٍ ومُرْجُونا

(٣) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٩٢٩ — المترجم] .

(٤) إن الروايات القائلة بأن ابن هبيرة قد اتصل فى أول سنة ١٢٧ هـ بنصر بن سيار تتضمن خطأ كبيراً فى التواريخ .

مضطراً إلى الاعتماد على نفسه ، عندما أراد فى سنة ١٢٩ هـ أن يقوم بمهمة استرداد مرو[١] . وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئاً تقدم نصر نفسه ، وكان فى الثمانين من العمر ، ووضع كل قوته فى المعركة . وخرج الكرمانى لمحاربته ، وعسكر الفريقان خارج المدينة فى « الخندقين » اللذين بقيت آثارهما زماناً طويلاً ، وظلا يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم . وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح فى الاستغاثة وطلب العون ويصف الخطر وصفاً يحرك الهمم ، ولكنه لم يظفر من استغاثته بطائل[٢] . غير أن تخوف العرب من عدوٍّ لهم جميعاً دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى[٣] ، وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بنى العباس — ومعظمهم من الأعاجم — قد تجمعوا تحت راية أبى مسلم ونزلوا معسكراً حصيناً غير بعيد من مرو ، فدخلت ربيعة — التى مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط — فى الفرجة التى كانت تفصل بين اليمن ومضر ، فاتحد يحيى بن نعيم ابن هبيرة ، أكبر سادات بكر ، مع نصر بن سيار ، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو فى مؤازرة الحكومة[٤] . وبدأت مفاوضات بين نصر وبين جديع الكرمانى ، لكنها انقطعت بسبب ابن الحارث بن سريج كان مع نصر بن سيار ، فاغتنم الفرصة ليثأر من قاتلى

---

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٠ — ١٩٧٦ .

(٢) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التى ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٨٧٣) تدخل فى وصف هذا الموقف [غير أنها تشير إلى الخطر الذى جاء من قبل أبى مسلم . والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذى لعبه أبو مسلم فى التفرقة بين نصر والكرمانى . راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٢ — المترجم] .

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٢ فما بعدها و ١٩٧٥ فما بعدها — المترجم] .

(٤) راجع قصيدة نصر التى نادى بها ربيعة ، وهى موجودة عند Nöldeke فى **Delectus** ص ٨٨ .

أبيه ، فاغتال الكرماني خلسة[1] . غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذي أدى إلى فشل المفاوضات . لكن سقوط مدينة هراة ، تلك المدينة الهامة ، في يد أبي مسلم راع العرب كثيراً وفتح أعينهم أيضاً ، فحل محل الكرماني رجلٌ من أنصاره لا نعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين ، وهو شيبان بن سلمة الحروري الخارجي[2] ، فدعاه يحيى بن نعيم[3] بن هبيرة إلى موادعة نصر بن سيار ، فوادعه سنة ، فاستطاع نصر أن يدخل مرو في آخر سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . ولم يكن الأزد وحدهم هم الذين دخلوا في هذه المدنة ، بل دخل فيها أيضاً عليٌّ ابن زعيمهم المقتول : جديع الكرماني . ولم يكن من المؤكد أن ينتهي القتال بانتصار أبي مسلم ، غير أن أبا مسلم عرف كيف يقنع علي بن جديع الكرماني بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه ، وكان يريد بذلك أن يضم علياً إلى جانبه (أول سنة ١٣٠ هـ — سبتمبر سنة ٧٤٧م) . وعلى هذا عاد الكرماني ومن تبعه من الأزد إلى قتال نصر من جديد . ويظهر أن القتال استمر في ضواحي مرو وفي شوارعها مدة طويلة ، وقد

---

(١) والروايات تريد على كل حال أن تظهر نصراً بمظهر المشترك في مقتل الكرماني ، وذلك بأن تقول إن نصراً صلبه ومعه سمكة ، وهي علامة الإزراء بالأزد . ولكن نصراً كان جاداً في المفاوضات ، ولم تكن هي بقصد اغتيال الكرماني ، لأن ذلك كان يهددها بالفشل . ولو أنه صلب رئيس الأزد ، وخصوصاً لو أنه صلب معه سمكة ، لما أمكن أن يبقى الأزد بعد ذلك على ود مع نصر لحظة واحدة . وإذا كان ابن الرئيس المقتول قد صالح نصراً بعد قتل أبيه على الفور فلا بد أنه في ذلك الحين لم يكن مقتنعاً بأن القتل كان بعلم من نصر . أما أول من أوحى إليه بفكرة اشتراك نصر في قتل أبيه فهو أبو مسلم . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد وجد دليل ثابت يدل على رضاء نصر من الجريمة ، مثل أن يأمر بصلب جسد الكرماني ويصلب معه سمكة . ولو أنه فعل ذلك لكانت له نتائج أخرى ولأدى إلى ضرب وجه سياسة التفاهم التي أرادها نصر . أما القاعدة القائلة بأن نصراً fecit cui prodest (فعل ما يفيده) ، فإنها لو طبقت هنا لكان تطبيقها خطأ .

(٢) قارن ص ٣٧٨ — ٣٧٩ مما تقدم .

(٣) [هنا وفيما سبق قبل بقليل يقول المؤلف : يحيى بن حضين ، والغالب أن هنا سهواً — راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٦٦ س ١٢ و ١٩٦٧ س ٢ — المترجم] .

انتهى هذا القتال بأن صار أبو مسلم سيد الموقف ، ذلك أنه تدخل فى القتال عندما بدا له أن الوقت مناسب ، وقرر مصير المعركة من غير استعمال السيف ، وكان ذلك فى ربيع الثانى سنة ١٣٠ هـ — ديسمبر سنة ٧٤٨م[١] .. وفى صباح اليوم التالى هرب نصر إلى سرخس وطوس ومنها إلى نيسابور ، فكان ذلك آخر السيادة العربية فى خراسان وبدء نهاية السيادة العربية على الإطلاق .

(١) سنزيد من ذكر التفاصيل والوقائع فى الفصل التالى .

الفصل التاسع

سقوط الدولة العربية

١ – إن ما قلناه في الفصل السابق عن العلاقة بين العرب والأعاجم ينصب خاصة على أرض « الثغرين » ، وهو ينصب على أرض السغد أكثر مما ينصب على أرض طخارستان . وهناك كان الفريقان لا يزالان على قدم الحرب ، وكان الإسلام قد صارت له بعض المواقع الحصينة ، ولكن قدمه لم تكن قد رسخت ؛ أما في خراسان الحقيقية فكانت قوى الفريقين قد تعادلت وتكونت من ذلك طريقة في التفاهم (modus vivendi) . وكان العمل الذي نجده لا يزال سائراً فيما وراء النهر قد تم في خراسان الحقيقية ولا نعرف عنه شيئاً ، لأننا ليس لدينا أخبار كافية عن بداية العصر الذي أعقب الفتح الأول . ولكن يمكن الإلمام إلى حد ما بالنتيجة ، أعني بالأحوال فيما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٣٠ هـ[1] .

لم يكن العرب والأعاجم منفصلين في الحياة الظاهرة ، أعني أنهم لم يكونوا يسكنون منفصلين . وقد بقي في مدن الجيوش العربية مثل نيسابور (أبيورد ، سرخس ، نسا) ومرو ومرو الروذ وهراة سكانها الأصليون ؛ أما القلاع والحصون فقد احتلها الفاتحون بطبيعة الحال . وأيضاً لم يظل العرب متجمعين في نقط قليلة خاصة بهم ، وهم لم يكونوا يعيشون فقط في المدن التي كانوا قد اختاروها لتكون بمثابة «مستعمرات حربية» ، بل كانت لهم أملاك وضياع وأهل في القرى ، ومنهم

---

(١) قارن كتاب فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe وهو ضمن Verhandelingen der K. Akademie te Amsterdam, Afd. Letterk 1,3 أمستردام ، ١٨٩٤ .

من كانوا يقطنون هناك ، خصوصاً فى واحة مرو . وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام ريّ موحّد ، وكان للعرب بطانة" وموال من الأعاجم ، كما أنهم تزوجوا نساء" أعجميات ، وكان لا بد أن يظهرّ أثر ذلك فى أبنائهم منذ الجيل الثانى . وإنه وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربى فى بلاد العجم فإن ذلك لم يصل إلى حد أن يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم ، وخصوصاً أن الحروب التى لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلا فظيعاً . وفى بعض الروايات التى ترد بعد حين وآخر : أنه كان خراسان ما يقرب من خمسين ألفاً من المقاتلة العرب . ومع أن نسبة من يقومون بواجب الحرب بين العرب كانت كبيرة ، بحيث كانت تبلغ نصف مجموع الذكور ، فإن مجموع السكان العرب فى خراسان لا يمكن أن يكون قد تجاوز المئتى ألف نفس بكثير . وقد تأقلم العرب فى وطنهم الجديد ، وكانوا يشعرون أنه لا فرق بينهم وبين أبناء البلاد فى الوطن المشترك بينهم ، فكانوا يحسون أنهم خراسانيون ، وكانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان (الطبرى جـ ٢ ص ١٥٣٠) ، وكانوا يشربون النبيذ ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان .. وأخذ أشراف العرب يظهرون بمظهر المرازبة وأسلوبهم فى الحياة ، وكان الاشتراك فى الحياة العملية مما دعى إلى التفاهم بين العرب والأعاجم ، حتى كانت الفارسية فى الكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس فى السوق كما يتكلمون العربية على الأقل . وإذا حكى لنا أن رجلا مثل أبى الصيداء كان لا يتكلم إلا العربية وأنه لذلك لم يكن يصلح وحده رسولا إلى أهل السغد الذين لم يكونوا يتكلمون سوى الفارسية ، فإن أمر أبى الصيداء يبدو شاذاً . أما فى جيش أبى مسلم فكان العرب يتكلمون الفارسية فى الغالب[1] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٥١ س ٤ و ص ٦٤ س ١٨ و ص ٦٥ س ١٤ و ١٦ .

وكذلك لم يقف الأعاجم من جانبهم إزاء العرب فى خراسان كتلة واحدة ، ولا هم وقفوا من العرب موقف العداء أو النفور ، ولم يكن تأثر الأعاجم بعملية المزج بين العنصرين أقل من تأثر العرب بها ، وخصوصاً أن الفتح لم يغير أحوال المغلوبين ، وهو لم يزدها سوءاً . وقد أفلح العرب فى حماية البلاد من الخارج ، أعنى من غزو الترك ، أحسن مما أفلح فى ذلك ملوك الساسانيين[1] . ولم يتدخل العرب كثيراً فى الأمور الداخلية ، بل تركوا إدارة البلاد فى يد المرازبة والدهاقنة . ولم يكونوا يتصلون بالشعب المغلوب إلا من طريق هؤلاء المرازبة والدهاقنة . وأيضاً ظلت السلطات المحلية السابقة فى المدن العسكرية العربية وفى حواضر الدولة باقية إلى جانب السلطات العربية ، وكان للسلطات المحلية جباية الخراج بنوع خاص ، وكانت هى المسئولة أمام الفاتحين عن دخوله بيت المال على المقدار الصحيح المتفق عليه ، أما سواد الشعب البائس الذى عليه أن يدفع (misera contribuens plebs) فلا شك أنه لم يكن فى عهد الساسانيين يدفع من الخراج أقل مما كان يدفع فى عهد العرب . هذا إلى أن العرب لم يتدخلوا فى المسائل الدينية للأعاجم ، وكان الأساس فى المعاهدات التى يفرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم ، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى فى المدن التى كان يسكنها العرب ، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية للوثنية . ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جدية ، وكان أهم ما يعنيهم هو الشعائر المصطبغة بصبغة المرح والسرور بالحياة ، وكانت هذه الشعائر تتجلى فى أعظم صورها فى الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان ، وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى بعد دخولهم فى الإسلام ، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون فى الاحتفالات الدينية للأعاجم ، ما دامت هذه

---

(١) ولم يستطع الترك أن يصلوا فى غاراتهم إلى مقربة من نيسابور إلا فى أثناء الحرب بين قبائل تميم (البلاذرى ص ٤١٤ — ٤١٥) .

الاحتفالات مجالاً للسرور والتسلية . وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الإسلام فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يُمَكِّنُهُم منها ، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا ، أي هم اتخذوه وسيلة لكي يستعربوا وينالوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا ، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألحقوا بالقبائل العربية(١) . وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب ، وأن يلعبوا دوراً ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية ، وكانوا يسمون النصحاء ، وأشهرهم سليم وحيان النبطي .

ونظراً لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد ، فقد كانت أكثر المناسبات ملاءمة للدخول في الإسلام ما يَعْرِضُ من النهوض بأعباء الحرب في الجيش الإسلامي . وقد اقتدى السادة من العرب بأشراف الأعاجم ، فكانوا يأخذون معهم إلى الميدان حاشية من الغلمان تكون لهم خاصة (وهم الشاكرية) ، وكان هؤلاء الغلمان أيضاً يشتركون في القتال ، وكانوا يقررون مصير المعركة في بعض الأحيان . وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فِرَقٌ من الأعاجم خاصة على رأسها قوادٌ منهم ، ومن أمثلة ذلك حريث بن قطبة وأخوه ثابت في الحقبة الأولى ، وحيّان النبطي وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة(٢) . فكان الموالي — وهذه هي بوجه عام التسمية التي كانت تطلق على من دخل في الإسلام

---

(١) قارن البلاذري ص ٤٤١ : أسلم بعض الملوك وتسموا بأسماء عربية ، على أننا لا نجد في ذلك الوقت مسلمين أعاجم بأسمائهم الأعجمية ، وكثيراً جداً ما نجدهم يستعملون الكنية ، مثل : أبو داود ، أبو عون ، أبو مسلم ، أبو نصر ، وهكذا ، والكنية عند عرب خراسان هي من وجه ما اسم حرب (بالمعنى الحقيقي) راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٩ س ١٥ و ١٤٣٠ س ٣ و ١٥٩٣ س ١٦ (أبو مزاحم) و ١٦٢٧ س ٤ (أبو الموت) و ١٦٣١ س ١٥ وتجد اسما آخر من أسماء الحرب في ص ١٥٣٨ ص ٧ .

(٢) وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق الأمراء التابعين للدولة العربية ، وكان عليها أن يحاربوا إلى جانب العرب ، ولكنهم كانوا في الغالب لا يزالون على وثنيتهم .

من غير العرب وألحق بالقبائل العربية — يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون الأعداء القدماء لوطنهم ، وهم الترك ، ولكنهم أيضاً كانوا من أجل الإسلام يحاربون أبناء وطنهم من السغد ، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك . وهكذا تأصّل الإسلام فى قلوبهم ، بعد أن كانوا فى أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية . ولقد كانوا فى إسلامهم أكثر إخلاصاً من العرب أنفسهم (١) .

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرتهم إلى أنفسهم ، فإذا كان الموالى فى الجيش فإنهم كانوا يحاربون مترجّلين لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا يُنْظَر إليهم بشىء من الريبة . وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً فى الغنيمة فإنهم لم تكن لهم أعطياتٌ ثابتة ، فلم يكونوا مقيدين فى الديوان ، أعنى فى سجل المقاتلة الذين تُفْرَض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا فى القبائل العربية ، فإنهم كانوا يسمون « أهل القرى » تمييزاً لهم عن « أهل القبائل » . ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . أما الخراج الذى كان يؤديه كل من يملك أرضاً حتى العرب منهم ، فيظهر أنه على كل حال لم يُحْدِثْ من التذمر بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر ، لأن هؤلاء لم يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية ، ولكن لا شك فى أن عدوى التذمر تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان — وقد عمل الحارث ابن سريج وغيره على ذلك .

ولو أن العرب عاملوا من دخل فى الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩١ س ٩ : لم يرد الأعاجم أن يحاربوا فى صفوف العرب إلا إذا كان ذلك لأجل الدين [الحقيقة أن استنتاج المؤلف فيه تعسّف . وحتى لو فرضنا أن بعض الأعاجم كان أشد تحمساً للدين من بعض العرب فهل كان ذلك لأنهم أعاجم ؟ أما النص الذى يستند إليه المؤلف فهو يتخلص فى أنه فى أثناء فتنة من الفتن أراد قائد فرقة الموالى فى الجيش أن يغتنم الفرصة لينال ولاية يأكلها طول حياته واتفق مع أحد قواد العرب على ذلك وقال لمواليه : هؤلاء العرب يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً — المترجم] .

لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، لكن العرب بما صنعوه ربّوا فى أحضانهم أعداء لأنفسهم ، حتى كبر هؤلاء الأعداء . ثم إن الإسلام لم يساعد على إزالة الخصومة بين الفريقين ، بل جعلها أشد خطراً[1] ، لأنه أحيى الأعاجم من جديد وشد أزرهم ووضع فى يدهم سلاحاً على سادتهم العرب ، وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان ، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام ، والإسلام هو الذى جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بنى أمية مهتدين بالمبادئ التى يجب أن تقوم عليها الدولة التيوقراطية فى نظر الإسلام — والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظمهم .

والإسلام الأول يجعل المحافظة على وحدة « الجماعة » ، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية ، فوق كل شىء ، وهو أيضاً يدعو إلى شد أزر حكومته وإلى طاعتها[2] ، ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التى يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذى كان قائماً إذ ذاك ، وجعل يدعو للحرب نصراً لله على بنى أمية وعلى عمالهم ، ونصراً للحق على الطغيان والعسف . أما الخوارج فلا نسمع عنهم فى شرق الدولة الإسلامية إلا قليلا ، ولكن لا شك فى أنهم كان لهم من الشأن

---

(١) [يقصد المؤلف أن الإسلام بما تضمنه من تقرير مبدأ المساواة التامة بين المسلمين ، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة ، فى جميع الحقوق والواجبات كان هو السند الذى استندت إليه الثورة التى أسقطت الدولة الأموية استناداً إلى أنها لم تراع مبدأ المساواة بين المسلمين — المترجم] .

(٢) [يأمر الإسلام بالتمسك بالوحدة فى الجماعة الإسلامية وينهى عن الفرقة والشقاق ، كما أنه يأمر بطاعة ولى الأمر أياً كان ، ما دام يحكم بالحق والعدل ، وينفذ أحكام الدين . ولكن الإسلام لا يقر الخضوع للظلم ، ولا يقر الحكومة الظالمة ، وقد دخل هذا فى مبادئ الفرق السياسية والدينية — المترجم] .

هناك أكثر مما يمكننا أن نأخذه من الأخبار القليلة التي تذكر عنهم . وليس من الممكن أن ينشأ شيبان بن سلمة الحروري وأتباعه الكثيرون من الأرض فجأة ، على ما بدا عليه ظهورهم في خراسان . ولكن المرجئة كانوا من غير شك أكبر شأناً من الخوارج [في ذلك الوقت وفي تلك الجهة من الدولة الإسلامية] ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ تلك الحقبة تدخلا كان له أثره الكبير . وكل من الخوارج والمرجئة قد استنكروا ، من حيث المبدأ ، كل تمييز للعرب على الموالي المسلمين . ولكن كلاًّ من الخوارج والمرجئة تراجعوا آخر الأمر إلى المحل الثاني تماماً أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا في خراسان في وقت مبكر ، ثم جاءوا بالعمل الحاسم في إسقاط الدولة العربية .

وكان مقر الشيعة في العراق ، شأنها شأن الأحزاب التي كانت تتخذ من الدين سنداً لمقاومة حكومة بني أمية ، على أن فتح شرق بلاد العجم كان من جهة العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم .

ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام ، وكان لا يزال يأتي من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر ، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوساً . ويظهر أن أمراء الأمويين في العراق ، ولا سيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا توثبها وطاقتها على العمل في جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها . ومما له مغزاه أن الحجاج كان حريصاً على إبعاد جند الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم عدوى روح الشر .

أما بدايات ظهور الشيعة في خراسان فليس عندنا عنها روايات دقيقة ، وهذا طبيعي . ويبدو كأنما كانت بذور مبادئهم تطير في الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها ؛ أما إلى أي حد كانت أهواء الناس مع الشيعة في خراسان فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زيد بن علي لما أخفق في محاولته الثورة في الكوفة أشار البعض

على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان . وقد عمل يحيى بهذه المشورة ، وهو وإن كان قد قُتل وهو يقاتل ضد الدولة ، فإن استشهاده أثار سخطاً عند الجميع ، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا فى خراسان فى تلك السنة سُمُّوا باسمه (المسعودى ج ٦ ص ٣) . وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لا شك يعلم تأثير ذلك فى النفوس ، وهو بذلك ضرب نغمة وجدت صدًى عند الجميع (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٥ و ج ٣ ص ٥٠٦ فما بعدها) . وأيضاً كان عبد الله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكاناً أميناً ، ولكن أخطأ ظنه فى أبى مسلم ، لأن أبا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوى حى أكثر مما كان عنده لعلوى ميت ، فدسّ على بن معاوية من قضى عليه سراً . ولكن ابن معاوية أيضاً ظل يعتبر فى خراسان شهيداً يقدسه الناس زماناً طويلا ، وكان قبره هناك يزار كثيراً .

ولو أن العرب فى خراسان اتحـدوا فيما بينهم وشدوا أزر الحكومة لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يندسوا فى الفجوات التى أوجدها الشقاق . ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالى السلطان فإنهم أيضاً لم يُمَتِّع بعضهم به بعضاً . وكانت المناصب والمغانم التى كانت فى يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للتحاسد الشديد بين القبائل ، وظلت العصبية داء العرب الباقى على الزمان ، حتى إذا بدأ يتزلزل عرش بنى أمية آخر الأمر اشتدت العصبيةُ اشتداداً مروعاً ، كما رأينا . وقد استغل الشيعة — بالمعنى الخاص للكلمة — هذا الموقف ، وكان العباسيون قد اتحدوا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين وخرجوا من المدينة إلى الحُمَيْمة فى الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام[1] ، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون .

---

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عبد الله بن عباس ، المحدث الورع ، ابن عم النبى عليه السلام وابن عم على بن أبى طالب رضى الله عنه . وبعد أن قتل على وصالح ابن عباس معاوية —

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين ، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائماً تمييزاً دقيقاً : فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا فى المبدأ السياسى القائل بأن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى عليه السلام ، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص فى العقائد ، وهو مذهب غريب تماماً عن الإسلام الأول . وقد سمى الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة ، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن . ففى أول الأمر سُموا السبئية ، وفى رأى سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله فى تاريخ الدولة الإسلامية ، وهم قتلة عثمان وفاتحو باب الفتنة والحرب الأهلية ، ومؤسسو حزب الخوارج الثائرين ، وهم السبب فى قتل المسلمين بعضهم بعضاً . والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخى إلا على يد المختار الثقفى ، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك[1] ، وكان موطنهم الكوفة وسوادها ، ولم يكونوا من العرب فحسب بل كان معظمهم من الموالى ، وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة ، أعنى رجعة الأرواح فى أجساد مختلفة — وخصوصاً رجعة روح النبى عليه السلام فى أبنائه . وهذه النقط الثلاثة هى النقط الجوهرية التى تميزهم . أما أشراف العلويين ، أعنى أبناء السيدة فاطمة بنت النبى عليه السلام ، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام

= ظل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية . فلما جاء ابنه على بن عبد الله بعده ، وكان مثله فى الورع وكان يلقب بالسجاد أو بذى الثفنات ، لم يفعل غير ما فعله أبوه . وفى عهد عبد الملك بن مروان انتقل إلى دمشق . ولكن الوليد بن عبد الملك ، بعد أن مات عبد الملك أساء به ، فانتقل فى سنة ٩٥ هـ مكرها كما يروى ، وسكن الحميمة عند أذرح على طريق الحج الآتى من الشام ؛ ومات وهو شيخ كبير فى سنة ١١٨ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٢). وكان لابنه محمد بن على شأن أكبر منه بكثير ، حتى وهو على قيد الحياة ، فظهر أولا بدعوى إمامة الشيعة ، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية ، وجعلها تعمل من أجله فى الكوفة وخراسان ، فى حين أنه لم يترك مكنه فى الحميمة ، ومات فى ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٩) ، وبعد وفاته جاء ابنه ابراهيم بن محمد إماماً ثانياً للعباسيين . وقد ولد ابراهيم هذا فى سنة ٨٢ هـ .

(١) راجع فيما يتعلق بالمختار ما قلته عن الشيعة فى كتابى ، ص ٧٤ فما بعدها .

الأول ولا عن أصول العروبة ، ولذلك نبذوا السبئية فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء على من زوجة أخرى له ، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه . فلم يعترض هذا على أن اتخذه السبئية بمثابة الصنم الذى كانوا يحتاجون إليه فى مذهبهم ، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئاً ، لأنه حتى لو كان ميتاً لما كانت فائدته أقل منه حياً . ولقد قيل حيناً من الدهر إنه لم يمت ، بل كان لا يزال حياً غائباً فى جبل رضوى عند المدينة ، مستعداً للظهور فى الوقت المناسب . ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام ، ولم يكن شأنه من حيث وراثة الإمامة أكبر من شأن أبيه . ولم يجد غلاة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن على ابن الحسين . على أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين[1] ، ويروى أنه لما مات سنة ٩٨ هـ أوصى وصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن عبد الله بن العباس .

وقد نبه فان فلوتن (van Vloten) على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيهاً شديداً[2] ، ومهما يكن من شيء فالراجح أنها فى صورتها هذه مخترعة[3] ، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر ، لأن لها شواهد قوية[4] ، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه

---

(١) ربما كان هناك قبل العباسيين وانضموا إليه (٩٥ هـ) ولم يكن هو الذى انضم إليهم .

(٢) راجع كتاب فان فلوتن Opkomst der Abbasiden ، ليدن ١٨٩٠ ص ١٨ فما بعدها و ص ١٤٨ .

(٣) جاء فى الشهرستانى (ص ١١٢ س ١٩) أن أبا هاشم ، فى رأى بعض فرق الهاشمية ، أوصى لآخرين منهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى .

(٤) انظر رواية المدائنى عند الطبرى (ج ٢ ص ٢٤) ، ورواية ابن سعد فى Wüstenfeld Register ص ١٩ و ١٣٠ . وعند فان فلوتن فى كتابه Opkomst ص ١٤٩ .

الرواية تتضمن أيضاً قدراً من الحق ، فقد كان أبو هاشم فى الواقع سلفاً لمحمد ابن على ، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعييناً حقيقياً . وقد كان لأبى هاشم حزبه الخاص ، وكان أتباعه يسمون الهاشمية[1] ، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن على (الطبرى ج ٢ ص ٢٥٠٠) وبحسب ما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٥٨٩) كان على رأسهم خداش ، وهو من أكبر دعاة الشيعة نجاحاً ، وكان فى أول الأمر يدعو إلى محمد بن على . وعلى هذا ففى خبر تلك الوصية شىءٌ من الحق : فالعباسيون والوا أبا هاشم لكى يضموا الهاشمية إلى دعوتهم .

وفى هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يُقْضَ على السبئية فى الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التى كان يكتمها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستانى ، لا تختلف عن آراء ابن سبأ فى شىء . وتآمرُ العباسيين يشبه تآمُرَ السبئية كما يصفه سيف[2] شبهاً تاماً ، وكان مقر العباسيين فى الكوفة أيضاً ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم فى خراسان ، وفى كلا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الحركة إلى الموالى من الأعاجم وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام . وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعــوة ومقرها والحزب الذى كونته . ويستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل : كانت العمد الخشبية هى السلاح الوطنى عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد

---

(١) راجع الشهرستانى ص ١١٢ فما بعدها ، أما عند الطبرى فلا يرد اسم الهاشمية على أنه تسمية واضحة لفرقة إلا فى ج ٢ ص ١٥٨٩ و ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . أما فى العادة فيستعمل اسم الهاشمية مشتقاً من هاشم لا من أبى هاشم ، ويقصد منه ما يقصد من قول الهاشميين ، ويجوز أن العباسيين لم يكرهوا هذا المعنى المزدوج لكلمة الهاشمية . والهاشميات فى شعر الكميت تصائد عن أبناء فاطمة .

(٢) راجع كتابنا ... Skizzen ، قسم ٦ ص ١٢٤ ، والكتب اليهودية الأولى فى الملاحم تلعب دوراً فى الحالين .

العجم ، وقد سميت هذه العمد باسم كفركوبات عند خشبية المختار ، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبي مسلم[1] . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالى الذين كانوا فى ضيعته فى قرية الخطرنية من سواد الكوفة ، وبحسب ما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٩٦٠) أن أبا مسلم كان من أهل الخطرنية (راجع المسعودى ج ٢ ص ٥٩) . وإذا شك الإنسان فى صحة هاتين الروايتين فإن ذلك لا يفقدهما شأنهما ، لأن الاختراع هو الذى بعث عليهما ، ونحن يكفينا الباعث . أما إذا كان العباسيون بعد أن كانوا قد ارتفعوا على أكتاف الشيعة تنكروا لهم ونبذوهم (ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) فليس ذلك عجيباً ، لأنهم تضايقوا منهم ، وكان على الشيعة أن ينصرفوا بعد أن أدّوا مُهِمَّتَهم .

يدل هذا كله على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التى أخفقت وثورة أبى مسلم التى نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التى قامت فى ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر ، فإنها ظلت تومض تحت الرماد ، وانتقلت من الكوفة إلى خراسان . وكانت أرض خراسان أكثر ملاءمة ، لأن الموالى كانوا فيها أكثر تماسكاً ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا فى الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلا من أكبر شخصيات التاريخ الإسلامى ، وقد توقع ما يحدث فى المستقبل . وإذا صحت نظرية الرجعة فإن روح العربى الذى ثار فى قرية الخطرنية قد رجعت فى أبى مسلم ، أحد موالى هذه القرية .

٢ — وفى سنة ١٠٠ هـ وجّه[2] محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو بأرض الشراة ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج الذى يسمى أيضاً أبا محمد الصادق ، وحيّان العطار خال إبراهيم بن سلمة ، وكلهم من أهل

---

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) الموجه بحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٨) هو محمد نفسه ، ولكن بحسب (ج ٢ ص ١٤٣٤) الذى وجه فى الحقيقة ميسرة — [قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٨ — المترجم] .

الكوفة ، إلى خراسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته . فلقوا من لقوا ، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم ، فدفعوا الكتب إلى ميسرة ، فبعث بها إلى محمد بن على . واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر نقيباً ، واختار سبعين رجلا غيرهم (من أهل خراسان) ، وأعطاهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها . وهذا ما يحكيه الطبرى (ج ٢ص ١٣٥٨) ، ولكن كون ذلك فى سنة ١٠٠ هـ ، كما يقول الطبرى (ج ٣ ص ٢٤) وكذلك ذكْر أن عدد النقباء كان اثنى عشر وأن عدد التابعين لهم كان سبعين رجلا ، كل ذلك يثير الشك[1] . والروايات المذكورة فى حوادث السنوات التالية تتضافر على إثبات أن أمر الدعوة لم يكن بدون تنظيم ، ومعظم الروايات غير مُسْنَدة لأصحابها ، ولا يذكر المدائنى أسماء الرواة إلا فى ثلاث روايات ، وها أنا ذاكرٌ ما تضمنته :

الطبرى ٢ ص ١٤٣٤ (فى أحداث سنه ١٠٢ هـ) : وجه ميسرة رسله منْ العراق إلى خراسان ، وظهر أمر الدعة بها ، فجاء رجل من بنى تميم إلى سعيد خُذَيْنة ، أمير خراسان من قِبَل يزيد بن عبد الملك ، فقال له : هاهنا قوم قد ظهر منهم كلام قبيح ، فبعث إليهم سعيد ، فأُتِىَ بهم ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا فى أنفسنا وفى تجارتنا شغلاً عن هذا ، فسأل سعيد : من يعرف هؤلاء ؟ فجاء أناس من أهل خراسان جلُّهم من ربيعة

---

(١) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٨ ، أرسل محمد بن على فى سنة ١٠٢ أو ١٠٣ هـ رسوله (فى صيغة المفرد) إلى خراسان . وبعد أن استجاب له سبعون رجلا أخذ منهم اثنى عشر نقيباً ، وتختلف أسماء هؤلاء النقباء فى هذا الموضع من كتاب الطبرى عنها فى الموضع الآخر (ج ٢ ص ١٣٥٨) بعض الاختلاف ، وفى أسماء بعضهم اختلاف أيضاً ، هذا إلى أن ترتيب ذكر الأسماء ليس واحداً ، ويجوز أن يكون ما جاء فى كتب الملاحم اليهودية من ذكر رقم المائة قد لعب دورا . [عند الطبرى ، فى الموضع الذى يشير إليه المؤلف من ثم نجد أن إرسال الرسول كان فى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ — المترجم] .

واليمن ، فقالوا : نحن نعرفهم ، وهم علينا ، إن أتاك منهم شيء تكرهه ، فخلى سعيد سبيلهم .

الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٧ (فى أحداث سنة ١٠٥ هـ) قدم بكير بن ماهان من السند ، وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن ترجماناً له[1] ؛ فلما عُزِل الجنيد بن عبد الرحمن قدم الكوفة ومعه أربع لَبِنات من فضة ولبنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين وأبا يحيى مولى بنى سلمة ، فذكروا له أمر دعوة بنى هاشم ، فقبل ذلك ورضيه وأنفق ما معه عليهم ، ودخل إلى محمد بن على . ومات ميسرة ، فوجه محمد ابن على بُكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة ، فأقامه مقامه .

الطبرى ج ٢ ص ١٤٨٨ (فى أحداث سنة ١٠٧ هـ) وجه بكير بن ماهان أبا عكرمة وأبا محمد الصادق[2] ومحمد بن خنيس وعماراً العبادى ، فى عدة من شيعتهم ، معهم زياد خال الوليد الأزرق ، دعاةً إلى خراسان ، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبد الله ، فوشى بهم إليه ، فأتى بأبى عكرمة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمار ، فقطع أسد أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم ، وصلبهم . فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان ، فأخبره الخبر ، فكتب به إلى محمد بن على ، فأجابه : « الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم ، وقد بقيت منكم قتلى ستقتل » .

الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٢ : نجد هنا نفس الرواية المذكورة فى أحداث سنة ١٠٧ هـ مذكورة فى أحداث سنة ١٠٨هـ ، ولكن مع فرق : هو أن أسدَ ابن عبدالله أخذ عماراً فقطع يديه ورجليه ، ونجا أصحابه وأخبروا بكير بن ماهان

---

(١) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٦ س ١٠ كان بكير كاتباً لبعض عمال السند .

(٢) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٨ س ٤ و ص ٤٦٧ س ٧ ؛ أبو عكرمة هو أبو محمد .

بالخبر ، فكتب به إلى محمد بن على ، فأجاب محمد بن على : الحمد لله الذى صدّق دعوتكم ونجى شيعتكم .

الطبرى ج ٢ ص ١٥٠١ — ١٥٠٣ (فى أحداث سنة ١٠٩ هـ) :
رواية المدائنى : أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد أبو محمد مولى همدان ، فى ولاية أسد بن عبد الله الأولى ، بعثه محمد بن على بن عبد الله ابن العباس وقال له : أدْعُ الناس إلينا ، وانْزِلْ فى اليمن ، والطُف بمُضَر ، ونهاه عن رجل من أبرشهر (نيسابور) يقال له غالب ، لأنه كان مفرطاً فى حب بنى فاطمة . ويقال : أول من جاء أهل خراسان بكتاب محمد بن على ، حربُ بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة ، من أهل بلخ ، قال : فلما قدم زياد أبو محمد دعى إلى بنى العباس وذكر سيرة بنى مروان وظلمهم وجعل يطعم الناس الطعام ، فقدم عليه غالب من أبرشهر ، فكانت بينهم منازعة : غالبٌ يفضّل آل أبى طالب ، وزيادٌ يفضل بنى العباس ، ففارقه غالب ، وأقام زياد بمرو شَتْوَةً ، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيى بن عقيل الخزاعى وإبراهيم بن الخطّاب العدوى ... وكان على خراج مرو الحسن بن شيخ ، فبلغه أمره ، فأخبر به أسد بن عبد الله ، فدعا به وكان معه رجل يكنى أبا موسى ، فلما نظر إليه أسـد قال له : أعرفك ؟ قال : نعم ، قال له أسد : رأيتُك فى حانوت بدمشق ، قال : نعم ، قال أسد لزياد : فما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال رُفِعَ إليك الباطل ، إنما قدمت خراسان فى تجارة ، وقد فرقت مالى على الناس ، فإذا صار إلى خرجتُ ، قال له أسد : اخرج عن بلادى ! فانصرف فعاد إلى أمره ، فعاود الحسنُ أسداً وعظّم عليه أمرَه ، فأرسل إليه ، فلما نظر إليه قال : ألم أنْهك عن المقام بخراسان ؟ قال : ليس عليك أيها الأمير منى بأس ، فأحفظ ذلك أسداً ، وأمر بقتلهم ، فقال له أبو موسى : فاقْضِ ما أنت قاض ! فازداد أسدٌ غضباً ، وقال له : أنزلتنى منزلة فرعون ! فقال له : ما أنزلتك ، ولكن الله أنزلك ! فقُتلوا وكانوا عشرة من أهل الكوفة ، فلم ينج منهم يومئذ إلا غلامان استصغرهما ...

وقال آخرون : عرض عليهم أسدٌ البراءة ، فمن تبرأ منهم مما رُفع عليه خلّى سبيله ؛ فأبى البراءة ثمانيةٌ منهم ، وتبرأ اثنان ؛ فلما كان الغد أقبل أحدهما ، وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة ، فقال : أليس هذا أسيرنا بالأمس ؟ فأتاه ، فقال له : أسألك أن تلحقني بأصحابي ! فأشرفوا به على السوق ، وهو يقول : رضينا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه نبياً ؛ فدعا أسدٌ بسيفٍ بخاراخذاه ، فضرب عنقه بيده ، قبل الأضحى بأربعة أيام . ثم قدم بعدهم رجلٌ من أهل الكوفة يسمى كثيراً ، فنزل على أبي النجم ، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً ، فيحدثهم ويدعوهم ، فكان ذلك سنة أو سنتين ، وكان أميًّا ، فقدم عليه خداش ، وهو في قرية تدعى مرعم ، فغلب كثيراً على أمره ؛ ويقال كان اسمه عمارة[1] ، فسمي خداشاً لأنه خدش الدين[2]

الطبري ج ٢ ص ١٥٦٠ (في أحداث سنة ١١٣ هـ) : سار من دعاة بني العباس جماعة إلى خراسان ، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله ، وقال : من أصيب منهم فدمه هدر !

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١١٧) : أخذ أسد ابن عبد الله جماعة من دعاة بني العباس بخراسان ، فقتل بعضهم ومثّل ببعضهم ، وحبس بعضهم ، وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى ابن كعب ولاهز بن قريظ (من تميم) وخالد بن ابراهيم (من بكر) ، وطلحة بن زريق ، فأُتي بهم ، فقال لهم : ألم يَقُل الله تعالى : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيزٌ ذو انتقام » ؟ فذُكر أنه

---

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ س ٩ اسمه عمار بن يزيد ، أما خداش فهو يسمى في العادة خِيداش ، لا خدّاش ؛ ولو أن اسمه كان خدّاشاً لزم استعمال الأداة مع الاسم فقيل الخداش [هذا ما يقوله المؤلف ، ولكن يسمى خدّاش بهذا الاسم لأنه خدش الدين — نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٥٠٣ س ١٠ — ١١ — المترجم] .

(٢) زدنا في بعض النصوص التي يذكرها المؤلف مستندين إلى الأصل — المترجم] .

سليمان بن كثير قال : أتكلم أم أسكت ؟ قال : بل تكلم ! قال : نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حلقى شرق ... كنتُ كالغصّان بالماء اعتصارى

تدرى ما قصتنا ؟ صيدت والله العقاربُ بيدك أيها الأمير ، إنا أناس من قومك ، وإن هذه المُضَرية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم ، وإنما طلبوا بثأرهم . فتكلم ابن شريك بن الصامت الباهلى ، وقال : إن هؤلاء القوم قد أخذوا مرة بعد مرة ، فقال مالك بن الهيثم : أصلح الله الأمير ! ينبغى لك أن تعتبر كلام هذا بغيره ، فقال : كأنك يا أخا باهلة تطالبنا بثأر قتيبة ، نحن والله كنا أشدَّ الناس عليه . فبعث بهم أسد إلى الحبس ، ثم استشار فى أمرهم ، وانتهى الأمر بأن أطلق أسد من كان منهم من خزاعة وبكر وعاقب من كان منهم من تميم . أما موسى بن كعب فأمر به فأُلجم بلجام حمار ، وأمر بجذب اللجام حتى تحطمت أسنان موسى . . . ثم عاد بلاهز بن قريظ ، فاحتج لاهز على ترك الخزاعيين والبكريين ، فأمر أسد بضربه ثلاثمائة سوط ، ثم قال : اصلبوه ، فتدخل رجل من الأزد كان سبباً تخلية سبيل لاهز والآخرين[1] .

الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٨ (فى أحداث ١١٨ هـ) : وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغيّر اسمه ، وتسمى بخداش ، ودعا إلى محمد بن على ، فسارع إليه الناس ، وقبلوا ما جاءهم به ، وسمعوا إليه وأطاعوا . ثم غيّر ما دعاهم إليه وتكذّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه ، ورخّص لبعضهم فى نساء بعض ، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن على ، فبلغ أسد بن عبد الله خبرُه ، فوضع عليه العيون حتى ظفر به ، فسأله عن حاله ،

(١) لم يكن يستطيع أن يقتل عرب خراسان ، كما فعل مع الموالى .

فأغلظ خِدَاش له القول ، فأمر به أسد فقطعت يده ، وخلع لسانه ، وسُمِلَت عينه .

الطبرى جـ ٢ ص ١٥٨٩ : رواية المدائنى : لما قدم أسد آمل فى سنة ١١٨ هـ أتوه بخداش صاحب الهاشمية ، فأمر به قَرْعَةَ الطبيب ، فقطع لسانه وسمل عينه ، ثم دفعه إلى عامل آمل ، فقتله وصلبه .

الطبرى جـ ٢ ص ١٦٣٩ فما بعدها (فى أحداث سنة ١٢٠ هـ) : وجّهت شيعة بنى العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن على ابن العباس ليعلمه أمرهم وما هم عليه ، وكان السبب فى ذلك أن محمد بن على ابن العباس كان واجداً على من كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم لخِدَاش وقبولهم منه ما روى عن محمد من الكذب ، فترك مكاتبتهم ، فلما أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم ، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يردّ عليه . فقدم سليمان بن كثير على محمد بن على ، وهو متنكر لمن بخراسان من شيعته ، فأخبره عنهم ، فعنّفهم فى اتّباعهم خداشاً وما كان دعا إليه وقال : لعن الله خداشاً ومن كان على دينه . ثم صرف سليمان إلى خراسان وكتب إليهم معه كتاباً ، فقدم عليهم ومعه الكتاب مختوماً ، ففضوا خاتمه فلم يجدوا فيه شيئاً إلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، فغلظ ذلك عليهم ، وعلموا أن ما أبلغهم خداش عن محمد بن على كان عن غير أمر محمد . وبعد ذلك وجّه محمد بن على بكير ابن ماهان إلى شيعته بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من عنده إليهم ، وكتب معه كتاباً إليهم يعلمهم أن خداشاً حمل شيعته على غير منهاجه ، فلما قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفّوا به ، فرجع بكير إلى محمد بن على فبعث معه بعصىٍّ مُضبّبة ، بعضها بالحديد وبعضها بالشبه ، فقدم بها بكير وجمع

النقباء والشيعة ودفع إلى كل رجل منهم عصاً ؛ فعلموا[1] أنهم مخالفون لسيرته ، فرجعوا وتابوا .

الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٦ (فى أحداث سنة ١٢٤ هـ) ، رواية المدائنى : قدم جماعة من شيعة بنى العباس ، من خراسان ، الكوفة ، وهم يريدون مكة ، وكان معهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون فى الكوفة فى دار ، فَتَغُمِّزَ بهم فأخذوا ، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان فى الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلى ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ؛ فدعاهم بكير ، فأجابوه إلى رأيه . وسأل بكير عيسى عن الغلام الذى معه ، فقال إنه مملوك له ، ثم اشتراه بكير بأربعمائة درهم ، ثم خرجوا ، فبعث ابن ماهان بأبى مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن على فدفعه هذا إلى موسى السراج ، فسمع منه وحفظه ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان[2] .

ولنذكر إلى جانب ما تقدم رواية أخرى جاءت عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٦ فما بعدها وص ١٧٦٩ : وقال غير المدائنى : توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب ، وكانوا نقباء شيعة بنى العباس فى خراسان ، وهم يريدون مكة فى سنة ١٢٤ هـ ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلى ، وهو فى الحبس قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل — حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسرى — ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فرأوا فيه العلامات فقالوا : من هذا ؟ قالوا : « غلامٌ معنا من السراجين » . وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان فى هذا

---

(١) لابد أنهم فهموا معنى العصى أحسن مما أفهمه أنا ، ولا يمكن أن تكون العصى مجرد علامة تفويض لابن ماهان .

(٢) فيما يتعلق بالعبارة التى ليست واضحة تماما عند الطبرى ج ٢ ص١٧٢٦ س ١٧ قارن بقية الرواية ج ٢ ص ١٩٤٩ س ١٤

الأمر ، فإذا سمعهما بكى ، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه ، فأجاب وقبل . وقدم القوم مكة[1] ، فلقوا ، فى قول بعض أهل السير ، محمد ابن على ، فأخبروه بقصة أبى مسلم وما رأوا منه ، فسألهم : أحرٌّ هو أم عبدٌ ؟ قالوا : أما عيسى فيزعم أنه عبد ، وأما هو فيزعم أنه حر ، قال : فاشتروه وأعتقوه . وأعطوا محمد بن على مائتى ألف درهم وكسى بثلاثين ألف درهم ، وقال : ما أظنكم تلقونى بعد عامى هذا ، فإن حدث بى حدثٌ فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه) ، فإنى أثق به ، وأوصيكم به خيراً ، فقد أوصيته بكم ، فصدروا من عنده ، وتوفى محمد بن على فى مستهل ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة . وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه على سبع سنين .

الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٩ (فى أحداث سنة ١٢٦ هـ) : وجه إبراهيم ابن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام محمد بن على ودعاهم الى إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه . ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم ابن محمد .

الطبرى ج ٢ ص ١٩١٦ فما بعدها (فى أحداث سنة ١٢٧ هـ) : كتب بكير ابن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان بن الخلال مولى السبيع ، وهو رضًى للأمر ، وكتب إبراهيم إلى أبى سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه ، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه . ومضى أبو سلمة إلى خراسان فصدقوه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة

---

(١) فى آخر سنة ١٢٤ هـ ، وإذا كان الطبرى يذكر ذلك فى أخبار سنة ١٢٥ هـ فليس لذلك كبير شأن ، لأن الحج يقع فى نهاية العام وأول العام الذى يليه .

وخمس أموالهم ، وكان يلقب : « وزير آل محمد » (الطبرى جـ ٣ ص ٢٠ و ٦٠) .

فى كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها ، ففى الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه ، وهم ميسرة وابن ماهان وأبو سلمة ، وكان بالكوفة أيضاً عدتهم وأعوانهم ، وكلهم موال ومن أمة الأعاجم ، ومهنتهم التجارة والصناعة . ولا شك أنه قد كان هناك عرب فى شيعة بنى العباس ، لكنهم لم تكن لهم الرياسة ، وكانت الدعوة تنشر فى خراسان ، أعنى فى مرو آتية من الكوفة . وبعد سنة ١٠٠ هـ بزمان طويل كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة ، وكانوا تجاراً غرباء ، وكانت مبادئ الدعوة غير ظاهرة ، وكاد يقضى عليها فى مهدها ، وكان أول من نجح فى الدعوة خداش ، وأول ما نجد ذكره فى سنة ١٠٩ هـ . وينبغى أن يشك الإنسان فى أنه فى ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلا ، ولكن من البعيد عن الحقيقة أيضاً أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان فى سنة ١١٨ هـ ، وهى السنة التى قتل فيها . وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل ، وقبلوا كلامه واتبعوه ، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقى لشيعة بنى العباس فى مرو . ويظهر أيضاً أنه هو الذى نظمهم ، فلا عجب إذن أن نسمع فى سنة ١١٧ هـ ، لأول مرة ، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان ، وهم الذين كان محمد بن على بن العباس نفسه قد اختارهم فى سنة ١٠٠ هـ ، كما نسمع أن هؤلاء الدعاة النقباء صاروا أكثر تعلقاً بخداش منهم بمحمد بن على نفسه . وعلى حين كان سواد شيعة بنى العباس فى مرو من الموالى كان الدعاة الأولون عرباً ، ويذكر الطبرى (جـ ٢ ص١٥٨٦) ستة منهم ، وكان أكبرهم ، وهو الذى صار رئيسهم بعد موت خداش ، سليمان بن كثير . وكان سليمان من خزاعة ، وكان لخزاعة قرى فى واحة مرو ، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأكارين الأعاجم طائفة كبيرة جداً تؤيد دعوة شيعة العباسيين ، وكان يربط بين خزاعة وبين آل بيت

النبي عليه السلام حلفٌ قديم ، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزد ، وكان الأزد منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريباً فى صفوف الحزب المعارض لحكومة بنى أمية ، فكانوا أقرب للتأثر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر . على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد فى سنة ١١٧ هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنان من تميم . وعلى هذا لا يصح أن يعلق الإنسان كبير شأن على الفوارق بين القبائل . وكان هؤلاء الشيعة ، ومن بينهم العرب أيضاً ، يعارضون روح القومية العربية ، وكانوا يرون أن الإسلام ، لا العروبة ، هو الذى يجعل للإنسان حقوق المواطن فى الدولة التيوقراطية ، ولم يكن الموالى أيضاً يحرمون من أن يكون لهم مكان الزعامة فى الحزب ، ونجد من بين الدعاة الاثنى عشر الذين يذكرهم الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، أربعة من الموالى إلى جانب ثمانية من العرب .

ولكن محمد بن على لم يتنكر لخداش إلا بعد موت خداش ، وهو لم يتنكر له قبل ذلك ، فقيل عنه إنه الخارج المضلّ الذى بذر بذور الفساد فى الدعوة وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام ، كأنما كان خداش قد وجد حزب الشيعة أمامه ، وكأنما كان قد وجده منتظماً قبل أن يدخل هو فيه . وقيل أيضاً إن الخميرة أو الطعم الذى رمى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الخرّميّة ، ولا شك أن الحزب الذى نشر مبادئه خداش وتزعّمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الخرّمية فلم تكن حزباً ، بل كانت نزعة إباحية عامة . وكان الخرمية ، كما يزعمون ، لا يرضون عما فى الإسلام من نزعة يهودية ، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الحزينة فى ذلك ، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة وللمرح مكانهما فى الدين . وهم فى ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التى كانت فى بلاد العجم من قبل ، ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالى أحسن ملاءمة . ويروى أن الخرّمية والراوندية قد

جددوا الدعوة إلى الشيوعية في النساء ، وهي الشيوعية التي كان مزدك قد دعى إليها من قبل . وعلى هذا فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعي ، بل أن يكون قد أيّده واستفاد منه .
غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حجر العثرة الذي من أجله نفر العباسيون من خداش ، لأن العباسيين في ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم ، وهم لم ينبذوهم إلا فيما بعد ، ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم[1] ، أما في أول أمر دعوتهم فإنهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بني أمية ، أيّاً كان لون مذهب هؤلاء الشيعة .
وكانت الغاية الأولى للعباسيين هي الناحية السلبية ، أعني إسقاط حكومة الأمويين ، فأما الناحية الإيجابية ، وهي التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها في المحل الثاني ، وهم لم يكونوا في الجملة يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما كانوا يزعمون أنهم الأداة التي أرادها الله لقلب حكومة بني أمية : فهم لم يُقدّموا أشخاصهم بل قدموا القضية التي أرادوا الدفاع عنها ، وهي الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم ، بل كانوا يأخذونها لمرضيٍّ مجهول من آل بيت النبي عليه السلام ، ستتفق عليه الكلمة فيما بعد . بل إنه في بعض الأحيان لم تنفتح أعين أنصارهم الذين اتخذوهم وسيلة لذلك ، حتى رأوا الغرض الحقيقي ، إلا في وقت متأخر عن بدء الدعوة . وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنحية بني فاطمة ، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بني فاطمة . وهم قد ظهروا في خراسان

(١) [إن كلام المؤلف هنا مبالغ فيه دون أي شك ، ولقد كان غرض بني العباس أن يصلوا إلى الخلافة ، ولكن أسلوب بني أمية في الحكم وسيرة بعضهم هو الذي مكنهم بحق من النجاح في دعوتهم ، أما أنهم استعانوا بالزنادقة كما يقول المؤلف ، فليس عليه دليل تاريخي ولا حقيقي — المترجم] .

وفى غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة . ولذلك لم يكونوا يستطيعون أن يتنكروا للحزب الآخر من الشيعة(1) ولا أن ينبذوه ، لأنهم كانوا لا بد لهم أن يتخذوه عماداً لهم إزاء بنى فاطمة ؛ فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون ، وأن تكون سيرتهم فى الحياة كما يحبون ، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلّها فيما بعد . وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم ، فلم يعبأوا بالإباحية التى كانت موجودة عند الهاشمية . أما الذى كان يقلقهم فهو التنظيم الذى صار للشيعة بخراسان وصار مستقلاً عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم اشتداداً كبيراً برئاسة خداش هناك . وقد تكوّنت فى مرو رئاسة محلية من أهل خراسان ، وهى لم تشأ — وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام — أن تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأتمر بأمرها ، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لمحمد ابن على نفسه . ولكن نشأ أيضاً خطر بالنسبة لمحمد بن على ، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ذلك أنه إنما كان يسيطر عليهم من طريق شيعته الكوفة ، ولذلك استعمل مكانته وسلطته الشخصية التى كانت له على دعاته فى خراسان فى أن يحملهم على النزول عن استقلالهم والخضوع « للوزير » فى الكوفة . وقد أفلح بمشقة فى آخر الأمر فى أن يضم إليه رئيسهم سليمان بن كثير . وعلى حين أن أهل خراسان ردّوا « وزير الكوفة » سنة ١٢٠ هـ ، لما جاء إليهم فى مرو ، فإننا نجد أنهم رحبوا به فى سنة ١٢٦ و١٢٧ هـ ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قِبَلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ، وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه ، وكانوا لا يزورونه فى الحميمة بل كانوا يلقونه فى مكة : وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر الثائرة دون أن تلتفت إليهم الأنظار ، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأتباع

---

(١) [يقصد المؤلف فى الغالب شيعة خداش — المترجم] .

وبين الإمام تأخذ طابعاً أكثر حيوية ، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعاً أكثر واقعية .

٣ — وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن علي وخليفته خطوةً حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً ، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان[١]. وأصل أبي مسلم غامض والروايات فيه مختلفة ؛ أما الذي لا شك فيه فهو أنه لم يكن عربياً بل كان أعجمياً ، وكان مملوكاً أو مولى في الكوفة . وقد استرعى ، وهو ما يزال في سن الصغر ، انتباه شيعة بني العباس هناك ، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم بن محمد ، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلّمه لنفسه وجعله من خاصته . وفي سنة ١٢٨ هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان ، فأقام هناك وجُعل رئيساً للدعوة ، وكان قد أصبح معروفاً في خراسان بعد زياراته المتكررة إليها . ثم آن الأوان ، فكانت القبائل العربية الثائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيّار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة الأموية مشغولة بثورات من كل نوع وفي كل مكان[٢] .

وقد بدا أن مولى يتخذه العباسيون أليق وأجدر بالثقة في خراسان من عربي حر كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هناك . ولم يكن المقصود من توجيه أبي مسلم هو أن ينحي سليمان بن كثير عن مكانه ، لأن الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه بألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتفي عندما يشكل عليه أمر بالرجوع إليه . ولكن صار لسليمان ، في شخص أبي مسلم ، منافسٌ يهدد مركزه . ومن السهل أن نفهم أنّ سليمان ، جرياً على ما فعله غيره من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٤٧ — المترجم] .

(٢) يحكي تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليقة) : « ولما كان بنو أمية عند مقتل الوليد قد وقعوا في حروب بينهم وكانوا مشغولين بذلك إلى أقصى حد ، فقد اغتنم ذلك بنو هاشم وأبناء علي ، وهم أيضاً قرابة النبي عليه السلام ، ولكنهم كانوا يعيشون مختفين وهاربين في جزيرة العرب الصغرى ، فاتحدوا تحت رئاسة إبراهيم ، وبعثوا أبا مسلم مولاهم إلى خراسان ، إلى رجال لهم نفوذ هناك لكي يدعوهم إلى الاشتراك في محاربة مروان » .

قبل ، لم يستقبل أبا مسلم فاتحاً ذراعيه ، وكان من أثر ذلك أن صعب على أبي مسلم المقام فى مرو . وهو لم يفده زواجه من ابنة أبى النجم — وكان هذا من أسرة أحد الدعاة — شيئاً ، وظل أبو مسلم يُعْتَبَر دخيلا ، ولم يستطع أن يقف إزاء سليمان ، فرأى أن يخلى الميدان .

فخرج أبو مسلم من مرو راجعاً إلى الكوفة[1] ، ولكنه لما بلغ مدينة قومس وأوشك أن يخرج من أرض خراسان ، أمره إبراهيم بن محمد بالعودة وأرسل له راية النصر . وذلك أن تغيراً حدث فى مرو ، وأبدت شيعة بنى العباس استعدادها لطاعة أبى مسلم نائباً مفوضاً من قِبَل آل البيت . فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير ، ويظهر أن نشاطه فى ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها فى جمادى الآخرة سنة ١٢٩ ﻫ إلى مكة ، ومعه بعض أصحابه ، ليلقى الإمام هناك ويحمل إليه ما اجتمع من أموال[2] . ولكنه لما بلغ الحدود العربية لخراسان وجه قحطبة بن شبيب الطائى إلى مكة[3] ، وعاد هو إلى مرو . فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر ، أما ما كان يريده فى الحقيقة فهو أن يزور الشيعة المتفرقين ، على اختلاف ألوانهم ، لكى يدعوهم إلى الدعوة العباسية ، ويهيئهم إلى الثورة القريبة . وهو لكى يتصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهاباً وإياباً ، وكان يقيم فى كثير من المواضع الهامة للشيعة بعض الوقت ، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ فى الظهور جهرة . وإنى فيما يتعلق بالتمييز بين رحلتين قام بهما أبو مسلم أتابع تلك الرواية التى ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٩٦٠ فما بعدها) دون أن ينسبها إلى أحد : ففى الرحلة الأولى خرج أبو مسلم من مرو ، لأنه

---

(١) [يجد القارئ تفصيلا فى هذا عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها — المترجم] .

(٢) التاريخ الذى يذكره الطبرى (ج ٢ ص ١٩٦٢) هو بالنسبة للقيام بالحج تاريخ مبكر بعض الشىء .

(٣) [وكان هذا أيضاً بأمر من الإمام نفسه — الطبرى ج ٢ ص ١٩٥١ — المترجم] .

لم يستطع المقام هناك بسبب رد الشيعة له لحداثة سنه خوفهم ألا يقوى على الدعوة وفى الرحلة الثانية جاب غرب خراسان بقصد إثارة الناس ، لكنه كان يظهر الخروج للحج . أما المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها) فهو لا يعرف لأبى مسلم سوى رحلة واحدة : هى الرحلة الثانية ، والمدائنى لا يذكر شيئاً عما كان بين أبى مسلم وبين سليمان بن كثير من تباعد يسهل أن يكون سبباً فى النزاع . لكن كل القرائن والأسباب ترجح وجود هذا النزاع ، كما أبرز ذلك فان فلوتن بحق[1] . ولكن يستطيع الإنسان رغم هذا أن يكتفى برحلة واحدة ، وأن يفترض أن أبا مسلم ، بعد أن لم يستطع المقام فى مرو ، حاول بمجهوده الخاص أن يوجد لنفسه مركزاً فى غرب خراسان . ولكن خروجه للحج مع قوم من أهل مرو لا يتفق مع هذا الغرض ، وخصوصاً أن صعوبات ترجع إلى التواريخ تقوم دون ذلك ، لأن أيام الحج الذى كان هو الغاية من السفر كانت ستحل فى آخر سنة ١٢٩ هـ ، وأن قحطبة لم يرجع من مكة إلا فى سنة ١٣٠ هـ . ولكن فى هذا الوقت كانت الثورة قد نظمت فى مرو تحت رئاسة أبى مسلم تنظيما تاماً ، وهى قد بدأت على الفور بعد عودته من رحلته التى قام بها لدعوة الناس ، ولإعدادهم للثورة . فلا بد أن يكون خلاف أبى مسلم مع سليمان بن كثير واضطراره إلى الخروج من مرو على أثر هذا الخلاف قد حدث بعد ذلك ، أى قبل وصوله إلى مرو لأول مرة سنة ١٢٨ هـ ، وربما كان بلوغ أبى مسلم فى تينكما الرحلتين إلى الحدود الغربية لخراسان ، ثم عودته من هناك ، قد دعا إلى اعتبار الرحلتين رحلة واحدة .

وفيما يتعلق بالثورة فى قرى خزاعة عند مرو فى النصف الثانى من سنة ١٢٩هـ (صيف ٧٤٧ م) يذكر الطبرى رواية المدائنى (ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها ،

---

(١) قارن نص المقريزى الذى ذكره فان فلوتن عن أهل الكافية وذلك فى كتابه Recherches... ص ٨٠ .

وص ١٩٦٥ فا بعدها ، وص ١٩٨٩ فا بعدها) ورواية أبي الخطاب (ص ١٩٥٣ فا بعدها وص ١٩٦٧ فا بعدها و ١٩٨٤ فا بعدها) وأيضاً رواية لقوم لا يذكر أسماءهم (ص ١٩٦٠ فا بعدها و١٩٧٠ فا بعدها و ١٩٩٢ فا بعدها) . وهذه الروايات متفقة فى بعض الخطوط الكبرى ، وأيضاً فى بعض التفاصيل التى تسترعى النظر ، ولكنها تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، وهى أيضاً ليست متسقة فيما بينها ، وكلها بعيدة كل البعد عن أن تكون كافية .

وأقرب الروايات للصواب وأحقها بالثقة رواية أبى الخطاب ، وهى تبدو عند النظرة الأولى أكثر الروايات تماسكاً ؛ فهو يقول إن أبا مسلم عاد إلى مرو منصرفاً من قومس فى يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ (الثلاثاء ٢٥ إبريل سنة ٧٤٧ م) فنزل أول الأمر قرية تدعى فَنين ، وهى قرية أبى داود بن إبراهيم البكرى[1] . وفى الثانى من رمضان (١٧ مايو) خرج أبو مسلم من هناك إلى قرية سيفَذَنج ، وهى قرية سليمان بن كثير الخزاعى ، وجُعل يوم ٢٥ رمضان هو يوم الظهور بالثورة ، وأخبر بذلك الأتباعُ فى مرو الروذ وطخارستان وخوارزم . وفى هذا اليوم فى الحقيقة عُقد اللواءان اللذان كان الإمام قد بعث بهما ، ورُفعا فى سيفذنج وأوقدت النيران للشيعة من سكان القرى المجاورة ، وكانت هى العلامة بينهم ، فجاءوا فى اليوم التالى واجتمعوا أولاً فى قرية سُقادِم فى ٢٧ رمضان ، وبلغ عدد العسكر ألفين ومائتين من الرجالة وستة وخمسين من الفرسان . وفى يوم عيد الفطر ، وهو يوم الجمعة أول شوال سنة ١٢٩ هـ ، أقيمت فى سيفذنج أول صلاة على مذهب العباسيين ، وصلى بالناس سليمان بن كثير . وبعد الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة معه إلى طعام كان قد أعده لهم أبو مسلم ، فطعموا مستبشرين ، وبعد ظهور أبى مسلم بالدعوة بثمانية عشر يوماً[2] أقبلت إليه خيل عظيمة بعثها نصر

---

(١) قارن الطبرى جـ ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ — ١٥ .

(٢) ما جاء عند الطبرى (جـ ٢ ص ١٩٥٧ س ١٧) من ذكر أن نصراً وجه خيله لمحاربة أبى مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره خطأ .

ابن سيار أمير خراسان بقيادة مولى له يسمى زيداً ، لقتال أبي مسلم ، فوجه أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، فهزم خيل نصر عند قرية آلين ، وجُرح زيد وأسر ، وأمر أبو مسلم أحد رجاله بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التي أصيب بها وأن يحسن تعهُّده ، حتى إذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيّره بين الإقامة معه والدخول في الدعوة أو الرجوع إلى مولاه نصر بن سيار ، على أن يُعطيي عهد الله ألاّ يحارب أبا مسلم وقومه ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير ما رأى ، فاختار الرجوع إلى مولاه وخُلّي له الطريق ، وإنما كان أبو مسلم يقصد من حسن معاملة قائد نصر أن يكون شاهداً على أبي مسلم وشيعته في إقامتهم الصلاة وتلاوتهم القرآن ... الخ . وأن يكون ذلك سبباً في رد أهل الورع والصلاح عند محاربة الثائرين . وقد شهد مولى نصر أمامه بذلك ، وصرّح بأنه لولا ما يربطه بنصر من رابطة الولاء لما رجع إليه ولأقام عند أبي مسلم[1] .

وفي أول ذي القعدة استولى خازم بن خزيمة التميمي على مدينة مرو الروذ ، وقتل عامل نصر بن سيّار الذي كان عليها ، ومكث أبو مسلم في الجملة اثنين وأربعين يوماً في سيفذنج ، وفي يوم الأربعاء ٩ من ذي القعدة (السبت ٢٢ يوليه) نقل عسكره إلى الماخوان التي صارت بعد ذلك مقراً لقوم من كبار الشيعة ، وهنا أعد أبو مسلم نفسه لمقام طويل وعيّن العمال وحصّن المكان . ولو أنه كان رجلاً من طرز آخر لاتخذ عند ذلك الحين مظهر الأمراء ، وكان جيشه يبلغ سبعة آلاف رجل ، فأمر بأن يُقيَّد في السجل كلُّ جندي بحسب اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذي يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة دراهم في الشهر ، ووجّه أبو مسلم أهل سقادم — وكانوا تسعمائة رجل — إلى جيرنج ، لكي يخندقوا هناك ويقطعوا مادة نصر بن سيار من مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان . أما العبيد فقد جعلهم في خندق خاص بهم ، ثم وجّههم

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٥٣ — ١٩٥٩ — المترجم] .

بعد ذلك إلى موسى بن كعب التيمى فى أبيورد ، وبعد أربعة أشهر انتقل أبو مسلم من الماخوان ، لأنها كانت سافلة الماء فخاف أن يقطع نصرُ بن سيار عليه الماء ، وكان يخشى هجوماً من جانب عرب مرو الذين عقدوا صلحاً فيما بينهم لمحاربته ، فتحول إلى آلين ، واحتفل فيها بعيد الأضحى (٢٢ أغسطس سنة ٧٤٧ م) ؛ وقد صح ما توقعه ، فجاءت جند الحكومة بالفعل لمحاربته ، وعاثوا فى القرى وأفسدوا كل أنواع الفساد ، حتى وجه أبو مسلم إليهم خيلاً هزمتهم . وقد وقع فى يده بعض الأسرى مجروحين ، فأمر بأن يعالجوا ، حتى اندملت جروحهم كساهم وخلّى سبيلهم[1] . ولكن اتحاد أعداء أبى مسلم لم يدم طويلاً ؛ لأن سليمان بن كثير أقنع على بن جُدَيْع الكرمانى بأن ينقض الصلح الذى كان بين القبائل[2] . فقد بعث نصر بن سيار إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر ، وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبى مسلم بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفدُ الفريقين لكى يختار أحدهما ، وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان وربيعة ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان فى بستان أدخلهم فيه ، وقعد هو فى بيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه . وكان مع أبى مسلم سبعون رجلاً من الشيعة ، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه ، فقام رجال منهم فقالوا إن مضر قَتَلَةُ آل النبى عليه السلام وأعوانُ بنى أمية وعمال مروان الجعدى (مروان بن محمد) ، وإن دماء المسلمين فى أعناقهم وأموالهم فى أيديهم ، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعو له ويسميه أمير المؤمنين ، وانتهوا بأن اختاروا على بن الكرمانى وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار

---

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٥ — ١٩٧٠ — المترجم] .

(٢) [اتحدت قبائل العرب على محاربة أبى مسلم وإلى الوقوف إلى جانب نصر بن سيار ولكن سليمان بن كثير استطاع بتدبير أبى مسلم أن يقنع على بن الكرمانى بالانتقاض على نصر منهما نصراً بقتل أبيه جديع الكرمانى وبصلبه ، فأدركت الحفيظة على بن الكرمانى فانشق على الحلف وانتقض صلح العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٤ — ١٩٨٥ — المترجم] .

وأصحابه من مضر : فنهض وفدُ مضر ، وعليهم الذلة والكآبة ، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين . وبعد أن أقام أبو مسلم فى آلين تسعة وعشرين يوماً رجع إلى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء ، لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب . وكان رجوع أبى مسلم إلى الماخوان فى يوم الخميس للنصف من شهر صفر سنة ١٣٠ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ٧٤٧ م) . فأقام أبو مسلم فى الماخوان ثلاثة أشهر ، ثم دخل مرو فى يوم الخميس ٩ جمادى الأولى[1] . وكانت مدينة مرو نفسها فى يد نصر بن سيار ، فعند ذلك هاجم على بن جديع مرواً من جهة ، وهاجمها أحد قواد أبى مسلم من جهة أخرى ، ثم دخلها أبو مسلم والقتال دائر . ووادع نصرٌ أبا مسلم ، ولكنه هرب فى اليوم التالى ومعه أصحابه ، وقتل أبو مسلم أربعة وعشرين من العرب من بينهم سلم بن أحوز التميمى[2] .

وليس فى هذه الرواية دقة ولا كبير تماسك ، وذلك يتجلى مثلاً فى التكرار المتعلق برد هجوم قام به أعداء أبى مسلم على آلين ، وبتعهد أبى مسلم للأسرى الجرحى وحسن معاملته لهم . غير أنه يتجلى خاصة فى بعض المعلومات المتعلقة بتحديد التواريخ ، وهذه المعلومات هى التى تتضمن أكبر التناقض ، والفترات الطويلة المذكورة خاصة لا تتفق مع تواريخها المحددة لها فى تقويم التواريخ : يأتى أبو مسلم إلى سيقذنج فى ٢ رمضان سنة ١٢٩ هـ (١٧ مايو سنة ٧٤٧ م) ويمكث فيها اثنين وأربعين يوماً ، أى حتى

---

(١) عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٦ س ١٨ وص ١٩٨٧ س ١٤ ، كان ذلك فى جمادى الأولى ، ولكن ولكن بحسب ص ١٩٨٤ س ١٤ كان ذلك فى جمادى الآخرة . وإذا كان أبو مسلم قد بقى فى الماخوان ثلاثة أشهر تبدأ فى منتصف صفر فإن الأصح هو جمادى الأولى ، أما إذا كان دخوله مرواً يوم الخميس فإن جمادى الآخرة يكون هو الأصح ، وذلك أن التاسع من جمادى الأولى كان يوافق يوم اثنين ، والتاسع من جمادى الآخرة يوافق يوم أربعاء ، وفرق يوم واحد ليس له شأن ، لأن أول الشهر كثيراً ما يختلف يوما .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٤ – ١٩٩٥ – المترجم] .

منتصف شوال (آخر يونيه) ، ولكنه لا يخرج من سيقذنج إلى الماخوان إلا فى ٩ من ذى القعدة (٢٢ يوليه) ، ومن جهة أخرى يُذكر أن الفترة الأولى التى أقامها أبو مسلم فى الماخوان كانت أربعة أشهر ، ولكن نجده فى آلين فى أول ذى الحجة (منتصف أغسطس) أى بعد شهر أو أقل ، ثم هو يقيم فى آلين ٢٩ يوماً ، أى حتى أول المحرم سنة ١٣٠ هـ (منتصف سبتمبر) ، لكنه لا يرجع إلى الماخوان إلا فى منتصف صفر (آخر أكتوبر) . أما الفترة الثانية التى يقيمها أبو مسلم فى الماخوان فهى ثلاثة أشهر ، أى حتى منتصف جمادى الأولى ، ويتفق مع هذا على وجه التقريب تاريخ دخوله مرو ، إذا قبلنا القول بأن ذلك كان فى التاسع من جمادى الأولى لا فى التاسع من جمادى الثانية .

وعلى هذا لا بد من تصحيح رواية أبى الخطاب بالرجوع إلى رواية المدائنى . أما الرواية التى يذكرها الطبرى ولا ينسبها إلى أحد بعينه فهى تقف فى موقف وسط بين الروايتين . فأما المدائنى فهو يقول إن أبا مسلم لم يذهب إلى الماخوان مرتين بل مرة واحدة ، أما الأربعة أشهر التى يذكرها أبو الخطاب للفترة الأولى التى أقامها أبو مسلم فهى فى الحقيقة كل الفترة التى أقامها أبو مسلم هناك ، وعلى هذا فإن الثمانية أشهر (أربعة أشهر + ٢٩ يوماً + ثلاثة أشهر) ، التى يحسبها أبو الخطاب منذ أول مجىء أبى مسلم إلى الماخوان حتى خروجه منها نهائيا تنخفض إلى النصف . على أن مقام أبى مسلم فى الماخوان قد قطعته ، بحسب رواية المدائنى أيضاً ، رحلة قام بها أبو مسلم نفسه إلى مرو . ويقول المدائنى إنه بعد أن رجع من هذه الرحلة أقام فى الماخوان ثلاثة أشهر ، وهذا ما يتفق مع التسعين يوماً التى يذكرها أبو الخطاب . وكانت عودة أبى مسلم ، بحسب رواية المدائنى وبحسب بعض رواية أبى الخطاب ، فى أول سنة ١٣٠ هـ . فإذا حسبنا ثلاثة أشهر أو تسعين يوماً مبتدئين بأول سنة ١٣٠هـ، فإن أبامسلم يكون قد خرج بعسكره من الماخوان

فى أول ربيع الثانى وتوجه إلى مرو . والواقع أن المدائنى يذكر أن أبا مسلم دخل مرو فى ٩ ربيع الثانى ، ويوافقه على ذلك صاحب الرواية التى لم يذكر اسمه الطبرى[1] . ويؤيد هذا التاريخ ، إلى جانب ما تقدم ، ما يُذكر من أن النهار كان إذ ذاك قصيراً (الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٠ سطر ٢٠) ، وذلك أن يوم ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠ ه كان يوافق يوم ١٧ ديسمبر سنة ٧٤٧ م . أما اليوم الذى يذكره أبو الخطاب بدلاً من ذلك ، وهو يوم ٩ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة (١٥ يناير أو ١٤ فبراير سنة ٧٤٨ م) فكان بعد الانقلاب الشتوى للشمس بمدة طويلة إلى حد ما أو إلى حد كبير . وإذا رجعنا إلى الوراء أو أكثر من ذلك وصلنا إلى أول ذى الحجة سنة ١٢٩ ه ليكون أول فترة مقام أبى مسلم فى الماخوان ، وهى الفترة التى تبلغ فى جملتها أربعة أشهر . وإذا كان أبو مسلم قد عسكر فى آلين فإن ذلك لم يقطع فترة الإقامة فى الماخوان ، بل كان قبلها . وبحسب رواية المدائنى كان أبو مسلم هنالك[2] فى ذى القعدة سنة ١٢٩ ه ، والروايات متفقة على أنه كان فى سيقذنج وفنين فى شوال ورمضان . فالإثنان والأربعون يوماً التى يقول أبو الخطاب إن أبا مسلم أقامها فى سيقذنج ، يقول المدائنى إن أبا مسلم أقامها فى آلين ، ولكن لا شك أن أبا الخطاب هو المصيب . ويستطيع الإنسان أن يأخذ بما يقوله أبو الخطاب أيضاً من أن أبا مسلم ذهب إلى فنين قبل أن يذهب إلى سيقذنج[3] .

وإذا كان هذا هو الوصف الإجمالى للحوادث استطاع الإنسان أن يحصل

---

(١) ويذكر أيضاً أن دخول مرو كان فى السابع من ربيع الثانى ، وكثيراً ما يحدث الخلط بين السابع والتاسع فى الكتابة العربية .

(٢) بالين (الطبرى ج ٢ ص ١٩٥٢ س ١٠) هى آلين أو آلّين ، ولعلها نشأت من بـ + آلين ، أى فى آلين .

(٣) قارن كتاب Opkomst der Abbasiden : van Vloten ، ص ٧٩ .

على الصور التالية من مجراها . إن قرى خزاعة[1] التى كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة فى أرض خرقان ، وكان المهد الأصلى للثورة فى قرية سيفذنج التى كان يقيم فيها سليمان بن كثير رئيس دعاة الهاشمية ، وفى قرية سيفذنج عقد اللواءان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد ، وفيها أيضاً أوقدت النيران لتنبيه الشيعة ، وفى سيفذنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا فى القرى المجاورة ، من قرب ومن بعد ، وفى سيفذنج أيضاً أقيمت فى يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أول صلاة جامعة لشيعة بنى العباس وعلى مذهبهم ، وأمّ الناس فى ذلك اليوم سليمان بن كثير . أما القول بأنه إنما فعل ذلك بأمر من أبى مسلم فهذا ما لا يصح تصديقه ، بل كان لا يمكن فى سيفذنج ، فى ذلك الحين ، تنحية سليمان عن المكانة الأولى ، فكان له مظهر الرئيس على الأقل ، وإن كانت قيادة الثورة قد خرجت من يده : وكان أبو مسلم يشعر بأن سليمان يضيق بسلطانه ، ولذلك خرج من سيفذنج بعد اثنين وأربعين يوماً ، إلى آلين أولاً ، ومنها توجه ، قرب آخر سنة ١٢٩ هـ ، إلى الماخوان . وفى الماخوان ظهر بمظهر الرئيس والآمر ، وزاد جيشه وزادت بذلك قوته ومكانته . وعند ذلك أثار لأول مرة القلق فى نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضاً فى مرو . وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذى أحرزته حركة الشيعة فى نفس الوقت مواضع أخرى فى ابيورد ومرو الروذ ، وخصوصاً فى هراة (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٦٦) . وقد دعت بكر أولاً شيبان الحرورى ، وكانت بكر تحت إمرته ، إلى مصالحة نصر ، ويظهر أن على بن جديع الكرمانى حذا حذو شيبان . وكأنما أدرك العرب أخيراً ذلك الخطر الذى كان يهددهم ، فأرادوا أن يواجهوه متحدين ، ولكن الريبة كانت تملأ نفوسهم بعضهم من بعض ، فلم يجدّوا فى التضافر على حرب أبى مسلم ، وأكثر ما قاموا

(١) هذه هى التسمية المشهورة ، لأن قريتى آلين والماخوان لم تكونا خزاعيتين خاصة .

به أنهم أغاروا مرة على جهة من البـــلاد التى كانت خاضعة له ، فرد أبو مسلم هذه الغارة من غير مشقة[1] ، وبعد فترة قصيرة أفلح أبو مسلم فى إفساد الحلف بين أولئك الإخوان المتعادين ، فتوجّه بنفسه من الماخوان إلى مرو ، واستطاع أن يؤثر على علىّ بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وقحطان ، حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضر.

وعاد أبو مسلم فى أول سنة ١٣٠ هـ إلى الماخوان ، وكان إذ ذاك آمناً كل الأمن من خطر العرب ، فاستطاع مطمئناً أن يترك بعضهم لبعض ، حتى يحين الوقت الذى يجنى هو فيه ثمرة نزاعهم وقتلهم بعضهم بعضاً . وإذا كان قد أفلح فى ضم ربيعة وقحطان إلى جانبه فإن ذلك لم يفسد علاقته بمضر بأى وجه من الوجوه . فيروى أنهم على خلاف ذلك كانوا قد حاولوا أن يبعدوه عن ربيعة وقحطان وأن يضموه إلى جانبهم . وإذن فقد كان الجميع يسعون إلى كسب مودته ورضاه . ومهما كان الأمر فإنهم قد أصبحوا لا يتجاسرون على أن يعاملوا أبا مسلم معاملة العدو ، وهكذا أمكن أن يحدث أن أبا مسلم دخل مرواً قاضياً وحكماً ، وأنه بتدخله أنهى النزاع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها . وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر ، وهذا ما بدا لأول وهلة على الأقل . أما المنظر الذى يصفه أبو الخطاب لهذه الواقعة الحقيقية وبيان كيف ظهر وفد ربيعة وقحطان ووفد مضر أمام أبى مسلم وهو معسكر فى الماخوان ، وكيف وضعوا أمامه نزاعهم ليحكم فيه ، وكيف قضى بينهم ومعه السبعون رجلا من الشيعة ، فهو تصوير

---

(١) وقد أشرت من قبل إلى أن أبا الخطاب يذكر روايتين فى الواقعة نفسها (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٥٨ فما بعدها و ١٩٧٠) فى آلين ، وكل منهما تنتهى بأن أبا مسلم أحسن معاملة الأسرى الجرحى لكى يكونوا دعاة له ، وكلا الروايتين فيها تكلف ومبالغة . أما بحسب ما جاء فى الطبرى (ص ١٩٧٠) فقد كان القتال يتلخص فى أن بعض جند نصر بن سيار آذوا الفلاحين وعسفوهم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام وكلفوا الناس الطعام والعلف .

لا يخلو من تحريف ، وأيضاً فإن أبا مسلم لم يفاوض جديعاً الكرمانى ، بل هو لم يفاوض إلا ابنه علياً . وذلك فى آخر سنة ١٢٩ هـ أو فى أول سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبو مسلم هو البادئ وكان الساعى إلى كسب مودة الكرمانى ولم يكن الكرمانى هو الساعى إلى مودته ، وقد لاحظ ذلك فان فلوتن بحق ؛ وكأنما تبيّن للناس فيما بعد مقدار ما لحق بسمعة أبى مسلم من جراء هذا الموقف ، لأنه لم يكن يتفق مع الفكرة التى كونوها لأنفسهم عنه أن يُذِلّ نفسه على هذا الوجه ، فمالوا إلى أن يعتبروا أن قوة موقف أبى مسلم والسلطان الذى لم يصل إليه إلا فى آخر الأمر قد كانا له فى وقت سابق على ذلك . ولكن إذا قبلنا هذا لم نستطع أن نفهم لماذا انتظر طويلا حتى تدخل آخر الأمر . فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكّنه من أن يتحدى العرب تحدياً صريحاً ، بل هو تصرّف بحكمة سياسية ، فاستوقفهم وذرّ الرماد فى عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدواً صريحاً لهم[1] . وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين فإن ذلك كان فى ذلك الحين شيئاً مألوفاً لا يستنكره أحد . على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة ، ويحكى المدائنى (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٦٥) أن فتية نُسّاكاً من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه فى معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم : « خبرى خيرٌ لكم من نسبى » ، فلما سألوه عن أشياء فى الفقه ، قال لهم : « أمْرُكم بالمعروف ونَهْيُكم

(١) [يجد القارئ فى رواية عند (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٩٢) أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماخوان فاوض كلا من على بن جديع الكرمانى ونصر بن سيار وعرض عليهما المسالمة واجتماع الكلمة والدخول فى الطاعة ، فقبل ذلك منه على بن جديع الكرمانى . فلما استوثق منه كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه وفداً يسمعون مقالته ومقالة أصحابه ، وهذا مما يؤيد رأى المؤلف فى حاجة أبى مسلم إلى السياسة والمصانعة . حتى قوى مركزه بضم اليمانية وحلفائهم من ربيعة إليه ونصرهم على المضرية أنصار الدولة الأموية — المترجم] .

عن المنكر خيرٌ لكم من هذا ، ونحن فى شغل ، ونحن إلى معونتكم أحوج منا إلى مسألتكم ، فأعفونا » .

وكان أكثر أتباع أبى مسلم من الزرّاع الأعاجم ، من الموالى فى قرى مرو ، ولكن كان بينهم بعض العرب ، وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت الرابطة التى تربط بين أنصار أبى مسلم هى الدين والمذهب ، وكانت نواة جيش خراسان ، أعنى « جند » بنى العباس ، تتكون من الهاشمية ، كما يصرح الطبرى بذلك (ج ٢ ص ١٩٨٧) . وقد دخل أبو مسلم فى مرو على رأس الهاشمية ، ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله ، وكان الذى يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن رُزَيق الخزاعى[1] — أما هذه البيعة فكانت : « أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأ بكم وُلاتكم[2] ، وإن كان عَدُوُّ أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم » . ومما يستلفت النظر فى البيعة التى كان يأخذها أبو منصور ، وهو الذى يذكر أنه كان رجلا فصيحاً مُفَوَّهاً عالماً بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم ، أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية ، بل هى بيعة إجمالية فى صـيغتها ، وهى لا تصرح بشخص الإمام العباسى من بين أهل بيت الرسول عليه السلام . وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولاتهم ، والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية ؛ فلم يكن الرجل العادى بحاجة إلى أن يعرف أسرار قادته ، بل كان يكفيه الإيمان بالراية السوداء . وكان للأحزاب الإسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية من كل لون[3] ، ولكن لم يبرز شأن

---

(١) قارن فى هذا ما قاله فان فلوتن عن أهل الكافية (الكفاية ؟) فى كتابه : Recherches ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٢) [راجع فيما يلى الطبرى (ج ٢ ص ١٩٨٧ — ١٩٨٩ — المترجم] .

(٣) كان لون العلم أحمر عند الخوارج (الأغانى ج ٢٠ ص ١١٢ س ٢١) وكان أسود =

اللواء ولونه وأهميته عند أحد بروزه عند شيعة بنى العباس فى خراسان، وكانوا يحملون اللواء الأسود على أبدانهم ، ويسميهم تيوفانيس Χουρασάνιοι (١) μαυροφόροι أى : الخراسانيون لابسو السواد ، كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (نشرة Mommsen ، فصل ١٣٤) : Persarum pullata demonia ، أى الشياطين السود من أهل فارس . ويقال إن لواء النبى عليه السلام كان أسود ، لذلك اتخذ العباسيون لواء أسود . وفى كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذى يبدأ عصراً جديداً . ولكن الحارث بن سريج ، وكان أول من قاد ثورة الموالى باسم الإسلام ، كان له أيضاً علم أسود . ويجوز أن أبا مسلم أخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الأسود لأن هذا العلم كان قد أصبح محبباً إلى نفوس الموالى .

خاطب نصر بن سيار ، أمير مرو من قِبَل بنى أمية ، العربَ بالأبيات التالية التى حفظها لنا الدينورى (ص ٣٦٠) ،

أبلغ ربيعة فى مروٍ وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ

= بحسب الأغانى أيضاً وبحسب ص ٩٩ س ٩ ، قارن أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨١ وص ٢٠٠٧ ، ولسان العرب ج ١١ ص ٣٢٩) . أما خصوم العباسيين فقد اختاروا اللون الأبيض ، ولم يقتصر ذلك على أهل الشام الموالين لبنى أمية ، بل اختار العلويون أيضاً اللون الأبيض (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٧١ و ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٦١ و ٥٠٨) . وكان بعض الثوار (الخرّمية) فى بلاد الجبل يلبسون اللون الأحمر ، فسموا لذلك بالمحمّرة (الطبرى ج ٣ ص ٤٩٣ و ٦٤٥ فما بعدها و ١٢٣٥) . وكان مع الحسن بن على بن الحسن المعروف بالأفطس علم أصفر فيه صورة حية (الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧) . وكان لبعض الرجال العظماء اللون الخاص الذى اتخذوه شعاراً لهم ، وكان يلبسه أيضاً مواليهم وأتباعهم (الطبرى ج ٣ ص ٥١٦) . أما عند العرب القدماء ، فكان اللون الأسود هو لون الأخذ بالثأر (الأغانى ج ٨ ص ٧٥ س ٢٠) .

(١) الكتابة الصحيحة لهذه الكلمة هى Χορασαν أو Χουρασαν ، ذلك أن تيوفانيس يجرى على ما جرى عليه السريان من استعمال ου على أنه حرف قصير ، أما كتابة الكلمة هكذا Χωρασαν فهى خطأ ، وكذا الـ α حرف ممدود .

ما بالكم تُلقِحون الحرب بينكمُ ... كأن أهل الحجى عن فعلكم غُيُبُ
وتتركون عدواً قد أظلكم ... ممن تأشّبَ ، لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا ، فنعرفهم ... ولا صميم الموالى، إن هُمُ نُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصل دينهمُ ... فإن دينهم أن تُقتل العرب

وفى رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٣٧ و١٩٧٤ و ج ٣ ص ٢٥) أن الإمام إبراهيم بن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة : بأنه إن استطاع ألاّ يدع فى خراسان من يتكلم العربية فليفعل ، وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة أشبار يتّهمه[1] . ويحكى تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليقة) أن العبيد الذين أثارهم أبو مسلم فى خراسان قتلوا سادتهم فى ليلة وأخذوا أسلحتهم وخيلهم وأموالهم وتجهزوا بها للحرب . أما فيما يرويه الطبرى من أخبار تاريخية لدخول أبى مسلم مدينة مرو فلا يجد الإنسان شيئاً من ذلك ، وكل ما يقال هو أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقات أصحاب نصر وصناديدهم[2] بعد أن هرب نصر . أما جند أبى مسلم فقد أمرهم أبو مسلم بالتزام أدق نظام ، وحرّم عليهم أن يقتلوا أحداً من تلقاء أنفسهم . وإذن فمن الجائز أن تكون الروايات هنا كما فى أحوال أخرى قد لطّفت من ذكر الحوادث ، مراعاةً لجانب بنى العباس وإرضاءً لهم ، ومن الجائز أن يكون الموالى قد أطلقوا لغضبهم العنان فى عنف أشد مما يبدو من الروايات التى ذكرها الطبرى . ولكن لا يجوز أن يبالغ الإنسان رغم ذلك فى تأكيد القول بعداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى عند الموالى ، وذلك لأن حركة الثورة لم تأت من جانب أمة الأعاجم ، بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما ، ولم يكن العرب يُمْنَعون من

---

(١) [قارن أيضاً الدينورى ٣٥٨ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٩ ، ١٩٩٥ — المترجم] .

الدخول فيها ، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسى واجتماعى ، وأصلها فى الإسلام . ولم تكن حركة الثوة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب ، بل كانت موجهة ضد الزنادقة . ولذلك سميت أسلحة الموالى بأنها كافركوبات(١) . وكان أخص أخصاء أبى مسلم ، وهم أبو نصر وأبو داود وغيرهم ، ولم يكن القتال موجهاً إلى العرب من حيث هم عرب ؛ بل إلى العرب الحاكمين وبالاستناد إلى الإسلام ، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون فى حكومتهم إلى الحق والشرع ، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بنى أمية الخارجة على الدين ، ولا يعترفون بمبدأ المساواة فى الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب فى الدولة التيوقراطية . أما الأحزاب العربية التى كانت معارضة لبنى أمية كأهل العراق وقبائل اليمن فى خراسان فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولاً وقبل كل شىء . على أن محاربة العروبة فى الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت فى الواقع بأن علا شأن الأعاجم وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بنى أمية أمةً مضطهدة . وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار . وكان ذلك أيضاً مما تقضى به طبيعة الأشياء ، لكنه لم يكن المقصد الأصلى . وقد غلبت قوميةُ الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه . ولكن الإسلام ، لا فكرة القومية ، هو الذى كان القوة الدافعة فى نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة فى نهوض العرب أنفسهم ، وهنا فى خراسان كان الإسلام مفهوماً فهماً جديداً حليفاً لأمة جديدة(٢) .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ٩٣ والدينورى ص ٣٦٠ ، أما الطبرى فهو لا يذكر الكافركوبات إلا عند الكلام عن خشبية المختار ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) [هذا رأى المؤلف . ولكن عداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى شىء طبيعى ، ولا شك أنه قد كان له تأثير ، أما الإسلام الجديد الذى يتكلم عنه فهو الإسلام الأول تماماً ، وهو دين المساواة بين معتنقيه . ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء ولا مما تقتضيه سياسة الدولة وتمكينها أن يكون العرب دولة ثم يسلموها للأعاجم فى أول الأمر — المترجم] .

٤ — وجّه أبو مسلم أبا داود خالد بن إبراهيم البكرى ، أحد أنصاره المخلصين ، إلى طخارستان . وكان أبو داود فى هذه البلاد من قبل يقوم بالدعوة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ فما بعده) . وبعد أن أفلح أبو داود فى إخراج زياد بن عبد الرحمن القشيرى ، عامل بنى أمية ، من مدينة بلخ ، كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم إليه ، ووجّه مكانه يحيى بن نعيم البكرى . ولكن يحيى كاتب زياداً فى أن « تصير أيديهم واحدة » ، وكان زياد لا يزال ثابتاً محتفظاً بسلطانه فى مدينة ترمذ الحصينة ، غير بعيد من بلخ . وعند ذلك اتحدت كلمة جميع العرب فى تلك الناحية ، مضريّهم ويمانيّهم وربيعيّهم ، على قتال المسوّدة ، شيعة بنى العباس ، وانضم إليهم الأعاجم هناك ، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيّان النبطى ، كراهة أن يكون القائد من الطوائف الثلاث . وإن اتحاد كلمة العرب والأعاجم على قتال شيعة بنى العباس يمكن أن يتخذ سنداً لتصورات خاطئة ، ومما يستحق الانتباه أن بعض أعلام هؤلاء المتحالفين كانت سوداء — فلا شك أنها كانت أعلام الحارث بن سريج . فوجّه أبو مسلم صاحبه أبا داود إلى الميدان من جديد ، وبعد معركة على نهر السرجنان خرج المتحالفون من بلخ مرة أخرى وتراجعوا إلى مدينة ترمذ . ثم كتب أبو مسلم إلى أبى داود يأمره للمرة الثانية بالقدوم عليه ، ووجّه النضر بن صبيح المرى إلى بلخ ، وقدم أبو داود على أبى مسلم ، واجتمع رأيهما على أن يفرقا بين على وعثمان ابنى جديع الكرمانى ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ ، ولكنه لم يستطع الثبات هناك لأن المضرية أقبلوا من ترمذ بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الباهلى ابن أخى قتيبة بن مسلم المشهور ، فأخرجوه من بلخ ، فكان لا بد أن يعود أبو داود إلى هناك للمرة الثالثة ، لأنه لم يكن عنه غنىً . هذه هى الرواية التى يذكرها الطبرى

(ج ٢ ص ١٩٩٧ فما بعدها) ، وهي رواية لا يمكن أن تقوم رواية مقامها أحسن منها[١] .

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث : وهي مرو ومرو الروذ وهراة ، أما في القسم الغربي من خراسان ، وهو ولاية نيسابور ، فلم يكن في يده سوى مدينتي نسا وابيورد : وكان نصر بن سيار ، عامل خراسان ، يقيم في مدينة نيسابور : أما في سرخس فكان هناك شيبان بن سلمة الحروري[٢] ، وكان قد تنحى هو أيضاً عن مرو بعد هروب نصر بن سيّار منها ، ذلك أن شيبان لم يكن يستطيع البقاء هناك ، لأنه كان يرى رأي الخوارج ، وكان من قبل حليفاً لعلي بن جديع الكرماني على قتال نصر ، لأن نصراً كان من عمال مروان بن محمد . فلما صالح عليٌّ أبا مسلم اضطر شيبان إلى الخروج من مرو ، علماً منه أنه لا طاقة له بحرب أبي مسلم وعليّ بن جديع مجتمعيْن . فأرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوه إلى البيعة ، فأجاب شيبان قائلا : أنا أدعوك إلى بيعتي ، فأرسل إليه أبو مسلم أن يختار بين الدخول في البيعة وبين الرحيل ، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من قبائل بكر ، ولما لم يستجب إلى دعوة وجهها إليه أبو مسلم مرة أخرى بعث أبو مسلم جيشاً إليه فهزمه وقتله ، وفر جند شيبان ، وكان معظمهم من بكر ، إلى نيسابور ، ولحقوا بنصر بن سيار ؛ ثم بدأ أبو مسلم في قتال نصر ، فنشأت الحرب الكبيرة التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين أمام « الشياطين السود » ، ولم يتولّ أبو مسلم نفسُه القيادة في هذه الحرب ، بل ولى قحطبة بن شبيب ، وكان عربياً من طيء[٣] . وكان قحطبة في

---

(١) فيما يتعلق بثورات على أبي مسلم ، قامت بعد ذلك في بلاد السغد ، راجع الطبري ، ج ٣ ص ٧٤ و ٧٩ فما بعدها ، وكان للعباسيين يد في ذلك ، ولم يمكن إخضاع ما وراء النهر لسلطان الإسلام إخضاعا تاما إلا على يد أبي مسلم والعباسيين .

(٢) [فيما يتعلق بشيبان ومقتله راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥–١٩٩٧ — المترجم] .

(٣) قارن الحماسة ص ٣٠٣ فما بعدها .

أثناء الثورة غائباً فى مكة وكان قد ذهب إليها للقاء الإمام إبراهيم بن محمد فى أيام الحج ، ولم يعد إلا بعد أن استولى أبومسلم على مدينة مرو. ولما انصرف قحطبة من عند إبراهيم بن محمد عقد له إبراهيم لواء وجعله على مقدمة أبى مسلم ، وجعل له القيادة والعزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له[1] . وأقر أبو مسلم ذلك ، وأسند إليــه القيادة . فخرج قحطبة فى الجيش[2] ، ومعه أو تحت إمرته أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى وخازم بن خزيمة التميمى وخالد بن برمك البلخى وغيرهم من القواد[3] ، فوجّه نصر بن سيار ابنه تميما للقاء جيش أبى مسلم . وبعد أن قاتل تميم وقُتل فى طوس ، خرج نصر من نيسابور فى آخر شوال سنة ١٣٠ هـ ، الموافق آخر يونيه سنة ٧٤٨ م (الطبرى ج ٢ ص ٢٠١٦) . وبعد ذلك بقليل من الزمان تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور فنزلها[4] ، وأخذ معه حليفه علىّ بن جديع الكرمانى وقتله فى الطريق . وفى نفس الوقت قتل أبو داود البكرى عثمان بن جديع الكرمانى فى طخارستان (الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٩ فما بعدها) . وهكذا أدى الحلف بين ربيعة وقحطان وبين شيعة العباسيين مهمته ، وهو الحلف الذى أمكن بفضله الاستيلاء على مرو ، وأمكن القضاء على منافسة مقلقة بفضل قتل زعيم ربيعة وقحطان ، لأنه يظهر أنه كان لا يزال له فى مرو مكانة قوية توازى مكانة أبى مسلم .

وكان نصر بن سيار قد خرج من نيسابور إلى قومس على حدود جرجان ، وكان معه العرب الذين هربوا من خراسان ، من قبائل تميم وبكر وقيس ، وكتب مروان بن محمد إلى يزيد بن هبيرة أمير العراق بأن يوجه نُباتة بن حنظلة الكلابى

---

(١) راجع فى هذا الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠٠ - المترجم] .

(٢) راجع الطبرى أيضاً ج ٢ ص ٢٠٠٠ - ٢٠٠٣ - المترجم] .

(٣) نجد عند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٤٠) أنه يضع قحطبة فى مكانة ليست أقل من مكانة أبى مسلم .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٣ ، لكن قارن ج ٣ ص ٥٩ .

إلى جرجان[١] . ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر ، بل زاده ضعفاً ، لأن من كان فى جيش نصر من قيس انحازوا إلى نباتة ، فقصد قحطبة إلى نباتة أولاً ، فدخل جرجان فى ذى القعدة سنة ١٣٠ هـ ، ثم قاتل نباتة فى يوم الجمعة مستهل ذى القعدة (الخميس أول أغسطس سنة ٧٤٨ م) ، وكانت معركة انهزم فيها نباتة وقُتِل . ويظهر أن نصراً كان فى أثناء ذلك قد أفلح فى مقاومة الحسن بن قحطبة الذى كان قد توجه لقتاله ، وذلك أنه لما اقترب الجيش من نصر انحاز إليه أبو كامل — وكان أحد قواد الشيعة — وصار مع نصر وأعلمه مكان الحسن . ولكن بعد أن قُتل نباتة لم يمكث نصر فى قومس طويلاً ، فهرب مخترقاً المفازة حتى بلغ همذان ، ولكنه لم يجد فى أى مكان تأييداً من عمال بنى أمية[٢] . وفى أحد الشهور الأولى من سنة ١٣١ هـ التقى قحطبة مع ابنه الحسن فى قومس ، وخرج من هناك متوجهاً إلى الغرب ، وأرسل ابنه أمامه ، وسلّمت له الرى وهمذان . ولكن جند الشام الذين كانوا فى همذان فروا منها بقيادة مالك بن أدهم ، عامل همذان ، وكذلك جند خراسان الذين كانوا مع نصر بن سيار ، اجتمعوا جميعاً فى نهاوند[٣] وقاتلوا الحسن ابن قحطبة قتالاً شديداً لما جاء وحاصرهم هناك ، ثم أقبل عامر بن ضُبَارة المُرّى ، ومعه جيش كبير العدد حسن العدة من أهل الشام ، ليفك الحصار عن نهاوند ، فدخل أرض كرمان بجيشه ، وذلك بعد أن كان قد هزم عبد الله بن معاوية واضطره إلى الفرار ، ولكن بينا هو فى طريقه إلى نهاوند هاجمه قحطبة بنفسه فهزمه وقتله[٤] . ووقعت هذه المعركة الدامية عند جابلق من

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠٢ — ٢٠٠٦ ، ٢٠١٦ ، ٢٠١٧ — المترجم] .

(٢) مات نصر فى ساوه قرب همذان فى ربيع الأول سنة ١٣١ هـ (٩ نوفمبر سنة ٧٤٨ م) وهو ابن خمس وثمانين سنة [راجع فى ذلك وفى وفاة نصر الطبرى ج ٣ ص ١ — ٢ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٣ ص ٣ — ٩ المترجم] .

(٤) يجب بدلا من كلمة Ἰβινδαρα عند تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٤٠) أن نقرأ كلمة Ἰβινδαβαρα بحسب ما جاء عند أنسطاسيوس ، لأن المقصود هو ابن ضبارة لا نباتة ، كما يظن رايسكه (Abulfeda, I, adn. 238) خطأ .

أعمال أصبهان فى يوم السبت لسبع بقين من رجب سنة ١٣١ هـ (الثلاثاء ١٨ مارس سنة ٧٤٩ م) ؛ وبعد ذلك التقى قحطبة وابنه أمام نهاوند ؛ وبعد أن حاصراها ثلاثة أشهر (الطبرى ج ٣ ص ٧ س ١٨) طلب أهل الشام الأمان لأنفسهم ، وأهل خراسان لا يعلمون ، فنالوا الأمان دون زملائهم من أهل خراسان ، فنجوا ، وقُتل أهل خراسان ؛

وعند ذلك أصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام قحطبة[1] ، فوجّه ابنه الحسن أمامه ، ثم خرج من نهاوند ولحق به ، مارّا بقرماسين ، حتى بلغ حلوان وخانقين ؛ وكان ابن هبيرة ، أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، قد خرج بجيش كبير عبر الفرات للقاء قحطبة ووصل إلى جلولاء وعسكر بها ، فتجنبه قحطبة بمهارة ، وعبر دجلة وتقدم إلى الكوفة من غير أن يمر بمعسكر ابن هبيرة ، ووقف حيناً عند الأنبار على الفرات . فأسرع ابن هبيرة فى اللحاق به وعسكر إلى الجنوب على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات ، عنـــد الموضع المسمى فم الفرات فى الفلّوجة العليا حيث يتفرع النهر إلى الكوفة ، وأرسل حوثرة بن سهيل الباهلى فى مقدمة أمامه إلى الكوفة ، ولكن قحطبة عبر الفرات عند دِمِمّا وسار مع الضفة اليمنى حتى بلغ الحائرة ، فى مواجهة المكان الذى كان ابن هبيرة قد عسكر فيه . وفى ليلة الأربعاء ٨ المحرم سنة ١٣٢ هـ (الأربعاء ٢٧ أغسطس سنة ٧٤٩ م) عبر قحطبة الفرات عند مخاضة ، ومعه فرقة صغيرة ، وهاجم معسكر ابن هبيرة[2] . فانهزم جيش ابن هبيرة وأصحابه مأخوذين ، فانسحبوا إلى فم النيل أولاً ، ولكن ابن هبيرة لم يمكث هناك ، بل سار مع جدول النيل حتى لجأ إلى مدينة واسط الحصينة التى كانت مقر الحكومة . ولما علم حوثرة بذلك ، وكان قد تقدم حتى بلغ قصر

---

(١) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٠ — ١٨ — المترجم] .

(٢) وكل هذا جاء مشبهاً للخطط الحربية التى عمل بها مسلمة بن عبد الملك ، وهو يحارب يزيد بن المهلب سنة ١٠١ أو ١٠٢ هـ .

ابن هبيرة[١] ، لم يجرؤ على دخول الكوفة ، بل هو لحق بابن هبيرة فى واسط ، وانتصر قحطبة انتصاراً تاماً ، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا النصر ، وذلك أنه فى أثناء اضطراب الليل قُتِلَ على صورة خفية[٢] ، ولا شك أن قحطبة قد قام ، من الناحية العسكرية ، بالعمل الأكبر فى نصر العباسيين : ولقد عقد النصر للواء الأسود ، ووطد فى الأذهان أن هذا اللواء لا يُغلب . وتولى القيادة بعده ابنه الحسن ، وكان قد بقى على الضفة اليمنى ، فاستطاع أن يدخل الكوفة من غير قتال ، وذلك أن محمد بن خالد القسرى — وهو ابن خالد بن عبد الله القسرى الذى قتله بنو أمية ، وجعلوه من الشهداء — كان قد تجاسر ، ومعه اليمانية ، على القيام بالثورة تأييداً لبنى العباس واستولى على القصر[٣] ، وبعد أن كان حوثرة قد خرج لم يتعرض له أحد . وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة ، ولم يكن يعلم بهلاكه ، يخبره أنه قد ظفر بالكوفة ، فوقع الكتاب فى يد الحسن بن قحطبة ، فجاء ودخل الكوفة فى يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٢ هـ[٤] (٢ سبتمبر سنة ٧٤٩ م) . أما فى البصرة فقد حاول سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، ومعه اليمانية وحلفاؤهم من ربيعة ، أن يقوم بثورة لإسقاط حكومة الأمويين[٥] ، ولكنها أخفقت ، وذلك أن أحياء قيس ومضر ومن كان معهم من أهل الشام ومن بنى أمية ومواليهم ناهضوه تحت قيادة سلم بن قتيبة الباهلى ، عامل البصرة ، فأخذوا حركة اليمانية وربيعة . فأخذ هؤلاء فى كل مكان ينضمون إلى ثورة أهل

---

(١) [اسم مكان بنى فيه ابن هبيرة قصراً ، فسمى فيما بعد قصر ابن هبيرة — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٤ — ١٨ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٨ فما بعدها — المترجم] .

(٤) [عند الطبرى (ج ٣ ص ٢ س ١) أن الحسن بن قحطبة صبح محمد بن خالد فى الكوفة يوم الاثنين — المترجم] .

(٥) راجع فى ذلك الطبرى (ج ٣ ص ٢١ — ٢٣ المترجم] .

خراسان ، على حين ظلت مضر تحارب وحدها من أجل سيادة العروبة[1] .

وعند ذلك ظهرت الحكومة السرّيّة لبنى العباس أمام الناس فى الكوفة[2] ، وخرج أبو سلمة « وزير آل محمد » من مخبئه وتسلم مقاليد الحكومة . فأقام فى حمام أعْيَن ، حيث كان يعسكر جند خراسان . وكان قد آن الأوان لبنى العباس ، لكى يخرجوا من الركن الذى كانوا منزوين فيه ويتقدموا إلى الرياسة . ولكن كان قد وقع فى يد مروان بن محمد كتابٌ من إبراهيم بن محمد بن العباس إلى أبى مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية فى خراسان ، فأمر الخليفة مروان بن محمد بالقبض على إبراهيم ابن العباس وبحمله من الحميمة إليه . ويروى أن إبراهيم بن العباس حين أخذ للمضى به إلى مروان بن محمد نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيّعوه ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد وأمرهم بالسمع والطاعة له ، وأنه أوصى إلى أخيه أبى العباس وجعله الخليفة بعده . وإذن فلا بد أن يكون القبض على إبراهيم بن محمد قد وقع قبل دخول أهل خراسان فى الكوفة بوقت قصير . وذلك لأنه لم يكد يمضى شهر بعد هذا الحادث حتى وصل العباسيون إلى الكوفة فى صفر سنة ١٣٢ هـ . وكانوا أربعة عشر رجلاً ، من أجيال مختلفة ، منهم أولاً أبناء على بن عبد الله بن عباس : داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد ، وموسى بن داود ؛ ثم أبناء محمد بن على بن عبد الله بن عباس : أبو العباس وأبو جعفر ويحيى ؛ وأحفاد لمحمد بن على : عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد وأخوه محمد وعيسى بن موسى

---

(١) أخذت هنا برواية الراوية القديم أبى مخنف ، وهذه آخر رواية على لسانه عند الطبرى (ج ٣ ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٢٠) وعلى هذا فإن أبا مخنف قد شهد الكارثة ، ولكن لابد أنه قد كان إذ ذاك قد بلغ من الكبر عتياً . والمدائنى وهو أكبر الرواة الذين يذكرهم الطبرى يخالف أبا مخنف فى نقط غير ذات شأن ، وهو يذكر تفاصيل أدق . قارن المسعودى ج ٦ ص ٧٣ واليعقوبى ج ٢ ص ٤١٢ والحماسة ص ٤٠٣ فما بعدها .

(٢) [راجع فى هذا وفيما يلى الطبرى ج ٢ ص ٢٤ — ٣٧ — المترجم] .

ابن محمد ، وأخيراً يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس من أحد فروع بنى العباس(١) .

على أن هؤلاء العباسيين لم يُستقبلوا فى الكوفة بأذرعين مفتوحتين ، ذلك أن أبا سلمة « وزير آل محمد » ، بعد موت إبراهيم بن محمد ، لم يعتبر حقهم فى الخلافة حقاً بديهياً ، وخصوصاً أن أبا سلمة كانت تربطه ببنى العباس البيعة التى أعطاها للإمام إبراهيم بن محمد نفسه . وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين ، وحاول أن يكتم أمر مجيئهم إلى الكوفة ، فأخفاه نحواً من أربعين يوماً عن جميع القواد والشيعة ، ومنع الناس من الاتصال بالعباسيين ، وكان يأمرهم بالاختفاء ، وكان إذا سُئل عن ظهور الإمام يدعى أن وقت ظهوره لم يجئ بعد ، وأن واسطاً لم تُفتتح بعد ، بل هو لم يبعث لأبى العباس بمائة دينار سأله إياها ليعطيها للجمال كراء الجمال التى حملتهم إلى الكوفة . وكان أبو سلمة يفكر ، بعد موت الإمام إبراهيم ابن محمد ، فى تحويل الأمر إلى آل أبى طالب . ولكن أبا الجهم ، أحد

---

(١) داود بن على وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحميمة ، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم فى طريقهم عند دومة الجندل . وقد حاول داود أن يثنيهم عن عزمهم فى الذهاب إلى الكوفة .

[وخصوصاً أن شيخ بنى مروان ، مروان بن محمد ، كان بحرّان مطلاً على أهل العراق ومعه أهل الشام وأن شيخ العرب ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، كان فى العراق فى حلبة العرب . ولكن بنى العباس لم يستمعوا إليه وساروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهى : من أحب الحياة ذل ، وبيت للأعشى وهو :

فما مِيتَةٌ إن مِتّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالت النفسَ غولُها

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراماً — الطبرى ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤ — المترجم] . على أن الأسرة العباسية لم تكن دائماً مجمعة على الإمام إبراهيم بن محمد ، وقد انضم عيسى وعبد الله أبنا على بن عبد الله بن عباس ، وأيضاً أبو جعفر ، أخو الإمام إبراهيم ، إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر لما خرج على بنى أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٧) . ويظهر أن سليمان بن على أيضاً ، لا داود بن على وحده — وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر — لم يكن فى الحميمة ، بل كان يقيم فى العراق — قارن أيضاً اليعقوبى ج ٢ ص ٤١٩ .

خاصة أبي مسلم الخراساني ، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبي سلمة ، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل خراسان ، وخرج من معسكر حمام أعين فتوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلّم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة . فاضطر أبو سلمة ، بعد أن علم ذلك ، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة[1] . وكان أبو جهم ، بعد أن عاد ، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبو سلمة وليضربوا عنقه إن لم يُبَايعْ الإمام ، فلما فعل قال له أبو حميد أحد القواد : على رغم أنفك يا . . . فقال له أبو العباس : مَهْ . وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ (الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) تمّتْ البيعة العامة لأبي العباس وللأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة . وصعد أبو العباس المنبر وخطب ، وكان موعوكاً ، فاشتدّ به الوعك فجلس على المنبر . وعند ذلك صعد عمه داود بن علي ، وكان دونه على مراقي المنبر ، فخطب أيضا ، والخطبتان قد وصلتا إلينا ، لكنهما غير صحيحتين ، وإن كان ما تضمّنتاه يناسب الموقف ، فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم ، وذكر لآيات من القرآن في ذلك ، كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحقُّ منهم بالرياسة والخلافة[2] ، والمقصود هنا هم العلويون . وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة[3] ، فخاطبهم الخليفة قائلاً : « يا أهل الكوفة ! أنتم محلُّ

(١) هكذا يروى المدائني (الطبري ج ٣ ص ٢٨ فما بعدها) . وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٤ فما بعدها) ، قارن المسعودي ج ٦ ص ٩٢ فما بعدها واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) جاء في خطبة الإمام : وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا . الخ ... (الطبري ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) . [والمؤلف على حق فيما يراه من أن السبئية كلمة تشنيع تطلق على بعض شيعة عليّ الأولين — المترجم] .

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسري (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ س ٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى « عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأصل » ، يقصد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يَثْنِكم عن ذلك تحامُلُ أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا » . وخاطبهم داود بن على قائلاً : « يا أهل الكوفة ! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيّض بهم وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر وألزموا طاعتنا ، ولا تُخْدَعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، وإن لكل أهل بيت مِصْرًا ، وإنكم مِصْرُنا » . وهكذا نجد بنى العباس يقولون إن شيعتهم من أهل خراسان ، وهم إذ قضوا على سلطان بنى أمية حرروا أهل العراق أيضاً من نير أهل الشام . وهكذا أيضاً انتهى الصراع الذى دام بين أهل العراق وبين أهل الشام قرابة قرن ، دون أن يصل إلى نتيجة ، بنصر أهل العراق . وعاد مقر الخلافة إلى الكوفة التى كانت مقر على بن أبى طالب من قبل . والعبارة البارزة فى خطبة داود بن على هى قوله لأهل الكوفة : « إن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مِصْرُنا » . وكان لابد من ذلك بطبيعة الحال لإرضاء شعور أهل الكوفة ، ولكن محور الثقل فى الدولة الإسلامية قد انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق ، وكان ذلك حادثاً له شأن حاسم(1) .

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة(2) ، فلم يجعل مقامه فى مدينتهم ، بل أقام فى حمام أعين ، بين أهل خراسان . وبعد حين من الزمان

---

(1) راجع ثيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٤١) .

(2) [راجع فى هذا أو فيما يلى الطبرى ج ٢ ص ٣٧ ، ٥٨ فما بعدها — المترجم] .

انتقل إلى الحيرة ، ثم انتقل منها إلى الهاشمية ، وذلك ، فيما يذكر ، لكى يبعد بنفسه عن أبى سلمة . وكان أبو سلمة يقيم فى حمام أعين ، وظل ما بين الإمام وبين أبى سلمة متباعداً ، فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين ، وكان يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به وثبت أنه لم يكن فى ذلك وحده ، وبخصوصاً أن أزمّة قيادة حزب الشيعة كانت فى يده حتى ذلك الحين . ولم يجرؤ الخليفة على أن ينفرد بمؤاخذته ، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة وكان فى الواقع من صنع القوم الذين كان فى الظاهر يستخدمهم فى الوصول إلى غاياته — كان من صنع أهل خراسان ، صناع الملوك ، وكان هؤلاء الخراسانيون ، إلى جانب ذلك يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعى لخلافته ، فكان الخليفة مفتقراً كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين كان لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له ، فأرسل أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد إلى خراسان ليعلم له رأى أبى مسلم ، صاحب النفوذ الأكبر على جيش خراسان ، وليعرف هل كان مسلك أبى سلمة إزاءه عن رأى أبى مسلم أم لا . وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة ، ولا شك أنه قد أقرّ عين العباسيين ، لما بعث لأبى سلمة من قتله . وفى الوقت نفسه قتل أبو مسلم منافسه القديم سليمان بن كثير رئيس النقباء ، وذلك أن أبا مسلم بلغه عن سليمان كلام يدل على ميله مع أبى سلمة إلى العلويين ، فاغتنم أبو مسلم ذلك وقتله ، شفاء لما كان فى قلبه من بغض له . وكان أبو جهم ، وهو من خاصة أبى مسلم ، عند الخليفة أبى العباس ليراقب ما يصنع ، وكان غالباً على أبى العباس[1] .

وبينما كانت هذه الأمور تجرى فى المشرق ، كان المغرب أيضاً مسرحاً لحوادث تهز النفوس[2] . فبعد سقوط نهاوند فى ذى القعدة سنة ١٣١ ﻫ ، وجه

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٣٣ والطبرى ج ٣ ص ٦٧ و ٨٨ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٩ فما بعدها و ص ٣٨ فما بعدها نقلا عن المدائنى فى الغالب .

قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدى إلى شهرزور ، وبعد معركة كان له فيها النصر فى ذى الحجة سنة ١٣١ هـ (١٠ أغسطس سنة ٧٤٩ م) أخرج أبو عون جند الشام من شهرزور ، ونزل أرض الموصل إلى شمال نهر الدجلة وثبت أقدامه هناك ، وبعد الاستيلاء على الكوفة جاءته إمدادات من هناك ، لكنه اضطر إلى أن ينزل عن القيادة إلى عبد الله بن على بن العباس . وسار الخليفة مروان بن محمد من حرّان ومعه جنود الجزيرة والشام من العرب وتقدم عبر الفرات لقتال أهل خراسان . ووقعت المعركة على ضفة نهر الزاب الكبير ، وبدأت فى ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ . وانتهت فى يوم السبت ١١ جمادى (الأحد ٢٥ يناير) بهزيمة مروان هزيمة قبيحة . ويقول تيوفانيس إن جيش مروان كان يتألف من ثلاثمائة ألف رجل ، وإنه قد فرّ من جيشه آلاف أمام ألف واحد وعشرة آلاف أمام ألفين من جيش أعدائه . ونجد فى روايات أخرى ذكر الفارق الكبير بين عدد كل من الجيشين المتقاتلين . ومن السهل أن نفهم المقصود من ذلك ، وهو إثبات القاعدة الكبرى ، وهى أن النصر من عند الله ، فهو الذى يلقى الرعب فى قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين . أما بحسب رواية للمدائنى (الطبرى ج ٣ ص ٤٧) فلم يكن جيش مروان يزيد عن اثنى عشر ألف رجل ، وكانت كفة مروان فى أول الأمر هى الراجحة ، ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيساً لم تشأ أن تقاتل دون قضاعة[1] . على أنه مما لا شك فيه أن الثقة فى النصر وصدق العزم على القتال كانا فى جانب أهل خراسان ، وكان العرب قد فقدوا الثقة ، ولم يريدوا أن يضحوا بأنفسهم . وقد أخرج مروان الأموال ووعدهم أن يعطيها لهم ، إن

---

(١) [لما هجم أهل خراسان قال مروان لقضاعة : انزلوا ! فقالوا : قل لبنى سليم فلينزلوا . فأرسل إلى السكاسك أن احملوا ، فقالوا : قل لبنى عامر فليحملوا ... وهكذا (الطبرى ج ٣ ص ٤٠ — ٤١) — المترجم] .

صبروا وقاتلوا ، ولكنهم مالوا على الأموال فأخذوها ، حتى إذا قيل : « الهزيمة » ، انهزموا . وغرق كثير من الهاربين فى نهر الزاب ، لأن الجسر كان قد قطع .

وعبر مروان نهر الدجلة راجعاً إلى حرّان ، فبقى هناك نيفاً وعشرين يوماً ، ومما يحسب له من الفضل والنبل أنه عند ذلك خلّى سبيل المعتقلين السياسيين الذين وجدهم فى الحبس أمامه ، أما الذين كانوا قد حاولوا الهروب قبل وصوله فقد قتلهم أولياؤه من أهل حران . وذهب مروان من حران إلى قنسرين ومنها إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى حصن أبى فطرس عند Jope (يافا ؟) ، ونزل هناك فى جوار رجل من أمراء جذام بنى روح ابن زنباع ، وذلك لأن أرض فلسطين كانت قد خرجت من يد حكومة بنى أمية . ومن أبى فطرس هرب مروان إلى مدينة الفرما من ساحل مصر ، لما اقترب مطاردوه مهددين له . وتبعه عبد الله بن على ، فى جند خراسان ، وانضم إليه فى أثناء الطريق أخوه عبد الصمد وأخوه صالح ، فسار إلى الموصل ومنها إلى حران فنبج فقنسرين فبعلبك فعين الجرّ ، حتى بلغ المزة قرب دمشق ، وهنالك نزل ، فاستولى على مدن الشام من غير قتال . وطبيعى أن هذه المدن لم تكن متعلقة بمروان (المسعودى ج ٦ ص ٨٤ فما بعدها) ، ولكن عبد الله اضطر أن يحاصر دمشق ، وكان مروان قد استخلف فيها الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم ، وكانت له القيادة . غير أن أهل دمشق لم يقفوا إلى جانبه بقوى متّحدة ، ثم تعصب الناس فيها ، فقتل بعضهم بعضاً وأخيراً قاتلوا مروان وفتحوا أبواب المدينة لعبد الله بن على فى يوم الأربعاء العاشر من رمضان[1] سنة ١٣٢ ﻫ . وبعد أربعة عشر يوماً سار عبد الله إلى فلسطين ، ومنها ارتحل إلى الأردن . ثم أتى نهر أبى فطرس ، وبعد ذلك وجه أخاه صالح بن على فى طلب مروان فى مصر ، ومعه أبو عون . فخرج صالح فى ذى القعدة سنة ١٣٢ ﻫ (٧٥٠ م) قاصداً مصر ، وفر مروان أمامه من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى بوصير عند

(١) [يقول المؤلف فى ١٤ رمضان . وقد تابعنا الطبرى ج ٣ ص ٤٨ — المترجم] .

الروضة فى جهة الأشمونين من بلاد الصعيد ، وهناك عُرِف مكان مروان ، وتفرق عنه أصحابه بعد قتال شديد (تيوفانيس) وقُتل[1] . وقد هاجمه عربىٌّ من أهل خراسان من بلحارث اليمنيين فى جماعة من أصحابه ، وكان هذا الخراسانى وهو يهاجم مروان يقول لأصحابه بالفارسية : دهيد يا جوانكان ، أى اضربوا أيها الفتيان ! وقتل مروان ، وكان ذلك فى آخر سنة ١٣٢ هـ — أول أغسطس سنة ٧٥٠ م[2] — وأرسل برأسه وشارات الخلافة أيضاً ، بحسب رواية المسعودى ، إلى أبى العباس . وفى بيت شعر يذكره ابن الأثير (ج ٢ ص ٣٢٧) أن لسان مروان قد أكله هرٌّ . وبقى أبو عون فى مصر ، وكان هو فى الواقع القائد الحقيقى للحملة .

أما مدينة واسط ، وهى الحصن الذى كان الحجاج قد بناه فى أرض القصب من وادى دجلة ، فإنها لم تكن قد غُلبت بعد . وكان ابن هبيرة ، ومعه أهل الشام ، قد لاذ بها ، بعد أن هزمه قحطبة عند بابل . وقد اجتمع إليه أيضاً بعض عرب خراسان ، خصوصاً من بكر ، تحت قيادة يحيى بن نعيم[3] ، فأتبعه الحسن ابن قحطبة وحاصره هناك . وبعد حين أمر الخليفة أبو العباس أخاه أبا جعفر أن يتوجه إلى واسط مع الحسن وأن يتولى القيادة ، ولكن الحسن كان فى الواقع هو المدبر للعسكر . ولم يكن الحسن فى الحقيقة تابعاً للخليفة ، بل لأبى مسلم ، وقد

---

(١) [أخبر أسرى من جند مروان وقعوا فى يد الخراسانيين بمكان مروان على أن يؤمنهم الخراسانيون ، وبلغه الخراسانيون فى آخر الليل ، « فهرب الجند وخرج إليهم مروان فى نفر يسير فأحاطوا به فقتلوه » . راجع الطبرى ج ٣ ص ٤٩ ، وتجد تفاصيل ما يقوله المؤلف من أمر قاتل مروان فى ص ٤٩ — ٥١ — المترجم] .

(٢) قارن الأغانى ج ٤ ص ٩٢ والمسعودى ج ٦ ص ٧٦ فما بعدها ، والتنبيه ص ٣٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٦ فما بعدها ، واليعقوبى ج ٢ ص ٤١٤ ، وياقوت ج ٤ ص ٦٧٠ ، ويوم الاثنين (٢٧ الحجة) ، الذى يذكر هنا لا يتفق مع يوم الأسبوع ، لا الأحد ولا الاثنين .

(٣) لا يصح الخلط بينه وبين يحيى بن حضين .

أرسل أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعى ، ومعه جند من أهل خراسان ، لشدّ أزر الحسن . ولم يكن الاتحاد سائداً بين أهل المدينة المحصورين ، وتشاجرت اليمن ونزار (أى مضر وربيعة) ، ولكن المدينة رغم ذلك قاومت الحصار أحد عشر شهراً . ولم يدخل ابن هبيرة فى مفاوضات إلا بعد أن علم بمقتل مروان ، أى فى أحد الشهور الأولى من سنة ١٣٣ هـ (خريف ٧٥٠ م) ، ودامت المفاوضات أربعين يوماً ، إلى أن وضع العلماء الأمان الذى كتب على نحو يرضى الطرفين(١) . وقد أقره أبو العباس ، ولكن بنى العباس لم يفوا بما جاء فى كتاب الأمان الذى كُتِب لابن هبيرة ، فقتلوا القواد الذين كانوا أسرى فى أيديهم ، وكانوا يحملون الخواتم دلالة على مناصبهم ، وقتــلوا النزاريين دون اليمانيين ، وأخيراً لقى ابن هبيرة نفس المصير ، بعد أن جُرِّد من حرسه وأُخذ ما كان فى يده من أموال(٢) .

ويروى الطبرى أيضاً هذا الحادث الذى تتجلى فيه القسوة والغدر الشائن : على أن الطبرى يؤثر السكوت عن رواية الاحتفالات الدامية التى جعلها

---

(١) [لما طال الحصار على ابن هبيرة تجنّى عليه أصحابه ، فقال اليمانية : لا نعين مروان وآثاره فينا . وقالت النزارية : لا نقاتل حتى يقاتل معنا اليمانية . وكان إنما يقاتل معه الصعاليك والفتيان . وهمّ ابن هبيرة بأن يدعو إلى أحد العلويين ، فكتب إليه ، لكنه أبطأ فى الجواب . ثم كاتب أبو العباس أصحاب ابن هبيرة اليمانية وأطمعهم ، وخرج إلى أبى العباس بعضهم ، ووعدوا ابن هبيرة أن يصلحوا له ناحية أبى العباس ، لكنهم لم يفعلوا . « وجرت السفراء بين أبى جعفر وبين ابن هبيرة ، حتى جعلوا له أماناً ، وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة ، ثم أنفذه إلى أبى جعفر ، فأنفذه أبو جعفر إلى أبى العباس ، فأمره بإمضائه » . وكان رأى أبى جعفر الوفاء لابن هبيرة ، ولكن أبا العباس اضطر أن يأخذ رأى أبى مسلم ، لأنه كان لا يقطع أمراً دونه ، فقال له أبو مسلم : « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فســد . لا والله ! لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » . الطبرى (جـ ٣ ص ٦٧) . وتجد قصة الغدر بابن هبيرة وقتله فى ص ٦٧ — ٧٠ — المترجم] .

(٢) تجد مراثى لابن هبيرة عنــد الطبرى جـ ٣ ص ٧٠ وفى الحماسة ص ٣٧٢ فما بعدها والأغانى جـ ١٦ ص ٨٣ فما بعدها .

بنو العباس من مظاهر الاحتفال بانتصارهم[1] . ولقد كان الأمويون عاملوا بنى العباس بكرم وعفو لم يكن لها داع[2] ، فشكر لهم بنو العباس ذلك بأن استأصلوا شأفتهم واستصفوا أموالهم ولم يراعوا فى ذلك أى اعتبار إنسانى ، بل صبوا جام الغضب الإلهى والانتقام الشرعى على رءوس بنى أمية . ولما كان ليس لديهم من موجبات الأخذ بالثأر إلا قليل ، فإنهم استعاروا شيئاً من أسباب الثأر التى كانت عند العلويين وظهروا بمظهر الثائرين لهم[3] ، فآتاهم ذلك فى الوقت نفسه وسيلة لتنحية العلويين ، وذلك لأن الذى يمهد الطريق إلى الرياسة ، بل الذى يزيد الحق فيها[4] ، ليس هو أن يكون عند الإنسان ما يوجب الأخذ بالثأر ، بل هو الأخذ بالثأر بالفعل . أما الباعث الحقيقى للعباسيين فقد كان سياسياً بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا يريدون أن يقضوا على شر الأسرة الأموية بعد أن أسقطوها قضاءً تاماً . وكل ما فعله العباسيون يعيد إلى الأذهان ما صنعه « الأنبياء » من إفناء بيت عمرى[5] .

وكان المسرح الأكبر للفظائع التى ارتكبها العباسيون مع بنى أمية هو بلاد الشام ، وكان عبد الله بن على هو الذى تولى القيادة فى الشام . أما وزر هذه

---

(١) تجد أخبار ذلك عند اليعقوبى والمسعودى وابن الأثير وفى كتاب الأغانى . ومن الأهمية بمكان أيضاً قصيدة من ذلك العصر لرجل من العبلات أو الموالى لهم ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة عند ياقوت ج ٤ ص ٢٣٩ و ٣٣٦ و ٨٣١ ، وفى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٩١ وج ١٠ ص ١٠٥ ، والعبلات أحد فروع بيت بنى أمية .

(٢) [لم يقتل بنو أمية من العلويين والعباسيين إلا من ثار على دولتهم ، وقد أحسن عمر بن عبد العزيز إلى آل البيت كما كان سليمان بن هشام يقضى حوائج العباسيين ويبرهم — الأغانى ج ٤ ص ٩٣ — ٩٦ — المترجم] .

(٣) [راجع مثلا اليعقوبى ج ٢ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ والمروج للمسعودى ج ٢ ص ٢٠٧ ط القاهرة ١٣٤٦ هـ — المترجم] .

(٤) [ما يقصده المؤلف استناد بنى أمية فى محاولتهم الوصول إلى الخلافة ، إلى أنهم أصحاب الثأر لمقتل عثمان — المترجم] .

(٥) [فى تاريخ بنى اسرائيل — المترجم] .

الفظائع فلا يقع على كاهل أهل خراسان ، ويدل على ذلك ما جاء فى كتاب الأغانى (جـ ٤ ص ٩٤ و ٩٦) : وذلك أن أهل خراسان كانوا جنداً يلتزمون روح النظام الدقيق ، ولم يكونوا يفعلون شيئاً إلا إذا أمروا به ؛ بل وقعت الأعمال الفظيعة بأمر من العباسيين (اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٢٧) . ومما له مغزاه أنه لم يفلت من العقاب موتى الأمويين أنفسهم ؛ فنُبِشت قبور الخلفاء وغيرهم من بنى أمية فى دمشق ودابق والرصافة وفى قنسرين وغيرها من الأماكن ، وأحرقت جثثهم بالنار ، إن كان قد بقى فى قبورهم شىء منها . ومما يستلفت النظر أن عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبى سفيان لم يُمَسَّا بسوء ، وقد صبّ بنو العباس جام غضبهم على هشام بن عبد الملك ، وكان هشام قد فعل ما دعا بنى العباس إلى ذلك[1] ، ولم يكن قد مضى على موته وقت طويل ، فنبش عبدُ الله بن على قبرَه وأخرج جُثّتَه ولم يكن قد بلى منها إلا أرنبة أنفه ، وضربها بالسوط وصلبها ، ثم حرقت بعد ذلك وأذرى رمادها فى الريح (المسعودى جـ ٥ ص ٤٧١ فما بعدها) . وقد فعل عبد الله بن على بمن كان على قيد الحياة من بنى أمية أفظع فعلة فى أبى فطرس ، وكان قد أقام هناك حيناً بعد أن كان قد أخرج مروان . فقد استدرج ، فيما يذكر ، أكثر من ثمانين من بنى أمية ، فأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا ، ثم دعاهم إلى طعام ، كأنه قد اتخذ Jehu (ياهو) مثلاً له يحتذيه ، ثم ألقى بعض موالى العباسيين وبنى هاشم أبياتاً من الشعر ، يحرضون بها عبد الله على الفتك ببنى أمية والثأر لمقتل العلويين والإمام إبراهيم بن محمد ، فلما سمعها عبد الله بدا كأنما التهب قلبه بنار الثأر ، فأمر بالأمويين فشُدِخوا بالعمد وبُسِطت الأنطاع على جثث القتلى ونصبت عليها مائدة الطعام ، فأكل ، وهو

---

(١) [جاء فى كتاب اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ أن هشام بن عبد الملك كان قد ضرب على بن عبد الله بن العباس ستين سوطاً ، فلما جاء ابنه عبد الله بن على ثار لأبيه ، فنبش قبر هشام وضربه مائة وعشرين سوطاً ، وهو يتناثر ، ثم جمعه وأحرقه — المترجم] .

يستمع إلى أنين الضحايا[١] حتى ماتوا جميعاً . وهذا المنظر ، بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع ، يتكرر فى مناسبة أخرى تُضاف إلى أبى العباس أو داود بن على بدلا منه[٢] — وهذا مما يدعو إلى الشك فى صحتها . أما وقائع المذابح والتمثيل نفسها فهى لا شك فيها . وقد بقيت فى نفوس عرب الشام ولم تنمح ذكراها ، كما لم تنمح من ذاكرة الإسرائيليين القدماء تلك المذبحة التى قُضِى فيها على بيت عمرى . وقد وضع يوم أبى فطرس طابعه فى جبهة بنى العباس ، كما وضع يوم عزريل طابعه فى جبهة بيت Jehu . ويذكر المسعودى (جـ ٦ ص ٧٦) أن ذلك الحادث المروع كان فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يونيو سنة ٧٥٠ م) . أما تيوفانيس فهو يخطئ فى جعله بعد ذلك بعامين[٣] . ولكن إشارته القصيرة التى لم يتنبه إليها أحد حتى الآن لها أهميتها ، لأنه يتضح منها أن الموضع المسمى بأبى فطرس هو المكان القديم الذى كان يسمى باسم أنتيپاتريس (Antipatris) :

أما فى المدينة ومكة فقد كان داود بن على هو جلاّد بنى أمية[٤] ، وكان

---

(١) الكامل ص ٧٠٧ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٢٩ فا بعدها ، وثم رواية أخرى عند اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٢٥ فا بعدها ، وفى الأغانى جـ ٤ ص ١٦٠ فا بعدها .

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ٩٤ ، وقتل الأعـداء ، وهم مدعوون إلى طعام ، ظاهرة تروى كثيراً .

(٣) يقول تيوفانيس : « فى سـنة ٦٢٤٣ ، قتل الحاكون الجدد معظم (المسيحيين باعتبارهم) أقرباء الأسرة السابقة ، وذلك بأن قضوا عليهم فى انتيپاتريس فى فلسطين بحيلة دبروها » . والذى يدل على أن الموضع المسمى عند العرب بأبى فطرس هو نفس المكان القديم الذى كان يسمى انتيپاتريس هو اسم فطرس (Futrus=Patris) والحادث نفسه . والموضع القديم الذى كان يسمى انتيپاتريس أو كفرسبا Kapharsaba (راجع Josephus Ant. 16, 142, 13, 390) كان يقع فى وادى العوجا عند الموضع الذى يجب أن نلتمس فيه حصن أبى فطرس بحسب وصف العرب . أما الشىء الذى لا يفهمه الإنسان فهو وصف الأمويين بأنهم نصارى فلا بد أن يكون هناك خطأ أو إدخال كلمة أضيفت إلى النص فيما بعد .

(٤) تجد مناظر مذابحهم فى كُتُب عند صاحب الأغانى جـ ٤ ص ٩١ فا بعـدها وعند ياقوت جـ ٤ ص ٢٤٤ .

سليمان بن على جلادهم فى البصرة ، أما فى الحيرة فقد أمر أبو العباس نفسه بقتل من حُمل إليه من بنى أمية أو من جاء إليه يلتمس الأمان . وكان من هؤلاء سليمان بن هشام ، الذى كان ألد أعداء مروان بن محمد ، فكان لذلك يعتقد أنه سينال الأمان التام . بل إنه بعد أن كفّ العباسيون آخر الأمر عن تعقب بنى أمية كان من بقى من هؤلاء لا يأمنون على أنفسهم لو ظهروا ، فظلّوا متسترّين ، وقضوا حياتهم فى الشدة والضر ، وكانوا دائماً يخشون أن يؤخذوا فيُقتلوا إن عرفهم الناس . ولم ينجُ منهم إلا حفيدٌ لهشام بن عبد الملك ، هرب إلى إسبانيا ووصل هناك إلى الرياسة .

ولكن أهل الشام الذين كان ملكهم حتى ذلك الحين ملكا سليباً أحنقهم آخر الأمر قتل أسرتهم السابقة واستئصال شأفتها على هذا النحو الفظيع ، ولم يكن حنق قيس على ذلك بأقل من حنق كلب . فثارت قيس فى قنسرين خاصة ، وكان على رأسهم أشرف رجل فيهم ، وهو أبو الورد مَجْزَأة بن كوثر ، أحد أحفاد زفر بن الحارث . وقد انضمت إلى قيس قبائل كلب فى تدمر ، كما انضم إليهم عرب حمص ، فبايعوا لأبى محمد السفيانى الذى كان مروان بن محمد قد خلّى سبيله فى آخر لحظة . وقد بايعه أبو الورد على أنه الوارث الشرعى للخلافة ، ولكن هؤلاء الثائرين هُزموا وشُتّت شملهم على يد عبد الله بن على عند مرج أخرم قرب قنسرين ، وذلك فى آخر سنة ١٣٣[1] هـ ، أى فى آخر يوليه سنة ٧٥١ م ، وقتل أبو الورد ومعه خمسمائة رجل من أهل بيته وقومه ؛ وهرب أبو محمد السفيانى فى أنصاره من كلب ، فتوجّه إلى تدمر أولاً ، ثم هام فى أرض الحجاز هارباً ،

(١) بحسب الطبرى ج ٣ ص ٥٥ كان ذلك فى آخر يوم من ذى الحجة سنة ١٣٣ هـ ، لكن ذلك اليوم لم يكن يوم ثلاثاء كما هو مذكور ، بل كان يوم خميس . أما تيوفانيس (فى أخبار سنة ٦٢٤٢) فهو لم يكن يذكر أن ذلك فى قنسرين بل حمص — ومن الجائز أن يكون قد وقع هناك قتال أيضاً .

حتى قبض عليه آخر الأمر ، وقتل فى أيام أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس . ومما يستلفت النظر أن أهل الشام انصرفوا عن بنى مروان الذين كانت فيهم الخلافة إلى السفيانيين الذين كانوا قد أزيلوا عنها ، وذلك أن المكانة التى وصل إليها أبو محمد السفيانى بعد مقتل الوليد بن يزيد على الفور ، لم تكن ترجع إلى صفاته الشخصية ، بل كانت ترجع إلى أنه لم يكن من أبناء مروان بن الحكم وعبد الملك ، بل من أبناء معاوية ويزيد ابنه . وهو لم يشتهر باسمه الخاص به بل بنسبته إلى بيت أبى سفيان ، فكان يسمى السفيانى ، بإطلاق هذه التسمية . ولم يختف شأنه بموته ، بل هو زاد ، فكان السفيانى يعتبر فى أول الأمر ، عند أهل الشام ، المهدى المنتظر ، وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسية على عودته إلى الظهور من جديد . وفى آخر الأمر ، لما آلت الرياسة إلى أعداء أهل الشام ، صار يقال إن السفيانى هو الرجل الذى سيظهر قبل ظهور المسيخ الدجال ، وعلى هذا فإن شبح بيت الأمويين قد بقى بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب نهاية الدنيا[1] .

٥ — وسمى العباسيون حكومتهم باسم الدولة ، أعنى العهد الجديد[2] . والواقع أن الانقلاب الذى كان قد تم فى ذلك العصر كان هائلاً .

وبسقوط بنى أمية انحدر أهل الشام أيضاً إلى الوراء ، وقد كانوا قبل ذلك قد أسلموا مروان بن محمد الذى كان بغيضاً إليهم ، إلى مصيره المقدر له . وهم

---

(١) راجع كتاب Snouck Hurgronje, Mahdi, p. 11 ومجلة DMZ ، سنة ١٩٠١ ص ٦٩٠ فما بعدها .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٥ س ١٦ وص ٩٦ س ١٩ ص ١٤٥ س ٩ ، وأبناء الدولة هم أهل خراسان الذين كانوا فى خدمة بنى العباس ، وكتاب الدولة — الطبرى ج ٣ ص ٤٩٧ س ١ — اسم لكتاب كانت فيه نبوءات عن مستقبل بنى العباس . أما فيما بعد فإن كلمة الدولة أصبحت تدل بوجه عام على الأسرة المالكة ، أو على المملكة . ويوجد شبيه لذلك فى تغير معنى كلمتى نوبة وعقبة (Hudh. 47, 38) ، ولكن المعنى الأصلى للكلمة ظل باقياً إلى جانب ذلك ، فكان يقال مثلا : صار المال دولة ، أى انتقل من يد إلى يد أخرى .

لم يهبّوا لمقاتلة بنى العباس قبل فوات الوقت المناسب ، وهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا الموقف ، فانتصر السواد وفقد البياض ملكه . ولكن أهل الشام ظلّوا فى الحقيقة على محبتهم لأسرتهم السابقة[1] ، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضاً ، ولكن جهودهم ذهبت سدًى ؛ لأنه كان يعوزهم التنظيم ، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد ، وهى أن القضية كانت قضيتهم وأنهم هم الذين خسروا ، فانتقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد ، وفقدت الشام سيادتها ، وتحررت العراق من نير السيادة الأجنبية بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عاتقها مائة عام فذهبت جهودها سدًى . ويبدى الآن أنها قد استعادت السيادة التى كانت لها فى أيام على بن أبى طالب . وقد صرح بنو العباس فى وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادّة للسياسة الشامية :

ولكن انتهت فى الوقت نفسه سيادةُ العرب بالمعنى الحقيقى ، تلك السيادة التى كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، وخرب وطن العرب القديم ، وأوحش إيحاشاً تاماً ، حتى صار الحج غير آمن ، ولم تصبح القبائل العربية هى العناصر التى تتكون منها الدولة التيوقراطية . وفقدت القبائل مكان الصدارة فقداً تاماً ، وتحرر الموالى ، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب . وبعد أن نُحّيت العروبة عن مكانها الذى كان يستند فى الأصل إلى قانون الحرب ، هذا القانون الذى لم يكن فيه محل لغير العرب ، تراجعت العروبة إلى الميدان المدنى المسالم ، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين — وكان أساس تلك الحضارة هو الدين . ولكن دين العرب لم ينهدم بانهيار الأمة العربية ، بل هو ازداد قوة ، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية فى

(١) ومن الطريف تلك الأخبار التى ذكرها الطبرى (ج ٣ ص ٢١٦٤ فما بعدها) ، وكانت الذكريات تتصل بمعاوية خاصة ، وقد رأينا أن قبره ظل يزار إلى ما بعد وفاته بقرون .

آسيا القريبة وإفريقية ، وإلى جانب ذلك رسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران ، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة .

بل قد رجح شأن الموالى على شأن العرب ، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه . وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر ، فقاسموهم الغنيمة ، وصاروا من وجه ما ، هم الورثة لسلطان أهل الشام ، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفاً غير موقف أولئك . فكانوا يسمون الشيعة والأنصار ، أو أبناء الدولة[1] ، وكانت فى يدهم القوة الظاهرة ، وكانوا منظمين تنظيماً حربياً ، وكانت فى أيديهم مناصب القيادة ، واستطاع قوادهم أن يظهروا بمظهر السادة الكبراء . وكان يتألف منهم الجيش المرابط حول الخليفة ، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذا ، هذا ولم يكن ابتناء بغداد فى الحقيقة لكى تكون حاضرة عالمية ، بل لتكون معسكراً لجند خراسان . وقد أراد الخليفة أن يقيم فى هذا المعسكر بعيداً عن الكوفة . ولكن أهل خراسان كانوا ، وهم فى معسكرهم ، على صلة بوطنهم ، ثم صار رُجحان شأنهم ، من حيث هم حزب وجيش فى خدمة بنى العباس ، رُجحاناً لأمتهم وبلادهم ، أى أن الكفة الراجحة صارت لبلاد العجم الشرقية ، وانتصرت العجمة (الإيرانية Iranismus) على العروبة تحت ستار الإسلام ، لا باعتباره ديناً للعرب ، بل ديناً للأمم .

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة طريقةُ الحكومة الداخلية أيضاً . أما إن النفوذ الفارسى كان هو الراجح فى ذلك فهو غير مؤكد ، فأما الذى لا شك فيـــه فهو أن نظام الحكم الداخلى لم يصبح عربياً على الإطلاق ، وكان العرب بحكم أنهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد فى الظاهر على البـــلاد التى تكونت منها دولةُ العرب ، وظل

(١) قارن إنجيل متى ، الأصحاح السابع عشر ، الفقرة الخامسة والعشرين .

هذا النظام القديم موجوداً فى خطوطه الكبرى أيام الأمويين ، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به فى أيام بنى العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات ، ولم يكن بنو العباس ، كما كان الأمويون قبلهم ، يقفون على رأس طبقة أرستقراطية واسعة النطاق وينتسبون إليها ؛ وذلك أن أهل خراسان الذين كان بنو العباس يستندون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبنى العباس أساسها وحدة الدم والاشتراك فى النسب ، بل كانوا مجرد أداة لهم . وكان جميع المسلمين أمام بنى العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبيعى فى الحقوق السياسية ، وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس فى الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبى عليه السلام ، ولم يكن أمامهم عقبات فى سبيل تنظيم الحكومة طبقاً للاعتبارات الفنية ، التى يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصلحتهم الخاصة ، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحاً كبيراً وأصلحوا خاصة نظام الخراج والقضاء . وقد أبدوا عناية كبيرة فى الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفى إزالة أسباب هذه الشكوى : ولكن بنى العباس أخمدوا فى الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة ، بعد أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين ، وأفلحوا فى إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون ؛ فأصبح المسلمون جميعاً ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم فى تدبير الأمور العامة للدولة ، فانحدروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التآمر سراً . وانكمشت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة ، وكان يحيط بالخليفة فى أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية ، ثم أصبح محوطاً بطائفة كبيرة جداً أيضاً من أبناء الأسرة من الهاشميين . ولكن كان ينتمى لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيشُ أيضاً ، وكانت نواة الجيش متجمعة دائماً فى مقر الخليفة ، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول

فحسب ، بل عن دمشق أيضاً . وكان فى بلاط الخليفة بعد هذا عدد كبير من الموظفين المدنيين ، ليسوا من قواد الجيش ، ومعظمهم كانوا صنائع للخليفة وأصحاب حظوة عنده ، وكانت غالبيتهم من الموالى ، وكان لهم فى أول الأمر تأثير من طراز تأثير أهل البطانة والمشورة الخاصة ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى أعلى المناصب الرسمية ، وكان الخليفة يرفعهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم يخفضهم فلا يجعل لهم شأناً . وكانت الكوارث والدسائس التى تؤدى إلى ذلك شيئاً جارياً فى بلاط الخليفة ، وكان الخليفة لا يقرّب إليه رجالاً من ذوى النباهة ، لهم شأنهم ونباهتهم التى لا ترجع إلى مجرد المنصب ، إلاّ على كره منه ، ولم يكن العباسيون يهتمون بالأرومة والنسب حتى فيما يتعلق بنسائهم ، فلم يكن كرم المحتد هو السبيل إلى الرفعة ، بل كان الخليفة هو الذى يرفع من يشاء ، فكان يمنح المكانة والجاه والكرامة بأنواع الكسى والحلل المميزة (الطراز) ، فكان الخياطون والذين يوشّون الحلل يجدون ما يشغلهم : وقد حل محل الأرستقراطية السابقة موظفون فى بلاط الخليفة بعضهم فوق بعض ، وكان بعضهم يتميز عن البعض ويشرف على عمله ، وكان على رأسهم وزير يدير الديوان ، وقد صار هذا الوزير فى عصر متأخر هو الممثل المرئى للخليفة غير المرئى ، بحيث صار الخليفة لا يظهر على المسرح إلا أشبه بممثل بين حين وآخر ، وصار يوضع على عرش الخلافة بعد عاصفة من النزاع والتوتر الشديد . ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظام يجعل أمراء الأمصار ينيبون عنهم من يدبر أمور الولايات التى تسند إليهم ، أما هم فكانوا يقيمون فى بلاط الخليفة ، خصوصاً إذا كان لهم ما يميزهم من انتساب إلى بيت الخلافة . وكان صغار الموظفين فى الديوان من اليهود والنصارى ، وكان من السهل أن يجلبوا على أنفسهم بغض جمهور المسلمين وحسدهم ، وربما كان السّياف هو أبرز شخص بين الموظفين فى بلاط الخليفة بعد الوزير ، ولم يكن

العرب يعرفون هذا السيّاف ، ولا كان للأمويين سيّاف . أما بنو العباس فلم يكن لهم عنه غنىً ، وكان النطع[1] الذى يوضع إلى جانب كرسى الخلافة ويقوم مقام خشبة الصلب من شارات الخلافة ، وكان القتل الذى ينفذ على الفور ، وكذلك تعمُّد التعذيب القاسى ، مما يزيد فى الرهبة من جلال الخلافة . وإذا كان العباسيون قد فعلوا ذلك فهم إنما كانوا يحذون حذو الفرس ، وذلك أن شاه الفرس كان له الحق فى أن يقتـــل رعاياه أو يبقيهم على قيد الحياة . وكذلك قلد العباسيون الفرس فى اتخاذهم للمنجِّم الذى كان للبلاط ، فكان يُسأل فيما يراد الشروع فيه من الأعمال الهامة ، بل كان يصحب الجيش فى الحملات الحربية . وأخيراً يجب التنبيه إلى أن استعمال عمال البريد كان من مميزات حكومة بنى العباس ، وكان أصحاب البريد فى الأمصار بمثابة حواس مرسلة من دار الخلافة إلى جميع النواحى ، وكانوا يُختارون من بين أهل الثقة ، وكانوا أيضاً عيوناً تراقب أمراء الأمصار دون أن يشعروا . فكان البريد فى خدمة الجاسوسية ، وكان نقل الأخبار فى تلك الدولة المترامية الأطراف منظماً أحسن تنظيم ، حتى نجد الطبرى فى أواخر كتابه لا يكتفى بذكر تاريخ الحوادث ، بل هو يهتم بأن يذكر تاريخ بلوغ أخبارها إلى دار الخلافة .

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم هو العلاقة بين الدولة وبين الدين ، فكان العباسيون يستندون فى حقهم فى الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هى العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه فى زعمهم ، وكانوا يقولون إنهم يريدون إحياء السنة النبوية التى قد درست ، فدعوا علماء الشريعة من المدينة ، وكانت مستقراً لهم حتى ذلك الحين ، إلى بغداد ، وكانوا دائماً يسألونهم رأيهم ، وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية فى ثوب فقهى

---

(١) الأنطاع هى فرش تتخذ من الجلد ، كان يوضع عليها من يراد قتله .

ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقاً للقرآن والسنة ؛ أما الحقيقة فهي أنهم كانوا يستغلون الإسلام في أغراضهم الخاصة ، وكانوا يربون علماء الشريعة في قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعداً عن الحق . وهكذا تخلص العباسيون من متاعب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجعلوهم مرجعاً لهم . ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها فهي تستطيع الآن أن تطمئن ، وذلك أن السياسة قد أصبحت في أيد أمينة ، وليس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها . ولما كان قد تحقق قيام الدولة التيوقراطية فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة . وقد أفلح العباسيون في أن يوجهوا الرأى العام هذه الوجهة ، وقد ساعدهم على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع ، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا في القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم .

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة ، بعد أن كانوا حلفاء لهم في أصل الأمر ، ولكن العباسيين غيروا سياستهم . وبعد أن كانوا يعتبرون العلويين وأنفسهم حزباً واحداً صاروا يعادون العلويين تفادياً لأطماعهم ، وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم ، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص . وعلى هذا فإن العباسيين فيما يتعلق بالدين قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب ، وتنكروا لأصل نشأتهم في طرف من الدولة بعد أن استقروا في وسطها وأصبحت في أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها ، وانقادوا لمذهب الجماعة التي ليس لها آراء خاصة ، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول ، وتكتفي بالمأثور المنقول الذي ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة .

على أن العباسيين من هذه الوجهة ساروا فى الطريق الذى سار فيه الأمويون ، رغم ما يبدو خلافاً لذلك ، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكاً بما عليه الجماعة وأشدّ ضرباً على أيدى الفِرَق التى تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية . ولما كان العباسيون ورثة الرسول عليه السلام فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجبهم لا يقتصر على النهوض بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية ، أعنى الإمامة . وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية ، فإن بنى العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس اتخذوه لهم . ويستطيع الإنسان أن يصف خلافتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Cäsareopapie) . وقد استعملوا من يطارد الزنادقة ، وأنشأوا نظاماً فى امتحان عقائد الناس ، وذلك بقصد تعقب الزنادقة فى أول الأمر ، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نابغة الشيعة الغلاة فى فارس .

وكذلك آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذًى فى أعين العباسيين ، فتخلص المنصور من وصاية أبى مسلم بعد أن أصبح غير محتاج إليه . ولم يكن للمنصور من الصفات الكبيرة ما يدانى به ما كان لأبى مسلم ، ولكن المنصور عرف كيف يكيد لأبى مسلم حتى قتله . على أنه فى أول الأمر لم يكن لبنى العباس من الناحية الحربية غنىً عن أهل خراسان ، بل لم يمكن القضاء على أهل خراسان أو تنحيتهم جانباً ، حتى فيما بعد ؛ وقد حاول العباسيون بعد موت الرشيد محاولة من هذا النوع ، ولكنها لم تؤد إلا إلى تثبيت أقدام الخراسانيين وزيادة قوتهم . وكذلك لم يفلح بنو العباس فى أن يتحرروا من سلطان أهل خراسان باتخاذهم عدداً كبيراً من الجند المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل السغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانيين . وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقعوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المماليك واستبدادهم ، خصوصاً

الترك من بينهم ، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة وانحلت دولتهم .

وقد احتفظ الأعاجم بمركزهم الذى جعلهم أصحاب السلطان فى الدولة نحواً من قرنين ؛ ولكنهم لم يستطيعوا ، على مرور الزمان ، أن يحتفظوا بسلطانهم فى وطنهم ، ولم يستطيعوا أن يصدوا تقدم الترك فى أرض ما وراء النهر وفى طخارستان وخراسان ، هذا التقدم الذى كان العرب قد ردوه ووقفوا سداً منيعاً فى سبيله حقبة من الدهر . وهكذا صار الترك آخر الأمر ورثة الدولة الإسلامية ، بعد أن كانوا قد عششوا فيها مماليك من قبل . ويستطيع الإنسان بالإجمال أن يعتبر المغول منهم ، هؤلاء المغول الذين لم يتوطنوا على كل حال فى بلاد الإسلام توطناً حقيقياً ، بل اجتاحوها كالعاصفة المدمرة دون أن يتركوا وراءهم سوى آثار الخراب .

(انتهى الكتاب بحمد الله)

فهرس الأشخاص

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن والمواضع

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ى)

فهرس الموضوعات والمواد

(ب)

(ت)

(ث)

(ح)

(ذ)

(ر)

(غ)

(ف)

(ق)

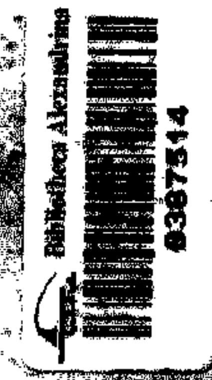
(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
٩ شارع الكرداسى — بعابدين